جمهرة مقالات
الأستاذ محمود محمد شاكر

جمعها وقرأها وقدّم لها

الدكتور/ عادل سليمان جمال

الجزء الأول

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

جمهرة مقالات
الأستاذ محمود محمد شاكر

جمعها وقرأها وقدم لها
الدكتور عادل سليمان جمال

الجزء الأول

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

« إنما حَمَلتُ أمانة هذا القلم لأَصْدعَ بالحق جِهارا فى غير جَمْجَمَة ولا إِدْهان . ولو عرفتُ أنى أعجَزُ عن حَمْل هذه الأمانة بحقّها لقذفتُ به إلى حيث يذِلُّ العزيز ويُمْتَهَن الكريم ... وأنا جنديٌّ من جنود هذه العربية ، لو عرفتُ أنى سوف أحمل سيفا أو سِلاحا أَمْضَى من هذا القلم لكان مكانى اليوم فى ساحة الوغى فى فلسطين ، ولكنى نَذَرتُ على هذا القلم أن لا يكُفَّ عن القتال فى سبيل العرب ما استطعتُ أن أحمله بين أناملى ، وما أتيح لى أن أجد مكانا أقول فيه الحق وأدعو إليه ، لاينهانى عن الصراحة فيه شيء مما ينهى الناس أو يخدعهم أو يغرر بهم أو يغريهم بباطل من باطل هذه الحياة » .

الرسالة ، العدد ٧٥٦ ، ديسمبر ١٩٤٧ ، ص ٣ ، ١٤ ،
المقالات ١ : ٤٩٠

« ولهذه الفصول غرض واحد ... هو الدفاع عن أمة برُمَّتها ، هى أمتى العربية الإسلامية ... فصار حقا علىّ واجبا أن لا أتلجلجَ أو أُحْجِم أو أُجَمْجِمَ ، أو أدارى ، ما دُمْت قد نَصَبْتُ نفسى للدفاع عنى أُمَّتى ما استطعت إلى ذلك سبيلا = وصار حقا علىّ أن أستخلص تجاربَ خمسين سنة من عمرى قضيتُها قَلِقاً حائرا ، أصارِع فى نفسى آثارَ عدوٍّ خَفِىّ ، شديدِ النِّكاية ، لم يَلْفِتْنى عن هول صِراعه شىءٌ ، منذ استحكمت قُوّتى واستنارت بصيرتى » .

أباطيل وأسمار ، ص : ١٠ - ١١

* * *

رحمة الله عليك يا أبا فهر ، رحمة الله عليك ! قَلْب الأمة الإسلامية المتوثب ، وعينها الساهرة ، وحصنها الحصين .

فإن تكن قد ذهبت إلى ربك راضيا مَرْضِيًّا ، ففى قلب هذه الأمة تعيش روحك الخالدة التى لا تفنى ، وفى قلب هذه الأمة يُحْفَر قبرك الذى لا يُنْسَى .

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

- ١ -

قصة الكتاب

الحمد لله الذى كرّم هذه الأمة بنور الإسلام ليخرجها به من ظلمات الجهل والشرك والطغيان ، والحمد لله الذى شرفها بجعلها مهبط آخر رسالاته وأتمها وأكملها ، والحمد لله الذى بعث منها سيد العالمين شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا بإذنه وسراجا منير ، وأرسله للناس كافة رحمة للعالمين ، ﷺ تسليماً كثيراً .

وبعد ، قابلت الأستاذ شاكر رحمه الله أول مرة عام ١٩٥٨ وأنا بعد طالب فى السنة الثالثة من دراستى الجامعية وقد وضّحتُ طرفا من ذلك فى مقالى عن كتاب طبقات فحول الشعراء [١] ، وكذلك فى مقدمة الحماسة البصرية (طبع مكتبة الخانجى) . وعلى فارق مابيننا من السن والعلم فقد وجد شيئا منى ينسرب فى نفسه ، وأنستُ أنا به كما أنس هو بالرافعى . ولزمت داره كل يوم تقريبا منذ مطلع الشمس حتى منتصف الليل ، أقرأ مقالاته فى الرسالة وسائر المجلات والصحف بعد أن أنتهى من عملى فى رسالة الماجستير . ومضت السنون وعرفتُ عن الأستاذ شاكر مالم أكن أعرف . وكنت شابا طُلَعة ، وكان هو شيخا طويل الصمت ، قارّ النَّفْس ، يرمى بعينيه وراء الحُجُب . ولكنى كنتُ أحسّ أحيانا أن صدره يضيق بما يكتم . فقد كان يخيم علينا صمت ثقيل بعد أن نصلى المغرب ونجلس فى شرفة منزله نحتسى الشاى . فإذا آنست أنى مُخْرِج منه بعضَ ما أريد ، أبديتُ رأيا أو تعليقا على بعض ماجاء فى المقالات من أحداث أو رجال سماهم

(١) انظر مجلة معهد المخطوطات ، المجلد ٤٢ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٩٨ ، ص ٩٥ - ١٤٠ .

أو أشار إليهم ولم يسمّهم . وتمضى الدقائق وكأنها ساعات ، وإنى لأشعر خلال ذلك بهذا الصراع المخيف بين إلحاح ما أَلِف وصلابة الأغلاق التى يضربها على ضمير نَفْسه وعناده الذى يأبى عليه الكلام عن نفسه ، وبين إلحاح هذا الهم الجاثم على صدره يريد أن يجد له مَسْربا ، فقد كان الأستاذ شاكر رحمه الله ، قاسيا عنيفا ، ولكنه كان رقيقا ألوفا أيضا ، وكان جلدا صبورا ، ولكنه ربما تخشّع واستكان للجزع ، وكان مستوحشا آبدا ، ولكنه ربما أَلِفَ وانقاد ، وكان كالطود رسوخا وشموخا ، ولكنى كنت أنفذ إليه أحيانا – عندما آنس فى نفسه هذا الصراع بين القوتين – فأجد الزلزلة فى قلبه ، والاضطراب فى نفسه ، والتهدج فى صوته . وعندئذ يشق كثافة الصمت الثقيل البهيم ويحدثنى عما أثرتُ بما شاء إلى أن يشاء ، ثم يعود إلى صمته المُصْمَت من جديد كأن لم يكن حديث . كان الأستاذ رحمه الله وديعا رقيقا باشًّا ألوفا ، وكان قلبه يفيض شفقة ورقة وحنانا ، ولكنه أصيب بكوائن بعد بوائق جعلت منه رجلا ظنونا منطويا حزينا فهو لذلك يضن بما فى قلبه أن يطلع عليه أحد إلا بمقدار مايريد هو .

ثم أزاحت ندوة يوم الجمعة صخرة عن باب كهف توارت فى أعماقه كنوز لفَّفها الزمن فى محاريبه ، ضمت الندوة رجالا مختلفى المشارب والأهواء ، منهم الساسة والأدباء والشعراء ، وعاشقو التراث ، ومحبو الأدب الحديث ، ورجال لا يمتون إلى العربية تخصصا أو احترافا ، ولكنهم واسعو الثقافة . وأذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الأستاذ رشاد مهنا ، والأستاذ حسين ذو الفقار صبرى ، والشيخ الباقورى ، والأستاذ عبد الله التَّل ، والأستاذ وديع فلسطين ، والأستاذ عبد الرحمن شاكر ، والأستاذ محمود حسن إسماعيل ، والأستاذ جلال كشك ، والأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، والأستاذ رشاد عبد المطلب ، والأستاذ سيد صقر ، والأستاذ حسن كامل الصيرفى ، والأستاذ فؤاد سيد ، والأستاذ ياسين جمعة ، والدكتور عبد الله غنيم والدكتور يعقوب غنيم والدكتور عبد الله محارب ، والأستاذ أحمد المانع والشيخ حَمد الجاسر والدكتور عبد الله الطيّب فى بعض الأحايين ، والدكتور أبو همام ، والدكتور إحسان عباس ، والدكتور

محمد يوسف نجم ، والأستاذ يحيى حقى ، والدكتور عبد الرحمن بدوى ، والأستاذ فتحى رضوان ، والدكتور ناصر الدين الأسد ، ناهيك عن طلبة العلم من كل حدب وصوب مثل الدكتور شاكر الفحام ، والأستاذ أحمد راتب النَّفَّاح ، والدكتور عبد القدوس أبو صالح ، وغيرهم ممن غابت عنى أسماؤهم الآن . وكنت أنا وغيرى من صغار الشباب ، خاصة الأستاذ عبد الحميد بسيونى ، والأستاذ الحسانى عبد الله ، وأخى المرحوم الطناحى والأستاذ على شاكر ، رحمه الله ، ننتشر فى مجالس القوم حيث يدور الحديث فى شتى المواضيع وتحتدم المناقشات وتصطدم الآراء ، وينبعث من غياهب الماضى ذكر رجال وأحداث ، فسمعنا ووعينا ، وعرفنا مالم نكن نعرف عن زمن لم نشهده ، ساعدنا على أن نفهم حاضرا نتمثله . وكنت شديد الانتباه لما يتعلق بالأستاذ شاكر ، فعرفت – إلى جانب ما حدثنى به عن نفسه كما ذكرت آنفا – أشياء أُخر عنه . واستبان لى حينئذ أننى لست أمام محقق أديب فقط [١] ، ولكن فى حضرة رجل مناضل مصرى عربى إسلامى ، نافح عن مصر وهاجم ساستها ، وهَوَى بِسنان قلمه طَعْنا فى الاستعمار البريطانى وأعوانه من بنى جلدته ونافح عن قضية مصر والسودان ، وقضية فلسطين وسائر قضايا البلاد العربية والإسلامية كما سيأتى بيانه .

فلما عرفتُ ماعرفت أدركتُ أن العزلة التى ارتضاها الأستاذ شاكر لنفسه منذ سنة ١٩٥٣ قد حالت بين جيلنا وبين عِرْفان نضاله فى سبيل أمته ، وأن هذا الجهل سيزداد إيغالا فى مطارح الزمن ، وستنشأ أجيال بعدنا أشد منا عمىً ، وأقبح جهلا ، وأَضْيَع لِذِكْرِه . فاستجمعت شجاعتى ذات مساء فى أواخر شهر إبريل سنة ١٩٦١ ، وقد آنست منه « انبساطا » ، فقد كان يحدثنى عن واقعة فَكِهَة حدثت فى « دُكَّان الحاج سَعْد المجلِّد » رحمه الله عصر ذلك اليوم ، وقلتُ : لى رجاء هو مِن حقّ جيلى عليك ، بل ومن حق الأجيال الآتية عليك أيضا . ففى كل أوان ، بل فى كل يوم ، ينشأ طالب علم لم يدرك زمنه ما كتبتَ فى المجلات

(١) كما عرفته من كتبه كتفسير الطبرى وطبقات فحول الشعراء وغيرهما ، ومن قراءتى عليه المفضليات والأصمعيات والمعلقات .

والصحف ، وعسير عليه أن يلتمسه فيهما مع تباعد أزمانهما وندرة توافرهما فى المكتبات . وسوف تُسْدِى إلى أُمَّتنا يدا لا تُنْسَى إذا جُمِعَت هذه المقالات فى كتاب . فارتد إلى صمته فجأة ، وتجهم وجهه شيئا ، ونحا ببصره إلى قِطْع من الليل جاثم من عن يمينه نحو رواق طويل تقوم رفوف الكتب على جانبيه ، وأطال النظر فى جوفه ، ثم قال بهدوء ، كهدوء البحر قبل العاصفة ، فى صوت يضطرب بعضه فى بعض اضطراب الموج فى تياره « أنا لا أحب أن أعيد نَشْر شىء كتبته وقرأه الناس قبلُ فى مجلة أو صحيفة » [1] . وقد اعتدت ألا أعاود الأستاذ شاكر فى شىء يعزف عن الكلام فيه ، فسكتّ مُكْرَها ، وكدت أُذَكِّره بحديث رسول الله ﷺ « مَن سُئِل عمَّا يَعْلَمُه فكتَمَه أَلْجَمَه الله بلجام من نار يوم القيامة » ، ولكنى هبت أن أجْبهه بمثل هذا الكلام ، وكدت أَفُوه بحديث آخر أَسْتَلِينه به : « زكاةُ العِلْم نَشْرُه » ، ولكنى أمسكتُ . ثم مضت ثلاث سنوات . وفى أواخر عام ١٩٦٤ بدأ لويس عوض نشر سلسلة من المقالات بعنوان « على هامش الغفران : شىء من التاريخ » ، فتصدَّى له الأستاذ شاكر يُفَنِّد مزاعمه ويُبِين عن الدوافع الحقيقية من وراء هذه المقالات . ونَشَرَ أول هذه الردود فى مجلة الرسالة ، العدد ١٠٨٩ فى ٢٦ نوفمبر ١٩٦٤ (٢٩ رجب ١٣٨٤) . فانبعث فى نفسى أملى القديم ، ولكنى سترته إلى حين – تحت رجاء ماظننتُ الأستاذ شاكر يستطيع ردّه هذه المرة بنفس الصرامة التى قابل بها رجائى السابق .

قلت له : إنى أظن ظنا أشبه باليقين أن لويس عوض سوف ينشر مقالاته هذه فى كتاب وسيكون بأيدى الناس فى هذا الزمان ومستقبل الأيام إلى ماشاء الله [2] ، فإن لم تفعل كما سيفعل ، فسوف ينتشر هذا العلم الفاسد الذى ضمنه كتابه بين

---

(١) وهذا شىء كنت أعلمه عن الأستاذ شاكر ، وبالغ فى ذلك حتى أنه كان يكره أن يستشهد بكلام كتبه من قبل . يقول مخاطبا محمد رجب البيومى « وأنا أكره أن أنقل كلاما لى من مكان ، ولكنك استكرهتنى على نقله » . وانظر مقال « ذو العقل يشقى » ، مجلة الرسالة ، العدد ٩٧٤ ، سنة ١٩٥٢ ، ص : ٢٤٥ ، والمقالات ١ : ٥٧٤ .

(٢) وقد صدق حدسى ، فقد نشر لويس عوض مقالاته فى « كتاب الهلال » ، العدد ١٨١ ، إبريل ١٩٦٦ .

طلاب العلم الناشئين والغافلين ، ويأخذونه على محمل الجد ، فهو نتاج رجل « من كبار مثقفينا » ، كما وصفه الدكتور مندور [1] ، فإذا كان هذا ظن الدكتور محمد مندور ، رحمه الله ، وهو من هو فى الأدب والنقد ، فما بالك بظن أشباه العوام وأنصاف المثقفين ؟ فالرأى أن تُجْمع مقالاتك وتنشر فى كتاب يتداوله الناس ، فيعرف من يقرأ حقيقة ماكتب لويس عوض ، ومن تصدوا للدفاع عنه . وتعمدت إثارة هذا الأمر فى ندوة يوم الجمعة وسرنى أن بعض الحضور كانوا قد سبقونى إلى اقتراح ذلك على الأستاذ خلال مكالمات هاتفية ، وكان الدكتور محمد رشاد سالم والأستاذ عبد الرحمن شاكر من أشد الناس تأييدا وتعضيدا . وبعد لَأْى وافق الأستاذ شاكر على جمع المقالات [2] .

وقد ظننت أن ماصدّر به الكتاب إيذان بهجران ما أَصَرَّ عليه من إلْفِه حيث قال : « وبعدُ ، فقد قَضَيتُ دهرا أحمل القلم وأكتبُ ، ولكنى ظَلِلْتُ أكره أن أنشر على الناس شيئا قد قرأوه من قبل فى صحيفة أو مجلة ، حتى إذا كان ماكتبتُه فى مجلة الرسالة منذ يوم الخميس ٢٢ رجب سنة ١٣٨٤ ، وجدت إلحاحا شديدا على جَمْع ما نُشِر وإخراجِه فى كتاب . وكانت حُجّة أصحابنا قاهرةً لِحُجَّتى ، ومزيلةً لما أصررتُ عليه من إلْفِى . وعسى أن أكونَ أخطأتُ الطريقَ حين أَلِفْتُ ما أَلِفْتُ ، وخِفْتُ أن أكون كتمتُ عِلْماً يَسَّره الله لى عن طالب عِلْم . ففى كل يوم ينشأ فى الناس طالبُ عِلْم لم يُدرِكْ زمانُه ماكتبتُ وعسيرٌ عليه أن يلتمسَه مع تفرُّقه فى الصحف والمجلات . فمن أَجْل ذلك لم أجدْ بُدّا من الاستجابة لأصحابنا ، راضِيا عنهم ، لائما لنفسى ، معتذِرا عما فَرَط مِنِّى » .

فانتهزتُ فرصة « هذا الرِّضَى » عمن أَسْدَوا إليه هذه النصيحة ، وتَبَيّنِه طريقا كان قد أخطأه ، ثم لاح له لاحِبًا مُسْتَبِيًّا ، ففاتحْتُه فى أمر جَمْع المقالات وإخراجِها فى كتاب ، لا لِمَ ذَكَرَه فى تصدير الكتاب فقط ، بل لكى يرى جيلى

---

(١) أباطيل وأسمار « الطبعة الثانية » ١٩٧٢ ، ص : ٢٠٠ .

(٢) نشر الجزء الأول بعنوان أباطل وأسمار سنة ١٩٦٥ ، ثم صدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٧٢ عن مطبعة المدنى ، القاهرة .

والأجيالُ التالية كفاحه في سبيل أُمّته منذ بدأ يحمل القلم . ولكن حظي من الإجابة لم يكن بأمثل مما كان منذ ثلاث سنوات ، فأمسكت مرة أخرى .

وفي عام ١٩٦٩ بدأ الأستاذ شاكر سلسلة مقالات في مجلة المجلة بعنوان « نَمَطٌ صعب ، ونَمَط مخيف » ، نشر أولها في العدد ١٤٧ ، إبريل ١٩٦٩ ، وآخرها في العدد ١٥٩ ، مارس ١٩٧٠ . وأيقنت – مخطئا – أنه جامعها ومخرجها في كتاب . ولكن خاب ظني (والظن هنا بمعنى اليقين) . لله كيف كان وَقْع هذا اليقين الخاطيء ! فلم تخرج في كتاب إلا بعد ست وعشرين سنة (١٩٩٦) !

في صيف عام ١٩٧٨ قبل سفري إلى الولايات المتحدة لأعمل أستاذا بجامعة أريزونا أخبرني المرحوم الدكتور محمد رشاد سالم أن النية معقودة على إخراج كتاب يُهْدَى إلى الأستاذ شاكر بمناسبة بلوغه السبعين ، وطلب مني أن أشارك بفَصْل فيه ، ففعلتُ ، وأوصاني بكتمان الأمر حتى لا يصل إلى سمع الأستاذ ، فامتثلتُ . ولكن الأمر بَلَغ أسماعَه ، وأَدَعُ الدكتور محمد رشاد سالم يحدثك عما وقع : « وكان من المفروض أن يصدر هذا الكتاب منذ سنتين ، إلا أنه بعد أن مضتْ اللجنة في عملها واتصلتْ بالأساتذة المشاركين ، وتلقَّت عددا كبيرا من المقالات ، عَلِمَ « أبو فهر » بما نحن مُقْدِمون عليه ، فعَرْقَل عَمَلَنا وحَيَّرنا . وكاد أن يرفض المبدأ ، حتى نجحنا في إقناعه والاتفاق على استمرار اللجنة » [١] .

وقول الدكتور رشاد سالم « فعَرْقَل عملنا وحيَّرنا » كلام في حاقٍّ موضعه إزاء إعادة نشر الأستاذ شاكر أعماله أو الكتابة عنه . فأما « عرقلة » عملي في جمع مقالاته فقد ذكرت طَرَفا من ذلك قبلُ وأمسكتُ عن بقية هنا موضعُها . كان الأستاذ شاكر – كما ذكرت – قاسيا عنيفا ، ولكنه كان أيضا رقيقا وديعا ألوفا حنونا ، فلم يشأ أن يقابل ما أردت من الإحسان بالإساءة والنكران ، فقال متلطفا : هذا عمل بالغ التعقيد يتطلب جهدا ووقتا أنت أحوج إليهما حتى تنتهي من رسالتيْ

---

(١) درسات عربية وإسلامية ، مطبعة المدني ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ١٠ م .

الماجستير والدكتوراه . أما « الحيرة » فإننى عندما انتهيت من كتابة رسالة الدكتوراه فى ديسمبر سنة ١٩٦٨ رجع الأستاذ إلى إِلْفِه الذى أَلِفَ ولم يأذن لى ، وقال متلطفا أيضا : إنك ستحتاج عما قريب إلى عمل جيّد يمكّنك من الترقية ، ولن تستطيع أن تنالها بجمع مقالاتى ، هذا فضلا عن بعدها عن مجال تخصصك فى الأدب القديم . فسكت مرة ثالثة على مضض ، ولكنى لم أيأس ، فقد كنت ، ولم أزل ، « صعيديا » مثله .

اضطلع الأستاذ جمعة ياسين جزاه الله خيرا بمشاركته فى كتاب « دراسات عربية وإسلامية » بحصر ماكتب الأستاذ شاكر من مؤلفات وتحقيقات ورتبها حسب زمان صدورها بادئا بسنة ١٩٢٦ ومنتهيا بسنة ١٩٨٢ . فأسدى إلى القراء فضلا عميما ، وكان ذلك عونا لمن كتبوا رسائل جامعية عن الأستاذ محمود شاكر مثل الأستاذ محمود إبراهيم الرضوانى (١٩٩٥) ، والأستاذ عمر حسن القيام (١٩٩٧) ، والأستاذ إبراهيم الكُوفَحى (٢٠٠٠) . أما بالنسبة لى فقد ذُلِّلَتْ عقبةٌ كَأْداء ، فقد بات كل شىء تقريبا كَتَبَه الأستاذ شاكر حتى هذا التاريخ معروفا : عنوانه ومكان نشره وتاريخه ، وما علىّ إلا النسخ أو التصوير .

أجمعت أمرى ولممت شتات نفسى وفاتحته مرة رابعة فى صيف ١٩٨٥ فى جمع المقالات ، فمواضعها وتواريخها الآن معروفة ، وقد دلَّ هو بنفسه الأستاذ جمعة ياسين على أكثر أماكنها ، هذه واحدة . نلتُ درجة « أستاذ » عام ١٩٨٠ ، وبذلك لم أعد مضطرا إلى كتابة أبحاث ذات طابع خاص يتصل بمجال تخصصى ، هذه ثانية . فلم يبعد ولم يقارب ، وقال « ربنا يسهّل » وعلت وجهه ابتسامة خفيفة ، ونظر إلىّ كالمتعجب من إصرارى على مدى أربعة وعشرين عاما . ومضت السنون ولم يأذن الله بالتسهيل . ولكنى استبشرت خيرا ، فقد كنت أتحسس الأخبار من أخى الأصغر الدكتور فهر ، وعلمت أن الأستاذ شاكر صوّر بعض المقالات وكذلك فعل بأشعاره . ولكن حال الأَجَل دون تحقيق الأمل ، فقد توفى رحمة الله عليه فى ١٩٩٧/٨/٧ .

* * *

- ٢ -

منهج الكتاب

وفى صيف العام التالى فاتحت الأستاذ عبد الرحمن شاكر والسيدة أم فهر والدكتور فهر بعزمى على جمع مقالات الأستاذ شاكر وشعره أيضا فوافقوا شاكرين ممتنِّين . وأعطانى الدكتور فهر كل ما وجده مما جمعه الأستاذ ، فقمت بمقابلته على سرد الأستاذ جمعة ياسين من مؤلفات الأستاذ ، ثم بدأت رحلة شاقة مضنية مع المجلات والصحف التى نشرت فيها المقالات والأشعار ، فاستكملت مانقص ، ثم نظرت فى بعض ملفات الأستاذ الخاصة ، فوجدت مقالة بخط يده وبعض أشعار لم تنشر . فلما استوى لى ذلك كله بدأت بالمقالات ، ورأيت أن أرتبها حسب ورودها فى المجلات والصحف ، فأضع فى مكان واحد كل ما نشر فى مجلة الرسالة مثلا ، ثم مجلة الزهراء مراعيا أثناء ذلك أسبقية تواريخ النشر . وقد وجدت عنتا شديدا فى قراءة المقالات التى نُشِرت فى الصحف كالبلاغ والمقطَّم والدُّستور والأهرام ، فقد طَوَى الأستاذ هذه المقالات نِصفَيْن نِصفيْن ، فتَهَرَّأ مكانُ الطَّى وتآكلَ ، فضاع مايقرب من سَطْريْن بعَرْض المقال فى كل صفحة ، ولكننى خلال زيارتى لمكتبة الكونجرس الأمريكى بمدينة واشنطن استطعت أن أحصل على « ميكروفيش » فيه المقالات كاملة واضحة ، فأقمت النصوص ، والحمد لله .

وبعد أن مَضَيْتُ شوطا ، رأى الأستاذ عبد الرحمن شاكر أن أدعَ المقالات إلى حين ، وأبدأ بجمع أشعار الأستاذ شاكر أوَّلا ، وكان له فى ذلك حُجَّة مُقْنِعة ، لستُ فى حِلّ مِن ذكرها ، ففعلتُ ، وقد بيَّنْت طَرَفا مِن ذلك فى مقدمة الديوان . حتى إذا أتممتُ مراجعة الديوان وشرحه والتقديم له ، عكفت على المقالات سنتين أُخريَيْن . ولم يكن ترتيبها حسب المجلات والصحف التى نُشِرت فيها تبعا لأقدمية تواريخها بالأمر السهل . وشاركنى أخى محمد الخانجى هذا العَنَت فى صَبْر وأَناة ، فقد كان يقوم بصَفّ كل مقال أعثر عليه بغضّ النظر عن تاريخه

أو مكان نشره ، ثم عُدْنا بعد ذلك لنضع كلَّ مقال مع مجلته أو صحيفته التى نُشِر بها فى نسق تاريخى ، واستدعى ذلك كثيرا من التقديم والتأخير خاصة فى الجزء الثانى . واضطررت فى أحيان قليلة أن أتخلّى عن هذا النسق التاريخى إذا كانت هناك مجموعة من المقالات فى موضوع واحد تخللها مقال أو أكثر فى موضوع آخر ، فكرهت أن يفرق تاريخ النشر بين تتابع المقالات ، فجعلت هذه المقالات آخذًا بعضها برقاب بعض حِفاظا على وحدة موضوعها .

حاولت جهدى أن أقرأ المقالات بدقة ، فصحَّحتُ بعض مابدا لى فيها من أخطاء ، وعسى ألا أكون قد أخطأت الطريق ، ووضعت التشكيل حيث ظننتُ أنه مُزيل لِلَبْس أو مُعِين على فَهْم ، وشرحتُ بعض ألفاظ ، أوضحتُ بعضَ ما استشهد به الأستاذ مما يجرى مجرى الأمثال ، أو يكون جزء من حديث شريف ، أو غير ذلك . وللأستاذ شاكر شروح قليلة أثبتُّ أمامها اسمه (شاكر) .

وكنت أنوى - لتمام العمل - أن أفعل ثلاثة أشياء ، أولها : أن أكتب مقدمة ضافية ، كما فعلت فى مجموع شعر الأستاذ . ثانيها : أن أترجم لجميع الأعلام الذين وَرَدُوا فى سياق المقالات ، ولو ترجمة موجزة . صحيح أن بعض هذه الأعلام معروفة كالأستاذ سيد قطب والأستاذ مصطفى صادق الرافعى والأستاذ العقاد ، ولكن صحيح أيضا أن بعضها غير معروف خاصة للأجيال التى لم تشهد هذا الزمان مثل الأستاذ صبحى البَصَّام ، والأستاذ محمد رجب البيومى ، أطال الله بقاءه ، والأستاذ محمد عبد السلام القبَّانى وغيرهم . ثالثها : أن أجعل ذيلا للكتاب يَضُمّ المقالات التى نقدت بعض كتابات الأستاذ شاكر ، مثل نقد كتاب طبقات فحول الشعراء للأستاذ سيد صقر رحمه الله ، أو ردت عليه نَقْده ، مثل مقالات الأستاذ سيد قطب بشأن الرافعى والعقاد ، ومقالات الأستاذ بشر فارس ، والأستاذ محمد عبد الغنى حسن وغيرهم كثير .

ولكن الأستاذ محمد الخانجى - لدواعى النشر - رأى أن ذلك سيضيف مايقرب من ثلاثمئة صفحة أخرى ، فَتخلّيت عما نَوَيْتُ .

أما المقدمة الضافية ، فسوف أضمّ إليها المقدمَة التى كتبتُها لمجموع شعره « اعْصِفى يارياح وقصائد أخرى » وقد نقَّحتها وزدتُ فيها دراسةً فنية لأسلوب شِعْر الأستاذ شاكر ، فسوف أنشر ذلك جميعا - إن أَذِن الله - فى كتاب مستقلّ . وأما تراجم الأعلام ، فلن تشكِّل عبئا كبيرا للقارىء الذى يريد أن يستزيد ، فأكثرها موجود فى كتاب الزركلى ، والموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة . أما ثالث هذه الأشياء ، فقد أشرتُ فى الهوامش إليها ، وبيّنْتُ عنوانَ النَّقْد الذى وُجِّه إلى كتابات الأستاذ ، ومكانَ نشره وتاريخَه ليرجع إليه مَن يشاء .

* * *

يقول الأستاذ شاكر رحمه الله فى المقدمة التى صدَّر بها كتابَ الأستاذ سعيد العريان عن « حياة الرافعى » :

« ولو يَسّر الله لكل شاعر أو كاتب أو عالم صديقا وَفِيًا ينقُله إلى الناس أحاديثَ وأخبارا وأعمالا - كما يسَّر الله للرافعى - لما أضلَّت العربية مَجْدَ أدبائها وعلمائها ، ولما تفلَّتَ من أدبها عِلْمُ أسرار الأساليب وعلمُ وجوه المعانى التى تَعتِلج فى النفوس وتَرْتِكض فى القلوب حتى يُؤْذَن لها أن تكون أدبا يُصْطَفَى ، وعِلْما يُتَوارَث ، وفنًّا يتبَلَّجُ على سَواد الحياة ، فتُسْفِر عن مَكْنونها متكشِّفَة بارزة تتأنَّق للنفس حتى تستوى بمعانيها وأسرارها على أسباب ودواعى السرور وما قبلُ ومابعدُ » .

ويقول فى كلامه عن ذكرى الرافعى (المقالات : ١٧١) : « إن هذا التراث الذى خلَّفه الرافعى للأدب العربى ، قد جعله الله أمانة بين يدى « سعيد » . فهو يؤدِّى اليوم هذه الأمانة وافيه كاملة لم ينتقص منها شىء - إلا أن يُعْجِزه أن يهتدى إليه أو يقع عليه . وغدا يجد الناس بين أيديهم كلَّ ما كتبه الرافعى حاضرا لم يَضِعْ منه شىء منه ، وكذلك يجد من يريد سبيلَه إلى معرفة الرافعى من قريب وتقديره والحكم إما له وإما عليه » .

فلتَقَرَّ عَيْناً أستاذنا الجليل ، فقد يَسَّر الله لك - كما يَسَّر للرافعى - ابْناً بارًّا

وصديقا وَفِيًّا وتلميذا مَدِينا لك بالفضل يَنْقُل عِلْمك للناس حتى لا تَضِلَّ العربية مَكْنونَ عِلْمك ، ولا فاضلَ أَدبك ، ولا أسرارَ أساليبك ، وحتى يصبح ما خَلَّفْتَ أدبا يُصْطَفَى ، وعِلْما يُتوارَث ، وخُلُقا يُحْتَذَى ، وهَدْيا لأجيال خَشِيتَ أنت عليها وعورةَ المسالك ومَتالفَ الطريق .

وعسى أن أكون قد أدّيتُ الأمانة - التى اخترتُ أن أحملها بظُلْمى وجهلى - وافية كاملة لم ينقص منها شىء إلا ما أَهْمَلْتُ لعجزى وتقصيرى ، أو لم أقع عليه لسهْوِى وغفلتى ، وتَشتُّتى بين البلاد وغُربتى . ولإخوانى من أهل العلم والفضل سابق شكرى إذا تكرموا علىّ ودلّونى على ماعجزت عن الاهتداء إليه .

وأدعو الله أن ييسر لهذه المقالات علماء شتى ، كُلًّا فى مجال تخصصه ، خاصة فى مجال الفكر السياسى ، والدراسات الاجتماعية . وأُهِيب بالمتخصصين فى اللغويات Linguistics وعلماء اللغة بالنظر فى مقالاته الثلاث عن « علم معانى أصوات الحروف » وآرائه الأخرى المبثوثة فى ثنايا المقالات ، كما فى مقال « الطريق إلى الحق » ، « المُنْطَلِق » ، « وبِشْر أيضا » وغيرها ، ثم بعد ذلك وفوق ذلك مابثه فى « نَمَطٌ صَعْب ونَمْط مخيف » . كما أحثُّ نُقَّاد الأدب على إنعام النظر فى مقالاته الخمس بعنوان « من مذكرات عمر بن أبى ربيعة » ، فهى وإن اعتمدت أشخاصها وبعض أحداثها على حقائق تاريخية ، فهى أَدَبٌ مُنْشِىء Creative Literature . كما أدعوهم إلى تدبُّر مقالاته الثلاث عن « شاعر الحب والفلوات : ذو الرمة » ، فهى نمط فريد من الدراسة ، ليس تاريخا لحياة الشاعر ، وليس تحليلا لشعره ، وإنما هى تَدسُّسٌ فى مشاعره وأحساسيه وآماله وهواجسه ، حتى لكأنك مع الشاعر مع مأساة حُبّه يوما بيوم . كما أدعوهم أيضا إلى التوقّف أمام مقالاته الثلاث « إلى أين ؟ » ، فهى تجمع بين السيرة الذاتية ، وفن « المقال » فى أرفع مناحيه . ثم فَلْيَحُطُّوا الرِّحال لوَقْفَة طويلة أمام مقالاته الثلاث « المتنبى : ليتنى ماعرفتُه » وتحليله الرائع الدقيق لعملية « الإبانة والاستبانة » .

وأنا أدعو النقاد الذين أخذوا بحظّ وافر من الثقافة الغربية - وهم كُثْر ، والحمد لله - للنظر فى كل ذلك حسب أصول النظر الغربى ، لكى يستبين أن

هذا الرجل الفَذّ نَسِيج وَحْدِه قد نَفَذ إلى أسرار نظريات شتى يَحْلو لنا أن ننسبها إلى علماء الغرب وحدهم ، ونستشهد بكلامهم تأييدا لما نقول ، غير ناظرين إلى مرمى ليس أبعد من موضع سجودنا .

* * *

- ٣ -

كلمة واجبة

إذا كانت ظروف النشر قد حالت دون كتابة مقدمة دراسية لهذه المقالات النفيسة ، فلأقتصر هنا على بيان جانب معين فى شخصية الأستاذ شاكر ، وعسى أن يكون فى ذلك بيانٌ لما أسلفته فى « قصة الكتاب » من كراهية الأستاذ شاكر لإعادة نشر شيء سبق له نشره .

حقق الأستاذ شاكر كُتبا معروفة ، وكتب دراسات عن الأدب العربى مذكورة ، ونظم أشعارا فريدة ، خاصة القوس العذراء ، ولكن فعل ذلك كثيرون غيره ، وإن لم يلحقوا به فى هذا المضمار . غير أن أعماله قوبلت بالصمت المُنْكَر زمنا طويلا ، وتوالت الدراساتُ والرسائل الجامعيةُ عن محقِّقِين وكُتّاب وأدباء وشعراء دون الأستاذ شاكر علما وموهبة ، وماكُتِبَ عنه حتى دخوله فى العزلة التى ارتضاها لنفسه سنة ١٩٥٣ لا يعدو أن يكون نقدا لبعض ماكتب أو تقريظا لا يتجاوز أسطرا معدودات ، ولأضرب مثالا واحدا بشعره ، فالشعر أكثر سيرورةً وقُرّاء من تفسير الطبرى أو طبقات فحول الشعراء . قلت فى مقدمة مجموع شعر الأستاذ شاكر « اعْصِفِى يارياح وقصائد أخرى » ص : ١٣٥ - ١٣٦ مايلى « والعجب كل العجب أن يُهْمَل هذا الشعر حتى الآن . فإن قلتَ : ربما كان ذلك لأنه كان مُفَرَّقا فى مجلتىْ المقتطف والرسالة ، فعَزَّ تيسُّرُه فى أيدى الباحثين . قلتُ : كذلك كان شعر بعض شعراء مدرسة أبوللو الذى عكف عليه الدكتور محمد مندور رحمه الله ، وهم لا يدانون الأستاذ شاكر فى شاعرية أو فكر » . وإذا كان التماسُ هذا الشعر لِتفرُّقِه فى المجالات أمرا عسيرا حال دون دراسته ، فكيف نفسر موقف النُّقَّاد من « القوس العذراء » ، فهى قصيدة طويلة جدا ظهرت أول مرة فى مجلة الكتاب (المجلد ١١ ، عدد فبراير ١٩٥٢) ، وقدم لها الأستاذ عادل الغضبان بكلمة تقريظ قصيرة بعنوان « توطئة » ص : ١٥٤ . وفى عدد مارس ١٩٥٢ من نفس المجلة كتب الأستاذ جمال مرسى بدر كلاما

لايتعدى صفحة واحدة مزج فيه تقريظا بنقد ، قال ص : ٣٨٠ « وقفت طويلا عند ملحمة القوس العذراء للأستاذ الكبير محمود محمد شاكر مأْخُوذا بمحاسن هذه الخريدة الفريدة ، مُمَتِّعا الروح بما حوت من خيال رائع ، ونسيج متين . غير أنى لاحظت فى قليل من أبيات مطلع هذه القصيدة العصماء خَلَلا أَفْقَد نغمها انسجامه » ، ثم أورد ثلاثة أبيات هائية (فقضاها ، رآها ، سَوَّاها) ورأى أن زيادة تفعيلة فيها أخلت بوزن مجزوء الرمل . ثم نشر الأستاذ محمد سعيد المسلم فى نفس المجلة (المجلد ١٢ ، عدد فبراير ١٩٥٣ ، ص : ٢٩٣ - ٢٩٥) نقدا تابع فيه الأستاذ جمال مرسى ، حيث زاد أربعة أبيات من الهائية ، وهى البيت السادس ، وفيه زيادة كلمة ، والبيت التاسع وفيه زيادة كلمة ، والبيتان السابع عشر والثانى والعشرون ، وكلاهما يزيد تفعيلة . ثم أورد الأبيات الثلاثة التالية لذلك وهى (فَداها ، وشاها ، هواها) وعلق عليها قائلا : « فذوقى يقف إزاء هذه الأبيات الثلاثة المُدَوَّرة حائرا ! لا يدرى ! كيف يرجعها إلى أى بحر من بحور علم العروض ؟؟ أتراها بحورا جديدة اخترعها الشاعر ؟ » (ص : ٢٩٤) . وأورد بيتا من اللامية فيه خلل .

ثم نُشِرَت القصيدة فى كتاب مستقل من القطع الصغير سنة ١٩٦٤ ، فكتب عنها أستاذنا المرحوم الدكتور زكى نجيب محمود (مجلة الكتاب العربى ، العدد : ١٥ ، سنة ١٩٦٥ ، ص : ١١ - ١٥) مقالا هو بالمدح والتقريظ أشبه منه بالدرس والتحليل .

فكما ترى لم يكتب شىء جاد عن هذه القصيدة الفريدة طوال ثلاثة عشر عاما من تاريخ نشرها . ثم مضت سبعة عشر عاما أُخَر حتى كتب عنها الدكتور إحسان عباس - أطال الله بقاءه - والدكتور محمد مصطفى هدَّارة ، رحمه الله ، دراستيْن قيمتيْن فى الكتاب الذى أهديناه للأستاذ شاكر بمناسبة بلوغه السبعين ، وطُبع سنة ١٩٨٢ . ولا أَدْرِى إذا كان الأستاذان الجليلان سيكتبان عن هذه القصيدة لولا الكتاب ؟ لا أدرى ! وقد حاول الدكتور إحسان عباس أن يُعلِّل سبب إهمال الدارسين لها بما فيهم هو نفسه ، وهو تعليل لم أجد فيها مَقْنعا (ص ١٣ - ١٤) .

فهذِى ثلاثون سنة من الإهمال والتغاضى والجحود والنكران لإنتاج علّامة فذّ ، لم يَجُد الزمن بضَرِيبة له منذ عبد القادر البغدادى .

وليت الأمر من إهمال مُسْتشنَع اقتصر على عِلْم الأستاذ شاكر وجهوده فى ميادين التحقيق والأدب والشعر ، بل تعداه إلى ماهو أشد وأنكى وأبشع ، تعداه إلى كفاحه الطويل وجهاده العنيد فى شمم وإباء وعزم ومضاء فى سبيل أمته العربية : أرضها ، ووحدتها ، وحريتها ، وقوميتها ، ودينها ولغتها . فهو كما قال عن نفسه بحق - ونقلت ذلك فى صدر هذا التقديم - إنه جندى من جنود العربية ، نصب نفسه للدفاع عن أمته .

دافع عن مصر دفاعا مجيدا وهاجم ساستها هجوما عنيفا ، واتهمهم بأنهم صنائع بريطانيا ، شَنَّ عليهم وعليها غارة شَعْواء ، وتمسَّك بشِعار فتى مصر مصطفى كامل رحمه الله « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » . يقول الأستاذ شاكر مخاطبا من اختاروا حَلَّ القضية المصرية عن طريق التفاوض مع بريطانيا « وليعلم هؤلاء المفاوضون أنهم لا يملكون التصرف فى رقاب أهل مصر الحاضرين ، ولا فى رقاب الأجيال الآتية ، وأنهم وإن كانوا مصريين كراما ، إلا أن مصر خالدة على وجه الدهر ، وهى أكرم على أبنائها ورجالها الآتين ... ونحن الشباب الناشىء نعرف أن الحياة لا معنى لها إذا خلت من الشرف والكرامة ، وأن الشرف والكرامة عندئذ هى الموت . فَلْنَمُت كراما صادقين ، فذلك خير من أن نعيش أذلّاء مُسْتَعْبَدِين »[1] .

ونافح عن قضية وادى النيل ، فهو مصرى سودانى ، وإن شئت سودانى مصرى ، يقول واصفا العلاقة بين شطرى الوادى « فالحقيقة التى ينبغى أن لا نتمارَى فيها بالعصبية أو الكبرياء هى أن السودان سيد هذا الوادى الذى يمده النيل بمائه . وإذن فالسودان هو أحق الشقيقين باسم الدولة ، فإما أن يسمى وادى

---

(١) « اسلــمى يامصر » ، مجلة الرسالة ، العدد ٦٩٤ ، سنة ١٩٤٦ ، ص ١١٥٩ ، والمقالات ١ : ٣١٣ .

النيل كله باسم الدولة المصرية برضَى أهل السودان ، أو أن يسمى هذا الوادى باسم الدولة السودانية برضى أهل مصر » [١] . لذلك انتقد ساسة مصر والسودان الذين قبلوا أن يفصلوا بين قضية مصر وقضية السودان ، فقد كان من سياسة بريطانيا قديما أن تمزق وحدة شعب وادى النيل ، فأوجدت رجالا يتطلعون إلى مناصب الحكم كما يتطلع الظمآن إلى الماء . وكان من سياسة بريطانيا أن تلاين وتساير حتى يصبح السودان شيئا قائما بذاته وقضية منفصلة عن قضية مصر . « وكان من سياستها أن تُغْرِى شهوات قوم من أهل السودان بالحكم أو السلطان ، ففعلت ، وانقسمت فئةٌ من أبنائه مُضَلَّلين بوعود كاذبة لم تتحقق . وخرجت عن بقية الشعب مؤُزَّرَةً بالمال فَفَجَرت ومَرَدَتْ ، وبريطانيا من ورائهم تنفُخ فى نيرانهم حتى يأتى اليوم الذى يجعلونهم فيه حَرْبا على بلادهم وهم يظنون أنهم يفعلون لخيرها وفلاحها » [٢] . لذلك دعا شعبَ مصر والسودان إلى تأبييد الوفد المصرى السودانى الذى سيَعْرِض القضية المصرية السودانية على مجلس الأمن ، وإن لم تجتمع لأعضاء هذا الوفد الصفاتُ التى ينبغى أن تجتمع لوفد مثله ، « لأن الشعب المصريَّ السودانى شعب كريم ذكيُّ الفؤاد ، تجتمع قلوبُه عند المحنة يدا واحدة على عدوِّه الباغى إليه الغوائل » [٣] . ومن ثم فقد وجَّه نداء إلى السيد المهدى أن يضع يده فى يد أخيه السيد الميرغنى ويخرجا على بريطانيا مرة واحدة ، ويعلنان أن مصر والسودان أُمَّة واحدة ، وأن بريطانيا كاذبة فيما ادّعت علينا وعليهم ، وأن لا حياة لأحد الشطرين إذا اقتطع عن صاحبه [٤] .

---

(١) « مصر هى السودان » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٠٨ ، سنة ١٩٤٧ ، ص ١٠٥ ، المقالات ١ : ٣٥٧ .

(٢) « قضى الأمر » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٢٦ ، سنة ١٩٤٧ ص : ٦٠٨ ، المقالات ١ : ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) « شهر النصر » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٣٤ ، سنة ١٩٤٧ ، ص : ٨٣٦ ، المقالات ١ : ٤٢٥ .

ووادى النيل - مصر والسودان - هو البلد الذى وُلِد فيه الأستاذ شاكر ، وعاش فى شطره الثانى والده الشيخُ محمد شاكر أربع سنوات تولى فيها منصب قاضى القضاة ، ولكن وادى النيل ماهو إلا جزء لا يتجزأ من الأمة العربية . والأستاذ شاكر مؤمن بهذه الأُمّة وبوحدتها واستقلالها « لا يحتلُّ عراقَها جنديٌّ واحد ، ولا تخضع جزيرتها لسلطان ملوك البترول [١] ، ولا ينال نيلَها من منبعه إلى مصبه سلطانٌ بريطانى أو غير بريطانى . ولا تقع شامُها ولُبْنانها تحت سطوة غاصِب ، ولا يعبث فى أرجها مَغْرِبها فرنسى خبيثُ القول والفعل مجنونُ الإرادة . هذا كلُّه شيء لا يملك كائنٌ مَن كان أن يُجْبِرنا على خِلافه أو على الرِّضَى بِه » [٢] .

« وينبغى أن لا نرضى منذ اليوم أن نُفَرِّق قضيةَ العرب ونجعلها قضايا ممزَّقة : هذه قضية مصر والسودان ، وتلك قضية فلسطين ، والأخرى قضية طرابلس وبرقة ، والرابعة قضية تونس ، والخامسة قضية الجزائر ، والسادسة قضية مراكش ، والسابعة قضية العراق . بل إن هذه القضايا كلها قضية واحدة لا تنفكّ منها واحدة عن أختها أبدًا » [٣] .

والأُمّة العربية أيضا جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية . فأهمّه ما تتعرّض له البلادُ الإسلامية من البلاء ، يقول عن باكستان « انظروا فهذه دولة باكستان ، قد اجتمعت فيها كلمة المسلمين على أن يكونوا أمة عدتها مئة مليون ، فإذا عُبَّاد البُدّ (بوذا) قد دمروا عليهم من كل مكان يذبحونهم ويقتلونهم ويفتكون بالنساء

---

(١) لا يعنى الأستاذ شاكر حكام البلاد ، فيما أخبرنى ، وإنما هؤلاء الأجانب الذين يأخذون بترول بلادنا ليديروا بها مصانعهم لتغزو منتوجاتها أسواقنا . ولكن انظر ١ : ٤١٦ .

(٢) « شعب واحد وقضية واحدة » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٣٠ ، سنة ١٩٤٧ ، ص : ٧٢٣ ، والمقالات ١ : ٤١٢ ، وانظر أيضا العدد ٧٣٢ من الرسالة ، سنة ١٩٤٧ ، ص ٧٧٧ ، والمقالات ١ : ٤١٥ ، ومواضع أخرى كثيرة .

(٣) المقالات ١ : ٤١٣ .

والأطفال ... وانظروا ، فهذه أندونيسيا تجمع هيئة الأمم المتحدة على تركها فريسة الطغاة البغاة من شِرْذِمَة الخلق الذين يسمون بالهولنديين » [١] .

أما قضية فلسطين ، فكانت شغله الشاغل ، وكان يعتبرها فِلْذَة أكباد العرب [٢] ويسميها « أم المشاكل العربية » [٣] .

وكان يرقب مايجرى منذ وعد بلفور فيرى أنذال الأمم يطأون ديارها بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم أخذوا يسيلون عليها منذ ذلك اليوم لإنشاء دولة يهودية فى ربوعها بعد طرد أهلها العرب . ويرى أمريكا تعين اليهود بالمال واللسان والقلب ، ويرى بريطانيا تسهل هجرة آلاف اليهود سرا إلى ربوع فلسطين [٤] ، وتصبر على إذلال اليهود لها صبرا لم يعرفه تاريخ دولة عظمى . ويرى الدول الكبرى تلوذ بالصمت وتغمض عيونها مما ترى ، فلا تتحرك دفاعا عن الحرية أو الهضيمة التى تراد بإنسانية شعب فلسطين العربى . كان الأستاذ شاكر يرى كل هذا ، والعالم العربى الإسلامى ساكن قار ، لا يملك إلا الإستنكار . وكان الأستاذ شاكر يرى إلى أين ستصير الأمور ببصره النافذ وبصيرته المتوقدة ، فكتب مقالا

---

(١) « نحن العرب » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٢٠ ، سنة ١٩٤٧ ، والمقالات ١ : ٣٨٤ .

(٢) « لبيك يا فلسطين » ، المقالات ١ : ٤٨١ .

(٣) « ويحكموا هُبّوا » ، مجلة الرسالة ، العدد ٧٥٧ ، سنة ١٩٤٨ ، والمقالات ١ : ٤٩٨ .

(٤) من أوفى الدراسات المدعمة بالوثائق عن دور بريطانيا فى تهويد فلسطين هى دراسة الدكتور على أبو الحسن بعنوان : دور بريطانيا فى تهويد فلسطين : أقذر دور فى التاريخ . نشر دار الوحدة العربية بيروت ١٩٧٧ . وبتوَلِّى السير آرثر وشوب Sir Arther Wauchope أصبحت هجرة اليهود « غزوا » ففى سنة ١٩٣٢ سمح بهجرة ٩٥٥٣ يهوديا ، وسنة ١٩٣٣ : ٣٠ر٣٢٧ يهوديا ، وفى سنة ١٩٣٤ : ٤٢ر٣٥٩ يهوديا ، وفى سنة ١٩٣٥ : ٦١ر٨٥٤ يهوديا ، أى ١٤٤ر٩٣ يهوديا فى خلال أربع سنوات . انظر فصلا بعنوان The Dark Path of Repression فى كتاب Nevill Barbour, Nisi Dominus: Asurvey of the Palestine Controversy (London : George G. Harrap and Company limited, 1948), pp. 188-93

ومن أفضل الكتب الأجنبية عن مأساة فلسطين ودور بريطانيا المخزى كتاب ضخم بقلم الكاتب البريطانى المنصف ج جفريز ، ترجمه فى أربعة أجزاء الأستاذ أحمد خليل الحاج ، ونشرته دائرة الثقافة والإعلام حكومة الشارقة ، الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٠ .

سنة ١٩٤٦ – أى قبل قرار التقسيم بعام – بعنوان « من وراء حجاب » . جَهَدَه التعبُ ليلة فتَغشَّتْه نَعْسَة ، وسَبَح فى غَمْرة رؤيا ، وإذا به يُفْضِى فى غَمْرَة هذه الرؤيا إلى مقصورة فى مسجد ، هى مقصورة أبى جعفر الطبرى ، كان الشيخ نائما فهاب الأستاذ شاكر أن يُوقظه ، ونظر حوله فرأى أوراقا كتبها تَتِمَّة لتاريخه المعروف باسم « تاريخ الأمم والملوك » . فتناولها الأستاذ شاكر فإذا بها تبدأ من سنة ١٣٦٥ هجرية (الموافق ١٩٤٦ ميلادية) . وهذه هى أول التتمة :

[ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف] ، ١٩٤٦ .

ذكر ماكان فيها من الأحداث : فمن ذلك إجماع المجلسين الأمريكيين على فتح فلسطين لشذاذ المهاجرين من اليهود . وكتب إلىّ السُدِّى ، وهو مقيم هناك بأمريكا ، أن موقف الرئيس ترومان الذى ادّعاه من إيثاره العقل على الهوى فى هذا الأمر ، إنما كان حيلة مَخْبُوءة أراد أن يغرر بالبلاد العربية والإسلامية ، ثم يفاجئها بحقيقته . وهو فى ذلك إنما يعمل للظفر بمعونة اليهود فى الانتخاب الآتى للرياسة . ولما كان هواه هو الذى يُصَرِّفه ، فقد علم أنه طامع فى الرياسة حريص عليها ، وأن اليهود فى أمريكا هم أهل المال ، أى أهل السلطان ، أى هم الأنصار الذين إذا خذلوه ضاع . قال السُدِّى : وقد سمعت بعض أهل العقل والرأى فى أمريكا يستنكرون ماكان منه ومن قرار مجلسيْه ، ويَرَوْن أن الديمقراطية اليوم قد صارت كلمة يراد بها التدليس على عقول البشر ليبلغ بها القوِىّ مأربه من الضعيف المغرور بهذه الرقية الساحرة التى يُدَنْدِنُون بها فى الآذان . وقد أخبرنى الثقة أن الرئيس ترومان قد أوحى إلى بعض بطانة السوء أن العرب والمسلمين قوم أهل غفلة ، وأن دينهم يأمرهم بالصبر ويُلِحّ فيه ، فهم لا يلبثون أن يستكينوا للأمر إذا وقع ، ولا يجدون فى أنفسهم القدرة على تغييره أو الانتقاص منه ، وأن الزمن إذا تطاول عليهم فى شىء أَلِفوه ولم ينكروه ، فإذا دام دخول اليهود فلسطين وبقى الأمر مُسنَدا إلى الدولة المنتدبة (وهى بريطانيا) ، وانفسح لحمقى اليهود مجال الدعوى والعمل والتبجّح ، وأَلَحَّ على العرب دائما إجماعُ الدنيا كلها (أى الديمقراطية) بأن الدولة اليهودية فى فلسطين حقيقة ينبغى أن تكون وأن تتم كما

أراد الله ، فيومئذ يُلْقِي العرب السَّلَم ولا يزالون مختلفين حتى ينشأ ناشِئهم على إِلْف شيء قد صبر عليه آباؤه ، فلا يكون لأحد منهم أدنى همة في تغيير ما أراد الله أن يكون ، مما صبر عليه آباؤهم وأسلافهم – وهم عند العرب والمسلمين – أهل القدوة » .

[ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمئة بعد الألف] ، ١٩٤٧ .

ذكر ما كان فيها من الأحداث : فمن ذلك ماكان من اجتماع ملوك العرب وأمرائهم ووزرائهم ... وقَرَّ قرارهم على أن يعلنوا للناس جميعا وينذرونهم بما رأوا وأجمعوا عليه ... الثانى : أن فلسطين ستجاهد ، ومن ورائها بلاد العرب والمسلمين تظاهرها بالمال والولد . الثالث : أن الفتك والغدر والاغتيال ليس من شيمة العرب ولا من دين المسلمين ، وأن حوادث الاغتيال الشنيعة المنكرة التى اقترفها اليهود ينبغى أن تقابل بالصدق والصراحة ، لا بالغيلة والغدر » .

[ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمئة بعد الألف] ، ١٩٤٩ م .

ذكر ماكان فيها من الأحداث : اشتعلت نيران الحروب فى الشرق كله ، واجتمع رؤساء الدول العربية والإسلامية فى مكة المكرمة ووحَّدوا قيادة الجيوش العربية . ولكن لم يلبث سفير بريطانيا فى مصر وسفير أمريكا أن أرسلا برقية إلى المجتمعين فى مكة يطلبون وَقْف الحركات الحربية التى سموها (ثورة) ، ورغَّبوا إلى ملوك العرب ووزرائهم أن يتمهلوا حتى يصدر تصريح مشترك من الدولتين الكبيرتين ، على شريطة أن تمتنع البلاد العربية من متابعة السياسية الروسية التى تتظاهر بمؤازرة العرب والمسلمين . وبعد أيام صدر هذا التصريح ، وهو ينص على أن للعرب ما أرادوا من وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وعلى العرب أن يتولوا بأنفسهم مفاوضة يهود فلسطين على السياسة التى يريدونها ، وأن بريطانيا وأمريكا لن تتدخلا فى الخلاف الناشب بين الفريقين ، وأن الدولتين الكبيرتين ستمنعان كل مساعدة تُرْسَل من بلادهما إلى فلسطين من مال أو سلاح ... » .

[ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمئة بعد الألف] ، ١٩٥٥ م .

ذكر ماكان فيها من الأحداث : كثرت حوادث الاغتيال والفتك فى كثير

من البلاد العربية والأجنبية ، وقتل من العرب وأنصار العرب من سائر الأمم خلق كثير ، واستفحل الشر استفحالا عظيما ، حتى ثارت الصحف الإنجليزية والأمريكية وطالبت حكوماتها بإعلان قرار واحد بأن الرأى العام والسياسة العامة فى سبيل السلام تقتضى أن تُبْذَل النصرة الكاملة للعرب وللقضية العربية ، وأن تتعاون الدول على رد العُدْوان الصهيونى الذى صار طغيانا شديدا فى جميع بلاد الأرض ، وأنه ينبغى على الدول جميعا أن تضحى فى سبيل ذلك بكثير من المصالح المالية ، وهى قيود اليهودية التى جعلت كل الأمم ترسف فى أغلالها » .

هذا الكلام - على طوله - مختصَر من هذا المقال الفريد الذى اخترق به الأستاذ شاكر حُجُبَ الغيب ، وجعله حقيقة لامراء فيها بجعله أحداثا ماضية سلفت أتم بها شيخ المؤرخين تاريخه . ولأُذكِرنَّ القارىء مرة أخرى أن هذا المقال كتبه الأستاذ شاكر سنة ١٩٤٦ .

فكلام الأستاذ شاكر عن موقف الرئيس ترومان وأهمية أصوات اليهود فى انتخابات الرئاسة صحيح لا ريب فيه ، وتسهيل أمريكا مع بريطانيا هجرة يهود أمريكا كلام لا باطل فيه . وقد تصدَّى الرئيس ترومان لمحاولة إنجلترا - بعد إعلان قرار انتهاء حماية بريطانيا على فلسطين - بوضع قيود على هجرة اليهود (وياللسخرية) . وأنا أُحيل القارىء هنا إلى كتاب فرانسيس وليمز [1] الذى أورد فيه الرسائل المتبادلة من الرئيس ترومان ورئيس وزراء بريطانيا وِنْستون تشرشل (مع أن تشرشل كان صهيونيا حتى النخاع) ليرى مدى دفاع ترومان عن هجرة يهود العالم لا أمريكا فقط إلى فلسطين . وبالرغم من أن وزارة الخارجية الأمريكية آنذاك كانت دوما تنصح الرئيس ترومان بعدم اتخاذ موقف متشدد من هذا الأمر ، إلا أنه جعل نصح مستشاريه دَبْر أُذنه . فقد كانت أصوات اليهود فى الانتخابات تستحوذ على نفسه وفكره وفؤاده . فأكد ترومان لِوَيْزمان Weizmann خلال زيارته لأمريكا أنه سيبذل ما فى وسعه لإنشاء الدولة اليهودية والاعتراف بها ، وأن

---

(1) Francis Wiliams. A Pime Minister Remember : The War and Post - War Memoirs of the Rt. Hon. Earl Attlee (London : Heinemann, 1961), pp. 181-201.

« النجف » – تكون جزء من الدولة اليهودية[1] . وفى الرابع من أكتوبر سنة ١٩٤٦ أيَّد الرئيس ترومان فى إعلان يوم كيبور ضَمَّ النجف إلى الدولة اليهودية (لاحظ أن الدولة اليهودية لم تكن قد تكونت بعد ، وحين صدر قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ لم يجعل هذا القرار النجف جزءاً من الدولة اليهودية) وإنشاء ثلاث عشرة مستعمرة زراعية فى النجف[2] . وفى خلال أسبوعين من هذا الإعلان ضمت القوات اليهودية « النجف » إليها وبلغ من استهانة ترومان بالعرب وتملقه ليهود أمريكا أنه أذاع هذا الإعلان فى يوم من أيام اليهود الدينية وهو يوم كيبور ، ولم يكتف بوَعْده أن تكون صحراء النجف جزءاً من الدولة اليهودية ، بل تجاسر فى جرأة وقحة فرسم خريطة الدولة اليهودية المرتقبة لتضم تسع مناطق من مناطق فلسطين السِّت عشرة : بيســان (٧٠٪ من سكانها عرب) ، عَكّا (٩٦٪ من سكانها عرب) ، طبرية (٦٧٪ من سكانها عرب) ، صفد (٨٧٪ من سكانها عرب) ، حيفا (٥٣٪ من سكانها عرب) ، الناصرة (٨٤٪ من سكانها عرب) ، يافا (٢٩٪ من سكانها عرب) ، غزة (٩٨٪ من سكانها عرب) ، بئر سبع (٩٩٪ من سكانها عرب) . بالإضافة إلى ذلك من الممكن أن تضم الدولة اليهودية أيضا منطقتين أخريين : طولكرم (٨٣٪ من سكانها عرب) . ورام الله (٧٨٪ من سكانها عرب) ، علاوة على جزء من مقاطعة هبرون (٩٦٪ من سكانها عرب) . ومعنى ذلك أن لا يبقى للفلسطنيين سوى ثلاث مناطق . ومعناه أيضا أن ٧٥٪ من مساحة الأراضى الفلسطينية يسيطر عليها اليهود فى الوقت الذى كانوا لا يملكون سوى ٧٪ من الأرض . وفى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ أرسل إلياهو إيثال ممثل الوكالة اليهودية فى الولايات المتحدة بصفته ممثلا « للدولة اليهودية » (لاحِظ هنا أيضا أن الدولة اليهودية لم تُخْلَق رسميا بعد) رسالةً إلى البيت الأبيض يطالبه فيها بالاعتراف بالدولة اليهودية ، وما هى إلا ساعات ، وبالضبط فى الساعة الخامسة

---

(1) M.W. Weisgal and L. Carmichael, eds., Chairman Weizmann: ABiography by Several Hands (London: Weidenfeld and Nicholson, 1962). PP. 303 - 308.

(2) Ibid, pp. 301 - 303

والدقيقة السادسة عشرة من شهر مايو سنة ١٩٤٨ أعلنت الولايات المتحدة على لسان رئيسها ترومـــان الاعتراف بالدولة اليهودية [١] . ولا يغيب عن فطنة القارىء أن عام ١٩٤٨ كان عام انتخابات الرئاسة الأمريكية .

ثم حمل الأستاذ شاكر على العرب وأوروبا وأمريكا بأسلوبه الساخر المعهود . أما العرب فهم كما قال قُرَيْط بن أُنَيْف :

لكنَّ قَوْمِى وإنْ كانوا ذَوِى عددٍ
ليسوا مِن الشرِّ فى شىءٍ وإنْ هانا

فقد أجمع ملوكهم وأمراؤهم ووزاؤهم أن « الفتك والغدر والاغتيال ليس من شيمة العرب ولا من دين المسلمين ، وأن حوادث الاغتيال الشنيعة المنكرة التى اقترفها اليهود ينبغى أن تُقابَل بالصدق والصراحة » . نعم يجب أن تُقابَل بصدق المستضعفين وصراحة الأذلاء الغافلين . فالعرب لن يغتالوا اليهود فى مدنهم وقراهم ولن يفعلوا فعل اليهود فى دير ياسين(*) فى ١٠ ابريل ١٩٤٨ حيث قضت عصابة الأرجون فى مذبحة بشعة على كل سكان القرية البالغ عددهم ٤٠٠ شخصا لا يحملون سلاحا [٢] . ولن يتدنى العرب ويرتكبوا ما ارتكبه اليهود فى قرية كولونيا يوم ١٢ إبريل ١٩٤٨ ، ففى خلال نصف ساعة فقط حسب رواية شاهد عيان هرب أكثر أهل القرية تحت نيران عصابة بالماخ Palmach فنجا منهم من نجا وقتل من لم تسعفه قوته أو سِنّه على الفرار [٣] . ولن يهاجموا غيلة المدن

(1) Walid Khalidi. From Haven to Conquest (Washington: The Institute for Palestine Studies, 1987), p. ixxxii

وهذا كتاب نفيس ، ولا أدرى إذا كان قد ترجم إلى العربية أم لا ، فإذا لم يكن فَلْيترجَم .

(*) المصادر عن مذبحة دير ياسين وغيرها مما ذكرته كثيرة ، ولكنى هنا أستشهد بما كتبه شهود العيان .

(2) Jacaues de Reynier, A Jerusalem un drapeau Flottait sur la ligne defeu (Neuchatel : Editious de la Baconniere, 1950), pp. 69 - 79.

(3) Harry Levin, Jerusalem Embattled: A Diary of the City Under Siege, Mach 25th, 1948 to July 18th, 1948 (London : Victor GoLLancz Ltd., 1950)pp. 64-67.

التى ينسحب منها البريطانيون نظرا لانتهاء مدة الانتداب ، كما فعل اليهود وهاجموا يافا واستولوا عليها يوم ٢١ إبريل ١٩٤٨ [١] ونهبوا كل ما وقعت عليه أعينهم فى المحال والمنازل [٢] .

ثم يسخر الأستاذ شاكر من ضعف العرب وتشتتهم وعدم يقظتهم لما يراد بهم ، فهل صحيح أن رؤساء الدول العربية « وحّدوا قيادة الجيوش العربية » ، وبذلك شكّلوا خطرا محققا تُخْشَى مَغبّته على يهود فلسطين ، جعل بريطانيا وأمريكا تسارعان وترجوان العرب وقف « الحركات الحربية » حتى يتدبرا الأمر وسوف يكون فى ذلك مَرْضاة للعرب ؟ وبالفعل بعد أيام أصدرتا تصريحا أعلنتا فيه « إن للعرب ما أرادوا من وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين ... وأن الدولتين الكبيرتين ستمنعان كل مساعدة ترسل من بلادهما إلى فلسطين من مال أو سلاح » . فجيش التحرير العربى الذى أرسلته الجامعة العربية كان لا يضارع جيش الصهيونين عددا أو عُدّة وسلاحا . ثم أين كان ملوك العرب وأمراؤهم عندما كان اليهود يقومون بتنظيم قواتهم المحاربة . ومن يقرأ التقرير الذى أعدته لجنة تقضى الحقائق الإنجليزية الأمريكية [٣] The Anglo-American Committee of Inquiry سنة ١٩٤٦ يرى مدى القوة العسكرية اليهودية ، يذكر التقرير أن التنظيم العسكرى المعروف بالهجاناه Hagana كان يتكون من :

١ - أربعين ألف مستوطن يهودى .

٢ - جيش مدرب ذى كفاءة عالية فى الحركة السريعة قوامه ستة عشر ألف جندى .

٣ - قوة حرس مستديمة وهى البالماخ Palmach قوامها ألفا حارس للمحافظة

---

(1) Roland Dare Wilson, Cordon and Search : With 6th Airborn Division in Palestine (Aldershot: Gale and Polden Limited, 1949), pp. 191-199.

(2) Jon Kimche, Seven Fallen Pillars : The Middle East 1915 - 1950 (London: Secker and Warburg, 1950), pp. 217-218.

(3) see the chapter entitled "The Zionist Military Organization 1946 quoted from the Report of the Anglo-American Committee of Enquiry : From Haven to Conquest, PP. 595 - 600

على السلام وستة آلاف مدربين تدريبا عسكريا عاليا . ولكن هذا التقرير - كما لاحظ الأستاذ وليد الخالدى - أهمل جزء هاما من تنظيم الهجاناه وهو شرطة المستعمرات اليهودية Jewish Settlement Police ، وقوامها ١٥٫٤١٠ شرطيا . وكانت القوات البريطانية تقوم بتدريبهم ، وكلما تم تدريب مجموعة منهم ضمتها الهجاناه إلى صفوفها ، واستبدلت بهم آخرين ، فتقوم القوات البريطانية بتدريب هذه المجموعة الجديدة دون أن تنتبه لما يحيكه تنظيم الهجاناه [١] .

ثم يسخر الأستاذ شاكر أيضا من غفلة ملوك العرب واحتسابهم أن الدول الأوروبية وأمريكا وصحافتهما متعاطفة جميعا مع القضية العربية وأن هناك خيرا يرجى منها جميعا إذا دخلوا معهم فى حوار ومفاوضات ، خاصة أن الصحف الإنجليزية والأمريكية ثارت لأنه « قُتِل من العرب وأنصار العرب من سائر الأمم خلق كثير » وطالبت حكومتيهما « رد العدوان الصهيونى الذى طَغَى طغيانا شديدا فى جميع بلاد الأرض ، وأنه ينبغى أن على الدول جميعا أن تضحى فى سبيل ذلك بكثير من المصالح المالية ، وهى قيود اليهودية التى جعلت كل الأمم ترسف فى أغلالها » . وبطبيعة الحال لم تَثُر الصحف البريطانية ولا الأمريكية بسبب اغتيال أنصار العرب ، ولعل خير مثال على ذلك هو اغتيال الكونت برنادوت Count Folke Bernadotte ممثل الأمم المتحدة . فقد كان برنادوت يرى أن خطة التقسيم فيها إجحاف للجانب العربى واقترح إدخال بعض التعديلات ، فحشدت القوى الصهيونية كل قواها الإعلامية والسياسية فى أوروبا وأمريكا لشَنِّ هجوم لا رحمه فيه ولا هوادة . وفى زيارة له لفلسطين موفدا من قبل الأمم المتحدة أعد الصهيونيون لسيارته وسيارة الوفد المرافق له كمينا (١٧ سبتمبر ١٩٤٨) وأطلقوا عليه الرصاص فأردوه قتيلا ، ويعلق صديقه الجنرال آجى لَنْدستروم الذى كان يرافقه فى مهمته على هذا الحادث بقوله : « أنا على يقين أن الاغتيال كان متعمدا ، وخُطِّط له بعناية ، فالمكان الذى أوقفوا فيه سيارتنا اختير بعد تدبر ،

---

(1) Ibid, p. Lxxviii

والجنود الذين اندفعوا نحو السيارة ، لم يكونوا يعرفون أى سيارة يستقلها فقط ، بل كانوا أيضا يعرفون أين كان يجلس وأى مقعد كان يحتّل » [1] .

وبطبيعة الحال لا تستطيع دول العالم « أن تضحّى فى سبيل ذلك (أى ردّ العُدْوان الصهيونى) بكثير من المصالح المالية » . فاليهودية العالمية قد سيطرت على أكثر المؤسسات المالية فى الدول التى تعيش فيها وتنتمى إليها .

وكما يرى القارىء من هذا العرض الموجز – الوافى إن شاء الله – أن الأستاذ شاكر قد تنبأ سنة ١٩٤٦ بما سوف يحدث خلال السنوات التى تلت هذه السنة فكأنما « كُشِف عنه الحجاب » . فتنبّه الرجل وفطنتُه ، تتبُّعه اليقظ لما يرى من أحداث واستماتته فى الدفاع عن أمته جهله يعلق الأسباب بالنتائج ، ويرى ماهو آت لأنه أحدَّ إليه البصر منذ بدأ ناشئا لا يكاد يُرَى ، فما زاغ البصر وما كذب الفؤاد ما رأى .

وحتى لا تخرج هذه الكلمة الواجبة عن القصد فسوف أكتفى ببيان هذا القدر من جهاد الأستاذ شاكر فى سبيل قضية مصر وقضية مصر والسودان ، وقضايا الأمة العربية خاصة فلسطين ، وقضايا العالم الإسلامى ، ولن يفوت القارىء بأيسر نظر فى هذه المقالات الجهاد الذى خاضه الأستاذ شاكر فى سبيل الحرية ، والحضارة العربية والإسلامية ، وفى هجومه على الحضارة الغربية ، والدول الأوربية وأمريكا والأمم المتحدة ، لا يملّ ولا ييأس رغم التدهور الذى كان يزداد يوما بعد يوم . كان عظيم الثقة بالأمة العربية وحضارتها ، وأنها لا جرم منبعثة مرة أخرى لترث سائد الحضارات ، وتسود العالم كما سادته من قبل .

ولما كانت مصر أقوى الدول العربية وأكثرها تقدُّما ، وكانت هى البلد الذى يعيش فيه الأستاذ شاكر ، فقد أرَّقه ما آل إليه أمرها من الاضمحلال والفساد وما اعتراها من الضعف والوهن ، وما ترزح تحته من أعباء الاحتلال ، وترسف فى القيود والأغلال التى ربضت بها إلى الأرض فما تطيق حراكا . فصلاح مصر

---

(1) General Aage Lundstrom, the Death of Count Folke Bernadotte. Quoted in Haven to Conquest, op. cit., pp. 789 - 794.

وقوتها صلاحٌ للأمة العربية وشدٌّ لأَزْرها . أيقن الأستاذ شاكر أن هذا الإصلاح فى كافة مجالاته « موقوف على شيء واحد ، على ظهور الرجل الذى ينبعث من زحام الشعب المسكين الفقير المظلوم ، يحمل فى رجولته السِّراج الوهَّاج المشتعل من كل نواحيه ، الرجل المصبوب فى أَجْلاده من الثورة والعنف والإحساس بآلام الأمة كلها ، وآلام الأجيال الصارخة من وراء البنيان الحىّ المتحرك على هذه الأرض الذى يسمى فى اللغة : الإنسان » [(١)] . كتب هذا الكلام فى أعقاب ثلاث مقالات كتبها الدكتور هيكل والدكتور طه حسين والأستاذ أحمد حسن الزيات ، وبلغ من ازدراء الدكتور طه لحالة الفساد التى انتشرت فى مصر أن اقترح ساخرا إنشاء « مدرسة المروءة » حتى يتعلم جيل ذلك الزمان غير ما نشأ عليه من سفاسِف الأخلاق ، وتحطّمت عنده مكارمُ الإنسانية النبيلة ، وامتاز عظماؤه وصغاره باعتبار الأخلاق ضربا من التجاره يُلَبِّسها الغشّ والخِلاب والمواربة . ولكن الأستاذ محمود شاكر رأى أن التهكم فى هذا الزمن المائج بصنوف العذاب والآلام والبلاء لا يجدى فى الإصلاح شيئا ، وإنما الإصلاح موقوف على خروج رجل فرد من عُرْض الشعب عانى ما يعانيه الناس آنذاك . ثم كتب الأستاذ محمود المنجورى مقالا [(٢)] فى العام (سنة ١٩٤٠) الذى نُشِرت فيه المقالات السالفة الذكر تحدث فيه عن عهد الاحتلال وما صنعت سياسته فى أخلاق مصر وتعليمها ، وكيف حطم بجوره وعُدْوانه كل الصلات القوية التى يعتمد عليها ترابط الكيان الاجتماعى ، فتمزقت الجهود المصرية فى الإصلاح ، واستبدت الشهوات الجارفة بأخلاق الطبقات على اختلاف مراتبها ، ففشل الاجتماع المصرى فى إرادته ، وقام على أساس فاسد من الأخلاق حتى صار أكثر ما يرمى إليه كل شخص غرضا فرديا لا سَهْمَ له فى البناء الاجتماعى للأمة ، ومن هنا استبدّ مَن آنس فى نفسه قوّة ، فصار كل فرد بأنانيته

---

(١) من مقاله بعنوان « الإصلاح الاجتماعى » المنشور بمجلة الرسالة ، عام ١٩٤٠ ، انظر المقالات ١ : ٥٤ - ٥٥ .

(٢) نشر فى « السياسة الأسبوعية » ، العدد ١٥٥ ، سنة ١٩٤٠ .

يريد هدم عمل الأوّل لينفرد بالأحدوثة والصِّيت . وامتدت هذه العدوى إلى الحكومات المصرية التى تعاقبت فشَرَعت ووَعَدت وسارت ، ثم خَلَفَتْها أختُها لتنقض كل ذلك وتبدأ من جديد بلجانها ومشروعاتها ، وهكذا دواليك . ويتعجب من ذلك الأستاذ شاكر متساءلا « فهل فى الذين يصير إليهم السلطان الوازع العامل من يستطيع أن يتجرّد لمكافحة هذه الأوبئة ، ولو كان فى كفاحها كفاحٌ لنفسه وشهواته وأغراضه ؟ » هيهات ! وهو سؤال يعرف الأستاذ شاكر سلفا إجابته قبل أن يلفظ به ، والسؤال الحقيقى عنده هو « هل تَجِدُ مصر أخيرا طبيبها المغامر ؟ ليتها تجد » [١] . فهو لا يزال يؤمن أن الإصلاح لن يكون إلا على يد رجل مغامر طَبّ خبير بأدواء هذا الشعب المسكين . ولكن هذا الشعب المسكين ماهو إلا جزء من أمة كلها تعانى ما يعانيه ، غير أنّ فى هذا الشرق ميراثا نبيلا من السمو والفُتّوة والقدرة على البقاء ، ولكنه يفقد « زعيمه الذى يُهبّ من جماعاته كالأسد تنفرج عنه الأجمة الكثيفة عالى الرأس حديد النظرة ، تتفجر القوة من أعضائه » [٢] .

وظلت مصر والعالم العربى والأستاذ شاكر فى انتظار خروج هذا الرجل ، وطال الانتظار ولكن الأستاذ شاكر لم يخامر قلبه شك قط ، بل كلما امتد الزمان وطال البلاء تحوّل ماكان يذكره مجرد ذِكْر ورجاء إلى يقين قاطع بيِّن . ففيما يشبه النبوءة كتب فى مقال بعنوان « لَمنْ أكتب » هذه الأسطر بنور البصر المُوحَى من البصيرة « لمن أكتب ؟ لم أحاول قط أن أعرف لمن أكتب ؟ ولمَ أكتب ؟ ولكنى أحسّ الآن من سِرّ قلبى أنى إنما كنت أكتب ، ولازلت أكتب ، لإنسان من الناس لا أدرى من هو ، ولا أين هو ؟ أهو حيّ فيسمعنى ، أم جنين لم يُولَد بعدُ سوف يُقَدَّر له أن يقرأنى ؟ ولست على يقين من شىء إلا أن الذى أدعو إليه سوف يتحقق يوما على يد مَن يُحْسِن توجيه هذه الأمم العربية والإسلامية [٣] « فأنا

---

(١) انظر مقال « العيد » ، مجلة الرسالة ، ١٩٤٠ . وانظر المقالات ١ : ٧٦ .

(٢) انظر مقال « هذه هى الساعة » ، مجلة الرسالة ، ١٩٤٠ ، وانظر المقالات ١ : ٢٠٤ .

(٣) انظر مجلة الرسالة ، ١٩٤٨ ، وانظر المقالات ١ : ٥٥٦.

أكتب لرجل أو رجال سوف يخرجون من غِمار هذا الخَلْق ، قد امتلأت قلوبهم بالقوة التى تنفجر من قلوبهم كالسيل الجارف ، تطوح بما لا خير فيه ، وتروى أرضا صالحة تنبت نباتا طيبا ... سوف ينفرد رجل يقود الشعوب بحقّها لأنه منها : يشعر بما كانت تَشْعُر به ، ويألم لما كانت تألم له ، وينبض قلبه بالأمانى التى كانت تنبض فى قلوبها . وهو وحده الذى يعرف كيف يرفع عن عيونها حجاب الجهل ، ويطرح عن كواهلها قواصِم الفقر ، ويملأ قلوبها بما امتلأ به قلبه من حُب هذه الأرض التى تعيش فيها مضطهدة ذليلة خائفة . إنه الرجل الذى خُلِطت طينتُه التى خُلِق منها بالحرية ، فأبَتْ كل ذَرّة فى بدنه أن تكون عبدا لأحد ممن خلق الله على هذه الأرض . فهو يُشْرِق من جميع نواحيه على أجيال الناس كلها كما تشرق الشمس ترمى بأشعتها هنا وهنا . ولا يملك الناس إلا أن يَنْصِبُوا لها وجوهَهم وأبدانهم ليَذْهَب عنهم هذا البَرْدُ الشديد الذى شَلَّهم وأمسك أوصالهم عن الحركة . وهو يسير بينهم فتَسْرِى نَفْسُه فى نفوسهم ، فتموج الحياة فيهم بأمواجها التى لا يقف دونها شىء مهما بلغتْ قُوّته وجبروته » [1] . ثم يختم المقال مؤكدا أن هذا الرجل آت لا محالة ، فقد بلغ السيل الزُّبَى ، وتأصل الفساد واستشرى ، واستشعر الناس أن شيئا سوف يقع ما له من محيص ، وأنه مُواتٍ قريب ، « ألا إن هذا الشرق لينتظر صابرا - كعادته - هذا الرجل . وإنى لأحسّ أن كل شرقى يتلفَّت لا من حَيْرة وضلال ، بل توقُّعا لشىء سوف يأتى قد أَنَى زمانه » [2] . « فأنا إن كتبتُ ، فإنما أكتب لأتعجَّل قيام هذا الرجل من غِمار الناس ، لينقذنا من قبور جثمت علينا صَفائحها منذ أمد طويل . وليس بيننا وبين هذا البعث إلا القليل » [3] .

وبعد أربع [4] سنوات من كتابة هذا المقال خرج جمال عبد الناصر من غمار

---

(١) المصدر السابق ١ : ٥٥٦ . (٢) نفس المصدر ١ : ٥٥٨ .
(٣) نفس المصدر ١ : ٥٥٩ .
(٤) خلال هذه السنوات لم يكتب الأستاذ مقالات سياسية فى مجلة الرسالة ، وليس معنى ذلك أنه توقف عن كتابة المقال السياسى ، فقد نشر ست مقالات سياسية فى « اللواء الجديد » بين عدد ٧ أغسطس ١٩٥١ ، وعدد ٢٥ سبتمبر من نفس السنة .

هذا الشعب المسكين وخرج معه رجال من غمار هذا الخلق ، فاستبشر الأستاذ شاكر ، فقد صح ما توقَّع وتحقق مابه تنبأ . فكان من أشد المؤيدين لهؤلاء الرجال خلال الشهور الأولى من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكان له دور فعال - لا يعلمه إلا قليل - فى مسألة الإصلاح الزراعى ، فكما ذكرت قَبْلُ أن الأستاذ رشا مهنا - الذى عُيّن وصيًّا على العرش - كان من أصدقاء الأستاذ شاكر ومِن روّاد ندوته . وقد أسرَّ للأستاذ شاكر أن جماعة الإخوان المسلمين يقفون ضد إصدار قانون الإصلاحى الزراعى ويمارسون شتى أنواع الضغوط لإيقافه ، ولكن الأستاذ شاكر استطاع أن يقنع الأستاذ رشا مهنا ببطلان حجج الإخوان المسلمين الذين تبنَّوا هذه الدعوى ، وأبان له تاريخ محمد على وأسرته من بعده فى الاستيلاء على أراضى المصريين دون وجه حق ، ودون سبب شرعى أو مبرر تاريخى . وبذلك اكتسب أنصار الإصلاح الزراعى مؤيدا قويا ، فقد نافح عنه الأستاذ رشاد مهنا مسلَّحا بما زوّده به الأستاذ شاكر - وهو من هو فى تاريخ السياسة المصرية - بالحج الدامغة والبراهين التاريخية الناصعة .

ولكن سَرْعان ماتبيَّن للأستاذ شاكر وغيره من الشعراء والمفكرين الأحرار أن النظام الملكى الفاسد الذى ولَّى أفسح مكانا لآخر طاغٍ مستبدّ . فكتب بعد ما يَقْرُب من خمسة أشهر من قيام ثورة ١٩٥٢ مقالا - استجابة لدعوة الأستاذ أحمد حسن الزيات - فى مجلة الرسالة (٥ يناير ١٩٥٣) بعنوان « فيم أكتب » . والمقال يُشْعِر أن الأستاذ شاكر يتحدث عن العالم العربى عامة ومانزل به من بلاء المحتل قرابة قرن أو يزيد ، ولكن القارىء اليقظ لن يفوته هجوم الأستاذ شاكر على النظام السياسى الجديد ، وأنا ناقِلٌ منه هنا فقرات لترى مصداق ما أقول : « ومنذ ذلك اليوم والأحداث فى الشرق العربى الإسلامى آخِذٌ بعضها برقاب بعض . وحركت الأحداثُ المتتابعة نَواعسَ الآمال ، فهبَّت تمسح عن عيونها النوم المتقادم . ثم حملقت فى أكداس الظلام المركوم . فأوهمتها اليقظة أن الظلام من حولها يُومض من بعيد ببصيص من نور ، فتنادت الصيحات بانقشاع الظُّلَم : وافرحتاه ! وصرختُ وأنا فى محبسى : واحسرتاه ، أَعْمَى رأى الظلامَ نهارا ! »

ولك أن تسأل أى أحداث تلك التى حركت نواعس الآمال فى الشرق العربى الإسلامى بين سنة ١٩٤٨ (وفى السنة التى كتب فيها الأستاذ شاكر آخر مقال سياسى فى مجلة الرسالة بعنوان « لِمَن أكتب » وبين سنة ١٩٥٢ التى قامت فيها الثورة المصرية ؟ أهى جلاء بريطانيا عن مصر والسودان ؟ أهى تبنىٍّ الأمم المتحدة لقضية مصر والسودان ؟ أم هى احتلال فلسطين والهزيمة المنكرة للجيوش العربية ، أم هى المجازر التى ارتكبها الصهاينة ضد عرب فلسطين العُزّل ؟ أم هى جلاء فرنسا عن الجزائر ؟ أى هذه الأحداث حرك نواعس الآمال فهبت الشعوب تمسح عن عيونها النوم المتقادم ؟ واقرأ المقالات الست التى أشرتُ إليها فى الهامش السابق ، والمنشورة فى « اللواء الجديد » سنة ١٩٥١ فكلها تتحدث عن النوازل التى داهمت **الشرق الإسلامى** من جراء الاحتلال وفساد الساسة الذين صنعهم الاستعمار ليقودوا بلادنا . ولا يُفْلِت القارىء مغزى كلمة « وصرخت وأنا فى **محبسى** » ، فالأستاذ شاكر لا يلقى الكلام على عواهنه ، فكل كلمة يكتبها هى فى حاقّ موضعها عما استقر فى ضمير نفسه ، فهو يعرف حق الكلام ، ويلتزم مقاطعه ومطالعه وحدوده ، ومايوجبه اللفظ من المعانى وما يتناوله من دقيق الاستنباط ، فهى صرخة سجين « طعين أفنى الليالى انتظارا » كما يقول فى رائيته .

وإذا كنتَ فى شك مما أقول فاقرأ هذه الفقرة من نفس المقال : « ثم وَجَدْتُنى فجأة فى موج متلاطم من الضلالات ، تتقاذفه ضلالات العلم المكذوب ، وضلالات الرأى المدلس ، وضلالات السياسة الخداعة ، وإذا الأرض من حولى تعجّ بترتيل مظلم مخبول ، وإذا السماء تهتف بتسبيح كالح مزور ، وإذا صوتى يضيع فى سمعى ، فهو إذَنْ فى أسماع الناس أَضْيَعُ ، وتردَّد فى صدرى شِعر الحَكَمىّ ، فاستمعتُ له وسكتُّ :

مُتْ بداء الصمت خَيْرٌ ... لكَ عن داء الكلامِ

إنما السَّالِمُ من أَلْـ ... ـجَمَ فاهُ بِلِجامِ

والأستاذ شاكر لم يسكت أبدا من قبلُ ، فقد هاجم دون وَجَل شرذام الساسة الذين لوَّثوا تاريخ الحياة الإسلامية والعربية ، وأصحاب السلطان الذين وصفهم

بأنهم « حثالة التاريخ الإنسانى » ، وأعمل مِعْولا لم يفلَّ أبدا فى صَرْح الاحتلال . فما الذى جدَّ الآن يجعله يؤثر « السلامة والسكوت » ! ولكن أنَّى لهذه النفس التى تَأْبَى أن تَتهضَّم أن تركن للصمت ، وأنَّى لهذه النفس التى حملت سلاحا مغموسا فى المداد تدافع به عن الحرية وكرامة الإنسان أن تستكين ، وهى نفس إذا أُخِذَت بالعَسْف والاقتسار انقلب الذى فيها ضاريا لا يُطيق ولا يُطاق . لذا يخاطب الأستاذَ الزيات فى آخر المقال بقوله « وإذنْ قد كُتِبَ علىَّ أن أنصب وجهى لهذا الشقاء الصَّيْخُود ، لا أبالى أن أحترق ، ولا أحفل أن أعود **سالما** ولا آبه لما يصيبنى ، مادام حقا علىَّ أداؤه ... فمنذ حملتُ إليك هذا القلم ، استجابة لدعوة لم أجد ردَّها من الأدب ولا من الوفاء فى شىء ، عرفتُ أنى سوف أكتب كما كنت أكتب قديما ، **لأتعجل انبعاث رجل من غمار أربعمئة مليون من العرب والمسلمين** ، تسمع يومئذ لحكمته الأجِنَّة فى بطون أمّهاتها ، وتهتدى بهديه الذرارِى فى أصلاب الآباء والأمّهات ، ولكنك بعدُ قد أنزلتنى بحيث يقول القائل :

حيث طابتْ شرائعُ الموت ، والمو

تُ مِرارًا يكون عَذْبَ الحِياضِ » (١)

خاب ظن الأستاذ شاكر فى الرجل الذى خرج من غمار الشعب المصرى المسكين ، ظنَّه رجله المنتظر ولكن لأْيًا ما تبيَّن غير ذلك ، فولَّى وجهه شطر الأمة الإسلامية كلها ينفضها بناظريه يترقّب خروج هذا الرجل من غمار أربعمائة مليون من العرب والمسلمين . رأى الأستاذ شاكر بعد ثورة ١٩٥٢ بلاء نازلا يخوضه الناس كأنه رحمة مُهْداة . ورأى حيث تلفَّتَ وجوها تكذِب ، ووجوها مَكْذُوبا عليها . وسمع أصواتا تَخْدَع ، وآذانا مَخْدُوعة بما تَسْمَع ، وقرأ كلاما مَغْموسا فى النفاق ، وشاهد بطشا وبغيا . فأوجس فى نفسه خيفة واستشعر خطرا مُحَوِّما ، ومن ثم تستطيع أن تفهم لماذا قال إنه نصب وجهه لهذا الشقاء الصيخود ،

---

(١) انظر ١ : ٥٨٧ من المقالات .

لا يبالى أن يحترق ولا يحفل أن يعود سالما ، ثم استشهد بهذا البيت عن شرائع الموت التى أنزله إياها الأستاذ الزيات حين دعاه أن يكتب بعد انقطاع دام خمس سنين . ولولا خشية الإطالة لأتيتك بأدلة أخرى من المقالات الثلاث التى أعقبت هذا المقال ، وهى : أبصر طريقك ، باطل مشرق ، غرارة ملقاة ، وهى آخر ماكتب فى ٢٣ فبراير ١٩٥٣ وهو فى محبس عزلته التى ارتضاها لنفسه منذ ذلك التاريخ . فقد عزم على أن يدع قلمه قارًّا حيث هو فى سِنَة لا تنقطع حتى يعلوه صدأ لا ينجلى . وكان قبلُ قد نذر على قلمه أن لا يكفّ عن القتال فى سبيل العرب ما استطاع أن يحمله وما أتيح له أن يجد مكانا يقول فيه الحق ويدعو إليه ، ولكن مجلة الرسالة التى وصفها بأنها « ملاذ الأقلام الحُرّة التى لا تَثْنيها عن الحق رهبةٌ ، ولا تصدّها عن البيان مخافةٌ » قد بات عسيرا أن يجرى قلمه على صفحاتها ، فقد أُغْلِقت مجلة الرسالة بعد آخر عدد كتب فيه مقاله « غرارة ملقاة » فى ٢٣ فبراير ١٩٥٣ . وإذا كان الأستاذ شاكر قد كفَّ قلمه عن الكتابة ، فلم يكف لسانه عن الكلام ونقد النظام السياسى آنذاك فاعْتُقِل مرتين خلال حكم الرئيس جمال عبد الناصر ، أولاهما استمرت تسعة أشهر من ٩ فبراير سنة ١٩٥٩ إلى آخر أكتوبر من نفس السنة ، وثانيتهما دامت ثمانية وعشرين شهرا من ٣١ أغسطس عام ١٩٦٥ إلى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٧ . وكانت الذريعة التى تعلق بها النظام بشأن الاعتقال الثانى أن الأستاذ شاكر كان يرمى إلى إثارة فتنة طائفية بمقالاته التى كتبها ردا على لويس عوض .

فانظر الآن أى ضرب من الرجال هو ! شاعر فذّ تجاهل شعره النقاد ، ولم يلتفت أحد منهم إلى « القوس العذراء » إلا بعد ثلاثين سنة من نشرها . وباحث عبقرى أتى بمنهج فريد فى كتابه « المتنبى » لم ينتبه إليه أحد ، وكاتب واسع الثقافة يقوم بكل علوم العربية لم يقدره أحد حق قدره ، ومجاهد سياسى أفنى حياته يدافع عن وطنه وعروبته ، وتراثه وحضارته وعربيته ، فذهب قوله باطلا وضاع صوته مختنقا ، ولم يجن من حياته إلا شقاء انتهى به إلى ظلام السجون .

جعل الرَّجُل كل ذلك ظهريا ، وعاش فى عزلة فرضها على نفسه غير مبال

بشيء ، ذكره الناس أو نسوه ، وقنع بطلاب العلم وأهله الذين كانوا يترددون عليه للنهل من علمه ، وضنَّ على جيله وما تلاه من أجيال بعلمه القديم أن يبعثه من رفاته التى قبروها بتجاهلهم وجحودهم . ولم يغب عنه أن هذه العزلة قد فعلت أفعالها بالأجيال التى تعاقبت فحالت بينهم وبينه ، يقول « وضعت اسمى فى صندوق مغلق ، لا يعرف مافيه إلا عدد من قدماء القراء . أما الأجيال الحديثة فهى تمرّ عليه بلا مبالاة ، ثم لا تجد ما يحفزها على الكشف عما يحتويه الصندوق المغلق ، والكاتب إذا وضع قلمه صدىء ، وإذا حجب اسمه عن القراء ، نُسِى اسمه ، وانطمس رسمه ، ودخل فى حيز الموتى ، وإن كان يعد فى الأحياء » ص ١٠٧١ .

وإذا كانت هذه العزلة قد حجبته عن جيلنا والجيل الذى سبقنا ، فما بال الأجيال الذى تلتنا ؟ ألم تكن مقالاته فى الرد على لويس كفيلة بنزع الغشاوة عن العيون فتبصر هذا المجاهد السياسى الذى شرع قلمه رمحا حديد السنان مدافعا عن أمته وعروبته وإسلامه غير عابىء بما يصيبه ، ولا يبالى أن يعود من رحى هذه الحروب سالما أو مُكَلَّما مثخنا بالجراح ، أو مكبلا بالقيود فى غياهب السجون ؟ ألم تكن مقالاته « نَمَطٌ صعب ونمط مخيف » زعيمة أن تجعل النقاد ودارسى الأدب يقتفون خطاه فى تحليل القصائد العربية القديمة ؟

وأين كانت مجامع اللغة العربية منذ تأسست حتى انتخابه عضوا مراسلا بمجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٠ ، وعضوا عاملا بمجمع اللغة العربية بمصر سنة ١٩٨٢ ؟ فهذى أربعون سنة أو تزيد أغفلته المجامع كأنه غير جدير بعضويتها ، وقل مثل ذلك فى كل مؤسسات مصر الثقافية والتعليمية التى كانت ستفيد من خبرته لو أفسحت له مكانا حين كانت تعج بأشباه المثقفين وأدعياء العِلْم .

وأين كانت الهيئات التى تمنح الجوائز للعلماء والأدباء ورجال الفكر كِفاءَ ما أسهموا به فى تقدم أمتهم والتمكين لبقاء حضارتها ؟ هل ضُرِب بينها وبين عطائه الذى لم ينقطع أربعين حولا كَرِيتا بالأَسداد حتى عام ١٩٨١ ؟

وأين كانت الجامعات ومعاهد العلم هذه السنين ذوات العدد ، فلم توجه طلابها لدراسة إنتاجه البعيد الغور فى أعماق الفكر والمتراحب الآفاق فى أجواء الشعر والأدب والنقد واللغة حتى سنة ١٩٨٥ ؟

إذا استطعت أن تكون مُقْسِطا ، وأجبت فى حَيْدة دون أن تهوى فى مزالق الأهواء فهمتَ لماذا آثر الأستاذ شاكر أن يعيش رهين بيته ، وقد صار إحساسه المبهم القديم بانغماسه فى « حياة فاسدة من كل وجه » متصاعدا يقينا لا شك فيه ، وفهمت أيضا قصة الكتاب التى حكيتُها فى صدر هذا التقديم .

وبعد ،

فقد خالفتُ الأستاذَ محمود شاكر مرتين ، مرة فى حياته فى صدر شبابى بنَشْرى شعر الأحوص الأنصارى ، ومرة بعد مماته بعد أن ولّى الشباب وأَنَفْتُ على العمر بنشرى مقالاته ، وكنت محقا فى الأولى ، وما أخطأتُ فى الثانية ، فلعله – طيب الله ثراه – يفىء إلى الحق فى هذه كما عاد إليه فى تلك .

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ .

عادل سليمان جمال

دبى ، دولـــة	ليلة النصف من شعبان ١٤٢٣ هـ
الإمارات العربية	الاثنين ٢١ أكتوبر ٢٠٠٢ م

* * *

نموذج من خط الأستاذ محمود محمد شاكر

١ - حين دعيتُ إلى إلقاء هذه الكلمة بين أيديكم ، كان أوّل ما فكرتُ فيه أن أعدّد أنواع الأخطار التي تحيط ببلادنا ، والأخطار التي تتغلغل في كياننا تغلغل السوس في العرق العتيق .. ولست أعني مصر والسودان وحدهما ، بل أعني جميع بلاد الشرق ، وبلاد العرب ، وبلاد الإسلام . فنحن فيما أرى رقعة واحدة ، لها هدفٌ واحدٌ هو الحرية ، تنازل عدوًّا واحدًا له هدفٌ واحدٌ ، هو أن يسلبنا هذه الحرية .

٢ - ولكني رأيت الأخطار أكثر من أن يحاط بها في حديثٍ واحد ، ورأيتها جميعًا ترتدّ إلى زمنٍ بعيد ، ورأيتها قد تطورت أطوارًا على كرّ الأيام . ورأيت المرء إذا رام أن يقسّم هذه الأخطار الداهمة أقسامًا كثيرة فعل ، وإذا أبى إلا أن يحصرها في شيءٍ واحد فعل أيضًا غير آثم ولا مجانبٍ للصواب . وهذا الشيء هو الاستعمار ، فالاستعمار خليق أن يجمع في هذا اللفظ البريء من اللغة كلّ معاني الأخطار ، وكلّ خبائث الشرور التي اجتمعت في أرض الله منذ كانت هذه الأرض . فآثرت أن أجعله مادة هذا الحديث ، لا لأنه شيءٌ حدث اليوم بعد أن لم يكن بالأمس ، بل هو كما تعلمون قديم قد تطاول عليه الأمد ، والحديث عن شروره قديم أيضًا منذ كان هذا الخبث اللعين . ولم تزل أرجاء الشرق تردد أصداء الزئير العالي ، زئير الأحرار في كل بقعة من بقاعه ، ولم تزل ترجع أيضًا أنّات المعذبين ، الذين صبّ عليهم الاستعمار عذابًا غليظًا ونكالًا شديدًا في كل مكان . ليس الاستعمار إذن شيئًا حديثًا كان بعد أن لم يكن من قبل ، بيد أنه شيءٌ يتجدد كلّ يوم ، ويتخذ صورًا مستحدثة مختلفة الأشكال ، بعضها بشعٌ تنكره العين منذ النظرة الأولى ، وبعضها ثقيل بغيضٌ إلى النفوس ، ولكنه يلحّ إلحاح الذباب حتى ييأس المبتلى به ، فيعرض عنه تارةً ويتجشّمه أخرى . فإذا طال الزمن ألف هذا البغيض الثقيل فلم ينكره . أما أخبث صوره وأخفاها فهو الذي يأتي القلوب من أضعف أركانها ، فيتمكن ويضرب بعروقه ، ويستفحل ويتفشّى ، حتى لا يكاد ينفر منه أشدّ الناس بغضًا للاستعمار ، وأصدقهم حملةً على أصحابه وطواغيته .

٣ - والأخطار الحديثة التي يشملها لفظ الاستعمار كثيرة لا يحصرها عدٌّ ، وأظهرها الآن خطر المطامع الديمقراطية التي هبّت على الشرق كالذئاب الضواري من كل أرض وفي كل ميدان ، وخطر المطامع الشيوعية التي تتدسّس إلى كلّ قلب ، فتلقي فيه فتنتها ، وتنفث فيه سمومها . ومن البلاء أن تجد كثيرًا من الناس لا يزالون يؤمنون بأنهم سوف ينالون خيرًا كثيرًا - أو بعض الخير على الأقل - على يد الفئة الديمقراطية ، وأن تجد آخرين لا يزالون يؤمنون بأن الفئة الشيوعية لا تضمر كبيرَ شرٍّ لهذه البقعة المسكينة من بلاد العرب أو بلاد الإسلام أو بلاد الشرق . وهذا الضرب من الإيمان ، بل هذا الضرب من الغفلة كان منذ قديم أكبر مقاصد الاستعمار ، سعى إليه ، ولا يزال يسعى إلى الإكثار منه ، وإلى تزيينه للجماهير ، لا عند الطبقة المثقفة وحسب . ولقد أدرك الاستعمار ما شاء من هذا المقصد . فمن أجل ذلك رأيت أن أصرف وجه الحديث إلى ناحية من نواحي الاستعمار ... أراها أجدر بالبيان وبالفهم ، وأرى التقصير في بيانها وإفهامها لجماهير الناس ، هو الخطر العتيق الكامن وراء خطر الديمقراطية ووراء خطر الشيوعية ، أو وراء خطر الاحتلال العسكري السافر ، أو خطر الاحتلال الاقتصادي الملثم ، بل هي مادة كل خطر يتجدد علينا إلى أن يزول الاستعمار عن وجه هذه الدنيا .

---

* انظر « الاستعمار البريطاني لمصر » ، محاضرة بخطه لم تنشر من قبل – ص ٩١١ من المقالات .

جمهرة مقالات
الأستاذ محمود محمد شاكر

الرسول ﷺ

قرأتُ فى عدد الرسالة الذى صدر بتاريخ الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٣ بابًا من القصص الشعرى عن (إسلام حمزة) رضى الله عنه وقد وضع هذه القصة واضعُها [١] وهو يَقْصِد بها – إن شاء الله – خيرًا . إلا أن طريق الخير إلى ما قصد إليه قد التوى به التواءً يذهب بكل ما عَمِد إليه ، فإنه وضع على لسان الرسول شعرًا نزهه الله عنه بقوله ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ ، ثم يلى ذلك أنه قد وضع على لسانه ما لم يقله ﷺ .

وليعلم صاحب هذه القصة أن الرسول ﷺ يقول « من كذب علىَّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعده من النار » ويقول « من حَدَّث عنى بحديث يرى أنه كَذِبٌ فهو أحد الكاذبين » . فكيف بصاحبنا وهو يُنْطِقُ رسولَ الله ﷺ بما لم يقُلهُ ، ثم يكون ما أنطقه به من الكلام مَصُوغًا فى القالب الذى نزَّه الله عنه نبيه ﷺ ؟

وهذه المسألة مما يريد بعضُ الناس أن يحتال لها بمنافق الكلام ليستحِلَّ ما لا يَحِلُّ أبدًا . وهم يراودون الناس فيها عن عقولهم أولًا ثم عن إيمانهم ثانيًا ، لينقادوا لهم فى الرضا بها والمتابعة عليها ...

والمسألة لو تناولت أحدًا غير صاحب الرسالة لقلنا عسى ولعلَّ ...

ولنظرنا فى المخرج الذين يتأولونه نظر المنطق ، ولكنها تتناول إنسانية وحدها قد جعلها الله بمنزلة فوق منازل سائر البشر ، وإن لم تخرج عن منزلة البشر فى أعراض الحياة وما يكون فيها وما يأتى منها .

إن إنسانية الأنبياء وحدها هى الإنسانية التى أوجب الله على من حضرها من الناس أن يؤمن بها أولًا ، ثم يحافظ على رواية سيرتها ثانيًا ، ثم يحترس ويتدبر

---

* الرسالة ، السنة الثانية (العدد ٥٢) ، ١٩٣٤ ، ص : ١٠٩٥

(١) هو الأستاذ فريد عين شوكه ، انظر العدد ٥١ من الرسالة ، السنة الثانية ، ص : ١٠٧٧

فيما ينقُل عنها أو يصفُ منها ، لأن نسبة شيء من الأشياء إليها قد يكون مما يتوهم أحدٌ منه وهمًا يخرج – فيما يُقبل من أمر الدنيا – بحقيقة الرسالة التى أرسلوا بها عن القانون الإلهى الذى عَمِلوا به ليحققوا كلمة الله التى تعلو أبدًا ، وتُزْهِر دائمًا ، وتبقى على امتداد الزمن روح الحياة البشرية وميزان أمر الناس فى هذه الدنيا .

وليس يقال فى قصة صاحبنا أو غيرها أَنَّ ما أُنْطِقَ به الرسول لا يتناول تشريعًا أو أدبًا أو حكمة ، وإنما يتناول الكلام المُتَعَاطَى بين الناس فليس به من ثَمَّ بأسٌ ... ليس يقال مثل هذا لأن التشريع حين يوضع ويراد به سدُّ أبوابٍ من الشر والفتنة يأتى منعًا مصمتًا لا مَدخلَ فيه ولا ثغر حتى يدفع المُحَزِّبين [١] والمفسدين والعابثين ويضرب على أيديهم من كل ناحية . ولو كان الأمر على غير ذلك لتناول كل لصٍّ مفتاحَ الباب الذى يريد أن يدخل منه إلى عقول الناس ليستغرّهم ويزلزلهم من جنة الإيمان إلى جحيم الإلحاد فى الدين من الطريق الخفى الذى لا تُبْصِر فيه العامة ولا تَهدى به إلى أرشد أمرها فى الحياة .

فنحن هنا نتقدم إلى الأستاذ صاحب القصة بأن يتدبر ما شاء ، فهو سيدع ما سلك إلى سبيلٍ أهدى ، فإن الأدب الذى له نعمل لم يقتصر ولم يضق حتى ندَع ما أحل الله إلى ما نهى عنه ، ونترك سبيل الرشاد إلى سبيلٍ تنحدر بنا إلى هاويةٍ لا قرار لها ، ولا عَاصِمَ منها .

* * *

(١) المحزبون : الذين يُحزِّبُون القوم ، أى يجعلونهم أحزابا ليتعصبوا لما جمعوهم له .

الرافعى

رحمةُ الله عليكَ ! رحمةُ الله عليكَ !
رحمة الله لقلبٍ حزينٍ ، وكبدٍ مَصدُوعة !

* * *

لم أَفْقِدكَ أيها الحبيبُ ولكنِّى فقَدْتُ قَلْبى .
كنتَ لى أملًا أستمسِكُ به كلما تَقَطَّعَتْ آمالى فى الحياة .
كنتَ راحةَ قلبِى كلما اضطربَ القلبُ فى العناء .
كنتَ اليَنْبُوعَ الرَّوِىَّ كلما ظَمِىءَ القلبُ وأحرقه الصَّدَى .
كنت فجرًا يتبلَّج نورُهُ فى قَلْبى وتتنفس نسماته ، فوَجدتُ قلبى ...
إذ وجدتُ عَلاقتى بكَ .
لم أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكنى فقدتُ قلبى .

* * *

جزعى عليك يمسك لسانى أن يقول ، ويرسل دمعى ليتكلم . والأحزانُ تجدُ الدمعَ الذى تذوب فيه لتهونَ وتضَّاءَل ، ولكنَّ أَحزانى عليك تجد الدمع الذى تروَى مِنْه لتنمو وتَنْتَشر .

ليس فى قلبى مكان لم يرفَّ عليه حبى لك وهوَاىَ فيك ، فليس فى القلبِ مكان لم يحرقه حزنى فيك وجَزَعى عليك . هذه دموعى تُتَرْجِم عن أحزانِ قلبى ، ولكنها دموع لا تُحْسِنُ تَتَكَلَّم .

* * *

(*) الرسالة السنة الخامسة (العدد ٢٠٢) ، ١٩٣٧

عشتُ بنفسٍ مُجْدِبة قد انصرفَ عنها الخصب ، ثم رحمَ الله نفسى بزهرتين تَرِفَّان نضْرة ورواء . كنتُ أجدُ فى أنفاسهما ثرْوة الروضة الممْرعة فلا أحسُّ فقر الجدْب !

أما إحداهما فقد قطفتْها حقيقةُ الحياة ، وأما الأخرى فانتزعتها حقيقةُ الموت ، وبقيت نفسى مجدبة تستشعِرُ ذلَّ الفقر .

* * *

تحت الثرى ... عليك رحمة الله التى وسعتْ كلَّ شىء ، وفوق الثرى ... علىَّ أحزان قلبى التى ضاقت بكل شىء ؛ تحت الثرى تَتَجَدَّدُ عليكَ أفراحُ الجنّة ؛ وفوق الثرى تتقادمُ علىَّ أحزان الأرض !

تحت الثرى تتراءى لرُوحِك كلُّ حقائق الخلود وفوق الثرى تتحقَّقُ فى قلبى كلُّ معانى الموت . لم أفقِدْك أيها الحبيب ولكنّى فقدت قَلْبى

* * *

حضَرَ أَجلك ، فحضرتنى همومى وآلامى .

فبين ضلوعى مأتم قد اجتمعت فيه أحزانى للبكاء ؛ وفى روحى جنازة قد تَهَيَّأَت لِتَسير ؛ وعواطفى تُشَيِّعُ الميت الحبيب مُطرقة صامتة ؛ والجنازة كلها فى دمى – فى طريقها إلى القبر وفى القلب ... فى القلب تُحْفَرُ القبورُ العزيزة التى لا تُنْسَى

* * *

فى القلب يجد الحبيب روحَ الحياة وقد فرغ من الحياة ؛ وتجد الروح أحبابها وقد نأى جُثْمَانها .

فى قلبى تجد الملائكة مكانًا طَهَّرَته الأحزان من رجس اللذات .

وتجِدُ أجنحتها الروح الذى تهفهف عليه وتتحفَّى به .

هنا ... فى القلب ، تتنزَّل رحمة الله على أحبابى وأحزانى ، ففى القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تَفْنَى ، وفى القلب تُحْفَرُ القبور العزيزة التى لا تُنْسَى .

* * *

لم تُبْقِ لى بَعدَكَ أيها الحبيب إلا الشوقَ إلى لقائك .
فقدتُكَ وَحْدِى إذ فقدك الناس جميعًا .
سَمَا بكَ فرحك بالله ، وقعدت بى أحزانى عليكَ .
لقد وجدتَ الأنْسَ فى جوارِ رَبِّك ، فوجدتُ الوحشة فى جوار الناس .
لم أفقدك أيها الحبيب ولكنى فقدتُ قلبى
لم تُبق لى بَعدَك إلا الشوق إلى لقائك
رحمة الله عليك ، رحمة الله عليك !

* * *

بين الرافعي والعقاد

- ١ -

قرأت ماكتب الأستاذ سيد قطب في العددين السالفين من الرسالة ، وكنت حَرِيًّا أَلَّا أعبأ بما يكتبُ عن الرافعي في أوانِ حولِ وفاته ، وقد تهيأ أهله وأحباؤه وأصحابه تتلفَّتُ قلوبهم لذكراه الأولى بعد أن سَلَّه الموت من بينهم اغترارًا .

والأستاذ سيد قطب قد أبى له حسن أدبه ، وجميل رأيه ، ومروءة نفسه ، ونُبْل قلبه ، وشرف مقصده ، وإشراق نقده إلّا أن ينبش ماضي الرافعي وما سلف من أمره ، ليستخرج حلية يتحَلّى بها إذ يكتب عن خصومةٍ بين رجلين : أما أحدهما - أنسأ الله في أجله وأمتع به - فما برح يتلطف للناس بما يستجيد من عمل يجدد به مَطَارِفَ آخرته ؛ وأما الآخر - رحمةُ الله عليه - بين يدى ربه يتقرب إليه بعمل قد أبلى به أثوابَ دُنْياه . فلولا أن الميت لا يدفع عن نفسه في ساعة موته مثل الذى كان يدفع في أيام حياته ، وأن ذكر الحى أقرب إلى الناس من ذكر الميت - لكان جديرًا بنا أن ندع الأستاذ المهذب الفاضل يتكلم بالذى يهوى على ماخيَّلَتْ له . فليس للأدب اليوم من الحرمة ، ولا فيه من النبل ، ولا عليه من الحياطة والحرص ما يحفز أحدًا للمراصدةِ دونَه أن يُمتَهن أو يُسْتَرْذَل .

هذا ... وقد جعل الأستاذ الفاضل يستثير دفائن الإِحَن [(١)] ، والأحقاد التى كانت بين الرافعي والعقاد ، ليتخذ منها دليلَهُ الذى يفزعُ إليه فى أحكامه !! على الرافعيّ . لا بل على قلب الرافعيّ ونفسه وإيمانه بعمله وعقيدته فيه !! ثم لم يرض بذلك حتى نفخ فيها من روح الحياة ، ما جعلها ممَّا يكتب الأحياء عن الأحياء للإِيلام والإِثارة ، لا للجرح والتعديل والنقد ؛ وكأن الفتنة عادت جَذَعَةً [(٢)] بين الرافعي نفسه وبين العقاد . ولقد بدا لبعض الناس رأىٌ فيما كتب الأستاذ

(*) الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٤) ١٩٣٨ ، ص : ٧٨١ - ٧٨٣

(١) الإحن : جمع إِحْنَة ، وهى الحقد والضغينة

(٢) جذعة : يقال : أعدتُ الأمر جَذَعًا ، أى جديدا كما بدأ ، ولا يكاد يُسْتَعمل إلا فى الشرّ .

المهذب ، ولكنا نفيناه إذ سُئلنا عنه ، فنحن نعلم أن العقاد لا يرضى اليوم أن يكتب مثل هذا الذى كُتب عن الرافعى . ولقد ساء ظن امرئ بالعقاد ألا تكون للموت فى نفسه حرمة ، حتى يكون هو يعين عليه أو يرتضيه أو يسكت عنه إلا سكوت الغَضَبِ والاستهانة .

فنحن إذ نكتب فى ردِّ كلام هذا الأستاذ الفاضل سيد قطب لا نبغى أن نسدِّدَ له الرأى فيما يحب أن يرى ، فما علينا ضَلّ أو اهتدى ، ولا أن نقيم مذهب الرافعىّ على أصله وقد ذهب سَبَبُه وبقى أدبه ؛ ولا أن نسوء العقاد حفيظة نتوارثها له عن الرافعى أو من ذات أنفسنا ، فما من شيمتنا مثلُ ذلك ؛ كلَّا ، بل نكتب لنميط الأذى عن حُرَم الموت ، وكفى بالموت حقًّا وجلالًا .

ورحم الله الشعبىّ فقد كان يقول : « تعايش الناس زمانًا بالدين والتقوى ، ثم رُفِعَ ذلك فتعايشوا بالحياء والتذمم ، ثم رفع ذلك فما يتعايش الناس اليوم إلا بالرغبة والرهبة . وأظنه سيجئ ماهو أشد من هذا » . ولقد جاء وفات ما نحن فيه ظنونَ الشعبى . فما يتعايش الناس اليوم إلا بثَلْبِ الموتى !

وإلا فما الذى رمَى فى صدر الأستاذ سيد قطب بهذه الغضبة الجائحة من أجل العقاد ؟ ألم يكتب الرافعى للعقاد يوم كان يملك يكتب ويقول ؟ أو لم يكتب العقاد للرافعى ماكتب ؟ ثم نامت الثائرة ما بينهما زمنًا كان حده الموت . يقول الأستاذ : إنه – هو لا العقاد – « كان مستعدًّا للثورة والحنق ، لو تناول بعض هؤلاء – يعنى الرافعى ثم مخلوفًا – أدَبه ! بمثل هذا الضيق فى الفهم ، والاستغلاق فى الشعور ... » . أفكان كلام سعيد العريان – وهو يؤرخ أحقادًا قد سلّها الموت إذ سَلَّ أسبابها – هو الذى أثار هذا الحىّ المستعد للثورة على ذلك الميت العاجز عن دفع الثورة ؟ ثم ما الذى يحمله على أن يُلبسَ هذه الثورة جلد النقد ؟ والعجب أن يثير ماكتب « سعيد » حيًّا ليس شيئًا فى الخصومة بين الرافعى والعقاد ، وهو ليس يثير العقاد أحدَ طرفى الخصومة ، وهو الذى يملك أن يقول لسعيد أخطأ أو أصاب ... ! أشهد أن ما بالأستاذ قطب النقد ، ولا به الأدب ، ولا به تقدير أدب العقاد أو شعره . فما هو إلا الإنسانُ وجهٌ يكشفه النور ويشف عما به ، وباطنٌ قد انطوى على ظلمائه فما ينفذ إلى غيبه إلا عِلْمُ الله .

وأنا أقدّمُ بين يدى كلامى حقيقةً لابدّ من تقريرها عن الرافعى والعقاد ، وذلك أن الرافعى - رحمه الله - لو كان يرى العقاد ليس بشىء البتة ، وأن أدبه كله ساقط ذاهب فى السقوط ، وأنَّ وأن ... مما كان يكتب ليغيظ به العقاد من جراء العداوة التى ضربت بينهما - لما حمل الرافعى عناء الكتابة فى نقد العقاد وتزييف أدبه وإبطال أصل الشعر فى شعره . ولو كان العقاد يرى الرافعى بعض رأيه الذى كتب لما تكلف الرد على الرافعى ولا التعرض له . وكم من رجل كتب عن الرافعى وعن العقاد ونال منهما وأوجع ! ولأنه ليس يدخل فى حسابهما ، ولا يقيمان لأمثاله وزنًا ، ولا يعبآن بقوله ونقده وثورته - فقد تركاه يقول فيكثر فيملُّ فيسكُت . ولم يكن بين أحد منهما وبين مثله كالذى كان بين الرافعى والعقاد .

فالرافعى والعقاد أديبان قد أحكما أصول صناعتيهما ، كلٌّ فى ناحيته وغرضه ، وأفنيا الليالى والأيام والسنين فى ممارسة ما هو فيه وإليه ، وكلاهما يعلم عن عمل صاحبه مثل ما يعلم عنه ، ولا يُظن بأحدهما أنه يجهل قيمة الآخر . فلما كانت العداوة بأسبابها بينهما بدأت قوّة تعارضُ قوة ، ورأىٌ يصارع رأيًا ، وكان فى كليهما طبيعة من العنف والغُرام [1] والحدّة ، وَولِعَ العقادُ بإرسال العبارة حين يغضب على هِينتها صريحة لا صنعة فيها ، وأُغرى الرافعى بالسخرية والمبالغة فى تصوير ما نصبه لسخره وتهكمه على طريقة من الفن ؛ فمن ثَمَّ ظهرت العداوة بينهما فى النقد . وفى أذيالها أذى كثير وغبارٌ ملؤه القواذع والقوارص من اللفظ ، وعلى جنباته صورٌ ينشئها أحدهما لصاحبه للكيد والغيظ والحفيظة ، لا يراد بها إلا ذلك . ولقد شهدتُ أن الذى كان يكتبه الرافعى عن العقاد لم يكن عندى مما يحملنى على الحط من منزلة العقاد التى كان ينزلها فى نفسى ، بل أستيقن أن الذى يكتبه إنما يراد به النيل من غيظ العقاد لا من العقاد نفسه . وعلى مثل ذلك كنتُ أجد ما يكتبه العقاد عن الرافعى ، فلم يكن نيل العقاد من الرافعى - وأنا أحبه - مما يحملنى العداوة له أو يدفع بى إلى الغيظ والحنق والثورة .

وخليق بنا وبآدابنا أن نطوى الآن سيئة رجلين قد تفارط أحدهما فى غيب الله . وبقى الآخر تحوطه الدعوة الصالحة بطول البقاء وامتداد الأجل وسداد العمل .

---

(١) الغُرام : الشِّدَّة والبأس .

والكلمة الأولى من كلمتى الأستاذ سيد قطب ، إنما تدور رحاها ورحى (بغضائه) للرافعى - أو كما قال - عن نفى الإنسانية من ذلك الإنسان رحمة الله عليه ، وخلوه منَ النفس ، وفقدانه الطبع ، وفقره إلى الأدب النفسى - وما إلى ذلك من لفظ قد ضل عنه معناه ، وتهافت عليه حده - وأنه كان (رحمة الله عليه) ذكيًّا قوى الذهن ، ولكنه كان مغلقًا من ناحية الطبع والأريحية ، وأن أدبه كان أدب الذهن لا أدب الطبع ، فيه اللمحات الذهنية الخاطفة ، واللفتات العقلية القوية ، ولكن الذى ينقصها أنه ليس وراءها ذخيرة نفسية ، ولا طبيعة حية ، إلى غير ذلك مما حفظه الأستاذ من شوارد اللفظ ، وأوابد المعانى ... وأسمع جعجعةً ولا أرى طحنًا [١] .

وأنا كنت أتنظر بالأستاذ أن يأتى فى كلمته الثانية بشىء من النقد يُنسى إليه ما قدم فى الأولى من سوء العبارة وشُنْعَة [٢] اللفظ فى ذكر الرافعى الميت ؛ ولكن خاب الفأل ، وجاءت الثانية تدل مَنْ يَغْفُل عن الدلالة البينة ، على أن هذا الأستاذ الجليل لا يزال يستملى ما يكتب من بغضائه . وهان شيئًا أن يكره الأستاذ الجليل رجلا كالرافعى حتى يأكله السُلّ من بغضه ؛ ولكن الأمر كل الأمرِ حيث ذهب يزعم فيما يكتب أن هذه البغضاء التى يستملى منها هى النقد ، وأن أحكامه على الرافعى إنما هى أحكامُ قاضٍ ، لزم المتهم حتى أنطقه وأشهد عليه لسانه ، فاستوعب كلامه واستنبط الحجة عليه من ألفاظه ، واستوثق للتهمة من قوله ، ثم بنى (الحيثيات) من فحوى عباراته ، ثم حكم وما حكم على المتهم إلا كلامُه ، ولا شهد عليه إلا لسانُه .

فلهذا كان علينا لزامًا أن ننظر فى الذى أتى من كلام الرافعى . ثم قوله فيه ، واستنباطه الدلائل منه ، وتحليله نفس الرافعى من لفظه حتى جعله مستغلق الطبع مسلوب العقيدة ، ثم هو فوق ذلك لا يزال يبدئ ويعيد فى كلامه ذِكرَ أصدقاء الرافعى وأصحابه ويسخر منهم ويتحداهم ، ويحملهم على مركب وعر ، ويضطرهم بين خُطَّتى خَسْفٍ [٣] فى أحكامه على الرافعى ، ويخيرهم أن يختاروا

---

(١) طحنا : الطِّحْن : الطَّحِين ، فعيل فى معنى مفعول أى المَطْحُون ، « أسمع جَعْجعةً ولا أرى طِحْنا » مَثَلٌ .

(٢) شنعة : الشُّنْعَة ، شَنُع الأمر شَناعةً وشُنْعا وشُنُوعا : قَبُحَ ، فهو شنيع ، والاسم : الشُّنْعَة .

(٣) خُطَّتا خَسْف : أمران فيهما الهوان والبلاء والمكروه . وجاءت هذه العبارة فى شعر عبد الله ابن الزُّبير (انظر ابن سلام : ١٧٦) .

للرافعىّ طرفًا من طرفين يحسب أنه يُلزمهم شناعةَ شناعاته التى سمَّاها أحكامًا على الرافعى . وسنتولّج فيما لا نحب ، لا كرامةً للأستاذ الجليل أو استجابة لدعائه ، بل لنميط الأذى عن نَفْسٍ مطمئنة لحقت بالرفيق الأعلى راضية مرضية .

ولولا أن يُقال هَجَا نميرًا ولم نَسْمَع لشاعرهم جوابا
رغبنا عن هجاء بنى كُلَيْبٍ وكيف يُشاتِم الناسُ الكلابا

* * *

بين الرافعى والعقاد

– ٢ –

نقل الأستاذ الأديب سيد قطب فى كلمته الثانية بعض ما نقده الرافعى فى قصيدة للعقاد فى ديوانه بعنوان (غزل فلسفى ؛ فيك من كل شىء) ، وذلك حين يقول فى حبيبته :

فيك منّى ومن الناس ومن   كـلّ مـوجـودٍ ومـوعـودٍ تُـؤام

فقال الأستاذ قطب : فلا يرى الرافعى فى هذا البيت الفريد إلا أن يقول : « قلنا فإن (من كلِّ موجود) البق والقمل والنمل والخنفساء والوباء والطاعون والهيضة وزيت الخروع والملح الإنجليزى إلى واوات من مثلها لا تعدّ ، أفيكون هذا كله فى حبيب إلا على مذهب العقاد فى ذوقه ولغته وفلسفته ؟ » .

ثم يعودُ فيقول : « إن هذا المثال هو مصداق رأيى فى أن الرافعى أديب الذهن لا أديب الطبع ، وأنه تنقصه « العقيدة » ! التى هى وليدة الطبع أولًا ؛ فأىّ « طبع » سليم يتجه إلى تفسير بيت غزلىّ فى معرض إعجاب شاعر بحبيبته ، واستغراق فى شمول شخصيتها بأن « كلّ موجود » هو البق والقمل والنمل .. إلخ » غافلًا عما فى هذا الإحساس من « حياة » ! « واستكناهٍ » ! لجوهر الشخصية ، و« خيالٍ بارع » تثيره طبيعة فنية ، فيرى فى هذه المرأة من متنوّع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا عالمًا كاملا من كل موجودٍ وموعود .

أحد أمرين :

إما أن الرافعى ضيق الإحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت إلى مثل هذه اللفتات الغنية بالشعور .

---

* الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٤) ، ١٩٣٨ ، ص : ٨٠٨ – ٨١١

وإما أنه يدرك هذا الجمال ، ولكنه يتلاعبُ بالصور الذهنية وحدها ، غافلًا عما أحسّه وأدركه .

وهو فى الحالة الأولى مسلوب « الطبع » وفى الثانية مسلوب « العقيدة ! » فأيهما يختارُ له جماعة الأصدقاء » .

ثم أتمَّ الأستاذ علينا نعمة نقده بأن قال « إن هذا المثال يمثل تلاعب الرافعيِّ بالصور الذهنية ، واستغلاق طبعه دون تملى الإِحساس الفنى » .

وقد آثرنا أن ننقل فى كلامنا كلَّ هذا لانبدِّله ولانحرِّفه لنقطع بذلك مادة الشك فى صحة النقل من كلام الأستاذ قطب ، وليجتمع للقارئ فكرُه على رأى متصل حين ينظرُ فى أعقاب كلامنا بالتعرُّف أو الإنكار .

ونحن حين قرأنا قصيدة العقاد لأول مرة فى مجلة المقتطف (يناير سنة ١٩٣٣) زعمنا أنها قصيدة مؤلَّفة من مادة غير مادة الشعر ، وأن الغزل الفلسفى الذى فيها حديث يتهالك ، والفلسفة منطق يتماسك ، فهى على ذلك ليست من شعر ولا فلسفة . وهذا هو بديهة الرأى لمن يقرأ هذه القصيدة ويتدبر معانيها ، ويقيسها إلى غرض صاحبها فإنه سماها أول ما سمى « غزلًا فلسفيًّا » ثم أتبع هذا - وفى رأسها - مما يشبه التفسير لهذا العنوان ، وما يتضمن فحوى القصيدة ، ويحدد جملة معانيها ، وذلك قوله : « فيك من كل شىء » .

ولسنا الآن بسبيل نقد القصيدة كلها ، وبيان ما أشرنا إليه قبل فى أثنائها وتضاعيفها ، وإنما نجتزئ بالقول فى البيت الذى نقده الرافعى ، ثم عقب على نقده الأستاذ سيد قطب بما شاء له « طبعه » المفتوح غير المغلق ، و« عقيدته » الكاملة غير المسلوبة و « خياله البارع » غير المتخلف .

وهذا البيت بعينه :

فيك منِّى ومن الناس ومن   كلّ موجودٍ وموعودٍ تُؤامْ

إنما هو تكرار لقوله فى صدر القصيدة : « فيك من كل شىء » حين أراد الشاعر أن يزيده بيانًا ووضوحًا ، ويجلوه جلاء المرآة ليصف شخص صاحبته ، أو كما قال الأستاذ القطب (لاستكناه جوهر شخصيتها !) .

وقد ذهب الرافعى فى نقد هذا البيت مذهب العربى حين يسمع الكلام العربىَّ لا ينحرف بألفاظه إلى غير معانيها حتى يتسع فى معانى الألفاظ بغير دلالة ظاهرة أو مُسوِّغ مُضْمر ولا يقبض من معانيها إلا بمثل ذلك مما يجيز انقباض بعض اللفظ عن سائره . وقد قال العقاد لصاحبته فى الغزل : « فيك من كلِّ شىء » و « وفيك من كل موجود » . والعرب والفلاسفة جميعًا يزعمون أن لفظ (كلّ) إذا دخَل على النكرة أوجب عموم أفرادها على سبيل الشمول دون التكرار . فكذلك أوجب الشاعر على صاحبته أن يشمل (جوهر شخصيتها) جزءًا من كلِّ مايمكن أن يسمى (شيئًا) ، ومن كل ما يسوغ أن يسمى (موجودًا وموعودًا) . وهذا الإطلاق من (فيلسوف يتغزَّل) يقتضى شمول الأفراد من (كلِّ شىء) ، ومن (كلِّ موجود) . وليس يشك أحد - ممن لم يسلبهم الله « الطبع » و « العقيدة » ولم يحرمهم « الخيال البارع » - فى أن ماذكره الرافعىُّ فى كلامه - من البق إلى الملح الإنجليزى - شىء من الأشياء وموجود من الموجودات . والفيلسوف حين يتغزل لن يريد هذا بغير شك ، ولكن أين تذهب بمعنى اللفظ (كلّ) فى العربية ؟ وفى حدود الألفاظ التى تدور على ألسنة الفلاسفة ؟ وأى دلالة توجب قبض معنى الشمول من هذا اللفظ ؟ أو أىُّ مُسَوِّغ يجيز الحد من الإحاطة التى يقتضيها هذا الحرف فى مجرى قول الشاعر « فيك من كل شىء » وفيك « من كل موجود » ؟!

هذا بعض القول فى فساد ألفاظ هذا البيت ، وبطلان معنى الفلسفة فيه . ولا يفوتنى فى هذا الموضع أن أدل على موضع الضعف فى فهم الأستاذ قطب لكلام الرافعى . فالرافعى يقول : « قلنا ، فإن من - كل موجود - البق ... إلخ » ، والأستاذ الأديب البارع يقول وكأنه يشرح معنى الرافعى : « فأى طبع سليم يتجه إلى تفسير بيت غزلى ... بأن « كل موجود » هو البق والقمل ... إلخ » ؟ غافلًا عما فى هذا الإحساس من « حياة » و« خيال بارع » ، تثيره طبيعة فنية ، فيرى فى هذه المرأة من متنوع الصفات وشتى المزايا عالمًا كاملًا من كل موجود وموعود » . والرافعى رحمه الله لم يقُل إن (كل موجود) هو البق ... إلخ ، وإنما

قال إن من (كل موجود) ، أى من أفراد الموجودات مايسمى بقًّا ... إلخ ، فالحرف (من) فى كلام الرافعى ليس هو الحرف (من) الذى فى شعر العقاد حتى يجوز ما ذهب إليه الأستاذ قطب بما ساء من تعليقه .

وقد أطلت القول فى تقرير نقد توحى بصحته سلامة الفطرة ، وحسن الذوق ، وصفاء القريحة ، ويوجبه اصطلاح المنطق ، وحَدُّ الكلام ، وإتقان الفلسفة ، ويقتضيه ما ذهب الشاعر يسرده مما هو « فى صاحبته » معددًا مبينًا مفصلًا حتى انتهى إلى إجمال المعانى فى هذا البيت . فقد قال لها : فيك من الشمس والبدر ، ومن الربيع والشتاء ، ومن غناء الطير ونوح الحمام ، ومن انسياب الماء ، ومن طبائع الوحش ، ومن حركة الأسماك ، وفيك من جوارح الطير ، ومن النعام ، ومن نار الحياتَيْن ، ومن الموت الزؤام ، ومن نقص الدنيا ، وكمال الآخرة ، ومن الملائكة ، ومن الشياطين ، ومن الخمر ، ومن القوت ، ومن الماء ، ومن الجوع ، ومن الأرض ، ومن السماء ، ومن عمل الأيام والدهور ، ومن الهندسة ومن الفن ... ثمَّ .

« فيك منى ومن الناس ومن　　　كل موجود وموعود تؤام » !!

أفلا يدل هذا على أن الشاعر الفيلسوف كَلَّ [1] التفصيل فرَمى بالجملة فى (كل شيء) من (موجود وموعود) بعد الذى تعب فى بيانه وتفصيله وذكره وتعداده ؟؟ وأى شيء بقى له لم يعدده من متنوع الصفات ومختلف النزعات وشتى المزايا والعالم الكامل ! إلا هَناتٌ هينات كذا وكذا ... وما ذكر الرافعى .

هذا ... وقد اقتصر الأستاذ على نقل بعض كلام الرافعى فى نقد هذا البيت ونحن نتمه للقراء بعد ذلك :

« إن ذلك المعنى الذى بَنى عليه هذا المسكين غزلَهُ الفلسفى قد مرّ فى ذهن أعرابىّ لم يتعلّم ولم يدرس الفلسفة ، ولا قرأ الشعر الإنجليزى والفرنسى والألمانى والفارسى ، وليس له إلا ذوقه وسليقته وطبيعته الشعرية ، فصفى المعنى تصفية جاءت كأنما تقطر من الفجر على ورق الزهر بقوله : زهر الآداب ج ٢ ص ٢٦١

---

(١) كَلَّ : تَعِب

فلو كنتِ ماءً كنتِ مَاءَ غَمَامَةٍ ولو كُنْتِ درًّا كُنْتِ مِنْ دُرَّةٍ بِكرِ
ولو كنتِ لهوًا كنتِ تعليل ساعةٍ ولو كنت نومًا كنتِ إغفاءَة الفَجْرِ
ولو كنت ليلًا كنت قمراءَ جُنِّبَتْ نُحُوسَ ليالى الشَّهْرِ ، أو ليلةَ القَدْرِ

(ولو كُنْتِ كُنْتِ) هذا أبدع عنوان لأجمل قصيدة فى فلسفة الغزل . وانظر كيف جعل الأعرابى حبيبته أصفى شىء ، وأغلى شىء ، وأسعد شىء ، وكيف صورها شعرًا للشِّعْر نفسه . ثم قابِلْ هذا الذوق المصفى بذوق من يجعل حبيبته من كل شىء ، ومن كل موجود وموعود تؤامًا وزؤامًا وبلاء عامًا » انتهى كلام الرافعى .

فإن شئت أن تعرف كيف يتناول الشعراء هذا المعنى المغسول من الشعر « فيك من كل شىء » فانظر حيث يقول جرير ، وهو فيما نعلم أول من افتتحه :

ما استوصف الناسُ (من شىء) يروقُهم
إلا أرى أُمَّ عمْرو فوْقَ ما وَصَفوا
كأنها مُزْنَةٌ غرَّاء واضحة
أو دُرَّةٌ لا يُوارِى ضَوْءَها الصَّدَفُ (١)

وقد أحسَنَ جرير تحديد المعنى وتجريده من اللغو (من شىء يروقهم) وجعل فى صاحبته من ألوان الجمال ما تهفو إليه نفوس الناس على اختلاف أذواقهم وتباين أنظارهم . وكأن أبا نواس نظر إلى هذا المعنى حين قال :

لكِ وجهٌ مَحَاسنُ الخَلْقِ فيه ماثلاتٌ تدعو إليه القُلوبا

على أن جريرًا قد ناقض وأحال وأفسد ما استصلح من شعره حين رجع فقال فى البيت الذى يليه : « كأنها مزنة ... أو درة » فإن هذا الحرف (كأن) للتشبيه ، والتشبيه يدعى قصور المشبه عن المشبَّه به ، وهو قد ادعى أنه يرى صاحبته فوق مايصف الناس (من شىء) يروقهم أو يروعهم أو يفتنهم .

ثم جاء مسلم بن الوليد بعقب جرير يقول :

---

(١) المزنة : السحابة البيضاء ، ورواية الديوان : غَرّاء رائحة .

مِثَالُها زهرةُ الدنيا مصورَّةً ... فى أحسن الناس إدبارًا وإقبالا
أَسْتَوْدِعُ العينَ منها كلما برزت ... وجها من الحسن لا تُلقى له بالا
فالعين ليست ترى شيئًا تُسَرُّ به ... حتى تُرينى لما استودعتُ تمثالا

ففارق مسلم جريرًا حيث جعل صاحبته (زهرة الدنيا مصورة) أى محاسنها وتهاويل جمالها ، وأنه يجد عندها تمثالًا لكل حسن تسر به العين .

ثم جاء أبو نواس فألبس الشعر والمعنى من توليده وحسن مأخذه ولطف عبارته فقال :

لها من الظرْف والحسن ... زائـدٌ يـتـجـدَّدْ
فـكـل حُـسْـن بـديـع ... من حُسنـهـا يتـولَّـدْ

ثم جاء أبو تمام فَقَصَّر ، ولم يحسن اختيار اللفظ ، وأضعف روح الشعر فيه فقال :

انْظُرْ فما عايَنْتَ فى غيره ... مـن حَـسَـن فَـهْـوَ لـه كُـلُّـهُ

وتناوله البحترى ، فزاد فيه معنى ، ولم يجوِّد نسجه فقال :

وأهيف مأخوذ من النفس شكله ... ترى العينُ ما تحتاجُ أجمعُ فيه

فالزيادة فى قوله « مأخوذ من النفس شكله » وهى جميلة لولا شناعة قوله (مأخوذٌ) ، ولو عدل فيها إلى مثل نهجه فى صفة الخمر :

أُفرغتْ فى الزجاج من كل قلب ... فهْى محبوبة إلى كلِّ نفس

لأجاد وبزَّ من سبقه . وقد فطن ابن الرومى إلى معنى البحترى فاتخذه لنفسه وسبَق حين قال :

وفيكِ أحسنُ ما تسمو النفوسُ له ... فأين يرغَبُ عنكِ السَّمْعُ والبَصَرُ

وقد قصر ابن الرومى فى الشطر الأول عن المعنى الذى أراده البحترى ، ولكنه جاوز البحترى ورمى به خلفه فى مقابلة قوله (ترى العين ماتحتاجُ أجمعُ فيه) بما قال (فأين يرغبُ عنك السمعُ والبصرُ) . ثم أدار ابن الرومى هذا المعنى ونقَّلَهُ [١] من سواه حين قال :

---

(١) نقّله : اكتسبه من غيره .

لا شيءَ إلا وفيه أحسنهُ　　فالعينُ منه إليه تنتقلُ
فوائد العين منهُ طارفةٌ　　كأنما أُخرياتهُ الأُوَلُ

ولقد كنت أتعجب لبيت العقاد كيف نزل مع كل هذا الشعر ، وكيف خفى عنه موضع التقييد من مثل قول جرير « من شىء يروقهم » ، وقول مسلم « زهرة الدنيا » و« شيئًا تُسرُّ به » وما إلى ذلك ، ووجهتُه مع سائر القصيدة فلم يزل مختلًّا ناقصًا معوجًّا لا يستوى . وزادنى عجبًا قوله فى نهاية الشعر (تُؤام) ، ولم أجد للفظ معنى ولا رأيت له وجهًا يتوجهُه مع مقاصد الغزل الفلسفى حتى وقعت لى أبيات ابن الرومى فإذا قوله (تؤام) ترجمة للفظ آخر هى لفظ (معًا) فى قول ابن الرومى ينحو إلى هذه المعانى بعينها :

فالعين لا تنفكُّ من نَظَرٍ　　والقلب لا ينفكُّ من وَطَرِ
ومحاسن الأشياء فيكِ (معًا)　　فَملَا لتِيك مَلالَتى بَصرِى
مُتعاتُ وجهك فى بديهتها　　جُدُدٌ وفى أعقابِها الأُخَرِ
فكأنّ وجهكِ من تجدُّدِه　　مُتنقِّلٌ للعين فى صُوَرِ

وقول ابن الرومى (ومحاسن الأشياء فيك معًا) هو عمل الشعر فى معنى غسيلٍ قدَّم به العقاد لقصيدة غزل فلسفىّ وهو قوله : « فيك من كل شىء »
ورحم الله الصولى الذى يقول :

أعرفُ مِنها شَبهًا　　فى كلِّ شئ حسَنِ

فقد أتى بالمعنى عاميًّا لطيفًا مَجْفُوًّا غير صنيع ، وهو على ذلك أرق من فيك منى ومن الناس ...

فهذا مذهب الشعر من لدن جرير إلى يومنا هذا ولم نستقصه فى غرض واحد من أغراضه ، وذاك مذهب العربية فى معانى ألفاظها ، وسبيل الفلاسفة فى تحديد معانيها ، وفى ثلاثتها قصَّر بيت العقاد وفسد واستحال معناه وتهالك منطقه . فمن أين يمكن وصف الرافعى - إذا نقد هذا البيت - بأحد أمرىْ الأستاذ قطب : إما أن يكون ضيق الإحساس مغلق الطبع بحيث لا يلتفت هذه اللفتات الغنية

بالشعور ... (وأين وأنى وكيف نجدها يا أستاذ الأستاذين ؟) وإما أنه يدرك هذا الجمال ولكنه يتلاعب بالصور الذهنية وحدها ، غافلا عما أحسه وأدركه ... وما ندرى كيف كان يحسه الرافعى رحمه الله ؟

أكان يحسه ويدركه بقوة الجوع والعطش فى البيت الذى يليه :

كيف بى أُعزلُ إن أغنيتنى أنت ، حتى عن شرابى والطعام !

وأخيرًا ، فقد خير الأستاذ قطب أصدقاء الرافعى بين أن يحكموا عليه بإحدى كلمتيه أن يكون رحمة الله عليه مسلوب « الطبع » أو مسلوب « العقيدة » . وقد تبين بعد الذى قلنا أن نقد الرافعى نقد « محكم » فى سياق العربية ، وفى جوهر الشعر ونزيد فنقول إن قارئ القصيدة (غزل فلسفى) حين يقرؤها إلى أن ينتهى إلى هذا البيت : « فيك منى ومن الناس ... » لا يجد فيها من « الحياة » ولا من « الخيال » ولا من « غنى الشعور » ولا من « الإحساس الفنى » - إلى آخر ما يتنبل له الأستاذ قطب - مايجعل نقد هذا البيت بعينه دليلا على ضيق الإحساس واستغلاق الشعور ، والغفلة عن الجمال ، وفساد الإنسانية فى قلب ناقده .

وعلى هذا فقد سقط الدليل الأول من أدلة أحكامه على الرافعى وبان فى ذلك ما امتاز به الرافعى من الدقة وصدق الإحساس فى إدراك معانى الشعر ومافيه من غضارة ورُوقة وجمال .

* * *

بين الرافعى والعقاد

– ٣ –

ثم ماذا ؟ ثم يقول الأستاذ سيد قطب فى ثالث أدلته على أحكامه : « يقول العقاد فى طرافة ودُعابة عن حِسان شاطئ استانلى !!

ألـقـى لَـهُـن بـقـوسـه   قُـزحٌ وأدبـر وانـصـرفْ
فـلـبـسْـنَ مـن أسـلابـه   شتـى الـمـطـارف والـطُّـرفْ

فلا يجد الرافعى فى هذه الطرافة إلا أن يتلاعب بالألفاظ فيقول : فقزح لا يلقى قوسه أبدًا إذ لا ينفصل منه . قال فى اللسان : « لا يفصل قُزَح من قوس » . فإذا امتنع فكيف يقال : « أدبر وانصرف » . أما قزح العقاد ، فلعله الخواجة قزح المالطى مراقب المجلس البلدى على شاطئ استانلى الذى قيلت فيه القصيدة .

ثم يقول إن هذا المثال « فيه تلاعب وروغان ، وهو فى هذه المرة (التلاعب) أخسُّ من السابقة ، ففى الأولى كان تلاعبًا بصور ذهنية ، وهو هنا تلاعبٌ بألفاظ لغوية ! » .

أوَّلا ، فمن ذا الذى يغفُل عن طرافة هذا « الخيال » الذى يتصور « قُزحًا » ملقيًا بقوسه لهؤلاء الحسان ، وهن يتناهبن هذه الأسلاب ، بينما هو مدبر منصرفٌ ، مغلوب على أمره ، لا يستطيع النصفة ممن غلبَ جمالهنَّ جماله !

ألا تستحق مثل هذه الطرافة ، ومثل تلك الحيوية ! من الناقد إلا أن يذهب إلى القاموس أو اللسان ، ينظر هنالك ، هل يفصل قوس عن قزح أو لا يفصَل ؟ ثم يكمل الكلام بتهكم بارد لا يرد على الفطرة المستقيمة فى معرض هذا الجمال !!

---

* الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٥) ، ١٩٣٨ ، ص : ٨٥١ – ٨٥٤

أهذا هو النقد الذى هو « أقرب إلى المثال الصحيح » ؟ وما قلته فى المثال الثانى يقال بنصه هنا ، فلترجع إليه جماعة الأصدقاء .

ثم يعود فيقول عن هذا المثال أنه يمثل « تلاعبه بالألفاظ اللغوية ، والوقوف بها دون ما تُشِعُّه فى الخيال من صور طريفة » انتهى كلام الأستاذ الجليل .

* * *

ومن أعجب العَجَب أن يُعدَّ اعتراض الرافعى ونقده هذا البيت تلاعبًا بالألفاظ اللغوية ، ولا يكون هذا الشعر نفسه قد بُنى على التلاعب فى غير طائل ، وعلى تكلف اللفظ لترميم قافية البيت . وأول ما نقول فى هذا أننا نخالف بعض رواة العربية ثم الرافعى فى أن يلزم أحد هذا الحرفين صاحبَه على كل حالة وفى كل ضرب من ضروب القول .

وبيان ذلك أن لأصحاب العربية فى هذا الحرف (قُزَح) ثلاثة أوجه من الرأى :

الأول : أن (قُزَح) اسم شيطان ، أو اسم ملك موكل به .

والثانى : أن (القُزَح) هى الطرائق والألوان التى فى القوس ، والواحدة قُزْحة .

والثالث : أن يكون من قولهم : قزح الشىء ، وقحزَ إذا ارتفع

قلت : وكأنهم أرادوا أن يجعلوه معدولا به عن (قازح) ، وهو المرتفع

ففى الوجه الأول لا يضير أن ينفصل الحرفان ، إذ كان (قوس) اسم جنس ، و(قزح) اسم علم بعينه ، وأضيف أحدهما إلى الآخر إضافة نسبة . فهو بمنزلة قولك (كتاب محمد) . ومن هنا جاز أن يبدلوا تسمية العرب الأوائل فقالوا له : « قوس الغمام » و« قوس السحاب » . ويقول ابن عباس رضى الله عنه : « لا تقولوا قوس قُزَح ، فإن قزح من أسماء الشياطين . وقولوا (قوس الله) عز وجل . وعلى هذا يجوز قول القائل : « ألقى قُزح قوسه » بإضافة القوس إلى ضميره ، على أن الشيطان ، أو المَلَكَ الموكل بالقوس قد ألقى (قوسه) .

وأما الوجه الثانى والثالث فلا يجوز الفصل معهما البتة على إرادة (الاسم) الذى تعرفُ به هذه الطرائق المتقوّسة التى تبدو فى السماء . فإن الحرفين على

حالتهما ينزلان منزلة الكلمة الواحدة إذ ذاك . وللقول فى هذا مجال ليس هنا مكانه ولا أوانه .

ونحن نرى أن العقاد قد ذهب - وإن لم يرد ذلك - إلى الوجه الأول ، وأن شعره يحمل على رأى جائز فى العربية .

هذا ، وقد ذهب الرافعىُّ فى نقد بيت العقاد إلى رأى أصحاب اللغة فى امتناع الفصل بينهما ، وأن الحرفين كالكلمة الواحدة على تتابعهما . وعلى ذلك لا يقال « ألقى (قُزح) قوسه » وأولى إذن ألا يقال إن (قُزَح) أدبر وانصرف ، لأنه ليس بذاته يدُلّ على معنى ، أو يقع اسمًا لشىء بعينه ، فهو إذن لا يجوز عليه الإسنادُ إسناد الخبر أو الفعل كالإلقاء والإدبار والانصراف . فأين التلاعبُ فى هذا الرأى باللفظ اللغوىّ ؟ ولو قد كان وقع فى بعض كلام الرافعى فصل أحدهما عن الآخر لأمكن أن يقال إنه يتلاعب باللفظ ، ولكن ذلك لم يكن .. !

وأما الأستاذ العقاد فقد نقد رواية قمبيز فى سنة ١٩٣٢ ، وجعل من ملاحظاته أن هذه الرواية « لم تخلُ من مخالفة للنحو والصرف فى القواعد المنصوص عليها » ، وأتى فى هذا الموضع من نقده بما خطأ فيه شوقى ، وليس بخطأ .

يقول شوقى على لسان أحد المجان (ص ٣٢) .

أَلقَدَحا ألْقَدَحا الخمرُ تنفى التَّرَحا
قصرًا أرى أم فَلَكا وشجرًا أم قُزَحَا

ثم علق (شوقى) فى الوجه (٣٢) نفسه فقال : « قالوا : إن قزح لا يفصل من قوس ، ولكن الناظم لم ير بأسًا فى فصله لسهولته وكفاية دلالته » انتهى . ونحن نجيز هذا فى العربية ولا ننكره .

قال ذلك شوقى فى التعليق ، ثم جاء الأستاذ العقاد فى كتابه (رواية قمبيز فى الميزان) يقول ص ١٥ « ... ويقول (قُزَح) ولا تذكر قُزَح إلا مع قوس » . وَبَيَّنٌ أن كلام الأستاذ العقاد ليس عربى العبارة ، فإن أصحاب العربية منعوا (فصل) قُزَح من قوس ، ولم يمنعوا (ذكر) قزح إلا مع قوس . والفرق بين اللفظين كبير . وبينٌ أيضًا أن هذا ليس نقدًا فإنه لم يأت بأكثر من تكرار ماذكره شوقى فى تعليقه ،

وكان الوجه أن يبين فساد رأى (الناظم) إذ لم ير بأسًا فى الفصل للعلة التى ذكرها .

ومع ذلك ... فقد كان نقد العقاد فى يونية سنة ١٩٣٢ ، ولم تمض ستة أشهر أى فى يناير سنة ١٩٣٣ حتى فصل العقاد نفسه بين (قزح) وقوس فى شعره هذا !! فلعل هذا أن يكون بالتلاعب بالألفاظ اللغوية أشبه ، وبتصريف النقد على الهوى أمثل . وأما بيتا العقاد :

ألقى لهنَّ بقوسه قزحٌ وأدبر وانصرف
فلبسن من أسلابه شتى المطارف والطرف

فقد بنيا على ألفاظ يدفع بعضها بعضا عن معنى يولده - من لفظ (القوس) التى هى من آلات القتال . وكان سبيل التوليد هكذا : القوس من آلات القتال ، واستعيرت للطرائق فى السماء مضافة إلى (قُزَح) ، فيكون ماذا لو أنشأ من لفظ هذا القوس صورة للقتال بين (قُزَح) وبين جميلات شاطئ استانلى ؟ ويكون ماذا لو زعم أن الجميلات انتصرن على (قُزَح) صاحب القوس ، فألقى سلاحه ثم أدبر وانصرف ؟ ويكون ماذا لو جعل ألوان (قوس قزح) أسلابًا كأسلاب المحاربين فى القتال ظفر بها الجميلاتُ بعد انهزام (قزح) ؟ ويكون ماذا لو زعم أنهنَّ اتخذن هذه الألوان مطارف وطرفا يلبسنها ويتحلين بها ؟ وهكذا

وهو توليد كما ترى ، وتوليد من لفظ واحد . ونحن لا نرى بأسًا - وإن كنا لا نرتضيه - أن يأتى الشاعر بالمعانى مولدة من ألفاظ اللغة ، فإن من بعض اللفظ فى العربية لما يُضرم الفكر ويُؤرث المعانى ويستفزُّ الخيالَ إلى أعلى مراتبهِ . على أن هذا لا يتحقق إلا أن تستقيم الطريقة للفكرة ، ويتراحب المجال للمعانى ، ويسمو المدى بالخيال ، على أن تصحَّ المقابلةُ بين معانى اللفظ وسائر الصور التى تتولد منه .

والمقابلة فى هذا الشعر فاسدة باطلة . فهى مقابلة بين (قزح) وبين الجميلات على شاطئ استانلى ، ثم بين الطرائق المقوسة ذات الألوان فى السماء (القوس) وبين ماترتديه الجميلات من مطارفهن . وكان حق المقابلة أن يكون (قزح) هذا

مشتهرًا بالجمال موصوفًا به ، حتى إذا ما ذكر فى معرض الكلام عن الحسان الجميلات تمت المقابلة بينه وبينهن . فإن لم يكن ذلك كذلك ، فلا أقل من أن يكون فى الشعر مايدل على سبب (حالة الحرب) التى أنشبها الشاعر بين حسان شاطئ استانلى ، وبين العم (قزح) ، ثم ماكان من علة لإلقاء سلاحه ثم انهزامه وإدباره .

فأما إذ لم يكن (قزح) جميلًا ، ولم يأت الشاعر بسياق جيد لهذا التوليد ، فقد بطلت الأفعال التى أسندها إلى (قزح) من إلقاء قوس وإدبار وانصراف ، وما أضافه إليه من الأسلاب ، وصار كله لغوًا لا فن فيه . وهذا الضرب خاصة من ضروب الشعر الذى يتضمن التصوير والوصف لا يأتى جيده إلا على دقة الملاحظة ، وتقدير النِّسب بين الألفاظ والمعانى والصور . فلو اقتصر الشاعر فجعل (قزح) يهدى إلى الحسان تحاسين قوسه ، فاتخذن منها (شتى المطارف والطرف) لكان أجود وأقرب إلى الإتقان . أما إعلان الحرب بينهما فليس جيدًا ولا براعة فيه كما رأيت .

وقد أجاد ابن الرومى - ويقال إنها لسيف الدولة - إذ يقول :

وقد نشرت أيدى الجنوب (مطارفًا)
على الجو دُكنًا ، والحواشى على الأرض
يطرّزُها (قوس السحاب) بأصفر
على أحمر فى أخضر وَسْطَ مُبْيضٍّ
كأذيال خودٍ أقْبَلَتْ فى غلائل
مُصَبَّغَةٍ والبعض أقصر من بعض

وهو قريب جيد فى الوصف

ونحن لا نذهب مع الأستاذ قطب فيما يتخير من اللفظ لوصف هذا الشعر وما فيه ، بذكر (الطرافة) و(الدعابة) و(الخيال) و(الحيوية) و(معرض الجمال) ، وما إلى ذلك من ألفاظ لو أقيم ضدها مكانها لقام . إذ كان لا يبين أسبابها ولا يوجه معانيها ولا يأتى كلامه فى مثل ذلك إلا على طريقة صاحب كتاب

(الوشى المرقوم فى حل المنظوم) إذ يقول : « أولا فَمَنْذا الذى يَغْفُل عن طرافة هذا « الخيال » الذى يتصور « قزحًا » ملقيًا بقوسه لهؤلاء الحسان ... إلخ » .

وقد وضح الآن أن ليس فى كلام الرافعى تلاعب بالألفاظ اللغوية ، وأنه ليس فى هذه الألفاظ مايجعلها « تشع فى الخيال صورًا طريفة » ، وذلك لما ذكرنا من تخالف ألفاظها وتدافعها وبُعد صورها عن جودة التوليد ، إذ كانت هذه الصور مولَّدة من اللفظ على غير نسق متصل أو طراز جميل .

ثم .. أتى الأستاذ قطب بالمثال الرابع فقال : « ويسمع العقاد صيحات الاستنكار لِلَهْوِ الشواطئ ، وما تعرض من جمال ، فيصيح صيحة الفنان الحى المعجب بالحيوية والجمال :

عيد الشباب ، ولا كلا م ، ولا ملام ، ولا خَرف

فإذا الرافعى يقول : « إن غاية الغايات فى إحسان الظن بأدب العقاد أن تقول إن فى هذا البيت غلطة مطبعية ، وأن صوابه :

عيد الشباب ، فلا كلا م ، ولا ملام ، (بلا قرف) !

ثم يقول بعدُ إن هذا المثال يغنيه الرافعى عن الحديث فيه « فهو لم يزد على أن أورد البيت ، ثم استغلق دون استيعاب ما يعبر عنه من روح الفنان الحى ، الموكل بالجمال حيثما وجد ، وكيفما كان ، الهازئ بخرف التقاليد ، وقيود العُرْف ، ولم يجد ما يقوله إلا « بلا قرف » وهو قول لا تعليق لنا عليه » .

ثم يعود فيقول : إن هذا يمثل هروب الرافعى « من مواجهة النقد الصحيح إلى المراوغة وكسب الموقف – فى رأيه – بنكتة أو تهكم أو شتيمة » .

وأنا لا أعجب لكلام الأستاذ سيد قطب ، لأنه على طريقته فى حل المنظوم ، وإن أعجب فعجبى لصاحب « وحى الأربعين » كيف ارتضى أن يثبت البيت فى قصيدته ، وفى عقب هذه القطعة بالذات ، وينتقل من الوصف والتأمل وإمتاع النظر ، وإمداد الفكر بأسباب من الجمال ، أو كما يقول الأستاذ قطب من الطرافة والدعابة والخيال والحيوية ! إلى صيحة الاستنكار والتفزع بقوله : « فلا ملام

ولا كلام » [1] ثم الغضب الذى لا يتورع فى قوله : « ولا خرف » . إن هذا الانتقال ليس من منطق الفن ولا من نهجه وسبيله .

وما أظن الرافعى أراد أن ينقد البيت - لأنه ليس بسبيل مما يحسن أن يُنقد ، وإنما وضعه هكذا للعقاد وهو يريد ماقلناه فى كلمتنا الأولى مما جرَّته العداوة التى اضطرمت بينهما .

* * *

وبعد فقد قرأت كلمة الأستاذ الجليل المهذب سيد قطب فى البريد الأدبى من العدد السالف من الرسالة ، وقد أعلن فيها بعض رأيه فيما نكتب ، وحكم بحكمه على ماقلناه ، وحاول أن يتهكم ، ووعظ وذكر . ونحن ندعه لما به عسى أن يرى يومًا غير هذا الرأى ، وله الشكر أحسن أو أساء .

* * *

(١) هكذا كتب شيخنا محمود شاكر ، أما سياق الكلمات فى البيت فهو « فلا كلام ولا ملام » .

بين الرافعي والعقاد

- ٤ -

وبعد ، فقد فرغنا فى الكلمات السالفة من الحديث فيما هو « بين الرافعيّ والعقاد » ، ممّا جاء فى كلام الأستاذ الفاضل سيد قطب . ثم رأينا الأستاذ يبدأ ضربًا من القول هو إلى رأيه فى كلام الرافعى وحده ، ليس يدخله ذكر العقاد إلا قليلا . وقد كان بدء حديثنا محددًا بالرافعى والعقاد معًا . فنحن نرى أن عملنا قد انتهى إلى نهايته فى هذا الغرض من القول ، ولذلك ، ليس يضيرنا الآن أن نسكت إلى حين يفرغ الأستاذ سيد قطب مَمَّا يسر الله له القول فيه مما يسميه نقدًا .

وأول مايجب علينا أن نقوله للأستاذ الفاضل بعد الذى كتبناه أنه يسىء بنا الظنّ بلا دليل ولغير عِلَّة . يتزعّم أن فى حديثنا (غمزًا ولمزًا وتعريضًا به) وكذا وكذا ، ونحن نكرم أنفسنا وقلوبنا وضمائرنا وألسنتنا عن هذا الضرب من القول ، ولو أردناه لمضينا على عادتنا من التصريح دون التلويح ، ولقلنا له من القول ما هو حق لا كذب فيه .. حق يدافع عن حقيقته بالبيان والحجة والوضوح ، والأدب الذى يعفُّ عن دنيَّات المعاريض وسفاسف الأخلاق .

وليعلم الأستاذ قطب أنى إذا أحببت لا أغلُو ، ولا أتجاوز حد الحب الذى يصل القلب بالقلب ، ويمد الروح بالروح ، ويجعل النفس فى فرح متصل بسببه ، أو حزن آت بعلته ، فهذا أخلق الحب أن يخلو من سوء العصبية ، وفساد الهوى ، وقبح الغرض . فلا يجدنى أرفعُ الرافعى عن الخطأ ، ولا أجله عن الضعف ، ولا أنزهه عما هو فى عمل كل إنسان حىٍّ ناطق يأمل ويتشهى . مما يسمى بأسمائه حين يعرض ذكره . وفى كل أحد ممن خلق الله على صورة (الإنسان) ضروب من الشمائل والسجايا والأخلاق والآداب ، ليس يطلع طلعها إلا الله جل

* الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٦) ، ١٩٣٨ ، ص : ٩٠٢ - ٩٠٣

جلاله ، وربٌّ رجل صافٍ كنور الفجر يخبأ من ورائه مظلمة من ســـــواد الليل .

ولقد عرفنا الرافعى زمنًا – طال أو قصر – فأحببناه ومنحناه من أنفسنا ومنحنا من ذات نفسه ، ورضيناه أبًا وأخًا وصديقًا وأستاذًا ومؤدبًا ، فلم نجده إلا عند حسن الظن به فى كل أبوّته وإخائه وصداقته وأستاذيته وتأديبه . ولقد مات الرافعى الكاتب الأديب وهو على عهدنا به إنسانًا نحبه ولا ننزهه ، ثم جاء الأستاذ سيد قطب بحسن أدبه يقول فى الرجل غير ما عهدناه ... يؤوّل كلامه ويأخذ منه ويدع ويتفلسف ويحلل ويزعم القدرة على التولج فى طويات القلوب وغيب النفوس فيكشف أسرارها ويميط اللثام عما استودعت من خبيئاتها ، ثم هو فى ذلك لا يتورع ولا يحتاط ، ولا يَرعى زمام الموت [١] ، ولا يُوجب حق الحيّ .

لقد كتب الأستاذ ماكتب ، فقرأ كلامه من قرأ ، أَفَيجِدُ فى هؤلاء من يقول له أصبتَ ؟ ومن يقول له أحسنتَ ؟ ومن يزعم أن ليس له مندوحة عما اتخذ من اللفظ فى ذكر الرافعى وصفته والحديث عنه وعن أدبه وشعره ؟ أما يجدر بالأستاذ الفاضل أن يعود إلى بيته هادئ النفس مُخَلًّى من حوافز الحياة الدنيا ، فيقرأ ماكتب مرة أو مرتين . ثم يرى هذا الذى ترك الدنيا بالأمس وحيدًا ، وخَلَّف من ورائه صغارًا وكبارًا من أبنائه وحفدته وأصحابه واللائذين به ، ثم يراهم يقرأون ما يكتب عن أبيهم وجدهم وصاحبهم بالأمس ، ثم يراهم والدمع يأخذهم بين الذكرى المؤلمة والألم البالغ ! ولو فعل ، لعرف كيف أخطأ ومن أين أساء ، ولوجده لزامًا عليه أن يقدر عاطفة الحى ، إن لم يعظِّم حرمة الموت . وهذا أمر لا نطيل القول فيه ولا نكثر من لوم الأستاذ عليه ، فإن مرجعه إلى طبيعته وما تضمره نفسه ، وإلى تقديره لعواطف الناس .

ومهما يكن من شىء ، فسندعُ الأستاذ سيد قطب يقول مايقول ، ويذكر من رأيه فى الرافعى ما يذكر ، ويصف أدب الرجل وذهنه وقلبه ونفسه بما يوحى إليه ،

---

(١) زمام الموت : كذا بالأصل ، والصواب : ذِمام (بالذال) وذِمام الموت : حُرْمَته .

لا نعقب على شيء منها حتى يفرغ ، وحتى يستوفى مادته ، ويضع بين أيدينا كل حججه فى فن الرافعى . فيوم ينتهى نبدأ نحن القول فى الذى قال ... لا نرد بذلك عليه قوله ، أو نسدد له رأيه ، فما لنا بذلك حاجة ولا لنا فيه مأرب ، ولكننا نريد إذ ذاك أن نضع رأيه بمنزلة الرأى يقول به فئة من الناس ، أو شبهة تحيك فى صدر جماعة من الأدباء ، فعلينا أن نبين مواضع الخطأ إذا أخطأ ، ومكان الصواب إنْ أصاب ، وذلك غاية مانستطيع .

أما ما يوعدنا به الأستاذ الفاضل ، وما يسخر به ويتهكم ، وما يضمر لنا من (بقايا) كلماته !! فليقل فيه ماشاء كما يشاء ، وسنرده على قدره وفى حد طاقتنا وآدابنا ، ولو اجتمع للأستاذ كل سلطان يستطيع به أن يسىء ، فأساء إلينا بمثل الذى أساء به إلى الرافعى رحمة الله عليه ، فنحن لا نزال – مع كل ذلك – نحترمه ... إذ ليس فى طاقتنا أن نفعل شيئًا إلا أن نحترمه كل الاحترام .

* * *

بين الرافعي والعقاد

– ٥ –

« تحرقك النار أن تراها ، بله أن تصلاها »

منذ تسعمائة سنة قال الخفاجى حين ذكر البلاغة :

« لم أر أقل من العارفين بهذه الصناعة ، والمطبوعين على (فهمها) و(نقدها) مع كثرة من (يدعى) ذلك ، ويتحلى به ، وينتسب إلى أهله ، ويمارى أصحابه فى المجالس ، ويجارى أربابه فى المحافل . وقد كنت (أظن) أن هذا شئ مقصور على (زماننا) اليوم ، ومعروف فى (بلادنا) هذه ، حتى وجدت هذا (الداء) قد أعيا أبا القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وأبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قبله وأشكالهما حتى ذكراه فى كتبهما ، فعلمت أن (العادة به جارية) ، و(الرزية فيه قديمة) . ولما ذكرته رجوت الانتفاع به من هذا الكتاب ، أملت وقوع الفائدة به ، إذ كان (النقص) فيما أبنته شاملًا ، و(الجهل) به عامًّا ، والعارفون به قُرحة الأدهم [(١)] بالإضافة إلى غيرهم ، والنسبة إلى سواهم » .

* * *

ومع ذلك ... فالأستاذ سيد قطب أحد (الأخصائيين !!) فى اللغة التى نعبر بها .

عاد الأستاذ الفاضل سيد قطب بحديثه عن الرافعىّ ، ثم عقب عليه بالحديث عنى وعما كتبت فى الكلمات السالفة . وكنت عزمت أن أدعه حتى يشفى ذات صدره من الرافعىّ ومنى ؛ وكنت أجمعت الرأى على أمر ، ثم هأنذا أتحلل من عزيمتى ... ومرة أخرى أقول كما قلت فى الكلمة الأولى : إنى سأتولج فيما لا أحب ... لا كرامة للأستاذ أو استجابة لدعائه بل لميط الأذى ... بل لميط الأذى حسبُ .

---

* الرسالة ، السنة السادسة (العدد ٢٥٧) ، ١٩٣٨ ، ص : ٩٣٣ – ٩٣٥

(١) القُرْحَة : بياض يسير فى وجه الفَرَس ، وهى دون الغُرَّة . والأدهم : الأسود . وقرحة الأدهم تضرب مثلا للشيء العزيز .

ولقد علم من لم يكن يعلم أنى كتبت ما سلف هادئًا لا أهاجم ، إلا أن أترفق وأستأنى وأتصبر على كلام ينفد معه صبر الحليم ... وأنا وإن كنت لا أبالى بشىء مما يصف الأستاذ الكامل به كلامى فأنا لازلت أحفظ للقراء عهدهم قِبَلَ الكتَّاب ، فلا أدع القارئَ عُرْضَة لرجل يفهم القول الرفيع بالفهم الوضيع ، ولا لرجل يسىء القول فى الناس ويأبى عليهم أن يقولوا له أسأت فأجمِل . ولا لرجل يرى الظل ممدودًا له - زمن القيظ - فيتجنبه إلى وقدة الشمس ...

فهكذا أبى الأستاذ أن يأوى إلى مأوى يقيه ، وتجرد يختال علينا ، ويقتال (١) إلى نفسه جريرة شر . وما ظنى برجل يصف الرافعىّ بألفاظٍ ملفقة ، وهى على ذلك بينة الدلالة على قبح الغرض ، سافرة عن شُنْعَة الإساءة ، قليلة التذمم فى حق الأحياء بَلْهَ الأموات ممن لم تجف عن قبورهم بعدُ دموع أزواجهم وأطفالهم وذراريهم ومن يَمُتُّون إليهم بالحب والمودة والإخاء ؟

وماظنى وظنك بإنسان قد حُمِّل القلم ليستملى ، فيتنزل عليه القول من بغضاء مربدة باغية لا تتقى سوء المقال ولا مأثور الكلام ؟

وما ظنى وظنك بفهم يتعالى على سلاليم من القوارص والقواذع ، لا تجد لها فى الذى تعرف سببًا قديمًا أو علة محدثة تسوِّغ الأذى أو تحمل عليه ؟

ماظنى وظنك بهذا الرجل الذى نترفق به ونستر (نفسه ودافعها فى الحياة) بالإشارة اللطيفة ، فيأبى إلا أن يترجم القول إلى غير معناه ... إذ يسمى ما كتبت له (شتائم) ... شتائم .. ! أنف فى السماء ... أأنا يدور فى نفسى أن أكتب للأستاذ الفاضل مايسمى (شتائم) ؟ لِأَنَّا ياسيدى الأستاذ قطب أحسن ظنًّا بك من هذا . ولقد قلتُ ما قلتُ من أن الناس كانوا يتعايشون بالدين والتقوى ثم رُفِع ذلك - كما قال الشعبى - فتعايشوا بالتذمم والحياء ؛ ثم رفع ذلك ، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة ، ثم رفع ذلك ، وجاء زمان يتعايش الناس فيه (بِثَلْب الموتى) ... وهو زماننا هذا . ولو قد كنت (أخصائيًّا !) فى اللغة التى يعبر بها لما زعمت أنى (رحت أتهمك بمجانبة الدين والتقوى ، والحياء والتذمم) فأنا لم أقصد إلى

---

(١) اقتال قولا : اجترّه إلى نَفْسه مِن خير أو شرّ .

ذلك ، فهو أمر قد فرغ من الحكم فيه صاحبنا الشعبى . وما كان قصدى إلا أن الذى كتبت أنت عن الرافعى الذى مات وسكت ، والعقاد الذى بقى يتكلم ، بل عنهما معًا فى قران واحد ، هو ثَلب للموتى وزُلفى للأحياء . وحق لى أن أقول ذلك فقد جمعتَ بين الرجلين ، فوضعتَ الميت موضعًا لا يتنزل إليه حيٌّ فى الضعة ، ورفعت الحى مكانًا لا يسمو إليه أحد فى الرفعة ، وضربت الكلام من هنا ومن هنا حتى استبان الغرض ..

أيريد (الأخصائى !) الفاضل أن نبين له موضع الإشارة فى كلامنا هذا ... ؟ إذن فليسمع .

حين قرأت الكلمة الأولى من حديثه فى الرسالة ، لم أشك ساعة أنه يختدع القارئ عن نفسه يبتغى أن يُفهمه أنه يريد النقد ، والنقد حسب ، ولا شىء غير النقد ! وألح فى ذلك إلحاح الظنين [1] فى الإكثار مما ينفى الظِّنَّة عنه ، غافلا عن أن تكلف نفى التهمة بالإلحاح يثير الشك ويوقظ الريبة فى نفس من أراد الله له الخير ... ثم يشرع الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) يأتى بالشواهد من كلام الرافعى فى نقد (وحى الأربعين للعقاد) ليثبت صدق ماذهب إليه من الآراء فى الرافعى .

كان يشك فى « إنسانية » الرافعى ، ويزعم أنه خواء من النفس .

ثم قرأ ماكتب الأستاذ سعيد العريان فعدّل حكمه قليلا ! ولم يعد يستشعر البغض والكراهية للرجل وأدبه ، ولكن بقى الأساس سليما ... فما هو ؟

كان ينكر على الرافعى « الإنسانية » فأصبح ينكر عليه « الطبع » .

وكان لا يجد عنده « الأدب الفنى » فأصبح لايجد عنده « الأدب النفسى » .

وكان الرافعى ذكيًا قوى الذهن ، ولكنه مغلق من ناحية الطبع والأريحية .

والرافعى أديب الذهن الوضاء ، والذكاء اللماع !

والرافعى مغلق القلب متفتح العقل وحده للفتات والومضات . وهذا فى المقالة الأولى ، ثم نزل درجة بالرافعى فى الكلمة الثانية ، ثم لم يكد يرمى الثالثة حتى زعم أنه حين عاد بعد ذلك فقرأ رسائل الأحزان أحسَّ أنه (خُدع !) فى

---

(١) الظنين : المتَّهم .

قياس ذكاء الرافعى ! ومعرفة طبيعته ودرجته ! ولكنه يحس الغضاضة فى هذا التراجع فيعزّيه « الصدق » ! الذى يعبِّر عنه حين ينصت لإحساسه ويصور حقيقة رأيه ... وتأويل ذلك عنده فى مقاله الثالث أنه أخطأ فى عدم ! تحديد (الذهن) ... فمن الذهن ماهو سليم أو مريض ، وماهو مشرقٌ أو خابٍ ، وماهو متفتح أو مغلق ، (أو كما قال) ...

لقد قال فى الكلمة الأولى ما رأيت ، ثم قال فى الثالثة ما رأيت من تراجعه ، ولقد كان هذا التراجع فى الثالثة مطويًّا تحت الكلمات فى الأولى وفهمناه وأدركناه ، وكان آخر الرأيين هو الغرض الذى يسعى إليه . وإلا فما أظن أحدًا يستطيع أن يعقل أن (ناقدًا) قد فرض على نفسه النقد - أى التتبع والاستيعاب وصدق النظر - يصف رجلا « بالذهن الوضاء » « والذكاء اللماع » والقوة فى الذهن ، والتفتح فى العقل ، ثم لا تمضى عشرة أيام ... فيقرأ أحد كتب هذا الرجل ، فيعود يقول فى صفته إن ذهنه مريض غير سليم ، « خاب غير مشرق » ، « مغلق غير متفتح » .

أيريد الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) بيانًا هو أوضح من هذا على سوء غرضِه .. ؟ الناقد رجل عَدْل مُنصِف لا يزال يتتبع شوارد اللفظ ، وأوابد المعانى يستنبئها أخبار أصحابها ويستنبط من قلوبها أسرار كتابها ، ويكشف عنها خبيئة قائليها .. ، ثم يحكم مميزًا مقدرا لا يجورُ فيتجاوز الغاية ، ولا يحيف فيقعُ دون المدى . وقد حكم هذا (الأخصائىُّ !!) فى كلمته الأولى حكمه الأول حين (استطاع أن يكون ناقدًا ، لا يكتفى بالتذوق والاستحسان أو الاستهجان ، ولكن يعلل ما يحس ويحلّله) !! كما قال فى بدء كلامه .

أو ليس يقتضى هذا - على الأقل - أن يكون قرأ كل ماطُبع من كتب الرافعى دون ما تفرق من كلامه فى الجرائد والمجلات على كثرتها .. ؟ بلى .

أو ليس يقتضى هذا - على الأقل أيضًا (أن يكون حين حُكمه قد استردَّ شتات ما بقى فى نفسه من آثار كلام الرافعى فيها ؟ قالوا بلى .

أو ليس يقتضى حق النقد والحكم - على الأقل أيضًا - ألا يصفَ الرافعى بالذكاء اللماع ، والذهن الوضاء ... وهذا الكلام المفخم - إلا أن يكون ذلك من آثار ما قرأ له من شىء ...؟ قالوا بلى .

إذن فكيف – فى عشرة أيام ياسيدى – يستطيع كتاب واحد للرافعى هو « رسائل الأحزان » أن يقلب – هذا (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) ، وهذا الذى (استطاع !! أن يكون ناقدا) – رأسا على عقب ، فلا يكتفى بسلب النعوت المفخمة (كالوضاءِ واللماع والمتفتِّح) فيترك الذهن هكذا مجردا ، بل يضع مكانها أضدادها فيجعله ذهنا « مريضًا خابيًا غير لمّاع ولا وضاء ، مغلقًا غير متفتِّح » .

هآه ... إنى لأشك كل الشك فى براءة الأستاذ مما غاظه من كلمتى الأولى مما سماه (شتائم) . ولقد شهدت مرة أخرى « أن ما بالأستاذ قطب النقد ، ولا به الأدب ، ولا به تقدير أدب العقاد وشعره ، فما هو إلا الإنسان وجه يكشفه النور ويشف عما به ، وباطن قد انطوى على ظلمائه فما ينفذ إلى غيبه إلا علم الله » . ولا زلت أقول له : « إنه لو عاد إلى داره مخلى من حوافز الحياة الدنيا » فقرأ ماكتب قراءة الناقد لوجد الاختلاط فى لفظه بينًا ، والغرض من ورائها متكشفًا . ولو شئنا أن نقول لقلنا فلم نكذب : إن كلامه لمشترك بين ضربين من العقل أحدهما ظاهره نعرفه ولا ننكره لأنه مما عهدناه زمانًا ، والآخر ظاهر أيضًا ... نعرفه وننكره ، لأنه مما استحدث الرافعى رحمة الله عليه .

وأما الأديب الكبير ! الّذى لقى الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) فضرب لنا الأمثال « بالجماعة الذين يجلسون فى المأتم ويرجمون الناس بالحجارة . فإذا رجمهم الناس صاحوا وولولوا ، وملأوا الدنيا تسخطًا ونعيًا على الأخلاق ، لأن الناس لايقدرون حرمة المأتم ، وهم الذين استهانوا بهذه الحرمة حينما رجموا المارة » . فإن شاء أن يختفى فى ألفاظ الأستاذ (الأخصائى !) فهو عتيق جُبنه ، وإن شاء أن يظهر من ورائه فسيرى كيف عرفناه من لفظه ومن أمثاله .

وأيما كان ... فالمثل فاسد من وجوهه كلها ... فإن الأستاذ سعيد حين كتب لم يرجم أحدًا ، وإنما كتب تاريخًا ، وحين قال إن رد العقاد على الرافعى سباب وشتائم ، فهو لم يكن إلا كذلك ، ولا يمكن أن يقال فيه إلا ذلك ... إذ ليس فيه شيء مما يسوغ أن يعد ردًّا أو نقدًا ... حتى ولا على طريقة الأستاذ (الأخصائى !) فى حل المنظوم ووصفه بالدعابة والطرافة والحيوية ... وما إلى ذلك من اللفظ الذى لا يتخذه ناقد إلا بعد الإبانة عن محجته وسبيله . أو كما قال

الأستاذ (الأخصائى !) فى كلمته الأولى « فى الناقد الذى لا يكتفى بالتذوق والاستحسان والاستهجان ، ولكن يعلل ! مايحس ويحلله » .

ومع ذلك فهل يرى أحد أن (حل المنظوم) فى ألفاظ ملفقة مذيلة ، ثم نعته بالطرافة والحيوية ... إلخ ، هو التعليل والتحليل الذى يتخذه النقاد أسلوبًا لهم ؟ .

ومع ذلك أيضًا ... فلو فرض أن « سعيدًا » رجم المارة ، والمارة ههنا هم الأستاذ العقاد وحده ، فلم تطفل الأستاذ (الأخصائى) فقاذف الأستاذ العريان ؟ ولِمَ لَمْ يدع ذلك للمرجوم نفسه ... ؟

ثم وراء ذلك كله ...تطفل (الأستاذ الأخصائى !) للقذف والرجم ، فلِمَ لَمْ يخص سعيدًا وحده دون أصدقاء الرافعى وأصحابه يتحداهم ويتناولهم بالأذى غير متذمم ... كأن أصدقاء الرافعى وأصحابه هم الذين كتبوا لسعيد ماكتب !!

* * *

وبعد فهذه كلمة كتبناها لنقرر حقيقة واحدة هى أن الأستاذ (الأخصائى فى اللغة التى نعبر بها) ، كان فى أول حديثه عنى – حين انتهى من حديث الرافعى – يضطرب ويؤخذ ويتناوح كأنه قصبة مرضوضة معلقة على عود هش قد يبس ... أريد أن أقول بلفظ آخر إنه كان يضطرب لأن حججه التى يتعلق بها حجج فاسدة ، وإن أصل كلامه عن الرافعى خائر يتصدع ، وإن فكره فى الذى كتب لم يستقر على شىء صحيح لا يختلف عليه .

وسيرى فيما يستقبل [١] من كلامنا أنه قد عجز كل العجز عن الإتيان بشىء يمكن أن يسمى نقدًا . وسيرى أيضًا أن النقد الذى نأخذ أنفسنا به لا يجور على العقاد ، ولا يميل بنا إلى الرافعى . ويكفيه مما مضى فى كلامنا وكلامه أن يعلم أنه نزه العقاد ورفعه أرفع درجة ، وأننا لم ننزه الرافعى ولم نقل فيه بعض مايقول هو فى الشاعر الكبير صاحبه .

* * *

---

(١) لم يكتب الأستاذ شاكر بعد ذلك شيئا فى أمر العقاد والرافعى ، ولم يواصل رده على سيد قطب .

من صاحب العصور
إلى صاحب الرسالة

أخى الأستاذ الزيات :

السلام عليك ورحمة الله ، وبعد فإنى أحمد الله إليك وأستعينه وأسألهُ لك التوفيق والسَّداد . أبيتَ أيها الرجلُ إلّا كرَمًا من جميع نواحيك ، فما كدتَ تستقبل العام السابع من عمر « الرسالة » حتى عُدْتَ عليّ بفضل من ثنائك وحسن ظنك ، فذكرت « العصور » ثم أثنيت فأغنيت .

لقد وافتنى كلمتك ، وأنا بعدُ أنفض عن يدىّ غبار « العصور » وأتخفف من أثقالها التى حملتها راضيًا غير كاره ، لأنقلب إلى هذه الغرف العزيزة التى نشأت فى حجور الشيوخ من سكانها أستخبرهم علم ما أجهل ، وأستنبئهم أخبار ما مضى ، لأستوحِيَ الظن فيما يستقبل ، وأجدّد بعادىٍّ (١) قوتهم قوة النفس التى لا تهدأ ولا تنام .

لابد من كلمة - أيها الشيخ الجليل - وقد كان الصمت أولى بى وأحبّ إلىّ . لابدّ من كلمة أعتذر بها للذين استقبلونى بفرحة المحبّ أمتع باللقاء على غير ميعاد . فأنت تعلم أني يوم عزمت على إصدار « العصور » لم أكن قد أعددت لها من مال إلا ما ادخرته فى نفسى من جهد أعوامٍ طالت فى معاناة العلم والأدب ، وبقية من خُلُق ضننت بها أن تذيع فى أطرافها ونواحيها مهزعات العصر الحديث التى صرّفت الأخلاق فى وجوه الغى والضلال ، وأطلقت دَنِيَّاتِ الغرائز من عقال الشرائع ، وأرسلتها ترعى حِمًى أبى الله ورسولُه أن يكون مرعى لمن آمن بالله واليوم الآخر .

ولكن لابد من مال مَشكُوك معترف به ، مصدّق على الاعتراف به من « محافظ البنك الأهلى » ، وإن قليل ما عندى من هذا المال لا يغنى غناءه فى

---

* الرسالة ، السنة السابعة (العدد ٢٨٧) ، ١٩٣٩ ، ص : ٦٧

(١) العادِىّ : نسبة إلى قوم عاد ، والعرب تنسب إليهم كل ماهو قوِىّ وعظيم وقديم .

عمل أوّله استهلاكٌ بغير نتاج وأنت أخبر بهذا الأمر . فلم يبق إلا الصديق الذى يعين على نوائب الحق ... فبدأنا إصدار « العصور » يَعُولها الجِدُّ من قِبَلى ، والعون من قبل الأصدقاء الكُتاب من أصحاب مذهبنا ، والمَدَد من « جيب » الصديق الذى أبدى بشاشته ، واستظهرها بعاجل البر ، وسِرْنا على اسم الله . فما كان إلا كلا ولا [١] حتى قلت كما قال الأول :

سعتْ نُوَب الأيام بينى وبينهُ ... فأقلعن مِنَّا عن ظلوم وصارخ

فإنى وإعدادى لدهرى « محمدًا » ... كملتمس إطفاء نار بنافخ

وأبيتُ أن أخفض عن نفسى أو أرُدّ غُلَواءَها ، فرددتُ المالَ إلى صاحبه غير منقوص ولا مُهْتَضَم . وقلتُ إنّ أمرًا قضاهُ الله لابُدّ له من تمامٍ وأجلٍ ، وما شاءَ الله كان وما لم يشأ لم يكنْ . وخيرُ الأمر أن ألجأ إلى الله ثم أستعين بما عندى على قضاءِ الحق الذى يقتضيه ما أقررت به على نفسى ، وما أقررتها عليه فى كلمة العدد الأول من « العصور » . فلم أبخل ولم أتراجع ، وأقدمتُ على إصدار العدد الثانى مستبشرًا مؤملًا راجيًا معتمدًا على ثقتى بالله ، ثم ثقتى بحسنِ التقدير الذى لقيته . فلم يلبث أن لقَى العدد الثانى من « العصور » حفاوة الناس فى كثير من بلاد العربية ، ولكن هذه الحفاوة المستبينة فى بيع مجلة – تكاليفها أكثر من دخلها بهذا البيع – لا يمكن أن تكونَ هى الرُّقية التى تجذب إلىَّ رقاب المال من كهوف « البنك »فأحويها وأروضها وأتصرَّف فيها تصرُّف الناس فيما هُمْ به « ناس » !!

وقلت : عسى أن يقضى الله لأمرٍ ضاق بالفرج ، وتوجهت بقلبى إلى الله ، وبوجهى إلى من أتوسم فيه سمة « الخزانة » المُعَدَّة لاحْتِجان المال [٢] . ولكنى وجدت القفل بعد القفل على الخزانة ، وافتقدت المفتاح الذى يتسنى له كل مُغْلَق . إن هذا المفتاح ليس عندى ، ولستُ أملكه ، وما أحسبنى أرتضى – بعد أن جرَّبتُ – أن أملكه أو أَحوزه . إنه لا يملكه إلا من قدّم رهينةً ، والخُلُق

---

(١) كلا ولا : أى لحظة قصيرة خاطفة ، أى بقدر الوقت الذى تستغرقه فى نطق هذين الحرفين .

(٢) احتجان المال : إصلاحه وجمعه وضم ما انتشر منه .

لا يُعترف به فى باب الرَّهائن ، ولستُ أملكُ غيره ، فلا رهينةَ ، أى لا قَرْضَ ولا معونة . وإنه لا يملك المفتاح بعدُ إلا اللصُّ الذى يلين له ما أُعْضِل من قُفْل غَلِق وأنا بحمد الله لم أُخْلَق على طبيعة السارق بل سُوِّيتُ على هيأة المسروق ، كلّ من شاء أن يأكلنى أكلنى ؛ قد رضيتُ أن أحوطَ جوهرى بالعَرَضِ المُضيَّع .

ومع ذلك فقد أعددت العدد الثالث للطَّبْع ، وتصرَّفتُ فى وجوه التدبير ، ثم وُفّقت إلى من أرضى عنه ويرضى عنى ... ولكن أبى خُلُق الدُّنيا معى أن يتم جميل تستودعنيه ، أو معروف تربّبه عندى . فرجعت عَودى على بدئى راضيًا عن الله شاكرًا لله واثقًا بالله ، أستعينه وأستحفظه ، وأشكره ولا أكفره .

لا أقـول الله يـظـلـمـنـى ... كيـف أشكـو غيـر مُتَّـهـم

وأنا لا أزال أقول : يَصْنَعُ الله ، يَصْنَعُ الله ، إن لله تدبيرًا يصرّفنا به كيف شاء إلى مواقع علمه ومنازل حكمته . وأنا مذ كنت ، كنت مطية القدر حيثما وجهنى استقبلتُ المضيقَ والطريقَ بنفس مسلمةٍ وجهَها لله ، بأن الزّمامَ فى يد الله .

فإن تسألينى ، كيف أنتَ ! فإننى ... صَبورٌ على رَيْبِ الزمانِ صَليبُ
يعزُّ علىَّ أن تُرى بى كآبةٌ ... فيشمتَ عادٍ أو يُسَاءَ حَبيبُ

وعلى ذلك فأنا مُنتظِرٌ ، و« العصور » إلى جانبى تنتظِر ! وشكر الله لك ، وجزاك خَيْرًا من صديق .

* * *

(الرسالة) تألم الرسالة أشد الألم أن يُثبِّط هذا القلمَ البارع وهذا الفكر الرشيد مثبطات المادة ، وتدعو الله مخلصة أن يلهم أهل المال معونة أهل العلم حتى لا تتخلف « العصور » عن صفها فى الجهاد إلا ريثما تواتيها العدة . وعسى أن يضن القراء بهذه الثروة الأدبية على الضياع فيعينوها على الصدور بإسلاف (١) الاشتراك .

* * *

(١) الإسلاف : الإقراض الذى لا منفعة فيه للمُقْرِض غير الأجر والشكر .

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

ذات النطاقين

(قال عمر بن أربى ربيعة بعَقِب حديثه) :

... فوالله لقد جَهَدَنا البلاء - يا أهل مكة - ولقد صبرنا على حصار الحجّاج سبعة أشهر أو تزيد عن غير حصن ولا منعة ، وإنّ أحدَنا ليُرى وقد لحقت بَطْنُه بظهره من الجوع والطَّوَى ، ولولا بركة تلك العين (يعنى زمزم) لقضينا ، وصدق رسول الله ﷺ « إنها مباركة ، إنها طعامُ طُعمٍ » لقد أشبعنا ماؤها كأشد ما نشبع من الطعام ، وما ندرى ما يُفْعَلُ بنا مُنذُ اليوم . فلقد خَذَل « ابنَ الزُّبَير » أصحابُه خذلانًا شديدًا ، وما من ساعةٍ تمضى حتى يخرج من أهل مكة من يخرج إلى الحجاج فى طلب الأمان . ألا شاهتْ وجوه قوم زعموا أنْ سينصرونه ، يحمون « البيت » أن يُلحَد فيه ، ثم ينكشفون عنه انكشافة كما تَتفرق هذه الحمامُ عن مَجْثمها على الرَّوْع ...

وخرجتُ ، ومكة كأنها تحتَ السَّحَر خليَّة نحل مما يدوِّى فى أرجائها مِنْ صوت داعٍ ومكبِّر وقارئ ، وصَمَدْت [1] أريد المسجد فأسمع أذان « سعد » مؤذِّنِ ابن الزبير فأصلى ركعتى الفجر ، فيتقدم ابن الزبير فيصلى بنا أتمَّ صلاة ، ثم يستأذن الناس ممن بقى من أصحابه أن يُوَدّع أمه « أسماء بنت أبى بكر الصديق » فأنطلق وراءه وما أكادُ أراهُ مما احتشدَ الناس فى المسجد ، وقد ماجوا وماجَ بهم يتذامرون ويحضَّضُون ويُحرِّضون ، وزاحمت الناس المناكب أرجو ألا يَفوتنى مَشهد أسماء تستقبل ولَدها وتودِّعه ولقد تَعْلمُ أنه مقتول لا مَحَالة ، فما أكاد أدركهُ إلا وقد انصرفَ من دارها يريد المسجد ، وإذا امرأة ضَخْمة عجوز عمياء

* الرسالة ، السنة السابعة (العدد : ٢٩٧) ، ١٩٣٩ ، ص : ٥٣٩ - ٥٤١

(١) صَمَدَ المكانَ وإليه : قَصَدَه

طُوالة كأنْ سرْحةٌ [(١)] فى ثيابها ، قد أمسكت بعُضادتى الباب تصرف وجهها إليه حيثما انتقل ، فوالله لكأنها تثبتُه وتُبصرُه ، وقد برقَت أسرَّةُ وجهها تحت الليل برق العارِض [(٢)] المتهلل ، ثم تنادى بأرفع صوت وأحنِّه وألينه ، قد اجتمعت فيه قوة إيمانها وحنينُ قلبِها : « ياعبد الله ! يا بُنى ، إنى أُمك التى حملتك ، وإنى احتسبتك فلا تَهِن ولا تجزع . يابنى ابذُل مُهجة نفسك ، ولا تَبعد إلا من النار ... ياعبد الله ! لا تبعد إلا من النار ، أستودعك الله يابُنى ! » ثم تدور لتلج الدار فكأنها شِرَاعٌ قد طُوِى .

رحمة الله عليكم يا آل أبى بكر ، لأنتم أصلبُ الناس أعوادا وألينهم قلوبًا . وأحسن الله عزاءك ياذاتَ النطاقين ، فلقد تجملتِ بالصبر حتى لقد أُنسيت أنك أمٌّ يجزع قلبها أن يَهلكَ عليها ولدُها فيتقطع عليه حَشاها .

وانصرفتُ عنها بهمِّى أَسعَى ، فوالله ما رأيت كاليوم أَكْسَبَ لعجب وأجَدّ لحُزنٍ من أُمٍّ ثكلى يحيا ظاهرُها كأنه سراجٌ يَزْهَرُ ، ويموتُ باطنها كأنه ذُبَالةٌ توشكُ أن تنطفئ ، وذهبتُ ألتمسُ الوُجوهَ وأحزانها ، فما أَرَى وُجُومَها وقُطُوبَها وانكِسَارَها ورَهَقَهَا وصُفرَتها إلَّا ذِلّة النفس وخضوعَها واستكانتها وضعفَها وعلَّتها ، وأن المؤمنَ حين يحضُره الهمُّ أَشْعَثَ أغبرَ يَردُّه إيمانُه – حين يؤمن – أبلجَ يتوقَّد ، ليكون البُرهانَ على أنَّ الإيمانَ صيْقَلُ الحياةِ الدُّنيا ، يَنْفى خَبَثَها ويجلو صَدَأَها ، فإمَّا رَكِبها من ذلك شىءٌ ، عادَ عليها يُحَادثها ويصقُلها حتى يتركها بيضاءَ نقيَّة ...

وما بلغتُ المسجدَ حتى رأيتُ ابن ذاتِ النِّطاقين قائما بين الناس كأنه عمودٌ من طُولِهِ واجتماعه ، ووثاقَة بنائِه ، وحضَرْته وهو يقول : « أيها الناس ، عجِّلوا الوِقاع ، ولا يرعِكُمْ وَقْع السيوف ، وصونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ، فلينظرْ رجلٌ كيف يضرب ، لاتخطئوا مضاربكم فتكسِرُوها ، فإن الرجُلَ إذا ذهب

(١) السَّرْحَة : الشجرة الطويلة العظيمة .

(٢) العارِض : السحاب يعترض فى الأفق .

سلاحُه كان أعزلَ أعضبَ [١] يؤخَذُ أخذًا كما تُؤخذ المرأة . لِيَشْغَلْ كلّ امرئٍ قِرْنَه ، ولا يُلهينكم السؤالُ عنى : أين عبد الله بن الزبير ؟ ألا منْ كان سائلًا عنى فإنى فى الرَّعيل الأول » ... ثم يدفَعُ أسدٌ فى أَجَمَةٍ ، ويحيصُ أصحابُ الحجاج حيصة [٢] فى منازلهم من الرُّعب ، فلقد رأيتُه يقفُ ما يدنو منه أحدٌ ، حتى ظننتُ أنه لا يُقْتَلُ ، حتى إذا كان بين الركن والمقام رُمى بحجرٍ فأصاب وجْههُ فبلغ منه حتى دَمِىَ ، وسال دَمُه على لحيته ، وأُرعشَتْ يدُه ... وغَشِيهُ أصحابُ الحجّاج من كلّ ناحية وتغاوَوْا [٣] عليه ، وهو يقاتلهم جَاثِمًا أشدَّ قتال حتى قُتِل .

وارحمتا لك يا بنتَ أبى بكر !! أىّ كبِدٍ هى أشدُّ لوعةً من كبدِكِ ! لقد والله رُحمتِ رحمةً إذ كفَّ الله منك البصر ، لئن لم تكونى تجزعين لموته ، لقد كنتِ جزعتِ لما مثَّلوا به وحزُّوا رأسهُ ، ورفعوه على خشبةٍ مُنكَّسًا مَصلوبًا ...

وما كدْتُ حتى أقبلتْ أسماءُ بين يديها كفنٌ قد أَعدَّته ودَخَّنتْهُ [٤] ، والناسُ ينفرجون عن طريقِها فى أعينهم البكاء ، وفى قلوبهم الحُزْنُ والرُّعب ، قد انتُسفت وجوههم كأنما نُشروا من قُبورهم لساعتهم ، وسكنت الأوصالُ ، وجالت الأحداقُ فى مَحاجرها وكأنها همَّت تخرُج ، وتمشى أسماءُ صامدة [٥] إلى الخشبة صمدًا وكأنها ترى ابنها المصلوب ، وكأنها تستروِح رائحة دَمِهِ ، حتى إذا بَلَغَتْهُ – وقد وجم الناس وتعلقت بها أبصارهُمْ ورجفت بهم قُلوبُهم – وقفتْ ، وقد وجدت رائحة المسك تحت ظِلاله فقالت : « يابُنَىّ طبتَ حيًّا وميّتًا ، ولا والله ما أجزعُ لِفراقك ياعبد الله ، فمن يَكُ قُتِلَ على باطل فقد قتلتَ على حق ، والله لأُثْنِيَنّ عليك بعلمى : لقد قتلوك يابُنى مُسلمًا محرمًا ظمآن الهواجر مصلّيًا فى ليلك ونهارك » .

---

(١) الأعضب : أصله فى الحيوان ، وهو المكسور القَرْن .

(٢) حاص (كسار) : رَجَع ، وفى حديث أَنَس يوم أُحُد « وحاص المسلمون حَيْصَةً » ، أى جالوا جولةً يطلبون الفرار .

(٣) تَغَاوَوْا عليه : تجمّعوا عليه ، وهى بالعين المهملة أيضا .

(٤) دَخَّن الثوبَ : جعل فيه الدُّخْنَة ، وهو بُخُور تُدَخَّن به الثياب والبيت .

(٥) صَمَد المكانَ وإليه : قَصَدَه

ثم أقبلتْ وجهها السماءَ ومدّت بيديها تدعو : « اللهمَّ إنى قد سلَّمته لأمرك فيه ورضيتُ بما قضيتَ له ، فأثبنى فى عبد الله ثوابَ الشاكرين الصابرين . اللهمّ ارحم طولَ ذلك القيام فى الليل الطويل ، وذلك النحيب ، وبرَّهُ بأبيه وبى » .

ووجم الناس وجمةً واحدةً ، وخشعوا خشعةً لكأن السماءَ والأرض صارتا رتقًا فما يتنفَّسُ من تنفَّس إلا من تحتِ الهمِّ والجهد والبلاء . وكأنّ مكة بيتٌ قد غُلِّقتْ عليه أبوابهُ لا ينفُذُ إليه أحد ولا يبرحه أحد . وكأن الناس قد نزعت أرواحهم وقامت أبدانهم وشخصت أبصارهم ، وبدت أسماءُ بينهم وكأن وجهها سراج قد نُصّ على سارية ، لا يزال يزهر ويتلألأ ، ثم تتلفت كأنما تتطلع فى وجوه هذه الأبدان الخوالد [١] ، وأضاء ثغرها عن ابتسامة . والله لقد بلغتْ من العمر وما سقطت لها سنٌ ، ومازال ثغرها ترفُّ غروبه [٢] ثم قالت : « يا بَنِيَّ ، لشد ما أحببتم الحياة وآثرتم دنياكم ، فخذلتم أخاكم ، وفررتم عن مثل مصرعه . يابنِيَّ يغفر الله لكم ، وجزاكم الله عن صاحبكم خيرًا » .

وأطرقت أسماءُ إطراقةً ثم رفعت رأسها تُومِئُ إلى الخشبة ، فوالله لقد رعدت فرائصى حتى تَزَايلتْ أوْصالى ، وصَرَّ الناسُ كأنما تقصَّفت أصلابُهم [٣] ، وإذا هى تقول : « أَلَا مَنْ مُبْلغ الحجّاج أن المُثْلَة سبّة للحىّ وما تضرّ الميّت . ألا مَنْ يُبْلِغ الحجّاجَ عنِّى أن الشّاةَ إذا ذُبحَتْ لم تألم السَّلْخ » .

وحامتْ أسماءُ وطافت بين الناس وبين هذه الخشبة ساكنةً صابرةً ، لا يُرَى إلّا بريق وجهها يومِضُ كأنه سيف صَقِيل ، ثم طفقت تردّد « يابَنِيّ ، أمَا آن لهذا الراكبِ أن ينزل ؟ أما آن لهذا الراكب أن ينزل ! يابَنِيّ ليستأذنْ أحدُكم حَجّاجَكمُ هذا أن يَدفَع إلىّ هذه العظام . أَدُّوا عنى ، يرحم الله من أَدَّى عنِّى » .

فيجىء الرسول من قِبل الحجاج يأبَى عليها أن تُدْفَعَ إليها عظَامُ ابنها

---

(١) الخوالد هنا : بمعنى الساكنة كالجبال والحجارة والصخور .

(٢) الغروب : جمع غَرْب ، وهو الماء على الأسنان يكسبها بَرِيقا .

(٣) صر : صدر عنهم صوتا كالصرير ، وجاءت هذه العبارة فى شعر العطوى :

وليس صريرُ النَّعْش ما تسمعونه ولكنه أصلابُ قَوْم تَقَصَّفُ

المصلوب ، ويَجيءُ على أثره موكلون قد وكلهم بجثّته يقومون عليها يحرسونها ، كأنما خَشِى أن يَحيا ميت قد حُزَّ رأسه أن تمسَّهُ يَدُ أُمِّه . فوالله ، فوالله لقد سمعتْ أسماءُ وخُبِّرتْ فما زادت على أن وَلَّتْ عنهم كما جاءت ما تقطر من عينيها قطرةُ دمْع ، وما تُجاوز قومًا إلا جاوزتهم كأنهم فُسطاطٌ يتقوّض ، حتى ولجتْ بابَها وغلَّقَته عليها .

وانطلقتُ أنفضُ الناسَ بعينيّ ، فرأيتُ أخى الحارث (ابن عبد الله بن أبى ربيعة) وابن أبى عتيق (هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق) ما فى وجهيهما رائحة دم من الحزن والفرقِ . فقلت : ماهذا أوان جزع ، انطلقوا بنا - يرحمكم الله - إلى دارها نواسيها ونترفقُ لها ، فوالله لقد تخوَّف أن يذهبَ بها الحزن عليه ، وإنه لفالقٌ كبدَها ما لَقِيَتْه . ويطرق الباب ابن أبى عتيق ، فيجيبُ الصوت من داخل : قد أسمعتَ فمهْ . فيقول : أنا ابن أبى عتيق يا أمّاه . ويؤذن لنا فندخل دارها تَجِفُ قلوبنا من الروع والرّهبة ، ونأخذ مجلسنا عند بنت أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ وزوج حواريِّه عليه السلام ، وكأن قد تركنا الدُّنيا وراءنا وأقبلنا على الآخرة .

استضحكت أَسماءُ حتى بدت نواجذُها وقالت : « مرحبًا بكم يا بَنّى ، جئتم من خلل الناس تعزُّون أُمكم فى عبد الله . يرحم الله أخاكم لقد كان صوَّامًا قوَّامًا ما علمتُ . وكان ابن أبيه الزُّبير أوّلِ رجل سلّ سيفه فى الله ، وكان أشبه الناس بأبى بكر .

يا بَنىّ ، والله لقد حملتُه على عُسْرَةٍ ، والمسلمون يومئذ قليلٌ مستضعفون فى الأرض يخافون أن يتخطَّفَهُم الناس ، ولقَدْ سعيت به جنينًا بين بيت أبى بكر وغار ثور بأسفل مكة فى هجرة رسول الله ﷺ وصاحبه أبى بكر رضى الله عنه آتيهما تحت الليل بما يصلحهما من الطعام ، ويسكنُ الطلبُ عن رسول الله ﷺ ، فأتيتهما بسفرتهما وسقائهما ونسيت أن أتخذَ لهما عِصامًا [1] ، فلما ارتحلا

---

(١) عِصام السِّقاء والقربة هو رباطها وسَيْرها التى تُحْمَل به .

ذهبتُ أُعلِّق السُّفرة فإذا ليس لها عِصامٌ ، فوالله ما أجدُ ما أعلقهما به ، ووالله ما أجِدُ إلّا نطاقى وأنا حُبلى مُتِمٌّ . فيقول أبو بكر يا أسماءُ شقِّيه اثنين ؛ فأشقه فأربط بواحد منهما السقاء وبالآخر السفرة ؛ فلذلك ما سمّانى رسول الله ﷺ « ذات النِّطاقين » يعنى فى الجنة . وأعود بعبد الله يرتكض فى أحشائى ، قد احتسبتُ نِطاقى فى سبيل الله ، فوالله ما أجدنى احتسبتُ بنىّ عبدَ الله اليوم إلا كما احتسبت نطاقى ذاكم . وأَعود إلى دار أبى بكر ويأتى نفرٌ من قريش فيهم أبو جهلٍ فوقفوا ببابها ، فأخرج إليهم فيقولون : أين أبوك يابنت أبى بكرٍ ؟ فأقول : لا أدرى والله أين أبى ، فيرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فيلطم خدِّى لطمة يطرح منها قُرطى فتغُول بى الأرض الفضاء ، فوالله لما لقيتُ من حَجّاجكم هذا أهون عندى مما لقيتُ من لطمة أبى جهل وأنا بعبد الله حامِلٌ مُتِمٌّ . يابَنِىّ إنى آخرُ المهاجرين والمهاجراتِ ، لم يبق على ظَهرِها بعد عبد الله منهم غيرى ، فلا والله ما حَسَنٌ أن يَجزَعَ من هاجَرَ - وإنّ شأن الهجرة لشديدٌ - وما حَسنٌ أن يجزع من شَهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، وكيف وقد أربيت [١] على المائة .

يابنى جزاكم الله عنى وعن أخيكم خيرًا ، قوموا لشأنكم وذرونى وشأنى يرحمكم الله » .

وودَّعنا وانصرفنا ، ولا والله ما نجد لأسماء فى الرجال ضَرِيبة [٢] فأين فى النساء ؟ ولكنها كانت تصبر صبر المهاجرين الأولين على الجهد والبلاء .

وما كان صُبح خامسة من مقتل ولَدها حتى استجابت لدعوة ربّها رضى الله عنها وأرضاها ، وهى أمٌّ حنَّت تكتم حنينها ولكأنه عجَّل بها موته فقطع نياطها وصدع فؤادها ، وفلق كبدا عليه حنينها إليه ....

* * *

---

(١) أربى : زاد وأَوْفَى .

(٢) الضريبة : النظير والشبيه .

منهجي في هذا الباب

عهد إليّ الأستاذ « الزيات » أن أتولى تحرير هذا الباب [1] من « الرسالة » ، فأجبت إرادته بالتسليم ، وأنا أجد المعانى فى نفسى حائرة لاتكاد تقر ، فقد لحقتنى إرادته والحياة من حولى تفتّرنى حتى ما أحس من فورتها إلا القليل ، والنفس منبوذة على حدود النشاط فى كسلٍ مجدب بالقحط والظمأ لا يهتدى إليه رِىٌّ ولا شِبَع . وإذا كانت النفس كذلك لم يأت خيرها إلا من طول الإحساس بالحرمان والألم ، فهى تريد أن تتكلم من نوازعها بألفاظ ثائرة ضائعة حائرة كأنما تبحث عن نفسها فى معانيها ... ثم لا تتكلم ، وهى على ذلك لا تطيق التأمل فى المادة التى تعرض لها إلا بمقدار من الرغبة فى البحث عن نفسها فى سر نفس غيرها لتجد عند ذلك أسبابًا تهتاج بها وتضطرب وإذا لم تجد النفس لذتها المؤلمة إلا فى انتزاع الآلام المحرقة مما ترى وتسمع وتتخيل ، فكيف تعيش أفكارها إلا فى دخانٍ من الأحزان الصامتة صمتَ الفكرة المختنقة التى لا تجد أنفاسها ولا جوّ أنفاسها . هكذا أَجدُنى .

وهذه النفس المنبوذة بما جنت وبالذى لم تجن من شىء ، هى النفس التى أريد أن أتولى بها النظر فيما يعرض لى من شؤون الأدب فى أسبوع من أسابيع « مصر » ، ولقد تشاكلا ووقع حافرٌ على حافر فى حَلْبة مغلقة . فنفسى الآن هى نفسى التى لا أكاد أجمعها وألم أشتاتها إلا قليلًا ، وما هو إلا أن أراها مبعثرة تَفِرّ منى أوابدها فى كل وجه ، وأقف أنا أتلفَّت ... أنظرها وهى تغيب فى ظلام الأحزان ، وتترك عندى أطيافًا من الذكرى تطوف فى تأملاتى مرسلة من مزاميرها ونايها أنغامًا حزينة مهجورة متفجِّعة كأنما تقول : هذا مكان كان أهله ثم بادوا ، وهكذا أيضًا أَجِدُنى .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٣٩) ، ١٩٤٠ ، ص : ٢٤ - ٢٦

(١) هذا الباب هو « الأدب فى أسبوع » .

فى بعض الإنجيل هذه الكلمة : « من وجد نفسه أضاعها ، ومن أضاع نفسه من أجلى وجدها » ، أفيكون معنى ذلك أن النفس الإنسانية لا توجد باقية أبدًا إلا وهى مستهلكة ، وأن الأشياء الشريفة التى تُهلك هى بعينها التى تُحيى ، وأنه لا معنى للشىء الحىِّ إلا أن يجتمع فيه معنى الأشياء الشريفة ، الموت والحياة معًا ، وأن استغراق النفس واستهلاكها فى الأحزان النبيلة وتعذيبَها بها هو استحياؤها وتنعيمها ، وأن العمل المهلك والفكر المهلك هما العمل الإنسانىُّ الجليل الذى خُلِقَتْ من أجله الحياة على الأرض ! وعلى ذلك لا تكون النفْس حيَّة أبدًا إلا وهى سائرة بالحياة فى مَسْبَعَةٍ [1] من الموت ، يتخطفها كل شىء حتى الأسباب التى يستوجب بها الحىّ صفة الحياة ! إذن ما أعجب الحياة .

* * *

وإذن فقد فرَّت منى المعانى التى أحمل نفسى الآن على علاجها ، واستجهلتنى الآلام فى عواصفها حتى ذهبت هذا المذهب الحزين من القول لأقدِّم به الكلام فى هذا الباب الذى عقده « الزيات » للأدب ، ومع ذلك فإنى لأرى الصلة التى تصل أصل هذا الباب بالأصل الذى فى نفسى ، فإن تتبع « الظواهر الأدبية » ينبغى أن توفر له أسباب الاستقرار النفسىّ حتى يستطيع الكاتب أن يجمع إليه المعانى ويضرب عليها الحصار حتى يفندها أو ينقدها أو يحصيها أو يبين عن غامضها أو يكشفَ أستارها أو يقدم لها بالنظر والفكر والتوهم ما يوجب بعض النتائج التى تفضى به الآراء إليها ، وبذلك يمكنه أن يوجد للأدب ميدانًا تستعرض فيه أعماله التى يدأب الأدباء والكتاب والشعراء وأصحاب الرأى فى صنعها وتجويدها . فإذا تناول هذا الأمر بالنفس التى لا تستقر ولا تهدأ كان عمله أقرب إلى الثورة – أى إلى الفوضى – من حيث يريد أن ينظم ، ومع ذلك فإن الخير كل الخير أن نحاول الحياة كما تحاولنا بالاقتسار والعنف ، وأن نقبل عليها وهى مدبرة بالبرهان على إمكان احتمالها جافية كانت أو ناعمة ، ومؤلمة كانت أو مريحة ،

---

(١) المسبعة : الأرض تمتلىء بالسِّباع ، وهى كل حيوان مفترس .

ومنصفة كانت أو باغية ، وأن نأخذها من حيث نرى الرأى أنه هو أجدى وأنفع ، وأيضًا فإن المصدر الحىّ للأدب إنما هو النفس ، فهو يصدر عنها موسومًا بسمتها ، إمّا مستقرة هادئة مفكرة فى جوّ من الراحة ، وإما ثائرة لمّاحة متخطفة فى مسبح الأحلام والآلام والأمانىّ المعذبة بالحرمان ، فليس إذن من المُنْكَر أن ينصب امرؤ لا تهدأ نفسه لمثل هذا الباب الذى وصفناه وأن يتناول هذا الأدب بما يتداولُه من الإحساس المشبوب والنظر الخاطف والرأى العنيف أو أى ذلك كان .

وأحب أن أعهد قبل أن أتكلم ، فإنى رأيت الأدباء قد أكل بعضهم بعضًا بألسنة كظهر المبرد ، وتشاحنوا بينهم للكلمة التى لا ترفع ولا تضع ، وتنابذوا على الأهواء الغالبة المستكلبة ، ومن كان ذلك هجِّيراهُ [1] ودأبهُ ، فهو عند النقد أو الاعتراض كالوَحْش الجوَّع [2] الغرثانِ قد أُجْهِض عن أشلاء فريسته ، يكاد يَنْقَدُّ عليه إهابُه من الغيظ والحِقد والرغبة فى الإيقاع بمن يصرفه عن أحلام مَعِدته . وهذا أسوأ الخلق وأبعده عن صريح نهج الأدب ، وأقله غناءً فى تهذيب الأديب ، وما أظن أن فى الدنيا العاقلة أديبًا تخيّل له أوهام « العبقرية » الطائفة به أنه قد سبق السهو والخطأ وبقى النقد والنقاد لَقًى وراءه يتلوذون بظلاله - فى طلب البركة ! ومع ذلك فإن بعض من عنّاهُ القدر فرمى فى غيل الأدب العربى يتصيد ، ... يقتات من أوهام العبقرية حتى حبط بوهمه فى نفسه ، واستكرش ونفش بما أكل حتى تضلَّع ، ثم استلقى على الأفياء يتخيَّل أن الأدب كلَّه قد وقف عليه من عند قدمه إلى رأسه يُهدهده حتى ينام فى ظلال هذا الملك الهنىء . ومن كان هذا مثاله من الأدباء ، وعرضنا لبعض قوله بالنقد ، فلا يتخيَّلنَّ أنَّا نعنيه هو بذاته - فهو موفور الأحلام على نفسه إن شاء الله - وإنما نعرض للقول على أنه كلام مقول فيه السهو والخطأ ، وتتعاوره الصحة كما يتعاوره السُّقم ، وأنه كلامٌ مصبوبٌ على الناس وعلى أسماعهم وأذهانهم ، فنحن بنقدنا كلامه ، إياهم نريد ، وإياهم

---

(١) الهِجِّيرَى والدَّأب والعادةُ بمعنى .

(٢) جوّع : هكذا فى الأصول ، وهو جمع لا مفرد ، والسياق يقتضى الإفراد ، والغرثان والجائع سواء .

نخاطب ، وعسى بعدُ أن يكون له فى هدأةٍ من نفسه رأىٌ يتابعنا به إن أصبنا أو يسدِّدنا ببيانه إن أخطأنا ، وما نألو فى الاجتهاد ، ولكن ربما حُرم الإنسان التوفيق فيما يأتى وما يذر .

هذه واحدة فيما نبدأ به ، أما ما يقع بين الأدباء من المجادلات والمنافرات ، فحقها من هذا الباب التسجيل ، فإن بقى لنا فى القول مقال نقوله - نتعقب به الأصل الذى يقع عليه الاختلاف والتَّنافُر - لم نقصِّر فى تحقيق البيان وتحريره ، متعاونين فى جعل الحقيقة أسرع إلى إثبات وجودها والدلالة على نفسها حتى تتجلى .

وأما الشعر والشعراء وما يلوذ بهما ، فأنا حين أغمض عينى لأجمع علىّ خيالى ورأيى وفكرى ، أنتهى إلى مثل الغيبوبة من الحسرة واللهفة والألم . فقد فرغ الشعر من بيانه ومعارضه وصاريته الفاتنة ، ووقع إلينا أوزانًا تَتخلَّج بما تحمِلُ تَخَلُّج المجنون فى الأرض الوحِلة ، وما أظنه يعتصم فى هذه الأيام بشاعرين أو ثلاثة ، ولكل منهم مذهب ، وكل قد قذفت به الحياة فى مهنتها وابتذالها حتى صار أكثر فراغه مستهلكًا على صناعة أو وظيفة تطعمه العيش وتحرمه لذته ، ومع ذلك فهم يقولون ويتكلمون والسامعون ينصرفون عنهم لسوء رأيهم فى الشعر الحاضر أول ، ثم لكثرة مايسمعون من كلام لا يحرك عاطفة لأنه لا يصدر عن عاطفة ، وما يزال ذلك يتوالى عليهم ، حتى إنهم لا يكادون يعرفون الشعر إلا هكذا ثقيلًا غثًّا باردًا ، فكيف لا ينصرفون عنه ، ومن ذا الذى يرضى أن يحمِل نفسه إلى « ثلاجة » وهو يُعَد فى العقلاء . فكذلك ضاع شعر هؤلاء الثلاثة فى غثاثة الكثرة ، ثم فترت أنفسهم ولا تزال تفتر - إلا أن يشاء الله - لما يحسون من غفلة السامعين عنهم ، وليس كلهم يستطيع أن يقول كما قال صاحبهم الأول :

لم يَبْقَ من جُلِّ هذا الناس باقيةٌ	ينالها الفَهْمُ إلّا هذه الصُّوَرُ
أهزُّ بالشِّعر أقوامًا ذوى وَسَن	فى الجهل ، لو ضُربوا بالسيف ما شعروا
علىَّ نَحْتُ القوافى من مَقَاطِعها	وما علىَّ لَهُم أن تَفْهَم البَقَر

وكذلك نخشى أن يأتى على الناس زمان يضيع فيه الشعر الجيد أو يرفع حتى

من صدور هؤلاء الثلاثة . ولست أدرى الآن كيف يُتاح لى أن أنهج مع الشعر والشعراء نهجًا يكون رضا ومَقنعًا وباعثًا على تجويد الأساليب والمعانى حتى ينقذ الشعراء فنهم من الضياع ؟ فلندع هذا إلى حينه ، وإلى رأى الشعراء فى « مطالبهم » ، فقد صار لكل أصحاب صناعة مطالب وحتى النساء ، فكيف لا يعرف الشعراء مطالبهم وحقوقهم وهم أرهف إحساسًا وأنبل مقصدًا وأبين بيانًا !!

وأما الكتب التى تصدر فى خلال الأسبوع أو قبله بكثير أو قليل فسننهج لها نهجًا مخالفًا لمنهج العرض الكامل أو النقد الشامل ، فإن هذا أحق به باب « الكتب » و « النقد » وإنما نعرض لها من حيث يتوجه لنا الرأى فى غرض الكتاب الذى يرمى إليه ، وأين يقع منه . وربَّ كلمة واحدة فى صدر كتاب أو ذيله ، لم يعرضْ لها الكاتب إلا شاردًا أو كالشارد ، ثم تكون هى تربُو بمعانيها على الكتاب كله وعلى أغراضه أيضًا ، فربما وقفنا عند هذه وقفةً تَجيش لها النفس من نواحيها ، فنحتفل لها أشد احتفال وأعظمه لتكون كالعَلَم على المعانى النبيلة التى تضيع فى خرائب الكتب .

وبقيت كلمة ... ، فقد أحسن « الزيات » إذ تنبّه إلى هذا الباب - الآن - من أبواب مجلته وقد أغفله كل هذه السنين . فإن الحرب والثورة وما فى معناهما هى اضطراب عنيف يهز أعصاب الحياة ويقضقض أوصالها ، فلا جَرَم إذن أن تدور الرؤوس وعقولها دورات كثيرة حول نفسها ، فتختلّ الأوزان والمقاييس فى كل شىء ، وأن تبدأ الحياة بعد الحروب بدءًا جديدًا ، ويكون الناس إذ ذاك كالناشر من باطن الأرض وقد خرج من أكفانه ليرى ظاهرها كل شىء غريب وغير مفهوم ، ومع ذلك فهو جديد لذيذ لا يُملُّ وإن كان كله خطأ وفسادًا واستحالة وسببًا من أسباب الفناء ، وكذلك يكون الأدب والأدباء بعدَ الحرب ، كما أخرجت الحرب الماضية ثم الثورة المصرية سنة ١٩١٩ جيلًا من الأدباء استفحل أمرهم وذاع صيتهم وضربوا فى الأدب بأسهم مفلولة محطمة ، ومع ذلك ...

فهذا الباب فى هذه الأيام - إلى مابعد الحرب - يصوِّر بعون الله وتوفيقه

وهدايته الطريقَ الذى كان عليه الأدب إلى اليوم ، ثم أين انتهى وكيف ؟ ثم غيب ذلك كله موقوف على نوع الحرب وأساليبها وما تُبدع من فنون الشر ، وما تثير من طبائع الإنسان - من أنثى وذكر - ، وما تحفِزُ أو تُبيرُ (١) من أحلام الإنسانية المتحدرة من أطباق الماضى البعيد مع الإنسان الوارث الحىّ على هذه الأرض .

* * *

(١) تُبير : تُهْلِك .

الإصلاح الاجتماعى

من عادتى - إذا ما استبهمَ علىَّ نَفاذُ الرأى - أن أعدِل بأفكارى إلى الليل ، فهو أحصنُ لها وأجمع . فإذا كان الليلُ ، وهدأتِ النائرةُ ، وأَوَى الناسُ إلى مضاجِعهم ، واستكنَّت عقاربُ الحياةِ فى أجحارِها ، تفلَّتُّ من مكانى إلى غرفتى أُسدِلُ ستائرها وأغلِّقُ أبوابها ونوافذها ، وأَصنعُ لنفسى ليلًا مع الليل ، وسكونًا مع السكون ، ثم أقعد متحفِّزًا متجمعًا خاشِعًا أملأ عينى من ظلام أسود ، ثم أدعُ أفكارى وعواطفى وأحلامى تتعارف بينها ساعة من زمان ، حتى إذا ماجت النفس موجها بين المد والجزر ، ثم قرّت وسكنت ، وعاد تيارها المتدفق رهوًا ساجيًا كسعادة الطفولة ، دلفت إلى مكتبى أستعين الله على البلاء .

وأمسِ ، حين أيقظنى من غفوتى داعى « الرسالة » جمعت إلىَّ ما عزمت على قراءته من الصحف والمجلات والكتب - التى هى مادة هذا الباب - وطفقت أقرأ وأقرأ ، ولا أكتم أنى كنت أقرأ فى هذا اليوم - على خلاف عادتى فى أكثر هذه الأيام - قراءة المتتبع اليقظ الناقد المتلقِّف لأضع يدى على أغزر الأصول مادة وأعظمها خطرًا وأشدها بِنية ... وأدسمها شحما ، فإنّ حق القراء علينا أن نتخذ لهم صنيعًا ومائدة تكون أشهى وأمرأ وأقرب متناولًا وأردَّ على شهواتهم فائدة . فلما فرغت من إعداد ما أعددت لهم وأويت إلى ليلى المختلق المزيف ، جعلت أستعيد فى نفسى ماقرأت ، وأين وقفت منه ، وما تنبهت له مما تعودت أن أستشفَّه من وراء الألفاظ المعبرة ، ومن تحت السياق المهدِف إلى غرضه - مما هو بأخلاق الكُتاب وعاداتهم ونوازعهم وخفايا نفوسهم ألصق منه بأغراض الكاتب فيما كتب . فما كدت أقدح الظلام بعينى وأفكر فى هذا الأمر وأستدرجه إلى نفسى حتى رأيتنى أكاد أنفر من مكانى لما عرانى من سوء الرأى وقسوة الظن ، فإن طول تغلغلى فى معانى الكُتاب والشعراء ، أو فى معانى أنفسهم ، يدلنى على أن أكثر من يكتب إنما يدفع بعض الكلام إلى قلمه ليعبر عنه ، غير محتفل بما يقول ، فكذلك يخرج الكلام متخاذلًا مفككا كأنه ناقةٌ من وباء مرض ، ويخيل

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٠) ، ١٩٤٠ ، ص : ٦٢ - ٦٤

إليّ أن أكثر كتابنا إنما يتناولون المعانى والأغراض من عَيْبةٍ [١] جامعة غير متخيَّرة ولا منتقاة ولا مصنفة ، وأنهم إنما يعرض لهم اشتهاء القول فيقولون للشهوة المستبدة لا للرأى الحاكم ، وأنهم إنما يكتبون ليبقوا كُتابًا فى عقول الناس وعيونهم من طول ما تعرض عليهم المقالات متوجة بالأسماء مذيلة بها ، وأن الكلام عندهم هو أهون عليهم من ضغطة النائم المتلفف زرَّ الكهرباء فإذا هو نور مستفيض . لابد للعرب والعربية أن يبرأ هؤلاء من أمراضهم ثم يقولون ، وأن يعتدُّوا بجمهرة القراء اعتداد من لا غنى له عنهم ولا فقر بهم إليه ، فبذلك أيضًا يصلح ما فسد من القراء الذين يقرأون الأسماء دون معانى هذه الأسماء . ويومئذ لا يشكو الكُتاب من بوار أسواقهم ، لأنهم يعرضون للناس الحَسَن الذى ينشئ فى القلوب الإحساس بالحُسن والرغبة فى اختيار الأحسن ، ويتشوق الناس الجميل لأنه جميل يسمو بالروح فى سُبُحات المثل الأعلى من الجمال الروحانى ... ثم لا يجيزون إلا الجميل . وكذلك يترافد الكاتب والقارئ ويمدُّ أحدهما الآخر بأسباب حياته وخلوده بين خوافق الأدب السامى الرفيع . هذا هو بعض الرأى أدعو إليه كتابنا ، والأدب على شفا جرف هار إلى البوار والبلى والفساد .

* * *

والآن ، وقد تحدَّثت النفس ببعض كلامها ، أعودُ إلى « أدب الأسبوع » ويخيل إلى أن « وزارة الشؤون الاجتماعية » هذه التى استحدثت بعد أن لم تكن ، قد كان من فضل اسمها أن أيقظ أكثر كتَّابنا إلى حقيقة ملموسة كانوا يَغُضُّون دونها أبصارهم لما تلبس صاحبها من لباس الخزى والعار : وهى بقاؤنا بين الأمم أمة لا قوام لها من نفسها وأصلها وتاريخها ، وأن مركز مصر الاجتماعى والسياسى والشرقى أيضًا قد سما فى ظن الناس ولكنه فى حقيقته أقل مما يُحمل عليه من الزينة والتألق والزخرف المستجلب بالإيحاء وإرادة الاستغلال . فقد كتب الدكتور هيكل فى « السياسة الأسبوعية » عدد (١٥٢) كلمة فى « نهضة الإصلاح فى مصر » استقصى بها تاريخها وقواعدها وأغراضها من عهد الثورة الفرنسية إلى هذا الوقت . وكذلك كتب الدكتور « طه حسين » فى « الثقافة » عدد (٥٢) يقترح

---

(١) العَيْبَة : وعاء من أَدَم يكون فيه المتاع .

إنشاء « مدرسة المروءة » . وجاء « الزيات » فى ختام فاتحة « الرسالة » لعامها الثامن يشكو إلى الله : « إن كبراءنا عطلوا فى أنفسهم حاسة الفن فَلَمْ يعودوا يدركون معنى الجميل ، وإن أدباءنا قتلوا فى قلوبهم عاطفة الأدب فليسوا اليوم من كرمها فى كثير ولا قليل ، وإن زعماءنا تفرقت بهم السُّبل بتفرق الغايات ، فِلكُلّ غاية دعوة ولكل دعوة سبيل » . وكل هذه تلتقى على أصل واحد ، وهو أن الحياة الاجتماعية لا تزال تحبو فى مدارجها ، وأن « لين العظام » يُخشى أن يطول علينا بقاؤه فى صدر الحياة حتى نقعد دون شبابها ، وأن الإصلاح لابد أن يتعجل حدوثه ... ولكن كيف يكون ذلك ؟! .

وقد ساق الدكتور طه حديثه عن المروءة ساخرًا من هذا الجيل الذى طبع على سفاسف الأخلاق ، وتحطمت عنده مكارم الإنسانية النبيلة ، وامتاز عظماؤه وصغاره باعتبار الأخلاق ضربًا من التجارة يلبِّسها الغشّ والخِلابُ والمواربة وتلقِّى التاجر للبائع بالدهان حتى يكون هو فى باطنه أظلم شىء ، وظاهره يتلألأ بمعانى الشرف والأمانة والنزاهة وإرادة الموافقة وتغليب منفعة المشترى على منفعته ، وغير ذلك من حيل التُّجار والسماسرة . فأراد أن يمزح ، فيدعو إلى اقتراحه إنشاء مدرسة للمروءة ليسخر من « تنازع الاختصاص » فى وزارتنا بل فى أعمالنا كلّها . وهذا كله فى مدرجه جيد لا يحاول أحد أن ينازع عليه أو يختلف فيه ، ولكن التهكم فى هذا الدهر المائج بصنوف العذاب والبلاء لا يكاد يجدى شيئًا فى الإصلاح . وهل يظن الدكتور طه أن كل هؤلاء الذين أقامتهم الأمة المسكينة على حياطة شؤونها ومرافقها وأسباب عيشها – لا يستشعرون من ذلك ما نستشعر ، ولا يجدون من معانيه مثل الذى نجد ؟ أجل ؛ ولكنهم كالذى يصف هو فيما سبقَ من الحديث ، فمن أين يأتى الشفاء إذا كان كلُّ الطبيب هو بعض المريض ! إن أعمال الإصلاح الكبرى لن تأتى من وزارة الشؤون الاجتماعية ، ولا وزارة المعارف ، ولا غيرهما إذا بقى الشعب ينظر إلى هذه كلها ليرى ما تعمل . والرأى لا يمكن أن يتجه فى هذا الأمر إلى تسديد وزارة المعارف ووزارة الشؤون الاجتماعية وتوقيفها على ما يجب عمله باقتراحات ومذكرات وبيانات ... إلى آخر هذه الجموع . إن عمل الإصلاح الآن موقوف على شىء واحد ، على ظهور

الرجل الذى ينبعث من زحام الشعب المسكين الفقير المظلوم يحمل فى رجولته السراجَ الوهَّاج المشتعل من كل نواحيه ، الرجل المصبوب فى أجلاده من الثورة والعنف والإحساس بآلام الأمة كلها ، وآلام الأجيال الصارخة من وراء البنيان الحى المتحرك على هذه الأرض الذى يسمى فى اللغة « الإنسان » . وليس ظهور هذا الرجل بالأمر الهين ، ولا إعداده بالذى يترك حتى يكون ؛ بل هنا موضع للعمل وللإنشاء . وكبرُ ذلك مُلقًى على الأدباء والكتاب والشعراء ، وعلى كل إنسان يحترم إنسانيته ؛ فالأدباء ومن إليهم قد وقع عليهم التكليف أن يرموا بما يكتبون إلى إيقاظ كل نائمة من عواطف الإنسان ، وإلى إثارة كل كامنة من نار الهداية المحاربة التى لا تخمد ، ولا يكون ذلك شيئًا إلا بأن يعدّ كل أحد نفسه كالجندى عليه أبدًا أن تكون حماسته هى روح الحرب فيه ، فهو يمشى بها فى كل عمل ، ولو فى نقل البريد من مكان إلى مكان . إذن فأول الإصلاح الاجتماعى هو إدماج عواطف الفرد فى مصالح الجماعة على أَتم صورة من صور الحماسة أى القوة التى تنبعث من الدم لتطهير الدم ؛ وهذا بعض ما نتوافى عليه مع الدكتور هيكل إذ يقول فى مقاله الذى أشرنا إليه آنفًا « لم يفكر أحد فى مشكلاتنا الاجتماعية واضعًا نصب عينيه غاية قومية يريد أن يحققها ، بل ترانا إذا فكرنا فى الأمر كان الدافع لتفكيرنا فيه عواطف الشفقة أحيانًا ، والبر بالإنسان أحيانًا أخرى ، وهذه عواطف قد تحمد فى الأفراد ، لكنها لا قيمة لها فى حياة الجماعة ويوم فرض الله الزكاة فى الإسلام وقرن بها الصدقة لم يقم الشارع ذلك على أساس العاطفة الفردية ، بل أقامه على أساس النظام الاجتماعى » .

والكتابة هى زكاة العلم ، فيجب أن تقوم على هذا الأصل الفردى المتحمس المتدفق بتياره فى أعصاب النظام الاجتماعى ، فإذا اتخذها كتابنا على هذا وتكلموا بقلوبهم قبل ألسنتهم وأقلامهم كان ذلك قمينًا أن يبعث الرجل الذى سوف يضىء للحياة الاجتماعية سُدَف [1] الجهل والضعة والبغى والاستبداد .

* * *

(١) سُدَف : جمع سُدْفة ، وهى الظُّلْمَة .

أبو العباس السفاح أمير المؤمنين [1]

أثار الأستاذ العبادى فى « الثقافة » عدد (٤٧) مشكلة ابتغَى حلها ، وذلك أنه وصف حِلية « أبى العباس أمير المؤمنين » أول خلفاء بنى العباس كما رواها المؤرخون من أنه كان « ذا شعرة جعدة ، طويلًا أبيض ، أقنى الأنف ، حسن الوجه واللحية » وكان « شابًّا متصوِّنًا عفيفًا حسن المعاشرة ، كريمًا معطاءً » إلى نهاية ذلك من كريمات الخصال . ثم استبعد أن يكون هذا الإنسان الرقيق أهلًا لتلك الصورة البشعة الطاغية التى تخلعها عليه معانى هذا الحرف « السفَّاح » من الجريمة وسفك الدَّمِ والرغبة فى ذلك والمبالغة فيه . واحتفل الأستاذ للحوادث التاريخية فلم يجد فيها ما يسوِّغ أن يكون « أبو العباس أمير المؤمنين » سفاحًا سفاكا للدماء ، وزاد أن ثقات المؤرخين كالطبرى والدينورى لم يذكروه إلا مجردًا من هذه الصفة ، ثم رجح بدليل بيانى جيد أن السفاح محمول هنا على الأصل اللغوى أى الكريم المعطاء الذى يتلف الأموال ولا يبخل بها. ولكن الأستاذ « أحمد أمين » رد عليه بعض أدلته فى العدد (٤٩) فردها الأستاذ العبادى عليه فى العدد (٥٠) وهكذا إلى العدد (٥٢) . وأنا قد أعجبت كل الإعجاب ببحث الأستاذ العبادى ، وإن كنت أخالفه كل المخالفة ، وذلك لأنه مبنى على منطق تاريخى جيد ، ولأنه أراد أن يفرق فرقًا جيدًا بين كتب التاريخ وكتب الأدب القديمة من حيث الحجة فى برهانات التاريخ . فإنا نجد كتبًا من أعظم كتب الأدب تحمل على الخلفاء من غث الأخلاق ما تناقضه سير هؤلاء الخلفاء كالذى يروون عن الرشيد - وهو بالمنزلة من الشرف والعلم والسياسة وطول الانبعاث للغزو والحجِّ - من معاقرة الخمر والملاهى والاطلاع على الحرم واستباحة الأعراض وغير ذلك مما لا يمكن أن يصح بوجه من الوجوه .

هذا ، وإنى أخالف الأستاذ العبادى ، فإنه حين رده الأستاذ « أحمد أمين » رجع عن تفسيره لفظ « السفاح » بالكرم والسخاء لغير علة ظاهرة وأصرّ على أن

(١) وتأتى بقية الكلام على أبى العباس السفاح ، ص : ٦٨

« أبا العباس أمير المؤمنين » لم يلقب « بالسفاح » البتة فى حياته ، ولا ذكر ذلك عنه أئمة المؤرخين ، وأصر مع ذلك أيضًا على أن صفات أبى العباس وحليته تنفى عنه أن يكون سفَّاكًا للدماء ؛ ولا كل هذا ! فإن هذه الصفات لم يُروَ لنا إلا أقلها حتى يمكن أن نجعلها أصلًا يستشف خلق أبى العباس من ورائها ، وإن الرقة والدعة والجمال ولين الخلق تخفى وراءها أحيانًا قسوة لا تدانيها قسوة ، كالذى يكون فى النساء ، فإنهن قد عرِفن بين الناس بالرقة « وهن أغلظ أكبادًا من الإبل » وإن المرأة إذا ثارت لم يبلغ مبلغها فى القسوة (أقْعد) الوحوش فى باب الوحشية ومع ذلك ... فهى الزهرة غِبُّ الندى ، وهى النسيم فى السَّحَر ، وهى ...

وكنت أحب أن أستوفى هنا القول فى تحقيق هذه الصفة لأبى العباس أمير المؤمنين ، ولكنى رأيت أن الكلام قد جاوز حده ، وأن الدليل يقتضينى إثباتَ كثير مما يُخِلّ تركه بالفائدة فموعدنا الكلمة التالية إن شاء الله .

* * *

أسواق النخاسة

مازلت أُضحك إِبْلى كلما نظرَت إلى من اختضبتْ أخفافها بدم !
أسيرُها بين أَصنام أشاهِدُها ولا أُشاهِدُ فيها عِفَّةَ الصنم

هكذا يقول المتنبى فى صفة أصحاب السلطان الأدبى والسياسى من أهل عصره ، ولا يزال هذا ينطبق إلى اليوم على البلاد الشرقية والعربية إلا قليلًا قليلا . لقد أذكرتنى أشياءُ رَمَتْ إلى ماكنت أَسُوس النفس على تناسيه ونبذه والتباعد عنه ، ولكن صِناعة الأدب هى من بين الصناعات أشدُّها التحامًا بالحياة ... لا ، بل الأصول النفسية التى تقوم عليها وبها أسواق المجتمع الإنسانى ، وهى ترمى بالأديب فى تنّور متسعِّر من نزاع الغرائز والشهوات والأحقاد ، وهو بين اثنتين : إما أن ينحط فى هوى غرائزه التى تثيرها هذه النار الآكلةُ ، فيفسد بفسادها ، وإما أن يتحصن دونها ، فيروض غرائزه الوحشية ، حتى تألفَ وتنقاد لحكم العقل النبيل والعواطف السامية . فكذلك يوطن نفسه على الحرمان والألم والتفرد والوحشة ... ثم على الصراع الذى لا رحمة فيه ولاهوادة بين تَضَرُّم النزغات المستبيحة ، وبين زهادةِ النفس المتورعة المطمئنة . وكان أحق الناس بالتسامى ومطاولة الغرائز فى هذه الحرب الموقدة – الأدباء ، فالأدب فى أَصله تنزيهٌ للنفس وكبحٌ من جماحها ، ورفق فى سياستها ، فإذا انقلب الأدب تضرية للوحوش الرابضة فى الدم من الطبائع والغرائز ، خرَج عن أصله وفقدت ألفاظه معانيها ، وصارت أسواق الأدب تعتمد فى معاملتها على البغى والظلم والعدوان والتهجم والاستبداد . وفقدت كل معانى الحرية والعدل والإنصاف والتمييز بين الخبيث والطيب ، وهى أصول الفطرة الأدبية السامية .

إن الأديب الحر ينتفض تَقَزُّزًا واشمئزازًا كلما انبعثت روح حقارة المجتمع من

* الرسالة السنة الثامنة (العدد ٣٤١) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٠١ - ١٠٣

وراء الرّمم الأخلاقية المموَّهة بالنفاق ، والتى أقيمت عليها أصنام منصوبة للعظمة الباطلة الجوفاء ، وهو أشد انتفاضًا وانتقاضًا حين يرمى بصره إلى الأدب والعلم وهذه المعانى السامية فيرى الأدباء والعلماء أذلّاء مستعبدين قد خضعت أعناقهم للحاجة والضرورة والبؤس ، فهم نواكس الأبصار إلى الأرض بين يدى فئة منهم قد أخذوا عليهم أفواه الطرق المؤدية إلى بعض الرزق ، حين واتاهم القدر ببعض السلطان والجاه والسيطرة ، وأقامتهم الشهرة الذائعة أنصابًا تهوى إليها الأغراض ، وتناط بها الوسائل ، وتعتمد عليها الحكومات فى تقدير العلم والأدب وأهلهما والعاملين عليهما ، وكذلك لا يستطيع أديب أو عالم أو فيلسوف أن يجتاز إلا بإجازة من أيديهم وبأختامهم ، وإلا أن يشهدوا له شهادة التقدير ، وأن يعبُروا له السِّعر فى « تسعيرة » السوق الأدبى الذى أقامتهم الحظوظ عليه حكّامًا ومقوِّمين .

إن الشهرة والشهادة هما شيئان لا قيمة لهما فى العلم والأدب ، فبناءُ العلم على نجاح التجربة واستواء المنطق وإقرار العقل ، وبناء الأدب على صدق الإحساس وحدة الإدراك وسمو العاطفة وقوة الحشد وبراعة العبارة والأداء . فإذا لم تكن الشهرة من هذا تستفيض وعنه تَشرع ، فما غناؤها على صاحبها إلا بعض الأباطيل التى تنفش فى عقول الأمم الضعيفة والأجيال المستعبدة بالأوهام والتهاويل . والشهادة ما هى إلا إجازة الدولة لأحد من الناس أنه قد تحرَّر من طلب العلم والأدب على القيود التى تتقيد بها المدارس والجامعات فى أنواع بعينها من الكلام ، وأنه قد حصل فى ورقة الامتحان ما فُرض عليه تحصيله بالذاكرة ، ثم ترفع الشهادة يدها عن معرفة ما وراء هذا التحصيل وما بعده وما يصير إليه من الإهمال أو النسيان أو الضعف أو الفساد . فحين يغادر أحدهم الجامعة حاملًا شهادته مندمجًا فى زحمة الجماعة تفقد الشهادة سلطانها الحكومى - أو هكذا يجب أن يكون - ولا يبقى سلطان إلا للرجل وأين يقع هو من العلم أو الأدب أو الفن ؟ وهل أصاب أو أخطأ ؟ وهل أجاد أو أساء ؟ وهكذا فهو لا ينظر إليه إلا مغسولًا غفلًا من « مكياج » الدبلوم والليسنس والماجستير والدكتوراه .. وما إليها ، وإذَن ، فأوْلى ألا ينظر إليه عن شهادة قوم لم يكن سبيلهم إلى التحكم فى أسواق العلم والأدب إلا الشهادات المستحدثة ، والشهرة النابغة على حين فترة

وضعف واختلاط وجهل كان فى الأمة حين كان أقلُّ العلم وأشَفُّ [١] الأدب يرفعان صاحبهما درجات من التقدير والإجلال والكرامة .

إن هذه التجارة التى تقوم على استعباد العلم والعلماء والأدب والأدباء تجارة باغية ينبغى أن تَفْنى نخاستها وأن تغلق أسواقها ، وينبغى أن يتحرر الأدباء والعلماء المستعبدون قليلًا من أغلال الضرورات المستحكمة ليحاربوا بغى هذه التجارة بالنبل والسمو والترفع ، وليهتكوا تلك الأستار الحريرية الرفيعة المسدلة على بيوت الأوثان الجاهلية التى تستعبد الأحرار باستغلال ضراعة الضرورة والحاجة والفقر ، ينبغى ...

وينبغى لكاتب هذا الباب الجديد فى « الرسالة » أن يرفع القلم عند هذا القدر الآن ، ويعود إليه بالتفصيل والبيان فيما يستقبل .

معهد الصحراء بيت الحكمة

كتب صديقى « إسماعيل مظهر » – فى مقتطف يناير سنة ١٩٤٠ – كلمة بليغة يصف فيها « رهين المحبسين » ، محبِس الصحراء ، ومَحْبس النسيان ، وهو معهد الصحراء القائم على مشارف الصحراء المترامية ، فى « مصر الجديدة » ، وقد شيده « الأسد المصريُّ » الملك فؤاد رحمة الله عليه من ماله خاصة ، ليكون مأوى للعلماء الذين يدرسون طبائع الصحراء ومعادنها وأجواءها ، ولكنه لم يتم بناؤه لما عرض من مرض الملك العالم ثم وفاته على شدة الحاجة إلى جُرأته وإخلاصه وعزمه ، وإنفاذ هذا العزم بالبصيرة والحكمة والمثابرة .

وكنت كلما صحبت أخى « إسماعيل » لبعض الرياضة ، تهاوينا إلى البيداء المقفرة الصامتة بأحزانها الحائرة ، وسرنا نتقاوَدُ [٢] فى جوفها فترمى بنا أرُجلنا إلى بناء شامخ قد أقْعى على ربوة من الأرض كأنما يتجمّع للوثبة ، ومع ذلك فأكاد أجد فى سمعى بيان هذا الأعجم الصموت ، وهو يُهَمهِمُ بأنّاته من ذُلّ الوحشة والأسر والنسيان والخراب ، فأنشد « إسماعيل » قول الرضىّ :

---

(١) أشَفّ الشيء : اليسير القليل منه .

(٢) نتقاود : يقود بعضنا بعضا قُدُما .

ولقد رأيتُ « بديْرِ هِنْدٍ » منزلًا　　　أَلِمًا من الضَّرَّاءِ والحَدَثانِ
أغضى كمستَمِعِ الهوانِ ، تغيَّبَتْ　　　أنصارُهُ وخلا من الأعوانِ

وكان هذا البناء المسكين همةً من همم الملك النبيل رحمه الله . ولقد سمعت أنه قد أحاطه بما يزيد على عشرة أفدنة ليقوم فيها ، وفى متنزهاتها ، وليؤدى أهله إلى صحراء مصر المجهولة حقَّها من الدرس والكشف والاستنباط .

هذا ، وقد ضَرَع « إسماعيل » إلى خليفة « فؤاد » فى ملكه وعلمه وعزمه وبصيرته ، إلى « الفاروق » صاحب مصر الأعلى وحاميها وهاديها إلى الخير ، أن يُتمّ ما بدأ الملك الأول من البناء ، وأن يعيد لملكه الزاهر تاريخ العرب والعربية فى عصر المأمون الذى أنشأ « بيت الحكمة » ، وجعله مُسْتَقر النَّقَلة من العلماء الذين استوعبوا نقل حكمة « يونان » إلى اللسان العربى ؛ فأسسوا للعلم ملكًا لم يطاوله فى العصور إلا عظمة المأمون ... قال :

« ومعهد الصحراء – يامولاى – عظيمٌ متسع الأرجاء اتساع العقل الخالد الذى فكر فى إنشائه ، فهل نطمع فى أن يضم إليه بضعة علماء يقفون جهودهم على ترجمة علوم أوربا إلى اللغة العربية ؟ وفى مصر – يامولاى – علماء أقعدهم النسيان عن العمل ومنعهم الخجل عن السؤال ، وعزّ عليهم أن يهينوا العِلْمَ باستجداء العطف . أَنطمعُ – يامولاى – أن تفيضَ عليهم من فضلك الواسع ما يسدُّ حاجتهم من حطام الدنيا ، ليكونوا نواة لبيت الحكمة فى عهدك ، فيتركوا للأجيال القادمة آثارًا لا يبزها من حيث الأثر فى العالم العربى إلّا عظمتك ، ولا يفوقها فى الجلالة إلّا جلالتك ؟ » .

وكل أديب وعالم ومفكر فى العالم العربى يضم صوته إلى صوت «إسماعيل» فى هذه الضراعة النبيلة إلى « وارث مُلْك مصر ، ومجد العرب » ، ويستيقن فى قلبه أن « الفاروق » سيحمى العلم والأدب بحماية ملكية ترفع عنه الظلم والاستعباد ، وتحرر العلماء والأدباء من غطرسة الأدعياء المتشدقين بقليل العلم ومنقوص الأدب ، مما أطاقوه وحملوه بفضل الرحلة إلى أوربا بضع سنين ، تزودوا فيها بالمعاشرة والمخالطة – لا بالدرس والمثابرة – بعض ماجهله أصحاب

الفضل والعلم والأدب من قومهم لقعودهم بالضرورة والعجز عن مثل الذى ساروا إليه ، وهم بالعلم والأدب أَقْوَم ، وعليه أحرص ، وطبائعهم إليه أشد انبعاثًا .

الشباب والسياسة

فى يوم الخميس السالف (٤ يناير سنة ١٩٤٠) ألقى بهى الدين بركات باشا محاضرة عظيمة القدر درس فيها معنى « السياسة » وحق « الشباب » فى المساهمة فى أصولها وفروعها ، ودافع عن حرية الشاب فى أن يهتم « بالعمل العام الذى يتصل فى وقت من الأوقات بتسيير دفة الحكم فى البلاد » . وهذا هو تعريف السياسة عنده ، وبذلك يخرج منها النزاع الحزبى الذى شهدته السياسة المصرية خاصة ، على وجه من التنابذ والتعادى والتسفيه والاعتداء على حرية الفرد وحرية الجماعة . فإذا أُخرج هذا الضرب من معنى السياسة أوجب العقل أن يكون لكل أحد الحق فى أن يشارك أصحاب الرأى فى آرائهم ، بل إن الشعور بالحرية الفطرية توجب عليه أن يشارك بالرأى وأنْ يُضَحِّىَ فى سبيل المبدأ الوطنى العام الذى لاتقوم الدولة إلا بقيام معانيه فى أعمال الأفراد والجماعات ، وقد ناقش المحاضرُ جماعةً من الأساتذة ولكنهم فى مناقشتهم كانوا لا يزالون متأثرين بالمعنى (المصرىّ القديم) للسياسة ، وغفلوا عن الغرض الذى رمت إليه محاضرة المحاضر فى الفصل بين ما كان ومايجب أن يكون عليه معنى السياسة ، وكيف يشارك الشباب فيها بالرأى والعمل . والسياسة – كما قال عزام بك فى موقفه – لا يمكن أن تكون بحثًا فلسفيا مجردًا ، لأن الإيمان بعقيدة ما يقتضى التضحية فى سبيل الدفاع عنها ، فإذا كانت السياسة عملًا قوميا يراد به المصلحة العامة ومجد الوطن ، فهى أمر يستحق كل تضحية . وأما إذا صارت السياسة إلى المعنى الذى شهدناه فى مصر من الخلاف الحزبى على مطامع الحكم فهى أمر لا يستحق أتفه التضحية .

ونحن نعتقد أن الإنسان الحر لا يعرف معنىً لهذا السؤال القديم : « هل ينبغى أن يشتغل الشاب بالسياسة أو لا ينبغى ؟ » فهو سؤال عليه سيمياء الذل والعبودية ! إن كل أحد فى مصر وغيرها من بلاد العالم – شابًّا أو شيخًا ، غنيًّا

أو فقيرًا – عليه دَيْن للأرض التى تَغْذُوه وتَعُوله وتُؤْويه وتمده وتحفظ له نسله جيلًا بعد جيل ، وأداءُ هذا الدَّيْن لا يكون إلا عملًا فى حفظها وحياطتها والمدافعة عنها بالسلاح والعلم والعمل والفكر والنفس ، فإذا أخلَّ أحد بشىء من ذلك خان أمانة هذا الديْن وأسقط مروءته .

وكيف يمكن أن يمتنع الشاب أو الطالب عن الاشتغال بالسياسة ؟ أيمتنع عن قراءة الصحف والكتب لئلا يعرض له الفكر فى ذلك والتمييز بين صوابه وخطأه والعمل على بيان مواضع الخطأ ومعاونة الصواب على الاستمرار ؟ أم يقرأ أخبار الأمم وأحداثها فإذا أقبل على أمر بلاده طوى الصحيفة واستغفر ؟ أم يقرأ ويقرأ ولا يكون إلا كالخزانة ، يُلقِى فيها ما يلقى ليحفظ ويصان من لصوص الفكر التى يطلقها عقله فى آثارها ؟ أم يقرأ ويفكر ، ثم يحبس آراءه بين جدران الجمجمة إلى أن يذهب بها الإهمال ؟ وكذلك تضعف النفس وتصدأ وتتآكل ، لأن الإيمان والعمل هما جلاءُ النفس وصقلها لتبقى أبدًا مشرقة .

إن الشباب – ولابد – مشتغل بالفكر فى السياسة ، ونصرة مذاهب الحق فيها – كما هو – مشتغل بالعلم والأدب والفن ، ولكن الإشكال كله فى انفساخ القوة الخلقية التى يجب أن يقوم عليها العلم والأدب والفن والسياسة ، وكل عمل فتربية الخلق أوَّل . ثم ارموا – بالشباب – حيث شئتم فإنهم عصام الشعب ، وهم ذادة الوطن، وهم أصحاب المستقبل .

المرأة والرجل

لشدّ ما اجترأت المرأة فى هذا العصر !! وإذا أخذت المرأة أسلحتها – من الزينة والتطرية [1] والجمال والفتنة ، وجيَّشت غرائزها – من الحذر والحيلة والضعف والإغراء ، لم يبق للرجل إلا أن يستقتل أو يفر ... وقد أقامت « وزارة الشؤون الاجتماعية » مناظرة بين الأستاذ « محمد فريد أبو حديد » والسيدة « زاهية مرزوق » وكان غرضها هو « كيف ننهض بالأسرة ؟ » . والظاهر أن السيدة

(١) التطرية : يعنى بها الأستاذ : المكياج أو التواليت ، وهى كلمة استحدثها انظر ص ١٩٩ .

الكريمة قد اعتقدت فى قلبها معنى « حرية المرأة » بالإصرار والتعصب فأخذت تنتزع رجولة الرجل شيئًا فشيئًا حتى ليخيل لسامعها أنه مخلوق وحشى منطلق من كل قيود النبل ، فهو عندها أنانى لا يؤثر على نفسه ، وهو معنى متجسم للفوضى فى بيت الأبوة والأمومة ، وهو جاهل متحامل على ضعف المرأة لا يرحمها ولا يحس بآلامها ، وهو فاجر متوقح يستجر الأخطاء ويجنيها ثم يرمى المرأة بها وينسَلُّ منها .

وأنا لا أريد الآن أن أدافع عن الرجل ، ولكنى أريد أن أسأل السيدة الكريمة ومن يذهبُ مذهبها من النساء : إذا كانت هذه صفة الرجل فى أنفسكن ، وإذا تحدثتن بمثله فبلغ الأسماع فى بيوت العقائل ، فوقع فى آذان الأم والزوجة ، والفتاة الجاهلة الطياشة ، فاعتقدنه ومالت إليه أهواؤهن ، فبأى عين تنظر المرأة إلى زوجها والفتاة إلى خاطبها ؟ وأىُّ معاملة يلقاها الرجل بعدُ على أيديهن وبألسنتهن !

كلا ياسيدتى ، إن المرأة هى تجنى أكثر الذنب فيما نعلم ، ثم تتنصل ، وهى كل الأنانية إلا أن يتصل أمرها ذلك بمصدر الأمومة فى غرائزها ، فهى عندئذ مثال الإيثار والتضحية ، وهى صاحبة الفضائل كلها إذا أُثيرت أمومتها وإحساسها بالمحافظة على النوع الإنسانى ، وأما بغير ذلك ، فهى المرأة بضعفها وأنوثتها وحاجتها إلى عون الرجل وتضحيته ورحمته . وليس للمرأة عمل إلا أن تعمل دائمًا على أن تجعل الرجل فى عينيها تمام إنسانيتها ، وبذلك تستصلح منه ما عسى أن يكون فاسدًا ، وتتم ما وقع إليها ناقصًا ، ويبنى البيت - بَيتهما - على أساس من القوة الداعية للبقاء ، فمن الرجل الرحمة والإخلاص ، ومن المرأة الاحترام والعفاف ، ومنهما النسل الجميل المحفوف بالفضيلة من جميع نواحيه .

أبو العباس السفاح

لم تتسع كلمة هذا الأسبوع لتحقيق لقب السفاح أبى العباس عبد الله بن محمد أمير المؤمنين ، فأرجأنا ذلك إلى العدد القادم ..

* * *

التقليد

لم أكد أفرغ من قراءة ماتيسر لى أن أقرأه فى هذا اليوم وما قبله حتى عاودنى الفكر فى أصول ما قرأت من كلام الكتّاب والشعراء ، ووقفت أستعيد فى نفسى تلك التيارات الكثيرة التى تموج بنفوسهم من تحت اللفظ والعبارة والمعنى والغرض . ولقد ظننت – حين أقدمت على قبول كتابة هذا الباب من الرسالة – أن انبعاثى للكتابة وطول ممارستى لمادتها كفيلان بنهنهة النفس عن بعض ثورتها ، ولكنى أخطأت ، فإن أكثر ماحملت نفسى على قراءته يكاد يؤرِّث النار كلما خبت ، ويعيدها جَذَعة [1] كلما طفئت ، ويدفعنى إلى مثل الحريق من الألم والحسرة والغضب للأدب العربى أن يكون إلى مثل هذا الضعف والفساد والقبح مصيرُه وعقباه .

إن أصحاب هذا اللسان العربى والناطقين به قد أصابتهم فى عصور متتابعة مصائبُ الجهل والغفلة والضعف فتحطمت عروش الدولة فى بلادهم كلها وعدا عليها كل عادٍ من ذؤبان الأمم فاستذلوهم وأخذوهم وفتكوا بهم وقَضْقَضُوا أوصالهم بالعنف والاستبداد تارة ، وبالرِّفق والسياسة المتدجِّية ، تارة أخرى . ثم جاءت أيام بعثت من تحت الليل جمرات تفرقت ثم اجتمعت ثم استطار شرارها فرمى فى كل هامدة بعض الحياة ، وكذلك ثارت أحلام النائمين بتحاسينها وتخاريجها وفنونها فانتفضوا يطلبون تحقيق أنوار لياليهم فى سواد أيامهم ، ولكنهم قاموا وهبوا على غير نظام ولا تدبير ولا تعبئة فانتشرت القوى الجديدة وتمزقت ، فضعفت وأخفقت ، ولم يكن منها ماكان يُرْجَى لها من الغلبة والظفر والسيادة ، وبقى الضعف فى هذه الأمم العربية هو عمادها وعماد أعمالها فى عصر من القوة الأوربية الطاغية يمتد ويتراحب وينساح فى الأرض كلها متدافعًا متدفقًا لا يقف ولا يفتر .

ومن بلاء الأمم الضعيفة بنفسها أن انبعاثها إلى التقليد – تقليد القوى – أشد

* الرسالة السنة الثامنة (العدد ٣٤٢) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٤٣ – ١٤٥

(١) جَذَعَة : عادت كما بدأت ، ولا يقال ذلك إلا فى الشر .

من انبعاثها لتجديد تاريخها بأسباب القوة التى تدفع فى أعصابها عنفوان الحياة . والضعف يجعل محاكاة القوى أصلًا فى كل أعماله . فلما فسدت قيادة أصحاب الرأى عند هذه الأمم الضعيفة ، وكان لابد للمستيقظ من أن يعمل ، كان عمل الأفراد متفرقين منسحبًا على أصلين : ضعفٌ أورثهم إياه ضياع كيان الدولة السياسى ، وضعف كرثهم [١] به تفرُّق القيادة وشتات الأغراض ، فلا جرم أن يكون كل عمل موسومًا بسمَةٍ من ضعفٍ مُظَاهر بضعف صاحبه ، ولا جرم أن يكون أعظم أعمالنا هو تقليد أعمال الناس على الهوى والجهل والدهشة المتصرفة بغير عقل .

هذا كل شيء تحت أعيننا وبأيدينا : بيوتنا ، مدارسنا ، أبناؤها ، رجالنا ، نساؤنا ، علمنا ، أدبنا ، فننا ، أخلاقنا ... كل ذلك على الجملة والتفصيل قد وُسم بميسم الضعف والتفرق وانعدام التشاكل بين أجزائه التى يتكون من مجموعها معنى الأمة ، وكلها تقليد قد تفرقت فى جمعه أهواء أصحابه من هنا وهنا . والتقليد بطبيعته لا يتناول من الأشياء إلا ظاهرها ، فكل مآخذنا من أجل ذلك ليست إلا مظهرًا .

هذه المرأة - وهى فن الحياة الذى يَشْتهِى أبدًا أن يبدع حتى فى الأذى - ماتكادُ ترَاها عِندَنا إلا دُمْيَة ملفّقةً من الحضارات وبدعها ... ثيابها ، زينتها ، حليها ، تطريتها [٢] ، شعرها ، تطريف [٣] بنانها ، مشيتها ، منطقها ... كل ذلك أجنبى عنها متكلف منتزع من مظاهر غانيات باريس وعابثات هوليوود ، ليس له من جنسها ولا أصلها شبَهٌ تَنْزِع إليه ، وأسمَجُه أنه ملفَّق لا يتشاكل تشاكل المصدر الذى اجتلب منه بالتقليد .

وهذا الكاتب وهذا الشاعر - وهما فن الحياة الذى يعمل أبدًا فى تجديد معانيها بالتأثير والبيان - لا تجد فيما يكتب أكثرهم إلا المعانى الميتة التى نقلت

(١) كل أمر أثقل الإنسان وشقّ عليه فقد كَرَثَه (من باب ضرب) .

(٢) يعنى بها الأستاذ « المكياج » ، وهى كلمة استحدثها .

(٣) أراد بها « المانوكير » ، وهى كلمة استحدثها الأستاذ ، انظر ص : ١٩٩ .

من مكانها بالاعتناف والقسر فوضعت فى جو غير جوها فاختنقت فمات ما كان حيا من بيانها فى الأصل الذى انتزعت منه .

وهكذا ... هكذا كل شيء تأخذه العين أو يناله الفكر ، إنما هو دعوى ملفقة وتقليد مُسْتَجْلَبٌ وبلاءٌ من البلاء . ولا نزال مقلدين حتى يستطيع الأحرار - وهم قلة مشردة ضائعة - أن يبسطوا سلطانهم على الحياة الاجتماعية كلها ، ويردوا إلى الأحياء بعض القلق الروحى العنيف الذى يدفع الحى إلى الاستقلال بنفسه والاعتداد بشخصيته ، والحرص على تجديد المواريث التى تلقاها من تاريخه ، ويغامر فى الحضارة الحديثة بروح المجدد لا بضعف المقلد ، فعندئذ ينتزع من الحضارة الأسباب التى تنشأ بقوتها الحضارات ، ولا يكون موقفه منها موقف المسكين الذليل المطرود من المائدة ... ينتظر وفى عينيه الجوع ليتقحَّم من فتاتها [١].

صورة النفس

عرضت لى مقالة فى مجلة الثقافة عدد (٥٤) عنوانها « الأدب صورة النفس » كتبها الأستاذ « محمد مندور » ، وقد استوقفنى عنوانها قبل أن أقرأها ، لأن هذه هى الحقيقة التى نقولها ولا نصل فيها إلى حق . وقد تغاوى [٢] النقاد عليها ومع ذلك فما تظفر من أقوالهم إلا بالمُبهم بعد المُبهم ، ولا نجد لأكثرهم شرحًا لها يفى بمدلولها أو بسرها أو يزيل الإبهام عن مسالكها ... يقول الأستاذ : « وإذن ، فالآثار الأدبية والفنية تطلعنا بغير تحفظ على أسرار واضعيها النفسية بأسلوبها الخاص ... ونحن نقصد بذلك إلى البحث عن نفس الكاتب والشاعر فى تضاعيف ما يكتب ... وعمل الناقد إذن عمل كشف عن أسرار لا تقع تحت البصر لأول نظرة ، وسبيله إلى ذلك لا يمكن أن يكون إلا حسًّا باطنيًّا ترهفه التجارب والمعرفة الطويلة بمختلف النفوس ... » . وكل هذا جيد من القول ،

---

(١) تَقَحَّم الأمر : رمى بنفسه فيه على غير رويّة .

(٢) تغاوى النقاد عليها : أى تناولوها واحدا بعد الآخر ، وتقال أيضا بالعين المهملة .

وهو كالشرح على عنوان المقالة . ولكنى رأيت الأستاذ ينظر فى آثار أدبية لأستاذين جليلين هما : أحمد أمين وطه حسين ، وشرع يتكلم عن بعض آثارهما . تكلم عن مقال « فى فيض الخاطر » هو : (صديق) . فإذا كل الذى قاله وصف يمكن أن يقع على كل كلام ، فيقول : « سترى كيف حطم الأستاذ هذا الصديق ، فرده إلى عوامله الأولية ؟ وقد تقاصرت جمله متجاوبة كأنها ذرات مادية نتجت عن هذا التحليل » ... والنتيجة ! والنتيجة أن الأستاذ أحمد أمين أو أسلوبه أسلوب تحليلى ، وفيه قوة مخيفة ! والأستاذ طموح متقلقل فى شتى السبل ، لأنه كتب عن الشمس وعن الليل ، يستقرى ما يجوب فى ظلام الليل ، وما تغدقه الشمس ؛ ولا يصف جمالها أو وحشته ! وهكذا ، ولا أدرى كيف أستخرج شيئًا من كل الذى كتبه يدل على الذى أراده مما نقلناه آنفًا ؟ ولا كيف عمل هو فى الوصول إلى هذه الأحكام التى دمغ بها الآثار الأدبية وأصحابها ؟ ولا كيف كان عمله فى التحليل النفسى الذى أحس به إحساسًا باطنيًا !!

إنه لا بد لمن يتناول مثل هذا الموضوع أن يفصل القول ، فلا يجمله ، لأنه بلاشك موضوع جليل ، والكلام فيه سلوك فى مجهل غامض يحمل على الإبانة والإيضاح ، وإلا كان الكلام فيه على هذا تقصيرًا لا ينفع ، ويكون أنفع منه أن يترجم لنا الأستاذ كلام النقاد الأوربيين الذين مارسوا هذا العمل وأفرغوا له أوقاتهم واستوعبوا الأصول التى يُسَار عليها فى معالجته ، وكذلك تتم خدمته للأدب والأدباء ...

أبو العباس السفاح [١]

كنت أحب أن أستوعب فى هذا التعليق كل الرأى الذى عرض لى فى أمر أبى العباس السفاح أمير المؤمنين ، ولكنى رأيته قد خرج عن أن يكون من مادة هذا الباب ، فلذلك اقتصرت على أشياء أرجو أن تعين الأستاذ العبادى فى تحقيقه الذى بدأه ، وعسى أن يكون فى هذا القول بعض الصواب الذى يسعى إليه .

---

(١) انظر أول الحديث عنه ص ٥٦

فمن ذلك أن أبا العباس السفاح ، وأبا جعفر المنصور أَخَوان وليا الخلافة العباسية لأول أمرها ، وكان أبو العباس أصغر من المنصور بعشر سنين ، وأن اسم أبى العباس وأبى جعفر فى نسبهما هو « عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس » ، فأبو العباس هو « عبد الله الأصغر » ، وأبو جعفر هو « عبد الله الأكبر » . فإذا كان ذلك كذلك ، وأبو جعفر قد لقب بالمنصور وأن الذى لقبه بذلك أبوه فيما نعلم ، فلا غَرْو أن يكون أبو العباس كذلك ملقبًا ، وأن يكون أبوه قد لقبه كما لقب أخاه .

وإذا كان أبو العباس « عبد الله » هو الأصغر فالتلقيب هو أولى به للتفريق بينه وبين أخيه أبى جعفر « عبد الله » وهو الأكبر الذى ولد أولًا وسمى « عبد الله » من قبله . ويؤكد أمر هذا التلقيب سيرورته بعد فى خلفاء بنى العباس جميعًا إلى انقضاء دولتهم ، فكأنه كان من « تقاليدهم » وتعاليمهم .

وأيضًا فإنه قد وردَ فى الحديث عن أبى سعيد الخُدْرىّ عن رسول الله ﷺ قال : « يخرج منا رجل فى انقطاع من الزمن وظهور من الفتن يقال له (السفاح) يكون عطاؤه للمال حَثْيًا » ، وأئمة الحديث لا يصرفون هذا الاسم إلى أبى العباس ، وإنما هو نبوءة كبقية النبوءات التى وردتْ فى القرآن الكريم والحديث النبوى لا يدرى تأويلها إلا أن تكون ... ، ولكن الدعوة العباسية فيما يظهر قد جمعتْ بين هذا الحديث وأحاديث أُخر هى من باب النبوءات أيضًا وجعلت منها حديثًا اتخذته فى الدعوة إلى إقامة الخلافة فى بنى العباس ، فكانوا يروون للناس عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : « والله لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لأدال الله من بنى أمية . ليكونن منا السفاح والمنصور والمهدى » ، وهم الخلفاء العباسيون الثلاثة على التتابع . ولا شك فى أن هذا كان قبل قيام الدعوة بالفتح بزمن طويل . فلعل الإمام « محمد بن على » قد لقَّب ولديه بهذين اللقبين تفرقة بينهما ، وتفاؤلًا بالذى يروون فى أحاديث الدعوة العباسية .

وإذا كان ذلك كذلك فمعنى اللقب إذن ليس من « سفح الدم » - وهو بهذا المعنى مجاز مقصورٌ لغرض بعينه - لكنه من الكرم والعطاء والبذل كما ورد فى الحديث الذى سقناه آنفًا من أن « عطاء السفاح للمال حثْيًا » لأنه لا يصح فى

العقل أن يلقب أحد ولده بهذه المذمة القبيحة وهو ينصبه للناس خليفة ، وقد لقب أخوه من قبل بالمنصور . نعم قد سمت العرب فى جاهليتها بالأسماء المنكرة ، ولكن الإسلام جاء فحسم ذلك كله ، ولم يبق من التلقيب والتسمية بالمنكر من الألفاظ شىء فى أكثر البادية العربية ، فكيف فى الحضر ثم فى أعظم بيوت الحضر ، وهو بيت العباس ؟ وقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة فهو قد غير أسماء كثير من الوافدين عليه من أصحابه « كزحم بن معبد » فسماه بشيرًا ، وجميلة امرأة عمر بن الخطاب وكان اسمها « عاصية » وخلق كثير .

وعلى هذا الأصل نرى أن الناس فى صدر الإسلام سموا « السفاح » فمنهم : السفاح بن مطر الشيبانى ، وهو ممن ولد فى النصف الثانى من المائة الأولى للهجرة وكان من أصحاب الحديث ، والسفاح أخو أبى سلمة بن عبد الرحمن الزبيدى لأمه وهو من التابعين ، وقد روى عن أبى هريرة وغيرهما . ولاشك أن التسمية هنا منصرفة إلى المدح لا إلى الذم ، فصفة أبى العباس السفاح هى إلى العطاء والكرم كما ذهب الأستاذ العبادى أولًا ، ثم رجع حين تعقبه الأستاذ أحمد أمين .

أما النص الذى نقله الأستاذ عن اليعقوبى من أنه قال : عبد الله بن على الأصغر وهو السفاح » ، وهو عمّ أبى العباس والمنصور ، فإن أصله منقول من ابن سعد فى طبقاته حين ذكر أولاد على بن عبد الله بن عباس فقال : « عبد الله بن على الأكبر ... وعبد الله بن على الأصغر السفاح الذى خرج بالشام » ، فهذا هو الأصل ولا يرى فيه إرادة التلقيب كالذى يرى من نص اليعقوبى ، وإنما هى صفة كالسفاك والقتال . نعم ، وأنا لا أدرى كيف ادعى الأستاذ العبادى أنه اشتهر بذلك فانتقلت هذه الصفة إلى أبى العباس أمير المؤمنين ، فإن الطبرى وأئمة المؤرخين قد ذكروا عبد الله بن على عم أبى العباس وأبى جعفر فى أكثر من خمسين موضعًا ولم يلقبه أحدهم بهذا اللقب ، فكيف يمكن أن ندعى أنه اشتهر به حتى كان من جراء هذه الشهرة أن اختلط على الناس وعلى الأدباء وعلى فلان وفلان كالجاحظ وابن قتيبة فوضعوا صفة « عبد الله بن علىّ » صفة « لعبد الله بن محمد » على قرب العهد . وكيف جاز أن يقع فى ذلك الجاحظ فى روايته ، وهو أدق العلماء

رواية ، وهو الذى رد أكثر رواية الهيثم وابن الكلبى وغيرهما من أصحاب الأخبار؟

وخبره الذى رواه وذكر فيه السفاح فى البيان والتبيين ج ١ ص ٩٣ أخبره به « إبراهيم بن السندى » وقد قال فيه ج ١ ص ٣٢٦ :

« وكان إبراهيم بن السندى يحدثنى عن هؤلاء بشىء هو خلاف ما فى كتب الهيثم بن عدى وابن الكلبى ، وإذا سمعته علمت أنه ليس من المؤلف المزور ، وكان عبد الله بن على وداود بن على يعدلان بأمة من الأمم . ومن مواليهم إبراهيم ونصر ابنا السندى ، فأما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث ، وكان لايعدو حديث ابن الكلبى والهيثم ، وأما إبراهيم فإنه كان رجلًا لا نظير له ... وكان ... وكان ... من رؤساء المتكلمين وعالمًا برجال الدعوة وكان أحفظ الناس لما سمع وأقلهم نومًا وأصبرهم على السهر » .

فرواية الجاحظ فيما نرى أقوم من رواية غيره ، وهى دليل على صحة الصفة التى وصف بها أبو العباس أمير المؤمنين ، والجاحظ قد أدرك صدر الدولة العباسية ، ولم يكن بين مولده ووفاة أبى العباس السفاح كبير دهر حتى يكون ممن يختلط عليه الحق فى مثل هذا الأمر ، وبخاصة وهو يروى مايروى عن الثقات فى معرفة أخبار رجال الدولة .

أما سكوت الطبرى وغيره – من متأخرى المؤرخين عن صدر الدولة العباسية – فليس يعد دليلًا على بطلان هذا اللقب . وإن دل على شىء فربما دل على أنهم جانبوه وتباعدوا عنه وتركوه لما كان قد انتشر فى عصرهم من معنى السفاح على أنه السفاك للدماء ، وخفاء معنى هذا اللفظ الأول وهو الكريم الباذل الفياض الذى يكون عطاؤه للمال حثيًا .

هذه كلمةٌ صغيرة إلى الأستاذ العبادىّ أرجو أن أكون قد بلغت بها بعض رضاه فى التعقيب على رأيه الذى انتهى إليه ووقف عنده . ولعله يعود إلى الذى كتبه فإن له بالعلم بصيرة نافذة مسددة إن شاء الله .

* * *

العـــيد

أيتها الأيام السعيدة الهاربة من عمل الدنيا ببراءتها من الشقاء ، أيتها الأيام الصغيرة المتلألئة فى ظلام الزمن بأفراح السعادة ، أيتها الأيام الذاهلة عن معانى الآلام !

أنت هكذا أبدًا ، وهكذا أبدًا تعودين ...

ولكن هل تستطيعين أن تمنحى الناس جميعًا بعض سعادتك وأفراحك ولذاتك البريئة ؟

هل تستطيعين أن تمنحى العقول المتغَضِّنة من الهم والكِبَر أفكارًا غضَّة ناعمة كأحلام العذارى ؟

الحـــرب

كانت أيام العيد هدنة سكنت فيها الأخبار المحاربة بمعانيها فى أذهان الناس وعواطفهم ، وانقطعت الصحف الأخبارية أيامًا عن الظهور ، فانقطع أكثر الحديث عن الحرب المخيفة بأوهامها قبل حقائقها ، وهدأ الناس .

أذكرتنى هذه الأيام المسالمة بتأثير الحرب فى الأدب ، وحملت إلىّ صورًا كثيرة مما قرأت فى الصحف والمجلات الأدبية ، ولا أدرى ، فيخيَّل إلىّ أن المجلات الأدبية منذ بدأت الحربُ إلى اليوم قد أفرغت كثيرًا من صفحاتها للحرب ، وشرحت صدرها لكثير مما يتعلق بها ، ومع ذلك لا أكاد أجد إلا القليل من هذه الأحاديث يصلح أن يكون من أغراض المجلات الأدبية ، وإنما هو بأغراض الصحف اليومية الأخبارية أليق وألصق . ومن الوهم المتفشِّى أن يدّعى مدع أن أثر الحرب لابد أن يكون كذلك ، وأن مثل هذه الأحاديث هى سمة الحرب على أدب الأدباء ، فإن أثرها فى فكر العامة لا يكاد يخرج عن مثل ذلك . أما أثرها على الأدباء فهو أشد تغلغلًا فى طوايا النفس ، وأشد هزًّا لعواطف

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٣) ١٩٤٠ ، ص : ١٨١ - ١٨٣

الإنسانية . فإذا أقررنا أن الحرب إنما تتدافع فى صدور الأدباء والشعراء ورجال الفن لتكون كالتيار الذى يتدافع بالبحر فينشئ له الأمواج المتصارعة المتدفقة مخافة أن يركد فيأسن ، لم نجد بُدًّا من اعتبارها كالمدد للمعانى الخائفة التى تنزوى فى كهوف النفس الإنسانية السامية الطامحة ، تجرّؤها وتذمرها وتؤلبها من هنا وهنا لتتعارف وتتساند وتندفع إلى غمارها مجدة إلى المثل الأعلى الذى هو أحلام النفوس الرفيعة الدائبة أبدًا إلى الأغراض النبيلة .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأثر الحربِ إنما هو تنبيهٌ للمعانى والأغراض التى تحيك فى صدور الأدباء والشعراء ، وتطريقٌ للمسالك الغامضة التى يراد منهم أن يمهدوها ويكونوا أدلاء للناس فى مجاهلها ومنكراتها . إن الصحف اليومية الأخبارية عليها أن تمد الناس بأخبار الحرب وصفاتها وصفات بلادها المتحاربة ، وعواقبها الدانية أو البعيدة لأحداثها ، ولكن مهمة الأدباء الذين يمارسون تحرير المجلات الأدبية أن يتعقبوا مَعانىَ أسْمَى من هذه المعانى المبتذلة التى توضَعُ عن أفكار الناس حين تضع الحرب أوزارها ، عليهم أن يسبقوا أحداث الحرب بتمهيد جديد إلى حياة أخرى تبرأ من الغرائز الدنيئة التى دفعت العالم إلى هذا الشر البغيض الذى لا غرض له إلا استبداد السلطان ، واستعباد الناس بعضهم لبعض . وإذن فهم - لابد - يبحثون عن العلل والأمراض التى داخلت المدنية الحديثة ، فجعلت قوة الافتراس فيها هى الأصل الذى بنيت عليه عقائدها وأعمالها ، غير متحيزين إلى فئة بعينها ، فإن الأسلحة المشرعَة الآن فى جميع الصفوف لن تعرف بعدُ معنًى إلا معنى الحرب وحدها بوحشيتها وجوعها وقرمها ... لن تعرف إلا الدَّمَ وشهوة الدم ، وتنقرض العواطف الرقيقة التى تملأُ النفس ورعًا وتقوى وحنانًا . وإذا استبان لهم مكنون هذه العلل استطاعوا أن يمهدوا السبيل للحياة الجديدة المبرأة من أسبابها الباغية ، فمنعونا شرها ثم شر الآثار والعواقب التى تأبى شياطين الحرب إلا أن تزينها للباقين والناجين من أحلاسها [١] .

---

(١) أحلاسها : شرورها اللازمة . المفرد : حِلْس ، وأصله كساء يوضع على ظهر الدابة ، فهو ملازم لها أبدا ، فقيل للفرسان المقاتلين الذين يلزمون ظهور خيولهم : أحلاس الحرب .

هذا هو عمل الأدباء والشعراء على الاختصار والإجمال . أما أن يتوهم متوهم أن أثر الحرب إنما يكون إذ يلوك أخبارها وأحداثها ويمضغها فى لفظه وعبارته مضغ الكلأ ، فذلك شىء لا يقع عليه إلا عقل العامة الذين لا ينفذون فى المعانى إلا على الوهن والضعف والفساد . إن أفكار الأدباء التى تسمو بألفاظها ومعانيها سمو الروح بين خوافق السماء ، وإن أحلام الشعراء التى تختالُ فى زينتها رقيقة ناعمة أو ثائرة مُتفجرة – هى أحبُّ إلى نفوس الناس فى زمن الحرب ، لأنها تنفيس عنهم من كرب الحروب ، وإخراج لهم من حمأة الدم الذى ينشر رائحته مع كل نَفَس ، ثم هى التمهيد الصحيح لتهذيب النفس الإنسانية وتربيتها والتسامى بها عن المعنى الحيوانى الضارى الذى تنشّئه الحروب فى مهد من الأشلاء والدم .

العقل المصرى !!

كتب الأستاذ (محمود المنجورى) كلمة فى السياسة الأسبوعية (١٥٥) يريد أن يكشف بها عن (طبيعة العقل المصرى ، ومدى تأثرها بالانقلابات) الاجتماعية أو السياسية أو الدينية . وساق حديثه فيها إلى وزارة الشؤون الاجتماعية . ونحن نتجاوز عن بعض الخطأ الذى وقع الأستاذ فيه عصبيّة للعقل المصرى كما يسمّيه ، كدعواه أن إنشاء الأزهر كان نتيجة للأسباب الفكرية والاجتماعية والروحية – التى نشأت فى مصر فيما يرى – فأريدَ إقامة الدعوة الفكرية المتميزة عن صواحباتها فى سائر العالم الإسلامى بإنشاء هذا المعهد العلمى العظيم . ولا شك فى أن هذا تأويل غير جيد لحقائق التاريخ ، فإن الفاطميين هم أنشأوا هذا المسجد الجامع لأول فتحهم لمصر ، ولم يكن للعقل المصرى إذ ذاك كبير شأن ولا صغيره فى دفع الفاتحين إلى إقامة هذه العمارة فى مصر ، وإنشاء الأزهر كان لغرض فى نفس الفاطميين أصابوه أو أخطأوه ... فليس ذلك من شأننا هنا .

وأيضًا فأنا إلى اليوم لا أكاد أعرف شيئًا يمكن أن يسمى « العقل المصرى » أو « العقل الإنجليزى » أو « العقل الفرنسى » وهلم جرّا ، حتى يوضع فى كفة

وحده أعدت له في موازين العقول ، وليس قيام المدنيات بأجزائها على « العقل » حتى يمكن أن يقال إن العقل المصرى هو الذى استطاع أن يبقى خالدًا والمدنيات من حوله تفنى وتبيد . حقًّا إن مصر – وغير مصر من الأمم التى كانت منزلًا لمدنيات كثيرة متباينة – قد احتفظت مع هذه المدنيات بأشياء امتازت بها ، ولكن هذه الأشياء المميزة لم يكن مرَدُّ أكثرها إلى العقل بل كان مردها إلى الطبائع التى أنشأتها إرادة الإقليم المسيطرة على الطبائع الإنسانية ، وإلى العادات المتوارثة التى لم تقاومها هذه المدنيات مقاومة الحرب والإبادة ، فلذلك بقيت هذه المميزات قائمة سائرة متعارفة ، فيخيل لبعض من لم يَغُزْ إلى أعماق هذه المخلفات أنها ظواهر عقلية مع أن الحق غير ذلك ..

ونحن نجد الجنس من الناس ينزل أرضًا غير أرض ، فما يمضى الجيل أو الجيلان حتى تفنى المميزات الجنسية فى نسلهم من أبنائهم وأحفادهم ، ويبدأ الوطن الجديد بطبيعته المستبدة فى تحويل هذا النسل إلى طبائعه التى تلائم تربته وسماءه وجوه وحاجات سكانه ، فكذلك المدنيات إذا نزلت أرضًا خضعت لما يخضع له الإنسان الحى المتحدر من أصلاب قوم غير سكانه الأوائل ، وجعلت تتميز بضرورات الإقليم الطبيعية .

ولماذا يريد كثير من الكتّاب أن يجعلوا عقول أممهم بدْعًا فى العقل الإنسانى ؟ لا أدرى ، وما يكاد يدرى أحد من هؤلاء ما هو العقل ، وكيف يتميّز فى الإنسان ، أو كيف يتبيَّن فى الأفكار أو المدنيات مكان العقل من مكان غيره من الغرائز والطبائع والدوافع وما إلى ذلك من الأشياء التى تشترك فى نتاج الفرد ثم فى إنشاء المدنيات الاجتماعية ؟ ولو استطاعوا لأبانوا لنا – على كثرة مايقولون – عن موضع واحد يقولون فيه هذا « صنع العقل » الفلانىّ . إن العقل المصرى كغيره من العقول يقبل كل شىء ، ولكن طبائع الإقليم تريد أشياء وتنفى أشياء لأنها لا تستطيع البقاء فى سلطانها . إن جوهر الأشياء كلها لا يتغير فى العقل بعد العقل ، ولكن الأعراض هى التى يصيبها التبدُّل والتغيير لأنه من طبيعتها أوّلُ ، ولأن العقل لا يعمل فيها عملًا إلا للتدبير والتصريف وحسب .

* * *

وقد عرضَ الأستاذ (المنجورى) فى مقاله هذا إلى عهد الاحتلال وماصنعت سياسته فى أخلاق مصر وتعليمها ، وكيف حطم بجوره وعدوانه كل الصلات القوية التى يعتمد عليها ترابط الكيان الاجتماعى ، فتمزقت الجهود المصرية فى الإصلاح ، واستبدَّت الشهوات الجارفة بأخلاق الطبقات كلها ، ففشل الاجتماع المصرى فى إرادته ، وقام على أساس فاسد من الأخلاق حتى صار أكثر ما نرمى إليه غرضًا فرديًا لا قيمة له فى البناء الاجتماعى ، ومن هنا استبد المستبد وصارت السيطرة الفردية فى كل أعمالنا هى المبدأ ، فلم يقم بيننا التعاون على أساس صحيح ، وكذلك تنازعت الشهوات أعمالنا فصار الآخر بأنانيته يريد هدم عمل الأول لينفرد بأحدوثته وَصِيته ، كالذى رأيناه فى الحكومات الكثيرة التى تعاقبت على الدولة المصرية فشرعت ووعدت وبدأت وسارت ، ثم جاءت أختها من بعدها لتقف كل ذلك وتبدأ من جديد بلجانها وتقريراتها واقتراحاتها ، تريد أن تخالف وأن تنشئ وأن توجد ، ثم هكذا دواليك حتى غدت وعود الحكومات عند المصريين خاصة والشرقيين عامة إلى مثل التى يقول فيها كُثيِّر عزَّة :

تَمَتَّعْ بها ما ساعفتك ، ولا تكن ... عليك شجى فى الصدر حين تبينُ
وإن هى أعطتك الليان ، فإنها ... لآخرَ من خُلّانها ستلين
وإن حلفت لا ينقض النأى عهدها ... فليس لمَخْضُوبِ البَنَان يَمينُ

فهذه أمراض وأوبئة لا تزال تنتشر ، ولابد من مكافحتها مكافحة صارمة بغير هوادة . فهل فى الذين يصير إليهم السلطان الوازع العامل من يستطيع أن يتجرد لمكافحة هذه الأوبئة ، ولو كان فى كفاحها كفاح لنفسه وشهواته وأغراضه ؟ هل تجد مصر أخيرًا طبيبها المغامر ؟ ليتها تجد ...

المنطلق

قرأت فى العدد ٣٤١ من « الرسالة » أغنية - أو هكذا سمّاها صديقنا - بعنوان « الناى » . قال الأستاذ بشر فارس : وهى على بحرين مختلفين رغبة فى

تنويع مجرى النغم ، والبحر الأول وضعه الشاعر ، وأجزاؤه : « فاعلاتن مفاعلتن » مرتين وليكن اسمه « المنطلق » انتهى .

وصديقنا بشر شخصية جوالة فى معانى الدعَة والرقة واللطف والظرف والابتسام والمرَح ، وسائر هذه الكلمات الراقصة بألفاظها قبل معانيها . وهو كالبحر الذى زعم أنه اخترعه وسماه « المنطلق » ... فهو منطلق فى كل أشياء الحياة بأحلام كأحلام الليل جميلة هادئة ساكنة ... ولكن إذا فجأها النهار تطاردت له هاربة وقد تركت آثارها أخاديد نديّة كذكريات الحبيب الهاجر فى قلب العاشق ...

وهذا البحر « المنطلق » كما يسميه ، قد أرسله على مثل هذه الأبيات :

« جَنِّبوا الناى عن أُذنى   أُذُنى زلزلتْ طَرَبا
مثلَ قلب تُحدِّثهُ   سرَّه السوْدُ فاضطربَا »

وقد زعم « بشرٌ » أنه وضعه ، ونحن نُسلِّم لبشر ما يقول ، ولكن أصحاب العَروض هم أبدًا كبحورهم لا يهدأون ، فقد زعموا أن الأخفش قد تدارك على الخليل بحرًا سموه « الشقيق » يزعمونه أخا « المتقارب » ، وسموه المحدث والمخترع والخبب إلى غير ذلك وعُرف عندنا باسم « المتدارك » - أى الذى تداركه الأخفش على الخليل بن أحمد - وأصل تفاعيله عندهم : « فاعلن ، فاعلن ، فاعلن ، فاعلن » مكررة ، وله عروضان تامة ومجزوءة ، فالعروض المجزوءة هى : « فاعلن ، فاعلن ، فاعلن » مكررة .

وهذه العروض المجزوءة من بحر المتدارك ، هى زنةُ شعر بشر قد دخلها من رِقَّتِه ماجعلها تتأوّد عند قوافيها لتستريح ؛ فالبحر ليس إذن « منطلقًا » ، ولكنه « خليع المتدارك » .

وسائر أبيات القصيدة فى قوله مثلًا :

« أوتار الخاطر تغمزها   أَنَّاتُ الناى فترتجف »

هى أيضًا من عروض المتدارك التامة دخلها التشعيث والخبن كقول ابن حمديس :

صادَتكَ مَهاةٌ لم تُصَدِ فلواحظُها شركُ الأسَدِ
من توحى السِّحر بناظرة لا تنفثُ منه فى العُقد

هذا فى مخترع « بشر » ولكن ما بال هذا الصديق يريد أن يزلزل أذنه ، ونحن لم نفرغ بعد من حديث الزلازل التى هدمت ما هدمت فى الأناضول ، لماذا أيها الصديق ؟ ولماذا تريدنا أن نشعر أن أذنك وحدها - دون سائرك - هى التى تطرب ، ولا يكون طربها إلا زلزلة .

كفى ... كفى ، فإنى إذا نقدت « بشرًا » فلن أجد الراحة بعد ، وإن كنت أظن أنى لم أفهم الشعر كله جيدًا ... فلعله شعر جديد ، والجديد على من بدأ الشيب يغزوه يبليه ويخيفه فينتشر عليه فهمه فلا يفهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ...

* * *

الغذاء العقلى والروحى للشباب

ألقى الدكتور طه حسين فى قاعة الجامعة الأمريكية كلمة أُريد عليها ، كما قال فى أول كلامه ، فاستغرقت هذه الكلمة من الوقت ساعة أو أشفَّ قليلًا ، افتتحت بالتصفيق الشديد للدكتور طه حين خرج على الناس ليتكلم !!

ولستُ هنا فى مقام التلخيص لهذه الكلمة ، ولكنى بالمكان الذى يجب علىَّ فيه أن أشقّ للقراءِ موضع الرأى الذى ينبغى لهم أن يشغلوا أفكارهم به ولو ساعةً من نهارٍ ، كما شغل الدكتور طه سامعيه ساعةً من ليل يوم الإثنين ٢٩ يناير سنة ١٩٤٠ . وليس فى القراء الذين يعرفون الدكتور طه من يجهلُ أن أوّل ما يتكلم به الدكتور إِنْ هو إلا أن يجعل مَردّ كل شىء إلى « يونان » ومدن يونان ... فلا شك إذن فى أن أول نظام عرف للغذاء العقلىّ والروحىّ للشباب ، إنما كان فى المدن اليونانية والحضارة اليونانية والعقلية اليونانية !! فهذا شىءٌ مفروغٌ منه قد جعله الدكتور طه مذهبًا لا يحيدُ عنه ، وأسلوبًا لا يسلُك غيرَه ، ولا بأس بذلك ... فأنا أعتقد أن اختلاط المدنيات المتعاقبة على الأزمان المتقادمة ، قد جعلت لصاحب الرأى سعةً يذهبُ فيها حيث يشاء . فلو قلت أنا مثلًا : إن أول نظامٍ عرفه التاريخ لتنظيم الغذاءِ الروحى والعقلى للشباب ، إنما كان بالصين ، وقد فصَّله لنا ما بقى من آثار « كونفوشيوس » فيلسوف الصين الأكبر ، لوجدت من الدليل ما أستطيع أن أقيم بها عِوَجَ الرأى ، وأردُّ به على مخالفىّ رد إِلزامٍ وخضوعٍ ... وكيف لا أستطيع ذلك وفى كل كلمةٍ من كلام هذا الفيلسوف العظيم توجيةٌ لقوى الشاب الصينىّ إلى الخير المحض ، وهو الذى يقول : « من حق الشاب أن ننظر إليه بعين الاحترام ، فما يدرينا أن علمه فى المستقبل سيكون فوق علمنا فى الحاضر ؟ أمّا من أسند فى الأربعين أو الخمسين من عمره ولم يشتهر بعلمٍ من العلوم ، فلا يستحق أن ننظر إليه بعين الاحترام » . وقد جَعَلَ كل جهده فى تدبير شؤون الدولة الصينية ، يقول : « إن الاضطراب قد مزّق البلاد بالفوضى ، فمن

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٤) ، ١٩٤٠ ، ص : ٢٢٢ - ٢٢٤

الذى يُعيدُ نظامها » ، « لا يمكن أن أعاشر الطيور والوحوش ... وإذا أنا لم أعاشر هذه الأمة ، فمن أعاشر ؟ لو كانت البلاد تحت سياسة عادلة لما كنت فى حاجة إلى أن أُحاول إعادة نظامها » ...

هذا وغيره من تاريخ الأمة الصينية وتاريخ فيلسوفها يعلمنا أن أول نظام كان إنما كان بالصين ، فإن شئت أن أقول الهند وأسوق الدليل فعلت . فأنت ترى أن المذهب يتسع فى الحضارات القديمة لكل رأى يحتمل به صاحبه إن شاء . واليونان من الأمم القديمة ذاتِ الحضارات القديمة ، وإنما نفَعَها وجعَلَها مثابة لبحثِ كلِّ باحثٍ يريدُ أن يردَّ إليها مذهبًا من المذاهب ، بقاءُ كثير من آثارها . ثم قيام أوربا الحديثة بإحياء ما طَمّ عليه الزمن من مدنيتها ، وأخفى أمر الحضارات الأخرى ضياع أكثر آثارها أو بقاؤها فى قبر من الإهمال والنسيان ، وهمود النشاط فى البلاد الشرقية التى هى أحق بإحياء آثارها . هذا قليل من كثير يمكن أن يقال فى مثل هذا الأمر من أمور التاريخ القديم .

وبعد هذه المقدمة ، ساق الدكتور طه حديثه ببراعته التى لا يستعصى عليها غامض ولا بعيد ولا متشامخ . وأنا وإن كنت أظن أن الدكتور طه لم يوفق فى كلمته كل التوفيق ولم يمس أغراضها إلا مسًّا رفيقًا غامضًا بعيدًا ، فإنى أعترف بأنه قد استطاع بحسن تحدُّره فى المعانى أن يثير من الآراء ما يجبُ أن يُثَار فى أفكار هذا الجيل ، حتى يمكن بعد ذلك أن نستصلح من أمورنا ما أفسده طغيان الجهل واستبداد الحاكمين ، وتوالى المصائب المرهقة على شعب نائم لا يستطيع أن يدفع عن نفسه أسبابها ، ولا أن يذُودَ الوحوش الضارية التى فَرَضَتْ عليه بالاستعباد أقسى ما يمكن أن تبتدعه من ضروب الفتك والعدوان .

الدولة والثقافة

فأهم ما تناوله الدكتور فى حديثه هذا هو بيانُ موقف الحكومة من الأمة التى رضيتها أن تقبضَ على زمام الأمر فيها تصرفه بما ينفع الناس ويزيدهم قوة على قوتهم . فالأمم كلها قد أسلمت إلى حكوماتها أمر القيام على الثقافة والتعليم ، وأعطتها من حُرِّ مالها ما تستطيع أن تنشىء به نظامًا كاملًا للتعليم يكون فيه رضى

الشعب وحياطته وتوفير أسباب النهوض العقلى له ، وحماية أفراده من أمراض الجهل وأوبئته التى تهد قوى الشعوب وتفتك بالعقول التى خلقها الله لتعمل فى تدبير الحياة الإنسانية للوصول بها إلى الكمال الممكن على هذه الأرض .

وإذا كانت الحكومة - أو الحكومات - تأخذ من الشعب الأموال المتوافرة الكثيرة بالضرائب التى تفرضها عليه فى كثير من مرافق حياته كتجارته وزراعته ، لتتخذ هذه الأموال فى تدبير الجيش وإعداده وتسليحه وتقويته ليدفع عن الأمة شر المطامع الأجنبية التى لا تلبث أن تغزو البلاد إذا وجدت منه ثغرًا مُضاعًا تنفذ إليه منه ، فمن العبث أن تهمل شأن الفرد الذى يقوم به معنى الجيش ، والذى هو المدد الأول للجيش بروحه وعقيدته وفكره وقوته . فالجيش الذى يتكون ويتجمع من شعب جاهل معذب بالجهل محطم بالضعف العقلى والخلقى ، لا يمكن أن يكون جيشًا مؤتمنًا على ثغور البلاد يحميها من غوائل الحروب .

الأغنياء والفقراء

وإذا كانت الحكومات جميعًا لا تفرِّقُ فى إمداد الجيش بين طبقات الشعب كلها ناظرة إلى الغنى والفقر ، فمن الخطل الذى ليس بعده خطلٌ أن يقوم نظام تعليم هذا الشعب على التفريق بين الغنى والفقير ، فكلاهما قد فرض عليه أن يبذل دمه وماله وقوته وجهده فى الدفاع عن أوطانه التى تحكمها هذه الحكومة ، فمن حقه على الحكومة أن تمده بالأسباب التى يستطيع أن يدافع بها عن هذا الوطن . والأسلحة المختلفة هى بعض أدوات الدفاع ، ولكن الأداة الكبرى فى الدفاع إنما هى الرجل الذى يحمل هذه الأسلحة ، فيجب أن ينصرف أعظم هَمِّها إلى أحياء الرجل فى طبقات الشعب غنيها وفقيرها على السواء بالحرص على إعطاء الشعب غذاءه كاملًا من الألوان المختلفة من الثقافات المتعددة ، كلٌّ على قدر طاقته ورغبته واستعداده ، مكفولًا له الحرية فى الاختيار مع التسديد والحياطة والنصح .

والحكومة حين تنظر إلى قوى الدفاع تفرض الضرائب على نسبة الأموال التى يملكها الشعب غير مفرقة بين الغنى والفقير فى نسبة الضريبة التى تتقاضاها منه

اقتسارًا وفريضة ، فكذلك يشترك الغنى والفقير على السواء فى تحمل واجبات الحرب . فأولى إذن أن يشترك الغنى والفقير معًا فى القيام بأعباء التعليم والثقافة ونشرهما والمساواة فى منحهما للغنى والفقير على المساواة بغير تفريق . وليست تفرق الحكومات على الحقيقة بين الغنى والفقير بقانون موضوع ، وإنما هى تفرق بما هو أعظم خطرًا من القانون الوضعى لأنه قانون الطبيعة وقانون القدر . فالغنى يستطيع أن يدخل أبناءه جميعًا بيوت العلم من الابتدائى إلى العالى مستعينًا على ذلك بماله الذى استخلفه الله عليه ، والفقير لا يستطيع أن يفعل مثل ذلك فيبقى أبناؤه طعامًا للجهل الضارى وبقايا من فرائس الفقر المتوحش .

ومن العجيب الذى لا يعجب إلا منه أن يكون فى أمة من الأمم رجل تفضى إليه ثلاثة آلاف جنيه فى العام ، وليس له من الولد إلا ثلاثة أو أربعة يتكلف فى تعليمهم ما لا يزيد عن مائة جنيه فى العام كله ، ورجل آخر يكون ما لا يدخل عليه مائتا جنية فى العام وله من الولد مثل الذى للأول فهو يدفع مائة مثل مائته أى نصف دخله ! فما بالك إذن بالذين ينصبّ عليهم من الأموال ما لا يستطيعون التصرف فيه إلا أن يسفكوه على اللذات والمنكرات من النساء والخمر والقمار وحالِقات [1] المال والخُلُق وليس لهم ولدٌ ، ثم يكون فى الأمة آلاف مركومة من الإنسانية إلى ملايين تنسل وتلد وتمد الأمة بأسباب حياتها من الأبناء والبنات ولا يملك أحد مايقوت به نفسه فضلًا عما يقوت به ولده ، فضلًا عما يدفعه لوزارة المعارف أجرًا للتعليم ... ! إذن فواجب الأمة أن تحمل الحكومات على تغيير نظام التعليم ونظام الضرائب ، فتحصل الضرائب من الشعب كله على نسبة رأس المال والدخل ، ليستخدم هذا المال المجموع من الضريبة فى تعليم الشعب كله على المساواة بين غنيه وفقيره ، ويلغى من وزارة المعارف نظام التحصيل ، « تحصيل المصروفات المدرسية من أولياء أمور التلاميذ » ويكون التعليم كله من أوله إلى نهايته مجانًا مبذولًا معرضًا لكل مستطيع وطالب وراغب بغير تفريق .

---

(١) الحالقات : المُفْنيات ، يقال : وقعتْ فى القوم حالِقة فلم تدع شيئا إلا أهلكته ، ومنه سُمّيت المنِيَّة : حَلاق .

وأحب أن أقول للدكتور طه ، ولغيره من كتابنا ، إنه حقٌّ عليهم أن يقوموا بالدعوة ، وبالكتابة فى مثل هذا الغرض النبيل الذى ينفع الناس ويرفع عن أعناقهم نِير العبودية التى يفرضها الجهل مرة والفقر مرات كثيرة . فإن كلمة الدكتور طه التى ألقاها ، إنما سمعها عدد من الناس – أكبر الظن فيهم أنهم قد طرحوا عبء التفكير فيها حين خرجوا من باب « قاعة يورت التذكارية » ، كما تطرح الأعباء المثقلة . وليس شىء يحمل الحكومة على الجادة وعلى سواء السبيل كالصحافة وكتابها إذا أخلصت وتطهرت من الغرض والهوى والحقد والبغى والعدوان ... فهل يمكن أن يكون هذا فى مصر ؟

فإن تسألينا : كيف نحن ؟ فإننا عصافير من هذا الأنام المسحَّر

عناصر الثقافة المصرية

وقد حددالدكتور طه ألوان الغذاء الروحى والعقلى الذى يجب أن يقدم للشباب ، فجعله مركبًا من ثلاثة عناصر : العنصر المتحدرُ من تاريخ مصر القديم – الفرعونى – وهو الفن ، والعنصر المتغلغل فى مصر الإسلامية ، وهو الدين والأدب والفن العربى الإسلامى ، والعنصر المتلبس بحياتنا الحاضرة منذ اتصلنا بغيرنا من الأمم التى نتعاون معها أو ننافسها ، وهو العنصر الأوربى الجديد ، وسترى بعد ما هو عند الدكتور طه .

أما العنصر الأول ، وهو الفن الفرعونى القديم ، فأنا أدعه للكلمة الآتية ، فإن اللَّبس كثير فيه ، وقد زلّ على مزالقه أكثر أصحابنا ممن فُتنوا به عن صواب الرأى . وأنا أحب أن أتناوله بالبيان الذى يدفع عن مصر شرًّا كثيرًا ويحقق لها ما نتمناه جميعًا من الخير .

وأما العنصر الإسلامى من الدين والأدب والفن ، فقد أجاد الدكتور طه فى الدعوة إلى العناية به لأنه أصل المدنية ، ومن جَهِل فى بلاد مصر – أو بلاد العربية على اختلافها – تاريخ الإسلام فقد حطّ فى مَهوًى ينقطع به حبله الذى يصله إلى قومه وإلى حضارته وإلى مستقبل هذه الحضارة التى سوف تنبعث بنورها مرة ثانية فى جنبات الشرق فيما أرى . ولكن الدكتور طه بعد أن تكلم عن الاجتماع العربى

أو الإسلامى الذى عاشت عليه الأمة المصرية هذه الأجيال ولم تجد به بأسًا - كما يقول - عاد فاستدرك عليه بقوله : « بشرط أن يتابع تطور المدنية الحديثة » .
فأنا والدكتور طه وكل عربى قد درب بالحضارة وجرَّبها يعرف أن البناء الاجتماعى هو أصل المدنية ، وأن الاجتماع إذا صلح استطاعت كل القوى أن تعمل فى بناء الحضارة بعقائدها وآرائها وإيمانها وفلسفتها ، فإذا أردنا أن نجعل النظام الاجتماعى الإسلامى فى العمل والتشريع والسياسة هو النظام فمن الخطأ الذاهب فى الفساد أن نخضعه لتطور مدنية أخرى قد بُنى اجتماعها على المسيحية فى التشريع والسياسة والأخلاق . فمصر والشرق الإسلامى إذا أراد أن ينهض فلابد له - كما قال الدكتور طه - أن يستمد نهضته من أصول الاجتماع الذى يربطه به التاريخ والدم والوطن واللسان والدين والوراثة ، وإذا ساير فإنما يساير فى فكرة مطلقة وهى « النهضة والحضارة والمدنية الإنسانية » على الطريق الذى يوافق طبيعة هذا الاجتماع . أما المدنية الحديثة فقد بنيت على غير ذلك وقد تطورت على أصوله ، وليس بعد خطبة الملك جورج ملك الإنجليز ما يدع موضعًا للشك ، فقد خطب الملك يوم ٢٥ ديسمبر سنة١٩٣٩ فى الاحتفال بعيد ميلاد المسيح - صلوات الله عليه - فذكر الاتحاد الإنجليزى الفرنسى للحرب ضد ألمانيا النازية فكان مما جاء فى خطبته (ترجمة الأهرام) : « إنى أومن من أعماق قلبى بأن القضية التى تربط شعوبى معًا ، وتربطنا بحلفائنا المخلصين الأمجاد هى (قضية المدنية المسيحية) . وليس ثمة قاعدة أخرى يمكن أن تبنى عليها مدنية صحيحة » .

ونحن ننظر إلى المدنية الأوربية هذا النظر ، وكلام الملك جورج هو من أدق التصوير لحقيقة الحضارة الأوربية فى نظر كل باحث نصرانى أو يهودى أو مسلم . فإذا أردنا أن نتابع تطوّر هذا الضرب من المدنية بتبديل اجتماعنا - الذى دعا إليه الدكتور طه فى حديثه - ليطابقه ، فكأنما ندعو إلى « تنصير الإسلام » . وما أظن الدكتور طه يرضى أن نصير هذا المصير !

والعجيب بعد ذلك أن يذكر الدكتور طه العنصر الثالث وهو الحضارة

الحديثة الأوربية ، فلا يدعو إلى الأخذ بشيء مما فيها دعوة صريحة إلا فى الذى يتصل بالخلق ليكون عندنا الرجل الصريح الذى يتحرى ألا يكذب نفسه قبل اجتنابه الكذب على الناس ، والرجل الذى يستطيع أن يقول : « لا » أو « نعم » حين يريد أن يقولها ، لا حين يكره عليها !!

ألا إن أخلاق المدنية الأوربية قد استعلنت جميعها فى هذا البغى المتفجر فى الحرب التى لا يعلم خَبْأها إلا عالم الغيب والشهادة ، وإن أردنا أن نأخذ – أى أن نقلد – فلنأخذ من تاريخنا ، من ديننا ، من أخلاق رجالنا .. من الذين استطاع أحدهم أن ينكر على عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، ويقول له : « اتق الله ياعمر » ، فيقوم رجل يستأذن عمر فى أن يأمره فيه بأمره ، فينهاه عمر ويقول : « دعه ، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها لنا، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم » . فالرجولة هنا ليست أن يقول الرجل ، ولكن أن يتقبل صاحب السلطان هذا القول بالخضوع والرضا ، فهل فينا من يقبلها يادكتور طه ... أو فى النفاق الأوربى المتلبس بالرجولة طبقًا للمنافع فى أكثر أمره إلا مَنْ عصم الله ... ؟ لا أدرى .

الفـــــن

كنت أرجأتُ الحديث عن « الفنّ الفرعونى » الذى أراد الدكتور طه حسين أن يجعله أحد العناصر فى « الغذاء الروحى والعقلى للشباب » فى عصرنا هذا ، وهو رأْى متداولٌ قد دعا إليه فلان وفلان ممن استطارتهم العصبية فعصفت أعاصيرها بعماد الرأى وحسن البصر وكمال التقدير لما ينبغى أن نقيم عليه حضارتنا المصرية الإسلامية . والعصبية هى دليل الضعف ، وهى الآفةُ التى تتخون الرأى ، وهى الهدْم الذى يأتى بنيانَ العقل والعاطفة من القواعد حتى يدمّره تدميرًا . وسنوجز القول ما استطعنا ، فإن الإفاضة والشرح والبيان مما لا يتسع لها هذا الباب .

فالفنان هو القلب النابض الذى يُفضى إليه الدمُ الحى الذى تعيش به حضارة أُمته فى عصره ، وهو الفكر القلق النافذ المتلقف الذى ينقد الحياة الاجتماعية فى عصره يألفها أو يُنكرها ، وهو العبقرية المارِدة التى لا تخضع إلا لناموس الحياة الأعظم . والفنان بطبيعته الإنسانية فكرة معبرة عن حقيقة الاجتماع الإنسانى الذى يعيش عليه ، وعن طبيعة الأرض التى يمشى فيها ، والسماءِ التى يَستظلُّ بها ، وكل أولئك ينشىء للفنان أفكارًا وأَخيلة وأحلامًا تستمد غذاءَها من ينبوعها الذى يتفجر بين يديه ولعينيه وفى قلبه .

ونحن لو تتبعنا الآثار الفنية وتاريخها فى كل أجيال الناس من الهند والصين والعرب والترك والروم ، وكل الأمم القديمة ، وسائر الأمم الحديثة لم نخطئ أَثر الحياة الاجتماعية فى الأثر الفنى ، ولا أثر الطبيعة الجغرافية فى جوّه الفنى . ونعنى بالحياة الاجتماعية كل ماتقوم عليه من الدين وعقائده وشرائعه ، وما يتميز به العصر من الأخلاق والعادات والوراثات والأساطير الشعبية التى انحدرت إليه من القدم ، ثم سائر أسباب الحضارة المعاصرة بكل مادتها وألوانها وحقائقها وأباطيلها . وأما الطبيعة الجغرافية ، فهى صورة الأرض بنباتها وأنهارها وفدافدها [1]

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٥) ، ١٩٤٠ ، ص : ٢٥٩ - ٢٦٢

(١) الفدافد : جمع فَدْفد ، وهى الصحراء لا شىء بها .

وحيوانها وغابها وما إلى ذلك ، وجو السماء بصفائه والتماعه وشمسه وقمره ونجومه وسحابه وثلوجه وصيفه وشتائه وربيعه ، وغير ذلك مما يولّد فى نفس الفنان ألوانًا من أخيلة الفن التى يريد تحقيقها أو تمثيلها أو إبداعها ، والأثر الفنى لا يمكن أن يكون خاليًا من تأثير هذين العنصرين المميزين .

فالفن – ولا شك – نتيجة من نتائج الاجتماع الإنسانى والطبيعة التى تحتضنه فهو يتأثر بها تأثرًا بينًا ، لمكان الإحساس المرهف البليغ من الفنان القدير المتمكن. فأعظم الآثار الفنية التى يعدها الجيل الأوربى – مثلًا – فى طليعة العبقرية الفنية ، هى الآثار العظيمة الخالدة ، التى نشأت وربت وترعرت وامتدت تحت ظلال الكنيسة والعقائد المسيحية ، التى عاش فى مدنيتها الفنانون الذين أبدعوها ، وتأنقوا فيها وبالغوا فى إتقانها ، ونحن لا نحتاج هنا إلى أن نضرب المثل بفلان وفلان من الفنانين الإيطاليين والفرنسيين وغيرهم ، ولا أن نعدِّد آثارهم التى بقيت إلى اليوم أصلًا للفن الأوربى الحديث . وهذه الآثار كما يشاهدها المشاهدون تختلف باختلاف الطبيعة الجغرافية التى هى سببٌ ثان فى إنتاج الفنان. فكذلك الفنون الصينية والهندية تتميز بالاجتماع الوثنى الذى يعيش فيه الفنان الصينى أو الهندى ، وبطبيعة البلاد الهندية والصينية . ونحن لا نشك أن عظم الفنون والآثار عامة قد كان نتيجةً لازمة للعقيدة الدينية – وثنية كانت أو إلٰهية – وللطبيعة الجغرافية التى تمد عليها من ظلالها ، وأن الدين والعقيدة هما عماد الاجتماع وأصله وأعظم مؤثر فى توجيه أغراضه وحياطتها وتدبيرها وتوليدها ، فهما إذن أصل قائم فى الحضارة التى تدين بهما مهما تطورت بعد ذلك وخرجت عليهما فأهملتهما . وذلك لأن الشعوب تحتفظ من الأديان بخصائص كثيرة لا يمكن أن تؤثر فيها تطوراتُ الحضارة المدنية الخاضعة للعلم والسياسة وما إليهما .

الفن الفرعونى

فالفن الفرعونى – بغير شك – ليس إلا نتاجًا مركبًا من الوثنية المصرية الفرعونية والطبيعة المصرية الرائعة القوية ، وأثرها بيِّن فى هذه الأبنية الضخمة

بتماثيلها الغريبة المتقنة المختلفة الدلالات على المعانى الدينية المصرية القديمة ، وعلى الأصول الاجتماعية الخاضعة للوثنية الفرعونية التى كان يعيش عليها الشعب المصرى القديم . فهذه الديانة القديمة الجاهلية التى عبدت أوثانها وتقدست بعقائدها الباطلة ، وخضعت لأساطيرها الرهيبة المخيفة ، واستمدت تهاويلها من الإيمان بجَبْريَّة هذه الأوثان والقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتمساح وكذا وكذا من الأوهام الغالية ، هى التى أنتجت هذا الفنَّ المصرى القديم بمعابده وتماثيله وكتابته الهرغليفية المعبِّرة أدقَّ تعبير عن حقيقة المدد الفنى للآثار المصرية الفرعونية .

والفنَّان الفرعونىّ لم يستطع أن ينشىء هذه الآثار الهائلة الغريبة التى بقيت هذه القرونَ الطوال تتحدى الزمانَ المُتطاوِل عليها ، ولم يمنحها هذا الجبروتَ الهائل والاستبداد الطاغى إلا بالقوة التى أنشأتها ودبرتها له عقائدُه الوثنية الرهيبة ، وإيمانُ المجتمع المصرى بها إيمانًا خاضعًا مُتعقبًا أيضًا ، وأعانتها الطبيعة الجغرافية المصرية العظيمة بشمسها وقمرها وصيفها وشتائها ، وصحرائها التى تحفُّ بالنيل العنيف المتدفق بسلطانٍ طاغٍ كسلطان الفراعنة الملوك . كل أولئك أثار الفنانَ وأمد إحساسه المرهف بالمادة التى استطاع أن يصوغ فيها فنه الوثنى العبقرى .

وعلى ذلك فيجب أن نقرر أن الفن المصرى الفرعونى – على دقته وروعته وجبروته – إن هو إلا فنٌّ وثَنِىٌّ جاهلىٌّ قائمٌ على التهاويل والأساطير والخرافات التى تمحقُ العقل الإنسانىّ ، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرة أخرى فى أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية – سواء أكان هذا الدين يهوديًّا أم نصرانيًّا أم إسلاميًّا أم غير ذلك من أشباه الأديان .

تمثال نهضة مصر

وهذا « تمثال نهضة مصر » القائم فى « ميدان المحطة » ، والذى أقامه المَثَّال القدير « مختار » ، أنا أراه فلا أرى فيه إلا تقليدًا فاسدًا لآثار حضارة قد دثرت وبادت ولا يمكن أن تعود فى أرض مصر مرة أخرى بوثنيتها وأباطيلها وأساطيرها

وخرافاتها . نعم ، هو تقليد رائع يدل على قدرة الفنان الذى نحته ، ولكنه لا معنى له الآن فى مصر الإسلامية . هل يستطيع الفنان الذى نحته وأقامه أن يعيد فى مصر تاريخ الوثنية الجاهلية ، واجتماع الحضارة الفرعونية ، وما يحيط بذلك من الأبنية الضخمة التى شادها أوائله ، والتى كانت وحيًا للفنان الفرعونى الذى عبد الشمس وخضع لفرعون وأقر له معانى الربوبية ، وآمن بالأباطيل والأساطير والتهاويل الدينية والوثنية الضخمة الهائلة المخيفة التى قذفها فى قلبه أبالسة عصره من الجبارين والطغاة ؟ وهل يستطيع أن يجعل فى أرض مصر شعبًا وثنيًّا مُتَعَبِّدًا للفراعنة والجبابرة بالخوف والرهبة والرعب حتى يتأثر بمعنى هذا الضرب من الفن المصرى القديم ؟ ولكن أفى مصر الآن من الشعب من يستطيع أن يجد له معنًى أو تأثيرًا أو اهتزازًا إلا من القدم أو أخيلة القدم ؟ كلا ... كلا .

لقد ذهب كل هذا ، لقد دثر ، لقد باد . إن الأصول الفنية التى يكون بها الفن فنًّا قلما تتغير ، وهى ممكنة دانية فى كل الآثار على اختلاف أنواعها وبلادها وأراضيها وأديانها ، ولكن روح الفن هى دين المجتمع وعقائده وطبيعة أرضه وسائرُ أسباب حضارته ، وهى التى تمنح الفنان القوة والقدرة على الإبداع ، وهى التى ترفع فنه أوتضعه .

وإذن فدعوة الدكتور طه إلى الاستمداد من الفن الفرعونى - كما استمد « مختار » ، ثم دعوته إلى جعل اجتماعنا اجتماعًا إسلاميا ، ثم استمدادِنا أيضًا من الفن الإسلامى - تناقضٌ عجيب فى أصل الرأى ، لا يمكن أن يكون ولا أن يُعمل به إلا إذا شئنا أن نوجِدَ لمصر حضارةً مقلّدة ضعيفة ملفَّقة من أشياء ليست نتيجة ولا شبه نتيجة للاجتماع المصرى الإسلامى الحديث الذى ندعو إليه ويدعو إليه الدكتور طه حسين !!

وبشر أيضًا !!

يقول بشار بن برد لخَلَف بن أبى عمرو فى حديث جرى بينهما معابثة ومزاحًا :

أرْفق بعمرو إذا حركتَ نسبته　　　فإنه عربىٌّ من قواريرِ

وصديقى « بشر » قارورة عطر نشوان من نفحات روحه ، قارورةٌ عربيةٌ معربدةٌ تختال بطيبها تيّاهةً من الخفة والطرب . وأنا أرفق به ولكنه يأبى - كرمًا منه - إلا أن يتحطم فى يدى ليسكب طيبَه عليها فيعبَقُ بها ، ويبقى أبدًا يتضوع منها نسيما يسكر ، ويَعْلَق بهذا القلم من عِطْره أثرٌ خالد كرائحة الحبيبة فى ذكرى المحب ، و« للرسالة » بعد ذلك من شذاه ما يفور وما يتوهج وما يسطع من نضخ عبيره .

وبشر - هذا الإنسان الرقيق - يتجهم لى ويملأ علىّ « بريد الرسالة » زلزلة ورعدًا وبرقًا وصواعق ... ويبصرنى بفروق اللغة بين « وَضَع بحرًا » و« اخترعه » !! وأنا بلا شك لا أستطيع أن أشغل نفسى بتبصيره بمنطق اللسان العربى . ثم لا يكتفى بهذا بل هو يغلو فى تقديرى فيعدنى من « الخَلْق » الذى يقف على معانى الألفاظ العربية من « الإكباب على قراءة الصحف اليومية » !! كلا ، بل يجوز ذلك فيعلِّمنى مجاز العربية وحقائق بيانها ودقائق ألفاظها !! أوَّه ، بل هو يعرِّفنى بالقرآن لأنى « من عامة الناس فى هذا الزمان » ممن يفهمون القرآن - كلام الله - بما يغلب عليهم من عامية العصر !! ولا يكون كل ما يكتبه « بشر » من علمه هذا « إلا على جهة التسلى والتلهى » ! بلى ، فهو يرحمنى ويشفق على أن يدخل بى فى المقاييس العربية الدقيقة الغامضة التى تستهلك قوةَ العقل والإدراك ، فهو يأخذنى من قريب !! وأنا قد أخطأتُ وأسأتُ وأثمتُ وحَبِط عملى ، ومَحَقنى اندفاعى إلى شعر بشر « أتلمس » - هكذا قال بشر - أتلمس له الخطأ !!

ولا كلّ هذا أيها العزيز ، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ ، وأنا يابشر لا أطاولك فى علم ولا فقه ولا بيان ولا معرفة ، فأنت أنت ، وأنا حيث أنا من العجز والبلادة ، ورحم الله امرءًا عرف قَدْر نفسه .

ومن جَهِلتْ نَفْسُه قدرَهُ   رَأَى غيرُه منْه ما لا يَرَى

وأنا يا صديقى أقل شأنًا وأضعف من أن أجرى فى عنانك ، ولكنك - إذ كتبت ورددت وأعطيتنى فوق ما أستحق فى نفسى - تحملنى على المركب

الصعب ، فكان أولى بك أن تهملنى ، فأما إذ أبيت فلا بأس عليك إذا أنا أقحمت نفسى معك ، فاصبر على هذا البلاء « فالحرُّ يظلم أحيانًا فيَظَّلم » .

وقد زعموا - أيها العزيز - أنه كان رجل عِبَادِىٌّ بالحيرة البيضاء ، فلاقى ضحضاحًا من الماء لابد له أن يجوزه ويخوض فيه ، فاستعان الله وأقبل على الماء - وهو إلى الكعبين حسبُ - فلما دخله صاح : « الغريقَ ، الغريق ! » يستنجد أصحابه ، فتناولوه يسألونه : ما دعاك إلى هذا وليس غرقٌ ؟ فقال : « أردت أن آخذ بالحزم » .

وأنت - أيها الصديق - تأخذ بهذا الحزم ، فتهرول إلى « لسان العرب » ، و« أساس البلاغة » و« الألفاظ الكتابية » تحشد لى ماجاء فيها من مادة العربية فى قولهم « زلزل » ولا تكتفى بهذا بل تسعى إلى « الأغانى » (طبعة بولاق !) تقلب أوراقه ، تستخرج تراجم المغنين وأصحاب الملاهى كإسماعيل بن جامع وإبراهيم ابن ميمون الموصلى - وغيرهما فى دواوين العربية وأصولها - فتفلِّى ألفاظها وتجرى عينيك وراء إصبعك على حروف الكلمات عساك تقع على جملة يكون فيها « زلزل » وما يخرج منها وما يتداعى إليها ، ولا تكتفى أيضًا فتتناول من بين كتبك أحد فهارس القرآن الكريم - « وهو الحجة العليا فى مثل هذه المشكلات » - كما قلت وإن لم تقل - فتجد اللفظ فى آيات بينات منه . فتجمع ذلك كله فى مقالك - أو ردِّك علىَّ - حشدًا بارعًا عظيما تُضاهى به عمل « المستشرقين » الثقات الأثبات المتضلّعين المتقنين المجيدين ! الذين لا يدعون للحرف مكانًا إلا نبشوه وتقصوه ورموا بعضه فوق بعض « أخذًا بحزم العبادى ... » الذى عَرَفْت . وهو أسلوب فاسد عندنا لا يعول عليه فى الحجة ، وإنما هو أسلوب ضرورى حسن حين يراد منه المقارنة والتدبر لاستخراج المعانى من الألفاظ وبيان سرها من الحقيقة والمجاز ودقة التصوير للأغراض التى نصبت لها هذه الألفاظ .

والنصوص التى جمعتها وحشدتها ورتبتها تختلف فى حقائقها ومجازها فى العربية ، وأنت لم تشرح حرفًا واحدًا منها تبين عن وجه مجازه على العبارة التى وقع عليها ، ولو كنت فعلت ذلك أو أحسنته لطويت كل الذى نشرته علىّ وعلى

القراء ... تعلمنى به ماغاب عنى من « القرآن وهو فى صدرى ، والتفسير والحديث واللغة وهى شواغلى » - كما تقول - وأنا لا أضن عليك ، أيها الصديق ، بما يجعل لحشدك هذا - الذى رُعْتنا به حين قذفته علينا - قِرانًا ونظامًا يسلك فيه ويمضى عليه ، ويَعرف به من لايعرف سرّ البيان وكيف يكون مجازه على طريق اللسان العربى المبين !!

فأصل الحرف « زلزل » من « زلّ الشىء إذا زلق فتحرك فتدأدأ ، فمر مرًّا سريعًا فى ذهابه عن مستقره » . فلما ضعَّفت العرب الحرف ، فقالوا : « زلزل وتزلزل » ، ضاعفوا معنى هذه الحركة ، فكان معناها الحركة الشديدة العظيمة والاضطراب والتزعزع ، وتكرار هذه الحركة مرة بعد مرة ، حتى كأن بعض الشىء يَزِلُّ عن مكانه ، فينقضّ على بعض ويتساقط ويتقوض . وإذن ، فشرط مجاز هذا الحرف أن يكون لشىء يتحرك حركة عظيمة شديدة ، فالرجل يتزلزل ، والأقدام والأيدى والرؤوس والقلوب وما إليها من أعضاء الإنسان المتحركة حركة ما ، وكذلك الحيوان كالإبل جاء راعيها بها « يزلزلها » أى يسوقها سَوقًا عنيفًا كأنها تزلّ معه مرة بعد مرة ، والمكيل فى مكياله كالبُرّ والشعير ، كلٌّ يتزلزل لأنه يحرك فيتحرك ، والدار والأرض والدنيا كلها تتزلزل لأنها تتحرك أو يجوز عليها الحركة فيتهدم بعضها على بعض ، والنفس كذلك لأنها تضطرب فى حيزوم المحتضر اضطرابًا شديدًا يتجلى فى الكرب الذى يلحقه والضيق الذى يأخذه ، فينتزع الأنفاس ، ويضطرب القلب بالنبض الشديد ، ويزيغ البصر ، وتتحرك اليد والرجل فى الحشرجة حركة كثيرة شديدة بتردُّد النفس فى نزاع الموت والحياة . ومع ذلك فأنا أدع أشياء كثيرة لا أتناولك منها أيها الصديق .

أما الأُذن ... فالإنسان من بين جميع الحيوان هو الذى لا يحرك أذنيه البتة ، لا فى طرب ولا غضب ، فما بالك وهى ليست مجرد حركة ، وإنما هى حركة شديدةٌ مهدِّمة لأنها زلزلة . فإذا علمت ذلك وتلقَّيته وتدبرته وأحكمته ولم يأخذك العناد عليه عرفت أنه لا يمكن أن تقول « أُذنى زلزلت » لأن الزلزلة تتطلب أصلها المقرر وهو الحركة والانتقال والزّلةُ بعد الزّلّة من مكان إلى مكان ولو على وجه

المبالغة . فدع أذنك من آذان خلق الله الذين صورّهم فأحسن صورهم إن شئت . وأنا لا أصنع فى كلامك هذا تعبًا فأتلمس لك الخطأ كما تزعم ، ولكن انظر يابشر كيف يتكلم الشعراء عن الآذان وعن الزلزلة ؛ يقول بشار فى مغنية :

لعمرُ أَبى زُوَّارِها الصِّيدِ ، إنهم — لفى مَنظر منها وحسنِ متاعِ
« تُصلّى لها آذانُنا » وعُيوننا — إذا ما التقينا والقلوبُ دَوَاعِ
إذا قَلّدَت أطرافَها العودَ « زَلْزَلَتْ — قلوبًا » دَعَاها للوساوِس دَاعِ
يَروحون من تغريدها وحديثها — نَشاوَى ، وما تسقيهم بصُواعِ
لَعوبٌ بألباب الرجال وإن دنت — أطيعَ التُّقى والغىُّ غير مُطاعِ

فانظر صلاة الآذان بالخشوع والإنصات والسجود للصوت ، وتأمل زلزلة أوتار العود التى تزلزل القلب بوقعها وتوقيعها . وكيف أتم المعنى بذكر الوساوس وهى قلق واضطراب ... وأما أنت أيها العزيز .

فلا تذهبْ بحلْمِك طامياتٌ — من الخُيلاءِ ليس لهن بابُ
فإنك سوف تَحْلُمُ أو تَناهَى — إذا ما شبتَ أو شاب الغرابُ

* * *

الهجـــرة

يانبيَّ الله !!

إنّ الإسلامَ قد قَعَدَ به أَهْلُه ، والزّمنُ بالناسِ يعدُو ، والحياةُ فى العالم فكْرٌ يتحقَّق ، وهى عندنا حُلُمٌ يَتبدَّد ، هذه أُمَّتُك تملأُ الأرْض ، ولكن قد فرغت قلوبها من الإيمان ، والإيمانُ فى دِينك قولٌ وعملٌ ، كانت به المعجزةُ الإسلامية ولكنه عندنا قولٌ وجدَلٌ ، تكون به الفُرقةُ الجاهليّة ...

فاللهمَّ هِجْرةً كهـــجرَةِ نبيِّكَ بالعزِم والإيمان
اللهمَّ جهادًا كجهادِهِ يُجدِّد القلوبَ والأوطان

الشباب والأدب

الطفل حياةٌ صغيرة غضَّةٌ ليِّنةٌ تقبلُ التشكل وتطاوِعُ على ضغط البيئة التى تكتنفها وتُطيفُ بها وتميل عليها ، وبيئةُ الطفل هى أخلاق أبويه ، ومعاملتهما وحديثهما وما يحيط بهما من الأقارب والأصحاب والخدم وكل من يعود البيت من زوّاره . وقد حُمِّل الإنسان طبيعة التشكل من أَوَّل عمره ليكونَ بعدُ إنسانًا اجتماعيًّا مقتدرًا على التصرُّف فى نظام الجماعة بما لا يخرجه من جوّها ويقذفه وراءَ حدودها التى ضربتها عليها الأحوال الاجتماعية التى يتميز بها الجيل من الناس الذين يعاشرهم . وتتصل بهذه الطبيعة من قريبٍ طبيعة أخرى هى التقليد ، ليسوغَ له أن يَثْقف الحياةَ ويتلقَّفَ أسبابَها وطرائقها وأساليبها فى مدًى قصير ، فلا ينقطع دون إدراك الطلائع الإنسانية السابقة التى بدَرت أمامَه فى الحياة ومارستها وعملت لها وجددت فيها بعضَ ما يمكن تجديده فى نظامِ الجماعات . ولا يزال الإنسان - من أول عمره - خاضعًا خضوعًا تامًّا لهاتين الطبيعتين ولقانونهما المستبدّ ، حتى يأتى عليه زمان يستطيع أن يتحرر فى بعض نواحيه بالخضوع فى بعض النواحى للتشكل والتقليد فى زحمة الجماعات وضغطها لقانون آخر هو

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٦) ، ١٩٤٠ ، ص : ٣٠٠ - ٣٠٢

قانون الاستقلال الفكرى والعملى الذى تقوم عليه رجولة الإنسان وقوته ، ولكنه مع ذلك يبقى أبدًا متلبسًا بأسباب القوانين الأولى التى تخضعه وتأثيرها . فهو إذن لا يبلغ مرتبة الاستقلال إلا بعد أن يكون قد قبل من الأشكال - بالضعف والتقليد - ما لا يستطيع أن ينفك منه أو أن يتفصَّى [١] من قيوده التى تحبسه على ضروراتها ...

فمن هنا يَبين مقدار الخطر الذى تنذر به هذه الفترة الأولى من حياة الإنسان ، ونحن لا نستطيع أن نحدد عمر هذه الفترة ، ولكنها تستمرُّ على الأقل إلى نهاية رَوْقِ الشباب ما بين العشرين والثلاثين ، بل ربما جاوزت إلى نهاية العمر إذا ما انتكست الحياةُ فى الحىّ وصار إلى حيوانية آكلة شاربة غير مفكرة !

فالشاب حين يخرج إلى الحياة العقلية والفكرية تستهويه أسماءُ المفكرين من الكتاب والشعراء والفلاسفة فتستهيمه وتذهب بهواه وعقله إلى الأخذ عنهم والاقتداء بهم والسير على مناهجهم ، ولا يزال كذلك فى تحصيل وجمع وتأثر واتباع حتى يتكوَّن له قِوَامٌ عقلىٌّ يجرّئه على الاستقلال بفكره ورأيه ومذهبه . فالقدرة والأُسوة هى مادة الشباب التى يتم بها تكوينه العقلىّ على امتداد الزمن وكثرة التحصيل وطول الدُّرْبَةِ ، فإذا كان ذلك كذلك فالكتَّاب والشعراء والفلاسفة وأصحاب الرأى وكل من يعرض نتاجه العقلى للشباب ، ويكون عُرضةَ الاقتداءِ والتأسّى والتأثر - يحملون تبعة تكوين العقول الشابة التى ترث علومهم وأفكارهم ثم تستقل بها وبإنتاجها الخاص ، وكذلك يكون هذا الإنتاج الخاصُّ ضاربًا بعرق ونسب إلى الأصل الأول الذى استمد منه واتبعه وتَلَقَّى عنه .

هذا ... ، فتبعة الكتَّاب والأدباء أمانة قد تقلدوها وحملوها ، ثم ارتزقوا منها أيضًا وأكلوا بها وعاشوا فى الدنيا الحاضرة بأسبابها ، فهم على اثنتين : على أمانة قد فرض عليهم أن يؤدوها إلى من يخلفهم من الشباب الذى يتبعهم ويتأثر آدابهم ، وعلى شكر للمعونة التى يقدمها لهم الجيل الشاب الذى يبذل من ماله ليشترى

---

(١) يتفصى : يتخلص من القيود بفصمها .

منهم ما يكتبون وما يؤلفون وما يقدمون للتاريخ من آثارهم ليكسبوا به خلود الاسم وبقاء الذكر .

وشبابنا اليوم قد تهدَّمت عليه الآراء ، وتقسَّمته المدنية الأوربية الطاغية ، وهو لا يجد عصامًا يعصمه من التدهور فى كل هوة تنخسف بين يديه وهو مقبل عليها بشبابه ونشاطه واندفاعه وعنفوان قوته فى الشوط الذى يجريه من أشواط حياته . والمدارس فى بلادنا لا تكاد تعطيه من الرأى أو من الفن أو من الأدب ما يبلُّ أدنى ظمأه إلى شىء من هذه الأشياء ، وإذن فليس يجد أمامه إلا المجلات والصحف والكتب التى يقدمها له أصحاب الشهرة من كتَّابه الذين تُرفَع له أسماؤهم فى كل خاطرة وعند كل نظرة . وهو لا يَنى يستوعب منهم أساليبهم وأفكارهم وآراءهم وما يدعونه إليه من موائدهم .

فهل ينصف هؤلاء الكتاب هذا الشباب ؟ أتراهم قد عرفوا قدر أنفسهم عند الشباب فعبَّأوا له قواهم احتفالًا بشأنه وحرصًا على مصيره الذى هو مصير الأمة ومصير مدنيتها ؟ أنا لا أرى ذلك إلا فى القليل ممن عرفهم الشباب وجعلهم نصب عينه ، واتخذ أساليبهم فتنة يهوى إليها .

ناقد يتكلم

وأنا أدع أحد الكتاب من إخواننا الشآميين يتحدث عن بعض ما نحن بسبيله ، وهو الأخ « قسطنطين زريق » فى كتابه « الوعى القومى » فقد قال فى ص (١٦٢ - ١٦٣) :

« لسنا نعيش اليوم فى عصر ترف عقلى ورفاهية فكرية . فى عصور الترف والرفاهية قد يسمح للكاتب أن يقول : « لى الحق أن أكتب ما أريد وأعبر عما فى نفسى كما أشاء » ... إن عصرنا عصر أزمة فكرية وضيق عقلى . وكما أنه لا يسمح للناس فى زمن الأزمة المالية أن يبذروا أموالهم فى سبيل شهواتهم الخاصة وأمورهم التافهة ، فكذلك يجب ألا يسمح لقادة الفكر فى عصر الضيق العقلى والأزمة الفكرية أن يبددوا قواهم على المسائل الطفيفة والأبحاث الجزئية .

فعلى كل منا عندما يهم بكتابة مقال أن يتساءل بصراحة : « إلى ماذا أرمى ؟ أترانى أُضيف بمقالى فوضى إلى هذه الفوضى الفكرية التى يتخبط فيها عالمى ، وأقذف بعنصر جديد إلى العناصر التى تتطاحن فى محيطى ، فأزيد فى بلبلة أمّتى واضطرابها الفكرى أم أنا أعمل لتوجيه قوى هذه الأمة العقلية نحو فكرة صائبة أو عقيدة واضحة ؟

فإذا لم تكن غايته من هذا النوع الأخير ، فخيرٌ له وللأمة أن تظل كلماته مدفونة فى نفسه ، وأن يبحث له عن طريق آخر يخدم بها أمته ولغته » . ا هـ

إن هذه الكلمات القلائل التى ختم بها الأستاذ زريق بحثه عن الأدب الذى يقود الأمة وشبابها إلى إنقاذ المدنية العربية والإسلامية والشرقية من رَدَغَة الخبال [١] التى تورط أهلها فى أوحالها ومستنقعاتها – حقيقة بأن تكون من « محفوظات » كبار الأدباء الذين يرمون عن أقلامهم آراءَ وعقائد وأساليب لا يمكن أن تكون مما يحتملها مخلص لأمته ، ينظر إلى المستقبل الذى هو ثمرة الماضى والحاضر ، ونتاج اللّقاح الفكرى الذى تتقبله عقول الشباب حين تبدأ تتفتح عن أكمامها لتعمل عملها فى إنتاج الثمار إما غضًّا شهيًّا وإما فجًّا متعفنًا موبوءًا .

هل يمكن ؟

فهل يمكن أن يكون أدباؤنا ممن يتقبل النصح الخالص الذى لا تحمل عليه ضغينة أو رياء أو حيلة ؟ وهل يمكن أن يعرف أحدهم أن ليس فى الدنيا أحد هو أعلى من أن يتعلم ، ولا أحد أقل من أن يُعلم ؟ وهل يمكن أن تفرَغ النفوس التى تتخذها الكبرياء من الروح النّافشة التى لا طائل تحتها ؟

لقد جعلت مقامى فى هذا الباب مقام المذكِّر الذى يحب أن يؤدى واجبه لمن يقرأ كلامه ، فأنا لا أستطيع إلا أن أتكلم بكلامى وإن أغضَب من لا يرضى إلا بما يرضيه من الملق والدهانِ والمماسحة ، وقد انقضت أسابيع طوال من أسابيع الأدب وأنا أزداد كل يوم شكًّا فى مقدرة أدبائنا على الإنتاج الأدبى الرفيع

---

(١) رَدَغَة الخَبال : جاء فى الحديث : مَن قال فى مؤمن ما ليس فيه حَبَسه الله فى رَدَغَة الخَبال ، فسَّرها أهل الحديث بأنها عصارة أهل النارِ ، والأصل فى هذا الحرف : الطِّين والوَحْل .

الذى يمكن أن يخلد فى تاريخ الأدب ، وقد تتبعت أقوال هؤلاء وأساليبهم فلم أجد إلا كل ما يحفزنى على المصارحة والنصح وإبداء الرأى مكشوفًا غير مكفَّن .

وأنا لو كنت أحمل نفسى على تتبع هؤلاء واحدًا بعد واحد أنقد أقوالهم على التفصيل دون الجملة ، ثم أقيد ما أريد بالكتابة فى هذا الباب من « الرسالة » لما كفانى القدر الذى أكتبه ولما استطعت أن أستوعب الرأى فى كل ذلك على أسبوع أسبوع ، فلذلك تجنبت جهدى أن أعرض لأشياء كانت تقتضينى أسابيع فى تقصيها وتفصيل أجزائها ، وبيان مكان الفساد منها ، والدلالة على قلة عناية هؤلاء بقرائهم ، وصغر احتفالهم بالأدب الذى اتخذوه لهم صناعة عرفوا بها عند الناس ، حتى صاروا للشباب أئمة بهم يقتدون . نعم ، وكأنهم لا يعرفون أن ما يخرجونه للناس إن هو إلا غذاء جيل من الشبان يأخذ عنهم ويحتذى عليهم ، فإن يكن فى الذى يأتون به فساد فهو إلى إفساد الشباب الجديد أسرع ، وفى طبائعه اللينة أعمل وأوغل ؛ فأيُّما خطأ صغير منهم فهو عدة أخطاء كبار فى الذين يلونهم من الشباب المقلد المسكين .

إن أمثال الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والدكتور زكى مبارك والأستاذ الزيات وفلان وفلان من كبار الأدباء هم من هذه الأمة الشابة من الناس بمنزلة السراج الذى يضئ للشباب معانى الحياة المظلمة بالجهل ، فإذا انقلب السراج فإنما هو الحريق وانتشاره ومعمعته ومضغُه قوة الشباب بفكين من نارٍ حُطَمة .

الرحلتان

ويذكرنى هذا ما يقطع علىّ نهاية الرأى . فقد قرأت أخيرًا مقالتين ، إحداهما للدكتور طه ، والأخرى للأستاذ أحمد أمين ، وهما بهذا العنوان « رحلة » . وقد تعود الأستاذان أن يتقارضَا المقالات منذ أسابيع طويلة ، وأكثرا فى ذلك إكثارًا لا يمكن أن يُغْضَى عنه ، وكنتُ أحبُّ ألّا أعرضَ لَهُ لعلّه ينتهى إلى نهايته ، فإذا هو شىء لا ينقطع . فمن يوم أن كتب الأستاذ أحمد أمين ماكتب وسماه « مدرسة الزوجات » وقارضه الدكتور طه « بمدرسة الأزواج » ثم « مدرسة المروءة » ثم

« مدرسة ... » إلى آخر هذه الأشياء ، وافتتنا بهذه الطاحون التى تدور على دقيق مطحون قد فُرِغ منه – من ذلك اليوم وأنا لا أرى فيما يكتبان إلا استسلامًا للقلم وبدواته وبوادره ، واجتلبا فى ذلك من الرأى ما لا يستقرُّ ولا يتماسكُ .

وفى هاتين الرحلتين رأيتُ العجب !! فالدكتور طه مثلًا قد أطال فى تحقير مصر والزراية عليها وعلى أرضها بما احتمله عليه الغضب الذى رغب فى إنشاء مدرسة له يسميها « مدرسة الغضب » . رحل الدكتور طه بالسيارة فى الطريق الزراعية فغاظه التراب الذى يثور من حوله فيطلق لسانه بهذه الأسئلة « لماذا ندفع الضرائب » وفيم تنفق الدولة أموالنا ؟ وماذا تصنع الدولة ؟ ولماذا ننشىء الدولة ؟ » .

فليخبرنا الدكتور طه عن السبيل الذى نتّقى به الزراية على أرض مصر ! ماذا تصنع الدولة فى طريق عن جانبيه تلك الأرض الخصبة الواسعة التى تُسْقَى لتطعم أهل مصر من خيراتها ؟ كيف تتقى الدولة مرور الناس والدواب وأرجلهم تحمل أوحال الأرض الخصْبَة فتمرُّ بها على الطريق الزراعى الممهَّد ، فتأتى الشمسُ المصرية الملتهبة فتجفف الوحل فيثور ترابًا ؟ إن هذا كلام يقال فى البلاد الباردة التى لا تفعل الشمس فيها ما تفعل فى أرض مصر الغبراء ، هناك فى « قرية من قرى السفوا أو الدوفنييه أو الكانتال ، على قمة جبل من هذه الجبال التى ألف الدكتور طه الاعتصام بها إذا أقبل الصيف ، والتى فارقها فى الصيف وقلبه يتقطع حسرات » أو كما قال ... ! إن مثل هذا يجب أن يلغى من آراء أدبائنا ، إن لم يكن من أجل أنفسهم فمن أجل مَن يتولاهم من الشباب . وليس أكثر آراء الأستاذ أحمد أمين فى هذا المقال بأقل ابتعادًا عن الحق من الذى عرضنا له .

جناية !!

والأستاذ أحمد أمين هو الذى حمل على الأدب العربى ، وحقر الشعر الجاهلى ، ودفع بحجته فى وجوب نبذ هذا الأدب وذلك الشعر الجاهلى لأنه كان جناية على أدبنا . وأنا كنت هممت أن أؤدى واجبى للأدب العربى بإظهار فساد هذه الآراء التى لم تنضج ثمراتها ، ثم رجعت عن ذلك ، رغبة أن يترك مثل

هذا الرأى حتى يفنى فى نفسه ، لعلمى - بالاستنتاج - أن الأستاذ ليس أديبًا ناقدًا ، والناقد أديب مضاعَف ، وقدرته على الأدب أكبر من قدرة الأديب المحض . وقد أحببت أن أقف على كلمة فى مقالة الأستاذ أحمد أمين « رحلة » تدلك على أن رأى الأستاذ فى الأدب العربى والشعر الجاهلى رأى لا يؤخذ به ، فقد قال : « وهاهم أولاء رفقة كأنّ أخلاقهم سكبتْ من الذهب المُصفَّى ، وكأن شمائلهم عصرت من قطر المزن » وهى جملة لا ينطلق بها أديب متمكن البتة ، فما ظنك بأديب ناقد ، وأنا لا أعرف كيف يعصر قطر المزن (أى الماء) ، وهو لا يمكن أن يُعصر . ونحن لانشك فى أن الذنب ليس للأستاذ الجليل ، وإلا فهو ذنب الشيخ اليازجى صاحب « نجعة الرائد ، وشرعة الوارد ، فى المترادف والمتوارد » ... إلخ ، الذى ذكر هاتين العبارتين بنصهما وترتيبهما فى فصل « كرم الأخلاق ولؤمها ص ٧٠ الطبعة الثانية ، وهما من حشد الشيخ الذى لايقوم على أصل من البيان والبلاغة .

أَجَلْ ، إن كثيرًا مما وقع فى كتاب الشيخ اليازجىّ - على جلالته - إنْ هو إلّا مجازات واستعاراتٌ كأخيلِة المحموم مادَّتها من الهذيانِ اللغوىِّ الذى لا يَصِل إلى الحقيقة بأسباب من منطق العقل . والبلاغةُ ليست إلّا حفظ النسبة بين الحقيقة اللغوية والمجاز البيانى ، فكل ما لم يكنْ كذلك من المجاز والاستعارة فهو لَغْوٌ يتشدقُ به من ليس لَهُ طبعٌ أدبىٌّ رفيع . وجهدُ اليازجىّ كان حشدًا من كلامِ العصور المتقدمة فى العربية ، فأخذ من الجيد والردئ على غير نقد أو تمييز .

فكان واجبُ الأستاذ أحمد أمين - الزارى على الشعر الجاهلى وواصمه بالجناية على الأدب العربى - أن ينقُد مثل هذه العبارات الضعيفة المتهالكة التى لا تتصل بسبب إلى البلاغة العربية على اختلاف عصورها لا أن ينقلها إلى كلامه . وإلا فلينظر الأستاذ إلى أثر هذه المجازات فى بيان الشباب الذى يحبُّه ويعجب بأدبه ، ويتلقى كلامه بالإجلال وحب الاقتداء .

* * *

الشــعر والشــعراء

أخشى أن يكون أهمَّ أركان الشعر إحساسُ الشاعر بمعانيه إحساسًا كاملًا نافذًا متغلغلًا ، لا يدعُ للمنطق العقلى المجرّدِ عملًا فى تكوين شعوره . وليس معنى ذلك أن يَتَعرَّى الشعر من المنطق العقلى المجرد ، بل معناه أن ينقلب المنطق العقلى - بكماله وتمامه وقوته واستوائه واستقامته - حاسةً دقيقة مدبِّرة تعمل فى حياطة الإحساس والقيام عليه وتصريفه في وجوهه على هُدًى لا يضل معه ، فلا يشرُد عن الغرض الذى يرمى إليه فى التعبير عن الصور التى تنشأ لهذا الإحساس . وإذن فأكبَرُ عمل المنطق العقلى فى الشاعر أن يُمِدَّ الإحساسَ ، بما ليسَ لَهُ من الاستواءِ والاستقامةِ والسدَاد ، وكذلك تتداعَى إليه الألفاظُ التى يريدُ التعبير بها مقترنًا بعضها إلى بعض ، بحيث لا تخرج هذه الألفاظ فى الكلام حائرة قلقة ، تجول فى عبارتها من انقطاع الرباط الذى يربطها بالمعانى التى أحسها الشاعر ، فهاجتْه فغلبته فأراد التعبير عنها تعبيرًا صافيًا مهتزًّا متغلغلًا قويًّا ، فيه صفاءُ الإحساس ، واهتزازه وتغلغله وقوته .

وأداة المنطق العقلى هى اللغة ، والعقل بغير اللغة لا يستطيع أن يستوى ويتسلسل ويتصل ، ولا أن تتدفق معانيه فى مجراها الطبيعى .

فالمنطق العقلى كما ترى هو خزانة اللغة التى تمول الإحساس ، فهو يتقاضاها ما تستطيع أن تمده به من المادة التى تمكنه من الظهور والانتقال . فربما أخذ من اللغة ماهو « موصل ردىء » للإحساس ، وربما أخذ منها ماهو « موصِّل جيد » يستطيع أن يسرى فيه إلى قارئه أو سامعه ، فإذا عرفت هذا أيقنت أن الشعر يتصل أول ما يتصل بإحساس قارئه وسامعه ، فيهزه بقدر ما تحمل ألفاظه من إحساس قائله . فإذا أَخفق أن يكون أثره كذلك ، فمرجع هذا إلى أحد أمرين :

إما أن الشاعر لم يُوَفَّق إحساسُه فى الاستمداد من لغته ما يطابق الإحساس ويكون « موصِّلًا جيدًا » له ، لأن منطقه العقلى لم ينبذ إليه من مادته ما هو حق

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٧) ، ١٩٤٠ ، ص : ٣٤٣ - ٣٤٧

المعانى التى يتطلبها إحساسه ، هذه واحدة . أو لأن مادة هذا المنطق العقلى أفقر من إحساس الشاعر ، فهى لا تملك عندها ما يكفى للتعبير عن إحساسه ، فهذه أخرى . ولهذه العلة الأخيرة تجد كثيرًا من عامة الناس ليسوا شعراء ، ومع ذلك فربما كان أحدهم أدق إحساسًا وأعمق وأعنف ، ويكون إحساسه أحفلَ بالمعانى وأغنى ، وإنما يقطعهُ عن الشِّعر هذه العلَّة ، وهى فقر المنطق العقلى من اللغة التى هى مال له . أو انقطاع المنطق العقلىّ دون الوصول إلى المنطقة التى ينقلب فيها هذا المنطق - بكماله وتمامه وقوته واستوائه واستقامته - حاسة دقيقة مدبِّرة تعمل فى حياطة الإحساس والقيام عليه وتسديده للغرض الذى يرمى إليه فى التعبير عن معانى الإحساس ، كما قدمناه آنفًا .

وأما الأمر الثانى - الذى يُخْفِقُ بسببه الشعر فى التأثير - فمرَدُّهُ إلى القارئ أو السامع . فإذا كان إحساسُ السامع أو القارئ ضعيفًا بليدًا غثًّا ، فمهما يَأتِه من شعر حافل قوىٍّ عنيف دقيق العبارة عن إحساس شاعره - فهو لديه شىءٌ فاتِرٌ ضعيفٌ لا يهزُّه ولا يبلغُ منه ولا ينفذُ فيه ، وهذا الضرب من العامة الذين لا يتأثرون بالشعر لا يُعتد بهم ولا ينظر إليهم ، ولكن هناك ضربٌ آخر يكون بليغ الإحساس جيد التلقى ، صالحًا للتأثر بما ينتقل إليه من هزة الإحساس فيهتزُّ لها ويطرب ، وقد يكون مع ذلك خِلوًا من اللغة التى يعبِّر بها الشعر ، إذ ليس له منطقٌ عقلىٌّ سامٍ متخير للكلام يختزن اللغة لنفسه إذا فكَّر ، ولفهمه إذا حُدِّث أو أُنشد ؛ فهو ربما سمع الشعر الجيد فلم يبلغ منه المبلغ الذى أريد له هذا الشعر ، وكثر هؤلاء فى عصرنا هذا حتى سقط الشِّعر ولم يحفلْ به إلا قليلٌ ؛ وهم لم يكونوا كذلك إلا لفساد التعليم وقلة احتفاله باللغة وبيانها وأسلوب مجازها ، ولأن الجهلاء والسخفاء هم سوادُ الناس ، وفساد الطبائع فيهم راجعٌ إلى هذين : فمخالطة الجهالة تورث الجهالة والخبال ، وترك التعلُّم وسوء التعليم ذريعةٌ مفضيةٌ إلى الجهل والبلادة ، فكيف - مع هذين - يخلص أحدهم من فقر العقل وبلادة التأثر بالشعر البليغ الحافل بالإحساس المشبوب العنيف ؟

فأنت ترى : أن اللغة المتخيرة المرصدة للتعبير عن الإحساس تعبيرًا مسددًا

بالمنطق العقلى الذى لا يزلُّ على مدارج المجاز فتنقطع صلاتُه بحقائق المعانى التى وضعت لها هذه الألفاظ اللغوية ... ، ثم المنطقُ العقلى الذى يختزن هذه اللغة ، ويستطيع أن يتحوَّل حاسة دقيقة مدبرة تقوم على الإحساس وتحوطه من الضلال ... ، ثم المعانى التى يتمثلها إحساس الشاعر حين يَهيجه ما يؤثِّر فيه تأثيرًا قويًا عنيفًا - هذه الثلاثة هى ، مادة الشعر الجيد ، فإذا سقط أحدها أو انحط أو ضعف ، سقط الشِّعرُ بسقوطه أو انحط أو ضعف .

وأنا أقول : إن أكثر شعر العصر العربى الحاضر قد انحط وضعف وسقط ، لأن أكثر الشعراء قد بلغ منهم العيب مبلغًا أفسد كل ما يعتدُّ به من آثار « الشاعرية » التى بقيت فيهم ، ولم يخلص لأحد منهم جميع هذه الثلاثة التى ذكرنا . ولكن بقى لشاعرين أو ثلاثة مايمكن أن يُلحقهم بأهل المرتبة الأولى من الشعراء العبقريين ، وهذه المرتبةُ الأولى إنما نتخيلُها ولا نكاد نعرف أحدًا استوى عليها ، فملك فيها بيان العربية وشعرها يصرفهما كيف شاء ، فيكون فى تاريخ اللسان العربى عبقرية جديدة كامرئ القيس ، ومسلم بن الوليد ، والمتنبى ، وأبى نواس ، والبحترى ، وأبى تمام ، وغيرهم ممن يعد لسانًا وحده ...

شـــاعر !!

وأحد هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين سيدفعون أنفسهم فى مجاز العربية حتى يبلغوا المرتبة الأولى - فيما نتوهم - هو « محمود حسن إسماعيل » : فهو إنسان مرهف الحسّ دقيقه ، متوهِّجُ النفس ، سريع التلقى للمعانى التى يصورها له إحساسه ، وإن إحساسه لينشئ له من هذه الصور والمعانى أكثر مما يستطيع أن يطيق صبره ، وهو - إذ فقد الصبر على مطاولة هذه المعانى من إحساسه - تراه يثبُ وثبًا من أَول المعنى إلى آخره لا يترفَّق ، كأن فى إحساسه روح « قنبلة » . فلذلك تجد المنطق العقلى فى شعره متفجرًا أبدًا لا يبالى « أوقع على اللفظ من اللغة ، أم وقع اللفظ عليه » ، ولكنه على كل حال منطق يقظُ حساس بعيد الوثبة ، يحاول دائمًا أن يضبط هذا الإحساس الذى لا يهدأ ولا يستقر . وسينتهى - بعد قليل من المصابرة والمرابطة لإحساس مشاعره - إلى القدرة على متابعة إحساسه وكبحه وتزجيته على هدْى واحد مؤتلف غير مختلف ، وذلك حين يجتاز الشاعر

السن التى هى علة التوقد الدائم والاهتزاز المتتابع تتابع البرق إذا خفق وومض وضرب بعضه بعضًا بسياطٍ من الضوء فى عوارض السحاب ... وأما لغته ، فقد ملك منها مايكفيه بقدر حاجة بعض إحساسه ، فإذا امتدت يده إلى خزائن العربية التى لا تنفد ، وتداخل فى أسرار حروفها بالمدارسة الطويلة ، وتآمرت – ثلاثتُها – على تسنية الأبواب له واحدًا بعد واحد ، حتى يستطيع أن يستوى على سَرارة (١) المرتبة الأولى للشعر غير مدافع .

هذا ... وإن فى كثير من شعره الذى نشره إلى اليوم ، مايجعلنى على ثقة – إن شاء الله – من أنه مدرك ذلك لا محالة ، فهو قد استولى على كل ما هو به شاعر ، ولا أظن ظن السوء بقدر الله أن يكون هو قاطعه دون المنهج الذى تعبَّد بين يديه ، ولم يبق له إلا قليل حتى يبلغ الذروة العليا .

قصيدة الزلزال

وقد قرأت قصيدته (*) الأخيرة فى « فاجعة تركيا » – كما سماها – ثم سمعتها ، فوجدت لزامًا علىّ فى هذا الباب أن أثبت بعض رأيى فى الشعر والشاعر ، ثم فى « محمود حسن إسماعيل » خاصة ، ثم فى هذه القصيدة ، وقبيح أن يجهل مريدو الشعر الجيد هذه القصيدة الفذة ، التى تكشف عن السر المستكن وراء هذا الشاعر . وإذ قد عرضنا مرة لبعض الشعر الأسود المظلم ، فلا بد إذن من أن نمحو آيته ببعض آيات الشعر المشرق المضىء .

وقد كان « زلزال الأناضول » عذابًا من العذاب الأكبر بأهواله ، حتى قالوا إنه أشد ما عرف من الزلازل وأخطرها وأفظعها موقعًا وأثرًا ، وقد كان ما تنشره الصحف اليومية من أخباره هولًا هائلًا مفزعًا يكاد يجعل الولدان شيبًا . فلا شك إذن أن يكون هذا الرعب الراجف فى إحساس شاعر فزِعٍ « كمحمود » رجفة يُرعد بها رِعدة طائرة مدوية مصلصلة مجلجلة .

---

(١) سرارة كل شىء : أكرمه وخياره .

(*) وهى طويلة تزيد على ثمانين بيتا ، فلذلك لم نستطع أن نستوفى الكلام عنها وإنما دللنا على منهاجها وروعتها (شاكر) .

وأنت إذا بدأت القصيدة :

هات الشدائد للجريحةِ هاتها ... فالصبر فى الأهوال دِينُ أُساتها
واحشُد صروفك يازمان فربما ... لهبُ العظائم شُب من نكباتها
ولعلها خمرٌ تدور فيستقى ... خَمْرَ الكفاح الشرقُ من كاساتها

رأيت الأمر والنداء ، نداء الفزع الطامى بطغيان أمواجه على إحساس الشاعر ، فلم يملك إلا إسلام نفسه إلى اليأس ، فيستزيد من البلاء ويطلبه فيقول : « هات الشدائد » ثم يعود فيقول : « هاتها » ليثبت إيمانه بالصبر على هذا البلاء ، فهو إيحاء ، إذ قد يئس أن يصرف عن إحساسه ماطغى به عليه هول ما سمع من صفة الزلزال . ويَدُلُّك على أن هذا المطلع قطعة من اليأس ، عودتُه إلى الشك فى هذه الشدائد الموقدة بنارها ولهيبها ، والتى زلزلتْ أمةً من الناس فكانوا كما قال الله تعالى فى صفة زلزلة الساعة : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ . فكذلك عاد الشاعر يشك بعد طغيان البلاء عليه أن ينقلب كل ذلك الرُّعب الذى اضطرب به الناس سُكرًا يجرِّىء هذا الشرق المغلوب على الكفاح ، فى زمن يرمى من أهواله شدائد ترجف بالشرق رجفة كأشد ما رَجفتْ زلزلة الأناضول ، فلذلك قال : « ولعلها خمر ... » .

هى أمةٌ زلزلتَ جَنبَ مِهادها ... ونفختَ ريحَ الموت فى جَنباتها

وهذا البيت يكاد يكون الحد الفاصل بين يأس الشاعر الذى طغى عليه حتى أنساه روح الزلزلة التى كانت فى إحساسه ، وهو نفسه الذى يردُّه مرة أخرى فزعًا ثائراً متوثبًا تتقاذفه تهاويل إحساسه فى رعب بعد رعب .

شَوَّهتَ صَفحتها بمديةِ جازِر ... الرحمة انتحرت بحدِّ شَباتِها
مجنونةُ الحدّيْن لو هى لَوَّحتْ ... لانهَدَّ رُكن الأرض من حركاتها
ذئبية الشهوات جاع حديدُها ... وأراق جوع الوحش فى لَهَواتها

وهنا موضع يوقف عنده ، فإن المعنى الذى أراده الشاعر ، والصورة التى

نشأت من شدة إحساسه بهول الزلزلة طغتْ فلم يستطع المنطق أن يضبط اللغة على قياسها ، فهو يريد أن يقول : إنه يرى هذه المدية الصقيلة الذئبية الجائعة المهلكة المجنونة فيرى على حَدَّيْها وصفحتيها من فِرندها وضوئها ومائها ما ينسابُ ويتريَّق ويتلألأ ويرمى بأضوائه كأنه ضوء جائع يريد أن يلتهم كل ما يلقاه ، وذلك قوله : « وأراق جوع الوحش فى لهواتها » فقوله : « وأراق » هنا لا توافق المعنى ، وقد أوقعه عليها اختلاط « فرند المُدْيَة » – وهو ماؤها – بالمعنى الذى أراده ، ولو قال : « يذكى سعار الوحش فى لهواتها » أو ما يقارب ذلك لكان أجود . ثم يمضى الشاعر فى تصوير ماتخيله – حين فجأت الزلزلة الأناضول –:

والناسُ غَرْقى فى السكون سَجتْ بهم
سِنَةٌ يَنامُ الهوْلُ فى سَكناتِها
بَيْنا همُ فَوْق المهودِ عَوَالمٌ
غشَّى ضبابُ الصمت كل جهاتها
وإذا بقلبِ الأرض يرجفُ رجفةً
دُكَّ الصباحُ وذابَ فى خَفَقَاتِها
وانشقَّت الدُّنيا لديه فلم يَجِدْ
أرضًا يغيثُ النورَ فى رَبَواتها
فَطوَى المدائن والقرَى وهَوَى بها
فى سدْفَة تهويِ على ظلماتِها

... .

... ...

وبنى اللحودَ على المهودِ وهدَّها
فَنَضَا ستورَ الموت عن عَوراتها
زأرت جراحُ الأرضِ فاهتاجَ الردى
وتنهد الزلزال فى ساحاتها

وإذا الذى أتى به فى وصف الزلزلة إلى آخر القصيدة شىء هائل مخيف تقشعر

له الأبدان ، وتراه متدفقًا طاغيًا لا تكاد تقف على كلمة منه إلا مرتاعًا قد قفَّ شعرك [١] عن هول ما تنقل إليك ألفاظه من معاني إحساسه الثائر المتفجر :

أنفاسه لهبُ الجحيم وخطوه خطو المنايا السود فى فجآتها

إلى بعض القراء

... وبعد ، فإن العالِمَ الثقةَ الثبت المحقق الدكتور بشر فارس قد عَلِمَ فَعلَّمَ !! وأنا أشكرُ له ما علّمنى ، فأنا لا أحب أن أكون كالذى قيل فى أمره : « لا تناظرْ جاهلًا ولا لجوجا فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلُّم بغير شكر » . ثم بصَّر « بشر » أيضًا بما كنت أَجهل من العروض واللغة والبيان ، فأوغَرَ صدرى ، فنثرت حول قَهْرى ما ملكت من نُفاية الكلام وكذلك طوّقتُ نفسى به زينة وحِلية أتبرّج بها للناس أو كما قال ! وهو كذلك ...

فأنا أحمد الله الذى كفانى شر الغرورِ والخيلاء ، ولم يجعلنى كالجاهلة الخرقاء التى زعموها تأنَّقت بما ليس فيها ، ولا هو من طباعها ، حتى ضربوا بها المثل فقالوا : « خرقاءُ ذات نِيقة » [٢] ، والحمد لله الذى لم يجعلنى ممن يتزين بما ليس تملكه يداه ، فقد قال رسول الله ﷺ « المتشبّع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبى زُور » [٣] ، والحمد لله الذى جعلنى جاهلًا يعرف أنه جاهل ، ومن أين لمثلى العلم ؟ أليس قد « ذهب العلم إلا غبارات فى أوعية سوء » كما قال ابن شُبرمة فى رواية بشر فارس عن ابن شبرمة : (بريد « الرسالة » العدد ٣٤٦) .

وقد قرر الأستاذ بشر أنه بصرنى بأمور ثلاثة ، وأنى سلمت مرغمًا بأنه بصرنى بما كنت أجهل من أمرها !! وإذا قرر الأستاذ بشر فقد وجب عليّ وعلى الناس التسليم بما قرر ، أليس ذلك كذلك . بَلى ، ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ومع ذلك ، فمن غَلَبة الجهل علينا أن البحر الذى وضعه وسماه

---

(١) قَفَّ الشَّعْرُ : قام من الفزع .

(٢) قال الميدانى فى مضرب هذا المثل : « يضرب للجاهل بالأمر وهو مع ذلك يدعى المعرفة » .

(٣) « كلابس ثَوْبَىْ زور » مثل ، انظر الميدانى ٣ : ٣٥ .

« المنطلق » ، لا يزال عندنا وعند أصحابنا من علماء العروض هو من « مجزوءة المتدارك » أدْخَل الشاعر الأستاذ على ضربها العرج أو الفساد أو الخبن أو ما شئت فسمِّه ، ثم ألزمها ذلك فى سائر أبياته ، ثم قال إنه وضع بحرًا . ومن غلبة جهلنا أيضًا أننا نعده وزنًا ثقيلًا غثًا كسائر الأوزان الممكنة التى تركتها العرب لثقلها على السمع ، فلم تجزها فى شعرها ، ومن غلبة جهلنا أيضًا أننا لا نزال ندعى أن لن يوجد فى أصحاب الألسنة العربية من الشعراء المجيدين من يتابع النظم على هذا الوزن الجافى من « مجزوءة المتدارك » ، وكذلك أهملناه وسنهمله .

وأما حديث « الزلزلة » ، فلا نزال نقول إن كل حرف من حروف العربية ينقل إلى المجاز ، فهو يتطلب دائمًا حقيقته ، وإلا فسد مجازه . فإذا كان أصل الحرف « زلزل » وحقيقته : أن يزلَّ الشىء عن مكانه مرة بعد مرة ، أى أن ينتقل ويتحرك ويسقط ويخرج عن الموضع الذى يستقر عليه ، فلابد فى كل مجاز لهذا الحرف أن يكون مايقع عليه فعل الزلزلة - (أى نائب الفاعل أو المفعول) - شيئًا منتقلًا من مكان إلى مكان أو شيئًا يجوز أن ينتقل من مكان إلى مكان ، فهذا هو شرط المجاز أو الاستعارة فى هذا وأمثاله ، وإذ ليست الأذن كذلك ، فقولك « زلزل الطرب أُذُنى » مجازٌ فاسدٌ لأن الأذُن ثابتة لا تتحرك .

وإذا قال كتاب « خلاصة الطبيعة فى الصوت !! » فى باب « شرح عمل الأذن » إن الصوت يهزُّ غشاء طبلة الأذن حين تصكُّها الأمواج الهوائية التى يُحدثها مصدر الصوت ، فليس معنى « يهز الغشاء » هنا أنه ينقله من مكان إلى مكان آخر ، فإذا كان ذلك كذلك ، وكان غشاء طبلة الأذن مثبتًا لا يتحرك أى لا ينتقل من مكانه ، وإنما هو اهتزازٌ يلحقه ، فليس فى الدنيا « ناى » أو غيره يستطيع أن يجعله يتحرك أى ينتقل من مكانه ، ولو كان فى قلب هذا « الناى » عشرون فرقة من فرق « الجازبنْد » ... ولو كان ذلك فتحرك الغشاء قليلًا عن مكانه لتمزَّق وانخرَق ، وكان الصَّمم ، وإذن فليس يجوز فى العربية أن يقال « زلزل الطرب أو الناى غشاءَ طبلة أُذُنى » ! وإلا فهو مجازٌ فاسدٌ أيضًا .

وأما ما يقال من أن الزلزلة والطرب على مجاورة فى لغتنا !! فهو شىء لا أصل له ، وهى عبارة لا تؤدى إلى معنى ، وهو كلام « يدخل بعد العِشاءِ فى العرب » .

وأخيرًا ... ، فمن عظة نبينا ﷺ قوله : « من طلب العلم ليمارى به السفهاء ، أو يُباهى به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس إليه ، أدخله الله النار » . ونحن نعوذ بالله أن نخالف عن أمر نبينا ، أو نكون ممن يستخف بما أنذر به ، فنباهى الأستاذ بشر بما نعلم ، وإذن فلست أجعل حديثى هذا إلا للقراء وحدهم لأضع به عن نفسى أمانة العلم ...

حتى إذا ما الصباحُ لاحَ لهم ... بيَّن ستُّوقَهم من الذهب [١]
والناس قد أصبحوا صيارفة ... أعلم شىء بزائف النسب

فأستأذن القراء وأستغفرهم ، فأنا امْرُؤٌ لا يحب أن ينصب نفسَه لمَن هو عنده نفسُه أكبرُ من نفسه والسلام .

ابن شُـــبرمة !!

وما دمنا فى حديث أمانة العلم ، فقد رأيت أن الأستاذ المحقق « بشر فارس » روى خبرًا عن ابن شبرمة القاضى قدمناه آنفًا وهو : « ذهب العلم إلا غبارات فى أوعية سود » . وقد رأيت صاحب العقد الفريد (ج ١ ص ٢٠٥ طبعة بولاق أيضًا !) قد أورده بهذا النص عينه ، وهو يبدو لنا نصًا عربيًا مظلم النور .

وتحرير رواية الخبر : « ذهب العلم إلا غُبَّراتٍ فى أوعية سوء » بضم الغين المعجمة وفتح الباء المشددة . والغبّرات جمع غبّر ، وهو آخر الشىء وعقابيله وما يبقى منه . يريد ابن شبرمة : أن العلم لم يبق منه إلا قليل قد وقع فى صدور رجال من الفخار والخزف لا تضىء ولا تقبل الضوء .

وقد ورد هذا الحرف (غبرات) فى حديث عمرو بن العاص يقول لعمر بن الخطاب : « إنى والله ما تأبّطتنى الإماءُ ، ولا حملتنى البغايا فى غبّرات المآلى » .

---

(١) الستوق (بفتح السين وضمها) : الزَّيْف البهرج الذى لا خير فيه ، وهو مُعَرَّب .

والمآلى خرق للنساء يكون فيها الدم ، وغبّراتها بقايا الدم . ومن ذلك أيضًا قول أبى كبير الهُذَلى يصف ابن زوجته تأبط شرًا الشاعر الفاتك :

حَملتْ بِهِ فى ليلةٍ مَزْؤودةٍ ... كرْهاً وعقدُ نِطاقِها لم يُحللِ (١)

فأتتْ بِهِ حُوشَ الفؤاد مبطنًا ... سُهدًا إذا ما نام ليل الهَوْجَل (٢)

وَمُبرًّأ من كل « غُبّر حَيْضة » ... وفساد مرضعة ، وداءٍ مُغْيل (٣)

فهذا تحقيق رواية الخبر على التحرير والدراية ، فمن كانت عنده نسخة من (العقد الفريد طبعة بولاق !) فليصححه

* * *

(١) مزؤودة : فَزِعة ، نسب إليها الفزع لأنه وقع فيها .

(٢) حوش الفؤاد : وَحْشِىّ الفؤاد حديده . المبطَّن : الضامر البطن ، وهو مدح . السُّهُد : الذى لا ينام الليل ، من حذره وتوقُّده . الهوجل : الوَخِم الثقيل ، ونسب النوم لليلة لأنه يقع فيها .

(٣) مُغْيِل : من الغَيْل ، وهو أن تُغْشَى المرأة وهى تُرْضِع ، فذلك اللبن الغَيْلُ ، ومنه حديث النبى ﷺ « لَهَمَمْتُ أن أنهى عن الغَيْلَة » .

من مذكرات ابن أبى رَبيعة

الحقيقة المؤمنة

« قال عمر بن أبى ربيعة » ... فبادرت أعدو يكادُ ينشقُّ علىَّ جِلْدى من شدَّة العَدْو ، فقد أكلتْ منى السنُّ وتعرَّقتْنى (١) أنيابُ الكِبَر ؛ فما جاوزت رَوْضة قصر أمير المؤمنين حتى تقطعت أنفاسى من الجهد ، وتلقانى الآذِنُ : ماعدا بِكَ يا أبا الخطاب ؟ فقلت : إيذَن لى على أمير المؤمنين [هو الوليد بن عبد الملك] ، فقد نزل بنا ما لا ردَّ له ، وتبعتُه ... والله إنَّ فرائصى لتُرْعدُ وكأنى محمومٌ قد جرت عليه هبَّةُ ريح باردة ... وغاب الآذنُ : فما هو إلا أمير المؤمنين يستقبلنى كالفزِع ، وقد خرج إلىّ فقال : أىُّ شىء هو يا ابن أبى ربيعة ؟

قلت : والله ما أدرى يا أمير المؤمنين ، فما كان إلّا ومحمد بن عروة [بن الزبير] تحت سناكبها ، فما زالت تضربه بقوائمها ، وما أدركناه إلا وقد تهشم وجهه وتحطمت أضلاعه !! .

وكأنما فارقتنى الروح ، فما أشعر إلا وأمير المؤمنين قائم على رأسى ينضح الماءَ على وجهى ، وقد قُرِّبتْ إلىَّ مَجْمرَةٌ يسطع منها ريح المندَلِ الرطِب ، فلما أفقتُ ورجَعَتْ إلىّ روحى سألنى أمير المؤمنين أن أقصَّ عليه الخبرَ ...

قلت : خرجنا أنا ومحمد بن عروة وهشامٌ أخوه نريد منزلنا من قصر أمير المؤمنين ، نرجو أن نتخفَّف من بعض ثيابنا ، فقد أنهكنا الحرُّ ... فنظر محمد إلى مرآةٍ من فِضَّة مُجلوَّةٍ معلقةٍ فى البيت ، ثم قال : أتذكُر يا أبا الخطاب حَجَّتنا تلك قلت : أيَّتهنَّ ؟ فقد أكثرتَ وعمَّك الحجَّ ، فقال : سرعان ما نسى الشيخ ، لقد كبرت والله يا أبا الخطاب ! وقد حدثنى أبى بالذى كان منك ، فقد كنت تسايره

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٨) ، ١٩٤٠ ، ص : ٣٨٣ - ٣٨٥

(١) تعرق فلانٌ العَظْمَ : أخذ عنه اللحم

وتحادثه ، فلم تلبث أن سألته : وأين زينُ المواكب [١] يا أبا عبد الله ؟ فقال لك : أمامَك ، فأردت تركضُ راحلتك تطلبُنِى ، فقال لك : يا أبا الخطاب ، أوَلسنا أكفاءَ كِرامًا لمحادثتك ، ونحن أولَى أن تسايرنا ، فقلت له : بَلَى ، بأبى أنت وأمى يا أبا عبد الله ! ولكنى مُغرًى بهذا الجمال اتّبعهُ حيث كان ، ثم عدلتَ بِراحلتك وضربتها وأقبلتَ إلىَّ ، وجعل أبى يتعجب منك وَيضحك ، وقد استنار وجهه ... إحدى سوآتك هى والله يا أبا الخطاب ...

فضحكت لقوله وتناقلنا الحديث وإذا هو ساكنٌ ساجٍ كأنما غشيّته غاشية همٍّ ، فقلت : مابك يا محمد ؟ فزفر والله يا أمير المؤمنين زفرة كأنما انشقت لها كبدى ، ثم قال : أرأيت هذا الجمال الذى تبعته يا أبا الخطاب ، يوشك أن يكون طعامًا يلحسه تراب القبر فما ترى إلا عظما أغبر من جمجمة تقذف الرعب من محجريها . لقد روَّعنى والله يا أمير المؤمنين حتى تطيَّرتُ ومابىَ الطيرَة ، فأردت أن أصرفه عن بعض وهمه أن يكون الصيف قد أوقد عليه حرّه فحيّره . فانطلقنا جميعًا [يعنى هو وهشام ومحمد] إلى سطح البيت نستظل بظلّته ونستروح النسمات وأقبلنا نضحك ونعبث ونلهو من بعض اللهو ، وإذا طائر يحوم يصفق بجناحيه ثم رنّق فكسرهما من الإعياء ثم سقط ثم درج ثم اضطرب قد كاد يقتله الظمأ . فجرى إليه « محمد » ليأخذه فَيبُلّ ظمأه . فخفّ الطائر فهوى إليه محمد ليدركه ، فما نرى والله محمدًا .. قد اختطفه أجَله فجذبه فهوى به إلى اصطبل الدواب ، فيقعِ بينها فيثيرها فتهيج ، وإذا « زين المواكب » تحت سنابكها تضربه ، فما أدركناه والله يا أمير المؤمنين إلا جثة قد ذهب رأسها ، ومانرى إلا الدم ... رحمة الله عليه ، لقد ...

قال أمير المؤمنين : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، فكيف نحتال لهذا الأمر يا ابن أبى ربيعة ؟ قلت : فيم الحيلة يا أمير المؤمنين وقد ذهب القدر بما يُحتال له ! فقال : أههنا أنت ياعمر ، نمت وسار الركب ، هذا أبوه أبو عبد الله شيخ كبير يوشك أن يصاب فى نفسه ، قلت : يا أمير المؤمنين ، هذا

(١) كان محمد بن عروة يُسَمّى زين المواكب ، ربما لجماله وبهائه .

مصابه فى ابنه ، فما مصابه فى نفسه إلا أن يكون الخبر إذ يبلغه ؟ وسأحتال له . قال أمير المؤمنين : مهلًا ياعمر ، لقد علمت أن أبا عبد الله [عروة بن الزبير بن العوام] كان قد اشتكى رجله ومازال يشتكى ، فبينا نحن الساعة جلوس إذ دخل علينا « أبو الحكم » الطبيب النصرانى ، فاستأذنت أبا عبد الله أن يدَع « أبا الحكم » حتى يرى علة رجله ، فما راعنا إلا « أبو الحكم » يقول إنها الأُكلة ، وإنها قد ارتفعت تريد الركبة ، وإنها إذا بلغت الركبة أفسدت عليه جسده كله فقتلته ، فما بُدٌّ من أن تقطع رجله الساعة خشية أن تدب الأكلة إلى حيث لا ينفع القطع ولا البتر .

فوجَمتُ والله لهذا البلاء ، وقد اختلف به القدَر على شيخ مثل أبى عبد الله فى إدبارٍ من العمر ، وأخذ أمير المؤمنين بيدى وقام . فدخلنا مجلس الخلافة وإذا وجوه الناس قد جلسوا إلى عُرْوة أبى عبد الله يواسونه ويصبّرونه ويذكرونه بقدَر الله خيره وشرِّه ، وإذا فيهم سليمان بن عبد الملك أخو أمير المؤمنين ، وعمر بن عبد العزيز ، والقاسم بن محمد ، وعبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وقد حضره ولده هشام فأرَمَّ [١] قد انتُسف لونه من الحزن على أخيه والرحمة لأبيه . وأقبل أمير المؤمنين وأنا معه على عرْوة ، فتفرق الناس إلى مجالسهم ، وإذا عُرْوة كأنْ ليس به شيء ، يرفُّ وجهه كأنه فِلْقة قمر وهو يضحك ويقول : لقد كرهت يا أمير المؤمنين أن يقطعوا منى عضوًا يَحط عنى بعض ذنوبى ، فقد حُدّثنا أن أبا بكر قال : يارسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ ، فكل سوءٍ عملناهُ جزينا به ، فقال رسول الله ﷺ : غفر الله لك يا أبا بكر ؛ ألستَ تمَرضُ ؟ ألستَ تَنْصَبُ ؟ ألست تحزَن ؟ ألست تصيبك الَّلأْوَاءُ [٢] ؟ قال : بلى يارسول الله . قال ﷺ : فهو ما تُجزَون به ، فإن ذاك بذاك . لَوَدِدْت يا أمير المؤمنين أنها بقيتْ بدائها فهى كفَّارةٌ تحتٌّ الذَّنْبِ .

---

(١) أرَمَّ : جلس ساكنا لا يتحرك .

(٢) الَّلأْوَاءُ : الشِّدَّة

قال أمير المؤمنين : غفر الله لك ، غفر الله لك ، وما أعجبُ لصبرك ، فأمُّك أسماء بنت أبى بكر الصديق « ذات النِّطاقين » وأبوك حَوَارِيُّ رسول الله ﷺ وابن عمته الزبير بن العوام ، فرضى الله عنك وأرضاك يا أبا عبد الله .

فما كدنا حتى أقبل أبو الحكم ، وهو شيخ نصرانيٌّ طويل فارعٌ مَشبوحُ [١] العظام ، قد تخدَّد لحمه ، أحمرُ أزْهرُ أصلع الرأس إلا شعرات بيضًا قد بقيت له ، كثُّ اللحية طويلها ، لو ضربتها الريح لطارت به ؛ ودخل أبو الحَكَم وراء لحيته وهى تسعى بين يديه ، حتى وقف على عروة بن الزبير فقال : لابدّ مما ليس منه بُدٌّ يا أبا عبد الله ، وإنى والله لأرحَمك وأخشى أن يبلُغ منك الجهد ، فما أرى لك إلا أن نسقيك الخمر حتى لا تجد بها ألم القطع . قال عروة : أبْعَدَكَ الله من شيخ ، وبئس والله ما رأيت ! إنا والله ما نحبُّ أن يرانا الله بحيث نستعين بحرامه على مانرجو من عافيته ! قال أبو الحكم : فنسقيك المُرْقِدَ [٢] ، يا أبا عبد الله ! قال عروة : ما أحبُّ أن أُسْلَبَ عضوًا من أعضائى وأنا لا أجد أَلَم ذلك فأحتسبه عند الله .

قال أبو الحكم : وقاك الله يا أبا عبد الله ! لقد ألنت منا قلوبًا كانت قاسية ؛ ثم التفت (أبو الحكم) إلى رجال سود غِلاظ شداد قد وقفوا ناحية فقال : أقبلوا ، فأقبلوا ... فأخذتهم عينُ عروة فأنكرهم فقال : ماهؤلاء ؟ فقال أبو الحكم : يمسكونك ، فإن الألم ربما عزب [٣] معه الصبر ، قال عروة : أما تُقلع أيها الشيخ عن باطِلك ، انصرفوا يرحمكم الله ، وإنى لأرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى ، ولا والله ما يسعنى أن هذا الحائط وقانى أذاها فاحتمل عنى ألمها . أقبل يا أبا الحكم ، وخذ فيما جئتَ له ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

---

(١) مشبوح : عريض .

(٢) المُرْقِد : شيء يشرب فيُنَوِّمُ مَنْ شربه ويُرْقِدُه .

(٣) عزب (من باب ضرب ونصر) : بَعُدَ .

فرأيت أبا الحكم وقد برق وجهه وتوقد كأنما أسلم بعد كفر ، ثم نشر درجًا كان فى يده وأخرج منشارًا دقيقًا طويلًا صقيلًا يضحك فيه الشعاع ووُضع الطست ومَد أبو عبد الله رجْله على الطست وهو يقول : باسم الله والحمد لله وسبحان الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ . تقدم يا أبا الحكم فقد احتسبتها لله . فما بقى والله أحدٌ فى المجلسِ إلا استَدارَ ودَفَنَ وجههُ فى كفيه ، وبكى القوم فَعَلَا نشيجهم ، وإن عرْوةَ لساكن قارٌ ينظر إلى ما يرادُ به ، وكأنما مَلَكٌ قد جاء إلى الأرض يستقبل آلامها بروح من السماء . ووضع أبو الحكم منشاره فى اللحم إلى العظم ، وإن عروة لصائم يومه ذاك ، فما تضور وجهه ولا تقبض ، والمنشار يأكل فى عظمه الحى ، وما يزيد على أن يهلل ويكبر ويسبح الله ، وكأن الدار والله قد أضاء جوها كأنه شعاع ينسكب من تهليله وتكبيره ، ودخل رجال يحملون مغارف من حديد يفور منها ريح الزيت وقد غلى فيها على النار ، ودنوا فما هو إلا أن فرغ أبو الحكم وقد فار الدم منها وتفجر مثل الينبوع ، فأخذها أبو الحكم يغمسها فى الزيت فيسمع نشيشها فيه حتى حسم الدم . وإذا عروة قد غشى عليه ، وإذا وجهه قد صفِر من الدم ، وقد نجِدَ [١] فنضح وجهُه بالعرق ، ولكنه بقى مشرقًا نيرًا يرفُّ كأنه عَرارة [٢] تحت الندى . قال أبو الحكم : مارأيت كاليوم يا أمير المؤمنين إنه الرجل ، وإنها الحقيقة المؤمِنة ، وإن إيمانه ليحوطه ويثبته ويسكنه وينفض عنه الجزع ، ثم التفت إلى عروة يقول : جزاك الله خيرًا يا أبا عبد الله ، لأنت والله تمثال الصبر فى إهاب رجل .

وما لبثنا ، حتى إذا أفاق أبو عبد الله جلس يقول : لا إلٰه إلا الله والحمد لله ، ويمسح عن وجهه النومَ والعرق بكفيه ، وينظر فيرى قدمه فى يد رجل يهم أن يخرج بها فيناديه : على رِسْلِك أيها الرجل ، أرنى ماتحمل ؛ فيأخذ قدمه فى يده فيرنو إليها وقد سكن وحرّك شفتيه . ثم يقلبها فى يده ثم يقول لها : أما والذى

(١) نجد : سال عَرَقُه .

(٢) العَرارة : نبتة طيبة الريح ، وهى النرجس البرّى .

حملنى عليك ، لقد علمتِ أنى مامشيت بك إلى حرام ولا معصية ، اللهم هذه نعمة أنعمت بها علىّ ثم سلبتنيها أحتسبُها عندك راضيًا مطمئنًا إنك أنت الغفور الرحيم . خذها أيها الرجل ؛ ثم أضاءَ وجهه بالإيمان والصبر عن مثل الدرة فى شعاع الشمس ... ...

قال أمير المؤمنين : غفر الله لك يا أبا عبد الله ، وإن فى الناس لمن هو أعظم بلاءً منك ، ياعمر [يريد عمر بن عبد العزيز] ، ناد الرجل من أخوالى [يعنى من بنى عَبْس] فيقبل عمر ومعه رجلٌ ضريرٌ محطومُ الوجهِ لا تُرى إلّا دمامته ، فيقول لهُ أمير المؤمنين : حدّثْ أبا عبد الله بخبرك يا أبا صعصعة ، فيلتفت الرجل إلى عُرْوة ويُقبل عليه فيقول : ابنَ الزُّبير ، قد والله لقيتَ البلاءَ ، يافقيه المدينة وابن حوارى رسول الله ﷺ . وإنى والله محدثك عنى بخبرى عسى أن يرفع عنك : فقد بتُّ ليلة فى بطن واد ، ولا أعلم عَبسيًّا فى الأرض يزيد ماله على مالى ، فطرقنا سيلٌ جارفٌ كأنه الطوفان ، يتقاذف بين يديه موجًا كالجبال ، فذهب بما كان لى من أهل ومال وولد إلا صبيًا مولودًا وبعيرًا نِضوًا ضعيفًا . فندَّ البعيرُ يومًا والصبى معى ، فوضعته واتبعت البعير أطلبه ، فما جاوزت ابنى قليلًا إلا ورأسُ الذئب فى بطنه قد بعجها بأنيابه العُصل فاستل أحشاءه ، وإن الصغير ليصرخ ، ويركض برجليه الأرض ، فكدت والله أسوخ فى الأرض مما رأيت ، ولكنى ذكرت الله واستعنته واحتسبتُ الصغير فتركته لقدر الله واتبعت البعير ، فهممت آخذ بذنبه وقد أدركته ، فرمحنى رمحة حطم بها وجهى وأذهب عينىّ ، فأصبحت لا ذا مال ولا ذا ولد ولا ذا بصر ، وإنى أحمد الله إليك ، يا أبا عبد الله ، فاصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . قال عُروة : لقد أفضل الله عليك يا أبا صعصعة وإنى لأرجو لك الجنة .

قال عمر بن أبى ربيعة : وألاح إلىَّ أمير المؤمنين أن أقبل ، فدنوت إليه فأسرَّ إلىّ : إن أردت الحيلة فقد أمكنتك ، فاذهب إلى أبى عبد الله فانْعِ إليه ولده « زين المواكب » ، قلت : هو والله الرأى يا أمير المؤمنين ، ثم مضيت إلى عروة وقد غلبتنى عيناى بالبكاءِ .

فلما قاربته قلت : عزاءك يا أبا عبد الله ؛ قال عروة : فيم تعزينى يا أبا الخطاب ؟ إن كنت تعزينى برجلى فقد احتسبتها لله ، قلت : رضى الله عنك ، بأبى أنت وأمى ، بل أعزِّيك « بزيْن المواكب » ، فدهش وتلفَّت ولم ير إلا هشامًا ولده ، فرأيت فى وجهه المعرفة ثم هدأ فقال : ما لَهُ يا أبا الخطاب ؟ فجلست إليه وتحلّق الناس حوالينا وتكنَّفُونا ، وأخذت أحدِّثه بشأنه ، ووالله ما يزيد على أن يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنّا لله وإنا إليه راجعون ، فلما فرغت من خبرى ما زاد على أن قال :

وكنتُ إذا الأيامُ أحدثنَ هالكا ... أقول شوًى ما لمْ يُصبنَ حَميمى [1]

ثم رفع وجهه إلى السماء وقد تندّت عيناه ثم قال : اللهم إنه كان لى أطراف أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لى ثلاثة ، فلك الحمد فيما أخذت وأبقيت ، اللهم أخذت عضوًا وتركت أعضاء ، وأخذت ابنًا وتركت أبناء ، وأيْمُ الله لئن كنت أخذت لقد أبقيتَ ، ولئن ابتليت لطالما عافيت ، سبحانك ربنا إليك المصير . قوموا إلى جهاز أخيكم يرحمكم الله ، وانظروا لا تكون عليه نائحة ولا مُعْوِلة فإن رسول الله ﷺ نهى عن النياحة ، ومُرُوهنَّ بالصبر للصدمة فإن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكى صبيًا لها فقال لها : اتقى الله واصبرى ، فقالت : وما تبالى بمصيبتى ! فلما ذهب قيل لها : إنه رسول الله ﷺ ، فأخذها مثل الموت ، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوابين فقالت : يارسول الله لم أعرفك ، فقال ﷺ : إنما الصبر عند أول الصدمة .

وجزاك الله خيرًا عنى وعن ولدى يا أمير المؤمنين ، ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

* * *

(١) الشَّوَى : اليسير الهيِّن .

غُـبـَّرات لا غُبارات

قال شيخُنا أبو عثمان الجاحظ فى « كتاب الحيوان » يذكرُ مايعرض للكِتابِ المنسوخ من آفات الناسخين :

« ... ثم يصيرُ هذا الكتاب بعد ذلك لإنسان آخر ، فيسير فيه الورّاقُ الثانى سيرةَ الورّاق الأوّل ، ولا تزال تتداوله الأيدى الجانية ، والأعراض المفسدة ، حتى يصير غَلَطًا صرفًا وكذِبًا مُصْمتًا . فما ظنكم بكتاب يتعاقبه المترجمون بالإفساد ، وتتعاوره الخطّاط بشرٍّ من ذلك أو بمثله ... ، كتاب متقادِم الميلاد ، دهرىّ الصنعة » .

ولم يزل أئمتُنا وعلماؤنا وأصحاب العقل من شيوخنا ، يردُّون الكلام المنقول المكتوب إلى العقل - بعد التحرى للفظه المكتوب - اتِّقاءً لما عرفوه من تحريف الناسخين ، وانتحال المبطلين وغفلة الجاهلين . ونحن إنما نمضى على سنتهم - إن شاء الله - ولانقف عند القول نخرُّ عليه تعبُّدًا لحرفه ، وخضوعًا لنصِّه . ولئن فعلنا لمحق الله منا نصف العقل وبقى النصف الآخر متردِّدًا بين قال فلان وكتب فلان .

... وعلى ذلك ، فقد صححنا قول ابن شبرمة فى رواية صاحب العقد الفريد فى العدد (٣٤٧) من الرسالة ، فجعلناه « ذَهَبَ العلم إلا غُبَّرات فى أَوْعية سوء » ، ورفضنا نص العقد وهو : « إلَّا غبارات » . ثم رأيت فى البريد الأدبى من الرسالة (٣٤٩) كلمة الدكتور بشر فارس يردّ ما ذهبنا إليه بثلاثة براهين نثبتها بالترتيب من تحت إلى فوق :

الأول : أن الحرف (غبارات) قد وَرَدَ كذلك فى جميع نسخ العقد الفريد المطبوعة ، وكذلك فى مخطوطة منه بدار الكتب يُظَنُّ أنها كتبت فى القرن السادس .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٠) ، ١٩٤٠ ، ص : ٥١٣ - ٥١٤

الثانى : أن هذا النص يصحُ لغة وأداءً وبيانًا . وإذا صحّ كذلك فمن الاستبداد أن يُرَدّ على الهوَى .

الثالث : مخالفة نهجنا فى ذلك لنهج علماء الفرنجة (المستشرقين) . وجوابنا على الترتيب من تحت إلى فوق :

إننا أَدْرَى بأساليب هؤلاء الأعاجم – الذين اتخذوا العربية عملًا من أعمالهم – من أن نخالفهم فى الجيّد من مذاهبهم ، فتحرير النص ومراجعته على جميع النسخ التى ذكر فيها وما إلى ذلك ، عملٌ ضروريٌّ لكل باحث . ولكن هؤلاء الأعاجم تقعد بهم سلائقهم عن معرفة أسرار العربية ، فلم يتجاوزوا الوقوف عند النص المكتوب ، وذلك لعجزهم عن بيانها . فلما عرفوا ذلك من أنفسهم ، كان من أمانتهم أن يتوقفوا ، فلا يقطعون برأى فى صواب أو خطأ . وهى أمانة مشكورة لهم .

ولكن العربىّ إذا أخذ بأسبابهم ، فلا بُدَّ له من أن يهتدى بعربيته إلى ماعجزوا عنه بأعجميتهم ، فكذلك فعلنا فى كلمة ابن شبرمة وقلنا « إنه نصٌّ عربىٌّ مُظلم النور » . وبيان ذلك أنه ليس من قياس العربية أن يجمع « غبار » على « غبارات » ولا غيرها من الجموع ، وأن ابن شبرمة لم يُرِدْ تحقيرَ العلم نفسه فيجعل ما بقى منه « غبارًا » ، وإنما أراد أنه بقى من العلم شىء هو من صحيح العلم ، ولكنه وقع فى صدور رجال من أهل الباطل يفتونَ الناسَ ، يضِلّ بهم من يضِلُّ إذ يحسبونهم لا ينطقون بباطل ما داموا أصحاب فقه ودين وعلم . ولم تكن الشهادات وألقابها عُرِفتْ لعهد ابن شبرمة حتى تكون هى التى تقدر العلماء وتميزهم للناس ، وإنما كانوا يتميزون بالعلم ، فإذا لم يكن عندهم علم لم يعدهم الناسُ فى العلماء . ثم إن الغبارَ لا يمكن أن يُوكى [1] عليه فى وعاء حتى يصح أن يجعل – ما أغلقت عليه صدورهم من بقية العلم – غبارًا . فلو صح نص العقد لكان المراد تحقير العلم وأصحابه جميعًا .

---

(١) يُوكَى : يُرْبَط

وأخيرًا ، فنحن نرفض نص العقد من جهة بيان العربية وتحريرها ، ونقول : إنه لا يصح أن يروى إلا هكذا : « ذهب العلم إلا غُبَّرات فى أوعية سوء » . وإذا كان الدكتور بشر أو غيره يريد أن ينحاز إلى رأينا بنص آخر . فلا بأس علينا أن ندله عليه فقد روى ابن عبد البر فى كتابه « جامع بيان العلم وفضله » - المطبوع فى سنة ١٣٤٦ عن نسختين قديمتين : إحداهما للإمام الشيخ الشنقيطى وعليها خطه فى الجزء الأول منه (ص ١٥٣ سطر ٦) بإسناده إلى محمد بن سيرين (وليس ابن شبرمة) قال : « ذهب العلم فلم يبق إلا غبرات فى أوعية سوء » . فهذا نص ، وهناك نصوص غيره ؛ فمن شاء أن يبحث فليبحث ، ونصيحتنا إلى من عنده نسخة من العقد - أى الطبعات كانت - فليصححها بالذى أثبتناه ، وماسوى ذلك ، فهو - كما قال - أبو عثمان : غلط صرف وكذب مصمت ... والسلام .

* * *

العـــودة

إن بعض الحوادث فى حياة الرجل لتنزل منزلة الآية المحكمة : تنسخ ما كان قبلها ، ثم يأتى بعضها كالقنبلة : تخسف الأرض أمامه فلا يرى إلّا هوةً وغبارها ، فإذا تلاحقا لم يدر المرءُ ما يستدبرُ من أمره ولا ما يستقبل ، وإنما هو الحيرة والضلال والرُّعبُ ، والتردّى كلما أقدم أو أحجم ... بَلَى ، إن علينا أن نصارع الحياة بالقوة ، وأن نداورها بالحيلة ، حتى نخلص إلى الأرض المطمئنة ، ولكن هل يستطيع أحدنا بعد ذلك أن يصل إلى هذه الأرض ؟ لولا أن اليأس هو باب الموت ، لكان هو - فى الحقيقة - إحدى الراحتين ...

كـــتب

ولنعُدْ ... أصدرت المطابع المصرية فى الأسابيع الماضية طائفة كثيرة من الكتب العربية ، بعضها لأصحابنا من المعاصرين ، وبعضها مما أنقذه المعاصرون ، من المكتبة العربية المدفونة فى خزائن الكتب ، فنحن نختار من هذه الكتب ثلاثة يجرى الحديث فيها مجرى واحدًا فى الغرض الذى نرمى إليه ، وهى كتاب : « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » وهو دراسات لكبار المستشرقين مثل : بِكَر ، وجولد تسيهر ، ونلينو ، ومايرهوف . ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد الرحمن بدوى ، وكتاب « الرسالة » لإمام المذهب محمد بن إدريس الشافعى . نشره العالم المحدِّث الثقة الشيخ أحمد محمد شاكر ، وكتاب « الذخيرة » لأبى الحسن على بن بسام ، نشرته كلية الآداب مستعينة بمراجعة الأساتذة محمد عبده عزام ، وخليل عساكر ، وبخاطره الشافعى ؛ وأشرف على عملهم أساتذة الجامعة : أحمد أمين ، ومصطفى عبد الرازق ، وعبد الحميد العبادى ، وعبد الوهاب عزام ، وطه حسين .

وهذه الكتب الثلاثة لايجمَعُها بابٌ واحدٌ من حيث موضوعها ، فالأول آراء للمستشرقين فى فروع من الحضارة العربية والآراء الإسلامية ، ورسالة الشافعى هى

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥١) ، ١٩٤٠ ، ص : ٥٣٩ - ٥٤٢

أصل علم « أصول الشريعة » . والثالث فى تاريخ الأندلس ، وشعرائها ، وبلغائها ، وكتابها . فالذى حملنا على جمعها فى باب واحد من كلامنا هو الرأى فى المستشرقين ، وما يجب علينا أن نتابعهم عليه ، ومايبنغى لنا أن نحذره منهم .

المستشرقون

فقد قرأت مقدمة كتاب « التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية » - كتبها الأستاذ « بدوى » بحرارة الشباب التى تتضرم فى دَمِه ، وجعل يتهدّمُ فيها على التُّراث العربىّ بآراء كالمعاول : تضربُ فى الجِذع بعد الجذع على غير هُدًى ولا كتابٍ منير . فلما توغلت فى الكتاب رأيت أن آراء المستشرقين - الذين ترجَمَ لهم كلامهم - هى التى وضعتْ فى يديه هذه الفأسَ ليعمل بها ، ونحن لا نرى أن مثل ذلك مما يُضر بالتراث الإسلامى بشىء ، ولكنا نرى أنه يُضرُّ بأصحابه والعاملين عليه أوّل ، لأنه يأكل قواهم فى شىء لا يمكن أن ينال منه شىءُ ﴿ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ، والمُشْكلة كلُّها هى فتنَةُ أكثر الناس بأسماء المستشرقين ، وأن مايكتبون فى التاريخ الإسلامى والعربى ينزل من قلوب كثير من شبان الجامعة وغيرهم منزلة الكلام القُدْسى : تحريف معانيه إبطال لقوة « الاستشراق » التى فتنتهم . ونحن - حين قرأنا بعض آرائهم التى ترجمها الأستاذ « بدوى » - وجدناها عملًا صالح المذهب من ناحية مَدْرَجِه ، وأما من ناحية التحقيق العلمى ، والغاية التى يرمى إليها ، فهو عمل غير صالح . فكان هذا الذى عرفناه هو الذى دفعنا أن نخصص هذه الكلمة للكتب الثلاثة المذكورة آنفًا ، ولمذاهب المستشرقين فى تناول الكتب العربية القديمة بالتحقيق لنشرها ، ثم مذاهبهم خاصة فيما يعالجون من تاريخ الفكر الإسلامى أو الحضارة الإسلامية . وليس غرضنا هنا أن نعرض لنقد شىء بعينه من آرائهم ، وإنما نريد أن نثبت لهم حقهم الذى وجب لهم بما بذلوه من جُهْدٍ ، ونحذر شبَّاننا من الافتتان بباطل من باطلهم .

وينقسم أمر المستشرقين كما ترى إلى عملين : أحدهما عملهم فى الكتب العربية القديمة التى نشروها من بدءٍ توجههم إلى هذا الغرض ، والآخر ما كتبوه

من دراساتهم فى الآثار العربية ، وما أرّخوه من تاريخ الإسلام ، وتاريخ آرائه ومذاهبه العلمية والفلسفية .

نشر الكتب العربية

فالمستشرقون حين بدأوا فنشروا الكتب العربية القديمة لم يقَصِّروا فى بذل المال والوقت لاستجلاب الأصول التى يطبعون عنها هذه الكتب ، ثم يتفرغ أحدهم لمقارنة الأصول بعضها ببعض ، وإثبات الاختلاف بين النسخ الكثيرة التى تقع لهم ، وتحرير ذلك بالحرف والنقط والشكل على ماهو عليه فى أصل من الأصول ، وأمانتهم فى إبقاء المحرّف على تحريفه والخطأ على صورته ... إلى غير ذلك من الدقة والأمانة فى إعطاء القارئ صورة كاملة فى نسخة واحدة من الكتاب المطبوع لعدة نسخ مختلفة متباينة من الأصول المخطوطة . حتى إنهم ليثبتون فى « الهامش أو الاستدراك » ماهو خطأ بيِّنٌ لا يصح على وجه من الوجوه ، وإنما هو جهلُ ناسخٍ وإفسادُ كاتبٍ ، ثم لا يعطونك رأيًا يرجِّحون به لفظًا على لفظ ... وحتى إنهم ليثبتون الخطأ الصرف فى صلب الكتاب ويكون صوابه فى الاستدراك ، وحجتهم فى ذلك أنهم يعتمدون أقدم النسخ عندهم ، يطبعونها كما هى ، وأما اختلاف سائر النسخ فهو من حق المستدرك وإن كان هو الصواب الذى لاصواب غيره .

وهذا - على علاته - عمل جيد وأمانة صحيحة . ثم جاءتنا هذه المطبوعات فى بلادنا على فترة جهل وإهمال ، وعلى زمن كلُّ أصحاب المال الذين ينشرون الكتب فيه ، إنما هم عامة لا يعنيهم إلا الربح من طبع الكتب حروفًا قد جُمع بعضها إلى بعض على غير نظام ولا تحرير ولا فن . فلما قارن بعضنا هذا بهذا ونحن عرب وهم أعاجم لا يعينهم من عربيتنا مايجب أن يعنينا ، انبثق بثق الفتنة ، ومجد الناس همة هؤلاء المستشرقين الأعاجم - وحقٌّ لهم - وجعل جماعةٌ ممن لُبِّس عليهم يدفعون القول بعد القول فى تعظيمهم والمغالاة فيهم بغير الحق ... ثم مضى ذلك وانسحب التبجيل على آرائهم فى الفكر الإسلامى والتاريخ العربى كما انسحب على أعمالهم فى نشر الكتب ... وأين هذا من ذاك ؟

ثم انبثقَ بثقٌ آخر ، فظن بعضُ المغالين أنّ المذهب الذى سلكه المستشرقون فى التصحيح ، هو المذهبُ لا مذهبَ غيره ، وجعلوا يَنْعَونَ على مَنْ يخالفهم من أصحاب اللسان العربى فى طريقة نشر الكتب العربية . ومع ذلك فهم على الحق فى بعض مايقولون ، ولكنه ليس كل الحقّ ، فإن المستشرقينَ لم يذهبوا هذا المذهب ، ولم يقفوا هذا الموقف من اختلاف النُّسخ ، إلا لعجزهم عن ترجيح بعض الكلام العربيّ على بعض ، وذلك لعِلَل بيّنة : أولها جهلهم بالعربية على التمام ، فإن تمامَ العربية هو السليقة التى لا تكتسب ، كما أن تمام الإنجليزية والفرنسية هو السليقةُ والنشأة والاندماج فى الوسط الإنجليزى أو الفرنسى من بدءِ المولد والحضانة ، والثانى أنه قَلَّما يوجد فيهم المتخصص فى فقه علم بعينه حتى يكونَ حجّة فيه ، اللَّهمَ إلَّا أن تكونَ الحجة - عندهم - فى جمع نصوص كثيرة فى موضوع واحد من كتب شتى ، ولكنهم لايدّعون أبدًا أنهم أصحاب رأى فى البيان والتأويل والترجيح .

رسالة الشافعى

ويجب أن نضرب المثل هنا « برسالة الشافعى » التى طبعها العالم الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر ، فهو طبعها عن أصول مخطوطة ومطبوعة ، وأقدمها نسخة بخط الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى وراوى كتبه . فالأستاذ الشيخ شاكر حجة فى علم الحديث النبوى ، وفقيهٌ مُتْقِنٌ للسنة التى هى أصل من أصول الدين ، فلمّا تناولَ « الرسالة » يُعدّها للطبع لم يترُك شاردة ولا هائمةً من اللفظِ إلا رَدَّها إلى مكانها من عربية الشافعى وأصوله التى فى كتبه ، وأثبت الاختلاف ورجح بعضه على بعض ، وعمل فى ذلك عمل العقل المفكّر بعد أن ضبط كل اختلاف رآه إلى غير ذلك من أبواب التحرير والضبط . فإذا أنت قرأت الأصل دون التعليق رأيته قد سلم من كل عيب ، وصار بيانًا كله ، بعد أن كان فى الطبعة الأولى من « الرسالة » شيئًا متخالفًا يتوقف عليه البصير ، فما ظنك بسائر الناس ممن يقرأ وليس له فى هذا العلم قديم معرفة أو مشاركة ؟ وأنت إذا قارنت هذه الرسالة بأى كتاب من الكتب التى أتقنها أصحابُها من ثقات المستشرقينَ ، وجدت الفرق

الواضح ، وعرفت فضل العربى على الأعجمى فى نشر الكتب العربية ، إذا هو حمل أصولها على أصول الفقه والدراية والتثبت ، ولم تخدعه فتنة برأى لعل غيره أقوم منه وأجود .

وأنا أذكر بهذه المناسبة أن الأستاذ قد أرسل إلىّ فى (إبريل سنة ١٩٣٢) يسألنى عن كلمة وردت فى حديث من مسند أحمد بن حنبل ، ولم أكن قرأتها قبل ذلك ، فكتبت إلى الرافعى رحمه الله أسأله عنها وعرضت له مارأيت من رأى ، فخالفنى الرافعى ، ثم لم تمض أيام حتى وجدت فى الطبرى ما يوافق بعض رأيى أو يدل عليه ، وأبى الرافعى أيضًا . ثم لم ألبث أن وجدت نصًا بعينه على الذى رأيت ، وهذا الكلمة هى فى الحديث ... « رجل قد جرد نفسه ، قد (أطّنها) على أنه مقتول) ، فرأيت أن قراءتها : « أَطَّنَها » والهمزة فيها منقلبة عن الواو فهى « وطنها » وكذلك وردت فى الطبرى ، ولكن أصحاب كتب اللغة لم يثبتوا ذلك فى كتبهم كما أثبتوا « وكَدَّ وأكَّدَ ، ووثل وأثل » إلى غير ذلك . فأنت ترى أن الطبع والسليقة ربما هدت إلى ما لا يقع إلا بعض طول التنقيب والبحث والتجميع .

الذخيرة

وهذا أيضًا كتاب « الذخيرة » فإن الجهد الذى بذل فى تصحيحه وضبطه على الأصول المخطوطة التى طبع عنها وبيان اختلاف النسخ ، قد أوفى على الغاية ، وقلَّ من المستشرقين من يستطيع أن ينفذ إلى إجادة مثله فى التحرير ، ومع ذلك فقد وقع فيه بعض ماكان يمكن تجنبه ، لولا أن الأساتذة المصححين قد تهاونوا فى تحطيم أسلوب المستشرقين الأعاجم ، فى التوقف الذى لا معنى له عند العربى ، ونضيف إلى هذا علة أخرى ، هى أنهم ليسوا ممن تخصص لشىء بعينه من تاريخ الأندلس وأدبه ، فكذلك بقى بعض الخطأ كما هو ، وأُثبت على ذلك وليس له أى معنى . وترْك مثل ذلك للقارئ مما لا يصح ولا يستحسن ، ولنضرب لذلك مثلًا أو مثلين : ففى ص ٨٢ « ... دبّروا جميعًا عليه فقتلوه ليلًا ... » وفى نسخة أخرى « بدروا » ؛ وكلا الحرفين لا معنى له فى الجملة ،

والصواب عندى أن يكون « اندَرَأوا عليه ... » أى هجموا واندفعوا ، ومن قرأ النص عرف أن هذا هو حق السياق ، وكذلك فى ص ١١٠ « وفارس ميدان البيان ، وذات صدر الزمان » وفى نسخة « وأذات » وكلاهما ليس له معنى ، وهو محرف عن « ودُرَّة » أو أى شىء يكون حليًا للصدر ... ونحن لا نتتبع وإنما نقلب بعض أوراقه الآن على غير ترتيب ، ومع ذلك فهو أجود بكثير من أغلب كتب المستشرقين .

هذا ... ، وليس كل المستشرقين ممن يصح الاعتماد عليهم فى كل شىء ، فقد طبعوا كثيرًا من الكتب ... ، وأقل كتاب وأردأُه مما يطبع فى مصر هو خير من مثل هذه الكتب . فلو أخذت مثلًا « كتاب الزُّهرة » لابن داود الظاهرى ، الذى طبعه الأستاذ « لويس نيكل » بمساعدة الأخ « إبراهيم طوقان » (*) ، لوجدت أكثره خطأً ، بعد الذى بذله الأستاذ طوقان فى الاستدراك عليه ... ولو شئنا أن نضرب المثال بعد المثال على ذلك لضاق المكان عن إتمام ذلك .

مباحثهم

أما مباحث المستشرقين فهذه هى موضوع الإشكال كله ، والمستشرقون - كما لا يشك أحد - ثلاث فئات : فئة المتعصبين الذين تعلموا العربية فى الكنائس لخدمة التبشير ، وهم الأصل ، لأن الاستشراق فى أوله كان قد نشأ هنالك بين رجال الدين ... وفئة المستشرقين الذى يخدمون السياسة الاستعمارية فى الشرق العربى ، وفئة العلماء الذين يظن أنهم تجرّدوا من الغرضين جميعًا ...

فأما الفئة الأولى والثانية فما نظن أكثر أقوالهم فى المباحث الإسلامية إلا جانحًا إلى غرض أو مركوسًا (١) بقوله إليه ، وهم أكثرية المستشرقين ، ولا نظن أن كلام هؤلاء مما يمكن أن يعتمده أحدٌ إلا أن يكون مفتونًا جاهلًا . وأما الفئة

(*) ترجم الأستاذ بدوى هذا الإسم فجعله « توقان » !! شاكر .

(١) مركوسا : ركس الشىءَ وأركسه : قَلَبَه ورَدَّه إلى أوله . وفى التنزيل العزيز ﴿ والله أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا ﴾ ، أى رَدَّهم إلى الكفر .

الثالثة ، فهى أيضًا موضع الإشكال ، فمن غير الممكن فيما نظن أن يتجرد هؤلاء عن الغرض الخفى الذى يدب من وراءِ الكلام ؛ هذا على أنهم كما قدمنا ليسوا أصحاب سليقةٍ فى فهم النصوص العربية على التحرى لموضوعها ، وتمامِ الفقه لمعانيها التى يتعاطونها ، وإذن فمن واجب قارئ كلامهم أن يقف عند آرائهم موقف الناقد الذى لا يقبل إلا ما تقبله الطبيعة الفطرية للغة فى المعانى التى يستخرجونها من الكلام . ومع ذلك أيضًا فمن عيوب هذه الفئة أنهم ربما استخرجوا قولًا ضعيفًا فاسدًا ليس بشىء فى تاريخ الإسلام والعربية ، ثم يكتبون وقد اتخذوا هذا القول أصلًا ثم يجرون عليه سائر الأقوال ويؤولونها إليه ، ثم يحشدون لذلك شبهًا كثيرة مما يقع فى تاريخ مهمل لم يمحص كالتاريخ الإسلامى ، وكذلك يلبسون على من لا يعلم تلبيسًا محكما لأنه حشْد وجمع ، وتغرير بالجمع والاستقصاء الذى يزعمون . وسنتناول ذلك بعد قليل بعرض بعض الآراء التى ترجمها لنا الأستاذ بدوى فى كتابه لنحقق كل ذلك إلى نهايته ، حرصًا على أن نحصر الفساد فى أضيق محيط .

العقاد

وأنا لا أحب أن أختم هذا الحديث بغير مثل أيضًا . فهذا الأستاذ « العقاد » ، وكلنا يعلم أنه قلما كان يتناول الأغراض الإسلامية بالتحرير والبحث ، ولكنه منذ العدد الهجرى للرسالة كتب مقالة عن عبقرية محمد ﷺ العسكرية ، ثم عن عبقريته السياسية ، فاستوفى القول فى ذلك وأشبعه ، ورد كثيرًا من الشبه التى كان يلبس بها الأعاجم على الأغرار من شبابنا . وليس يستطيع مستشرق أن ينفذ فى فهم التاريخ العربى ، والاجتماع الإسلامى ، والفلسفة الإسلامية ، كما يستطيع كاتب قارئ مطلع كالأستاذ العقاد . ثم هو فوق ذلك أديب عربى يستطيع أن يجعل فطرته العربية الأدبية عونًا له على التغلغل فى أسرار تاريخية مطموسة ، لا يطيقها المستشرق لفقدانه مثل هذه الفطرة ، ثم لأن البيئة العلمية والاجتماعية التى نشأ فيها وتثقف على أساسها لا تطاوعه أو تلين معه ، حتى يكون فى نظره

إلى التاريخ العربى أو الفلسفة الإسلامية ، خَرَّاجًا وَلاَّجًا على طبيعة العرب وطريقتهم فى تداول معانى حياتهم ، وحياة أفكارهم وفلسفتهم . ونحن نرجو ألا يخلى الأستاذ العقاد مباحثه من هذا النوع الجديد من الفكر فى تاريخ تنقذف عليه كل يوم جهالات كثيرة مفسدة ليس لها أصل ولا بها قوة .

* * *

توطـــئة

كتبت – فى هذا الباب – منذ أسابيع بعض رأيى فى الشعر والشعراء ، ولم يكن همى أن أستوفى كل الرأى فيهما وليس من عملى الآن أن أفعل ذلك ، وإنما هى إشارات فى لمحات يأخذ بها من يأخذ ، ويدعها من شاء أن يدع ، وأنا أحب أن أقدم بين يدى كلامى ... فإن بعض من يغافل نفسه عن حدود الألفاظ ومعانيها ينطلق من ورائها يمد منها بأوهامه مدًّا بعيدًا حتى يخرج بما نكتبه عن المعنى الذى نريده إلى أحلام ووساوس وخطرات يحم بها ثم يغلى ثم ينتفض ... ثم لا يكون رأيه فينا إلا وهمًا ، من فوقه وهم ، من فوقه عناد ، ظلمات بعضها فوق بعض .

فأنا حين أهجم على الغرض الذى أريده من النقد أو البيان ، لا أتلجلج دونه لما أخشاه من قالة السوء التى يوكل بها بعض من فرغ زمانه إلا من الفراغ الذى يستهلكه فى اختلاق الأوهام واقعة وطائرة ، رائحة وغادية ، ثم هو يجلس إليها – بعد أن تفصَل عنه – ليتأملها ويملأ عينيه وأذنيه من مفاتنها وألحانها ! وأنا أحب أن يعلم من ليس يعلم أنى حين أكتب عن صديقى وكأن ليس بينى وبينه سبب من مودة ، وأكتب عن عدوى وكأن ليس بينى وبينه دخان من غضب ... فإذا خُيِّل لبعض من يتخيل أنى أماسح صديقى أو أتلفف على عدوى فقد أخطأ ، وإنما العيب منه لا منا ... وذلك عيب علمه أن هذا عدو وهذا صديق ، فيرى من وراء اللفظ ومن تحته ومن فوقه ومن بين يديه معانى ليست منه ولا تتداعى إليه ، وإنما نحن نستوفى الكلام ونعطيه حقه على وجوهه فى الرضا والغضب ، ونأخذ أنفسنا بذلك ما استطعنا ، فإن الحق فى هذا الذى نكتبه هو حق القارئ لا شهوات من يكتبه ؛ ثم هو بعد ذلك رأينا أصبنا أو أخطأنا ، وليس علينا أن نوافق هوى قارئ لأنه هواه ، بل علينا أن نجتهد له فى إمحاض الرأى الذى نراه ليأخذ منه أو يدع على قدر من اقتناعه أو مخالفته ؛ فهذه كلمة أُوَطِّئُ بها ما بينى وبين القراء ، ليسيروا إلينا ونسير إليهم فى مهاد مذلَّل من الرأى والنصيحة ...

ويعتَدُّه قومٌ كثيرٌ تجارةً   ويمنعُنى من ذاك دينى ومنصِبى

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٢) ، إبريل ١٩٤٠ ، ص : ٥٨٣ – ٥٨٦

الملاح التائه !

أمّا « الملّاح التائه » فذاك هو الصديق الشّاعر المهندس « على محمود طه » ، وقد عاد بعد خمس سنوات فألقى على شاطئنا ديوانه الثانى « ليالى الملاح التائه » ثم نشر شراعه ومضى . وقد أحدث ظهور هذا الديوان الجديد – فى معرضه الأنيق وشعره القوى الجميل – آثارًا فى توجيه أنظار الناسِ إليه وإلى صاحبه ثم إلى الشِّعر خاصة ، ثم اختلف الأدباء عليه بأحاديثهم وآرائهم ، ولَغَوْا لغوًا كثيرًا فى الأغراض التى اشتملتْ عليها ضفتا هذا الديوان الثانى فى شعر « الملاح التائه » . ونحن لن نعرض لشىءٍ مما قيل فى ذلك إلا كما يدرج الكلام على أغراضه بالإشارة والتنبيه والبيان على مجاز السياق .

والشعر أيضًا !

ولا بُدّ من أن نعود مرة أخرى للحديث عن الشعر عامةً ، ليكون بعض الرأى فيه مدخَلًا للكلام عن « الملاح التائه » ، فإن أكثر ماقيل – عن ديوان هذا الشاعر – إنما مردُّه إلى آراء فاسدةٍ فى معنى الشِّعر ، وماهو ، وكيف هو ؛ وإلى الجَهْل بطبيعة الشاعر وفطرته ومن أين تأتى ، وأنى تتوجَّه ، وكيف تجرى به إلى أغراضِها على نِظام لا ينفَكُّ عنه أراد أو لم يُرِدْ .

وليس يشكُّ أحدٌ أن الشِّعْر فى أصله هو معانٍ يريدُها الشاعِرُ ، وأن هذه المعانى ليست إلا أفكارًا عامّةً يشتركُ فى معرفتها كثير من الناس ، وأنها دائرةٌ فى الحياة على صورتها التى تأخُذُها بها كل عينٍ ، ويتداولُها من جهته كل فِكْرٌ ، وأنها – إذ كانت كذلك – ليست شيئًا جديدًا فى الحياة ولا فى معانيها وأوصافها وحقائقها ، وإنما تصيرُ هذه المعانى شعرًا حين يعرضُها الشاعر فى معرضٍ من فنِّهِ وخياله وأدائِه ولفظه ، فيجدد لك هذه المعنى تجديدًا ينقلها من المعرفة إلى الشعور بالمعرفة ، ومن إدراك المعنى إلى التأثُّر بالمعنى ، ومن فهم الحقيقة إلى الاهتزاز للحقيقة ، فتجد المعنى القريب وقد نقلك الشاعر إلى أغواره الأبدية وأسراره العظيمة وكأنه قد خرج عن صورته التى ضُربت عليه فى الحياة إلى السِّر

الأول الذى أبدع هذه الصورة ، وإلى الصلة التى تصل مابين المعلوم إلى المجهول البعيد الذى لا يُرى ولا يُلمس .

فالشعور والتأثر والاهتزاز هى أصل الشعر ، ولا يكون شعر يخلو منها ومن آثارها وتأثيرها إلا كلامًا كسائر الكلام ليس له فضلٌ إلا فضل الوزن والقافية وهذه الثلاثة لا يكتسبها الكلام من المعانى من حيث هى معان معقولة مدركة ، وإنما هى فيه من روح الشاعر وأعصابه ، ونبضات الشوق الأبدى التى تتنزَّى فى دمه ؛ فأيُّما معنًى عرفه الشاعر ، وأيُّما صورة رآها ، وأيُّما إحساس أحس به ، فهو لا يكون من شعره إلا حين يتحول فى روحه وأعصابه ودمه إلى أخيلة ظامئة عارية تبحث عن رِيِّها ولباسها من أسلوب الشاعر وألفاظه ، ثم تريد بعد ذلك زينتها من فن الشاعر لتفصل عنه فى مفاتنها الجميلة كأنها حسناء قد وجدت أحلام شبابها فى زينتها وأثوابها . وبقدر نقصان خزائن الشاعر مما تتطلبه أخيلته الظامئة العارية ، يكون النقص الذى يلحق العذارى الجميلة التى تسبح فى دمه من معانيه .

والشعر على ذلك هو فن تجميل الحياة ، أى فن أفراحها الراقصة فى نسمات من الألحان المعربدة بالحقيقة المفرحة ، وفن أحزانها النائحة فى هدأة التأملات الخاشعة تحت لذعات الحقيقة المؤلمة ، وفن ثوراتها المزمجرة فى أمواج من الأفراح والأحزان والأشواق ، قد كُفَّتْ وراء أسوار الحقيقة المفرحة المؤلمة فى وقت معًا .

وهو على ذلك فلسفة الحياة ، أى فلسفة السمو بالحياة إلى السر الأبدى الذى بث فى الحياة أسراره المستغلقة المبهمة التى تُرى ولا تُرى ، وتظهر ولا تظهر ، وتترك العقل إذا أرادها حائرًا ضائعًا مشردًا فى سبحات من الجمال تضىء فيه بأفراحها كما تضىء بأحزانها ، وتفرح بكليهما وتحزن ، فرحًا ساميًا أحيانًا ، وحزنًا ساميًا أبدًا .

وإذا كان الشعر هو فلسفة السمو بالحياة ، فمعنى ذلك أنه النظام العقلى الدقيق الذى يبلغ من دقته أن يكون منطقه إحساسًا مسددًا لا يخطئ ولا يزيغ ولا يبطل ولا يتناقض فى أسلوبه الفنى ونظامه الشعرى البديع ، وهذا النظام العقلى

النابض الذى يتلقف مادة أفكاره من الحياة لا يستطيع أن يشعر أحيانًا ، ولا يشعر أحيانًا ، كما قال بعضهم ، ولا يستطيع أن يتقيد بزمان ومكان يستوحى منهما الشعر ثم لا يكون هو يستوحى من غيرهما ، كما ذهب بعض أصحاب الكلام إلى القول حين ظهر « ليالى الملاح التائه » فى شعر الطبيعة المصرية ، وشعر الطبيعة الأوربية وما إلى ذلك من فضول الحديث .

إنّ هذه الحاسَّة العاقلة المفكرة النابضة فى الشاعر تأخذ مادتها من مَساقط الوحْى فى كل أرضٍ وتحت كل سماءٍ ؛ وربَّ خمول أو فَترة تأخذُ هذه الحاسة فى موطنها ومنشئها ومدْرجها ثم تكونُ البلادُ البعيدة فى مطارح الغُرْبة هى التى تنفُض عنها غبارها وتمسحه حتى تجلوها جلاء المرآة ، إعدادًا لها لتتلقى صُورها التى تجرى فى مائها إلى دم الشاعر ثم إليها مرة أخرى ، ولا تزال كذلك بين الأخذ والإعطاء حتى ينبثق ماء الينبوع من صخرة الحياة الشاعرة .

فلا يخدعنَّك مايقول فلانٌ وفلانٌ ، فإنْ هم إلا أسماء قد ركبتْ على ألقابها تركيبًا مَزجيًّا على خطأ وفساد ، كما ركِّبتْ حضرمَوت وبعلَبك تركيبًا مزجيًّا على صحة وصواب .

ليالى الملاح التائه

كل هذا الديوان شعرٌ من شعر « على طه » بعد رحلتيه من مصر إلى أوربا فى خلال هذه السنوات التى انقضت بعد نشره الجزء الأول من ديوانه وهو « الملاح التائه » . وقد كانت هاتان الرحلتان وحيًا جديدًا فى نفس الشاعر وأعصابه وأحلامه ، وكانتا تغييرًا فى حياته عامة وفى أفكاره خاصة ، ولم يكن بد إذن أن يجدَ قارئ هذا الديوان فرقًا بيّنًا بين شعر « الملاح التائه » و« ليالى الملاح التائه » . وليس هذا الاختلاف بشىء ألبتَّة ، فإن شاعريَّته لم تزل هى ما هى فى كليهما على نمط لن يختلف ، ولكنه نزع فى هذا الطَّوْر الجديد إلى السهولة والرِّقة ومعابثِة المعانى والألفاظ بغزل رقيق من عواطفه . وعلةُ ذلك فيما نرى أنه انطلق من قيود مصر فى أول رحلته وخرج شاردًا يستجلى روائع الحياة الأوربية الزاخرة ببدائع

الفن ومعجزات الحضارة والعلم ، ونزلَ المنازل المتَبرِّجة بفتَنها فى عواصم المدن الأوربية ، وعبَّ من مُسكرَاتِ الجمال الفطريِّ والصناعيِّ البديع الذى تستجيده أنامِلُ الحضارة الرقيقة العابثة اللاهية ، والتى لم تدع للفنّ مَعقلًا إلا لعبت به واستخرجت كنوزه وتلاعبتْ بها على أصول أخرى غير التى بنى عليها الفن القديم البارع المحكم ، وعرضت له الصور التى تفتن الناس بجمالها وتهدمهم بفتنتها ، وتقعُ فى دمائهم مؤقعًا لاتلبث معه إنسانية الإنسان أن تشتعل من جميع نواحيها بلهيب من اللذة والسكر والفرح ... كل ذلك هزَّه وهزَّ أعصابه وألقى عليه من وحيِهِ وتركه يقول من الشعر على السجية غير متكلِّف ولا مُنقِّح ولا راغبٍ فى الكد والعناء و ... ، والحنبليَّة الفنية التى تريد البديع ، فإذا أدركته طلبت الأبدع ، فإذا بلغت تسامت إلى ماهو أبدع منهما ، لا تهدأ ولا تقرُّ ولا تستريح إلى جميل .

كان هذا - فيما نرى - وكانت نفسه الشاعرة المتلقِّفة - والتى تهجم بعينيها على أَبكار المعانى بنشوة الشباب العِربيد - تتلفت تلفُّت الصائد ، تكاثرَ الصيد بين يديه ، فما يدرى ما يأخذ وما يدع ، وهو مع ذلك لا يزال يذكر صِغاره وأحبابه وهوى قلبه ، ومن يريد أن يصنع لهم حياةً من صَيده ؛ فهو يتلفَّت إليه بقلبه حنينًا وذكرى وصبابة . فهذه العواطف الدائبة فى تكوين شاعريته ، والتى تلوّنها بألوانها وتخاريجها ، هى التى جنحت به إلى السهولة والرقة والغزل الحُلو بينه وبين معانيه وألفاظه ، ومن غير الممكن أن يتقيد الغزل الشعرى بقيودٍ تضبطه ، وإلا انقلب تكلفًا واستكراهًا وجفوة .

الجندول

وإذا أردت أن تعرف صدق الذى قلنا به من العوامل الجديدة فى تلوين هذا الشعر ، فخذ هذه الأغنية الجميلة التى ترنَّم بها الشاعر الموسيقى ، ثم أعطاها الموسيقىّ البارع « عبد الوهاب » تغريدها فى ألحان هى من شعر الموسيقى ....

فإن الشاعر حين لعبت به فتن « عروس الإدرياتيك » فى كرنفالها المشهور ، ودَفِئ دَمُه فى أنفاسها الحبيبة المعطَّرة وفجأته فِتنة من فِتَنِهِ التى عرضت فى

صبابته ... أَرَقَّ فتنة فى أحلى جوٍّ فى سِحر الليل المضئ فى أجمل فن الحضارة فى أَحْفَل الليالى باللهو والعبث ، والضحكات التى تتردد بين أضواء الكهرباء حتى كأنها أمواجٌ من الضوء تضحك ضحكها - لم يستطع ضَبْط تلك الأمواج الفرحة المعربدة فى إحساسه الشاعر ، فبدأ يترنَّم :

أين من عينىَّ هاتيك المجالى　　　ياعروس البحر ياحلم الخيالِ
أين عُشَّاقُك سُمَّار الليالى　　　أين من واديك يامهد الجمالِ

ثم انطلق يصف عاطفته وجو عاطفته وعطر عاطفته ، كل ذلك بألفاظٍ غزلةٍ عاشقةٍ ، تتنفس أنفاسها من المعانى المرحة ، حتى فى بعض اللوعة المستكنَّةِ وراءَ نفسه ، والتى استعلنت فى قوله :

« أنا من ضيَّع فى الأوهام عمره »

بعد أن قال :

ذهبىُّ الشَّعر شرقى السماتِ　　　مرح الأعطاف حُلوُ اللفتات
كلما قلت له : خذ ، قال : هات　　　ياحبيب الرُّوح ، يا أُنس الحياة

كل ذلك والشاعر فى مرح ونعمة وخيال وافتتان ، وكأنَّه نسى الدنيا التى ولد فيها كما « نسى التاريخ أو أنسى ذكره » ... ولكن لا يلبث يتلفت بعد ذلك تلفتًا مؤثرًا عجيبًا ، هو دليل الشاعريّة الصحيحة التى اشتمل عليها تكوينه العصبى ... يقول :

قال : من أين ؟ وأصغى ورنا　　　قلت من مصر ، (غريب) هَهُنا

(غريب) ، هذه كلمة النفس الشاعرة فى مكانتها من ألفاظها وفى أقصى مدِّها من التأثير ، إنه حرف يبكى من الغربة والذكرى ، ولوسقطت هذه الكلمة من الشعر لسقط كل الشعر ولسقط معه رأينا فى العوامل التى عملت شعر « على طه » بعد رحلته إلى أوربا ، لو قال : (من مصر) وسكت ، أو أتى بذلك الحشو الذى لا معنى له ، والذى يكثر فى شعر الضعفاء ، لانسلخ عن الشعر إلى سؤال يتلقاه المرء من فضولى قائم على طريق السابلة ، وجواب استخرجه الفضول

واللجاجة ... ثم هى بعد ذلك التفات يخيل لك معه أن الشاعر قد رد فقال : من مصر ، ثم انفتل بوجهه إلى مصر ، وتلقى دمعة يموِّهها بيده ويمسح أثرها بمنديله - فى هذا الجو المرح العابث اللاهى - وهو يقول : (غريب ههنا) .

هذا ... وقد أخذت هذا الموضع وحده من القطعة لشهرتها الآن وليتدبر من يسمعها فإن فيها من أمثال ذلك كثير ، مما هو دليل الشاعرية الناضجة التى لا تخطئ معانيها . ولو أخذت سائر شعره على هذا الأساس الذى كشفنا لك عنه فى حديثنا عن الشعر لوقفت على روائعه التى هى روائعه .

* * *

الرأى العام

كتب الأستاذ « الزيات » فى العددين الماضيين من الرسالة كلمتين جليلتين ، إحداهما عن « التبشير » والأخرى عن « فقهاء بيزنطة » : أى فقهاؤنا وعلماؤنا . وهما تنزعان جميعًا إلى بيان أصل واحد ، وهذا الأصلُ هو غفلتُنا وإهمالنا ، ثم غثاثة آرائنا وضآلتُها ، وهذه مردّها إلى عِلل كثيرة قد توغّل داؤها فى أعصاب الأمم الإسلامية ، حتى صار الدواء لها باطلًا أو كالباطل ، وذلك لغلبة الجهل علينا ، وفى الجهل العناد ، وفى العناد المكابرة ، وفى المكابرة اللجاجة ، واللجاجة أمٌّ ولودٌ كل أبنائها أباطيل ، ومَنْ طَلَب علاج الأباطيلِ وترك أمهاتِها تَلِد ، فقد جعل علاجَه باطل الأباطيل .

وهذه الأمة المصرية وسائر الأمم الإسلامية قد خضعت من قرون طويلة لسيطرة الجهل وبغيه ، وامتدت عليها حقبٌ طويلة أظلّتها بالغفلة والنسيان والموت ، وحجبت دونها شمس المعرفة ونور العلم ، حتى انحنت على أساطير التراب تجدُ فيها كل معانى الفكر والعقل والقوة ، وصار همُّها الأرضَ وما تنتج مما يكفى شهوات النفوس المشتغلة باللذة ، أو يردُّ مسغبة النفوس المحطَّمة بالعمل . ثم جاءت الذئابُ الذكية العاقلة المدبّرة ، فعرفت صيدها وقالت له : اعمل عَملك ، فهذا طريقُك ، ولكنها خشيتْ أن تتمزَّق الظُّلَلُ وتسقطَ الحُجُب ، وتهبَّ تلك القوة العلوية الرابضة فى دمِ الإنسان ، فترى أشواقَها فتندفع إليها اندفاعَ الوحش المجوَّع فى مَهوى الريح التى تحملُ أنفاسَ فريسته ، وعندئذ تعجزُ الحيلة فى دفع هذه القوة وردّها إلى ماكانت عليه تحت أطباق الخمول والخمود والغفلة . وعمِلَ ذكاءُ الذئاب عمله ، ورأى أن قمع القوة العلوية بالاستبداد والفجور فى الاستبداد هو الشر عين الشر ، وأنه كقمع البخار فى قماقم الحديد ومن تحتها جاحم من النار يتضرم ، فما يعقب إلا الانفجار والتصديع والأذى .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٣) ، ١٩٤٠ ، ص : ٦٢٠ - ٦٢٢

فنكبوا عن ذلك إلى تصريف هذه القوة العلوية حين تستيقظ فى هذا الشرق تصريفًا يكفل لهم معها أمرين :

الأمر الأول : التنفيس عن هذه القوة ، واتخذوا لذلك أبرع الأساليب ، فحاولوا أن يظهروا وكأنهم هم الذين يعملون على إزالة غشاوة الجهل عن العيون المحجبة ، فأنشأوا المدارس وتلبّسوا بالنصيحة للتعليم فى معاهده كلها ، وجعلوا خلال ذلك يضعون ويقررون أصولًا تؤدى بهم إلى أغراضهم ، ليسيروا بالتعليم إلى حالة ترضيهم وتنفعهم ، فلا يخرجون من هذه المعاهد جيلًا يقف أمامهم كما تقف القوة للقوة وكما يناهض العقل العقل ، ثم يزاحم فى إنشاء الحضارة بالقوة العاملة والفكر المبدع .

والأمر الثانى : وهو بناء على ذلك البناء ، وذلك اجتهادهم - بكل أساليب التنبيه والدعاية والمثال وغير ذلك - فى توجيه الرأى العام فى نواح بعينها إلى العصبية الفردية والإجماعية ، ثم صرف هذا الرأى العام - أى أهله - عن الاهتمام بتقرير الأصول العامة التى تسير عليها السياسة الخلقية والعقلية والإنشائية والعملية ، وعن العمل فى توحيد الرأى العام للشعب توحيدًا يكفل للأمة أن تستغل كل قواها فى تدبير المستقبل على نظام ثابت مستقر ماض على أسبابه إلى النهاية غير مختلف ولا متنافر .

وقد كان من نتائج هذين الأمرين العظيمين - حين استيقظنا وأبصرنا - أن تعددت الثقافات فى الشعب الواحد ، وتنابذت العقول على المعنى الصحيح ، واختلفت المناهج المفضية إلى الغايات ، وعاون ذلك ما ورثناه من الجهل الداعى إلى العناد والمكابرة واللجاجة ، فاستشرَى داء العصبية وأصبح العمل عندنا لا يكون عملًا حتى يحاول أن ينقُض كل ماسبقه من العمل ، وتعاقبت على الأمة أطوارا بعد أطوار ولا تزال فى عهد الإنشاء ، ولا تزال اللجان تجتمع عامًا بعد عام لتقرر وتضع ، وليس إلا التقرير والوضع وَحَضَانة المذكرات !!

وكذلك اختل نظام الرأى العام . وهو لا يكون إلا من اشتراك الجماعة فى الأصول الثقافية كلها ، واختَل أيضًا مكوِّن الرأى العام ، وهو الصحافة وما ينزل فى

ذلك منزلتها ، فتكَوَّن من الصحف المختلفة المبادئ آراء متخالفة ، لا بل متباعدة ، لا بل متعادية ، كلا بل هى فى الواقع لا تمس جوهر حياة الشعب العامل المستَهلَك فى الزراعة والصناعة والجهْل أيضًا ... وحتى لا نجد صحيفة واحدة قد بَنَتْ دعوتها على أصولٍ بيِّنة موافقة لحاجة هذا الشعب ، وعلى هذه الأصول تأخذ وتدع ، وتحبذ وتنقد ، وتهدم وتبنى ، على تعاقب السنين وتغير الظروف والأحوال .

التبشير

وأحدُ الأمورِ التى ابتُغِى بها العملُ على إضعافِ الشعب والتفريق بين أهله ، وإيجادُ ضروب من الثقافات فى بلد واحد يجب وجوبًا قطعيا - كما يقولون - أن تتوحد ثقافته - هو ما اتخذوه من التبشير ومدارسه المختلفة ، وما يبطن أصحابها وما يظهرون . وليس التبشير هو الدعوة الصريحة إلى الدين المسيحى ، فإن هذا لا يمكن أن يكون فى بلد جل أهله من المسلمين ، وخروج المسلم من دين الإسلام إلى دين غيره يكاد يكون مستحيلًا فى العامة من الشعب ، ويكاد لا يصح عند المتعلمين وأشباه المتعلمين وهذه حقيقة يعرفها المبشرون قبل أن يعرفها المسلمون ، وإذا فليس الغرضُ من التبشير هو المفهوم من لفظه ، ولكنه الذى أشار إليه الأستاذ « الزيات » فى مقاله ، ثم إيجاد ضرب من الثقافة الأدبية والخلقية والعقلية يناقض ضروبًا أخرى من الثقافات المختلفة فى مدارس الأجانب والمدارس الوطنية ، وبذلك تتعدَّد المناهج الفكرية فى حياة الشعب ، ويعسر بعد ذلك أن تتحد هذه الثقافات على رأى عام يقوم عليه الشعب ويحرص على تنفيذه ، ويأخذ فى الإعداد للوصول إليه درجة بعد درجة . وكذلك يبقى الشعب إلى النهاية وهو فى بدء لا ينتهى وفى اختلاف لا ينفضُّ ، بل يصير ولابد إلى المعاداة والمنابذة والأحقاد التى تؤرثها السياسة الاجتماعية الخفية التى طغت على الشرق من قِبَل حضارة قوية باهرة عظيمة كالحضارة الأوربية .

ولا يزال أهل الشرق مختلفين ما بقيت هذه الثقافات المتعددة من مدارس التبشير إلى المدارس الإلزامية ، تمد الرأى العام بأصحاب الآراء المختلفة والعقول

المتباينة . ولن يصلح أمر هذا الشعب حتى يناهض ذلك كله بانصرافه إلى مدارسه ابتغاء توحيد ثقافته على أصل واحد . والأصل الضعيف الموحد فى ثقافة الشعب خير وأنفع من الأصول المتعددة القوية ، لأن هذه تغرى بالتفرقة والعداء ، وذلك يؤلف ويوفق ويضم أشتاتًا ويقيم القلوب على الإخلاص والتفاهم .

فقهاء بيزنطة

وهذا مثل جيد ضربه الأستاذ الزيات لاختلاف عامة المسلمين على بعض أحكام الفقه الإسلامى والسنة النبوية ، وبغى بعضهم على بعض فى ذلك ، وتركهم الأصول الإسلامية التى ترفع المسلم إنسانية فوق إنسانية ، وتمحّصه من الجهل والضعف والفساد والذلة وكيف يختلف علماء المسلمين على فروع من دينهم ويدعون الأصل لا ينفذ نوره إلى قلوب هذه الملايين من المسلمين ، فيطهر أدرانها ويزيل غشاوة العمى التى ضربت عليهم أسدادها .

وضرب الله مثلًا فقال : ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

فقد بين الله سبحانه أن اختلاف من سبقنا لم يكن إلا بغيًا من بعد أن جاءهم العلم ، وأنه جعل المسلمين على شريعة من الأمر . وحق ذلك ألا يقع الاختلاف بين المسلمين إلا فى رأى لا يفضى إلى فرقة ، وعلى ذلك كان السلف من أصحاب رسول الله ﷺ فاتبعوا قوله : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » ، وقد نهى عن الجدل والمراء وتناهى أصحابه عنه حتى قال ابن عمر : « لا يصيب الرجل حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وهو مُحِقّ » .

ونحن قد صرنا الآن إلى زمن قد غلبت فيه بدع كثيرة ليست من الدين ولا تنزع إليه ، ولكنها من محدثات الأمم وفتن الأهواء . ونحن أيضًا فى زمان ضعف وقلة وتفرق ، والأمم من حولنا تتباغى على أنفسها وعلينا ، فما يكون

اختلافنا على البدع والمحدثات وبغى بعضنا على بعض - ومصير ذلك كله إلى العداوة والبغضاء وأن يكفر بعضنا بعضًا - إلا إعانة لهؤلاء على النيل منا ما شاءوا . ثم نحن فى زمان جهل بالدين ، فليس من أمر الله أن ندع أصل الدين مجهولًا ، وننصرف إلى فروع نحاول على إبطالها أو تحقيقها .

وقد روى البخارى : « قال رسول الله ﷺ اقرأوا القرآن ما ائتلفت قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه » ، فإذا كان من سنة رسول الله ﷺ أن يحسم أصل الخلاف بترك مجلس الخلاف فى القرآن وهو أصل الإسلام كله ، فأولى أن نقوم عن مجلس الخلاف فى فروع وسنن ، لئلا يفضى ذلك إلى مثل الذى نراه بيننا اليوم من التعاند على بعض السنن بالعداوة ، حتى صار لكل صاحب رأى فريق يحامى دونه ويعادى عليه ، ثم يقع بعضهم فيما هو أشد نكرًا من أصل الخلاف ، ألا وهى الغيبة والتفريق بين المسلمين .

سياسة الإسلام

والإسلام فى بنائه قائم على مصلحة الجماعة ، وجعل المسلمين يدًا على من سواهم ، وأن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضًا . وهذه مصلحة مقدمة على كل المصالح الأخرى . وهى مقدمة على فروع الفقه الإسلامى ، كما قدم الجهاد فى سبيل الله على كل عمل من أعمال الإسلام .

والإسلام فى أصله أيضًا لا يعرف من نسميهم اليوم « رجال الدين » فإنما هم من المسلمين يعملون أول ما يعملون فى حياطة الجماعة وإقامة كيانها الاجتماعى والسياسى بالعمل ، كما يعمل فيه سائر الناس فى وجوه العيش وضروب البناء الاجتماعى . وليس الانقطاع للجدل فى الفقه والسنن والتوحيد عملًا من أعمال الحياطة إلا أن يبنى على المسامحة والأخوة والرضا وترك اللجاج والمعاندة ، وإلا فهو شرٌّ كبيرٌ يجب على المسلمين أن يحسموا أصله .

فإذا استقرَّ البناءُ الاجتماعىُّ للأُمم الإسلامية على أصولِ الإيمان المُبْصِر والتقوى الهادية ، وتبرأتِ النفوس والقلوبُ من غوائل الضعف والذلّةِ والخُضوع ،

وقام على الأمم الإسلامية قرآنُها يَهديها ، ويُهذِّبُ شُعوبها ، ويرقِّق أفئدتها لدين الله ، ويؤلف قلوبها على إعلاء كلمة التوحيد ، ويجمعها على دستور الإسلام فى التشريع الواضح الحازم القوى ، ويجعل الاجتماع فى كل بلد إسلامى اجتماعًا بريئًا من فتن الغواية ومحدثات الشر ، ثم تكون للمسلمين حضارة من أصل دينها تضارع الحضارات التى تناوئ شعوبها وتستذلها ، - إذا كان ذلك كله - فعندئذ يستطيع الحكم الإسلامى أن يرد ما يبقى من البدع التى غلبت على أهل الجهالة بالسلطان الحاكم لا بالكلام المفرق بين الناس وإذن فأجدرُ العملين برجال الإسلام من أصحاب الفقه والشريعة والتوحيد أن يعملوا على إنقاذ المجتمع الإسلامى من أسباب ضعفه بهدايته بأسباب القوة الأخلاقية والفكرية التى جعلت المسلمين فى ثمانين عامًا سادة حاكمين على الإمبراطورية التى جاهد الرومان فى بنائها ثمانمائة عام ... وإلا فلن يكون بعد مائة عام محمل فى حج ولا محراب فى مسجد .

* * *

نـقـــد

كتب الأخ الفاضل الأستاذ سلامة موسى فى مجلة اللطائف (٨ إبريل سنة ١٩٤٠) كلمة يتعقب بها كلامنا فى (الفن فرعونى ، وتمثال نهضة مصر) المنشور فى عدد الرسالة ٣٤٥ فى ١٢ فبراير سنة ١٩٤٠ ، وجعل عنوان نقده « تعارض التيارات الفكرية ، وضررها على التطور الاجتماعى والثقافى » . وسنلخص لك نقده ثم نتبعه ببعض ما يجب علينا من تحرير رأينا ، وتقدير رأى الأستاذ الفاضل ، يقول : إن الأفكار تتعارض فى كل أمة حرة ولكنه لا يخرج بها عن أسلوب الحياة العامة من التوافق إلى التناقض والتنافر ، فيفضى ذلك إلى اختلال التوازن الاجتماعى ، يعتاقُ الأمة عن الرقىّ والإصلاح . ويقول : إن بعض الآراء فى مصر ليتناقض كما يكون التناقض بين أمتين متخالفتين ، وإن (العقلية المصرية) التى تفكر بها مصر فى أنظمتها الاقتصادية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والتعليمية ، والحربية : هى ضرورة الوضع الجغرافى والاحتكاك السياسى بأوربا ، وإننا لا نعيش فقط فى القرن العشرين ، بل فى سنة ١٩٤٠ من هذا القرن . ويقول ما نصه :

« ونستطيع أن نضرب الأمثال على هذا الاختلاف الذى يقارب التنافر . فقد ألَّفَ الدكتور طه حسين بك كتابًا يدعو فيه إلى أن نجعل من الفن الفرعونى أحد العناصر فى « الغذاء الروحى والعقلى للشباب » فتناول هذه الدعوة الأستاذ محمود محمد شاكر بالاستنكار حتى قال فى مقاله بالرسالة : وعلى ذلك ، فيجب أن نقرر أن الفن المصرى الفرعونى – على دقته ، وروعته ، وجبروته – إن هو إلا فنٌّ وثنىٌّ جاهلى قائم على التهاويل ، والأساطير ، والخرافات التى تمحق العقل الإنسانى ، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرَّة أخرى فى أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية – سواء أكان هذا الدين يهوديًّا أم نصرانيًّا أم إسلاميًّا أم غير ذلك من أشباه الأديان » ... ثم استمر فنقل بعض رأينا فى الذى قلناه عن تمثال نهضة مصر .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٤) ، ١٩٤٠ ص : ٦٦١ – ٦٦٤

وهذا تعارضٌ عجيبٌ ، كما يرى الأستاذ سلامة موسى ، واختلاف فى التيارات الفكرية يحمله على أن يدعو الاجتماعيين أن يحاولوا التوفيق بين هذه الآراء حتى لا يصير اختلاف الرأى الحر تناقضًا فى العقائد المجزومة ، وحتى نُصْبح أمة متمدنة تستطيع أن تنصت إلى الرأى المخالف فى تسامح ، وأن تعبر عنه فى اعتدال ينأى عن الحدة والتهور .

ثم يقول الأستاذ الفاضل إنه يتوهّم مما كتبته أن الدكتور طه أو المثَّال مختار يريدان منا أن نحنط الموتى ونعبد (رعْ) مع أن حقيقة ما طلبه كل منهما أن نستوحِىَ هذا الفن المصرى القديم . ثم يقول عنى وعن الدكتور طه : « إن الاختلاف بين الكاتبين هنا يرجع إلى أكثر من ذلك ، وهو أشبه بالتنافر بين القائلين بعقيدتين متناقضتين ، ومصلحة الأمة تقتضى إزالة هذا التنافر بين الذين يكلفون هذه المهمة ، وكل رجل مثقف يهتم بالانسجام الاجتماعى فى الأمة » .

وهذا نهاية الرأى فى كلام الأستاذ سلامة موسى نقلنا أكثره بنصه أو ما يقربُ منه . ونحن نشكر الأستاذ سلامة موسى على حُسن مقصده ورغبته فى تحقيق الإصلاح الاجتماعى بإزالة كل العوامل المفرِّقة بين الناس .

التيارات الفكرية

ومن الغريب أن اليوم الذى صدرت فيه هذه المقالة فى اللطائف ، هو نفسه اليوم الذى كتبنا فيه عن « الرأى العام وسياسته » فى العدد الماضى من الرسالة ، وقلنا إن تعدد الثقافات فى الشعب الواحد قد أفضى إلى شر آثاره ، حيث تنابذت العقول على المعنى الصحيح ، واختلفت المناهج المؤدية إلى الغايات ، وكذلك يبقى الشعب إلى النهاية وهو فى بدء لا ينتهى ، وفى اختلاف لا ينفضُّ . وكما يرى الأستاذ سلامة موسى أن هذا التعارض البغيض بين الآراء مما يعتاقُ رقى الشَّعب ، ويمنعه من الاجتماع على رأى ، ويَحْرِمُه فضيلةَ القوة التى تنفُذُ به إلى غاياته ... كما يرى نحن نرى ، ونرى وراءَ ذلك كله ماهو أسوأ وأقبحُ مما يستعاذ منه وتخشى مغبَّتُه . فهذا إذن أمرٌ مفروغٌ من تقريره بيننا وبينه ، وهى رغبة نتوافى جميعًا على العمل لها ، ونَشْرِى أنفسنا فى سبيل إنقاذها .

وكان جديرًا بالأستاذ سلامة موسى أن يرى مثل هذا الرأى فى الذى كتبناهُ ، ويعلم عِلْم ما طويناه فى نقدنا لرأى الدكتور طه ، ولعلّه لم يقرأ كل ما كتبناهُ فى العدد ٣٤٤ ، ٣٤٥ من الرسالة ، ولعلّه لم يتتبَّع مانقولُ به من الرأى فى باب « الأدب فى أسبوع » ولو قد فَعَل لعرف أن الرأى بيننا وبينه فى ذلك غير مختلف إن شاء الله .

القرن العشرون

وما دمنا فى حديث تعارُض هذه التيارات الفكرية ، فقد كنت أحبُّ أن ينزِّهَ الأستاذ سلامة موسى كلامه عن بعض التعريض ... وذلك تنبيه لنا أننا نعيش فى القرن العشرين ، وفى سنة ١٩٤٠ منه . فهل يَظُنُّ الأستاذ أننا نعيش فى غيره أو أننا نرى أنفسنا رِمَمًا تاريخية عتيقةً قد انبعثتْ فى أجلادِ إنسانٍ (القرن العشرين) .

... الزمن لا يكون هو العلة فى إنشاء الحضارة ، وإنما تُستجدُّ الحضارة بالروح الإنسانية وبالإنسانية الروحية ، وإنما الزمن وحدوده تبع للإنسان الحى ، ولا يكون الإنسان تبعًا للزمن إلا حين تفقد الروح إنسانيتها العالية ، وتفقد الإنسانية روحانيتها السامية ... وترتد الحكمة والحضارة والتهذيب وجميع الفضائل إلى منزلة الغرائز الدنيا التى تصرِّف العجماوات من الأحياء فى سبيلها ، وعلى سنّتها ، وبقانونها ، ومن مدارجها النازلة إلى أغوار الحيوانية الفطرية .

إن من أخطر التيارات الفكرية التى تهاوى فيها أكثر كتاب القرن الماضى ، والمخضرمون من كتاب القرن العشرين اعترافهم بالقرن العشرين وما فيه اعترافًا (تعبُّديًّا) يكاد يكون إيمانًا وعقيدة ، فما أقنع منه بالبرهان والحجة فهو ببرهانه وحجته ، وما لم يقنع فهو مردود إلى الأسرار الأزلية للحضارة ، وأنه هكذا كان ... وأنه هكذا خلق ، وأنه مادام موجودًا فى حضارة القرن العشرين ، فوجوده هذا هو برهانه وحجته ... !

وأنا – مع الأسف – لا أعتقد فى هذا القرن العشرين اعتقادًا قلبيًّا مطمئنًّا بالإيمان ، لا لأنى أريد أن أرتدَّ إلى الماضى لأعيش فى ظلماته وكهوفه وتهاويل

خرافاته ، بل لأنى أرى أن حضارة الإنسانية يجب أن تتجدد بمادتها النبيلة السامية التى كل أجزائها فضائل . أما هذه الحضارة الأدبية العصرية للقرن العشرين ، فهى حضارة حيوانية الفضائل ، ليس فى أعمالها إلا فتنة بعد فتنة . ولا نقول هذا فى العلم - معاذ الله - فإن العلم الحاضر قد استطاع أن ينفذ فى بعض أسرار الكون بأسباب كأسباب المعجزات ، ومع ذلك ، فقد كان هذا العلم نفسه ، هو ما اتخذوه تدليسًا فى تمجيد حضارة القرن العشرين ، ليفتنوا الناس بها عن حقيقة الإنسانية الروحية المتجردة من أغلال الحيوانية النازلة المُتَسَفِّلَة .

الحرب

ويكفى أن تكون هذه الحرب التى أحدَّت أنيابَها ونشرت مخالبها ، وزأرت زئيرها ، ثم أسبابها التى نشأت عنها من المطامع الاستعمارية المستكلبة الضارية ، ثم ماسيكون من آثارها فى الأرواح الإنسانية والمدنية الروحية ... يكفى أن تكون هذه الحرب - من جميع نواحيها وأطرافها ، وبجميع خلائقها وزمن هذه الخلائق - توصيما كتوصيم الفجور الأسود فى الأعراض النقية البيضاء .

هذه الحرب الفاجرة المتعرِّية من جميع الفضائل برذيلة الكذب والخداع مما يسمونه الدعاية والسياسة هى البرهان الحى فى أذهاننا جميعًا - أهلَ القرن العشرين - على أن مدنية هذا القرن ، مدنية حيوانية الأصول والفروع ، هى مدنية مفترسة متوحشة ، لا تعترف بالحق ولا تعرف الحق ، وليس إلا ... الغذاءَ الغذاءَ ... الصيدَ الصيدَ ... : هذا نداؤها وهذا دينها وهذا إيمانها . ثم لا تكون مغبّة أعمالها إلا تمزيقًا وقضقضة وقضما ، وتدميرًا لبنيان الله الذى يسمى « الإنسان » .

الحرية !!

إن هذا القرن العشرين أُسطورةٌ مُهَوَّلةٌ قد انحدَرت من القدم إلى هذا الزمن ، فى دمها كلُّ الأساطير الحيوانية المرجِفة فى تاريخ الإنسانية . إنه أسطورة عظيمة كاذبة مُكَذِّبة على الناس ، وإن فى مدنيته من الباطِل ملءُ علومِها حقًّا . إنَّ الأجيالَ

الإنسانية النبيلة لتصرخ من وراءِ أسوار التاريخ تريدُنا أن ننقذ أنفسنا من أوهام (القرن العشرين) ، ومن خرافاته الجميلة المزينة بالعلم ، المثيرة باللذة ، المندلعة بألسنة من نيران الشهوات والأهواء ، الصاخبة بعبادة الأوثان التى تجُولُ فى أدمغةِ البشر حاملة نَدَّها وبخورها ومجامِرها وطيبها ، وكل ما ينفذ عطره إلى أعمق الإحساسات يثيرها لتقديس البشرية المتجسدة بلذاتها وشهواتها .

يجب - فى هذا الزمن - أن نتحرر من أباطيل القرن العشرين وأباطيل القِدَم معًا ، يجبُ ألا نعرف الحاضر بأنه هو الحاضرُ وكفى ، ولا الماضى بأنه هو الماضى وحسْبُ ، يجبُ ألا نَتعبَّدَ بشىءٍ من كليْهما ، يجبُ أن نأخذَ الحاضر والماضى بالعقل والعلم والفضيلة ، وما لم يكن كذلك مما مضى ومما حضر فهو نَبذٌ يجب أن ننبُذَه ونتجافى عنه ، يجب أن نتحرر ، يجب أن نتحرَّر ...

إننا الآن أممٌ تريد أن تسيرَ إلى غاياتها فى إبداعِ حضارتها التى سترث جميع الحضارات التى سبقتها ، والحضارةُ التى تأتى من التقليد ليستْ حضارة ، وإنما هى تزييفٌ وكذبٌ ووثنيةٌ جاهلية تنحدر إلى هذا الزمن عن السلالات التى قال الله فيها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟! ﴾ .

لن نبلغ شيئًا حتى تكون (الحرية والحب) نقييْن طاهرين مبرَّأين كاملين متواضعيْن ، فهما القوة التى تسير بهما الحضارة إلى مجدها وروائعها . إذا عرفنا الحرية وجرتْ فى دمائنا فيومئذ تتهدّم كل هذه الأباطيل التى تعوقنا وتقف بين أيدينا من قمامات الرذائل الإنسانية التى قُذِفتْ فى طريقنا من أباطيلِ الماضى وترهات القرن العشرين !!

الفن الفرعونى

والأستاذ سلامة موسى قد بنى نقده على ما يسميه (العقائد المجزومة) ، وعلى عقيدته فى (القرن العشرين) !! ونحن - مع الأسف - لا نبنى أبدًا كلامنا على (العقائد المجزومة) ، ولا على التعصب (للقرن العشرين) ، لو رجع

الأستاذ إلى المقالين اللذين نشرناهما فى الرسالة عدد ٣٤٤ و ٣٤٥ عن محاضرة الدكتور طه ، ولو رجع خاصة إلى حديثنا عن (الفن) ماهو ، وكيف هو ؟ وعن الفنان وعمله فى فنِّه - لعرفَ أن دعوتنا كلها مبنيةٌ على تحرير أعمالنا من قيود الماضى والحاضر معًا على أساس من العقيدة والعلم والفضيلة ، فلا يُزرِى عندنا بالقديمِ قِدَمه ، ولا يُوغل فى الجديد جدّته . وإن القول فى (القديم والجديد) على اطلاع اللفظ ، وجعله لفظًا تاريخيًّا زمنيًّا محصورًا باليوم والسنة ، إن هو إلا تلذذ بالكلام كما يتمطق آكل العسل بعد أكله من تَحَلُّب الريق وشَهْوة الحُلْو ، ولو كان فى هذا العسل السم الناقع .

إن حديثنا عن الفن الفرعونى ، وأنه لا يصلح أن يكون شيئًا يستمد منه الفنان فى زماننا ، لا يمت بصلة إلى الرأى الذى ذهب إليه الأستاذ سلامة موسى فى فهم كلامنا ، لأننا نظرنا إلى شيء واحد ، وهو تحرير الفن من التقليد . ثم معرفتنا أن الفنان لا يستوحى كما يقول الأستاذ سمة من فنون غيره بل إن الفنان عندنا هو القلب النابض الذى يفضى إليه الدم الخاص الذى تعيش به حضارة أمته فى عصره، والفن إن هو إلا نتيجة من نتائج الاجتماع الإنسانى والطبيعة التى تحتضنه ، والعقائد التى تسيطر على الشعب وتملأ قلبه بالإيمان بها والفكر فيها . فإنْ لم يكن الفن ناشئًا من ثَمَّ ، فاعلم أنه ليس بفن وإنما هو كذا مضرَّج بتحاسين قوس قزح ، وما أسقط الفن الرفيع فى زمانه وفى بلادنا إلا أنه نتاج العقول المزيفة بالتقليد والخيال المدلل بالسرقة . وهذا الهمج الهامج من الفنانين والأدباء والشعوب والعلماء أيضًا ممن يعيشون بأدواتهم تحت جناح الليل الأسود وفى ستره ، ثم يقبلون على الناس إذا أصبحوا فيقولون أين كنتم ؟ يقولون : كنا نستوحى ، ثم يخدعون الناس بزيفهم وبهرجهم لأنهم لا يعلمون من أين يأتى هؤلاء هذا الوحى . ولو علموا أنما وحيهم وحى اللص الذى يبدع له المال ، وإنما دبيب واستخفاء وحرص ، و« طفاشة » تهشم بها أقفال خزائن بعض الناس ، يستخرجون كنوز غيرهم ليتنبّلوا بزينتها وجمالها .

الحرية هى أصل الفن كما بينا ، وكما هو ظاهر كلامنا وأما الاستيحاء من

فنون القدماء لإنتاج فن لايتصل بمدنيته بسبب إلا القدم والوراثة وتاريخ هذه الأرض ، فهو إبطال للفن ومعنى الفن وقيمة الفن ، وإلا فما الذى فعله الأستاذ المثال القدير « مختار » إلا أن نقل صورة لا معنى لها فى عقائد الشعب المصرى الحاضر ، هى صورة أبى الهول ، وليس فيها معناه القديم الباسط ذراعيه فى جوف رمال الصحراء هناك ، ثم ماذا ؟ ثم فعله بعد أن كان باسطًا متطامنًا ، ثم ماذا ، ثم ألصق إلى جانبه فتاة تضع يدها على رأسه ... سبحان الله هذه نهضة مصر ، وهذا هو فن القرن العشرين !!

إذا كان الأستاذ سلامة موسى أو غيره يريد أن يناقشنا فى هذه الآراء . فليناقش على أساس واحد ، هو أساس الفن ، وماهو ، من هو الفنان . أما (القرن العشرون) ، وأنظمة مكافحة الأوبئة ، والنظام الاقتصادى ، والعلوم ، وما إلى ذلك ، فليس له مدخل أو سبب فى الطبيعة الفنية ، وتقدير الآثار الفنية ، وهل يمكن أن تكون فنًا إذا كانت تقليدًا واستيحاء وتشاكلا ذكيًا بارعًا ؟

كل فن يأتى من التقليد واستيحاء فنون الناس ، وكل فن يتولد من شهوة التقليد وبلادة العزيمة وعبودية الروح ، فهو فن كالمولود السِّقط فى آخر تسعة أشهر من حمله ... فيه صورة الحى ولكن ليست فيه الحياة ، فيه قوة المشابهة للحى ولكن ليست فيه قوة استمرار الحى على الحياة .

* * *

مولده

سَكن الكون وأصغى ، وتعبَّأت كل القوى الأبدية لحشدها ، وَعَبَّ التيَّار الإلهيُّ الذى يَمُوج به الكون ، وسعت الملائكة بالبشرى بين خوافق السماء والأرض ، وتهلَّلتْ أجيال النبوّة بأفراح خاتمها الذى أتمَّ الله به نعمته على الناس ، وسَرَتْ فى الكائنات أسرار الحياة الجديدة فاهتزَّت وربتْ واستشرفت إلى النور الخالد الذى ينبع من أُفق الإنسانية العالى البعيد ، ووسوست رمال الصحراء بتسبيحة الحمد لله ، تستقبل الأقدام التى تطؤها النورَ الذى سيمشى أوَّلَ ما يمشى على حَصْبائها ، ثم يمشى بأصحابه فى أرجاء الأرض يحييها بعد موت ، ويطهرها بعد دَنَس .

سكن الكون وأصغى ، وسكنت نأمةُ [١] الشياطين فى مخارمها ومهاويها وآفاقها ،[٢] وخشعت وساوس إبليس بالرُّعب والفزع ، وثبتت فى مساربِها جائلاتُ الجِبْت والطاغوت ، وتحيَّرت فى مستقرِّها أباطيلُ الأوثان وأوهام الألوهة المزيفة على الناس .

ثم اهتز الكون كله بالفرح ، فتداعت أبنية الأجيال الوثنية الباطلة ، ثم أخذت تتداعى تحت الأشعة النبوية التى نشرت على الدنيا نورها بالحق والعدل والتوحيد والسلام ...

سكن الكون وأصغى ، ثم اهتز بنوره وتطهر ، ﷺ . والسلام عليك يارسول الله ، سلامًا من كل قلب ، وفى كل زمن ، والحمد لله الذى أرسلك بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

أعـــيادنا

أعياد الأمم هى الأيام التى تستعلن فيها خصائص الشعوب وذخائرها

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٥) ، ١٩٤٠ ، ص : ٧٠١ - ٧٠٣

(١) النأمة : الصوت الضعيف الخفىّ .

(٢) المخارم : جمع مخرم ، وهو منقطع أنف الجبل .

وخلائقها الأدبية والعقلية والنفسية والسياسية . هى الأيام المبتهجة التى تنبض بالحياة وأسبابها فى الأمة ، لتدل على السر الحيوى السارى فى أعصاب الحياة العملية اليومية المتتابعة على نظام من الجد لا يكاد يختلف .

واحتفال الشعب بأعياده أمر ضرورى لإعطائه المثل الأعلى وإمداده بالروح التى تدفعه إلى مجده ، أو إلى المحافظة عليه . فهو من ناحيتيه يظهر ما فى الشعب من خصائصه ومحامده وعيوبه ، ويبقى على المثل الأعلى بالتجديد والبهجة والزينة .

فأعياد الأجانب الأوربيين مثلًا تكشف عن قوتهم واعتدادهم بأنفسهم ، وتعشقهم لجمال الحياة الدنيا إدمانًا وإغراقًا ، وعن جعلهم المجاملة أصلًا أخلاقيًّا فى أنفسهم وأهليهم ، وعن غرورهم واستهتارهم واستهانتهم بأكثر الفضائل الإنسانية حين تجرى فى دمائهم عربدة الطغيان الإنسانى المتوحش الذى يرتد إلى الغرائز الحيوانية المستأثرة باللذة ، المجردة من الورع والتقوى .

وأعيادنا نحن تهتك الحجاب عن ضعفنا وذلتنا ، واستكانتنا لما نشعر به من الضعف والذلة ، وتبين عن ذهول الشعب عن نفسه وعن تاريخه ، وعن مجده ، وتعلقه بتُرَّهات الحياة ، وقلة مبالاته بجمالها ، وانصرافه عن معرفة الأحزان الخالدة فى طبقاته بخلود الفقر والجهل والبلادة .

فهل يزدلف [(١)] إلينا ذلك اليوم الذى تتمثل فيه أعياد الشعب الإسلامى صورةَ السيطرة والسيادة والقوة ، وتتبدَّى عليه أفراح الحياة الراضية المؤمنة المطمئنة ، وتعود إليه الأخوة الإسلامية التى ساوت بين الناس غنيهم وفقيرهم وعالمهم وجاهلهم ، وجعلتهم سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالخلق والتقوى ؟ هل يأتى ذلك اليوم السعيد الذى يجعل أعيادنا صورة من مدنية دين الله التى تبدأ بالرحمة والحنان والتعاطف ، وتنتهى بالعمل والجد والصبر والتعاون ؟ يومئذ تكون السيادة العليا للمدنية المستقبلة ، مدنية الحرية التى لا تشتهى أن تَفْجُر ، والعلم الذى لا ينبغى أن يكفر .

---

(١) يزدلف : يقترب ، وأصله المشْى البطىء إلى غاية الشىء .

التعليم

فاز الأسبوع الماضى فى مجلس النواب بإثارة انتباه الناس إلى شأن التعليم وسياسته التى درجت عليها وزارة المعارف من سنين تطاولت ، وقد قدمت اللجنة المالية تقريرها عن ميزانية المعارف ، وتناولت فى هذا التقرير سياسة التعليم وأغراضه ، وعيوبه وما ترجو به له الإصلاح ، وناقش المجلس بعض هذه الآراء ، وعرض حضرات النواب بعض آرائهم وملاحظاتهم .

ونحن - على أننا لم نحضر هذه الجلسة بل قرأنا ما اختصر مما جرى فيها - نظن أن حديث النواب كان يدل دلالة قاطعة على أن وزارة المعارف التى انقضى على قيامها بهذه المهمة مايربو على قرن من الدهر لم تقرر فيها أصولٌ صحيحةٌ للتعليم ، ولم تجر سياستها على منهج يستمر بها إلى غاية تريدها على تدبير وحياطة .

أفلا ترى أن الوزارة لا تزال تسمع من الناس ومن النواب ومن أصحاب الرأى ما يجب عليها للتعليم الدينى فى مدارسها ، وما ينبغى فى مناهج تعليم البنات ، وما تتطلَّبه أنظمة التعليم الإلزامى ، وهل أدى الغرض منه إلى اليوم أو لم يؤده ؟ وما تفرضه الوطنية من النظر الصادق فى ترقية التعليم الحر حتى يصل إلى الدرجة التى تليق به وبالأمة التى يتولى هو بعض الرعاية على بعض أبنائها ، وغير ذلك من الشؤون الابتدائية فى سياسة التعليم .

فهذا عجيب أن تبقى وزارة المعارف إلى هذا اليوم ، ولم تتقرر لها سياسة كاملة عامة تتناول حياة الأمة العلمية والأدبية والخلقية والبدنية بأدق النظر وأحسن الرأى ، فلا ينبغُ لها نابغ يسددها إلى هذه الآراء الأولية التى يفرض كل أحد أنّ الوزارة قد انتهت من إقرارها والسير عليها والتدبير لها بكل الوسائل التى تكفل للشعب تربية أبنائه تربية تامة كاملة مهيَّأة لتحمُّل الأعباء المثقلة التى سيحملها جيلهم من بعد هذا الجيل .

وقد سارت وزارة المعارف فى السنين الأخيرة على سُنَّة لا يمكن إلا أن تُفضى إلى توهين الروابط الثقافية التى تربط الشعب كله بعضه إلى بعض ؛ وذلك

كثرة تبديل المناهج وتغييرها عامًا بعد عام لغير ضرورة ملجئة فى أكثر هذا التبديل والتغيير . ولابد أن تحزم وزارة المعارف أمرها على خطة واسعة متراحبة ترمى إلى أبعد مدى على أتم حذر ، ليتسنى لها أن تمحو كل أخطاء الماضى التى لعبت فيها الأيدى الاستعمارية والسياسية بكل ما من شأنه أن يسلب الشعب قدرته على التحفز والتوثب والتجمع ، وما ينشئه على الحرية العقلية والنفسية التى ترفعه إلى الدرجات السامية التى يجب أن يرقى إليها كل شعب يريد أن يتحرر ويسود ويفرض مدنيته على الأرض التى يعيش عليها .

وإذا أرادت وزارة المعارف ذلك الآن ، فإن فى همة وزيرها الذى لا يَمَلّ ولا يتأخر عن دواعى الوطن ، إنفاذًا لهذه الإرادة . فوزير المعارف رجل معروف بالجد والإخلاص والمثابرة وقوة العزيمة ، فلو اجتمع له كل أصحاب الرأى ممن يحب أن يساهم فى شأن التعليم مساهمة الدرس والكفاح للمستقبل ، لأمكنهم أن ينقذوا وزارة المعارف من البلبلة التى لا زالت تتساقط بها من ذلك العهد القديم المعروف بأغراضه فى تحطيم قوى الشعب تحطيما استعباديًا مستبدًّا . فنرجو أن يضمَّ وزير المعارف إلى رأيه جماعة من أصحاب التدبير السياسى للتعليم غير متقيِّد بشىء من الرسوم القديمة - وهو الرجل الحر - فإن القيود هى التى جعلتنا إلى هذا اليوم نسرى فى ظلام دامس من الأهواء التى غلبت على شأن التعليم فيما مضى .

تعليم العربية

وبهذه المناسبة أذكرُ أنى قرأتُ فى الأسبوع الماضى أيضًا كلمة عن أسباب ضعف الناشئة فى اللغة العربية ، وأن الكاتب ردّ هذا إلى أسباب من المعلم والكتب وغير ذلك ، وزعمَ أن أكثر كتُبنا لا يصلح لتعليم الناشئة لسانَ أمتهم . وإن يكن فى هذا بعضُ الحقِّ فليس هو كلُّ الحقِّ ، فإن أسبابَ ضعفِ النشءِ فى العربية ليس يُردُّ إلى المعلم والكتاب ، بل مَرَدُّه إلى المنهج الذى يُقيِّد المعلم بقيود كثيرة ترفع عنه التبعة فى نتيجة التعليم ، ويقيد الكتاب بمثلها ، ويُعطى النشء ما لا يَصْلُح عليه لسانٌ ولا يستقيم به تعليم لغة .

فلو أنت نظرت لما رأيت شعبًا من شعوب الأرض المتعلمة ، يفعَلُ بلغته

مانفْعل نحنُ من التجاهل للآثار الأدبيةِ وقلّة الاحتفال بتزويد الناشىء بمادّتها التى تحفظها لتكون أبدًا على مدِّ الذاكرة وفى طلب اللسان ، ولو أنت سألتَ أى مُتعلِّم من أهل الأمم الأخرى أن يُسمِعك من روائع شعر أُمته ونثرها وحديث بلغائها لاحتفَلَ لك بالكثير الذى تظنُّ مَعَه أنه إنما أعدَّ لك الجواب لعلمِه أنك قد أعددتَ له السؤال . فلو أنتَ جئت بعدَ ذلك إلى أحد المثقَّفِين المكثرين المتنفِّخين من المتعلمين عندَنا وسألته مثل ذلك لنَحا إليك بَصَرَه فأتأرَ [١] النَّظَر فابتسمَ فضَحكَ فاستهزَأ بك فولاّك ظهره فمضى يعجب من غفْلتك وحماقتك وقلّة عقلك .

وإن بعضهم ليقول : ليس لنا ما لهم ، أَين للطالب المصرى أو العربى ما يغريه بالقراءة كما يغرى شكسبير وملتون وبيرون وشيللى وفلانٌ وفلانٌ من الشعراء والكتاب ؟ بَلى أين ؟ وإن يكن هذا كله حقًّا فافترضناه كذلك ، فليس يكون لنا مثل شكسبير وأصحابه إلا باستيعاب قديم كتابنا وشعرائنا ، والحرص على آثار مُحْدَثيهم ، فإذا كان ذلك أخرج الشَّعْبُ يومًا أمثالَ هؤلاء لمن يلينا من أهل أمتنا . وإلا فإننا سائرون إلى ضعف أبدًا ما دُمنا نرَى أن الطالب لا يطيقُ أن يستوعب من شعر البحترى إلا قصيدة واحدة ومن المتنبى مثلها ، ثم يكون ذلك آخر عهده وأوله بدراسة الآثار الأدبية العربية .

إن الحفظ الأول للآثار الأدبية الرائعة قديمها وحديثها هو الذى يخرج الأديب والكاتب والشاعر . انظر إلى المنفلوطى والرافعى وشوقى وحافظ والبارودى والزيات وطه حسين ، كل هؤلاء لم يكونوا كذلك إلّا لأنهم نشأوا وقد حفظوا القرآن أطفالًا فحملهم ذلك على متابعة حفظ الآثار الأدبية الجليلة ، ثم حفز هذا المحفوظ ما انطووا عليه من الطبيعة الأدبية التى استقرَّت فى أنفسهم وأعصابهم ، فلما استحكموا استحكمت لهم طريقتهم فى الأدب والشعر والإنشاء ، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يكونوا اليوم إلا كما نرى مِن سائر مَنْ تخرجهم دور التعليم بالآلاف فى كل عام ينقضى من أعوام الدراسة .

---

(١) أتأر النَّظَرَ : أَحَدَّه

مشروع

كتب الأخ الأستاذ « محمد خلف الله » كلمة جليلة الغرض تحت هذا العنوان « مشروع » فى مجلة الثقافة العدد (٦٨) الماضى . وخلاصة هذا المشروع : أن تؤلف جماعة من الباحثين يمثلون اللغة والأدب وعلم النفس والاجتماع يكون من أغراضها أن تدرس النواحى المختلفة للاجتماع المصرى الحاضر وما يكون فيه من الظواهر المختلفة التى يخشى أن تدرج وتبيد ولم نستفد من الحرص عليها إن كانت نافعة ، أو الاستعانة بها فى درء الأمراض الاجتماعية عن الشعب فيما يستقبل إن كانت من السوء بحيث تكون كذلك .

وقد عَدّ الأستاذ خلف الله بعض الأمثلة فيما يجب أن تتوجه إلى دراسته هذه الجماعة كمخارج الحروف وأصواتها فى كل الأقاليم المصرية ، ورد ذلك إلى أصوله الأولى التى انحدر عنها من تاريخ القبائل ، وكذلك اللهجات الكثيرة فى الوجه البحرى والقبلى مما هو - ولا شك - نتيجة لإقامة بعض العرب فى هذه الجهات ، ثم دراسة الأدب الشعبى من قصيد وموال ومثل وفكاهة وسمر ، ودراسة الخلق المصرى ، وعيوبه وفضائله ، وما يتعاوره من الغلو والضعف . ويكون ذلك كله إعدادًا لمعرفة حقيقة هذا الشعب معرفة صحيحة ، ثم نشر كل ذلك على التتابع فى رسائل قد استوفت شروط المنهج العلمى للدراسة الاجتماعية واللسانية والفنية .

وكلنا يرحب بهذا المشروع الذى نستطيع معه أن نخدم الشعب خدمة عظيمة باستظهار ما يستسر من قوته ، وما يستعلن من ضعفه ، فيكون ذلك أحرى بأن يهدينا إلى إصابة الدواء الذى يحسم مادة الداء التى تلتهم أسباب رقيه سببًا بعد سبب . وهذه الدراسات المفصلة للشعوب على طبيعتها التى تتعامل بها فى السوق والحقل والمصنع والمدرسة والبيت ، وهى النجاة لنا من شر كبير قد أوقعنا فيه الاضطراب وقلة الخبرة . ولو علمت أن أكثر الأمم المستعمرة تلجأ إلى هذا الطريق نفسه فى دراسة الشعب الذى تريد أن تستبد به ، ليتسنى لها أن تعمل على إضعافه وقتله بتقوية ضعفه وإضعاف قوته دون أن يشعر أو يتألم بل يحسب أنه

يسير إلى غايته على تدريج طبيعى - لو علمت ذلك علمت ما نستطيع أن نستفيده من نتائج هذا المشروع الجيد إذا أُحكم تنفيذه ، ولم تَغْلب على اختيار رجاله محاباة ، ولم تتحكم فى هؤلاء الرجال شهوةٌ أو هوًى .

* * *

الأزهر

الأزهر – كما يجب أن نعرفه – إن هو إلا تاريخ مصريٌّ عربى إسلامى كاملٌ متتابعٌ قد امتدَّ على مَدْرَجةِ التاريخ ألف سنة يجدِّد فيه ويتجدَّد به ، ويعيشُ عيشه هذا فى التاريخ كالمدد المتلاحِق الذى يستفيضُ بمادَّته لينشىء القوةَ فى رُوح الجيش المرابط وأعصابه وأفكاره وأعماله المجيدة . وهذا التاريخ العجيب الذى لا يزال حيًّا فى هذه الأرض ، هو كالتاريخ الإسلامى والعربى كله مجهولٌ متروك لم تَنفُضْ عنه الحياةُ العربية الجديدةُ غُبار السنين المتقادمة والأجيال المتطاولة التى تعاقبت عليه بالنسيان والإهمال والهجر . وإذا نظرنا إلى الأزهر على مقتضى هذه النظرة وبسبب من هذا الرأى – علمنا أنه كهذا التاريخ الإسلامىّ قد تعاورته القوَّة والضعف ، وحزَّت فيه سِيما العلم ومِيسم الجهل ، وتغلغل فيه النبوغ الفذُّ السامى والنبوغ الشاذُّ النازلُ : النُّبُوغُ السامى الذى ارتفع بروحانية الشعوب الإسلامية وأخرجها من سُلطان الشهواتِ والجهالات ، فمدَّتْ بذلك سلطانها على جزء عظيم من العالم ، والنُّبوغُ النازل الذى هَوَى بروحانيةِ هذه الشعوب إلى الجَدَل والفُرقة والمذاهب والآراء الخاضعة لسلطان الشهوات العقلية المريضة ، فقلَّصتْ ظِلَّ هذا السلطان عن هذا الجزء العظيم من العالم .

والأزهرُ – كان – مجْتَمَع القُوى المختلفة التى عملتْ فى إنشاءِ الحضارة الإسلاميَّة والعربيَّة التى عاشَتْ فى التاريخ الماضى وملأته بالألوان المختلفة من مميزات هذه الشعوب الإسلامية المتباينة ، والمتباعدة فى مطارح الأرض ما بين الصين إلى المغرب الأقْصى ، واستمرَّ على ذلك مئات من السنين تتلوها مئات ، وكذلك مهدت هذه السنين للشعب العربى المصرى فى هذا العصر – عصر النهضة الجديدة فى الشرق – أن يكونَ هو قِبْلَة الأمم العربية والإسلامية . وذلك لأن روح الشعب المصرى ، وثقافته الموروثة فى تفكيره وأخلاقه وطباعه ، وحضارته القديمة التى تبرَّجتْ على ضفاف النيل – هذه كلُّها ليست إلا خلاصة

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٥٦) ، ١٩٤٠ ، ص : ٧٤١ - ٧٤٤

هائلةً مصفّاة من أرواح الشعوب الإسلاميّة كلها وثقافاتها وحضاراتها . وكان الأزهر هو المصدر الذى استمدَّتْ منه مصر هذا الفيض العظيم الجارى فى أودية التاريخ المتقدِّم ، لأنه هو كان الجامعة الوحيدة فى هذه الديار ، وكان أكبر جامعة وأعظمها فى سائر الديار العربية الإسلامية . وبهذه الخلاصة التى اجتمعت فى الأزهر ، ثم انتشرت منه فى أرجاءِ مصر قديمًا وحديثًا استعد الشعب المصرى بطبيعته لأمر مقدور ، هو أن يكون زعيما للشرق فى عصر النهضة الجديدة ، لأن كل شعب من الشعوب العربية والإسلامية يرى فى هذا الشَّعْبِ صورة من نفسه مكملة بألوان أخرى من صور سائر الشعوب التى تمتُّ إليه بسبب من الدين واللغة والحضارة والثقافة والفكر والدم .

ونحن نأسف إذ نرى الناس إنما ينظرون إلى الأزهر نظرةً محدودةً ضيقة لا تتراحب ولا تنفذ إلى حقيقة هذا التاريخ القائم فى أرض مصر . فهم يعدُّونه معهدًا دينيًّا ، ويكون تفسير كلمة الدين هنا على غير الأصل الذى يعرف به معنى الدين فى حقيقة الفكرة الإسلامية التى ختم الله بها النبوَّات والأديان على هذه الأرض . وهذا المعنى الجديد المعروف فى زماننا لهذه الكلمة كلمة « الدين » ليس إسلاميًّا ، لأنه لا يلائم روح الإسلام فى شىء ... كلا ، بل هو يهدمُ أعظم حقيقة حية أتى بها هذا الإسلام ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليجعل الذين آمنوا فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ويجعلهم الوارثين . وهذه الحقيقة الحية الجميلة هى جعل كل عمل من أعمال الإنسان المسلم فى الحياة عبادة تقربه إلى الله ... فليس البيْع والشراءُ ، أو تدبير أمور الناس فى الملك ، أو العلم والتعليم ، أو تربية الولد ، أو الخدمة التى يؤديها الرجل لمن يخدمه ليست كل هذه الأشياء الاجتماعية فى منزلتها من الدين الإسلامى ... إلا كالصلاة والصيام والزكاة وسائر الأعمال التى يفهم بعض الناس الآن أنها هى الدين حسبُ . فالأزهر الإسلامى هو الذى تتمثَّل فيه حقيقة الإسلام – أو يجب أن تتمثل فيه هذه الحقيقة – ، وتاريخه الماضى كان صورة صحيحة للحياة الاجتماعية الإسلامية بكل ألوانها وأنواعها ، مع ماكان قد عرض فيها من العيوب التى أدركت الشعوب

الإسلامية وجعلتها تنزل عن المرتبة الأولى التى كانت لها فى تاريخ الحضارات السالفة التى سبقت الحضارة الأوربية لهذا العصر . فلما هجمت علينا الحضارة الحديثة من أوربا بعواملها المختلفة ، وسياستها القوية التى تغلبت على كل سلطان فى الشرق ، ثم اندست العوامل الغربيّة فى الأمم الإسلامية ، وعملت الأيدى العدوَّة عملها فى تمزيق الروابط بين طبقات الشعب ... رجع الأزهر إلى غيله يستتر فيه ، وقبع أهله عن صراع الحياة الجديدة صراعًا يراد منه الظفر ، وكذلك سار الناس ناحية وسار الأزهر ناحية أخرى ، وكان ذلك أول البلاء على الأزهر وعلى الشعب نفسه !

إصلاح الأزهر

وقد أحس كثير من المصلحين من أهل الأزهر وغير أهله - ممن يعرفونه أصلًا كبيرًا فى الحياة المصرية والعربية والإسلامية - بما تقتضيه طبيعة الموقف الذى صار إليه فى هذا العصر ، وبما توجبه حقيقة الدين الإسلامى ، فهبوا إلى إصلاحه والنظر فى شأنه مرة بعد مرة . وكان العمل لذلك شاقًّا كثير المتاعب غير قريب المنافذ ، فاضطربت الأيدى واختلفت الأغراض ، وسار هذا الزمن السريع بقوة واندفاع ، لا يملك معه المصلح الانطلاق فى آثاره على مثل سرعته واندفاعه وكذلك لم يزل الأزهر الآن فى منزلة غير المنزلة التى يوجبها له قيامه ألف سنة على التاريخ الفكرى والثقافى والعملى فى الحضارة الإسلامية .

وقد كتب الأستاذ « الزيات » - فى فاتحة العدد الماضى من الرسالة - كلمته الجليلة « فى سبيل الأزهر الجديد » يطالب الأزهر بالرجوع إلى المنابع الأولى للدين واللغة والأدب والعلم . وحُبُّ « الزيات » للأزهر ، ورغبته فى المبادرة إلى علاج الأدواء التى تلبست به من أمراض الأجيال السابقة ، هى التى حملته على أن يكتب كلمته لتظفر مصر « بجامعتها الصحيحة التى تدخل المدنية الغربية فى الإسلام ، وتجلو الحضارة الشرقية للغرب ، وتصفّى الدين والأدب من شوائب البدع والشبه والركاكة والعجمة » .

نعم إن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لم يقصّر فى اجتهاده أن يجعل

الأزهر مثابة للعلم الإسلامى الصحيح ، ولم يتخلف عن النصيحة له بما توحى به الرغبة الصادقة فى تحريره من آصارٍ [١] قديمةٍ عاقته عن بلوغ غايته التى يحق له أن يبلغها . فقد وضع الأستاذ الأكبر من عشر سنين نِظامه الجديد للكليات فى الأزهر وجعل أحد قسمى التخصص فى هذه الكليات موقوفًا على مادة من مواد الشريعة أو اللغة أو الأدب أو التفسير والحديث أو المنطق والفلسفة أو الأخلاق والتاريخ وعلم النفس وما إلى ذلك . وأمدّ هذه الكليّات العالية - فى دراستها لما خصصت له - بالكتب الأصول المعتمدة فى بابها ككتاب سيبويه ، وخصائص ابن جنى ، وسر صناعة الإعراب لابن جنى ، وتصريف المازنى ، وكتاب فيلسوف النحو رضى الدين الإستراباذى صاحب شرح الشافية ، وشرح الكافية ، وهما عمدة أصحاب النحو والتصريف . وكذلك جُعلت كتب عبد القاهر - دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة - ، وكتاب الصناعتين لأبى هلال ، وأدب الكاتب والكامل والأمالى وغير هذه من أصول الأدب واللغة هى مادة الدراسة فى هذه الكليات .

وقد قام على التدريس فى هذه الكليات جماعة من خيرة من أنجبهم الأزهر فاستقلوا بتدريس هذه الكتب الجليلة خير استقلال ، فنرجو أن يظهر الأزهر الجديد بعلمه الجديد الذى استمده من الكتب الأصولِ ، وأن يعتمد فيما يستقبل من أيام نهضته كل الأصول الأولى فى تدريس الفنون المختلفة التى يقوم ببثها بين أبنائه ومريديه وطلبته . هذا ونرجو أن تحقق روح الأزهر - التى تتصل بالشعب المصرى وسائر الشعوب الإسلامية - معنى الإسلام الصحيح الذى يطالب المسلمين بالسيادة والقوة والغلبة ، ولا يكون ذلك إلا يوم يتصل الأزهر اتصالاً تامًّا بجميع ألوان الثقافات العالمية ، ليوجد للشعب المصرى والعربى والإسلامى ثقافة تضارع كل هذه الثقافات ، مبرَّأَةً من عيوبها التى فرضتها عليها البيئة غير الإسلامية التى نشأت تحت ظلالها وفى رعايتها .

وأنا أكتفى بهذا القدر من القول ، وسأعود قريبًا لأبدى بعض الرأى فى أنواع

---

(١) الآصار : جمع إِصْر ، وهو الثِّقْل الذى يؤود الإنسان .

من الإصلاح تراد للأزهر وغير الأزهر ، أرجو أن تنال بعض الرعاية ممن يتولون شأن هذا الإصلاح .

المجمع المصرى للثقافة العلمية

بدأت فى الأسبوع الماضى جلسات المؤتمر السنوى للمجمع المصرى للثقافة العلمية برياسة حضرة صاحب السعادة حافظ عفيفى باشا ، وهذا هو المؤتمر الحادى عشر لهذا المجمع العلمى الصامت الذى يجاهد فى إنشاء الثقافة العلمية العربية فى الشرق بما يسعه جهده وماله . والمجمع العلمى هو أهم ما يحتاج إليه الشعب العربى الذى ابتعد به الزمن عن متابعة النهضات العلمية المختلفة التى تجددت بالحضارة الأوربية الحديثة . وقيام هذا المجمع بنشر الثقافة العلمية - فى حدود طاقته - قد أوجد للأمة العربية ذخيرة عظيمة تقع فى عشرة مجلدات ، كلها مباحث علمية عظيمة مكتوبة باللغة العربية مع قلة الاصطلاحات العربية العلمية التى تؤدى المعانى العلمية الجديدة التى لم تقرر لها بعد مصطلحات ثابتة فى مادة هذه العلوم .

وهذا المجمع العلمى العظيم لا يَلْقَى - مع الأسف - ماهو حقيق به من الحفاوة والاحتفال فى الأوساط الأدبية والعلمية التى توجب عليها مهمتها الشاقة إمحاض النصيحة للأمم العربية ، بتشجيع القائمين بأعمالهم المجيدة فى صمت وسكون ورفق . ومن أعجب العجب أن تعقد المحاضرات والمناظرات الكثيرة التى تعتمد أكثر ما تعتمد على الثرثرة ومضغ الأحاديث والتمطق بمبذول الكلام ، وتجتمع لهذه المحاضرات والمناظرات فئات كثيرة من طبقات الناس ، وفى صدرهم كثير من أصحاب الأمر وعظماء الأمة ثم يعقد هذا المجمع مؤتمره مرة فى كل عام فلا يلقى من هذه الفئات ولا من هؤلاء العظماء ما هو أهل له من المتابعة والاهتمام أو المجاملة إن شئت .

وكان الظن أن تعمل وزارة المعارف والجامعة وسائر المعاهد والوزارات التى يتناول المجمع - بعض ما يخصها أو يقع فى حدود أعمالها - بالبحث والدرس والتحقيق والكشف . كان الظن أن تمهد هذه له سبيل إبلاغ صوته إلى أكبر عدد ممكن من المثقفين ، تشجيعًا له وللقائمين عليه ، وطلبًا للمنفعة التى تأتى من إثارة اهتمام هذه الجماهير بنتائج الأبحاث العلمية وأنواعها ، وضروبها المختلفة التى

يقوم المجمع وأعضاؤه على إعدادها ومتابعتها والعمل على نشرها ، لتكون سببًا من أسباب اليقظة العلمية التى تقتضيها النهضة الحديثة فى الشعوب العربية .

وقد جمعنى مرة مجلس فيه فئة من كبار الأساتذة فى بعض المعاهد العلمية العالية ، فلم أجد عند أحد منه خبرًا يعلمه عن هذا المجمع ، فما ظنك بعمله أو إنتاجه أو غايته التى أريد لها إنشاؤه وتأسيسه ؟ وهذا أمر يؤسف له ، ويوجب على المجمع وعلى كل ذى رأى أن يعمل على تنبيه الوزارات والمعاهد إلى قيمة هذا العمل الذى يقوم عليه المجمع ، وإلى توجيه أنظار الناس إليه بكل سبيل ، حتى يستطيع أن يؤدى إلى الناس مايرغب فيه من نشر الثقافة العلمية التى يحتاج إليها هذا الشعب فى كل أغراضه وأعماله ، وفى بعث الروح العلمية التى تكفل له القيام بالعبء المثقل الذى يريد أن ينهض به فى بناء الحضارة الجديدة التى يتهيأ الشرق لوراثتها عن الحضارات التى هى فى سبيل إلى الهلكة والتدمير والبوار .

هذا وقد بدأ المجمع مؤتمره لهذه السنة بالمحاضرة التى ألقاها الدكتور حافظ عفيفى باشا عن « الأصول العلمية الحديثة وتطبيقها على الزراعة » ، وقد عرض فيها لأهم مايشغل الأسواق المصرية فى هذا الوقت ، وهو نظام الحاصلات والأسواق الداخلية ، فأبان كل البيان عن وجه المصلحة التى يجب أن يقصدها القائمون على أمر الشئون الزراعية فى هذه الأوقات العصيبة المنذرة بأن الأزمات على الأسواق التجارية . ثم تبع ذلك بحث فى أهم ما يخافُ منه وما تخشى عواقبه فى أزمان الحربِ ، وهو تفشِّى الأمراض والأوبئة ، وما يجبُ على الشعب المصرىّ وحكومته أن تعمل على تفاديه بكل سبيل . فألقى الدكتور عبد الواحد الوكيل : « حاجة البلاد إلى تعديل خططها الطبية والصحية » ، وقد أبانت هذه المحاضرة عن هول الحالة الصحية التى تختفى فى كل ناحية من نواحى هذا الشعب المهمل المسكين .

آلهة الكعبة

كنت قرأت فى البريد الأدبى من عدد الرسالة ٣٥٠ كلمة للأخ محمد صبرى فى قصيدة الأخ الشاعر محمود حسن إسماعيل ، ينكر فيها أن « اللات ، والعزَّى ، ومناة » من آلهة الكعبة ، قال : « وليس واحد من هذه الثلاثة من أصنام الكعبة ، بل لم

يكن واحد منها داخل الكعبة ولا حولها » . ثم استشهد قول ابن الكلبى فى كتاب الأصنام ، حين ذكر مواضع هذه الأوثان الثلاثة . وقد كان اعترض بعض أصحابنا قبل ذلك – فى مجلس الأستاذ الزيات – بمثل ما اعترض به الأخ صبرى ، فرُمتُ أن أقول : إن وجود هذه الثلاثة فى الكعبة أو حولها ليس يَمْتَنِع : وذلك لأن ابن سعد ذكر فى طبقاته أن رسول الله ﷺ طاف بالبيت – بعد فتح مكة – وهو على راحلته ، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل كلما مر بصنم منها يشير إليه بقضيب فى يده ويقول : ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ . فيقع الصنم لوجهه . وابن الكلبى لم يعد لنا فى كتابه الأصنام غير أسماء ثلاثين صنما ، وزاد زكى باشا عليها تسعة وأربعين صنما ، فهذه خمسة وسبعون [١] ، فأين هى من ثلاثمائة وستين ؟ ... وما كانت كل هذه الأمة من الأصنام إذن – إن لم يكن منها اللّات والعُزّى ومَنَاة ، وهى أشهر أصنام الجاهلية ، وهى المذكورة فى القرآن فى سورة النجم ، وقد كان نزولها بمكة ، وما أظنها تذكر بأسمائها إلا وكفار قريش يعظمونها ، فإذا عظموها اتخذوها فى الكعبة وهى بيتهم المعظم ، كما كانوا يتخذون الأصنام فى بيوتهم ودورهم . ثم رأيت أخيرًا أن ابن سعد يذكر فى فتح مكة أن رسول الله بث السرايا إلى الأصنام التى حول الكعبة فكسرها ، منها : « العزى ، ومناة ، وسواع ، وبوانة ، وذو الكفين . فنادى مناديه بمكة : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَدَع فى بيته صنما إلا كسره » .

ثم جاء كلام أبى جعفر الطبرى فى تفسير سورة النجم ج ٢٧ ص ٣٦ يقطع الشك باليقين إذ يقول . « وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب من أهل البصرة يقول : اللات والعزّى ومناة الثالثة – أصنام من حجارة كانت فى جوف الكعبة يعبدونها » ، وهذا هو المعقول ، وليس من المعقول أن تخلو كل هذه الأمة من الأصنام التى كانت حول الكعبة من تماثيل منصوبة للات والعزى ومناة الثالثة ، وهذا ليس يمنع أن تكون القبائل غير قريش مكة قد اتخذت لها أنصابًا نصبتها فى الأماكن التى ذكرها ابن الكلبى وغيره .

* * *

(١) كذا جاء بالأصول ، والصواب : تسعة وسبعون

الأغنياء ...

كانت ليلة السبت السالفة من الأسبوع الماضى ، فوقع فى دنيایَ أمرٌ مُفْزِعٌ كنتُ معه كمن عَمِى دهرًا من عمره ثم أبصر . فأخذتنى الحيرة أخذًا شديدًا ، وتضرَّبتْ نفسى كما يتضرَّبُ الماءُ فى مرجَله على معركةٍ من النار تشتعلُ من تحته وتتسعر ، وتقاذفَتْنى الهموم كما يتقاذفُ تيَّارُ البحر الأعظم موجةً هائمة من موجِهِ ، وتنزَّى قلبى بين ضلوعى كما تتنزَّى الكرَةُ مقْذوفة من علُ ، وهاجَ هَيجى واضطربَ أمرِى وتغوَّلَتْنى الأفكارُ الخائفة الحزينة المجرَّحة التى تَدْمَى أبدًا ، فلا تحسمُ الدَّم ، وانقلبتُ بِهَمِّى أدورُ فى نفسى دَوْرة المجنون فى دنيا عقله المريض المشعَّث . وهكذا قَضَّيتُ ليلَ أيامى ، وليس لمثل هذه الأيامِ نهارٌ .

ودعوتُ ربى جاهدًا ، وكنت من قبل أدعوهُ ، إنه هو البرُّ الرحيم ... ، وكنتُ أرى الدنيا كلها وكأنما ارتدتْ لعَيْنَيَّ غِلَالةً من سرابٍ تخفِقُ عليها وتميدُ وتتريّعُ ، وإذا الأرضُ غيرُ الأرضِ والناس غيرُ الناسِ ، وإذا كل شئٍ يجىءُ ويذهبُ ، ويبينُ ويَخفى ... ، وفقدتْ الأشياءُ معانيها فى نفسى ، فما أرى إلا بؤسًا وخَصاصة وجوعًا وعُرْيًا ، وإذا كلُّ شىء بائسٌ فقيرٌ جائعٌ عارٍ لا يستره شىءٌ ... اللهم إنى فوضتُ أمرى إليك وألجأتُ ظَهرى إليك ... ومضيتُ أنسابُ فى أيامِى البائِسَة ، حتى إذا كان الليلُ فى أَوَّلِهِ مُذ أمس ، أويتُ إلى بيت كتبى آخذُ كتابًا لا ألبثُ أُلقيه كأنْ بينى وبينه عداوةٌ أو حقدٌ قديمٌ . فضِقتُ ثم ضقتُ وخَنقنى خانقُ الضَّجر واليأسِ ، وغاظنى ما غلبنى على عقلى وإرادتى ، فأهويتُ بيدى إلى كتاب عزمتُ ألا أدعه ، وإذا هو : « إغاثة الأمة ، بكشف الغُمَّة ، للمقريزى » . وفتحتهُ وانطلقتُ أقرأ ، فما أجوز منه حرفًا أولَ إلا وجدتُ الألفاظَ تتهاوى فى نفسى وفى عقلى ، وكأنها تُقذفُ فيهما من حالقٍ ، حتى لَوجدتُنى أسمع لها فيهما صلصلةً

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد : ٣٥٧) ، ١٩٤٠ ، ص : ٧٧٧ – ٧٧٨

ودويًّا وهدًّا شديدًا شديدًا ، كأن فى نفسى وعقلى أبنية تنقضُّ وتتهدمُ فى كفِّ زلزلة .

وإذا بحر يموجُ لعينيّ أسمعُ هديرَه وزئيره وزمجرة أَمواجِه فى الريح العاتية ، وإذا هو أحمرُ كالدَّم يَفُورُ ويتوثَّبُ ، وإذا صرخةٌ تخفت زمجرة الأمواج ، وإذا هو هاتف يهتف بى : « قم إلى صلاتك ، فقد أظلك الفجر !! » . فانتبهت فزعًا وإذا أنا أقلب الصفحة التاسعة والعشرين من هذا الكتاب ، وإذا خطوط حمر قد ضربتها فوق هذه الأسطر : « ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء ، وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع ، فكان الأب يأكل ولده مشويًّا ومطبوخًا ، والمرأة تأكل ولدها ... فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذه أو شيء من لحمه . ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيأ ، فإذا هى لحم طفل . وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت »[*] .

أين يعيش أحدُنا وهو يقرأ ؟ هذه تسع ساعات يخيَّل إليَّ أنى قضيت ثمانى ساعات منها وأنا أقرأ هذه الأسطر القليلة أُقلِّبها لعينى فتتقلَّب معانيها فى نفسى ، إذ كانت تنزع فى معناها إلى الآلام المتفجرة بدمى فى قلبى ، فلا يكون الحرفُ منها إلا أفكارًا تتَّسع وتتراحب وتتداعى وتتوالد ويَنْسَخ بعضها بعضًا . ولو ذهبتُ أكتب ماقرأته فى نفسى من هذه الأسطر ، وما تحدثت به النفس من حديث أَكَلَ ثمانى ساعات من أول الليل إلى مطلع الفجر ، لملأ ذلك ما يقع فى كتاب مفرد ، ولكن ...

لماذا لا تكون هذه القسوة المتوحشة إلا من أعمال القلوب المتحجرة فى بيوت الأغنياء والأكابر ؟ ولماذا يكون أقسى القسوة فى قلب المرأة الغنية ، فتكون هى أعظم استهانة بجريمة أَكْلِ ولَدِها الذى ولَدَتْه ؟ ولماذا يكون الفقير والفقيرة

(*) كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » هو تاريخ المجاعات التى كانت بمصر ، وقد طبع بلجنة التأليف والترجمة والنشر منذ أسابيع . وهذا الذى نقلناه من تاريخ المجاعة التى كانت بمصر فى الدولة الأيوبية سنة ٥٩٦ فقيل فيها : « سنة سبع افترست أسباب الحياة » (شاكر) .

دائمًا هما مِثالُ الرحمة والحب والعطف والحنان ؟ أليس الناس جميعًا – غنيُّهم وفقيرُهم – سواء فى هذه الحياة ؟ بَلَى ، ولكن ...

ألا إن هذا المال نعمة من نعم الله التى استخلف الإنسان عليها فى الأرض ، وفى الحياة الدنيا ، ألا وإن المالَ عِصامُ هذا الكون الممتلىء بأسراره العجيبة التى لا يُقضى من أعاجيبها عجب ، ألَا وإنه لَلنِّظَام الطبيعى الذى يجعل من قانونه سر الحياة الإنسانية التى لا تسمو إلا بالمنافسة والرغبة فيها والإصرار عليها ، ألا وإنه لأعجب شىء فى الحياة ، إذ يكون هو كل شىء ، ثم هو ليس بشىء على الحقيقة ، وإذ يكون فى وَهْم الفقير القلق سِرّ السعادة ، ثم يكون عند الغنى المسترخى فلا يعرف به ظاهر السعادة . ألا إنه العجب والفتنة ، إذ يكون سر الحياة الإنسانية المدنية على الأرض ، ومع ذلك فهو إذا مَلأَ الغَنىّ أفرغه من إنسانيته ، وإذا فرَغَ الفقير منه امتلأ إنسانية ورحمة وحنانًا ، ثم يكون بينهما أشياء فى هذا وفى ذاك تختلط وتضطرب ويرمى بعضها فى بعض حتى يصبح كل شىء فسادًا لا صلاح له .

« أكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت ! » و« أكثر مايفعل ذلك النساء ! » إنه ليس عجيبًا ولكنه مؤلم ، إنه ليس بعيدًا ولكنه مفزع ، إنه هو الحقيقة الدائرة مع معانى الثراء والغنى والترف والرفاهية ، ولكنها الحقيقة الضارية المتوحشة التى انطلقت من قيودها حين أزَمتها الحاجة والقحط والجوع ونداء المعدة التى تتلوّى أمعاؤها كما تتلوى الحية الجائعة على شهواتها المتجسدة فى فريستها . ليس هذا هو كل شىء ، وليس القحط وحده هو الذى يُضَرِّى عبيد المال فيأكلون بنيهم وبناتهم أكل الوحش الطاغى بطغيان حيوانيته التى تريد البقاءَ لنفسها ، ثم لا تعرف غير نفسها ، ولا تعبد إلا نفسها . إن كل أزمة تطلق فى أعصاب الأغنياء – إلا من رحم ربك – وحشًا آكلا طاغيًا مستأثرًا لا يرى إلا نفسه ولا يريد البقاء إلا لنفسه . فإذا وقع القحط بين صديقين أحدهما غنى كان صديقه طعامًا تفترسه الصداقة الغنية ! وإذا وقع القحط بين حبيبين أحدهما ثرىٌّ مترف تثاءب عنه يريد النوم لأنه شبع من حبه حتى تملّأ ! وإذا وقع القحط بين أخوين أحدهما غنى ، كان حق الرحم عليه أن يشرب ما بقى من دم أخيه يستولغ فيه حتى يَرْوَى !

إن الترف والنعمة والكفاية ، وأحلام الغنى وكنوز الثراء ، إن هى إلا الماحقات الآكلات التى تمحق العواطف الإنسانية النبيلة حين لا ملجأ إلا إلى الخشونة والشدة والصبر وحقيقة الفقر . إن الفقراء هم أكثر الناس رغبة فى النسل على ضيق رزقهم ، والأغنياء أقل الناس إقبالًا عليه على مايجدون من السعة . الفقراء أشد حزنًا على من فقدوا من أبنائهم وأحبابهم ، ولكن أولئك لا يحزنون إلا ريث يشعرون الناس أنهم حزنوا ، ولئلا يقول الناس إنهم لم يحزنوا على أحبابهم ... الأغنياء ، الأغنياء ... نعم هم زينة الحياة الدنيا ، ولكن مع الزينة الخداع ، ومع الخداع الضعف ، ومع الضعف القسوة حين تجد ما يتلين لها أو يتساهل أو يستكين ... أو يثق .

فمن صادق غنيًا فليحذر ، ومن آخى ثريًا فليتحصن ، ومن عامله فليرهب ، فإذا بلغ المرأة الغنية فأحبها فخيلت له أنها أحبته فوثق بها فقد هلك ، وإنما هو ملهاة من ملاهى الترف ، إذا فقدت لذة اللهو به نبذته لما به .

* * *

نجوى الرافعى

أيها العزيز !

« فى القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تَفْنَى وفى القلبِ تُحْفَرُ القبورُ العزيزة التى لا تُنسى » هكذا قلت (**) « وعواطفى تشيِّع الميت الحبيب مطرقة صامتة » واليوم ماذا أقول ؟ أمَا إنك لتعلم - أيها الحبيب - أن الذى بينى وبينك دنيا تمشى الأحزان فى أرجائها نائحة باكية ... لستُ أكفر بأنعم الله علىّ أوعليكَ ... ، كلا ، كلا !! لقد ذهبتَ إلى ربك راضيًا مرضيًّا فرحًا بلقائه ، مؤمنًا بما زيَّن فى قلبك من الإيمان ، وبقيتُ أنا لأبحث عن أحبابى بعدَك ، ... لأفقد لذَّة المعرفة التى يفيض فيضها من الصداقة والحب ، ... لأتلدَّدَ هاهنا وهاهنا حائراً أنظر بمن أثق ، ... لأجدَ حرَّةَ القلب وكَمد الرُّوح وألَم الفكر من حبى وصَداقتى ، ... لأسير فى أودية من الأحزان بعيدة : أمشى وحدى ، وأبكى وحدى ، وأَتأَلَّم وحدى ... لا أجدُ من أنفُضُ إليه سرَّ أحزانى ، ...

ذهبتَ وبقيتُ ... لأتعلَّم كيف أُنافق بصداقتى بعضَ النفاق لأنهم يريدون ذلك ، ... لأُجيد مهنة الكذب على القلب لأنهم يجيدون ذلك ، ... لأتعلَّم كيف أنظر فى عيونهم بعينين لئيمتين يلتبس فى شعاعهما الحب والبغض ، لأنه هو الشعاع الذى يتعاملون به فى مَوَدَّاتهم ، ... لأُفْنِيَ بقائى فى معانيهم المتوحشة إذ كانوا هكذا يتعايشون ، ... لأحطِّم بيدىّ بنيان الله الذى أَمَرَنا بحياطته ، وأتعبَّد معهم للأوثان البغيضة الدميمة التى أنشأتها أيديهم المدنسة القذرة ، ... لأجنِى الثمار المرّة التى لا تحلو أبدًا ، ولكنهم يقولون لى : هذا ثمَرٌ حُلوٌ ، فلماذا لا تأكل كما يأكل الناس ؟ ...

ذهبتَ - أيها الحبيب - وبقيتُ ... ، بقيتُ فى الحياة التى أوَّلها لذةٌ وآخرها لذْعٌ كأحرِّ ما يكون الجمرُ حين يتوهج ، بقيتُ للحياة التى تريدُ أن تسلُبَ القلبَ براءَةَ الطفولة لتملأهُ إثمًا وخداعًا وشهوةً ... بقيتُ على الحياة فى الأرض التى

(*) الرسالة العدد (٣٥٨) ، ٣ مايو ١٩٤٠ ، ص : ٨٢٤ - ٨٢٦

(**) الرسالة : العدد (٢٠٢) ، ١٧ مايو ١٩٣٧

تميدُ وترجفُ وتحتدمُ من تحتى ، لأنها تنكر الإيمان الذى يمد بسبب إلى السماء ... بقيتُ بقاءَ حبة القمح فى رمال الصحراء المجْدبة لا أجدُ مائِى ولا ترْبتى ... ولا من يزرَعُنى ...

شدَّ ما اختلفتْ علىَّ أحداثُ الحياةِ من بعدِكَ أيها الحبيب ! كنتُ أشكو إليكَ ما أُلاقى من ظمأ الروح الهائمة ، وهى تطوف بحسراتها على ينابيع الحياة لا تنتهى ولا تستطيع أن ترِدَ ... كنتُ أبثُّك أحزانى وهى جالسةٌ توقِد النارَ على نفسى وتؤرِّثها بأفكارى القلقة التى لا تهدأ ولا تنقطع ... كنتُ أشكو إليك آلامَ الشَّوْكِ الذى تنْبِتُهُ فى قلبى الشُّكوكُ العاملةُ الناصبةُ التى جعلتْ همَّها تعذيبى بالحيرةِ والخوفِ والحرمان ... والحقيقةِ المؤلمة أيضًا ... كنتُ أجدُكَ حين ينبغى أن أَجدَك ، لأقول لك مايجبُ علىَّ أن أقول ...

شدَّ ما اختلفتْ علىَّ أحداثُ الحياة من بعدك أيها الحبيب ! وها أنذا أريدُ أن أجدَ بعدَكَ من أضعُ فى يديه الرفيقتين هذه الجروحَ الداميةَ النابضةَ التى أُسمِّيها قلبى ... أريدُ أن أضعَ أفكارِى التائهة فى بيداءِ الظنون المقفرة ، بحيثُ تجدُ مَن يتولى أمر إرشادها إلى رَوْضة اليقين الناضرة ... أريدُ أن أجدَ مَلْجئى المؤمن حينَ تطارِدُنى من الظنِّ صعاليكُه الكافرة ... أُريدُ أن أعرفَ لذَّة الصداقة والحبِّ حين لا أجدُ من الحياة إلَّا آلامَ صداقتى وحبِّى ... أُريدُ ... أُريدُ ! ... أُريدُ مَنْ أقول له : ها أنذا بعَذَابى وضَعْفى وخُضُوعى ؛ فيقول : وها أنذا بصبرى وقوَّتى وحبى لك ... أُريدُ من أقولُ له : هذه جروحى التى تَنْفُثُ الدَّمَ ، لا ترْقأُ ولا تستريحُ ولا تبرأُ إلَّا على وعى من دَمِها ؛ فيقول لى : وهذا طِبِّى الذى يحسمُ هذا الدم لتستريحَ وتبرأَ من أَلم النزيف ، يابُنىَّ ... !

(يابُنَىَّ ...) ، هذه طفولتى ، أريد من يحنو علىّ بها حنو الأم على صغيرها الذى هو كل أشواقها الرقيقة من قلب نبيل رقيق ... (يابُنَىَّ ...) ، هذه طفولتى ، أريد من يمسح بها أحزانى التى حيَّرت بصرى لأعرف من بعد طريق رجولتى التى تريد أن تعمل وأن تسير وأن تصل إلى سر أشواقها البعيدة الجميلة ... (يابُنَىَّ ...) ، هذه طفولتى ، أريد من يعرف أنى طفل وديع حين أؤوب من كدِّى وكدحى ،

فيتلقانى بين ذراعيه إلى قلبه لأشعر بحنان من الروح يطفئُ غلتى ، ويرسل فى أعصابى ريَّها من الحب ، الحب الذى هو فجر الحياة بنعومته ورقته وطهره ، الحب الذى يردُّ القلب المكدود الظامئ زهرة تتفتح فى جو من النور والندى والشباب ... (يابُنَىَّ) ، من يقولها لى يضع فى نَبْض أحرفها نبض الحب ...

أين أنت أيها الحبيب ؟ كنتَ أخى وصديقى ومن أستودعه سر قلبى المعذب فى تنُّور الحياة الموحشة التى يضطرم جوها بالصمت المتوهج والوحدة المستعرة ... كنت أخى وصديقى ، وأنا أبيد كما تبيد الأيام والليالى فى كهوف الحياة الدنيا ... كنت أخى وصديقى ، وعواطفى تزأر وتجأر فى باطنى كأنها وحش جريح متألم ثائر لا يرى مَن جَرحه لينتقم ... فالآن وقد جددت الدنيا أساليب تعذيبى عذابًا ضِعفًا من الآلام ... الآن وقد أوجدتنى الحياة ما أريده ، ثم وضعت بينى وبينه سدًّا يصف ما وراءه من أشواقى ويقف دونى فلا أنفذ منه ... الآن وأنا أشتعل وأتفانى من جميع نواحىَّ ... الآن وأنا أتوثب فى قيود مرخاة تمنحنى الحركة وتمنعنى دون الغاية ... الآن وأنا أمزق جو حياتى بزئيرى وأنيابى ومخالبى ، وأُحرقه بوجدى ولوعتى واشتياقى ...

الآن أين أنت أيها الحبيب ؟ يا أخى وصديقى .

انظر إلىّ - أيها الحبيب - من وراء هذه الأسوار المنيعة التى تفصل بين الحياة والموت ... الأسوار التى تمشى إليها الحياة كلها ساعة بعد ساعة دائبة ماضية لا تقف ، فإذا بلغتها ابتلعتها من حيث لا تشعر ولا تتوقَّعُ ... انظر إلىَّ - أيها الحبيب - وتكلَّم بكلامٍ من شعاع مضىء حىٍّ يُفهمُنى حقيقتى الحية ، ويضىء لعينى هذه الظلمات التى تعترك بين يدى فى مدِّ عينى ... انظر إلىَّ - أيها الحبيب - واسكُبْ فى قلبى ورُوعى حقيقة الإيمان الحىّ الذى لا يموت ... انظرْ إلىَّ واصحبْنى فأنا الذى لا يصاحبُ الأحياء من الناس ، لأنهم لا يعرفون معنى الحياة إلا فائدة تلد فائدة ، كما يلد بعضهم بعضًا فى مَشيمَة من الكره والعنتِ وآلام المخاضِ وأمشَاجٍ من الدم يشْخَب من حولها ويتضرَّجُ ويقيحُ بعضُه فى بعض .

ولكن ... ولكن ما أكذب النَّفسَ على النفْس ! أنتَ هناك بحقيقتك الخالدة التى تحيا بأمر الله فى جو السماء ، وأنا هنا بحقيقتى الفانية التى تموت يومًا بعد يوم بأمر الله فى جو هذه الأرض ... أنتَ هناكَ وأنا هنا ، وبينهما البرزخ الذى لا تجوزه الروح إلا بعد أن تتطهر من أدران هذا الدم المتجسِّد فى أجلاد الإنسان ... أنت هناك وأنا هنا ، فكيف أنخلعُ من ثَوْرَتى التى أنا بها هنا ؟ كيف أنخلع من جسدى ؟ ومع ذلك ...

« ففى القلب تعيشُ الأرواح الحبيبة الخالدة التى لا تفنى وفى القلب ... تُحْفَر القُبُور العزيزة التى لا تُنسى لم أفقِدْك – أيها الحبيب – ولكنى فَقدتُ نفسى » .

ذكرى الرافعى

لستُ أدرى ! فأنا أذكر الرافعىّ . أعرفهُ أديبًا شاعرًا فيلسوفًا ... رجلًا قد انصرف بهمِّه إلى الأدب والفكر يجدُ فيهما ما يَجِدُ ، ولكنى حين أذكره لا أجده فى نفسى إلا الصديق وحده . لم أعاشره طويلًا حتى أقول إنى أعِى للناس خبره وأعرف عنه ومن أمره ما لا يعرفه غيرى ، كلا لست أدعى ما ليس عندى ولكنى كنت أبدًا معه بحبى له وصداقتى ، وكان هو أبدًا يحوطنى بروحه فى أنفاس من حنانه وحبه . كنا روحين تناظرتا من بعيد وتناسمتا من قريب فعرفته وعرفنى . كان بيننا سرٌّ جامعٌ لا أدرى كيف أصفه ، ولكن كان من يعرفنى ويعرفه يجد آثاره ويرى من بعض بيناته ما لا أحبُّ أن أحدِّثَ به . ومع ذلك فأنا أقصر فى حقه ما لم يقصِّر أحد ممن توجبُ عليه الصداقةُ بعض واجباتها ، ولم يكن ذلك ، لأنى لا أريد ، بل لأنى لا أستطيع ولا أطيقُ فمازلتُ كلما ذكرتُ الرافعى – وقد مضت سنوات – أجد لذعة حُزْن فى قلبى تُرسلُ آلامها فى كلّ سابحةٍ من دَمِى .

ولكن الله لم يُخْلِ حقَّ الرافعى من رجُلٍ يقوم عليه ويُحسنُ النظر فيه ، فهيأ له الأخ « محمد سعيد العريان » ، يرد – بوفائه لذكرى الرافعى – كل ما وجب على أصدقاء الرافعى وأبنائِه وتلامذته ومُتَّبِعيه . فقد بادر « سعيد » بعد وفاة الرافعى فأنشأ يحدّث الناس بأخباره ما دَقَّ منها وما جلَّ ، ويضع بين أيدى الأدباء أكثر العوامل

التى يتكوَّن منها تاريخ الرافعى ، والتى كانت تعمل فى إنشاء أدبِه وتوجيه بيانِه . وفتح « الزيات » باب القول فى الرافعى له وعليه حتى اجتمعتْ من ذلك طائفةٌ من القول صالحةٌ لدراسة أدب الرافعىّ دراسة جيّدة لمن ينبعث نفسهُ لها . ولكن الأخ « سعيد » لم يرض أن يقنع بذكره هو عن الرافعى وجمعه فى كتابه الذى طبعه بعد وسمَّاه « حياة الرافعى » ، فدأب على إظهار ما لم يظهر من آثار الرافعى قديمها وحديثها ، وقد كان آخر جهد بذله فى ذلك سعيه لإنقاذ مؤلفات الرافعى كلها من الضياع . فانتدب لجمعها وتصحيحها ومراجعتها وطبعها بعد ذلك سلسلة واحدة تقوم بنشرها « المكتبة التجارية » . وقد كاد يفرغ من طبع أكثرها ، وأنا أعلم أن بين يديه الآن كتابًا من كتب الرافعى التى لم يتمها وكان أصولًا مبعثرة رديئة الخط كثيرة الاضطراب ، وهى أصول الجزء الثالث من كتابه الجليل « تاريخ آداب العرب » ، واستخراج هذا الجزء وحده دون سائر كتب الرافعى يعد عملًا عظيما ووفاء نبيلًا لرجل هو كسائر الأدباء : حياته حياة أدبه ، فإذا مات لم يجد فى هذا الشرق الغافل من ينفخ الحياة فى آثاره الأدبية مرة أخرى .

إن هذا التراث الذى خلفه الرافعى للأدب العربى ، قد جعله الله أمانة بين يدى « سعيد » فهو يؤدى اليوم إلى الناس هذه الأمانة وافية كاملة لم ينتقص منها شىء - إلا شيئًا يعجزه أن يهتدى إليه أو يقع عليه ، وغدًا يجد الناس بين أيديهم كل ماكتبه الرافعى حاضرًا لم يضع شىء منه وكذلك يجد من يريد سبيله إلى معرفة الرافعى من قريب وتقديره والحكم إما له وإما عليه .

مصر المريضة

ألقى الدكتور عبد الواحد الوكيل بك ، أستاذ علم الصحة بكلية الطب ، فى المؤتمر الحادى عشر للمجمع المصرى للثقافة العلمية محاضرة هى تصوير للآلام التى تعانيها الصحة فى مصر ، وتمثيل للحقائق المؤلمة المخيفة التى تعمل عملها فى هدم البناء الصحى للأبدان المصرية . وقد نشر صديقى الأستاذ « فؤاد صروف » قسما من هذه المحاضرة فى مقتطف مايو سنة ١٩٤٠ ، فأخذتها

وقرأتها وأنا أرجف بالرعب والفزع لما مثل لعينى من تلك الحقائق البشعة الشنيعة ، وهى على بشاعتها وشناعتها متفشية منتشرة تغزو مصر من جميع نواحيها غزوًا مهلكاً مبيرًا ، ثم لا تجد من يرده عنها من الجنود المجندة المقاتلة التى هى كل صناعة الطب وأسباب صناعته .

لقد عمد الدكتور الوكيل إلى الإحصاء الصحى فى مصر ، فبان منه أن البلاد إذا لم تتدارك أمر الصحة بأوثق العزم وأحكم التدبير وأسرع العمل ، فسوف تنتهى إلى فناء محقق يأكل القوة المصرية كما تأكل النار يَبْس [1] الهشيم . ونحن فى فاتحة عصر رهيب قد بدأ بالحرب المجتاحة ، تأتى معها الأوبئة والأمراض وتجر فى أذيالها أوبئة أخرى وقحطًا ومجاعة - إلا أن يشاء الله . والعالم كله يخشى ويتأهب ويستعد ، فهل عمدتْ مصر إلى جعل الوقاية الصحية تدبيرًا ممتدًّا مع أسوأ الفروض التى يمكن أن توحى بفرضها أوهامنا ومخاوفنا وتشاؤمنا من الأيام المحاربة والأيام التى تلْقى عن عواتقها أوزار الحرب بعد أن تأكل القوة بعضها بعضًا فى ميادين الوَغَى والقتال ؟

يقول الدكتور الوكيل : « ونحن إذا رجعنا إلى نسبة الوفيات العامة سنة ١٩٣٧ فى مصر وثلاثين دولة أخرى فى مختلف القارّات متدرجين من الأسوء إلى الأفضل ، اتضح لنا أن مصر فى رأس هذه القائمة ؛ ومن هذه البلدان : الهند واليونان وبلغاريا وفلسطين » ... لا ، بل أكثر من ذلك ، وهو أن الإحصاء يدل دلالة قاطعة على أن الأطفال هم ٥٥٫٨٪ من مجموع الموتى ، وأن هذه النسبة فى صعود متواصل حتى فى هذا العهد الذى نحن فيه . بل انظر إلى الأصل فالدكتور الوكيل يقول : إنا إذا أخذنا الأمراض المتفشيه كالبلهارسيا والأنكلستوما والرمد والسل والأمراض العقلية والملاريا والتيفوس والتيفود والدفتريا والأنفلونزا الحادة والحمرة وغيرها ، ثم جمعنا بعضها إلى بعض مرضًا مرضًا كانت مايربو

---

(١) اليَبْس واليابِس بمعنى .

على ٥٠ مليون مرض ، فإذا وزعت هذه الملايين على المصريين أصاب كل شخص ثلاثة أمراض فى وقت واحد .

وهذه النتيجة المؤلمة قد أفضت إلى هذه الغاية باهتمام القائمين على أمر الصحة والتعليم بالحضر دون الريف ، وبالذى كان من طغيان الجهل واستبداد الفقر بطبقات الشعب التى يتكون منها السواد الأعظم . وقد وضع الدكتور الوكيل مشروعه لمكافحة هذه الحالة ، فهل يمكن أن تكون الوزارات المختصة قد عرفت حق مصر فهبت إلى القيام بواجبها فى الدفاع عن البلاد لإنقاذها من براثن هذه الأعداء المتعادية المتخالفة على قتال الروح والحياة فى الشعب المصرى ؟ ذلك ظننا ، واللَّهُ خيرٌ حافظًا وهو أَرْحَمُ الراحِمِين .

* * *

إلى أين ... ؟

- ١ -

جلست وصاحبى تحت جنح من الليل كأنه باز أسود قد طوى أفقًا من السماء فى كهف من جناحه . وطمس هذا الليل الدامس ذلك الشعاع الذى لا يزال يبرق به وجه صاحبى كلما سكن ظاهره واطمأن ... وبقيت نفسه من وراء ذلك السكون الوديع تتوقد بأفكارها المشتعلة ، وترسل لهيبها يتلألأ على محياه ويتموج . وكان إحساسنا بمعنى الغارة الجوية ، يثير النفس ثم يجثم عليها متثاقلاً بوطأته ، فلا هو يجعلنا نثور فيخف مانجد من ثقله ، ولا هو يتركنا نهدأ .

وبقى صاحبى صامتًا لا يتكلم ، ولكنى كنت أكاد أجد الألفاظ والمعانى وهى تعترك فى داخله وتتشاجر . أما إنى ما رأيته - أو قل ما أحسسته - كاليوم . لقد كان كالعاصفة من اللهيب مكفوفة فى محيطها ، تدور وتتراكض ، وكان هو هذا المحيط . لقد رحمته حتى كدت مرات أقوم إليه أضع يدى على رأسه ، أقول : ذلك مما يخفض عنه بعض ما يغتلى فيه من سعير الفكر . ولكنى كنت أهاب أن أشعره أنى قد نفذت إلى بعض أسراره التى يريد كتمانها . فسكت معه ساعة أحتال فى خواطرى لفض هذه الأغلاق التى يضربها على ضمير نفسه ، فلست أشك أن بعض الحديث إذ اشتكى خفف وأراح .

لم تكن لى حيلة معه ، ولكن طول الصمت بينى وبينه فى ظل هذا الليل الأسود كان هو مفتاح هذه الأقفال الكثيرة . وكان الحجاب الذى أسدله دجى الليل هو الحيلة التى جعلته يقلق ويتململ فى مجلسه يريد أن يستكتمنى وهذا الليل سرًّا من القدر .

ثم سكت سكتة ظننت معها أن أنفاسه قد أبت عليه أن يتنفس بها . لقد كان يجاهد نفسه : كان هو يأبى أن يتكلم ، وكان الذى يجده فى صدره من الضيق يأبى عليه إلا أن يتكلم . كان نزاعًا هائلاً بين قوتين متحاربتين صارمتين عنيدتين

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٢) ، ١٩٤٠ ، ص : ٩٧٠ - ٩٧٣

متكافئتين ، لقد أَثْبَتَه ذلك حتى كاد يتمزق . إنى لأحس بل أسمع صوت التمزيق الذى يحدثه فى نفسه هذا الصراع المخيف الرائع بين إلحاح هاتين القوتين فى تنازعهما . ومضت الدقائق وأنا أعدها ساعات من عجلة النفس إلى تخفيف العذاب عن هذا الصديق البائس المحطم ، والذى يأبى عليه عناده إلا أن يتجلد .

ولكنه مالبث أن شق كثافة هذا الصمت المبهم بكلمة ضربت فيه :

لست أدرى !! لست أدرى !!

لقد سمعت لكلماته فى أذنى صليلًا كما يَصِلُّ الحجر الصلد على ضربة معول من الحديد الصلب . لقد بغتنى بصليلها حتى نسيت أفكارى فيه منذ أول الليل . ولكنى سرعان ما اجتمعت لحديثه وأردت أن أحتال للتخفيف عنه ما استطعت . فقلت : وكأنى أعلم خبء ما يشير إليه :

كلنا ليس يدرى . وهذه هى الحياة . إنك لا تستطيع أن تعرف الحقيقة حتى تخوض إليها الباطل خوضًا . إن الشك هو أعظم أعمال النفس الإنسانية ، فإذا ما ابتُلى به الإنسان فهو بين نهايتين : بين أن يهتدى فيلحق بالذروة فيستوى على عرش من عروش الحكمة ، وبين أن يضل ويتزايل فيتدَهْدَى على هذه الصخور الفكرية العاتية فيتحطم . وأىُّ ذلك كان ، فالمسألة كلها قدر محتوم ياصديقى ! رُفِعَتْ الأقلامُ وجفَّت الكتب .

لقد رأيت شرارتين تتطايران من عينيه فى جوف هذا الظلام ، ولكأنى اقتدحتُ بكلماتى من النار التى تكمُن فى تلك الصخرة الفكرية الململمة التى انطوت عليها ضلوع هذا الصديق المسكين ...

ثم رأيته يرتد مرة أخرى إلى صمته وصراعه ، ولكنى كنت أشعر به وهو يلين ويتخشع من كل ناحية . لقد كان هذا الصديق قاسيًا عنيفًا ، ولكنه كان رقيقًا أيضًا . وكان صبورًا ، ولكنه ربما استكان للجزع ، وكان مستوحشًا آبدًا ، ولكنه ربما ألف وطاوع وانقاد ، وكأنه لم يجمح مرة . وكان راسخًا شامخًا وطيد الإيمان ، ولكنى كنت أنفذ إليه أحيانًا فأجد الزلزلة التى فى قلبه قد جعلته يتزعزع ويتطامن ويضطرب بعضه فى بعض اضطراب الموج فى تياره .

لست أدرى ! ولكنى أريد أن أحدثك ، أريد أن أنبذ إليك من القول لتشركنى فى بعض الفكر ...

ثم سكت وسكن ، ولكنه أقبل على وقد جمع أطراف نفسه المبعثرة ، يقول :

... كانا صغيرين ، وكانت أيامهما الصغيرة لا تدرك معنى النظرات التى تلتقى فتتعانق ، فتتعقد عقدة لا تحل . وهكذا نسيهما الزمن فى معبده الآمن ، ثم انتبه يومًا فزفر بينهما زفرة واحدة فتفرقا . لم يدركا يومئذ شيئًا من معانى الفراق المهلكة التى تمحق النفس بالتأمل واللهفة والحنين ، بل نظرا ثم توادعا ، ثم افترقا ثم نسيا . أو هكذا كان ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة نسيانًا ، بل كان عملًا من أعمال القدر الغامضة ، كان تعبئة للأحداث العظيمة التى تتهيأ فتصنع النفس الإنسانية صنعة جديدة ، لقد عرفت ذلك فيما بعد . وتسحَّبت حواشى الحياة بينهما ، حتى رقت أيامهما الأولى ثم جعلت ترق حتى استحارت أحلامًا من الذكرى المبهمة ترف على القلب رفيف النسمات : لا تُرى بل تُحَس ، ولا تمسك ولكنها تلقى عطرها فى القلب وتمضى . نعم لقد نامت تلك العواطف الناضرة الصغيرة فى مهد من النسيان ، ولكنها كانت تنمو أيضًا فى جو هذا المهد .

ومشى الزمن بينهما يقيم سدودًا وأسوارًا من السنين وأحداثها ، وكما كبرا وامتدّا من أيام العمر ، كبرت السماء التى تظلهما وترامت آفاقها ، واستحالت الأيام الصغيرة الأولى أشباحًا ضامرة لا تكاد تبين من دقتها وخفائها .

ثم فجأهما القدر فتلاقيا بعد دهر طويل كما يتلاقى نجمان فى ظلمة الليل ، يتناظران لمحةً وشعاعًا من بعيد لبعيد . هكذا عرفتُ . لقد كان هو يحسُّ فى بعض أيامه قبل ذلك اللقاء ، أن الفلك قد دار دورته فى القدَر ، وأن القوة المسخِّرة قد قذفت به فى نظام من الجذب جديد ، فلم يكد حتى لمح له شعاعها من بعيد يليح إليه بأضوائه وكأنما يقول : أقبل ... هلم إلىَّ ... هأنذا ، هأنذا !

ولم يلبث أن أتم هذا الفلك دورته ، فإذا هما يتناسمان فى جوٍّ عطرٍ تنفح من أردانه أنفاس الأيام الصغيرة الأولى ... أيام الطفولة التى تنمو فيها عواطف القلب

وتتفتح ، كما تنمو الزهرة فى أكمامها تحت السَّحر فى مهد الفجر بين روح وشعاع وندًى .

واجتمعا ... فإذا هى غادة مضيئة تزهر . ولكأن الزمن اختطفها كل هذا الدهر وتسلل بها فى بعض مصانعه العجيبة ، وجعل يجهد جهده بأنامله النابغة الدقيقة ، فهو يجلوها ويصقلها حتى إذا فرغ من فنه الذى احتفى لها به ، ردَّها إليه ينبوعًا من النور الضاحك المرح يترقرق لعينيه ممثلًا فى صورتها ... لقد شبت الصغيرة ، ولكن شبابها كان رقَّة وحنانًا فى أُنوثتها ، واستوت فكان استواؤها دقَّة فى فن من جمالها ، ونمت نموًّا وضّاحًا ، وكأنما كان يَغْذوها نور الكواكب ويُرْضعها روح الزهر ... لقد وجدها وهى تضوع وتلألأ من جميع نواحيها ... لقد كان يخيَّل إليه أن النسيم من حولها يطوف بها متعبِّدًا خاشعًا ثم يسعى إليه حاملًا نفحة من نفحات الجنة . فكان يحس دائمًا أن جوها ينتقل إليه فينفذ إلى قلبه ، فيقعد هناك يتمتم يحدِّثه بأخبارها أو يصفُ له منها مايُوعِب هذا القلب الحزين افتتانًا ولوعة وحنينًا .

لقد شبَّتِ الصغيرة ... ، فنَضَتْ عنها كل مطارف الطفولة ، وتجلَّت جَلْوة العروس فى زينة من الصبى والشباب . لقد خلعتْ كل قديمها ، ولكن شيئًا واحدًا بقى كما هو ، لابل بقى أقوى مما كان وأصفى . تلك هى روحها ، الروح القوية الآسرة المتسلطة . تغيَّر كل شيء إلا عيونها التى تشفُّ عن هذه الروح التى لا تتغير . فالنظرة الباسمة الخاطفة التى كانت تخضع بها تمرد ذلك الصبى العارم الصغير ، هى هى النظرة الباسمة الخاطفة التى هجمتْ منه على الرجل فأضاء وميضها له الطريق ، وحبسته بأمرها وسلطانها على هذا الطريق نفسه وفى وقت معًا ...

ثم نحا صاحبى بصره إلى قِطْع من الليل جاثم من عن يمينه وأطال النظر فى جوفه . ثم خيل إلىّ أنه قد جعل يصغى إلى همس الليل ، ويتسمع وسوسته الخافتة إلى رمال الصحراء ، وبقى زمانًا لا يكاد يتحرك ، ثم انتفض فى مكانه انتفاضة خفيفة ، ما رأيتها ولكن رعدتها جرت فى دمى وأوصالى قشعريرة عرفتها .

ثم عاد إليّ يتنهد ويقول :

هكذا هى ... أو هكذا كانت ... أما هو ...

وارتعشت الكلمات فى نبراته وعلى شفتيه فأمسك وسكت ، وكأنه عزم ألا يتم ما بدأ من حديثه عن الرجل . فخفت أن ينقطع عنى دون خبره ، وأردت أن أستفزه من حيث أعلم كيف أستنبط نبع حديثه ، فعجلت إليه أقول :

أما هو - ياصاحبى ! - فقد كان مجنونًا تنشىء له أعصابه المريضة الهالكة معانيها التى لا حقيقة لها فى حقيقتها هى ، و ...

فانقض علىَّ بصوته يقول :

كلا ، كلا ! لا تقل هذا . ليس الأمر كذلك . لا تعجل عليه . إنك لا تعرفه ، ولو عرفته فما أظنك تحسن فهم حياته التى يعايش بها الناس . سأحدثك عنه ، لقد علمت أنك تريد أن تحملنى على ذلك ، ولا بأس إذن . لا أقول لك إنى فهمته ، واستطعت أن أكشف لنفسى عن سر طبيعته ، كلا ! بل أقول لك إنى لأحس بكل ما يعتلج فى قلبه من آلامه ، وكأنها عندى هى كل آلامى إنه رجل قد امتلأ حكمة من طول ما جرب ، ومن عنف ما لقى من الأحداث التى نقضت بناء حياته مرة بعد مرة . نعم إنه لملء رجولته تجربة ، ولكن ... ولكنى سأصفه لك على كل حال . سأحاول أن أعبر لك عن حقيقة معرفتى به . نعم ! هو إنسان غامض مبهم محير ، إذا صحبته رأيت من نقائضه التى تجتمع لك من أعماله وظواهره ، ما يلتوى بفكرك فيه من هنا إلى هناك ، حتى تجد وكأنما أنت تمشى منه فى غمض من الأرض منكر قد درست صُواه (١) وعَفَت رسومه وجهلت معالمه . لا تهتدى فيه أبدًا إلى شىء تستطيع به أن تقول : هذا هو ! هذه هى الفكرة ... ، هذا هو الطريق !!

سكت صاحبى قليلًا وقد طرح فكره فى مذاهبه ثم عاد يقول : فلنعد إلى حديثنا إذن ، لقد حملتنى على أن أذهب بك بعيدًا ... كذلك كانت هى كما

---

(١) الصُّوَى : علامات تقام فى الطريق يهتدى به المسافر .

وصفتها لك بل أروع مما وصفتها ، حين التقيا على غير موعد يتوقعه أحدهما ... أما هو فكان يومئذ رجلًا ضربًا [١] متوقدًا ثائرًا عنيفًا ، لا يزال يتمزع من جميع نواحيه كأن فى تجاليد شخصه روح وحش شارد لا يألف الحياة ولا هى تألفه . كان فكرة شامخة عاتية عضلة تأبى أن تتهضم لأحد أو تستذل . كان كالبركان فى عنفوان فورته تتقلَّع به صواعقه وزلازله . وهكذا كنت أبدًا أعرفه ، ولكنه كان مع كل ذلك يحب أن ينطوى على هذه العواصف التى تتقصف برعودها بين جنبيه ، ومن أجل ذلك كنت أجد فى عينيه أحيانًا بارقًا ساطعًا يتداركُ ويَتلهّبُ ، حتى يجعل نظراته كأنها سياط من الأشعة يتضرم اللهب على عذباتها [٢] ... لا تعجب ، فأشهد لقد خيل لى مرارًا أن نظرته هذه إنما تكوى من يتعرض لها أو من يجلده بها ، حتى لأخشى أن تكون تترك فيه من آثارها أخاديد تنتفض كسَلَع [٣] النار على الجسد .

لا تعجل ، ولا تشطط . لقد تعلم أنه كان – مع كل هذا الذى وصفت لك – إنسانًا وديعًا رقيقًا . كان قلبه خلاصة صافية ممثلة من الحنان والشفقة . ولكنه أصيب بأحداث كثيرة جعلته ظنونًا حزينًا ، فهو لذلك يضن بما فى قلبه أن يطلع على حقيقته الكاملة أحد من الناس . لم أر – فيمن رأيت من الناس – من هو أبعد منه مذهبًا فى الاحتراس والحذر ، ومع ذلك أيضًا ، فلو أنك رأيته فى بعض ساعاته لظننت أنه رجل غُمْر [٤] يختدعه عن نفسه كل أحد ، ولكنه ليس كذلك . نعم ، لقد كان هشا أحيانًا بين يدى من يتناوله ... فإذا أُخِذ بالاعتناف والقسر ، انقلب الذى فيه ضاريًا لا يطيق ولا يطاق .

هكذا كان أول ما تلاقيا ...

ثم صمت صاحبى ، وخيل إلىّ أنه يضحك . لقد كان يخافت من ضحكه ، كأنما هو يسخر ، ورجع إلىّ بعد قليل فواصل حديثه : كيف قلتَ فى نعته ؟ كان

---

(١) الرجل الضَّرْب : الممتلىء حيوية ونشاطا ، هكذا وصف طرفة نفسه فى معلقته .

(٢) عَذَبَةُ السَّوْط : طَرَفُه .

(٣) السَّلَع : آثار النار بالجسد .

(٤) الغُمْر : الغِرّ القليل التجارب .

مجنونًا تنشئُ له أعصابه المريضة الهالكة معانيها التى لا حقيقة لها فى حقيقتها هى ... !! نعم ، ربما كان ذلك صحيحًا من بعض وجوهه ، ولكنى على يقين من أنك لا تكاد تعرف وجه الحق فى تأويل هذا الوصف . لا بأس ومع ذلك ، فأى هذا الناسِ ليس مجنونًا على الحقيقة من بعض نواحيه ؟ إنك لو جهدت فتتبعت تاريخ الإنسانية كله لم يخلص لك من أصحاب العقل الكامل إلا أفذاذ قلائل . ومع ذلك ، فليس أحد من هؤلاء الأفذاذ قد نجا من قذف الناس إياه بالجنون . ألا فخبّرنى أى الأنبياء – وهم فضائل الإنسانية الكاملة – برىء أن يقول فيه أهله وعشيرته : « إن هو إلا رجل به جِنة » أو « ساحر » أو « مجنون » ؟

إن من أعظم حقائق الحياة الدنيا أن العقل لا يستطيع أن يدرك حقيقة العقل ، أى أنه لا يستطيع أن يدرك حقيقة نفسه ! و ...

وصدَع السكونَ صوت صفير الغارة الجوية ، فانتزع صاحبى ثم قال :

– أليس هذا هو صوت جنون سكان العالم ؟ أليس كذلك ؟

« لها تتمة »

* * *

إلى أين ... ؟

- ٢ -

قال صاحبى بعد قليل من سكتة صفير الإنذار بالغارة الجوية : الآن وقد صم صدى هذا النذير البغيض ، ومات صوت البومة الدميمة التى قامت تنعق على الموضع الخراب من عقل هذا العالم ، فأسرعت الأيدى وتناهضت الأقدام ، وخفت الأحياء ليطمروا أشلاء النهار التى كانت مبعثرة فى طرقهم وبيوتهم على معركة الليل البهيم ، إنهم يدفنون هذه الأشلاء الوهاجة خشية أن تراها عيون العافية [١] من سباع الجو المنقضة بأنياب كرجوم الشياطين . آه ياصديقى ! ما أقبح هذا وما أفجره . ولكن دعنى من هذا ، فالآن أعود إليك .

لقد مثلت لك بعض صورتها هى وبعض صورته عند أول اللقاء . لم أكشف لك بعد عن حقيقة النفسين وهما تعملان بأسباب من القدر ، إن هذه الأسباب التى لا يُدرى متى أولها ، قد أخذت تلتوى عليهما فيما يستقبلان من أيامهما ، وثمت بدأ الإشكال ، وتراكبت العقد الجديدة على تلك العقدة القديمة التى التبست عليهما فى الطفولة ، فلست أدرى ، ولاهما أيضًا يدريان ، إلى أين المصير !

لمحها ولمحته فى يوم اللقاء الأول ، فوقفا طويلًا ينظران . وشخص البصر وكفت العين لا تطرف ، وكأن العين قد أرسلت إلى العين رسلًا من أشعتها لتبحث فى أعماقها عن معانيها الحائرة التى لم تستقر بعد على قرار مؤمن ، تتبين فيه كلتاهما صورة كلماتها القلبية التى تنبض فى موج الدم .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٣) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٠٠٧ - ١٠٠٩

(١) العافية : التى تعفو ، أى تطلب ما تأكل ، يوصف بذلك السباع وجوارح الطير ، وفى شعر النابغة « ترى عافيات الطير » ، والذى قصده أستاذنا هنا : الطائرات .

أما هو ، فقد أخذه ما يأخذ الغريق المشفى على هاوية من الهلاك الرطب الندى ، ثم يفتح عينيه ، فإذا هو ملقى على الشاطئ قد انتشلته من فزع الردى نجاة برحمة من روح الله . ولكنه لا يدرى من الذى رده إلى الحياة بعد ملابسة الموت؟ ولا كيف كان ؟ ولا أين هو ؟ ولا أى مكان هذا ؟ ...

وأما هى ، فقد أنكرته بادئ اللحظ ، ثم انكشف لعينيها الحجاب الكثيف الذى أرخاه الدهر الماضى بين أيامها وأيامه ... لقد عرفته وأثبتته معرفة . فأقبلت عليه تندفع بقوة الرد المتفلت من شد عشرين عامًا كانت تجاذبها دونه :

أنتَ ، أنت !! أين كنت ؟!

آه ، لقد نسىَ المسكين عندئذ أين كان ! إنه هنا ... !

أليس هذا كافيًا ؟ أليس هو كل شىء ؟ ... أما الماضى ، أما الحياة التى عملت فى بنيانه أعوامًا طوالًا كلها جهد وإرهاق ... ، كل ذلك ذهب وباد وامَّحى ، وكأن اليد التى تمحو ما تشاء وتثبت فى تاريخ الإنسان ، قد أمرَّت صفحتها على رقعة أيامه الماضية فغسلتها وطهرتها من سوادها ، وردت إليه وإليها صحيفة أيامه بيضاء نقية قد تهيأت أن ينمنم فيها القدر تاريخه الجديد ... أجل ! كان هذا هو الإنذار الأول من القدر لهذا المسكين أنه سينسى معها كل تجاريبه فى الحياة ، وأنها هى التى ستكتب له هذا التاريخ الجديد من القدر خيره وشره .

ومضت الأيام الأولى بعد هذا اللقاء البغت على ذكرى حاضرة تصارع وحوش الماضى التى وطئت بأقدامها عهود الصغر وملاعب الطفولة فطمست معالمها ومحتْ بعض آياتها . جعلت هى تتكلم ، وكأنها ذاكرة التاريخ الواعية التى لا تكاد تفلت شيئًا إلا أحصت دَقيقهُ وجليلهُ . حدّثته وذكّرته وأعادتْ عليه زُخْرفَ الصِّبا ووشيه من نسج حديثها ، أما هو فبقى صامتًا ينصت لها خاشعًا ضارعًا يسمع صدى الماضى الذى يتكلم فى سراديب النفس العميقة الممتدة الذاهبة بأساليبها الغامضة فى أقصى غيب الحياة .

كيف تدب الحياة فى أشياء الطبيعة التى تخيل للناس أوهامهم أنها مواتٌ ؟ كيف تستيقظ الأرواح النائمة فى غار مظلم قد أطبقت على منافذه صخورٌ صم من

جبال الزمن ؟ كيف تستقبل النفس - التى أحرقها الظمأُ المتضرِّم - شؤبوبًا [١] من الغيث يهمى عليها باردًا عذبًا زلالًا سائغًا يترقرق ؟ كيف وكيف ؟ لقد عرف هو كيف يكون ذلك كله حين تكلمت روحها فى ثنايا روحه المتغضِّنة بأحزانها ، وحين أخذت تناجيه بالذكرى ... ، ويتحدر فى صوتها ذلك اللحن الخالد الذى يتحدر مع الغيث من السماء يناجى الأرض الظامئة المقشعرة المجدبة ، فلذلك تهتز وتربو على مد أنغامه التى تفجر فى ذرَّات الثرى كل ينابيع الحياة .

واستجاشت هذه الساحرة الجميلة التى خرجت عليه من لفائف الغيب المحجب تلك النفس المصممة العنيدة فما زالت حتى انقشعت الغمامة الغبيّة التى كانت تحيط بنفسه عمرًا من قبل . إنه الساعة يسمع ويرى ويحس ، ويتغلغل فى الحياة ببأس شديد . لا ، بل كان فى أول أمره هذا مضطربًا حائرًا يدور بقوته حيث دارت به على غير هدى ولا صراط ، كان ربما خلا فاستوحش فارتاع ، فيحتمل كل أعباء الهم الذى يجده فى نفسه ، فيخرج يضرب فى البيداء المقفرة البيضاء فى مدّ البصر ، حيث لا يرى إلا صفاء السماء وبحر الرمل الساكن فى مهاد الأرض ... ، حيث لا يسمع إلا حنين الرياح ونجوى أشواقها الأزلية فى المَهْمَه القَذَف [٢] . يمشى ثم يمشى حيث يتصرف به القدر الغالب ، وهو لا يسمع مع ذلك إلا أنغام صوتها من حوله يتردد : أنت ، أنت !! أين كنت ؟

اشتعل القلب وفارت الروح ، فانطلق بعد الحيرة والضلال فى طريق سوىّ مؤيدًا بهذه الروح القوية التى سيطرت على كل روحه بالحب والحنان ، ومضى يعمل لها وبأسبابها نافذًا مقدمًا لا يمل . ولكن سمعه لم يزل على حالة من الإصغاء ثابتة ، كأنها إغماء أخذه كما تأخذ غمية الوحى إذا نزل فاشتد فاستبان ، ثم تنحدر رنات صوتها إلى قلبه فتجرى فى أنهار الحياة المتدفقة فى جثمانه بدمه ، فيرجع الدم ألحانها ترجيعًا موسيقيًا هفافًا آتيًا من أغوار القدر العميقة . نعم ، إنه لا يزال يسمع فى مخارم نفسه ومهاويها صدًى يتردد :

---

(١) الشُّؤْبوب : الدَّفْعَة من المطر .

(٢) المَهْمَه : الصحراء . القَذَف : البعيد .

أنت ، أنت !! أين كنت ؟

فتجيبها الروح من أعماقها :

أنا هنا ، أنا هنا !! أيتها العزيزة !

* * *

هكذا بدأ وقد نام كل مافيه وخَضَع لسلطانها الذى لا ينتهى ولا يفتُر ، ثم دبَّتْ فى روحه اليقظة الجديدة فتجددت النفس المتغضنة ورقَّ شبابها ، واستجمت قواها الشاردة بعد فترة كإغفاءة النائم فى أنفاس الفجر الندى المتروّح بعطر الرياض النضرة . ولكنه عاد - بعدئذ - برجولته يتوحش ، فارتدّ إليه حذره الوحشى يتوجس خيفة ، وأخذه بذلك الرعب من كل مكان أين أنا ؟ وكيف كان هذا ؟ ولم خضعت ؟ وإلى أين أسير ؟ كل هذه أسئلة جعل صداها يتردد فى نفسه ، ثم يلقيها على الدهر الأصم ، فلا يجد جوابها جميعًا ولا تأويلها . ويومئذ جعل يصول صيال الوحش يريد أن يجد الغيل المفرد الذى يفرض فيه سلطانه على جوه وغابه ... ولكن وارحمتا له ! لقد حق ما قلت ياصديقى : المسألة كلها قدر محتوم ! رُفِعَت الأقلام وجَفّت الكتب !

أرأيت إلى ما وصفت لك منه أول ما تلاقيا ؟ أرأيت إلى ذلك الوحش الآبد الحذر الذى لا يألف الحياة ولا هى تألفه ؟ أرأيت إلى تلك الفكرة الباذخة العضلة التى تأبى أن تذلّ أو تتهضّمَ ؟ أرأيت إلى البركان المتقلع فى عنفوان فورته ؟ كل ذلك قد استحال بين يديها ، وتحت أشعة عينيها ، وفى مس أنفاسها ، شيئًا غير هذا كله . فكل ما توحش منه فهو عندها يألف وادعًا يلوذ بها خاشعًا متضرعًا ، وكل ما بذخ وسما وتعضّل فهو يتطامن لها ويرق ويتلين ، وكل ما تقصف منه وفار وغلى فهو ينساب إليها صبابة وحنينًا ولوعة .

* * *

وعندئذ سكت صاحبى بغتة كأن لسانه قد عقد عقدًا على ألفاظه ، ثم تنهد واحدة كأنما انهدّ بها ركن من جبله القائم فى ضمير نفسه . ورمى بصره فى هذا

الركام المتكاثف بعضه على بعض من ظلام الليل . لم أرد أن أستثيره من هدأته التى يستريح إليها بعد هذا الجهد الهائل الذى كان يتدفق به فى حديثه . لقد كان يعانى من هذا الحديث أشد مما يعانى الهارب السائر فى وحشة الليل الصامت فى غوْل الصحراء ، وهو هائمٌ على وجهه تطارده من ورائه شياطين العذاب التى تريد أن تنتشطه [١] إليها بخطاطيف هائلة من الرعب والفزع .

كنت أرق له وآسى عليه ، ويمنعنى من الحديث معه مخافتى أن يكون ذلك مما يصرفه عن بعض الفكر الذى يتعذب بوساوسه وخطراته . نعم ، إنه عذاب عقلى أليم ، ولكنه على ذلك مما يعطى النفس بعض راحتها من عذاب الشك والقلق والحيرة . والحياة كلها صروف متعاقبة يراد بها السمو بالنفس على وجه من وجوه الألم . والألم وحده هو الذى يستطيع أن يصقل النفس الإنسانية صقلًا رائعًا ، وبذلك يرد إليها حقيقة الإيمان المشرقة بالإطمئنان والتسليم . إنه حائر يشك فى حقيقة ما يقع عليه فكره ولكن هذا الألم الذى يصارعه صراعًا عنيفًا لا رحمة فيه ، هو نفسه الرحمة المهداة إليه ، ليؤمن بعد ذلك إيمانًا لا يداخله شىء من الشك أن قلبه لم يخطئ ، وأن أفكاره القلقة هى التى تخطئ وأنه ينبغى أن تقيد أفكار العقل الحائر بأغلال متينة من أفكار القلب المؤمن .

وتضربت فى همسات الليل أفكارى فيه ، وجعلت أستعيد فى نفسى كل ما قاله لأرى من تحته المعانى التى تتهارب وتختفى بطبيعتها فى ظل الألفاظ اللغوية المحدودة بمعانيها . كنت حائرًا فى فهم هذا الصديق الذى يحدثنى عن صديقه ، وما صديقه إلا هو . وكنت ألمح هذا الجبل وهو يتخلع من أعضاده التى ينهض عليها ثابتًا قارًّا متساميًا يهزأ بالتلال القصيرة التى تطمح إليه بأبصارها ، وجالت فى نفسى أفكار وأسئلة لا جواب لها . يارب ! أهكذا يضمحل الرجل ؟ وارتفع صوتى بهذا السؤال غير متعمد لذلك . فما هو إلا أن هبّ صاحبى من غفوة الفكر التى غشيته ، فابتدرنى يقول :

---

(١) تنتشطه : تنتزعه وتشدّه .

نعم ، هكذا يضمحل الرجل ! وما تريد أنت إلى ذلك ؟ إنك دائمًا تفجؤنى بتمثال يتكلم بأفكارى التى أتكلم بها فى غيب نفسى ، أى شىء هو الرجل ؟ هل تستطيع أنت أو من سواك أن يقرر للعقل حقيقة الرجل ، وأن يمتهد لفكرته أصلًا لا يزول ، فإن يخرج عنهما أو عن أحدهما انتفى فى العقل أن يكون رجلًا حق رجل ؟ هذا هو الغرور الذى يتهاوى فيه الناس ما داموا ناسًا يبغى بعضهم على بعض ، فطرة ركبت فى سر طبائعهم . إن هذا ليس اضمحلالًا وضعفًا بالمعنى الذى تتوهم ، إنه ليس من قوة فى الطبيعة إلا وفوقها قوة تحكمها وتصرفها ، وخضوع قوة لقوة أعضل منها ليس يعرف ضعفًا فيمن يخضع ، وإنما هو القانون الطبيعى الذى يستقيم به نظام العالم . إنه لا يقال للدوحة الفينانة العظيمة : أيتها المسكينة ، لماذا تخضعين لسلطان الفصل الذى تساقط به أوراقك ؟ أو لماذا هذا الحنين الدائب إلى قطرات من الغيث ، وهذا الجبل أمامك يسفح عليه ماء السيل ثم ينقطع أعوامًا فلا يظمأ إليه فيحن كمثل حنينك إلى قطرات من الماء انقطعت بضعة أشهر ؟ هذه طبيعة الدوحة ، فإذا انقلبت طبيعتها إلى غير هذا الناموس قتلها الظمأ وتركها حطبًا يابسًا لمن يستوقد .

آه أيها الصديق ! إنك لن تعرف الحقيقة حتى تستشعر قوة الآلام الملتهبة التى تترك الرجل يتزايل على الشوق والوجد واللوعة كما يتزايل جبل من الفولاذ قد تجوفته نار متضرمة من لهب جهنم . أبغنى قليلًا من الماء ثم أحدثك كيف اضمحل الرجل !

(لها تتمة)

* * *

إلى أين ... ؟

– ٣ –

[تتمة]

أخذ صاحبى كأس الماء فى يده ، وجعل يرشقها ببصره رشقًا حديدًا يلمح لمحًا تحت حواشى الليل ، فكنت أرى وهج مقلتيه يكاد يتطاير تطاير الشرار بينهما وبين الكأس ، وأدام نظره طويلًا إلى الماء وهو يقر شيئًا بعد شىء ويسكن ، فكأنى به كان يغمس نظراته الملتهبة فى برد الماء ، ليبترد من وقدة العاطفة التى تضطرم فى داخله . وبعد فترة عب من كأسه عب الظمآن استحر على كبده العطشى ، ثم فرغ فوجه إلىّ ، وقد برق وجهه ، أو هكذا تخيلت ثم قال :

آه ... ! ماكان أبصر ذلك الأعرابى الظريف الذى عطش وضل عن الماء فى بيدائه ، فلما رمى به السير فأفضى إلى بئر عميقة عادية [١] قد بعد ماؤها ، أجهد أن ينزف بدلوه من بعض مائها حتى بُلغ به وكاد يهلكه غؤور الماء ، وبعد لأى ما استطاع أن ينزح من مائها ما يرويه ، حتى إذا شرب وارتوى وأطفأ غلة الظمأ ، حمل تلك الدلو بين يديه ينظر إليها ويقلبها كأنها بَنِيٌّ من صغار بنيه يوقصه ويداعبه ويقول :

أى دلاة نهل دلاتى !! قاتلتى وملؤها حياتى !!
كأنها قَلْتٌ من القلات

فانظر كيف يفرح الرجل بأديم جاس [٢] غليظ متغضن موات ! إنه يحبه ، ويحرص عليه ، ويرق له ، ويدلله دلالًا كأنه طفل يطفله ويرعاه . وماذاك إلا أنها أداة يتخذها ليطفئ بها الغُلّة التى يُؤَرِّثها حر الظمأ ، لو هو فقدها فى مجاز [٣]

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٤) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٠٤٤ – ١٠٤٦

(١) عادِية : قديمة ، كأنها من عهد عاد .

(٢) جَسِىَ الشىء : أصبح قديما يابسا متغضِّنا .

(٣) مَجاز : جاز المكانَ وبه : سَلَكه وسار فيه .

البيداء المجدبة الظامئة ، فقد معها القدرة على الحياة ، ومع كل ذلك فما هى إلا أديم أصم ، وأداة لا خير فيها إذا لم يكن كل الخير من قوة الساعد التى تمتد فى رشاء يتطوح بين أرجاء البئر .

ما أبلغه من أعرابى ، لولا نقل حديثه من الدلو إلى المرأة !

« قاتلتى وملؤها حياتى !! »

إنها المرأة ياسيدى هى وحدها التى تستطيع أن تكون القاتلة المحيية فى وقت واحد . إن كل مافيها هو حياة محبها ، وكل مايكون منها - إذا أرادت - هو سبب من أسباب سلب هذه الحياة سلبًا جبارًا لا رحمة معه ولا هوادة فيه .

إن المرأة الحبيبة هى النبع الصافى النمير الذى يرى المحب الصادق فى كل قطرة منه حياة تتلألأ فى روحه بالمنى ، فإذا أرسلت هذه الحبيبة فى دمه قطرة واحدة من مائها - أى من حبها - أطفأت هذه الواحدة كل النيران الملتاعة التى تجفف بحرِّها ماءَ حياته . فإذا منعتْ عنه غيثها جعلتْ كل أفكاره وأحلامه وأمانيه تحتطب من الحياة ماتؤرِّث به تلك النار المبيدة التى لا تنفح نفحها على شىء إلا جعلته رمادًا أغبر . ويومئذ تتحول الحياة فيه إلى خمود بليد ، أو إلى حماقة مجنونة كما يعترض الرماد للريح العاصف تطير به فى كل وجه حتى يتفرق ...

ثم سكت صاحبى ... ، وخيّل إلىّ أن غمامة سوداء داجية من ذكرى أحزانه وآلامه قد أظلَّت عليه وتدانت أهدابها ، فهو يرفع يمينه إلى جبهته ، ثم يُمرها إلى ناصيته ، إلى يافوخه يضغط عليه . ويتنفس خلال ذلك أنفاسًا جاهدة ينتزعها انتزاعًا من أقصى منابع الحياة فى قرارة نفسه ... ما أقسى الذكرى إذا ضربت فى القلب بفأسها تحطمُ وتدمِّر وتنقضُ بناء الأيام الماضية ! إن غبار هذا الهدم ليرتفع ويثور حتى يملأ الجو النفسى بما يضجر ويخنق من ترابها ، وما أضعف الرجل إذا أخذت الذكرى تلح عليه إلحاح الكبرياء ، تتحدى الإنسانية والرجولة بأوهن الفكر ! الذكرى ... ! هذا شىء مخيف مفزع . إنها الشبح الذى يدب من بين القبور المهجورة التى تناثرت فيها أشلاءُ الموتى . إنها تقتل بالرعب ، فإذا أتت المحب ذكرى حبيبه ، فذاك شبح هائل يقتله بالرعب والحنين معًا .

أقول لنفسى : أيها الصديق البائس ! لماذا لا تعرف طريقك إلى النسيان ؟ لماذا تقف فى مقبرة أفكارك دائمًا فترتاع وتتألم ؟ لماذا لا تحاول أن تسخر من الحياة التى سخرت منك ؟ لماذا أنت حائر أيها الصديق ؟ وبقيت أتداول الهاجس من أفكارى فيه ، حتى شُغِلتُ به عنه . ثم جاءنى صوته من بعيد كأنه كان يتكلم فى بعض أحلامى تحت النوم :

اسمع ... اسمع يا صديقى ! لقد كنت أفكِّر فى بعض ما شغلنى عن تمام حديثى قبلُ . لقد سألتنى وساءلت نفسك أهكذا يضمحل الرجل ؟ أما إنى لا أستطيع أن أضعَ لك اللغة وضعًا جديدًا حتى أعبِّر لك عن كل خالجة من خوالج النفس الإنسانية حين تضطرب فتهتز فتطير هزاتها على مساقها ومجراها ، ثم تنشعب فتنتشر فتعمَل عَمَل الجيش المحارب فى هدم صفوف العدو وتفريقها وبَعْثَرة قواها المحتشدةِ للِّقاء احتشادَ البنيان المرصوص بعضه على بعض .

نعم ... لن أستطيع ذلك ، ولكنى سأصف لك بعض الصفة واستشعر أنت كيف يعمل ذلك فى هدم الرجل ويسرع فى تدمير رجولته أمام أنوثة طاغية تتحدى وتأخذ سلاحها الذى تتحدى به من رجولة عواطف المحب الذى يَرى أن تعاونَ القلبين بالحب ، وصبابة النفس إلى النفس الأخرى . هو تمام رجولته وتمام أنوثتها .

كان لقاؤهما تجديدًا غريبًا فى قديم نفسه ... لقد استطاعت هذه الساحرة الجميلة الفتانة - كما وصفت لك - أن تمحو ماضيه كله ، وأن تمزق صُحفَ أيامه المهملة التى كان القَدَر يكتب فيها تاريخه الأول . مزقت هذه الساحرة تلك الصحف ، وألقت بها فى النار التى أشعلتها فى قلبه بالحب . بدأ يحيا بها وبسحرها حياة رائعة فاتنة من أحلام الحب . وجعلت هى ... وجعلت هى ... آه ياصديقى ! هذا كثير كثير . إن ذكرى ذلك كله تؤلمنى ... إنها تعذبنى ... إنها تخِز قلبى بمثل السنان الحديد يقع وخزًا متتابعًا شديدًا يتفجر فى نزعه بالدم .. كيف أستطيع أن أقول لك الآن ما الذى كانت هى تفعل ! وماذا أقولك لك ؟ آه ... إن أنوثتها ، بل رقتها ، بل حنانها ، بل رحمتها ، بل إخلاصها ، بل حبها ... كيف يكون هذا ؟ بل ذلك الصوت المنغم الروى الممتلئ صوت الحنين

المتعذب ... صوت القدر الآتى من بعيد بأفراح السعادة ... صوتها ... صوتها ... ذلك الصوت المعبر عن نفسها بألحان تتجاوب وتسرى وتموج فى كل غيب من غيوب نفسه المتراحبة ... !

إن كل هذه العواطف التى يرسلها إليه صوتها وهى تتكلم كانت تعبُّ فيه عُبابها ، حتى يجد الأمواج النفسية تتقاذفه فى فرح بعد فرح ، ومن سعادة إلى سعادة ، ومن حلم إلى حلم ، كأنه ماض إلى جنّة الخلد فى زورق من اللذات الطاهرة الجميلة ، تحف به الملائكة تغنى لقلبه أناشيد المجد والخلود ... ! إنه سوف يسمو بروحه إلى ذلك الجو الذى يعطِّره النبل ، ويفيئه الحب ، ويندّيه الحنان ، وتضيئه هى بسُنَّتها المشرقة ، وتسبح فيه النجوى أنغامًا حرة تهيم وتتعانق .

جعلت أيامه معها تتهدل ثمارها الناضجة المغرية ، وجعل يقتطف منها حيث أراد ، وجعلت هى تغذوه كل يوم غذاءً جديدًا هنيئًا يملأ روحه قوة وشبابًا وعزمًا . وجعل إحساسه بسحرها وفتنتها يغلو به فى إيمانه بعبقرية أنوثتها الكاملة . أجل ...، إنها أرسلت فى دمه الحياة الجديدة ، الحياة التى تجدد فكره فى أشياء الدنيا ، وتستفزه إلى فرض سلطانه على هذه الأشياء وكانت هى تنشىء لعينيه فى كل يوم بل فى كل ساعة دنيا مائجة ، من فنها البليغ الذى يعبر عن ضميره تعبيرًا بليغًا كبلاغة أنوثتها فانبثقت فى عينيه وفى قلبه ينابيع متفجرة من الأحلام الرقيقة ، والأمانى الطائرة ، تلك الأمانى التى تتنهد دائمًا على قلبه بأنفاس الفجر ...

امتلأت عيناه الحائرتان بأحلام الشباب ، وانبعثت القوة المتلهبة بالرغبة ، فهو ينظر ثم يندفع إلى أمانيه يريد أن يختطف حظه من السعادة السانحة سنوح الصيد المستطرد ، قبل أن تسبقه إليها أنياب الشقاء والألم والبؤس فتفترس منها وتنتهش . إنه يريد أن يظفر بسعادته ليتمتع بالحياة بعض المتاع ، ولكن ياصديقى ... إن هذه الغريزة المتحكمة فى الإنسان وفى أعماله - غريزة التمتع بالحياة - هى التى تذهب بالإنسان فى القدر مذهبًا بعيدًا إنها هى التى تجمل الحياة لعينى كل حى ، ولكنها هى هى نفسها التى تعمى المحب فلا يبصر تلك الهوة السحيقة التى فغرت

له أشداقها وأحدت أنيابها ، فلا يزال - إلا أن يعصم الله - يتهاوى فيها ما اندفع به إليها هواه .

ولكن كيف كان يملك صاحبى وإرادته فى البصر ؟ إنها كانت تعمل أبدًا - وهو لا يستطيع أن يدرك - على أن تبقى حبيبة أحلامه ولو قتلته . نعم إن بعض ضحكها كان يصفق بدلالها كأن أمواج شبابها تتلاطم فيه وتزخر ، شبابها ... !! شباب امرأة جميلة متكبرة معجبة ، شباب أنثى تحب ، وتريد أن تبقى أبدًا محبوبة يهيم فى أوديتها المسحورة من يحبها . ومع ذلك فقد كان يجد لما يلقاه منها فرحًا فى نفسه ، ونشوة فى روحه وعربدة فى دمه ، كان كالسكران بحبها لا يستطيع شيئًا ولا يملك إلا أن يخضع لذلك السلطان المرح الظافر المبتسم ، السلطان العنيف الذى يقبض على روح المحب بحنان طاغ مِن روح مَن يحب .

وعلى ذلك فإن هذا الرجل المسكين - على عنفه وصلابته وفحولته - لم يجد بُدًّا من أن يسلم لها قياد عواطفه التى تَصْبُو صبواتها إلى أناملها الرخْصَة الساحرة . كيف يقاوم الرجل الحب - مهما استصعب والتوى - امرأة مقدسة يحبها ، فهو يتصبب بروحه فى روحها ؟ استسلم لها ، ولكنه كان يشعر بعد هذا الاستسلام أن ليس فى هذه الدنيا شيء يستطيع أن يقهر إرادته ، أو أن يحول بينه وبين مايرمى إليه من أغراضه وإن بعدت . كان معنى خضوعه لها أنه يستطيع إذن أن يخضع الأشياء كلها لسلطانه ... وما أعجب هذا الحب ! أرأيت إلى ذلك الضرس الفولاذى الصليب المتكبر من الجبل الإنسانى فى صاحبى ذاك ... ؟ لقد كان يُرَى وهو يذل لهذه الساحرة أيامه ولياليه خاشعًا مستكينًا كأنه يهودى منبوذ فقير فى غربة موحشة !

ولكن لاتخطئ معنى الذل فى فحوى حديثى ، أعرفه صورة أخرى من الكبرياء المأسورة فى سجن امرأة محبوبة . إن إحساسه بحبه لها كان ضروبًا من فن الروح العاشقة . لم يكن يراها امرأة مجردة يحبها بحرارة القلب الملتهب بالرغبة أو بالحب . كلا ، كلا ، لقد كان يجدها أحيانًا فى أوهام عواطفه ومدّها أُمًّا ، فهو يريد من أمومتها المحبوبة أن تمهِّد له فى قلبها تلك العاطفة الوثيرة اللينة

من الحنو والعطف . وهو يراها مرة أختًا يلتمس فى مس يديها ، وفى نبرات صوتها ، تلك العاطفة الساكنة ذات الأفياء والظلال ، عاطفة الأخت التى تضحى فى سبيل أخيها المنكوب ، ثم يرقى بها إحساسه فينظرها أخًا مخلصًا يشد أزره إذا انطبقت عليه قُحَمُ [١] العيش ومتالف الحياة . ثم إذا هى تارة أخرى روح من الأبوة المسددة ، الحازمة المصممة البليغة ، لا تزال تجد الرجل مهما أناف به العمر وشمخ ذلك الطفل العابس الغرير الطياش ، وهى مع ذلك كله الصديق الذى يحامى عنه إذا تعادت عليه الدنيا بأسرها ، الصديق الذى تبقى صداقته تطوف عليه تحرسه وترعاه . أتدرى بعد إلى أين تنتهى به هذه الألوان المختلفة من إحساسه بها ؟ لقد تنتهى فى بعض ساعاته معها أن يراها أستاذه ، فهو كأنما يجلس بين يديها ليأخذ عنها روائع الحكمة ، ويسألها عن سر الأبدية المحجب بالغيب ، ويلقى عندها كل أفكاره المعقدة فى الحياة ، يلتمس عند حكمتها الخالدة حل ما تَعَقَّد ، وأن تمنح أفكاره ذلك الهدوء الفلسفى الذى تسبغه الحكمة العالية على سَدَنتها وحفاظها .

ثم سكن صاحبى وغشيته فترة الحديث إذا تطاول به وامتد ولكنه ما لبث أن أقبل علىّ يندفع :

انظر ... انظر الآن كيف يضمحل الرجل . هذا هو فى مد عواطفه وهى تفور وتتثوّر بأمواجها فى الحب العنيف المتلاطم ، ثم إذا هى تطير عن أحلامه وتنفر من مجثمها السحرى ، وإذا هو منفرد لا يدرى كيف كان هذا ؟ ولِمَ ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ... ؟

إنها ذهبت وتركت الدنيا التى أنشأتها له مشرقةً زاهيةً ناضرة ، فإذا هى تطفأ وتخبو وتذبل . إن قوة رجولته قد ذهبت تطلبها عند قبور الذكرى ، فكيف لا يضحملُّ الرجل ؟ كيف لا يضمحلُّ ؟!

* * *

---

(١) القُحَم : الأمور العِظام .

ويلك آمن ... !

أيام من الدهر حائرة فى أودية الزمن ، وساعات تخلع المصائب وتلبسها بين الثانية والثانية ، ورعب مظلم خيَّم على الأرض فلا تضيئه إلا شقائق النار وهى تفرى الجو ذاهبة وآيبة ، وحيرة سابحة فيها عقول البشر لا تدع قرارًا لفكر ولا خيال ، وسهام نافذة من البلايا تفتق نسج النفس الإنسانية فتقًا رغيبًا (١) يتعايا على الراقع والمصلح ... فياله من بلاء مطبق على العالم إطباق اليوم الصائف يسد بحَرِّه منافذ الأنفاس .

ما الحياة ؟ ما الإنسان ؟ ما العقل ؟ ما الحضارة ؟ إلى أين نسير ؟ كيف نعمل؟ لماذا نعيش ؟ فيم نتعب ؟ تبًّا لكل هذه الضلالات الداجية التى لا يبرق فيها نجم واحد يقول للإنسان : اتبعنى ، سوف تهتدى !!

هذه هى الحضارة الأوربية الحديثة قد انتهت بالناس إلى خلق هذا الإشكال الدائم الذى لا يحل ، وساقت الناس إلى مرعًى من الشك وبىء ، كلما ازدادوه غذاء زادهم بلاء ، فلا ينتهى من ينتهى إلا إلى هلكة تدع فكرة الحياة خرافة عظيمة قد اتخذت لها أسلوبًا تتجلى فيه ، فكان أبلغ أسلوب وأفظع أسلوب ، هذا الإنسان الذى يحمل من رأسه قنبلة حشوها المادة المتفجرة التى تهلكه وتهلك ما يطيف به أو يقاربه ، فلا هو ينتفع بنفسه ، ولا ينتفع العالم به .

لو سئل إنسان هذا القرن : ما أنت ؟ لقال : أنا اللعنة الملعونة التى تشأم نفسها وتشأم من يعترض انصبابها وسيلها . أنا الناب الذى ينقع فى الإنسانية سُمَّه حتى تبرد حياتها فى عضته . أنا الهالك المهلك ، هذه حياتى ، وهذا عقلى ، وهذه حضارتى ، ومن أجل هذا خلقت ، وفى سبيله أعيش ، وعلى قضائه أعمل ... !!

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٥) ، ١٩٤٠ ، ص: ١٠٨٤ - ١٠٨٦

(١) الرغيب : الواسع .

ولو نشر اليوم فيلسوف من محبى الحكمة والعاملين عليها الذين أفنوا أعمارهم فى طلب الخير والفضيلة والحق والجمال ، وجعلوا عملهم هداية الإنسان إلى أسبابها وسلكوا له سبلها ، ثم نظر إلى هذه الحقبة من عمر الإنسانية فما تراه قائلًا فى صفة الإنسان وما فيه من العون على دَرك هذه الحقائق ، والتحلى بها فى حياته ؟ أم تراه يعرف الصورة وينكر المعنى ؟

المدنية الأوربية الحديثة هى التى استطاعت أن تنفذ بالعقل فى ضمير الحياة تستنبط منه ناموس الحياة التى تدب على الأرض ومع ذلك فهى التى سلبت هذا العقل قدرته على الخضوع للروح لتمده بالنور المشرق الذى يستضىء به فى رفع الإنسانية درجة بعد درجة إلى مراتب الملائكة ، أى إلى مرتبة الروحانية الصافية التى تنهل أضواؤها على النفس والقلب والروح ، فتروى من فيضها ، وترث من ذلك نورًا ورحمة وسكينة ، وتنبت غرسها الإلهى الذى يجنيه الإنسان هداية وعدلًا وسعادة ، فتتضاعف به الحياة حتى يقوى الخير فيها ويضوى الشر .

لقد أخفقت هذه المدنية فى سعيها لخير الإنسان ، وأثبتت بكل دليل أنها مهما تكن أحسنت إلى الإنسانية فلم تحسن مرة واحدة أن تضبط نوازع النفس ، وتردها إلى الطريق الواحد الذى ينبغى أن تصدر عنه ، حتى تكون كل أعمالها نقية طاهرة متشابهة . ذلك الطريق هو طريق الروح الذى لا يتم لعمل تمام ولا يظفر بخلود أو بقاء ، إلا أن يكون فيه مس الروح وطهارة الروح ، وقدس الروح .

أطلقت هذه المدنية فى الدم الإنسانى كل ذئاب الشر والرذيلة ، فخرجت من مكانها جائعة قد سلبها الجوع كل إرادة تحملها على بعض الورع الذى يكف منها ، فعاثت فى إنسانية الإنسان حتى جُنَّ ، وتنزَّى فى الأرض وحشًا يجعل شريعته المقدسة تنبع أحكامها من معدته ، ومن أحكام هذه المعدة ومطالبها ، وكذلك انقلب النظام الاجتماعى فى العالم من نظام روحى عقلى سام ، إلى نظام اقتصادى تجارى ضار ، الآكل والمأكول فيه سواء ، لأن النية انعقدت فى كليهما على الافتراس ، وما الفرق بينهما إلا فرق القوة التى أعدت هذا للظفر ، وأسلمت ذلك إلى العجز ، فدفعت به إلى رحى تدور بأسباب من الطغيان والفجور .

وماهى شريعة المعدة فى هذه المدنية الاقتصادية التجارية ؟ هى شريعة السوق التى لا تعرف قيمة الشىء إلا فى ميزان من الطلب . فما طُلب فهو الجيد ، وما عُمِّىَ على الطالب فهو الردىء الذى لا قيمة له ، وكل شىء قائم فى جوهره على النزاع الذى لا تسامح فيه ، والأمر كله للغلبة : غلبة الأقوى ، لا غلبة الأعدل ، غلبة الحيلة لا غلبة الصدق ، غلبة البراعة لا غلبة الحق .

فهذه الشريعة هى شريعة إعزاز القوىِّ ، لأن القوة تسوِّغه أن يتسلط ، وإذلال الضعيف ، لأن الضعف تهالك به أن يتحكم ، وليس بين هذين مَعدلة ولا نصَفة ، وليس أحدهما من الآخر إلا كالثعبان من العصفور إذا عرض له ، فسلط عليه الرعب من عينيه ، فينتفض فى قبضة أشعتهما المفترسة المسمومة حتى يبرد دمه فلا يستطيع حركة ، ولا يتنغش بدنه بذَماء من الحياة . هى الشريعة التى تجعل إنسانها القوى مقبرة لإنسانها الضعيف ، فالقوى أبدًا آكل قد أرَمَّت فى نفسه تلك الجيف التى انتهشها وألقى بها فى معدته ، فتجيفت وتعفنت ، وتصاعدت أرواحها المنتنة فى حياته ، فجعلته متسرِّعًا نفّاذًا كأنما يريد أن يهرب بنفسه من نفسه التى لا يطيق جوها ، لأنه جو خانق ، تطوف فيه أشباح الفرائس المسكينة التى بطشت بها أنيابه ومخالبه .

هذه الحضارة القابرة التى تدنست روحها بالرمم التى ضعفت أن تقاوم القوة ، لن تستطيع إلا أن تفسد العالم وتدنسه كما تدنست ، فإنه محال أن تكون الشريعة مدنَّسة نجسة ، وتأتى الناس بخير طاهر مبارك يغسل أدران الإنسانية التى تتجمع عليها يومًا بعد يوم ، ولا أن تخرج نفس الإنسان فيها مع الفجر ندية مشرقة رفافة تستقبل بفضائلها أعمال نهارها .

إن شريعة إعزاز القوىّ وإعلاء الأقوى ، وإذلال الضعيف وإسقاط الأضعف ، هى الشريعة الحيوانية التى لم تعل إلا بإذلال الروح والعقل وإسقاطهما ونبذهما ، هى شريعة البغى والعدوان على الروح بالروح الشيطانية ، وعلى العقل بالعقل المتمرد ، وكلما استحكم أمرها كانت الإنسانية ذاهبة إلى نبع نجس تنغمس فيه لتصدر عنه أقوى مما وردت – أى أنجس مما وردت .

إن الكون لا يصلح إلا على معنى الأقوى والأضعف ! هذا حقٌّ لا يمارى فيه إلا مكابرٌ أو مبطل أو أحمق . ولكن يبقى ذلك العمل الإنسانىّ لذى يثبت للإنسان معانى النبل المنحدرة فى روحه من نبل النور الأزلىّ الذى بعث الحياة بعثًا فى نفسه وفى أعماله ، وبهذا العمل وحده يعرف الإنسان معنى السعادة فى السراء والضراء ، وفيما أرضى وما أسخط ، وتكون حاله فى الحالين واحدة ، وذلك بأن تتسع روحه بالواجب الاجتماعى الروحى الذى يتراحب بإنسانيته فى الكون كله ، فتقع اللذة منها موقع الألم ، وينزل الألم فى منزل اللذة ، وتمسح النظرة السامية عن الوجود كل الغبار الأرضى الذى يغطى محاسن الحياة وتنير الكلمة ظلمة النفس : الحمد لله فيما سر وما ساء .

والعمل الإنسانى المستمد روحه من الجزء الإلهى فى الإنسان هو العدل والمساواة ، وقد جعلت الحضارة الحديثة معنى العدل والمساواة صدقة يتصدق بها أغنياء قوم على فقرائهم ، وأقوياؤهم على ضعفائهم ، لا على معنى الصدقة فى إخلاصها لله ثم للإنسانية ولكن على معنى التخفف من تعب الغنى وتعب القوة .

أما حقيقة العدل والمساواة ، فهى عمل الإنسان الأقوى فى رفع الإنسان الأضعف إلى مرتبته ، فلا يزال هو يرتفع بقوته ، ولا يزال الضعيف يسمو معه لأنه معقود الأواصر به . وإذا كان ذلك هو القاعدة ، فالاجتماع كله سام ذاهب إلى السمو ، ولا يكون فيه معنى للطبقات إلا على معنى التدرج ، ولا يكون التدرج إلا على تماسك وتواصل ، وليس تماسك ولا تواصل إلا على حرص الأعلى على التعلق بالأدنى ، وكذلك لا يرتفع شىء من المجتمع لأنه أعطى القدرة على الارتفاع ، ولا يسقط الشىء الآخر منه لأنه لم يجد ما يتعلق إذ حرم هذه القدرة أو زويت عنه أسبابها .

وقد جعل الإسلام من أول أمره غرضًا للمسلم لا يرضى منه غيره ، ورد معنى الإسلام إليه ، فجاءهم رسول الله ﷺ بالقاعدة وقال للناس : اعملوا : فالمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه أزر بعض . والإيمان لا يعرف الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والمراتب الحيوانية التى طبعتها الطبيعة على تنازع البقاء وغلبة الأقوى ،

بل هو معنى يوحد الناس حتى ليس لأحد فضل على أحد إلا بقدر منه ، وحتى إن العبد المملوك العاجز ليرفعه إيمانه على مَنْ مَلَكه واستبد به واعتقد رقبته بماله ، إذا لم يكن هذا المالك قد استحق بإيمانه مرتبة هذا العبد .

وفى بعض الصحيح من حديث رسول الله ﷺ ما جاء هداية إلى هذا الأصل ، فقد روى عن المعرور بن سويد أنه قال : لقيت أبا ذَرّ بالربذة ، وعليه حلة وعلى غلامه حلة ، فسألته عن ذلك فقال : إنى سابَبتُ رجلًا ، فَعَيَّرته بأمه ، فقال لى النبى ﷺ : يا أبا ذرٍّ ، أعيَّرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية !! إخوانكم خوَلكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم .

ولا ينتهى عجب متعجب من بلاغته ﷺ ، وكيف ينزل كلامه تنزيلًا فى معانيه ، تدور بها دورة دائمة لا تنتهى على نظام ثابت لا يتبدل . فقدَّم ﷺ الأخوَّة بين المؤمنين لأنها هى الأصل الذى لا يتم معنى الإيمان ولا معنى الإنسانية إلا به ، وردّ على هذه الأخوة ما يوجبه المجتمع من مراتب الناس على الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، ألا وهى الخدمة التى يقوم بها النظام الاجتماعى فقال : « إخوانكم خولكم » ولم يقل : « خَوَلكم إخوانكم » ، هذا مع أن أصل الخطاب إلى أبى ذر يتوجه إلى مقصود بذاته ، وهو خادمه أو غلامه الذى سبَّه ، فكان أول ما يسبق إلى اللسان ، وأقرب مايسرع إليه الوهم ، أن يتعين خادمه بالابتداء .

ثم انظر كيف قال : « جعلهم الله تحت أيديكم » ، « فمن كان أخوه تحت يده » ؟ وكيف حرَّر الإنسان من رِبْقَة العبودية القابضة على عنقه ، فجعله تحت يده يستظل ويتحرك فى هذا الظل ، ولم يجعله فى يده يتصرف فيه ويقبض عليه ويستذله ، فإن شاء حطمتْه قبضتُه . ثم دَرَج على هذا الأسلوب البليغ حرفًا بعد حرف حتى قال : « فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وذلك زكاة القوة التى بها مَلَكَ المالكُ ، واستخدم المستخدم . فإذ كان المؤمن قد قوى على تكليف ضعيفه أن يعمل ، فهو أقوى على أن يشاركه إذا عجز أو قعد به الضعف الذى أصاره إلى أن يرضى أن يخدم نفسه من كان أعلى يدًا وأقوى قوة .

فهذه هى شريعة الروح الطاهرة التى تتعطر من نواحيها برائحة جنة الخلد ، فانظر ما بينها وبين شرائع المعدة التى جعلت أحشاءها مقابر للضعفاء تأكل منهم لتتسع بمعنى الجريمة الحيوانية ، وتنقبض عن معنى الرحمة الإنسانية الإلهية .

فهل يمكن أن يتطهر العالم فيما يستقبل من أيامه على أساس هذا الهَدْى النورانى الذى جعل النظام الاجتماعى سموًّا بالإنسان كله على مراتبه كلها ؟ هل يمكن أن يفهم العالم حقيقة هذا التطهير التى أشار إليها رسول الله ﷺ بقوله : « لا قدِّستْ - أى طهِّرت - أمةٌ لا يؤخذُ لضعيفها من قويها » ؟

ويلك آمن ... إن وعد الله حق .

* * *

هذه هى الساعة ... !

قامت الدنيا وأخذت تعد زينتها لأمر غير ما مضى من أمرها . إنها لابد أن تتبرج لعيون عشاقها ، ممن كتب لهم أن يشهدوا مشهدًا آخر من فصول الرواية الإنسانية التى تمثل فى ساحاتها . نعم ، فإن الحرب المهلكة التى لا تزال تقعقع من شواهقها حين تنقض ، أو تزحر وتئن تحت أثقال الوقائع - لا تلفت الحياة الدنيا عن عملها فى تلبيس العيش بالفتنة لمن يعيشون ، ولا عن تقديم اللذة لمن يشتهون ، وكأن هذه الحرب إن هى إلا تضخيم عظيم لعمل العامل فى إزالة التطرية (التواليت) عن وجه الغانية ، ونسف التطريف (المانوْكير) عن بنانها ، وما سوى ذلك من إعداد الغانية الحسناء لتبدو مرةً أخرى فى حلى وبهاء وزينة .

لا أتشاءم ولا أتفاءل ، فالقدر قد قضى على الدنيا قضاءه ، وما ندرى مايراد بنا منذ اليوم ! فرب شر نتوهمه كذلك قد احتقب [1] الخير ، ليرمى فى أرجاء الدنيا غرسًا جديدًا فى أرض جدد ثراها ما أصابها من تدمير وهدم . إن بعض القسوة فى الحياة يكون كتشذيب الشجر فى إبانه ، يقطع منه ليزداد قوة على إثبات وجوده وتقرير حقه فى البقاءناميًا فينان يسمو وينتشر ويخضر ويثمر . وقانون الفطرة الذى تجرى أحكامه على الطبيعة لتتجدد ، لا يخطئ ابن الطبيعة يعمل فيه ، ليصنع له حياة جديدة تثبت أن وجوده على الأرض حقيقة نامية أبدًا ، إن يكن الماضى قد باد فى التاريخ ، فإن الحاضر يثبت إثباتًا عمليًا أنه مستمر فى الحاضر ، ويكون استمراره فى الحاضر دليلًا على امتداده إلى المستقبل . ويكون من جميع ذلك أن الحياة الدنيا مهما أصابها من شىء باقية ، ولا يمحوها إلا القانون الآخر الذى يجعل لكل أول نهاية ينتهى إليها . فإذا جاء أوان هذا القانون فقد بطلت حيلة المحتال .

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٦) ٨ يوليو ١٩٤٠ ، ص : ١١٢٣ - ١١٢٥

(١) احتقب : حَمَل ، وأصله وَضْع المتاع فى الحقيبة تكون على مؤخر البعير ، ثم استعمل فى المجاز ، فقالوا : احتقب فلان الإثمَ .

إن الزَّمنَ الذى يمشى فى الأرض فَتَخضرُّ منها مواطئ أقدامه ، هو نفسه الزمن الذى يدب عليها فيُسمع لدبيبه دمدمة مما يتقصف تحته من عمارة الدنيا وبنيان الحضارة ، وعلى مواطئ الزمن تتنزل الحضارات كلها أو تتهَدّم . ومن يوم أن تنهَّدَت الأرض بالحياة يبيدُ شئٌ ويقومُ شئٌ ، وما يزول منها ما يزول إلا ليحل عليها ما يحل ، لأن الحركة دليل الحياة ، فلا يثبت معنى الحياة إلا بها ، وما يتحرك من متحرك إلا لتكون لانتقاله نهاية إليها يتوجه ، وعندها يقف ، فإذا وقف فهذا آخر أنفاسه ، ثم يسكن سكون الموت .

فما بنا على ذلك أن نتشاءم أو نتفاءل ، وما التشاؤم والتفاؤل إلا حركة النفس الفارغة التى لا تجد عملها ، فهى تعمل فى إرهاق نفسها بما لا ينفعها ولا يعنيها ، وليس من عمل الإنسان ما هو أضر عليه من إجهاد نفسه فى باطل ، والجهاد بها فى غير طائل . فإذا أردنا اليوم أن ننظر فما ننظر إلا لنعرف الطريق التى يجب أن نقرر لجهودنا أن تمهدها لنا ولمن يأتى بعدنا على تدبير وسياسة .

والقدرُ اليومَ قد قضى بين الناس ، ووضع القضية لمن يختار ، فمن شاء أن يدخل فى عقد هذا وعهده دخل فيه ، ومن شاء أن يتخلَّف فقد رضى لنفسه على مَيْزة وبصيرة ، وما ينقض القدر قضاءه الذى أبرم ، فيأتى من يأتى ينوحُ بما ظُلم ، ويتوجَّع بما غُبنَ !!

ونحن قد لقينا من أحداث الدهر ما ردَّنا بعد عزٍّ إلى قرار هوان . وقد أنَى [1] لنا أن نرفع أنفسنا من وهدة واطئة قد ربضت بنا فيها سلاسل من حديد الذل ، وقد حضرت ساعة ينبغى أن نفصل فيها بين عهد مضى وزمن يستقبل . فإذا قعدت عزائمنا ، وعميت أبصارنا ، فأنفسَنا نضيع ، وأرواحَنا نزهق .

جاءت هذه الحرب لتنسف تاريخًا شامخًا ثقيلًا قد اضطجع على حياة الشرق كما يضطجع الجبل على سفحه الرَّحْب ، فإذا تأخر الشرق وتهاون وتكاسل على ما عوَّده الموت الروحىُّ الذى كان فيه ، فقد سنَحتْ له الفرصة ثم ولَّت عنه ،

---

(١) أَنَى : حانَ .

وتركتْ يدَه ممتدَّة لا تمسكُ إلا أذيالَ الريح التى استَرْوَحتْ عليه بأنفاس الصيد ورائحته .

إن فى هذا الشرق لميراثًا نبيلًا من الأعمال والأخلاق والآداب والسياسات ، ولكن هذا الميراثَ المضيَّع المنسى لايجدى من خير على نائم قد أغمض عينيه عن الحياة ، استمتاعًا بحياة أخرى تعرضها له أحلام رخية تختال فى خياله . هذا الميراث المجهول فى حاجة إلى من ينفض عنه غبار القدم ، وأتربة الإهمال ، ويزيل عنه أدران الجهل والخمول ، ويجلوه مرة أخرى على أعين الناس مضيئًا مشرقًا يتوهج بأنواره كأحسن ما يتوهج .

لقد كانت الحضارة الأوربية الماضية ، وقامت على روح من الأثرة والبغى والاستبداد ، وفقدت كل معانى الروح السامية التى تبذل أكثر مِمّا تأخذ ، وتعتد الغنى من الاستغناء لا من الجمع والتعديد ، وتجعل حرية النفس فى ضبطها وإمساكها على المصلحة لا فى تسريحها وإرسالها على مد الشهوة . وقد كان للشرق مجد وحضارة ومدنية ، وتمم الإسلام كل الكمال لهذه الحضارة بما أقام للناس من شعائره وآدابه ، وجاء على الشرق زمان كان الإصلاح فيه ضربًا من إفساد الصالح ، وزيادة الفاسد فسادًا وخبالًا ، وكذلك ضاع كل شيء ، ورجع بنا الزمن إلى جاهلية جهلاء ، تقوم على التقليد لا على الإبداع ، وعلى المتابعة لا على الاستقلال ، وبالكبرياء لا بالتواضع ، وحتى ذكرى مجدنا السالف قد صارت عندنا نخوة جاهلية فى التعظم بالآباء والأجداد ، لا عملًا عظيما تعظمه أعمال الآباء والأجداد والوراثة القومية النبيلة .

والحضارة ليست هى العرض الظاهر من قوتها وبنيانها وفنونها وكل ما يقوم به نعت الحضارة ، بل الحضارة هى السر الذى يعمل فى إيجاد ذلك واستنباته ، وإخراجه على الأرض واستثماره : هى سر الحبة التى تنبت الدوحة ، والذرَّة التى تقوم بها المادة . فكل حضارة لابد لها من روح تعيش بها وتنمو ، وعلى ما فى هذه الروح من النظام والتدبير والنبل والسمو ، تنشأ الحضارة منظمة مدبرة سامية نبيلة . ونحن لا نشك فى أن الروح التى ورثها الشرق فى نواحيها ، والتى طهَّرها

الإسلام من نواحيها وأتمها ، وأحسن سياستها ، ونفى عنها خبثها - هى التى تستطيع أن توجد على الأرض حضارة تملأ الأرض عدلًا كما مُلئت جَورًا ، وتفيض بها رحمة كما فاضت غلظة ، وتجعلها طريقًا للإنسانية تخرج به من ظلمات الباطل والبغى والغرور إلى نور الحق والتواضع والمساواة . ويومئذ لا يقتتل الناس من أجل سلب الحق للزيادة فى أنفسهم وجنسياتهم ، بل يقتتلون - إن هم اقتتلوا - من أجل إعطاء الحق وردِّه على أهله مهما اختلفت جنسياتهم ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بما يحسن هذا ويسىء ذاك ، ويصبح القانون العالمى ، قانون الحق يستقر حيث ينبغى أن يستقر .

إن العالم الآن ليقتتل على غير غرض إنسانىٍّ كامل مقرّرٍ لا يشذ على غاياته ومبادئه أحد . إنه يقتتل على طعام يؤكل ، بل على هذا الطعام كيف يُؤكل . فليس لهذه المدنية الأوربية إلا معنًى جنسىٌّ مُتعصِّبٌ تدافع عنه لنفسها لا للإنسانية كلها ، لا يشك فى ذلك إلا من طمس الله على بصيرته ، وقادته أهواؤه وغرائزه دون عقله وواجبه . وما هذا التوحش الحيوانىُّ فى هذه الحرب إلا نتيجة طبيعية للفكرة القومية المستقلة التى لا تريد إلا أن تستولى على أعظم مايمكن أن تضع يدها عليه لتستمتع بالحياة والشهوات والسلطان .

أما الإسلام - وهو روح الشرق من أقدم عصوره على اختلاف أديانه وأجناسه - فقد وضع كل مأثرة قومية جاهلية تحت قدمى صاحب الرسالة محمد ﷺ ، وسوّى بين الناس من أهله وبينهم وبين أهل ذمته وعهده ، واختار المسلمين ليكونوا شهداء على الناس ، فيكونوا قضاة يحكمون بالعدل لا يبغون ولا يجورون ، وجعلهم دعاة يدعون إلى مبدأ يتساوى عليه الناس ، فمن دخل فيه فهو منه ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وكتب عليهم القتال وأمرهم به ، وعظم الجهاد فى نفوسهم ، ولكنه قتال على دعوة إلى هذا المبدأ وجهاد فى سبيله وحرم عليهم العدوان ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها .

فالمسلم من دينه فى قانون إنسانى كامل ، لا يعمل للجنس أو الفرد أو السلطان والسيطرة ، بل يعمل لإعطاء العالم كله روح المساواة ، قد تحاجزوا

بينهم فى الشر ، وانطلقوا فى أيامهم يعملون على إثباتها فى تاريخ الدنيا بمبدئها لا باستبدادها ، وبغايتها دون لذاتها ، وبالسمو بها إلى الإشراف على نظام الدنيا والسمو بها ، لا بسيطرة القوة على إخضاع الدنيا وإذلالها ، وجعلها كالبقرة يُحلب درُّها لمن يملكها . فالقانون الإسلامى العظيم هو روح الحضارة التى يجب أن تسود العالم ، فإنها حين تسود عليه تجعل الحق هو السيد الذى تخضع له أعناق الناس ، لا يبغى بعضهم على بعض فى سبيل شهوات غريزية حيوانية مفترسة ، يغذوها الدم ويهيجها الدم ، فهى آكله لا تشبع وثائرة لا تقر .

والمسلمون اليوم هم جل الشرق ، وروح الشرق ، ولكنهم مسلمون قد أُفرغوا من معانى الإسلام وبقيت ألفاظه تعيش بهم . إن كل فضيلة من فضائل هذا الدين ، وكل عمل من أعماله قد انتزعت منه روحه ، فتعامَل الناس على ما خيَّلتْ ، لا يبالون ما أمروا به ولا ما نهوا عنه ، ففقد هذا الشرق الرأى العام الإسلامى الذى يكون تعبيرًا صحيحًا عن إرادة الإنسانية فى الاستعلاء والسمو . ولكن هذه الحرب قد تثير هذا العالم الراكد ، وتدفع فيه أمواجه الأولى التى غسلتْ وجه الأرض وطهرته من دنس الحياة المادية العابثة المعرْبدة ، فإذا كان ذلك فإن هذا الشرق قد أعد اليوم لأمر جلل ، وقد حفظ الله له تاريخه الذى ورثه كاملًا فيه الأسوة وفيه العبرة ، وفيه فلسفة الحياة الاجتماعية التى تجعل الفرد الواحد أمة كاملة لأنه هو ممثل الأمة ، وتنصبه حاكما لأنه يحكم نفسه أول ما يحكم ، وتهيئه جيشًا محاربًا فى سبيل الحق الأعلى للإنسانية ، لأنه يحارب نفسه أول ما يحارب فى إقرارها على إعطاء الحق لمن يستحقه من حقيقة نفسه .

فاليوم يوم الشرق إن اختار أن يبدأ حركته إلى الغاية التى أمر بالبلوغ إليها والوقوف عليها شاهدًا قاضيًا ، يدبر الأمر ويصرفه فى سيادة الحق كله على الباطل كله . ونحن لا ننسى ما صرنا إليه ، ولانغفل عما فرغت منه أيدينا من أسباب الغلبة التى تتحكم اليوم فى مصير الدنيا ، ولكن الإرادة تحكم الرجل الواحد ، تستطيع أن تحكم العالم كله ، وسبيل ذلك أن يكون كل رجل مريدًا إرادة صارمة لغرض مقصود بعينه ، فهذه الإرادة هى التى تفتق له الجو الإلهى الذى يعد الإرهاص للمعجزة الإنسانية .

ستكون أحداث ، وتتجدد على الناس نوازل ، وتسيل الكوارث من كل مسيل ، ولكن الشخصية الاجتماعية التى لا تختلف ولا تتدابر ولا تتعادى تستطيع أن تغرس فى أيام المحن غرس المجد الإنسانى السامى ، لتنبت شجرة يمتد ظلها ، ويترامى فيئها ، ويطيب ثمرها ، ولا يكون ذلك إلا بعد جهد ومشقة وعنت ، ومصابرة للنفس على لَأْوَاء الحياة التى فرضت علينا أن نتألم ، وأن نصاب ، وأن يبلغ منا العذاب مبلغًا يُجهد ويؤود .

فهذا أوان يستطيع الشرق أن يضرب الاستحكامات فى أرضه وفى أوطانه بأخلاق سامية عاتية ، فيها القدرة على النمو ، والقوة على البقاء ، وأن ينظم لحياته نظامًا يهدف بغاياته إلى مستقبل يبعد عنه أو يقرب على حياطة تحفظه أن يقع فيه ماوقع فى أيام البلبلة الأخيرة التى تبعت الحرب الماضية . نعم ، إن الشرق يفقد اليوم زعيمه الذى يهب من جماعاته كالأسد تنفرج عنه الأجمة الكثيفة عالىَ الرأس حديد النظرة ، تتفجر القوة من كل أعضائه ولكن ، أيمنع هذا أصحاب القلوب الحية التى تشعر بحاجتها إلى هذا الرجل أن تهزّ شعوبها هزًّا عنيفًا متتابعًا ، حتى ينفلتَ إلى المقدمة ذلك الأسد الرابض إلى الأرض فى قيوده الاجتماعية التى تقعد به عن الحركة للوصول إلى المكان الذى أعده له القدر ، ليبدأ بدأه فى إعداد الدنيا لاستقبال الدين الذى سيتجدد فى الدنيا ، لأنه هو سر الدنيا وسر القدر .

إن علينا أن نعمل ، فإن كان ما أردناه وما نتمناه ، فذاك عز الإنسانية ورضوان من الله ، وإلا فقد أدينا ما وجب ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

أخوك أم الذئب ... ؟

أجل !! هذا هو العالم المغرور الذى ظن خير الظن بمدنيته ، وأثنى عليها ثناء الأم على عذرائها ، ونفض عليها من تحاسين الخيال فنونًا كذُنابَى الطاووس ، وأدار عليها مجامر الندِّ والمندل والعود من عطر الشهوات واللذات ، وأحاطها بالعبقرية العلمية التى توجد فى كل شىء شيئًا جديدًا يدخل على العقل إبليسًا صغيرًا ليُضل عن سبيل الحق ، ويضع فى الثمرة حلاوة تلذ ونشوة تسكر ، ثم زاد فأعطى المادة المتبدلة الفانية تدليسًا يجعلها فى فتنة الرأى ثابتة خالدة ثم غلا فجعل النفس تطلق أهواءها جميعًا لتحرز من لذات الحياة كفايتها ، إن كان لأهواء النفس كفاية .

هذا العالم المغرور يقف اليوم فى فئتين التقتا للقتال فى سبيل الأهواء الغالبة والشهوات المستحكمة . وفى هذا القتال تتكشف لمن أبصر حقيقة هذه المدنية ، وحقيقة أغراضها التى عملت لها وعمدت إليها ، وحقيقة الروح التى يتعامل بها الاجتماع الإنسانى الذى تعيش به هذه المدنية الأوربية التى تنكر من الحياة وتعرفْ وتدعى لنفسها إسقاط ما أنكرت وإقرار ما عرفت .

وفى كل يوم تتجدد أحداث الحرب ، فتتجدد معها أساليب الغرائز الوحشية المصبوغة رحمتها بأصباغ الافتراس ، وفى كل يوم يخلع الوحش عن مخالبه ذلك المخمل الناعم الذى دسها فيه ، ويهجم بطبائعه على فريسته ليعلن بذلك أنه هو الوحش : قانونه المنفعة ، وشرفه المنفعة ، وصداقته المنفعة ، وأدبه المنفعة ، ودينه المنفعة . فهو لا ينفك من منفعته فى مثل السعار إذا أخذ الوحش فاستكلب فهاج فطغى ، لا يهدأ حتى يطفئ هذا السعارَ ما يشفيه أو يرده أو يقدعه [1] ، وهو لا يرعى فى ذلك حرمة ، ولا يكفه شرف :

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٧) ، ١٩٤٠ ، ص : ١١٦١ - ١١٦٣

(١) يقدع : يَكُفّ

وكان كذئب السوء لما رأى دمًا
بصاحبه يومًا أحال على الدم (١)

وقبيح بنا – نحن الشرقيين – أن نغمض أعيننا عن النظر إلى هذه المدنية التى أخذت تنهار تحت قصف المدافع وهد القنابل وزلازل الحرب ، وأن ننام عن مستقبل أيامنا ، وألا ننفض هذه المدنية نفضًا لنأخذ منها وندع ، ولنعرف سوء ماتركت أنيابها فى جسم أوطاننا ، ونتبين حقيقة النفوس المسمومة التى أصبحت فى الشرق فاشية تعمل على إدماجه فى حضارة غريبة عنه ، ولا يطيقها إلا على نكد ولا يحتملها إلا عنتًا وإرهاقًا وغرورًا .

إن رؤوسًا من الناس فى هذا الشرق قد طالت بهم أيامهم حين أقبلت عليهم الدنيا ، فأخذوا على الرأى العام منافذه كلها ، وصرفوه ما شاءوا بما شاءوا كما شاءوا ، لم يغلب عليهم إلا ذلك الداء الوبيل الذى قبسوه من مدنية الغرب ، داء المنفعة . طلبوا المنافع لأنفسهم فاستبدوا فى غير ورع ، وتجبروا فى غير تقوى ، وعملوا على أن يكون سلطانهم فى الأرض كسلطان الله فى السماء : يمحو ما يشاء ويثبت ، علوًّا فى الأرض واستكبارًا ، قاتَلهم الله أنَّى يؤفكون ؟

إن الشرق لا يؤتى ولا يغلب إلّا من قبل أهله . هذه هى القاعدة الأولى فى السياسة الاستعمارية الماضية ، فعملت هذه السياسة على أن تنشر فى الشرق عقولًا قد انسلخت من شرقيتها وانقلبت خلقًا آخر ، وقلوبًا انبتَّتْ من علائقها ولصقت بعلائق أخر ، وبهذه العقول المرتدة والقلوب المرتكسة استطاع الاستعمار أن يمد للشرق طريقًا محفوفًا بالكذب والضلال والفسوق ، يختدعه عن الصراط السوى الذى يفضى به إلى ينبوع القوة الذى يتطهر به من شرور الماضى

---

(١) هكذا رواه أستاذنا رحمه الله ، والرواية المعروفة « وكُنْتَ كذئب » ، والبيت للفرزدق ، ديوانه : ٧٤٩ ، وهو مروىّ هكذا أيضا فى طبقات ابن سلام ١ : ٣٦٢ ، الأغانى ٢١ : ٣٠٦ (طبع الهيئة) ، وستأتى هذه الرواية فى مقال « لا تدابروا أيها الرجال » ، ص : ٣٦٠ . وأحال على الشىء : أقبل ، والذئب إذا رأى الدم على أخيه أقبل عليه يفترسه ، ويترك عدوهما .

وأباطيل الحاضر ، فيمتلك من سلطان روحه ما يستطيع به أن يهدم الأسداد التى ضربت عليه ، ويجتاز الخنادق التى خسفت [١] حوله .

لقد لقينا بهؤلاء العنت حين استحكم لهم أمر الناس فتسلطوا عليهم بالرأى وأسبابه ، فخلعوا بسوء آرائهم على الشرق ليلًا من الاختلاف لا يبصر فيه ذو عينين إلا سوادًا يختفى إذ يستبين . وكانوا له قادة فاعتسفوا به كل مضلَّة مهلكة تسلّ من قلب المؤمن إيمانه ، وتزيد ذا الريبة موجًا على موجه . فلما كتب الله أن يدفع مكر هؤلاء بقوم جردوا أنفسهم للحق ، رأوا أن يلبسوا للناس لباسًا من النفاق يترقون به إلى التلبيس عليهم ما حذقوا من المداورة ، وما دربوا عليه من فتن الرأى ، وما أحسنوا من حيلة المحتال بالقول الذى يفضى من لينه إلى قرارة القلوب ، حتى إذا استوى فيها لفها لف الإعصار ، واحتوشها من أرجائها ، ثم انتفض فيها انتفاض الضرمة على هبة الريح فى هشيم يابس .

وقد أقبلت اليوم على الشرق أيامٌ تتظاهر فيها الأقدار على أن تسلم إليه قيادة مدنيته الجديدة بعد طول الابتلاء وجفاء الحرمان ، وجاءت مع هذه الأيام فتنٌ يُخشى أن تضرب أوّله بآخره حتى لا يقوم شىءٌ هو قائمٌ ، ولا يبقى من أعلام الماضى إلا آثار التاريخ التى تقف شواهد على مامضى وآيات لما يستقبل . فإذا كان ذلك ، فإن الحكمة والحزم والجِد أن نميز الخبيث من الطيب ، وأن نختار لأنفسنا قبل البدء ، وأن يلى منا أمر القيادة من هو حق صاحبها والقائم عليها والمحسن لتصريفها وتدبيرها وسياستها ، وإلا انفلتت من أيدينا حبال الجمهور المتحفز ، فانتشر على وجوهه وتفرق ، وكأن ماكان لم يكن ، وكأن الفرصة قد عرضت لنا لتدع فى قلوبنا بعد ذلك حسرة لا تزال تلذع بالذكرى .

إن أكثر هؤلاء الذين وصفنا قد وجدناهم يمدون أعناقهم يتطاولون مرة أخرى للوقوف فى مقدمة الطلائع الشرقية ، ورأوا - من أجل ذلك - أن يماسحوا الرأى العام على بعض أهوائه وعلى طائفة من أغراضه ، ليستمر لهم ذلك المكان الذى

---

(١) خَسَفَت الأرض (من باب ضرب) : ذهبت وغارت .

حازوه من قبل ، وليكونوا فى الشرق الجديد ما كانوا فى أيامه السالفة . فهم يبدون له ما لا يعتقدون عليه نياتهم ، ويحدثونه حديث مَن طَبَّ لمَن حَبَّ [١] ، وهم كانوا قبلُ أعانوا عليه ، إذ أفسدوا صالح أعماله بالآثم من أعمالهم وآرائهم ، وهم كانوا عليه حربًا ، إذ نزعوا من يديه سلاح القتال فى سبيل حريته واستقلاله وانفراده بخصائصه التى ورثها وخص بها ، وعمل الجيل بعد الجيل فى تنقيتها له تنقية المدَرة [٢] من بين الحَب .

ليس اليوم أوان يترك الشرق عنانه فى الأيدى التى لعبت به وغررت ، ولا هو يوم التهاون فى القليل لأنه قليل ، ولا هو يوم إحسان الظن بمن يحتال للظفر بحسن الظن ، ولكنه اليوم الذى يتفلت فيه من كل ضلالة وعبث ، ومن كل مرتفق للنفع متشوِّف [٣] للمصلحة ، ومن كل سبب من أسباب التدمير . فإذا فعل ذلك ، وأعطى كل ذى حق حقه ، وامتاز المجرمون ، وخلص له المخلصون واستعان بحرية اختياره على إقرار الناس فى مواضعهم وعلى مراتبهم ، فيومئذ يجد القدرة على انتزاع حريته من أنياب الغاصبين ، ويصيب مهاد الطريق إلى الغاية التى ينظر إليها بآماله وأشواقه نظرة العامل لا نظرة الحالم المتخيل .

وأخوف ما نخافه هو ما أوتى هؤلاء من الرفق واللين وحسن المجاملة ، وأنهم قد أحكموا معرفة الأسباب التى بها يأخذون بأيدى الناس وعقولهم ، وأنهم قد أوتوا نصيبًا من الصيت يتغلب بهم على ما يعترضهم أو يردهم ، وأن الناس أسرع اتباعًا لما ألفوا وحنينًا إليه ، وأن البلبلة التى تأتى مع الحروب وتمتد فى أذيالها ، تدع الناس حيرى غرقى يتلمسون فى كل شىء شيئًا يتعلقون به ، فإذا لم نأخذ من الآن فى جد من الأمر ، ولم نصرف جهودنا إلى اختيار الأصلح فى كل شىء ، فما بد من أن تنجلى العمايات بعد عن الدنيا لتطبق علينا عماية مصفقة كالظلام المصمت . ويومئذ نرتدّ على أعقابنا حسرى عُناة كأسوأ مامر بنا من زمن ، وتضيع الفرصة السانحة ونحن غرقى فى بحر طام قد نزح عنا شاطئه بعد الدنو .

---

(١) الطَّب : الخبير الحاذق بالشىء ، وأصله الطبيب الماهر .

(٢) المَدَرَة : الطِّين .

(٣) تشوَّف : تَطَلَّع إلى شىء بعيد .

فعلينا الآن أن نثق بأنفسنا غاية الثقة ، لأن الثقة بالنفس هى جيش الحرية ، وأن نشك كل الشك فى أصحاب الرأى ومن يتعرضون للإمارة عليه ، لأن الشك فى هؤلاء هو حارس الحرية ، وأن نشتد فى مطاردة الضلال والعبث ، لأن هذه الشدة هى سلاح الحق وسلاح الحرية . فإذا غلب علينا التهاون فى شىء من ذلك ، فإنها ثغرة تتدفق منها على الشرق مرة أخرى ضلالات وفتن كقطع الليل المظلم ، ويعجز أهله عن حمل أعباء الحضارة الجديدة التى اختارهم الله مرة أخرى للعمل عليها والقيام بها . فما بد من أن ينفض الشرقى بعينيه ورأيه كل بارقة وكل غمام ، مخافة أن تنزل الصواعق عليه من حيث ظن الغيث .

ليس فى الشرق قوًى تضارع تلك القوى الهائلة التى صبت من الحديد والنار وأسرار الكون ، وليس فيه ذلك الغنى غنى الاستبداد والجبروت والسياسة ، وليس فيه ذلك الجمهور العظيم من العقل العامل لإيجاد القوة فى كل شىء لاستخلاص المنافع من كل شىء ، ولكن هذا الشرق لا يزال يحتفظ بأعظم قوة تخضع كل هذه الأشياء لسلطانها الذى ينال النصر ما تعاون ولم يتفرق . وتلك هى قوة الروح ، وقوة الخلق ، وقوة الاستمرار إلى النهاية مصابرة لا ذلًّا ، وإيمانًا لا عنادًا ، وتسليما لا غفلة ، فعلينا أن نعرف فضائلنا التى توارثناها ، وأن ننفى عنها ما خالطها من خبث الجهالات القديمة التى تراكمت عليه فقعدت به أزمانًا طوالًا ، حتى استرخى نائمًا والناس يقظى .

إن الشرق إذا خلص من شر النفايات الطافية على سطحه ، وإذا وثق بسلطان الروح السامية التى لا تذل ، وإذا نهج النهج لا يتهيب ، فما بدٌّ من أن يحوز من القوة ما يضارع قوة المدنية الأوربية المتهالكة ، وأن يجعل فى هذه القوة من النظام الروحى النبيل ما يرد كل غائلة ويمنعها كل عدوان ، ويرفع الإنسانية درجات فى طريقها إلى السماء . وهذه أيَّامٌ فيها عِبَرٌ كثيرةٌ لمن يعتبر ، فإن حقائق المدنية الأوربية تستعلن كلها فى هذه الرجة العظيمة التى ترجف بالعالم ساعة بعد ساعة .

ولكن علينا أن نثق ، وعلينا أن نشك ، فإذا رفعت الثقة أسباب الشك ، فإن الخير كله آت على طول الجهاد وترك التهاون وعلى استجادة العمل ومرابطة

٢١٠

النفس عليه ، وعلى الأَناة دون العجلة ، فإن الغَرس الصغير يكبر على التعهد حتى يؤتى الثمرة ، ومن استعان بأسباب الحق أُعين ، ولا يهلك الناس إلا من هيبة أو تهور .

* * *

يوم البعث

إن أحدنا لتستبد به فى بعض عمره فترات يجد فيها الحياة قد وقفت فى دمه كالجدار المصمت لا تميل ولا تنثنى ولا تتحول ، ويجد النفس متماوتة لا ترف رفة واحدة تشعر العقل أن الحى الذى فيه لا يزال حيًّا يعمل ، ويجد الدنيا كأنها بساط ممدود يمشى فيه بعينيه ، ولكن البساط لا يمنحه حركة من هموده وسكونه وانعدام الحياة ذات الإشعاع فيه . ويتمنى أحدنا يومئذ أن تحل بأيامه قارعة تملأ عليه الزمن ضجيجًا ونزاعًا ، عسى أن يتحول كل ما يجده من الفتور إلى نشاط ويقظة وخفة تبعث ميت نفسه من رمس الحياة الخاملة .

وهذا العارض إذا ألَمَّ جعل الأيام مقعدة تزحف فى زمانه زحفًا بطيئًا مرهقًا كأنها أمسكت على مرفأ الحياة بسلسلة ربوض ، ويجعل الحى يعيش فى كذب وباطل وفراغ من الروح ، أى فى حيرة وقلق وملل ، فإذا حار وقلق ومل ، جاءت أعماله كلها جسدًا لا ينبض نبض الحياة ، وكذلك يختلف ما بين الحى وعمله ، ويقف أحدهما من الآخر موقف المثَّال العاجز من تمثاله ، يقول له : أين أنا فيك أيها التمثال الغبى ؟ فيجيبه الصامت البغيض : أين أنت فى نفسك أيها الأحمق ؟

الحياة هى حركة الروح فى العمل ، فإذا خلا العمل ، فلم تتمثل فى كل أنحائه حركة الروح العاملة ، فذلك دليل على أن الروح مضروبة بالموت أو ما يشبهه ، وأنها قد فقدت شرطها ونعتها وحقيقتها ، وأنها إن عاشت على ذلك فستعيش فى قبر منصوب عليها فى تمثال إنسان . وإذا بلغ الإنسان ذلك أريقت كل إنسانيته على أيامه المقفرة فلا يثمر ، فإن يثمر فما يطيب له ثمر ، وإنما هو حسَك [١] وأشواك وحطب وكل ما لا نفع فيه إلا أذًى وبلاءً عليه وعلى الناس .

وكما يكون ذلك أمر الفرد الواحد ، يكون هو أمر الأمة من الناس ، والجيل

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٦٨) ، ١٩٤٠ ، ص : ١١٨٨ - ١١٨٩

(١) الحسك : عُشْبة تضرب إلى الصفرة ولها شوك يسمى الحَسَكُ أيضا ، مُدَحْرَج ، لا يكاد أحد يمشى عليه إذا يبس إلا مَن فى رجليه خُفّ أو نعل .

من الأمم ، فإن الفرد هو خلاصة الجماعة وأصل الجماعة . فالأمة تصاب بمثل الفترة التى يصاب بها الواحد منها ، ولا يمنع ذلك أن يكون فى بعضها ما يخرج على ضرورة هذا العارض من الفتور الذى وصفناه . وعندئذ تتمنى الأمة أن تنزل القارعة لتهز الجو الذى تعيش فيه هزة مدوية مجلجلة ، ترمى فى سمع أبنائها الصوت الموقظ الذى يفزع عليه النائم ينفض عن نفسه الخمول والأحلام الهائمة والأماني الباطلة المكذوبة .

وقد عاش الشرق من قرون طويلة وهو يجد الحياة من حوله فاترة ساكنة بليدة ميتة الظلال عليه ، وجاء بعض أبنائه من سراديب الفكر البعيدة يصرخون ليوقظوا الأحياء الذين ضُرِب على آذانهم بالأسداد ، وغشاهم النعاس عجزًا وذلًّا ومهانة ، ولكن هؤلاء رجعوا وارتدوا ، ولم يسمع الناس ، وإنما سمعوا هم صدى أصواتهم وهى تتردد فى قفر خراب موحش .

أما اليوم الذى نحن فيه ، فقد جاءت الشرق القارعة التى حلت بديار الناس وبدياره ، وهو يسمع صليل صواعقها بأعصابه كلها لا بآذانه وحدها ، وهو يفيق من نومة طويلة على ما لا عهد له بمثله . فهل يحق لنا أن نؤمل أن هذا الصليل المفزع سيجعل الشرق يلمُّ ما تشعث من حياته ليستقبل حياته الجديدة قد جمع قواه للنهضة والوثبة والانقضاض على أوثان المظالم القديمة التى نُصِبت فعَبَدَها مَن عَبَد ممن خشعوا وذلوا ، وطمعوا فى رحمة الطواغيت فما نالوا – على أوهامهم – إلا فُتاتًا من موائد هذه الطواغيت المتوحشة المستبدة الطاغية ؟

إن الشرق اليوم يجب أن يسأل سؤالًا واحدًا يكون جوابه عملًا صارمًا نافذًا لا يرعوى دون غايته ، وهذا السؤال هو أول سؤال ينتزع إنسانية الحى من الموت الفادح ، إذا كان الدافع إليه هو رغبة النفس فى تحقيق إرادتها تحقيقًا لا يبطل . من أنا ؟ هذا هو السؤال ؛ فإذا أخذ الشرق يسأل يحاول أن يصل إلى حقيقته المضمرة فى تاريخه ، فهذا بدء النصر على الأيام الخاملة التى غط غطيطه فى كهوفها المظلمة .

ولكن البحث عن الحقيقة هو أبدًا أروع شىء وأخوف شىء ، فإن السائل

شاك حائر ، فإذا لم يستعن فى حيرته بالسداد فى الرأى وطول التقليب وحسن الاختيار وبالله التوفيق ، فإن السؤال سوف ينزع به وَيَنْبُثُ [١] عليه ويأخذه ويدعه حتى تتحطم قوته على جبل شامخ قد انغرست فيه أشواك صخرية من الحصا المسنون ، ويرجع مجرَّحًا تدمى جروحه ، يتألم ويتوجع ويشتكى قد أعياه الصبر على الذى يلقاه من أوجاعه .

فحاجتنا فى البحث عن الحقائق التى يتطلبها هذا السؤال ، أن نتدرع بقوة اليقين مما نحن مقبلون عليه من مجاهله ومنكراته ، وأن نستجيش للنفس كل ما يزعها ويكفها عن الشك والتردد ، وأن نقبل على دراسة أنفسنا بفضيلة المتعلم المتواضع ، لا برذيلة المتعالم المتشامخ ، فإن بلاء التعلم والدرس هو كبرياء الحمقى وغرور ذوى العناد والمكابرة .

والأمر كله الآن بيد الشعب أفرادًا أفرادًا ، فإن العادة المستقبحة فى هذا الشرق أنه يكل كل أمره إلى حكوماته التى أثبتت بوجودها إلى اليوم أنه لا وجود لها فى حقيقة الحياة الشرقية . فالحكومات لا تستطيع أن تضع فى روح الشعب هذا الإلهام الإلهى السامى الذى يشرق نوره على الإنسانية فيجلى لها طريقها ، وينفى عنها خبثها ، ويغسلها بأضوائه المنهلة من أعراض البلادة وجراثيم التفانى والانقراض .

ليس لشرقى أو عربىٍّ بعد اليوم أن يقف مستكينًا يقول لحكومته : افعلى من أجلى ياحكومتى العزيزة !! بل يجب أن تكون كلمته : اعملى يا حكومتى فإذا أسأتِ فأنا الذى سيصحح أخطاء أعمالك الرديئة ! ويجعل كل أحد منا همه ساميًا إلى غاية ، وأمله معقودًا بغرض ، ويبيت ليله ونهاره يتَدارَس فى نفسه وفى أهله وفى عشيرته وفى شعبه ، وفى التاريخ النبيل ، وفى التراث المجيد حقيقة ما يجب أن يتعرَّفه من شُعَب هذا السؤال الواحد : من أنا ؟؟

والدعوة الجديدة إلى اليقظة الشرقية والعربية والإسلامية يجب أن تقوم على إثارة الشعب كله ليسأل كل أحد نفسه هذا السؤال : من أنا ؟ فالعالم والأديب والشاعر والفيلسوف والعامل والصانع وأعضاء الأمة على اختلاف منازعهم ونوازعهم يجب

---

(١) ينبث شرّه : يستخرجه .

أن يشعروا فى قلوبهم بحاجتهم إلى هذا السؤال ، وأنهم موكلون به لا يهدأون ، وأنهم دائمًا فى طريقهم إلى جمع الحقائق للجواب عن هذا السؤال الواحد .

أما قيام الدعوة على البحث عن طريق الإصلاح وأساليب الإصلاح وتحقيق ذلك بالطرق العلمية ... إلى آخر ما يقال فى هذا الباب من القول ، فما يجدى على الأمة شيئًا إلا ما أجدى قديم ما رددوه ولاكوه ومضغوه من الآراء التى عانوا وضعها ، فلما وضعوها ماتت فى المهد . وليس يمنع البحث عن مثل هذه الأشياء أن نكون أول ما نكون سباقين إلى الأصل الذى يجب أن تقوم عليه هذه الأشياء كلها .

إن الأمم لا يُصلحها مشروع ولا أسلوب من الحكم ، ولا بابٌ من الإصلاح ، وإنما يحييها أن يكون كل فرد فيها دليلًا - بما فيه من الحركة النفسية - على أن الحياة التى يعيشها هى إثباتٌ لوجوده . ولايثبت الوجود للحىّ إلا بقدرته على الاحتفاظ بشخصيته ، ولا يحتفظ المرء بشخصيته إلا أن يكون قد استوعب فهم ما يستطيع من حقيقة هذه الشخصية ، وهو لا يفهم هذه الشخصية إلا أن تكون كل أفكاره متنبهة لتحليل كل شىء يعرض له ، وذلك حين يكون كل همه فى البحث عن أشياء هذا السؤال الواحد : من أنا ؟

فإذا استطعنا فى هذه الساعة الهائلة من تاريخ العالم وتاريخ الإنسانية أن نجعل طبقات الشعوب الشرقية تثور ثورتها على الفتور والجهل والغباء والبلادة وقلة الاحتفال بالحياة ، وأن نجعل سلاح الثورة على أحسنه وأجوده وأمضاه فى هذا السؤال ، فقام كل أحد يسأل مَن أنا ؟ فتجديد الحياة فى الشرق حقيقةٌ لا مناص للعالم بعدها من الاعتراف بأنها واجبة الوجود على الأرض . وأما إذا انطلقت مع أحلام النوم وفلسفة الأحلام ، وجعلنا نلبس مُسُوح العلماء والمفكرين ، وجلابيب الوقار والسمت ... أى البلادة ! فقد هلك على أيدينا من كان حقه علينا أن نجعل هذه الأيدى خدمًا فى حاجاته ومرافقه .

إن من الهراء أن تأتى مجلس قوم من بلداء المهندسين قد اختلفوا فى الأرض : هل تصلح لوضع الأساس أو لا تصلح ؟ فتحدثهم أنت أن الرأى أن يتحولوا إلى مكان آخر من صفته ومن نعته ... مما يصلح عليه البناء ! فإن هؤلاء إذا بدأوا أمرهم بالاختلاف على ما يجدون عنه مندوحة ، فاعلم أنه لا فلاح لهم ، وإنما

الرأى أن تتحول أنت عن هؤلاء البلداء إلى من تجد عنده من الانبعاث إلى العمل ما لا يجد معه وقتًا يضيعه فى ترجيح بعض ما يختلف عليه على بعض آخر .

فالطريق الآن إلى الحياة الجديدة أن يتحول الشرق عن أصحاب الاختلاف والمنابذة وعلم الآراء التى يضرب بعضها وجوه بعض تناقضًا وتباينًا وافتراقًا ، وأن يصغى إلى حنين النفوس المتألمة التى تحن وتئن من أشواقها ، فيتجاوب حنينها نغمًا روحيًا فيه حركة الحياة ، وحرارة الوجد ، وأضواء الأمل . وعندئذ يستجيب القلب للقلب ، وتستمد الروح من الروح ، وتثور الأشواق الخالدة فى القلوب الطامحة والأرواح السامية ، وبذلك تستحث الحياةُ الحياةَ إلى الغاية التى يرمى إليها الشرق بأبصاره من تاريخه ومن وراء التاريخ .

إن عمل العامل فى أول الطريق غير عمله فى آخره ، فنحن سوف نبدأ - وسنبدأ بإذن الله - ، فعملنا الآن هو إنقاذ أرواح الملايين من الموت ومن الفتور ومن الكسل ، وليس عملنا أن نضع الأسس العلمية أو السياسية أو الأدبية لأرواح موات لا حركة فيها ولا انبعاث لها. وما جدوى علم لا روح فيه ؟ أو سياسة لا نشاط فيها ؟ أو أدب لا قلب له ؟

إن عمل من يريد أن يعمل اليوم هو أن ينفخ فى صور جديد يكون صوته فزعًا جديدًا مع الفزع الأكبر الذى نحن فيه ، حتى تنبعث الأمم الشرقية من أجداثها ثائرة حثيثة قد احتشدت فى ساحة الجهاد تلمع قسماتها بذلك اللهيب المتضرم الذى يتوقد بالأشواق ، وتلمح نظراتها لمحًا بالشعاع الظامئ المتوهج بالأمانى المرهقة المتسعرة ، وتتجلى فى كل عضو منها تلك القوة المعروفة فى العضلات المفتولة ، يخيل لمبصرها أنها تكاد تنفجر من ضغط الدم فى أنهارها وأعصابها لولا ما يمسكها من جلدة البدن .

يومئذ يكون جواب الشرق عن سؤاله : من أنا ؟ عملًا صامتًا لا يتكلم ، لأنه لا يضيع أيامه فى إسماع الزمن الأصم أساطيره الباطلة التى يرويها عن أحلام البلادة والجهل والخمول .

* * *

الحضارة المتبرجة

أعطيت هذه الحضارة الأوربية الحديثة أعظم روح من الفن كان فى الأرض من لدن آدم إلى يوم الناس هذا . وهذه الروح الفنية - على سموّها فى بعض نواحيها إلى غاية ما يتسامى إليه الخيال الفنى - تتساقط وتتدنى وتنحدر من جوانبها إلى أدنأ مايبتذل من الفن العامى المثير لأشأم الغرائز الحيوانية فى الإنسان . وبهذه الرُّوح الفنية عالجت الحضارة الأوربية مشكلة الحياة السريعة الدائبة المثقلة بأعباء العمل ، فاتخذت لكل مَلَل راحة واستجمامًا بلغت بهما غاية اللذة الفنية ، تلك اللذة التى تجعل الأعصاب المجهدة إذا أوت إليها كأنما تأوى إلى بيت ذى رونق وزخرف وعطر وضوء يغمغم ألحانًا من الفن الموسيقى ، فإذا بلغته استنامت بإجهادها على حشايا الخز والديباج ، نعومة ولينًا ترسل فى الأعصاب لذة تمسح الجهد حتى يسكن ويخف ثم يتبدد .

وكانت المرأة هى فنُّ الفنِّ للإنسانية ، وهى الشاطئ الوادع لبحر الحياة المتموج ، وكانت الظل الرطيب فى بيداء موقدة تحت أشعة الشمس المحرقة ، وكانت هى السكن للقلب المسافر دائمًا فى طلب أسباب العيش والحياة . فجاء فن المدنية الحديثة فجعل الشاطئ بحرًا آخر يموج موجًا فنيًا مغريًا يجعل السباحة المجهدة فيه ضربًا من الراحة ، وتركت الظل الرطيب حرارة مستعرة تحرق ، ولكنها تحرق بلذة ، وفرشت السكن حتى مدته طريقًا بعيدًا متراميًا يسافر فيه القلب سفرًا بعيدًا فى أحلام وفتنة وجديد لا يتقادم .

وبدأت المرأة بدءها لتجعل الحضارة فنًّا جديدًا من تجميل الحياة للمكدودين . ثم جاءت الحرب الماضية ، فخرجت المرأة من وطيسها المتوقد قد استوت ولذَّت وطابت ، وتجدّدت عقلًا وروحًا وجمالًا ، وشاركت أسباب

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٧٠) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٢٥٢ - ١٢٥٤

الحضارة فى إيجاد حل جديد لمشكلة الإنسان العامل المنطلق فى أعماله بسرعة وكدٍّ وإرهاق وعناء ، فاتخذت فن العقل السامى عبدًا تصرِّفه فى إنشاء لذات الحياة إنشاءً عبقريًا تخشع لسلطانه النفس خشوعًا راضيًا ، ثم تمشى فى جنّاته . تأْبى أن تجد راحتها إلا راحة فيها ذلك السحر الناعم الرقيق الفاتن ، الذى يصنعه بنان مؤنث يقول للأشياء كونى جميلة ، فتكون .

وأعطت العين للمرأة أشواقها المستبدة ، وزَينت المرأة للعين متاعها المتجدد ، فاستيقظت الغرائز كلها من هزة الأشواق وحب الاستمتاع ، وانحدرتْ فى دم الرجل قطرات الفتنة المؤنَّثة ، وسطعت فى كيانه كله نفحات العطر المعربد ، وألقت المرأة ظلها على كل شىء ألوانًا تتخايل بالفن المنسَّق البديع ، وصبغت كل شىء فى حلاوة أنوثتها ، حتى لم يبق للرجولة ولا للإنسانية هوًى فى الحياة إلا وهو من المرأة وإلى المرأة وفى سبيل المرأة .

وصارت المرأة هى المحور الذى تدور عليه الإنسانية فى فلك الشهوات الضارية التى تنزع منازعها فى حياة الإنسان باقتدار وقسر ، وسار العالم كله على ذلك حتى ما يُحس ذو شعور أنه يعمل من أجل المرأة ، مع أنه ما يعمل عامل إلا من أجلها . فهو فى نشوة متصلة لا تنقطع فى عمله ، لأن الغرائز المنتشية هى التى تحكم وتصرّف ، وبذلك لم يبق له من الفكر ما يستطيع به فى هذا الأمر أن يتبين حقيقة التيار المسكر الذى يتدافع به فى حياته .

أصبحت الحضارة الأوربية بعد ذلك فنًّا جميلًا يتوالى فيه زخرف الحسن مبعثرًا ومنتظمًا ، لأن الأعمال كلها قد احتملتها إرادة واحدة ، هى إرادة جعل الحياة أجمل مما هى لتكون أمتع للعين والقلب والنفس والغريزة ، مع إسقاط مطالب الروح السامية المتحررة من استعباد الشهوات .

ومن عجيب تصريف القدر فى الحياة أن يجعل أعظم شىء فيها هو أقل الأشياء حظًّا من الحياة ، فالروح التى هى أعظم ما وجد فى الحياة ، ترجع فى غمرة اللذات والشهوات وأمواج الغريزة الطاغية ، أقل ما وجد فى الحياة ، حتى ما يكون لها نصيب منها إلا ذلك الجو الأغبر القائم فى عزلة موحشة ، بعيدة عن

تحقيق لذاتها الروحانية الحلوة التى تبقى حلاوتها خالدةً فى الهرم بعد الشباب ، وفى العجز بعد القدرة ، وفى السكون بعد الحركة وفى الموت بعد الحياة . وتقف الروح متغضنة جافة متكسرة تنظر نظرة متألمة إلى ما يصيب الإنسان من اللذات الطارفة الطارئة التى تتحول فى نار الشهوات رمادًا بعد توقد واشتعال .

فاعتزال الروح فى هذه المدنية الأوربية قد جعل العالم يعيش ليحترق بأسرع ما يمكن أن يحترق ، وهذا هو العلة فى امتياز هذه المدنية بالسرعة والنشاط والتوقد ، واحتمالها متاعب الجهد المضنى فى سبيل استغلال أقصى ما يستطيع الإنسان من الإنتاج فى العمل ، ثم امتيازها بنظام الطبقات الذى تجهد جهدها أن تستره بتلك الزينة الفنية العلمية الظاهرة ، لئلا يكون معنى ذلك أن المدنية تريد أن ترتد بالناس إلى الحالة الطبيعية الوحشية اللئيمة التى ينتجها اجتماع همجى مستبد لا يعقل ، وإنما يكون فيه اللذة التى تسكر العقل ، والظلم الذى يثير العقل ، والأثرة التى تطغى العقل .

وجاء اشتراك المرأة اشتراكا عمليًا فى الحياة الأوربية العامة ليقذف الروح بعيدًا فى عزلتها ، ويدنى غريزة تشتاق إلى غريزة تشوق ، فكذلك بدأت الأنظمة الأدبية والاقتصادية والمدنية تخضع لسلطان الأشواق وحدها دون سلطان الروح والعقل ، وسلطان الأشواق هو الذى يكون غرضه دائمًا أن يضيق ويتخصص وينفرد بأسباب شوقه ، وسلطان الروح والعقل هو الذى يتراحب ويشمل ويعم ويوجد المساواة بين الناس ، مهما لقى من العنت والقسوة فى وضع النظام الذى يريد أن يجعل به الناس أحرارًا فى قيود من الإنسانية السامية المترفعة عن الذل كما تترفع عن بغى السطوة ، والتى تستنكر العبودية الخاضعة كما تستنكر الحرية الفوضى ، والتى تأبى تحكم طبقة فى طبقة كما تأبى ثورة طبقة على طبقة .

ولكن تبرج الحضارة الأوربية فى ذلك الخَلق الجميل الفتان ذى الحيلة والفتنة والسحر الذى يعيش فى صورة الأنثى ، قسر هذه المدنية على الخضوع لسطوة الشوق المتمرّد ، فقام النظام كله على هوى واحد إلى المرأة . فالعامل الذى يعمل يريد أن يستغل الحياة بين يديه لا ليعيش ويعيش معه أهله وبنوه وتلك الدولة

الصغيرة التى تسمى البيت ، بل هو يعمل ليجد أولًا تلك اللذة الحاكمة الممتعة التى يستمتع بها فى ظل تلك الدولة العظيمة التى تسمى المرأة .

وإذا بدأت الطبقة العاملة من الشعب تجد حوافز أعمالها فى شىء بعينه ، كانت كل أعماله من الأدنى إلى الأعلى لاتجد فى أعمالها إلا هذا الحافز الواحد ، وإذا تشابهت الحوافز تشابهت الغايات ، وما يفترق هذا عن ذاك إلا بأن لكل شىء أسلوبًا ، ومهما اختلفت الأساليب فى هذا فلن تختلف فى الدلالة إلا بمقدار الأصل العملى الذى يوجب هذا الاختلاف .

والمكان الذى نصت عليه عروس النفس الإنسانية فى هذه المدنية الحديثة ، هو الحافز وهو الغاية ، ولذلك تجد هذه المدنية قد تبرجت لأبنائها تبرج الفن العبقرى الحافل بأسباب التحكم المستمر فى أعمال كل حى . ولما كانت هذه الحوافز على تعددها إنما هى فى الحقيقة اختصاص فردى لكل واحد من الناس - لأن اللذة لا تقبل الشركة والتعدد - ولكل اختصاص عيب هو الأثرة ، والإصرار على التفرد ، ومعاندة الناس بعضهم بعضًا فى سبيل هذا التفرد - وقع التضارب والتعادى والانتقاض فى كل عمل ، وصار ما يبنى لا يكاد يتم حتى يلقاه ما يهدمه ، وبذلك كان نظام هذه الحضارة مع روعة ما يبنى يقابله نظام آخر فى الهدم والتدمير ، يخيف هذا بقدر ما يروع ذاك .

ولولا هذا التبرج الفاجر فى هذه المدنية ، ولولا هذه الشهوات التى انطلقت ترشف من مسكرات الفن المتبرج ، ولولا هذه الغرائز الجامحة فى طلب السيطرة لإدراك غاية اللذة ، لما كان النظام الاقتصادى الحاضر فى هذه المدنية هكذا مهدِّمًا مستعبدًا مستأثرًا باغيًا ، ولما تعاندت القوى الدولية هذا التعاند الذى أفضى بالعالم إلى الحرب الماضية ثم إلى هذه الحرب المتلهبة من حولنا اليوم ؛ وذلك فى مدى خمسة وعشرين عامًا ، لم يستجمع العالم خلالها قوته ، ولم يتألف ما تفرق ، إلا ليضيع قوته مرة أخرى ويتفرّق .

إن الحضارة فى هذه السنوات التى تبعت الحرب الماضية كانت ترفه عن المكدودين ترفيهها الحُلو الغنى المتبرّج لتعطى القُوى العاملة نشاطًا جديدًا من

النشوة ، أى من الحالة التى يفقد فيها العقل والروح قدرتهما على التحكم فى نظام الحياة . وأقدمت المرأة الأوربية إقدامَها الجرىء فجلبت زينتها من كل خيال ومن كل فن ومن كل سحر ، لتعين الحضارة على الحياة والبقاء فى هذا الجوِّ الذى اختارته وعملت له . وكان هذا الإقدام ضرورة طبيعية للمقدمات التى سبقت عصر الحرب الماضية ، ثم للحرب نفسها . فإن المرأة التى فقدت زوجها ، والفتاة التى أضلت حبيبها ، والبنت التى أضاعتْ قَيِّمها من أب أو أخ أو عم ، ... وبقيت فى موج الحياة حَيرى متلَدِّدة [1] ، لم تجد بُدًّا من الإقدام على الطريق المجهول بجرأة واندفاع وتهور ، فلما أوضعتْ [2] فى الطريق المجهول وأسرعت خطاها جرى العالم وراءها يطلبها ، فلم تجد بدًّا من أن تأخذ منه أكثر ما تستطيع لتجتلب لزينتها أحسن ما تستطيع ، وتطارد الصيدُ للصائد فى كل وجه حتى اصطدم العالم كله هذا الاصطدام الهائل الذى لا يدرى إلى أين ينتهى ولا كيف ينتهى .

وستخرج المرأة من هذه الحرب أيضًا كثيرة فاتنة حائرة لا تجد أباها ولا زوجها ولا أخاها ولا حبيبها ، وستكون فى عينيها تلك النظرة الحزينة الضارعة التى تقول لك : أنقذنى ! أنقذنى !! أنا وحدى ، لا أجد من يعولنى ! وسينظر العالم الجديد إلى هذه المرأة بالرحمة والعطف والحنان ، كما نظر للّواتى كنَّ بعد الحرب الماضية . وستعمل المرأة يومئذ لتكتسب الرجل فى كل وجه ، ثم لا تلبث أن تُوجِد من بقايا العالم المتحطم سحرًا جديدًا لمدنية ساحرة ، وبذلك يرتد العالم إلى النظام الاقتصادى الفاجر المبنى على اللذة وطلبها والبحث عنها ، فتكون أنظمته كلها قائمة على الاستبداد والفجور فى الاستبداد .

ويومئذ يبدأ تحقيق نبوة رسول الله ﷺ فى أشراط الساعة وما يكون فى أعقاب الدهر ، إذ « يُرْفَع العِلْمُ ، ويكثر الجهل ، ويكثر الزنا ، ويكثر شرب الخمر ، ويقل الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » ، وحتى

---

(١) تَلَدَّد : وقف متحيرا لا يدرى أين يذهب .

(٢) أوضع : أسرع .

« ترى الرجل الواحد يتبعه أربعون امرأة يلذن به » . وما يكون ذلك إلا يوم يتحقق للحياة المعنى الفنى المحض الذى لا يعرف قاعدة اجتماعية يحرص على تحقيقها للاجتماع ، والذى يرى الحرية انطلاقًا من قيد الأخلاق التى تقسره على مصلحة الجماعة دون لذة الفرد ، وتتبرج الحياة تبرجًا هائلًا يجعل العقل غريزة جديدة تشتهى ، والروح خلقًا منبوذًا حائرًا يطوف على هذه الفتن كما يطوف الصعلوك على مائدة ملكية . ويومئذ يُرْفَع العِلْمُ لأنه سيُستعبَدُ فى إيجاد اللذات ، وتفارقه الروح النبيلة التى لا يكون العلم إلا بها علمًا ، ولا يبقى فى الأرض إلا الجهل الأحمق الذى لا يعرف إلا السيطرة بحماقة ، والأثرة بكَلَب ، وتكون المرأة هى علم الحياة الجديدة الذى يمزق الرجولة القليلة فى جذب الشهوات العنيفة ، ويغرق الفضيلة فى طوفان المتعة الجميلة التى تبعث فى الأعصاب المجهدة نشوة مسكرة .

* * *

١ – اقتطف !

قرأت سؤال الأخ الفاضل « رشاد عبد المطلب » ، وكنت أرجو أن أكون مخطئًا ، كى أقرَّ له بخطأ ماجاء فى قولى : « وجعل يقتطف منها حيث أراد » ، وذلك لحسن أدبه ، ولطف سياقه .

والقول فى « اقتطف » إنها خطأ ، وإنها لم ترد فى كتب اللغة : كاللسان والأساس والقاموس والنهاية والمصباح ... إلى آخر هذه الجملة - قول قديم ، قد ذهب إليه المتأخرون من فضلاء المشتغلين باللغة فى عصرنا وما قبله بقليل .

ولو لم يرد هذا الحرف فى اللغة لوجب أن يوجد للغة وجوبًا بيانيًّا من عدة وجوه ، وليس هذا موضع تفصيل ذلك ولا هذا أوانه . وأنا لا أستطيع الآن أن أقف فى الطريق لأتلفت إلى ما ورائى مما قد مضى زمنه . وإذ كان لابد فى إقامة الدليل على صواب هذا الحرف ، من شاهد عربى ، فنحن نأتى به ، وذلك من قول نابغة بنى شيبان « عبد الله بن مخارق » :

تُسْبِى القلوبَ بوجه لا كِفاء له ... كالبدر تَمَّ جمالًا حين ينتصفُ

تحت الخمار لها جَثْل تعكِّفُه [١] ... مثل العَثاكِيل سودًا حين تقتطف

لها صحيفةُ وجهٍ يُستضاء به ... لم يعل ظاهرها بَثْرٌ ولا كَلَفُ

وفى قديم الشِّعر من الرجز ما أحفظه ولا أُثبت موضعه : « يقتطِفْنَ الهاما » [٢] ، يصف السيوفَ . وبيت النابغة كافٍ فى الدلالة والشهادة ، وأدع ماوراء ذلك لمن يجعل همَّه اقتناص الكلمات الهاربة من معاجم اللغة .

وما دمنا فى ذكر شاهد من شعر نابغة بنى شيبان ، نقول : إن أبا الفرج الأصفهانى زعم أنه نصرانىّ ، لأنه زعم أَنه وجد فى شعره يحلف بالإنجيل

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٧٠) ، ١٩٤٠ ، ص : ١٢٧١

(١) الجثل : الشعر الغزير . تعكفه : تُعطِّفه وتُعَوِّجه .

(٢) الهام : جمع هامة ، وهى أعلى الرأس .

والرهبان وبالأيمان التى يحلف بها النصارى ، وذلك كله وهمٌ فاسدٌ ، استغرّ به صاحب شعراء النصرانية لويس شيخو اليسوعيّ ، فاحتمله فيمن احتمل من شعراء العربية . وشعر النابغة ليس فيه حرفٌ واحدٌ مما زعم أبو الفرج .

هذا ، وأبوه « مُخَارِق بن سُلَيْم الشيبانى » صحابىٌّ جليلٌ روى له أحمد بن حنبل فى مسنده ج ٥ ص ٢٩٤ ، والنسائى ج ٧ ص ١١٣ ، وروى عبد الله (هذا الشاعر) وأخوه « قابوس بن مخارق » عن أبيهما . وكان عبد الله يكثر رواية الحديث ، ثم انصرف إلى الشِّعر ، وله فى انصرافه إلى الشِّعر خبرٌ .

٢ - باريس !

قرأت فى عدد الرسالة الماضى كلمة يذكرنى فيها صديقنا الأخ « زكى مبارك » ويزعم أنه قرأ فى « الدستور » كلمة بإمضائى ، عدها هو تعقيبًا على المقال الذى نشره فى « الرسالة » بعد سقوط باريس تحت أيدى الألمان .

ولو أحسن الدكتور زكى فأخرجنى من عداد من ذكر لكفى نفسه مؤونة الفكر فى أنى أتعقب كلامه . ولو كان ما قاله الدكتور زكى صحيحًا لكان للسان مقال غير الذى قلت . والذى كتبته كان حديثًا عامًّا لم أرد به أحدًا بعينه وخاصته ، وكثير غير الدكتور بكى باريس وناح ، فكيف يريد أن يخص نفسه دون سائر مَن أَعْوَل على هذه المدينة ؟

وإذن فسائر ماجاء فى كلمة الدكتور زكى ليس يعنينى . ولا هو مما أستطيع أن أشتغل به ، والمذهب الذى يجرى فيه الدكتور غير مذهبنا ، وبينهما من الفرق مايوجب علىَّ أن أصرف خطابه - فى هذا المكان من الرسالة - إلى من شاء غيرى . وللدكتور منى تحية ، وعليه سلام .

* * *

وزارة المعارف العمومية

عُدْوان لطيف

حضرة المحترم ناظر مدرسة ... الثانوية

قررت الوزارة (أى وزارة المعارف) كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف للسنة التوجيهية فى العام الدراسى الحالى ٤١/٤٠ ، والوزارة تطبع هذا الكتاب الآن بالمطبعة الأميرية ، بعد أن عهدت فى تهذيبه وتصحيحه وشرحه إلى حضرتى الأستاذين أحمد أمين عميد كلية الآداب ، وعلى الجارم بك وكيل دار العلوم .

« وقد ظهرت أخيرًا لهذا الكتاب طبعة أخرى قامت بنشرها المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، وهى طبعة فيها فحش وتحريف ونقص فى الشرح والتعريف بأعلام الرجال ، وغير ذلك من العيوب » .

فنلفت نظر حضرتكم إلى أن الطبعة التى ينبغى استعمالها والاقتصار عليها بالمدارس الأميرية والحرة هى طبعة الوزارة التى ستصدر من المطبعة الأميرية قريبًا .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام — السكرتير العام

١٩٤٠/١١/١١ — حسن فائق

* * *

وكان من قصة هذه النشرة الظريفة التى أذاعتها وزارة المعارف على المدارس الأميرية والحرة ، أنى نشرت كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف فى المكتبة التجارية الكبرى فى ١٩٤٠/١٠/١٤ ، بعد أن حققت أصله وراجعتُه على الأصول ، وشرحت ما يعرض للقارئ من غامضه ، وكتبتُ لأحمد بن يوسف ترجمة وافية جمعتها من بين سطور كتب التاريخ والتراجم ، إذ أن ترجمة أحمد

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٨٩) ، ١٩٤٠ ، ص ١٨٢٦ - ١٨٢٨

ابن يوسف لا تبلغ عشرة أسطر فى الكتاب الفرد الذى ترجم له ، وهو معجم الأدباء لياقوت الحموى .

وكان حقًّا على وزارة المعارف ، أو على الأصح ، كان من الأدب المتبع أن تشكرنى على الجهد الذى بذلته فى تصحيح هذا الكتاب . ولكن الوزارة أبت أن تكافئ الجميل من العمل بالجميل من القول ، وقذفت الكتاب وناشره وطابعه قذفًا جارحًا لا مسوغ له ، وإذ كنت أعلم علم اليقين أن ليس بينى وبينها عداوة مستحدثة ، أو حقد متوارث ، فقد أذهلنى اجتراء هذه الوزارة على الطعن فى الكتاب طعن المنتقم المتضرم المغيظ الذى يفقده الغيظ سلطان الإرادة الحكيمة .

والقارئ يعلم – ووزارة المعارف تعلَم أيضًا – أن القانون يقدُعها ويردها عن الطغيان كما يقدعنى ويردنى ، وأن هذه الجملة التى وضعتها بين الأقواس فى نشرة الوزارة ، إن هى إلا حشو لا معنى له ، وأن قد كان لوزارة المعارف مندوحة عنها ، وأن الكلام يستقيم بإسقاطها ، وأن أمرها لنظّار مدارسها وأساتذتها وطلبتها واجب الاتباع . فإذا قالت الوزارة لهؤلاء إن الطبعة التى ستصدر من المطبعة الأميرية قريبًا !! هى الطبعة التى ينبغى استعمالها والاقتصار عليها ، فهذا كفاية وفوق الكفاية فى منع الأساتذة والطلاب !! من اعتماد طبعتى فى الدراسة .

ومع ذلك ، فمما لاشك فيه أن السنة الدراسية الحالية ، قد انقضى من عمرها أكثر من الثلث ولم تصدر طبعة وزارة المعارف . أفيكون ثمة بأس على الأساتذة والطلبة أن يوفروا من الوقت المضاع أشهرًا أخرى بالنظر فى نسختى ، حتى إذا ظهرت نسخة وزارة المعارف اتبعوها وألقوا نسختى ومضوا فى دراستهم فى كتاب الوزارة ؟ إنه مهما يكن فى نسختى من العيوب ، فلا يمكن أن يكون الأصل الذى طبعتُه من الكتاب غير الأصل التى تطبع عنه وزارة المعارف ، وما دام الأصل واحدًا ، والنص واحدًا ، فليس على الأساتذة والطلبة بأس . فهل تستطيع الوزارة أن تدَّعى أن نص الكتاب الذى طبعتُه – مهما يكن فيه من الخطأ والتحريف – غير النص الذى يطبعونه ؟ وبالطبع نقول : لا وكلا ، وليس معقولًا .

وإذن ، فالجميل الذى أوليته وزارةَ المعارف ، وإخوانَنا الأساتذة والطلبة ،

جميلٌ يوجب الشكر على من قدَّم له . وأنت تعلم - ووزارة المعارف تعلم أيضًا - أن الأساتذة والطلبة مكلفون بشراء كتاب الوزارة كما اشتروا كتابى . فتكليف الأساتذة والطلبة بالاقتصار على طبعة الوزارة التى ستصدرها المطبعة الأميرية قريبًا !! إيجاب عليهم بشراء كتابها وطبعتها ، فليس يضير الوزارة على ذلك شىء ، مادامت ستنتهى إلى النهاية الطبيعية وهى بيع كتابها ورواجه بين المكلفين بدراسته .

ونحن نعلم - ووزارة المعارف تعلم أيضًا - أن المفروض فى أمر هذه الكتب ، أن الوزراة لا تتجر بها للربح ، فإذا فُرِضَ وهذا مستحيل بعد أمر الوزارة للمدارس بالاقتصار على طبعتها التى ستصدر من المطبعة الأميرية قريبًا !! - أن بقيت جميع نسخ الوزراة معطلة موقوفة لا تباع ولا تشترى ولا ترهن !! كالأوقاف والحبوس ، لما كان فى ذلك شىء ، مادام الغرض من طبع هذا الكتاب قد حقق للطلبة والأساتذة على ماقد يكون فى طبعتى من العيوب .

وبعد الاقتصار على هذا ، أظن وزارة المعارف قد استطاعت أن تفهم الآن مقدار ما أساءت به ، مع صرف النظر عن المسئولية الأدبية والقانونية التى وقعتْ فيها فى نشرتها التى أذاعتها على المدارس الأميرية والحرة .

وسأدع المسئولية القانونية التى يكفلها القانون لى ولصاحب المكتبة التجارية الكبرى إلى أن يحين حينها وتأخذ طريقها الذى تقتضيه ، وأنصرف الآن إلى المسئولية الأدبية التى أغمضت فيها هذه الوزارة بغير رفق ولا حكمة ولا حرص .

إن عمل وزارة المعارف ليس إلا الإشراف على التعليم ، وكل أمر أو نهى يصدر منها يجب اتباعه على المدارس الأميرية والحرة ونظارها وأساتذتها وطلبتها ، هذا ما نعلمه - وأظن وزارة المعارف تعلمه أيضًا - وليس من عمل وزارة المعارف فيما نعلمه - وأظن هذه الوزارة تعلمه أيضًا - أن تكون حكما قاضيًا على ما يصدر من الكتب غير مرسوم برسمها واسمها ، وإن كانت هذه الكتب مما قررته الوزارة لمدارسها . وما دمتُ لم أُشر بحرفٍ واحدٍ فى كتابى إلى أنى قد نشرته لطلبة السنة التوجيهية للمدارس الأميرية والحرة ، فليس من حق وزارة المعارف أن تعرض للحكم عليه أو الطعن فيه على الأصح .

ومع ذلك فأنا وأنت نعلم - ووزارة المعارف تعلم أيضًا - أن حكمها على الكتاب قد صار ، وأن هذا الحكم ليس نقدًا ولا شبيهًا بالنقد ، وإنما هو طعنٌ وتجريحٌ وطغيانٌ كلاميٌّ مُؤْذٍ كان يجب على هذه الوزارة أن تترفع عنه .

ومع ذلك كله ، فالوزارة تقول إن هذه الطبعة التى نشرتها المكتبة التجارية الكبرى فيها « فُحْشٌ » ، هذا الحرف ، بهذا النص ، على هذه الصورة ، فى هذا الوضع ! فأنا أتحدّى هذه الوزارة فى هذا المكان وأطالبُها باستخراج « الفحش » الذى وقع فى طبعتى ، أين هو ؟ فإذا فعلتْ ، فسنرى أىُّ الفُحشين أفحش ، أهذا الذى تدعيه وزارة المعارف على كتابى ادِّعاءً ، أم الذى هو قائمٌ مقررٌ فى الكتب التى قررتها وزارة المعارف وطبعتها وأذاعتها ، وأمرت مدارسها بدراستها أعوامًا طوالًا ؟

وتقول وزارة المعارف إن فى طبعتى « تحريف » ؛ هذا الحرف ، بهذا النص ، على هذه الصورة ، فى هذا الوضع ! فأنا أتحدَّى هذه الوزارة أيضًا فى هذا المكان ، وأطالبها باستخراج هذا « التحريف » ، ليعلم من لم يكن يعلم أىَّ التحريفين أقبح ، ما أقع أنا فيه ، أم ماوقعتْ فيه هى فى الكتب التى صححتها وشرحتها وأذاعتها وقررت دراستها أعوامًا طوالًا ؟

ومع ذلك كله ، فأنا أقرر فى هذا المكان أن « الفحش » ! هذه واحدة ، وأن « التحريف » ! وهذه أخرى ، ليسا سوى دعوى من الوزارة لا برهان لها عليها ألبتة ، وأن الجرأة والطغيان قد بلغا مبلغًا فى هذه النشرة الرسمية ، وأن كتب وزارة المعارف قد عرضت لى صفحتها ، فإن شئت قضيت وإن شئت أمسكت .

أما ثالث أقوال الوزارة من أن الكتاب فيه « نقص فى الشرح » ، فليس صحيحًا بوجه من الوجوه ، إذ كان شرحى مختصرًا مبينًا عن وجه العبارة والمعنى ؛ وقاعدتى فى الشرح أن أدع نص أصحاب اللغة فى شرح اللفظ اللغوى ، إلى عبارة أعبر بها معنى الجمال على الوضوح والبيان . وبذلك أسقط من الكلام ماتحشو به وزارة المعارف كتبها من الشروح التى لا معنى لها ، وسأضرب فى كلمة أخرى أمثلة كثيرة أزعم أنها هى التى بغضت إلى الطلبة أكثر كُتب الأدب التى وزعتها عليهم ، وصرفتهم عن الاستفادة منها .

هذا ، ومن قرأ كتاب أحمد بن يوسف يعلم - ولعل وزارة المعارف تعلم أيضًا - أن الكتاب مجموعة من القصص القصيرة ، فى عبارة قريبة واضحة ليس فيها من غريب اللغة إلا القليل ، ورب غريب فيها يبين عنه سياق الحكاية ، فلا معنى لإرهاق نظر الطالب والتهويل عليه بالشروح المستفيضة التى تخوفه أو تثقل عليه . ورب شرح قصير موجز واضح يكون أعظم بركة على القارئ من تَعالُم غليظ ثقيل وتقعر .

وعندنا أن الأسلوب الذى جرت عليه وزارة المعارف فى شرح كتبها أسلوب غير منتج إلا أسوأ النتائج ، لأنه يصرف الطالب عن الاستمتاع بالنص ، وعن التقليب له والنظر فيه ، وعن التردد لطلب المعنى بالجهد القليل ، وتجعله حائرًا بين الكلام الذى يقرأ وبين الشرح الطويل الممل الذى تتدلى حواشيه على كل كلمة أو حرف من عبارة قصيرة قريبة المعنى دانية البيان ، وأن هذه الطريقة المضحكة هى التى تجعل الطالب لا يهتم كثيرًا بالإصغاء إلى أستاذه اعتمادًا على ما يتوهمه فى الشرح الطويل العريض من الإبانة الصحيحة عن المعنى ، فإذا فعل ذلك ، ثم رجع إلى كتابه وقرأ شرح الشراح وأصحاب الحواشى لم يفهم ، وربما أضله هذا الشرح عن بعض الصحيح من الفهم الذى فهمه قبل قراءة الشرح . وأنا لا أقول هذا عن رَجْم وَتَظَنٍّ بل أقوله وقد وقفت عليه من ملاحظتى لأكثر من عشرين طالبًا من أبنائنا الذين كتب عليهم أن يتعلموا العربية فى وزارة المعارف . ولست أشك أن أكثر أساتذة العربية فى المدارس الأميرية ، لو أتيح لهم أن يتكلموا لأظهروا هذه العيوب كلها لما يقاسونه مع الطلبة فى دراسة النصوص العربية التى شرحتها وزارة المعارف .

ومع كل ذلك ، فأنا أوافق وزارة المعارف على أن كتابى فيه نقص فى الشرح ! فهل يعيبه هذا ! إنما العيب أن يطول الشرح ويكثر ، وتلج لجاجته ، ثم يكون هذا الشرح تضربًا فى خطأ بعد خطأ ، وفى سوء فهم للعبارة ، وفى إبهام آت من قلة المعرفة بأساليب العرب فى كلامها . وأنا أتحدى وزارة المعارف أن تخرج من كل ما صححت من الكتب ، بل من كل ما أكتب ، شيئًا يدل على ذلك .

وما دامت الوزارة تأبى إلا أن تعتدى علىَّ فسأضع يدها على ضرب مدهش من الشروح التى وقعت فيها فيما طبعت من الكتب ، يدل كل الدلالة على أن الشراح لم يفهموا حرفًا واحدًا مما قرأوا ، وأنهم ينقلون من الكتب ما يصادفون من المعانى ، لا ما توجبه الجمل من معانى اللغة ، وأنهم لا يتذوقون الأدب إلا بالوظيفة وعن طريقها !!

أما النقص فى التعريف بأعلام الرجال - كما تقول وزارة المعارف - فلا أظن أحدًا قرأ كتاب أحمد بن يوسف ورأى ما فيه وعلم غرض مؤلفه منه ، إلا وجد من عيب وزارة المعارف لكتابى بهذا النقص - كما تسميه - أسلوبًا مضحكا فى النقد . أتظن الوزراة أنها تستطيع أن تعرف بفلان وفلان وفلان ممن ذكر فى هذا الكتاب فى سطرين أو ثلاثة ، ثم يكون هذا تعريفًا ؟ كيف تستطيع هذه الوزارة أن تعرّف قارئ كتابها فى سطرين أو ثلاثة : بإبراهيم بن المهدى ، وابن طولون ، وابن بسطام ، والمأمون ، وابن مدبر ، وخاله العشرى ، وابن أبى الساج ، وخمارويه ، وفلان وفلان ممن لا نحصى كثرة ؟؟ وهل تعتقد أن التعريف بأحد هؤلاء إن هو إلا ذكر سنة مولده أو سنة وفاته أو وظيفته فى الدولة ؟ وقضى الأمر الذى فيه تستفتيان ! هذه طريقة فى التعريف بالرجال مضحكة ، لا نلجأ نحن إليها ولا نقرها ، ونعلم أن لا فائدة فيها للطالب أو غير الطالب بتة . وستخرج طبعة وزارة المعارف التى تطبع بالمطبعة الأميرية قريبًا وسنعلم كيف فعلت ! وندلها على الصواب فى كل ذلك إن شاء الله .

وأخيرًا ... وأخيرًا ، أيها القارئ ، تقول وزارة المعارف بعد أن أنهكها تعداد عيوب كتابى ، وبلغ منها ، وكَدَّها ، وأَوْهَى مَتْنَها ، واستصفى نشاطها ، وحيَّرتها الكثرة التى لا تحصى من بلادتى وغفلتى وأخطائى ... أخيرًا تقول : وفى هذا الكتاب الذى نشرته : « غير ذلك من العيوب » : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنعام : ٤٥] .

وأخيرًا أيضًا ، أشكر وزارة المعارف على حسن جزائها فى كتاب لم أتقدم به إليها ، ولكنى تقدمت به إلى قراء العربية ثم أشكرها على توصيمها لاسمى واسم

هذا الكتاب بالنشرة التى أذاعتها على مدارسها . وإذا كانت وزارة المعارف تجهل من أنا ، وماعملى ، وكيف هو - ووزارة المعارف تجهل أشياء كثيرة - فكل ذلك لا يبيح لها أن تتهجم على الناس بالسئ من القول .

إنى أعلم كيف كتبت هذه النشرة ، ومن الذى أملاها ولأى غرض أمليت على من كتبها ، ومن المضحك أن يجوز إنسان كل درجته فى هذا الأمر تأتى من قبل وظيفته . أو أن يجرؤ إنسان كل علمه يأتيه من قبل شهادة نالها ، ثم من وظيفة قدر له أن يحرزها أو تحرزه ، ثم من ثالثة الأثافى التى هى أَلحظ أقول : من المضحك أن يجرؤ أحد هذين أن يدعى لنفسه من الحكم على عمل أعمله مستترًا وراء نشرة تصدرها وزارة المعارف وهو لو وضعته بين ثلاثتى التى أمسك بها هذا القلم لمزقت كل الوشى المصنوع الذى يكتسبه ويتجمل به ... ومع هذا فسوف نرى .

إمتاع الأسماع

قرأت - فى الرسالة عدد ٤١٢ - كلمة الأخ الصديق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن عن كتاب « إمتاع الأسماع » الذى ألّفه المقريزى ، وكان لى شرف تصحيحه وشرحه ، وإنى لأشكر للأخ الكريم ثناءه وحسن ظنه بأخيه . جزاه الله عنى أفضل الجزاء .

وقد استدرك الأخ الأستاذ بعض ما فاتنى من الخطأ ، فله الشكر على اهتمامه وحسن تهَدّيه ويقظة عينيه ، وإن صحّ لى أن أقول شيئًا تعقيبًا على استدراك الأستاذ ، فلست أزيد على أن التصحيح المطبعى صناعة وفنّ قبل أن يكون علمًا ورواية . وكل ما استدركه - إلا الفقرة الأولى يدخل فى باب تصحيح الأخطاء المطبعية ، فالأخيرة منها مثلًا ، وهى : « من هوزان » ص ٤٠١ مذكورة فى هذا الوجه نفسه مرات كثيرة على الصواب « هوازن » بتقديم الألف على الزاى - لا كما جاءت فى تصحيح الأستاذ نفسه « هوزان » كما فى الإمتاع !! - ولكن تَنَبُّه الأستاذ إلى مثل هذه الأخطاء يدل على دقة وبصر ، وأنه يحسن التصحيح المطبعى وذلك لما جُبِل عليه من الهدوء والوداعة .

وأما الفقرة الأولى من استدراكه ، وهى التى جاء فيها على هذا الرجز : ص ٢٢٢

« اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تـصـدّقـنـا ولا صَـلَّـيْـنـا

....

إن الأُلَى قد بغوْا علينا ....

وقوله : إن صواب الأول : « لا هُمّ لولا أنت ما اهتديْنا ، وإن صواب الأخير : « إن الألى لقد بغوا علينا » ، ثم تعجّبه من أن يفوتنى ذلك الاختلال فى وزن الرجز ، وأنا شاعر وعروضىٌّ ! فإنى أبرأ إليه من نسبة العروض ، فطالما أَفْسَد العروض ما بينى وبين أصحابى من الشعراء ، وليس الأمس ببعيد . ورواية الأول :

---

* الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٤١٣) ، ١٩٤١ ، ص ٧٤٢ - ٧٤٣

« اللهم لولا أنت ما اهتدينا » . هى الواردة فى الأصل ، وفى البخارى وفى مسلم (شرح النووى ، ج ١٢ ، ص ١٦٦) ، وفى أكثر كتب التاريخ والسير والحديث . وقد جاءت الرواية التى ذكرها الأستاذ فى كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٢ ص ٥١ ، وجاءت رواية أخرى : « والله لولا الله ما اهتدينا » فى البخارى ج ٥ ص ١٠٩ ، وأخرى : « والله لولا أنت ما اهتدينا » فى مسلم (شرح النووى) ج ١٢ ص ١٧٠ ، وقال النووى فى ذكر الرواية الأولى ج ١٢ ص ١٦٦ ما نَصُّه « كذا الرواية » ، قالوا : وصوابه فى الوزن « لاهم » ، أو « تالله » ، أو « والله لولا أنت » كما فى الحديث الآخر : فوالله لولا الله ... » .

رواية الأخير : « إن الألى قد بغوْا علينا » هى الواردة فى الأصل أيضًا ، وفى البخارىّ فى مواضع ، وفى مسلم ج ١٢ ص ١٧١ ، وفى أكثر كتب السير والتاريخ والحديث . وجاء فى مسلم ج ١٢ ص ١٧٠ : « والمشركون قد بغوْا علينا » ، وفى ص ١٧١ منه ما نصُّه : « وربما قال [يعنى رسول الله ﷺ] « إن الملا قد بَغَوْا علينا » ، وهى فى اختلال الوزن كالرواية الأولى التى أثبتناها . ومثلها فى ذلك أيضًا رواية من روى : « إن الأعادى بغوا علينا » .

وقد نصّ شُرّاح كتب السير ، وشراح البخارى على أن هذا الرجز ليس يتَّزِن (انظر العينى ج ١٤ ص ١٣٢ ، وابن حجر ج ٧ ص ٣٠٩) ، ولم يصححوه أو يبدلوه إلى مايتزنُ ، مما جاء فى الروايات الأُخر ، كالذى ذكر الأستاذ « إن الألى لقد بغوا علينا » ، وهى رواية ابن سعد ج ٢ ص ٥١

فإذا كان أصحاب العلم والدراية والبصر بالرواية لم يفعلوا ما أرادنى الأستاذ على أن أفعله - من حيث أنى عَرُوضى كما يقول ، فلى العذر تابعًا لهم ، مقتديًا بهم ، حريصًا على ألّا أبدِّل أو أُحرِّف ما اتفق عليه الأصل الذى أطبع عنه ، والروايات المتعددة التى جاءت فى أصحّ الكتب إسنادًا أو رواية بعد كتاب الله .

هذا ، والكلام عن مثل هذا الرَّجَز - ومايقع فى بعض أوزانه من الاختلال والاضطراب - يفضى إلى القول فى المواضع التى كان يُنْشَد فيها ، وكيف يكون إنشادُه ؟ ولِمَ يُتجاوز فيه عن الوزن ؟ ولو نظر الأستاذ الشاعر إلى صلة هذا الرَّجَز

بما كان من الصحابة فى حفر الخندق ، وحملهم التراب فى المكاتل ، وسيرهم مصعّدين ومصوِّبين ، متوافقين فى الإنشاد يمدُّون به أصواتهم مختلطة مرتفعةً ، لعَلِم عِلْمَ ذلك ، ولكفانا مؤونة الجرى وراءَ العروض ، أهو يتَّزنُ أو لا يتزن ؟ حتى يبلغ بنا ذلك إلى تبديل الروايات وتحريفها ، وقد جاءت عمن كان أعلم منا بالشعر والعروض .

وأخيرًا ، أشكر للأستاذ هذه الهمة التى دفعته إلى النظر والتنقيب ، والبحث والتنقير ؛ وأثنى عليه بما هو له أهل ، وأسأله أن يتغمَّد خطأ أخيه بما أعرفه من نبله وعلمه وفضله ، والسلام .

* * *

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

أيام حزينة

« قال عمر بن أبى ربيعة ... » : وجاء ابن أبى عَتيق [هو عبد الله بن محمد أبى عتيق بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق] ، فوالله لأَن كنتُ بين ضِرْسين من الجبل يدوران علىَّ دَوَرانَ الرَّحَى ، أهونُ علىَّ من أن أكون لقيتُ هذا الرجلَ الحبيبَ !

كانَ رجُلًا ضَرْبًا خفيفَ اللَّحم أحْمَر ظاهِرَ الدَّم كأنّ إهابَه شُعْلَةٌ تَشِبُ [١] وتتلهَّب ، أفرعَ فينَانَ الشَّعَر ، مخروطَ الوجه ، أزهَرَ مُشْرِقًا كأنّ بين عينيه نجمًا [٢] يتألّق ، يُقْبل عليك حُرُّ وجْهِه بعينين نَجْلاوين قد ظَمِئ جَفْناهما حتى رقًّا ، يرسِلُ إليكَ طَرفَهُ فترى الضحكَ فى عينيه خِلقَةً لا تكلّفًا ، ما أَحسبنى رأيته مَرَّة إلّا خِلْتُه دُعابةً قال لها الله : كونى ! فكانَتهُ . وكأنى به قد دَخَل على أمّ المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق وهى تَكِيد بنفسها [٣] - فى مرضها الذى ماتت فيه - يَقُول : كيف أصبحت يا أمّاهُ ؟ جعلنى الله فِدَاكِ ! فتقول عائشة : أجِدُنى ذاهبةً يابُنَىّ ! فيقول : فلا إذَنْ يا أمَّ المؤمنين !! فتتبسم عائشة وتقول : حتى على الموت يا ابن أبى عتيق !! فيقول : أَرضاكِ الله يا أمَّاه ! لو جَاءنى الموتُ كأكرهِ ما يأتى على حيٍّ ، ماتركتُ له دُعابتى حتى يَستضحكَ ، فيرحَل بى عن الدُّنيا بوجْهٍ غير الذى جاء به !

فلو أنّ امرأً من عُرْض الناس لا أَعرفه ، جاءنى فزعم أنّ نجمًا فى السماءِ

---

* الرسالة ، السنة العاشرة (العدد ٤٤٩) ، ١٩٤٢ ، ص : ١٩٤ - ١٩٦

(١) الضَّرْبُ : الرجل الخفيف اللحم . الإهاب : الجِلْد .

(٢) الأفرع : الطويل الشعر .

(٣) تكيد بنفسها : تجود بها ، وذلك عند الموت .

بكى ، وأن القَمَر مَدّ إليه مثلَ اليَد فكفكف من عَبَراته ، لكانَ أقربَ إليّ منْ أنْ يأتى آتٍ يقول هذا ابنُ أبى عتيق يمشى فى الناس بعينين ضارعتين خاشعتين ذاهلتين يُعرفُ فيهما البُكاءَ !

رجل صالح تقى خفيف الروح نشوان القلب ، قد انحدر إليه من جده [عبدالرحمن بن أبى بكر الشاعر] ، حنين الشاعر حين يرى الدنيا كالغانية المنعّمة تتصبّى له وتتقتّل ، فيحن إليها بصبَوات الشباب المتوهّج ... وآب إليه من جده [أبى بكر الصديق] حَنَانُ التقى وهو يرى الدنيا كالناشئة الغريرة لا تزال تنشُدُ تحت جناحه دِفءَ الأبوّةِ فتأوى إليه وتتضوّرُ ، فهو يخفض لها من رحمة الوالد المتحنن ... فابن أبى عتيق من هذين الأبوين كالربيع : جمال وشباب ، ورقة وحنان ، وفرح لا ينتهى .

وكنتُ أجدُه فيما يتوقَّدُ علىَّ من الكُرَبِ كالغمامة الغادية : ظِلٌّ ورِىٌّ ، ثم لا يزالُ بى حتى أَنام إلى دُعابته ، فإذا آلامِي تطوف بى من بعيدٍ كأنها أَحلام ، بعد أن كانت فى دمى جمرةً تتلذّعُ . ولقد أكونُ مما أستعصى عليه بأحزانى ، فأريدُ أذهبُ عنه نافرًا أبتغى أن أعكُفَ على آلامى كما يعكُفُ العابد على بُدّه [١] ، فما هو إلا أن يأخذَ ينشد :

مَتى تَرَ عَيْنَىْ مالكٍ وجرَانَه ... وجنبَيْه ، تعْلَم أنه غيرُ ثائِر [٢]
حِضَجْرٌ ، كأُمِّ التَّوْأمَينِ توكلَتْ ... على مَرْفِقَيْها مُسْتهِلَّةَ عاشِر [٣]

فينشد أغربَ إنشادٍ وأعجبه ، ولا يزال يحرِّك ويشير ويمثِّل ، فوالله مامن ساعة أنشدنيها هذين البيتين ، وأقبل علىَّ يُرينى ما يأتى به ، إلا نَبَع الضحك من قلبى دفعة حتى ما أتماسك معه

فكيف به اليوم وقد سكنَ كأنه دمعةٌ خافتة تئنُّ تحت الزفراتِ ، يمشى إلىَّ

---

(١) البُدّ : الصنم الذى يُعْبَد ، وهو فارسى معرّب .

(٢) الجران : باطن عنق البعير ، واستعاره الشاعر للسخرية .

(٣) الحضجر : العظيم البطن الواسعه ، وهو حرف ساخر الجرس والحركة .

كأن أيّامه تطوفُ به ثاكلاتٍ نائحاتٍ ، يغض طرفه كأنما يُمسك عبرةً همَّتْ هاربة من الأسر ، يطأطئ هامته كأنما يقول للزمن : تَخَطَّ ، فلم يبق بينى وبينك عَملٌ أيها الجبّار ، يستكين حتى لإخاله يجمعُ أطرافَ نفسه لا يزاحمُ أفراحَ الناس بما يريدُ أن يتنفَّسَ من أحزانِه .

لك الله يا ابن أبى عتيق ! لقد كانتْ لك كالجدول النَّامى النمير : هو سرُّ الأرض ، وسرُّ العود ، وسرُّ الزَّهر ، وسرُّ العطر ؛ فلما جَفَّتْ عنك همدت أرضُك ، وظمئ عودُك ، وصوَّحَ [1] زَهرُك ، وتهاربَ عطرُك ... زوجةٌ كانت تستودع روحك مع كل شارق ، ما تتملَّى به أفراحك ولهوك ودُعابتك ، فتخرج إلى أحبابك لتحمل عنهم همومهم فتغرقها فى ذلك البحر الخِضَمِّ من الفرح والابتسام والرضى !

* * *

ودخل ابن أبى عتيقٍ فسلَّم سلام الذاهل المتوَلِّه ، ثم جلس كأنما هو يلقى عبئًا ثقيلًا كان يمشى به ، ثم نَظَر فى عينىَّ بعينين نديَّتين ترى فى غَوْرهما ذلك التنُّور المتضرِّم يتقاذفُ شُعَلَه فى ثنايا النفس وفى مسارب العاطفة . وأدامَ النَّظر لا يرفعه عنى كأنما يقول : انظرْ واعرفْ ولكن لا تتكلَّم ! فأشهد أنى افتقدتُ ما أقولُ أعزِّيه به أو أُرفِّه عنه ، بل كأنما أفرغَ بعينيه فى عينىَّ من أحزانه ، حتى أرانى أجد مسَّ النار فى صدرى وهى تستعر .

ولكنى خفتُ على صاحبى ورفيقى إن أنا سكتُّ له ، أن أكون قد خلَّيت بينه وبين همِّه ، وإن أحدنا لو قَعَد يمارسُ أحزانه يومًا بعد يوم لصرعتْه . أجلْ ! وإن الحزن ليهجُم على النفْس كالسَّبُع الضارى ، حتى إذا عَبَر إليها وقف يستأنس متلفِّتًا يريد ما يختلج أو يتحرَّك ، فما هو إلا أن يُهوِى إليه فيبطش به ، أو ينشِب فيه براثنه ينفُضه ثم يقضقضُه حتى يهمَد ، وإذا خُلِّى السبع لا يُذَاد ولا يُطْرد يبقى حتى يتأبّد ويستوحش . ولا يزال على عادته يستمرئ كل ساعة فريسته يغمس فى دمها أو يَلِغُ ، ثم لا يكفُّ حتى تكفَّ الحياة عما ينبض أو يتنفَّس .

---

(١) صَوَّح : جَفّ وييس .

وأخذْت أزوِّر له الأحاديث فى نفسى . فلما هممت بها لم أقل إلا ما يقول الناس : عزاءك يا أبا محمد ! فوالله كأنما هِجْت بها الطير الجثوم ، وظل وجه ابن أبى عتيق يروح الدم فيه ويغدو ، وجعلت عيناه ترسلان على نظراتهما الدمعَ الذى لا يسفح ، والعَتْب (١) الذى لا يتكلم ، وظلّ صامتًا ، وراحت نفسى تنخزل عما أقدمت عليه ، ولكنه لم يلبث أن زَفَر إلىّ زفرةً خلت فى نفثاتها شررًا يتطاير . ثم قعد يتململ حتى قال :

إن أيامى - يا أبا الخطاب - قد استحالت تيهًا أمشى فيه على مثل هذه الجَمَرات ، ولقد كنت مما عَهِدتُنى ، والأيام من حولى عُرْسٌ لا أعدم فيها ما أُطربُ له . كنت إذا ما حَزِن بعض أيامى ، أجد من أفراح الماضى ما أهرب إليه بالذكرى ، وأتوهَّم من نشوة الآتى ما أترامى إليه بالأمل ، فكنت أعيش بفرحةٍ أحضرُها أو تحضرُنى ، لا أخاف ولا أجزع ولا أتوهم فى الحياة إلا الخير . فأنا وقد أبتْ بغتات القدَر إلا أن تنتزع من كَفَّىَّ ماكنت أضنّ عليه ، فهيهات لها بعد اليوم أن تطيقَ انتزاعَه من فكرى . آهِ ... آهِ ياعمر ! كانت مِلْء عينى وروحى وقلبى . كنت أعيش تحت نسيمها كالنشوان ذاهلًا عن الألم مهما أمضَّ ، مستصغرًا للكبير وإن فَدَح ، راضيًا باسمًا متحفِّفًا (٢) ... إذ كانتْ هى هى الأمانىُّ تتجدَّد مع أيامى علىّ وتتبلّج مع كل فجر فى قلبى ، ماكنت جزوعًا ولقد جزعت ! كيف قلت : عزاءً يا أبا محمد ! ها الله يا ابن أبى ربيعة .

كيف صَبرى عن بعض نفسى ! وهل يَصْبِرُ عن بعض نفسه الإنسان ؟

كانت بينى وبين الدنيا ، وكانت آية الرفق والفرح ، فكنت أرى الدنيا بعينيها مشرقةً من تحت غياهب الأحداث ، فالآن إذ نامت عنى ، كيف أرى إلا قِطعًا من الليل تغتالنى من كل وجه ، أو أشلاءً من الدياجى تجثم لى بكل سبيل ؟

ثم رأيت فى عينيه الملَل وهو يطوى على نظراته ما نَشَرتْهُ الحياة من همة

---

(١) العَتْب : الغَضَب .

(٢) متحفف : لم أجد هذا البناء فى المعاجم ، ولعل أستاذنا نحته من حَفّ ، بمعنى مَرَّ ، يعنى يمشى على رِسْله مهتزا طرِبا .

النفس ؛ وتخيلته - حتى كدت أتبينه - شبحًا ينساب فى ظُلمة الليل فردًا قد انخلع من الحياة وأسبابها ، فهو يضربُ فى حَشا الظلماء بسآمةٍ لا تهتدى ولا تريد أن تهتدى ، وقد كدت مما شجيتُ له أن أدع إليه الحديث حتى يَستَتِمَّه ، ولكنى أعرف فى قلبه الرِّقَّة ، فخشيتُ أن يَمضِى به الحزن على غُلَوائه ، فقلت له :

مَهْ مَهْ يا أبا محمد ، والله ما أنكرتك منذ عرفتك ، ولكنى اليوم منكر لك أو كالمنكر ؟ أليس لك فى إيمانك وإيمان آبائك معتصم أيها الشيخ ؟ ما إسلامُك النفس للجزع وما غلوُّك فيه ؟ إن امرأً يؤمن بالله واليوم الآخر لخليق أن يستكين إلى قضاء الله استكانة الوليد إلى أمه . وإن أمرًا يختاره الله لامرئ هو أهدى سبيليه لا رَيب ، شَقِى بذلك أم سَعِد ، وما يمسك النفس على أحزانها للأمر من قدر الله إلا الشيطان . خبِّرنى يا أبا محمد ! هل ابتُلِىَ الناس فيما ابتُلوا به بما هو أفظع من فجيعتهم برسول الله ﷺ ؟ كلا ! فقد حزن الناس حتى أخذتهم آخذة ، وحتى أنكر أحلمهم حلمه ، وحتى إن بعضهم ليوسوس ، فقام إليهم جدُّك الصديق فرد الناسَ إلى أحلامهم ، وهو أشدهم حزنًا على صاحبه ورفيقه ؛ فعلَّم الناس أن الحزن للقلب وحده ، وأن العقل والجوارح إنما هى للعمل ، وأن هذا هو طريق الإيمان بالله وبقضائه : خيره وشره ، أفأنت من يَجور عن سنة الله وسنة المهتدين من آبائه يا أبا محمد ؟ كنتَ المرءَ الصالحَ الذى يرى الدنيا بعينىْ زائلٍ ، فما بالك اليوم تراها بِعَيْنىْ متشبث قد أنشب فيها أمثال البراثن من عقله وفكره ، فهو يتأبَّى أن يدور فى وهمه أنه مفارقها ؟

قال ابن أبى عتيق :

حنانيك ياعمر ! فوالله ما تعلمنى يا ابن أبى ربيعة إلا ما علمت . لقد عَجمتْ [1] منى الحوادث صخرة مُلمْلمة لا تضرع . كم سخرْت من الدنيا وأحداثها ، فجعلْت أطويها فى دُعابتى طَىَّ المُلاءة ! كنت أتخفَّفُ منها بنشوة

---

(١) عجمتنى : اختبرتنى فوجدتنى صلبا ، وأصله من عَجَم العود ، إذا عَضَّه لينظر أَصُلْبٌ هو أم رِخْو ، ثم استعاروه للشدائد .

أُحْدثها فى قلبى ، فلو كان عليه مثل الجبل من الهمِّ لطار فيها كما تطير خافية [١] من جناح ، ولكنى اليوم ... آه ! لقلَّ ماجرَّبتَ ياعمر ! أسلمتُ لله مُقْبِل أمرى ومُدْبرهُ يصرِّفه كيف شاء . ولكنى أجدُ هذا القلب المُعَنَّى لا يزال يخفق بالذكرى ، أفأنت منكرٌ علىّ ياعمر أن أذكرها نسيمًا رَفْرَفَ بين الجوانح والقلب ؟ أنَّى لى أن أَلوِىَ النفس عن آثارها ، وما أكاد أرى شيئًا إلا خلته يحدثنى حديث الثاكِل : أنينٌ وحنين ؟ فأين المهرب ؟ دع عنك يا أبا الخطاب ! أأَراكَ تَلْحانى [٢] على الجَزَع ، وما على ظهرِها أشقى ممن يُصبح ليفتقد فى نهاره حُلمًا ضَلَّ عنه مع الفجر ؟ كم خلوت إلى هذه النفس ألومُها كالذى تلوم ؟ وكم وقفت على هذا القلب أذكّره ما يذكرُ الناس منى ، فإذا الذى كان بالأمس قد أصبح وكأنه أديمٌ مرقوم قد تَفَرَّى [٣] عاثَ فيه البلى فمحاه . أريد ، ويالضلَّتى فيما أريد ! أنا كالسارى فى لُجَّة الليل يلطم فى سوادها ، قد أضاع لؤلؤة يَبحثُ عنها بين الحصى والرمال ! ... لن أعودَ إلى الناس حتى أجد لؤلؤتى ياأبا الخطاب... لن أعود .

ورأيتُ الرجل ينتفض انتفاضة المحموم من هول مايجد ، فَرَحِمْته ، ولكنى آثرت أن أدور على بُنَيَّاته ، عسى أن يَأْوِى لهن [٤] فيؤوب إلىّ كبعض ماكان ، قلت :

ظلمتَ نفسَك يا ابن أخى فظلمت من لا يلوذ إلا بظلك صغيراتٌ ضعيفات ضائعات : فمن لهن بعدك ؟ لو كنتَ وشأنك لهان الأمر ، ولكنك استُحْفِظتَ من لا يحفظه بعد الله إلا رحمتك ، ومن لا يغذوه بعد الطعام إلا حديثك ، ومن لا يضئ له وجه الدنيا بعد النهار إلا ابتسامك ، ومن إذا أهمل ضاع عليك ضيعة الأبد . إنهن بناتُك منها وبناتُها منك ، فوالله ماتذكرها ذِكرًا فى شىء هو أكرم وأحب وأرضى عندها منهن ، أجْمِلْ يا أبا محمد ، أجْمِل ! فرفع إلىَّ رأسه ونظر ، ثم ربا صدره بالزفرات وهو يقول :

---

(١) الخافية : الريشة تكون فى مؤخر جناح الطائر ، وهى لينة ضعيفة .

(٢) لحاه : لامه وعذله .

(٣) مرقوم : مُزَيَّن مُوَشَّى . تَفَرَّى : تَشَقَّق وتقطَّع .

(٤) أوى له : رقَّ له ورحمه .

لقد كنت أخشى لو تمليتِ خشيتى !
عليكِ الليالى كرَّها وانفتالَها

فأما وقد أصبحتِ فى قبضةِ الرَّدَى
فشأن المنايا ، فلتُصِب من بَدَا لها

... لولا علمتَ ياعمر ! كيف - بربك - كنتَ ترانى أحبوهنَّ من قلبى خفقات لامعات باسمات ؟ كنتُ لو أطقتُ أن أجعل قلبى بينهن لهوًا يَتَلَعَّبْنَ به لفعلت ! فانظر إليك ماذا ترى ؟ ما شىء أجتلب به على قلبى ألمًا كنوافذ الإبر إلا رؤية هؤلاء الصغيرات الضعيفات الضائعات ، وإن إحداهن لتعدو إلىَّ تستأوى فأحملها ، فكأن قد والله حملتُ بها صخرة مسرفة [1] يُعيى حملها ، لولا بقية من رحمةٍ - ياعمر - لنفرتُ عنهن نفرةً واحدة لا أراهن ولا يريننى .

أفزعنى والله الرجل ، ولكنى فهمت عنه ما يأتى به . إنه لا يزال يراها بعينيه تحول بينه وبين صغاره . إنه يريدها ويريدهن جملةً واحدة ، فإذ ذهبت هى ، فكأنما ذهب منهن الذى كان يراه فيهن . يرحمك الله يا ابن أبى عتيق ! فأما إذ بلغ به حبها هذا المبلغ من اليأس ، فلا والله ماينجيه إلا أن يُحْتال ، فقلت له :

أأراك أُنسيت ذكر ربك يا أبا محمد ! أتُرانا نعيش فى هذه الأرض إلا بما نرجوه عند الله فى غيب الله ؟ فلولا مانمثله فى أنفسنا من الرجاء ، مانبض لامرئ عرقٌ مما يأخذُه من السَّأم . وأنت ، أفيغبى [2] على امرئ فى مثل عقلك أن يجعل من مفقودٍ يحبه رجاءً يستمسك به ؟ انظرها يا ابن أبى عتيق بين عينيك ، ولا تدع البَدن الراحل يَغلبُك على ما يحضرُك من روحها . إنك بعينيها ماعشت ، فلا تحسبنَّ أحزانك التى تبتغى أن تتسلَّب بها فى حياتك ، تجعلها تنظر إليك راضية مطمئنة .

لا تشكَّنَّ يا ابن أخى ، فوالله إن الجسد ليذهب إلى البلى ، وإن الرُّوح

---

(١) كذا فى الأصول . وظنى أن الصواب بالشين المعجمة ، أى ضخمة .

(٢) غَبِىَ الشىءَ وغَبِىَ عنه : لم يفطن له .

لتخلد ، فما تُرْضِى من يحبُك بأمثل من أن تكون فى غيْبِه ماكنت فى مَحْضَرِه : « إن القلب ليحزن ، وإن العين لتدمع ، ولا نقول مايغضب ربنا » وصدق رسول الله [١] . وما ذلك إلا أن نقصر الحزن ، وأن نجعل أقوالنا وأفعالنا مرضاة لمن نحب وطاعة . ولا تستطيلنَّ ما بين الحى والميت ، فإنما هى ساعات قلَّت وإن أطلت لها . يا أبا محمد ! أرض ربك وأرض صاحبتك ، واجهد أن تكون كما أحبت لك ، فإنك عن قليل تلقاها ، فلا يلقاها منك إلا ما تعرفه دون ماتنكره ...

* * *

(١) قال ذلك عندما مات ابنه إبراهيم .

الطريق إلى الحق

كتب الأخ الصديق الأستاذ محمد مندور كلمة فى البريد الأدبى الرسالة (٤٨٨) بعنوان « اللغة والتعريب » ، عرض فيها مسألتين : إحداهما : مسألة الصواب والخطأ فى اللغة ، والأخرى : هو عنصر الثبات فى اللغة كما سماه . وقد دفعه إلى الحديث عنهما ما كان من تخطئة الأب أنستاس الكرملى إياه فى حرف من اللغة استعمله فى كلامه ، وهو « عثرت بالشىء » وهو يريد « عثرت عليه » وأحبُّ أن أقدم بين يدى كلامى بعضَ ما أعرفه عن « مندور » ، قد كنا زميلين فى الجامعة ، فكان أحد الشبان الأذكياء المدقّقين . وإن فيه من ثورة النفس ما أرجو أن يبقى له على الشبابِ والهَرَم . ثم عرفته من بعدُ مطلعا حريصًا على العلم قليل العِناد فيما لا خطر له ، ثم هو لا يزال يدأب إلى الحق فى غير هوادة ، فكل هذه الصفات تجعله عندى غير متعنّتٍ ولا مكابر ، ولكنى رأيت الأب أنستاس قد سلك إلى « مندور » طريقًا ، فاندفع كلاهما يطاعن أخاه بعنفٍ لا يهدأ . وأنا لا أحبُّ أن أدخُلَ بين الرجلين فيما هما بسبيله ، ولكنى أحرصُ على أن أدلَّ « مندورًا » على الحقّ الذى كنا ولا زلنا نميل إليه بكُلّ وجهٍ ، ونسعى إليه فى كل سبيل .

وينبغى لى أن أعرض للكلام على الفرق بين الحرفين « عثرت به » و « عثرت عليه » قبل أن أتحرَّى إلى « مندور » طريق الحقّ فى المسألتين اللتين ذكرهما فى كلامه .

فأصل اللغة فى هذه المادة « عَثَر يعْثُر عَثْرًا وعِثَاراً » ، وهو فِعْل لازمٌ لا يتعدَّى إلى مفعولٍ ، ويَأتى هكذا غير مصاحب لحرفٍ من حروف الجرِّ . ولكلِّ فِعلٍ فى اللغة مَعْنًى يقومُ بذاته ، ودلالاتٌ يقتضيها بطريق التضمُّن أو الالتزام .

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٤٩١) نوفمبر ١٩٤٢ ، ص : ١١٠٣ - ١١٠٦

فقولك « عثر الرجل » معناه « تهيأ الرجل للسقوط » : فالمراد بالفعل هو حدوث « حركة سقوط » الرجل ، ولا يقصد به السقوط نفسه ، أى أنه يدل بذاته على الحركة التى تسبق السقوط . وأما الدلالات التى يقتضيها الفعل فأولها : سبب حركة السقوط ، وهذا السبب عقلى محض يتضمنه الفعل ويقوم فيه مقام الفاعل « كالحجر » مثلًا . وثانيها : الفعل الذى فعله هذا السبب وهو « الصدم » ، وثالثها : الحالة التى تلحق الرجل من جرَّاء اصطدامه وهى التنبه والتماسك قبل السقوط . أما الدلالة الرابعة ...

فلو شئت أن تفسر « عثر الرجل « لقلت : « صدم الحجرُ الرجلَ فكاد يسقط » ، فكأن « عثر » قامت مقام الكلمات « صدم الحجر ... فكاد يسقط » . وأنت ترى أن « الرجل » هنا هو الذى وقع عليه الفعل (أى المفعول به) ، لأنه هو الذى صُدم فكاد يسقط . فلما كتم هذا الفعل « عثر » فاعله الحقيقى – وهو الحجر مثلًا – ، وكتم « الصَّدم » الذى هو فعل الفاعل الحقيقى ، نسب فعله إلى الرجل ، مع أنه ليس فاعلًا بل مفعولًا به . فهذا يدل على أنه ليس مريدًا للفعل (وهو العثرة) ، كما يكون مريدًا للفعل فى قولك : « قام الرجل » إذ أنه مريد هنا للقيام . وشبيهٌ به قولك : « مات الرجل » و « نام الرجل » ، فالرجل هنا – على أنه « فاعل » فى عبارة النحاة – ليس فاعلًا فى حقيقة المعنى بل هو « مفعولٌ به » لأنه غير مريد فى حالة الموت أو النوم .

فإذا صح لديك أن الرجل غير مُريد للعثرة فى قولك « عثر الرجل » ، رأيت الدلالة الرابعة لهذا الفعل وهى أن الشىء الذى فعل العثرة – وهو الحجر مثلًا – كان صغيرًا لم يتبيَّنْه الرجل ، أو لم يتوقع وجوده فى المكان الذى كان فيه ، فلذلك كاد يسقط على غير إرادة من الرجل لذلك .

وإذا تأملت قليلًا رأيت أن قولك « عثر الرجل » لا يراد به الإخبار عن حدوث الصدم ، بل المراد أن تصور هيئة الحركة التى جاءت بعد الصدم ، وهى حركة السقوط . ولذلك بنى مصدرها على هيئة المصادر التى تدل على عيوب الحركة فى أصل الخلقة كالتى تكون فى الدابة وغيرها من كل ما يمشى أو يتحرك .

وذلك هو وزن « فِعال » كالشِّماس ، والجماح ، والنفار ، والشراد ، والهياج ، والطماح ، والحران ، والعضاض ، والخراط ، والضراح ، والرماح ، والفرار . فأنت ترى من ذلك أن المصدر قد نظر فيه إلى أن المراد فى الفعل هو حركة السقوط لا الصدم ، فإن الصدمة ليست عيبًا ، وإنما العيب فى هيئة الحركة . وكثيرًا ما يستعمل العثار للخيل يقال : « عثر الفرس » أو غيره من الدواب .

هذا ... وحروف الجر التى تأتى لمصاحبة الأفعال إنما تأتى لمعان يتعين بها للفعل معنى لم يكن ظاهرًا فيه قبل دخولها ، بل ربما اضطر الحرفُ الفعلَ أن ينتقل من الحقيقة إلى المجاز ، لذلك تسمى حروف المعانى .

ثم إن كل حرف من هذه الحروف له معنى أصلىٌّ يقوم به ، ثم تتفرع منه معان أخرى لا تزال متصلة إلى المعنى الأول بسبب . فالباء مثلًا هى فى حقيقة معناها تدل على إلصاق شىء بشىء أو دنوه منه حتى يمسه أو يكاد . ففى قولك « ألصقت شيئًا بشىء » تقع الباء فى معناها الأول وهو الإلصاق الحقيقى . وفى قولك « مررت بزيد » تكون مجازًا لأنها تدل على الدنو والمقاربة الشديدة ، كأنك ألصقت مرورك بالمكان الذى يتصل بمكان زيد . وينتقل الحرف من معناه الحقيقى إلى معناه المجازى بدليل من الفعل الذى يشترك معه فى الدلالة . ولذلك تخرج من معناها الحقيقى إلى معنى السببية أو التعليل أو المصاحبة أو الاستعانة مما يذكر فى باب معانيها ، ولكنها فى جميع ذلك تدل على الإلصاق الحقيقى أو المجازى .

فإذا جاءت الباء بعد فعل يقتضى معناه بذاته أو بدلالته معنى من الإلصاق ، تعين لها أن تكون واقعة فى معناها الحقيقى ، ويكون دخولها مبالغة فى إظهار معنى الإلصاق . وذلك كقولك : « أمسكت الشىء » ، و« أمسكت بالشىء » فالباء هنا تزيد فى معنى الفعل تقوية الإمساك إذ أن الإلصاق مما يدل عليه هذا الفعل بدلالة التضمن أو الالتزام .

فإذا قلت « عثر الرجل بحجر » فمعناه كما بيّنا آنفًا « صدم الرجلَ حجرٌ فكاد يسقط » . والباء قد دخلت على الفاعل الحقيقى للعثرة وهو « الحجر » ، فهى إذن

مكملة لمعنى الفعل ، ولم تأت لتعدية الفعل إلى مفعول ، كالذى يكون فى قولك « ذهب الرجل » و « ذهب الرجل بمحمدٍ » .

فإذا كان الفعل دالًا بالتضمن على الصدم ، والصدم يقتضى الإلصاق ، وجاءت الباء مكملة لمعنى « عثر » تجرُّ وراءَها الفاعل الحقيقى للصدم ، فالباء إذًا ستزيد فى معنى الفعل ، وذلك بأن تُظْهِر الصدم - المقتضى للإلصاق - بعد أن كان مكتومًا فى الفعل ، ويُقوِّى ذلك أيضًا ظهور الفاعل الحقيقى للعثرة بعد أن كان مكتومًا فى « عثر » .

فقول الأستاذ (مندور) إنه أراد بقوله « عثرت بالشىء » أنه لاقاه اتفاقًا غير ممكن ، لأن الباء وافقت الفعل فزادت فى الإبانة عما يضمره من دلالة « الصدم » الحقيقى ولم يكن فيها من المخالفة مايحمل هذا الفعل على الميل إلى المجاز (أى إلى الصدم المجازى) . وليس من شك فى أن قوله « لاقاه اتفاقًا » مجازٌ فى تأويل « عثر بالشىء » ، فإذا كانت الباء إنما تزيد حقيقة الفعل قوة وبيانًا ، فكيف إذن تصيرُ بعد ذلك مجازًا بغير عامل يحملها إلى المجاز ؟

وقد يستخدم مع هذا الفعل حرف آخر هو « فى » ، فتقول « عثر الرجل فى ثوبه » إذا كان واسع الثوب طويل الذيل ، فهو يطأ بعض ذيله كلما مشى ، فتشد الوطأة الثوب عليه ، فيميل كأنه يتهيأ للسقوط فيتماسك .

فهذا الحرف « فى » يدل فى أصل معناه على الظرفية الزمانية أو المكانية ، وينسحب بها على سائر معانيه . وهو بذلك يدلُّ على استقرار لا على حركة كالحركة التى تكون فى الإلصاق . ولما كان الفعل يدل دلالة ظاهرة على حركة السقوط وجاء الحرف « فى » يطالب الحركة بالاستقرار ، أسرع الفعل إليه . وذلك أنه حين يقول لك « عثر الرجل » لم تكد تجاوز تصوُّر حركة السقوط حتى يفجؤك بقوله « فى ثوبه » ، فيطالبك بإقرار هذه الحركة ثم تصورها فى جوف الثوب . وهذه السرعة التى يتطلبها الانتقال تضعف دلالات الفعل التى كان يدل عليها مستقلًا بذاته أى فى قولك « عثر الرجل » مجردا ، وهى كما ذكرناها آنفًا : فاعل حركة السقوط ، وفعله وهو الصدم ، وحالة التنبه والتماسك قبل السقوط ، وعدم التوقُّع أو الاتفاق .

فدخول « فى » على « الثوب » أبعدتْ عن أوّل التصور أن يكون الثوبُ فاعلَ الصدم المؤدى إلى حركة السقوط ، وبذلك أيضًا أضعفت دلالة الفعل على « الصَّدْم » ، إذ أن « الصدم » لا يشبه أن يكون من فعل الثوب ؛ فيتغير ما يتضمنه الفعل « عثر » من الدلالة ، وتضمن وَطْء الثوب المفضى إلى شدِّه .

ولما كان لابسُ الثوب الطويل ينبغى له أن يعلم أن طوله يؤدى إلى وطء ذيله فيعثر ، اختفت من الفعل - إلا قليلًا - دلالة الاتفاق من غير تعمد . ولذلك تستطيع أن تقول « جاء فلان يعثر فى ثوبه » ، ولا تستطيع أن تقول « جاء فلان يعثر بثوبه » ، لأن الأولى قد ذهب منها الاتفاق من غير تعمد ، فجائز أن تستمر ، وأما الأخرى فمحتفظة بالاتفاق من غير عمد ، فهى لا يمكن أن تستمر .

ومع ذلك فهذا الحرف « فى » لم يستطع أن يغير من حقيقة « عثر » لأنه دانٍ منها ، أو هو مستقر لها ، إذ سوف تنتهى حركتها إلى استقراره .

وأما « على » فحرف يدل على الاستعلاء فى جميع معانيه دلالة مطلقة ، والاستعلاء المطلق لا يوجب الإلصاق كما فى الباء ، ولا يوجب الاستقرار كما فى « فى » . فاستعمالها مع « عثر » سيحدث فى معناها أثرًا جديدًا ينقلها من حال إلى حال .

فحين تقول « عثرت على الكرسى » يقتضيك فيها معنى « عثرت » - وهو تهيؤك للسقوط وتماسكك دون السقوط - ألا تجعل معنى « على » استعلاءَ ملاصقًا كما فى قولك « وقعت على الكرسى » ، وذلك لأنك لم تسقط بل كدت ثم تماسكت . وإذن فالحرف « على » هنا يدل على الاستعلاء المطلق الذى يقتضى نَفْى الملاصقة كقولك : « فضلت فلانًا على فلان » .

والاستعلاء المطلق مناقض كل المناقضة لمعنى « الصدم » لأن الصدم يقتضى الملاصقة ، فلما جاءت « على » خلعت عن الفعل « عثر » كل ما كان يتضمنه من معنى الصدم الحقيقى (لا المجازىّ) ، ولما خلعته عن الفعل خلعته أيضًا عن الفاعل (الكرسى) الذى كان فعله الصدم الحقيقى (لا المجازى) . ولكن هذا الفعل لا ينفكُّ من أحد دلالاته وهو « الصدم » سواء أكان حقيقيًّا أم

مجازيًّا ، فإذا خلعت « على » عنه الصدم الحقيقى بقى الصدم المجازى مكتومًا فيه قائمًا مقام الصدم الحقيقى ، وإذا كان ذلك فلا بد من حدوث تغير فى الفعل وفى معناه ، لأن الصدم قد انتقل من معناه الحقيقى إلى معناه المجازى ، والصدم وفاعله سببان فى « عثر » التى تدل على حركة السقوط . فإذا صار الصدم من الحقيقة إلى المجاز - وهو أحد مقومات حركة السقوط - فلابد من أن تصير « عثر » إلى المجاز أيضًا لأنها صارت مسببة عن مجاز .

فأنت ترى أن هذا الفعل لم ينقله من الحقيقة إلى المجاز إلا حرف واحد هو « على » الذى يدل على استعلاء مطلق يناقض معنى الصدم الحقيقى الذى كان ثابتًا فى الفعل بدلالة التضمن أو الالتزام .

وعلى ذلك لا يزال هذا الفعل مع « على » يدل على حركة السقوط المجازية، ويتضمن بدلالة الالتزام فاعل هذه الحركة ، وفعله وهو الصدم المجازى ، ثم حالة التنبه والتماسك قبل هذه الحركة ، ثم عدم التوقع أو الاتفاق ، وهذا بعينه ما يريده الأخ « مندور » بقوله فى تأويل « عثرت به » أنه لاقاه اتفاقًا .

وانظر الآن إلى سليقة هذه اللغة فإنها إذا كانت قد جعلت مصدر « عثر وعثر به » و « عثر فيه » عِثارًا بوزن « فِعال » الدال على عيوب الحركة ، أو على الحركة نفسها : كالمِزَاح والضِّرَاب والنِّزَال ، والصِّرَاع ، فإنها تجعل مصدر « عثر عليه » عثورًا على وزن « فُعول » الذى يدل أكثره على مجرد الحركة ، كالنزول ، والسقوط ، والقعود ، والجلوس ، والشرود ، والنفور ، والجموح ، والطموح ؟ وبذلك خالفت بين المصدرين مع اشتراك الوزنين فى معنى الحركة ، لأن الفعل انتقل من الحقيقة إلى المجاز .

وفى الآيتين من كتاب الله : المائدة (١١٠) ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا ﴾ ، وآية أصحاب الكهف (٢٠) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ جاء الفعل بالمعنى المجازى الذى يقتضى حركة السقوط المجازية ، والصدم المجازى ، وحالة التنبه والتماسك قبل حركة السقوط . وعدم التوقع أى الوقوف على الشىء بغير طلب أو بحث أو كشف .

ولكن الأخ مندور يقول : « ولم أرد (العثور عليه) أى الإطلاع الذى يدل على علم ومعرفة وبحث وجهبذة لا أدعيها » . والذى أوقعه فى هذا التأويل قول أصحاب اللغة « عثر على الأمر عثورًا » اطلع ، فتفسيرهم مقصر عن الغاية كل التقصير لأنه يدل على جزء واحد من الدلالات التى يتضمنها الفعل ، وهى حالة التنبه التى تلحق الرجل من الصدمة فينظر ويتبين ما صدمه ، وأهملوا بقولهم (اطلع) المعنى الأصلى للفعل « عثر » وهى حالة السقوط المجازى ، والصدمة المجازية ، وعدم التوقع . وهذا نقص مخل فى عبارة كتب أصحاب اللغة .

وأنا أقرر أنَّ أكثر ما فى كتب اللغة عندنا من تفسير الألفاظ إنما هو تفسير مخل فاسد ، لأنه قد أهمل فيه أصل الاشتقاق ، وأصل المعنى الذى يدل عليه اللفظ بذاته كما رأيت هنا . وإذا أُهْمِل هذان فقد اضطرب الكلام واضطربت دلالاته ، وأوقع من يأخذ اللغة بغير تدبر فى حالة من التعبد بالنصوص كتعبد الوثنى للصنم . وأيضًا فهو يوقع بعض النابهين من الكتاب فى أوهام ليست من الحق فى شىء ، يحملهم عليها تكرار هذا التفسير الفاسد فيسلمون به على غير تبين ، كما رأيت فى تفسير قولهم « عثرت عليه » أنه « اطلعت عليه » ، فإنك حين تقول : « عثر على الكلمة فى الكتاب » فلست تقولها إلا حين تريد أن تصور الكلمة كأنها فاعل الصدم ، وتصور رؤيتها كأنه صدم لك ، وهذا الصدم يستدعى تنبهك فتتماسك وتنظر إلى ما صدمك ، وإن هذا كله كان بغير طلب أو بحث وإنما جاءك اتفاقًا على غير تعمد كان منك .

هذا وأنا لم أقصد ببحثى هذا إلى اللغة ، بل قصدت إلى الدلالة على طريق الحق إلى فهمها . وأحب أن أظهر من يقرأ كلامى هذا على أننى لا أجعل مفردات اللغة كل الهم فى عملى أو عمل غيرى . ويقينى أن أكثر من يطيق التدبر والتأمل يستطيع أن يصل إلى فهم اللغة فهمًا صحيحًا نافعًا معينًا على حسن العبارة ودقتها فى البيان عن المراد ، وهو لم يتكلّف إلى ذلك إلّا قليلًا من الجهد وأحسبنى قد سلكت إلى أخى مندور طريق العلم إلى غاية الحق ، وهى غايته التى أعلمه لا يعمل إلّا لها ، وسواء عليه بعد ذلك أكان الحق له أم عليه .

أما مسألة الخطأ والصواب فى اللغة ، ومسألة عنصر الثبات فيها ، فنتركها إلى العدد التالى من الرسالة ، ولأخى مندور تحيتى وشكرى .

* * *

أدباء ... !

قرأت فى مجلة الثقافة العدد «٢٠٩» كلمة تحت عنوان « الصحافة والأدب فى أسبوع » ، فرأيت كتابًا من صديقى الشاعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل إلى صديقى أيضًا ... الأستاذ (ق) . وفى هذا الكتاب ذكْرُ بعض أصحابنا وذكرى ، ويصفنا الصديق الأستاذ الشاعر بصفات جميلة محببة كاللجاج ، والتهاتر ، والكسل ، والجبن ، والغفلة ، والتخلف عن سير الزمان ، ويدعونا إلى ملازمة الصمت على رفوفنا الجامدة حتى يتحرك بنا أو ينسانا الزمان ! ... وهو كذلك

لا أدرى ! فقد سمعت أن الأوائل قالوا : « عقل المرء مخبوءٌ تحت لسانه » ، وأنهم قالوا :

إذا لم يكن للمرءِ عقْلٌ يَكفُّه
عن الجهل ، لم يَسْتَحْيِي وانهتَكَ الستر

وللصديقين منِّى تحية المخلص المعجب بأدبهما وبيانهما .

* * *

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٤٩٦) ، ١٩٤٣ ، ص : ١٩

من مذكرات ابن أبى ربيعة

جريرة ميعاد

« قال عمر أبى ربيعة ... » : ركبتنى الحمى ثلاثا حتى ظننت أن الله قد كتب علىّ أن أذوق حظى من نار الدنيا قبل أن أردَ على نار الآخرة . وكنت أَجِد مسها كلذع الجمرات على الجلد الحىّ ، وأجدنى كالذى وضع بين فكَّيْه ضرسًا من جبل فهو يجرشه جرش الرَّحى ، وظللت أَهْذِى وابن أبى عتيق يتلقف عنى ماكنت أسِرُّ دونه ، حتى إذا قَصَرتْ عنى وثاب إلى عقلى قال ابن أبى عتيق : ويلك ياعمر ! والله لقد فضحتها وهتكت عنها سترها ؛ أما والله لو قد كنت أخبرتنى قبل الساعة لاحتلت لها ، ولوقيتها مما عرضتها له . قلتُ : ويبَك يا ابن أبى عتيق ! من تعنى ؟ قال : من أعنى ؟ مازلت منذ الساعة تهذى باسمها غير معجم ! إنها الثريا ، واليوم ميعادها ، ولقد مضى من الليل أكثره ومابقى منه إلا حُشاشة هالك !

ووجم الرجل واعترانى من الهم ماحبب إلى الحمى أن تكون خامرتنى وساورتنى حتى قضت على ، وطفقتُ أنظر بعينىّ فى بقايا الليل نظرة الثكلى ترى فى حواشى الدُّجى طيف ولدِها وواحدِها . وتمضى الساعات علىّ كأنما تطأنى بأقدام غلاظ شداد لم تدع لى عضوًا إلا رضَّتْهُ . وابن أبى عتيق يذهبُ ويجىء كأنما أصابه مس فهو يرمينى بعينه صامتًا يتحزّنُ لما يرهبُ من فجاءات القدر بى وبها . ثم أقبل على يقول : خبرنى يا عمر أين واعدتها من داركَ هذه ؟ فوالله لكأنما ألقيِ فى سمعى لهبًا يتضرَّمُ ، فلم أسمع ولم أُبصر ودارت بى الأرض ، فما أدرى بم أُجيب ، فلقد واعدتها منزلًا كنتُ أحتفى به لميعادها ، قد استودعته سرى وسرها ، فما أدرى ما فعل به أهل الدار ، وقد ربضتْ بى الحمى بمنأى عنه . ولا والله ماشعرت أن الفجر قد صدع حتى سمعت الأذان كأنه ينعَى إلىّ بعض نفسى ، فما تماسكت أن أنتحبَ . وابتدر إلى صاحبى يكفكف غَرْبَ [1]

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٥٥٠) ، ١٩٤٤ ، ص ٦٩ - ٧٢

(١) غَرْب كل شىء : حَدُّه .

أحزانى . وقال : خَفِّض عليك ياعمر ، فإن هذا يهيضُك إلى ما بك . وما تدرى لعل الله يحدث بعد عسر يسرا . قم إلى وضوئك أيها الرجل ، واستقبل بوجهك هذه البنية ، وادع الله جاهدًا أن يستر ما هتكت ، فإنهنّ النساءُ لحمٌ على وضمٍ إلا ما ذُبّ عنه (١) .

فما كدتُ أفرغُ من صلاتى حتى جاءت جاريةٌ صغيرةٌ تعدو قد أنزفَها الجرى ، ورمتْ إلىّ كتابًا فى سَدَقةٍ من حرير يفوح منها العطر ، وقالت : سيدتى تقول لك : فى هذه شفاءٌ من داء . واستدارت وانطلقت تسعى . فنظرتُ وشممتُ ونشرت الحريرة المطوية عن كتاب مطوى طىّ العَجَلةِ ، وإذا فيه : « جئنا لميعادِك ، فإذا شبحٌ نائمٌ فى بُرْدِك فرميتُ نفسى عليه أُقَبِّلُه ، فانتبه وجعل يقول : اعْزُبى عنى فلست بالفاسق أخزاكما الله . ودفعنى فعدوتُ أفرُّ بنفسى من فضيحة تنالنى فيكَ وما شعرتُ أنك محموم حتى أنبأتنى بذلك أختى ، فويلى عليك وويلى منك ياعمر ! » . فألقيتُ الكتاب إلى ابن أبى عتيق ، وأستعفى به أن يدبر منذ اليوم ما أتقى به خَبْءَ الليالى ، فنظر إلىَّ بعينين زائغتين من سهر وسهاد وقال : والله ياعمر لكأنى بك قد ركبتَ إلى بلائك وبلاءِ الثريَّا حين قلتَ :

تشكَّى الكُمَيْتُ الجَرْىَ لمَّا جهدته وبيَّن لو يستطيع أن يتكلما (٢)

وما أدرى كيف أحتال لك فى أمرٍ قد انفلتت من يديك أعنَّته ، فدعِ الأمر لله يدبره ، ووطن نفسك على الثقة ، ولا تجزع لبغية إن جائتك ، والق من يلقاك بالفضيحة كأتم ماكنت بشاشةً ورضًى وسكينة ؛ فأنت خليق أن تنقذها مما ورطتها فيه . وإياك والتردد ، فإنه مدرجة النكبات . ولقد عهدتك صَنَع (٣) اللسان ، فإن لم ينفعك اليوم لسانك فلا والله لا نفعك . قلت : جزاك الله عنى خيرًا يا ابن أبى عتيق ، ماضرَّنى كتمانى دونك ما أكتم إلا اليوم ، ولو كنت أعلم

---

(١) الوَضَم : الخشبة أو ما شابهها التى يقطع عليها اللحم . وهذه العبارة من قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) الكميت : الفَرَس لونه بين الحمرة والسواد .

(٣) الصَّنَع : الماهر الحاذِق .

الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . ويلى من نفسى ثم ويلى منها ! واعلم أنه ما يكربنى أن يلقانى من أحتال له وأصرفه ، وإنما يكربنى أمر الثريا وهى تقضى الساعات قد ألقى الهَمّ فى دمها ناره وفى فكرها ظلمته ، ولا والله ما أستطيع أن أحتال لرسول يُلِمّ بها فيقول لها بعض ما تسكن إليه .

قال ابن أبى عتيق : فهلّا حدثتنى عنها ياعمر ؟ فلقد صحبتك ما صحبتك وما أدرى من خبر الثريا وأمرها إلا ما أتسقّطه [١] من حديث الناس . قلت : وما تبغى إلى ذلك ؟ أما كفاك ما تعرف من أمر سائرهن ؟ وإنى لأراك كالمنهوم الذى لا يشبع ، فلو كنت مثلى لقلت عسى أن تكون لك فى نفسك حاجة ، ولكن الله عافاك مما ابتلانى به ، فدع عنك الثريا وأخبارها . فورب السموات والأرض وما فيهن ما أمنت على سرها نفسى ، فكيف بى إذا بُحْتُ لك ؟ قال : إذن فصِفْها لى كيف تراها ؟ قلت : أما إنك على ذلك ، لشديد الحرص شديد الطمع . وما تبغى إلى امرأة من النساء تسمع من نعتها وحليتها وصفاتها ؟ لولا أن كنت اليوم شاهدى لما حدثتك بحرف . يقول الناس : ما فعل الله بابن أبى ربيعة ؟ ما زال يمد عينيه إلى كل غادية ورائحة حتى أفضى إلى الثريا ، فتعلق منها بنجم لا يناله وإن جَهِدَ . وإنها لعرضة ذلك جمالًا وتمامًا ، وإنى لخليق أن أفنى فيها نور عينى وقلبى . ويقول الناس : ما الثريا ؟ إن هى إلا امرأة دون من نعرف من النساء حسنًا وبهاءً . وقد والله كَذَبَتْهم أعينهم ، وإنى لبصير بالنساء خبيرٌ بما فيهنَّ ، ولئن كنت قد عشت تبيعًا للنساء أنقدهن نقد الصيرفى للدينار والدرهم [٢] فأنا أهل المعرفة أحقِّق جيادها وزيوفها بأنامل كالميزان لا يكذب عليها ناقص ولا وافٍ .

ما يضيرك يا ابن أبى عتيق أن ترى الثريا أو لا تراها ، فإنك لا تراها بعينىَّ ، وإنما أنت من الناس تضل عن جمالها حيث أهتدى إليه ، وتسألنى كيف أراها ؟ فوالله إن رأيتها إلا ظننت أنى لم أرها من قبل ، فهى تتجدد فى عينىَّ وفى قلبى مع كل طرفة عين ، ولئن نعتها لك فما أنعت منها إلا الذى أنت واجده حيث سِرْت

---

(١) تسقّط الحديثَ : أخذه شيئا بعد شيء .

(٢) نَقْد الصيرفى للدينار والدرهم : تمييزه لما هو صحيح ولما هو زائف .

عن النساء : غادة كالفنن [١] الغَضّ يميد بها الصبا وسكر الشباب ، لم ترْبُ رَبْوةَ الفارعات [٢] ، ولم تجف جفوة البدينات ، ولم تضمر ضمور المهزولات ، ولم تُمسح مسحة الضئيلات [٣] ، ولم تقبض قبضة القصار القميئات ، فتمَّ تمامها بضَّة هيفاءَ أُملودًا [٤] ، خفاقة الحشا هضيمة الكشحين مهفهفة الخصر ، تتثنى من اللين كأنها سكرى تترنح . فلو ذهبت تمسها لمَسْست منها نَعمة وليانًا وامتلاء ، قد جُدِلَت كلها جَدْل العصب ، فهى على بنانك لدنة تُرْعد من لُطفها واعتدالها . وانظر بعينى يا ابن أبى عتيق ، تُبصر لها نحرًا كذَوْب الفضة البيضاء قد مسها الذهب ؛ فلا والله ماملكت نفسى أن أعب من هذا الينبوع المتفجر إلا تُقَى لله أن أدنِّسه بشفتين ظامئتين قد طالما جرى عليهما الكذب والشِّعر . أما وجهها فكالدرة المصقولة لا يترقرق فيه ماء الشباب إلا حائرًا لا يدرى أين ينسكب إلا على نحرها الوضاء ، يزينه أنف أشمُّ دقيق العرنين لطيف المارِن [٥] ؛ فإذا دنوت إليها فإنما تتنفس عليك من روضة معطارٍ أو خمرٍ معتقةٍ ، فاذهب بنفسك أيها الرجل أن تزول عن مكانك كما يقول صاحبنا جميل :

فقام يجرُّ عطفية خُمارًا وكان قريب عَهْدٍ بالمَماتِ

ودَعْ عنك عينيها يارجل ، فلو نظرتْ إليك نظرة لَوَجَدْتها تنفُذ فى عينيك تضئ لقلبك فى أَكنّته مساربَ الدم فى أَغْوار جوفك ، ولتركتك كما تركتنى أسير بعينين مغمضتين ذاهلتين إلا عما أضاءتْ لك فى الحياة عيناها . فإذا دنتْ إليك فكُنْ ما شئت إلا أن تكون حيًّا ذا إرادة تطيق أن تتصرف ، وذَرْ كل شىء إلا عطر أنفاسها وضياءَ وجهها ، وغمامةً تظلل روحك النشوى طائفة عليك بأطراف شعرها المتهدِّل كحواشى الليل على جبين الفجر ، وخذْ بنانًا رخْصًا مطرَّفًا [٦] كثمار العُنّاب تغذوها يدٌ بضة بيضاء يحار فيها مثل ماءِ الصفا ، فلقد قبَّلتها يومًا

---

(١) الفَنَن : الغُصْن المستقيم .
(٢) الفارعات : الطويلات ، أى ليست مفرطة الطول .
(٣) أى ليست صغيرة العجيزة .
(٤) الأملود : المرأة المتثنية الناعمة .
(٥) المارن : طرف الأنف .
(٦) المطرف : مُخَضَّب الأظافر .

قُبلةً ظننت أن قد أطفأت بها غليلى فزادتنى غُلَّةً وصدًى ، فما نفعنى فى نار هذه الحمى إلا ما لم أزلْ أجد من بَرْدِها وطيبها وعذوبتها على شفتى حتى اليوم . ولا والله إنْ (١) رأيتُ كمثلها امرأةً إذا حدثت ، فكأنما تسكب فى روحى سرَّ الحياة يهمس عن شفتين رقيقتين ضامرتين كأنّ الدم فيها مكفوف وراء غلالة من النعمة والشباب . فآه من الثريا ! لقد حجبت عنى كل نجم كان يلوح لى فى الدياجى يُلهمنى أو يُغوينى ... وَىْ ، ما دهاك أيها الرجل ؟

ورأيت ابن أبى عتيق يتخطانى بعينيه ينظر إلى الباب من ورائى ، قد انتُسِف وجْهه وغاض من الدم كأنما يرى هَوْلًا هائلًا قد أوشك أن ينقض عليه ، وما كدت أرد الطرف حتى سمعت من يقول : السلام عليكما يا عمر ! وأنت يا ابن أبى عتيق ما لك تنظر إلىّ كالمغشى عليه لا ترفُّ منك عاملة ولا ساكنة ؟ وما بك يا أبا الخطاب ! أترى الحمى كانت منك على ميعاد ؟ لقد أقبلت أمس من سفرى ، وكان الليل قد أوغل فتلقانى ولدك جوانٌ فأنبأنى أن الحمى قد وردتك فأردعت (٢) عليك أيامًا فنهكتْك حتى خيفت عليك بُرَحاؤها (٣) ، وأن ابن أبى عتيق جزاه الله عنا وعنك خيرًا أبى إلا أن يتعهدك بمرضك حتى تبرأ وتستفيق ، وإنى لأراك بارئًا يا أبا الخطاب .

فوالله لقد سكنتْ نفسى لما أتم كلامه وسكتَ ، وأدنى يده يجسُّنى جسَّ المشفق ، ورأيت ابن أبى عتيق يثوب كأنما كان فى كرب يغتُّه (٤) ويعصرُه ثم أرسله فعاد إليه الدم . فهذا أخي الحارث (هو الحارث بن أبى ربيعة أخو عمر) سيد من سادات قريشٍ شريفٌ كريم عفيفٌ ديّنٌ ، ما رآه امرؤ إلا دخلته الرهبة له حتى تتعاظمه . فما زاده أن كانت أمه سوداء من حَبش إلا رفعةً ومكانًا . ولقد كان عبد الملك بن مروان ينازع عبد الله بن الزبير أمر الخلافة ، وكان ابن الزبير

---

(١) إن : هنا حرف نفى .

(٢) أردعت : من الرُّداع ، وهو وَجَعُ الجسم أجمع .

(٣) بُرَحاؤها : شِدَّتها .

(٤) الغَتُّ والعَصْر بمعنى ، وفى حديث المبعث « فأخذنى جبريل فغَتَّنى » .

قد ولَّى الحارث بعض الولايات ، فلما جاءه النبأ بولاية الحارث قال : أرسل عوفًا وقَعَد ! ولا حُرّ بوادى عَوْفِ [١] . فابتدر من المجلس يحيى بن الحكم وقال : ومن الحارث يا أمير المؤمنين ؟ ابن السوداء ! فقال له عبد الملك : خسئتَ ، فوالله ما ولدتْ أمةٌ خيرًا مما ولدت أمه !

ثم صرف الحارث وجهه إلى ابن أبى عتيق وهو يبتسم له وقال : أما زلت يا ابن أبى عتيق بحيث قال صاحبك فيما بلغنى من شعره إذ يقول لك ؟

لا تلمنى عتيقُ حسبى الذى بى	إنّ بى ياعتيق ما قد كفانى
إنَّ بى داخلًا من الحب قد أَبْـ	ـلَى عظامى مكنونُه وبرانى
لا تلمنى وأنت زيَّنتها لى	أنت مثل الشيطان للإنسان

فقال ابن أبى عتيق : هُديت الخير ، فوالله إن أخاك لشاعر يقذف بباطله ، ولقد وقعت فى لسانه ولقيت من دواهيه . ثم نظر إلىَّ الحارث وقال : أما وقد لقيتك بخير ياعمر ، فإنى منصرف إلى وجهى ، وبالله إلا ما تقدمت إلى أهل بيتك أن يعدوا لى المنزل الذى نزلته بالأمس حتى أعود ، وإنى أرى الريحان قد ذبل فَمُرْهم أن يستبدلوا به ، وأن يطيِّبوا الفراش ويجمروه . وقل لطائف الليل أن لا يلم بنا ؛ فلسنا من حاجته ولا هو من حاجتنا . فما تمالكت أن قلت له : ويحك ! أفهو أنت ؟ قال : أجل هو أنا أيها الفاسق ! قلت : إذن فوالله لا تمسُّك النار أبدًا وقد ألقت نفسها عليك وقبَّلَتك . فقام مغضبًا يفور وقال : اعزُبْ ، عليك وعليها لعنة الله !

وانطلق الحارث واستفقت من غشيَة الحُمَّى وما نزل بى من الغم لما فاتنى من الثريَّا . وقال ابن أبى عتيق : قد والله أسأت فما ترانى كنت أحدثك من جوف الليل أنهاك أن تجزع لبغتة إن جاءتك ، فوالله لشدَّ ماجزعت وخانتك نفسك وأرداك لسانك ! ولبئسما استقبلت به أخاك ! ولقد كنت أقول لك إن التردد

---

(١) لا حُرَّ بوادى عوف : مَثَلٌ ، يضرب لكل مَن ناوأ مَن هو أشدّ منه قوة وأعز سلطانا فخضع وذلّ .

مَدْرَجَة النكبات فإذا جرأة لسانك مَدرجَة إلى كل بلاء ، وإلا [١] والله لا تفلح أبدًا أيها الرجل .

فلقد اضطرب عليَّ أمرى حتى ما أدرى ما أقول ، ثم سكَّنت نفسى وقلت له : أفرخ روعك يا ابن أبى عتيق ، ولتعلمن اليوم دهاء عمر ، فأرسل فى طلب ابنتى « أمَة الوهاب » والحقْ أنت الحارث فردّه على . وانطلق ابن أبى عتيق ، ولم ألبث حتى جاءتنى أمَةُ الوهاب ، فقلت لها : يابنية ! أشعرت أن عمك الحارث قد نزل بنا الليلة ؟ قالت : كلا يا أبَهْ ! قلت : إذن فانطلقى إلى هذه الغرفة التى إلى جوارى وتباكى وانتحبى ما استطعت حتى أنهاك . ففعلت ، وجاء الحارث وابن أبى عتيق ، فقلت له : جعلت فداءك ! مالك ولأمة الوهاب ابنتك ؟ أتتك مسلمة عليك فلعنتها وزجرتها وتهددتها ، وها هى تيك باكية . فقال : وإنها لهى ! قال : ومن تراها تكون ؟

فانكسر الحارث كأنما اقترف ذنبًا لا يعفو الله عنه إلا رحمة من عنده ، وقال : فما بالك وما كنت تقول ؟ فقال ابن أبى عتيق : ذاك هذيان المحموم يا ابن أخى ، ولو أنت كنت الليلة إلى جانبه لسمعت من بوائق [٢] لسانه ما تصطك منه المسامع . وإنى لأظن الحمَّى هى التى خيلت له حتى أُنطقته ببعض تكاذيبه . قال الحارث : والله لشد ما يغمنى أن يدع عمر كل خير فى الدنيا ، وكل ثواب فى الآخرة ، وأن يحبط أعماله بما يسول له شيطان نفسه وشيطان شعره ، فيهتك عن الحرائر ما ستر الله . ولقد طالما نهيتك ياعمر عن قول الشعر فمازلت تأبى أن تقبل منى ، أتراك فاعلًا لو أعطيتك الساعة ألف دينار ذهبًا على ألا تقول شعرًا أبدًا . قلت : قد رضيت ! قال : فهى منذ الساعة فى ملكك .

قال عمر بن أبى ربيعة : فما أخذتها منه إلا لأهديها إلى الثريا عطرًا ولؤلؤًا وثيابًا من تحف اليمن . أما الشعر فوالله لا أتركه لأحد ، رضى الحارث عنى أو غضب .

---

(١) كذا بالأصول ، والسياق يقتضى أن تكون : ولا .

(٢) البَوائق : الدواهى .

الحرف اللاتينى والعربية

ربَّ رجل واسع العلم ، بحرٍ لا يزاحم ، وهو على ذلك قصير العقل مضلّل الغاية ، وإنما يعرض له ذلك من قِبَل جُرْأته على ما ليس له فيه خبرة ، ثم تهوُّره من غير روية ولا تدبر ، ثم إصرارُه إِصْرارَ الكبرياء التى تأبى أن تعقل . وإن أحدنا ليقدمُ على ما يُحسنُ ، وعلى الذى يعلم أنه به مضطلع ، ثم يرى بعد التدبر أنه أسقط من حسابه أشياء ، كان العقل يوجبُ عليه فيها أن يتثبت ، فإذا هو يعود إلى ما أقدمَ عليه فينقضه نقض الغَزْل .

ومن آفة العلم فى فن من فنونه ، أن يحملَ صاحبه على أن ينظر إلى رأيه نظرة المعجب المتنزّه ، ثم لا يلبثُ أن يفسده طول التمادى فى إعجابه بما يحسنُ من العلم ، حتى يقذفه إلى اجتلاب الرأى فيما لا يُحسِن ، ثم لا تزال تغريه عادة الإعجاب بنفسه حتى ينزل ما لا يحسن منزلة ما يحسن ، ثمّ يُصرّ ثم يغالى ثم يعنُفُ ثم يستكبر ... ثم إذا هو عند الناس قصيرُ الرأى والعقل على فضله وعلمه .

فمن ذلك أنى قرأت فى عدد مجلة « المصور » ١٠١٥ بتاريخ ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٣ حديثًا لصاحب المعالى عبد العزيز فهمى باشا عن « الإسلام والحروف العربية » فرأيته يفتتح حديثه بهذه الكلمة ، إذ يقول لسائله :

« إنى لا أُعَنِّى نفسى البتة بالإطلاع على ما قد يقال من هذا الهراء الذى هو أهونُ علىّ من الغبار الذى يمس ردائى وحذائى ، فما بالك أنت تهتم بما لا أكترث له ؟ » .

وعبد العزيز فهمى رجل كنا نعرفه بالجد والحرص والفقه وطول الباع فى القانون ، وكنا نظنه رجلًا محكم العقل من جميع نواحيه ، لا يتدهور إلى ما ليس له به عهد ، ولا يرمى بنفسه فى غمرات الرأى إلا على بصيرة وهدى . فلما قال

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٥٦٢) ، إبريل ١٩٤٤ ، ص : ٣٠٨ - ٣١٠

ما قال عن الحروف العربية فى المجمع ، ونشرت الصحف قوله ورأيه ، قلنا : عسى أن يستفيق الرجل ويعودَ إلى سالف ما عهد فيه من الحكمة والمنطق ، وأن يكون ما قال خالصًا لخدمة العربية ، فإن يكن فى رأيه شىء من الصواب فسيحقق الجدل الذى يدور بينه وبين الناس فضيلة رأيه على الآراء ، وإن يكن أخطأ فهو خليق أن يرجع إلى صواب الناس غير معاند ولا لجوج .

كان هذا ظننا فيه ، فلما قرأت فاتحة حديثه التى رويتها قبل ، علمتُ أن الرجل لن يستفيق ، ولن يعودَ ، ولن يعقلَ ما يقول الناس – وماظنك برجل من رجال القضاء – رجلٍ مارس العقلَ والفهم وتقليب الرأى ، والتثبت من الحجج المتضاربة الموهمة ، والحرصَ على أدق الصغائر لا تخدَعُه عن عَدْله وإنصافه ؟ ماظنك برجل هذه صفته يزعم أنه لا يطّلع ، بل لا يعنّى نفسه بأن يطلع على آراء خصمه ! ثم ماذا ؟ ثم ترى هذا القاضى العادل ، بعد أن شهد على نفسه وأقرَّ أنه « لا يعنّى نفسه البتة بالاطلاع على ما قد يقال » ، يصف هذا الذى لم يطلع عليه ولم يقرأه ولم يتعب فيه ، بأنه « هراء » ؟! فمن أين عَلم ؟ وكيف حكم على شىء لم يقرأه ؟ ثم يزيد فيقول إن هذا الهراء الذى لم يقرأه ، أهون عليه من الغبار الذى يمس رداءه وحذاءه ! ثم يبالغ فيعنف سائله ويتعجب له ويسخر منه ، ويقول له : ما بالك أنت تهتم بما لا أكترث له ؟

وهذا التسلسل العجيب الذى كنا لا نظنه مما ترضى عنه بصيرة رجل مفكر ، فضلًا عن قاض حريص ، فضلًا عن رأس من رؤوس القانون ، فضلًا عن نابغة من نوابغ مصر ، قد كان ، ورضى عنه عبد العزيز فهمى باشا ، وجعله حجته ومنطقه فى حومة الرأى والجدال . ولعلَّ الغضبَ هو الذى احتمله حتى أضلَّه عن مواطئ حجته ، ثم تركه يتضرّبُ فى كلامه ، حتى اقترف من اللفظ والمنطق ما لا يليق به .

ونحن سنرضى أن نكونَ فى الغبار الذى يمسُّ رداء الباشا ، وفى الغبار الذى يمس حذاءه ! ونسأل الله أن يجعله بركة للناس وخيرًا ، وأن يسبغ عليه من نعمه ما هو له أهل ، وأن يسدد خطاه حيث ذهب ، فحيثما اهتدى الباشا كنا من الغبار الذى يهتدى بهَدْى حذائه ! وسواء علينا بعد ذلك أقرأ هذا الهراء أم لم يقرأه !

نحن نسلم للأستاذ الجليل بما يقول عن صعوبة الحرف العربى المكتوب ، وبأنه يعوق القراءة ، وأنه يجعل العربية أبعد متناولًا عن عامة الناس ، نسلم له بهذا ، ثم ننظر كيف يكون الرأى الذى اعتسفه مظنة للتسهيل ، ومدعاة لنشر العربية ! وكيف يكون هو الذى يخرج الحرف العربى الغامض إلى البيان والوضوح، فلا يكون مضللًا ولا معوقًا ، فإنه زعم أن « ليس لدى المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربية وقت فائض يصرفونه فى حل الطلاسم » ! هذا هو محصول رأيه .

فما هذا التضليل الذى زعم ؟ لقد قال من قبل إن الذى دفعه إلى هذا الرأى هو تيسير الكتابة العربية ، « لأن حروف هذه اللغة ليس بينها حروف حركات ! وكثيرًا ما يحدث فيها التصحيف والتحريف لهذا النقص . فمهما تعلمها الإنسان فلابد أن يخطئ فى قراءتها ، وقد عالج الأقدمون هذا المشكل الكبير بوضع الشكل ، ولكن هذا الشكل قد أفلس ، بل كان مجلبة لزيادة التحريف والتصحيف » .

ودليل الاضطراب لم يزل يظهر فى هذا المنطق كما ظهر فى حديث محرر المصور ، وهو سؤال وجواب لا عنت فيهما ، فأول الوهن وأول الفساد فى هذا المنطق أننا رأيناه فى اقتراحه قد أبقى الحروف المعجمة (المنقوطة) ، وقصر ما ادعاه من التضليل والعسر على (حروف الحركات) . وهذا عجب . فالإعجام (النقط) هو فى التصحيف والتحريف بمنزلة الشكل أو أقل منه قليلًا ، فكان لزامًا أن يبحث مسألة الحروف المعجمة ، ويخلص العربية منها ليدرأ عنها التصحيف والتحريف ! ولكنه لم يفعل ، ولم ؟ لا ندرى !

ومع ذلك ، فلنفرض أننا أدخلنا ما سماه (حروف الحركات) فى كلام عربى مكتوب باللاتينية ، ثم لنفرض بعد ذلك أنه قد أجدى ونفى التضليل من هذا الوجه . ولكن يبقى أن ننظر : أينتفى التضليل البتة ، أم هناك نوع آخر من التضليل يجره هذا العمل ؟ وأى التضليلين أهون شأنًا ؟ فإذا تساويا بطلت الحجة المرجحة ، وإذا غلب أحدهما كان الانصراف إلى أخفهما ضررًا هو الوجه الذى

لا معدل عنه . أليس هذا هو منطق الناس ياصاحب الحروف اللاتينية ، أم تراه ينبغى أن نسير على هَدْى منطقك ؟!

فخذ إليك مادة من العربية مثل « قام » ، ثم اجعلها فعلًا ، ماضيًا ومضارعًا وأمرًا ، وألحق به ما يلحقه من الضمائر ، وأدخل عليه ما يدخله من قبل أوله وآخره مثل « فليقمهنَّ » وفى التثنية والجمع ، والخطاب والغيبة ، ثم أخرج جميع مشتقاته من الأسماء ، وألحق بها ما يلحقها ، وضعها فى حالة الإضافة إلى الاسم الظاهر والضمائر ، فى التثنية والجمع أيضًا ، ثم اجمع الأسماء على اختلاف صور الجموع الممكنة فيها ، ثم افعل ذلك بالمادة حين يزاد فيها مايزاد مثل « أقام وقوّم واستقام » ، وصرّفها فى الوجوه التى ذكرناها ، وتبين حركات الإعراب فى سياق الكلام ، وضع كل ذلك أمامك مكتوبًا بالحرف العربى ، ثم بالحرف اللاتينى ذى الحركات التى تجعل الكلمة مرسومة كمنطوقة . ثم انظر إليهما ، فهل تستطيع ، غير معاند ولا لجوج ، أن تميز بين كلمة وكلمة ، وأن تتبين الشبه بين هذه المتقاربات من مادة واحدة فى اللغة ؟ نحن قد جرينا على أسلوب صاحب اللاتينية ، فجربنا ذلك بأنفسنا فما اهتدينا ولا أدركنا ، وصارت الكلمة الواحدة التى لا تخطئها العين فى العربية ، ولا تخطئ الشبه بينها وبين صواحباتها ، كلمات لا يُدرى ماهى ! وهذا شيء قائم على الحس والتجربة والعيان (*) .

فإذا عرف ، من لا يستكبر عنادًا ولجاجًا ، أن ذلك مما يُضِلّ ويعمى ، نظر فإذا هو يرى أن أول التضليل فى رسم العربية باللاتينية ، أن يضيع على القارئ تبيّن اشتقاق اللفظ الذى يقرؤه ، فإذا عَسُر عليه ذلك صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذى لانسب له ، وصار فرضًا عليه أن يعمد إلى رسم المادة الواحدة من اللغة فى جميع صُورها التى تكون فى السياق العربى ، ثم عليه أن يحاول تقريب الشبه بالذاكرة الواعية ، ثم عليه أن يحفظ معانى ذلك كله . فإذا كان هذا شأنه فى المادة الواحدة فما ظنك باللغة كلها ؟ يومئذ تصبح العربية أجهَدُ لطالبها من اللغة

(*) لقد تجنبنا أن نرسم على الكلام العربى فى هذه المادة ، ووجوه التصريف واللواحق ، لأنها يسيرة على القارئ فهو يستطيع أن يستخرجها جميعًا ويرسمها لنفسه وينظر أى مخرقة يرى ! (شاكر) .

الصينية . نعم ، وإذا ضل عن تبين الاشتقاق والتصريف ، فقد ضل عن العربية كلها ، لأنها لم تُبْن إلا عليهما . وهى من هذا الوجه مخالفة لجميع اللغات التى تكتب بالحرف اللاتينى ، لأن الاشتقاق والتصريف يعرضان لها من قبل بناء الكلمة كلها ، حتى تختلف الحركات على كل حرف فى كل بناء مشتقٍ أو مصرَّف ، ثم يزيد على ذلك ما يدخل على الكلمة من جميع ضروب الحروف العاملة وغير العاملة ، ثم عِلل الإعراب والبناء والحذف ... إلى آخر ما يعرفه كل مبتدئ فى العربية .

فإذ كان هذا هكذا ، وكان التضليل كائنًا ، وكان هذا التضليل واقعًا فى أصول الاشتقاق والتصريف ، الذى يردّ القارئ إلى أصل المادة اللغوية ، وإذا كان الضلال عن أصل المادة ضلالًا عن معناها ، فأى السبيلين أغمض وأضل : سبيل عُسْر القراءة لعدم (حروف الحركات) ، أم سبيل امتناع الفهم لامتناع الاهتداء إلى أصل الاشتقاق ؟ ونحن لا نشك فى أن كل رجل ذى بصيرة حسن المنطق ، سيجد فى هذا وحده من المشقة والعسر ، وما لا يدع اختيارًا فى الاعتراف بالضلال المطبق الذى تجلبه الكتابة بالحرف اللاتينى ، وأن التصحيف والتحريف الذى يدخل الحرف العربى أهون بكثير من الاختلال والفساد والمضلة والعبث التى يجرها الحرف اللاتينى .

وإذن فغاية المشروع الذى انتحله ، أن ييسِّر نطق الكلمة المكتوبة فى حال إفرادها ، غير ناظر إلى سهولة الاهتداء إلى الاشتقاق الذى هو أصل العربية ، وأراد أن يأمن الخطأ فى الإعراب ، والتحريف فى ضبط الكلمة ، فنسى كل شىء ، ولم ينظر ماذا يجلب مشروعه من التضليل والتشويه والتعسير والاستحالة ، والغموض الأعمى الذى لا يهدى إلى شىء فى هذه اللغة العربية ! وهذا وحده عجب أى عجب .

هذه واحدة ، ثم زعم الباشا أن الحروف العربية تعوق القراءة ، فمهما تعلمها الإنسان فلابد أن يخطئ ! وأن هذا المشكل قد عالجه الأقدمون بوضع الشكل ، ولكن هذا الشكل قد أفلس ، بل كان مجلبة لزيادة التحريف والتصحيف !

هما علتان ، ثم علتان ملفقتان قد غلغل فيهما البطلان ، ونخرتهما المغالطة

فى الصميم وفى المنطق . ونحن لن نناقش اليوم هاتين العلتين إلا من وجه واحد يظهر به فسادهما ، أما سائر الوجوه فندعها حتى يحين وقتها ومكانها من الكلام . فالخطأ عندنا لا يعود إلى صعوبة الحرف المكتوب ، وإنما يعود إلى القارئ المخطئ نفسه ، وهذا هو وضع القضية عندنا : إذا كان المتكلم حين يتكلم يستطيع أن يسوق كلامه على العربية الصحيحة غير مخطئ ، فمحال أن يخطىء فيها عند القراءة مهما اختلف الخط عليه سهولة وصعوبة ، لأن النطق سابق للقراءة ، فالذى لا يخطئ وهو يتكلم (أى كأنه يقرأ من حرف غير مكتوب) ، لا يتأتى له أن يخطئ وهو يقرأ حرفًا مكتوبًا ظاهرًا مميزًا ببعض الدلالات . وإذا عولج بعض العسر بوضع الشكل على الحروف ، فالخطأ عندئذ أشد استحالة لوجود دلالات صريحة لا تقل فى إفصاحها وبيانها عن حروف الحركات التى أرادها صاحب هذا المشروع اللاتينى ، ومن ثم فهى ليست مجلبة لزيادة التصحيف والتحريف كما زعم . أما قوله ، فى خلال ذلك ، إن الشكل قد أفلس ، فهذا حكم باطل فى قضية باطلة بطبيعتها ، وما دامت القضية فى أصلها لا تصح على الوضع الذى لفقه ، فالحكم نفسه لم يدخل إلا زيادة فى التلفيق . لقد نسى صاحب الحروف اللاتينية أن الإعراب فى العربية شيء يختلف اختلافًا كبيرًا عن سائر اللغات المكتوبة بالحروف اللاتينية ، وأن الخطأ فيه لن يكون من قبل الكتابة سهلة أو صعبة ، بل هو راجع إلى المتكلم أو القارئ من قبل الضعف والقوة والعلم والجهل ليس غير .

وأما ثالثة الأثافى ، كما يقولون ، فهو زعمه أن « ليس لدى المسلمين ، وغيرهم من أهل البلاد العربية ، وقت فائض يصرفونه فى حل الطلاسم » ! فأى طلاسم ؟ أهى الطلاسم التى تدخل على كل حرف من الحروف فى المادة الواحدة ، ألوانًا من الحركات تكتب بين كل حرف وحرف ، وفى أواخر كل كلمة ، وتقف فواصل متباينات بين حروف مادة واحدة من لغة بنيت على الاشتقاق وعلى الاختصار ، وجاء فيها الجموع المختلفة ، والصفات والأبنية ذوات المعانى ، والبناء للمجهول ، وأحكامُ المعتلّ فى التصريف ، واختلاف

المصادر وأسماء الزمان والآلات ، والترخيم والنسبة ، والإضافة والتقاء الساكنين ، وأحكام الإعلال والإبدال والإدغام ، إلى آخر هذا كله ، ممّا يغيّر الأبنية والأطراف والأوساط ، هذا إلى كثير من أحكام النحو الأخرى التى تفزع من يتتبعها إذا هو أراد جدال صاحب الحرف اللاتينى ! أهذه هى الطلاسم أم تلك ؟ وأيهما أفسد لوقت المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربية ؟ بل أيهما أضرَى وأشنع فتكًا وشراسة ؟ بل أيهما الذى يغول العقل لا الوقت وحده !

ولكنها فتنة ! فتنة اغتر بها شيخ صالح ، فاستغلها من لا يرى للعربية حقًّا ولا حُرْمة ، ولولا بعض حسن الظن لقلنا :

لا تأمنوا قومًا يَشبُّ صبيُّهم ... بين القَوابِلِ بالعداوة يُنشَعُ [١]
فَضِلَتْ عداوتُهم على أحْلامِهم ... وأبتْ ضِبابُ صدُورِهم لا تُنْزَعُ [٢]
إن الذين تَروْنَهم إخوانَكم ... يشفى غليلَ صدورهم أن تُصْرعُوا

وأى مصرع ياصاحب المعالى ! علّمك الله الخير وهداك إليه وسددك وحفظك .

* * *

---

(١) القوابل : جمع قابلة ، وهى التى تستقبل الولد عند الولادة . يُنْشَع : يُرَبَّى .

(٢) الضِّباب : الحقد الكامن فى الصدور .

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

صديق إبليس

« قال عمر بن أبى ربيعة » :

« لم أزلْ أرى كَلْثَم « هى بنت سعد المخزومية زوجة عمر » أجزلَ النساء رأيًا وأصلبهنَ مكسِرًا [١] ، وأقواهُن على غيرة قلبها سلطانًا ، حتى إذا كان مُنذ أيام رأيتُ امرأة قد استعلن ضعفها ، وتهتَّك عنها جَلَدُها ، وعادتْ أنثى العقلِ يُغْويها الذى يغريها .

« وإن أنسَ لا أنسَ يوم احتلتُ عليها حتى دخلت إليها ، وقد تهيأت لى أجملَ هيئة وزينت نفسها ومجلسها ، وجلست من وراء السترْ ؛ فلما سلمتُ وجلستُ ، تركتنى حتى سكنت ، ثم رفعت السترْ عن جمال وجه يخطفُ الأبصارَ ، ثم رمت فى وجهى تقول : أخبرنى عنك أيها الفاسق ! ألست القائل كذا وكذا ؟ تعنى أبياتًا لى ، فمازلتُ أفتِلُ فى الذِّرْوَة والغاربِ [٢] ، وهى تَنِدُّ علىّ وأنا مقيم عندها شهرًا لا يدرى أهلى أين أنا ، ولا أدرى ما فعل الله بهم . ولا والله ما مرّ علىَّ يوم إلا حسبتها امرأة قد خلقتْ بغير قلب ، لما ألقاه من عنادها وامتناعها ، وإنى لآتيها بالسِّحْر بعد السحْر من حديث تحنُّ عليه العوانس المعتصماتُ فى مَرَابِئ الزمن ، وأنا يومئذ شاب تتفجَّر الصَّبْوة من لسانى ، ويتلألأ الغزلُ فى عينىَّ ، وهى يومئذ غادة غريرة لو نازعها النسيم ، فيما أُرى ، لاستقادتْ له من دَلِّها ولينها وغضارة العيش . ولبثت شهرًا أقول وأحتال وأستنزلُ عُصْمها [٣]

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٦٠١) ، ١٩٤٤ ، ص : ٣٧ - ٤٠

(١) يقال رجل صُلْبُ المَكْسِر ، على المدح والثناء ، وذلك إذا كان باقيا على الشدة لا يلين ولا ينخزل .

(٢) هذا مَثَلٌ . الذروة : أعلى السنام. والغارِب : مابين السنام والعنق ، وأصله أن يكون البعير مُصْعَبا . فيحكّ صاحبُه سنامَه وغاربَه ، ويفتل الوبَر بينهما بأصابعه حتى يؤنسه بذلك ، ويخدعه حتى يمكن منه فَيخطمه .

(٣) العُصْم : من الوُعول ما فى ذراعيه بياض ، وهى تسكن أعالى الجبال .

بِرُقى السحر ، حتى إذا قلت قد دانتْ ، انفلتت مصعِّدَة قد تركتنى شاخصًا أنظر إلى صيد قد طار ، ثم أطرق ناظرًا إلى سحر قد بطل . فلما اشتد ذلك عليّ استأذنتها فى الخروج إلى أهلى ، وقد يئست منها ومن هواها ، فما سمعت حتى قالت : « يمينَ الله أيها الفاسق ! بعد أن فَضَحتنى ؟ لا والله لا تخرج أبدًا حتى تتزوجنى ! » فتزوجتها وهى أحبُّ النساء إلىّ أن أتزوَّج ، ومازلتُ معها وأنا لا أنكرُ منها شيئًا ، وأقول الشعر تأخذه الألسن لتشيعه إلى الآذان ، وأدخل بيتى فألقاها فلا أسمعُ منها قلتَ وقلتَ ! فيكرُبنى إغفالُها لما يبلغها من الشعر ، فألحُّ على النسيب ، وأذهب كل مذهب فى التشبيب ، وأتبعُ النساء بعينىّ وقلبى ، وأقولُ ، فلا والله ما نَبَضَ لها قلب ولا تحركت لها جارحة ، ولقد أدخُل عليها فإذا هى تلقانى ضاحكة لاهية ، حتى أقول : لعلها لم تسمعْ ! فأنادى مولاى وأملِي عليه ، وهى بحيث تسمعُ ما أملِي ، وأتخلل الإملاء بالشكوى والحنين وأرفع بهما صَوْتى ، ثم أنهضُ ألقاهَا فما أرى وجْهها يربَدُّ أو يتمعَّر [١] ، فكان ذلك غَيظى وشِقْوَتى ، لا تزيدُهما الأيام إلا اتقادًا . ويْلُمِّه كيلًا بغير ثمن ! كم ذا أُغِيرُها فلا تغارُ !

وأقبلتُ ذلك اليوم ، بعد مرجعى من الكُوفَة بشهر أو أكثر ، فاستقبلنى جُوان (هو ولد عمر من كلثم) فقال : « يا أَبَهْ . أُمى ، مافعلت بها ؟ » . قلت : « أُمك ! بخير يابُنىَّ وَعداهَا السوء » . قال : « كلَّا يا أَبَهْ ، وما أدرى ما بها ، غير أنى ظللتُ أيامًا أستخبرها ، وهى خالية ، عما يريبها أو يؤذيها ، فلا أسمعُ منها إلا ما تنشده من شعرك .

كُنَّا كَمِثل الخمْرِ كان مِزَاجَها ... بالماء ، لا رَنْقٌ ولا تكديرُ
فإذا وذلك كان ظِلَّ سَحَابة ... نَفحَتْ به فى المُعْصراتِ دَبورُ [٢]

« ثم تنظر إلىّ وتقول : ياجُوان ، امضِ لشأنِكَ ، ولا تَنْسَنى فى صلاتِك ، فوربِّ هذه البنيَّةِ ، لقد حملتُك ووضعتُك وأنا أدعو الله أن يُجنّبنى الشيطانَ ، وأن

---

(١) تَمَعَّر : تغيّر وتقبّض غَضبًا .

(٢) الدبور : ريح حارة تهب من جهة الجنوب .

يجنّبَ الشيطانَ ما يرزُقنى ، فكنتَ أنتَ يا بُنىّ دَعوتى ، فادعُ ربَّك ياجُوان لأمك التى حملتك وهنًا على وَهن .

فابْكِ ماشئتَ على ما انقضَى　　　كل وَصْلٍ مُنْقَض ذاهبُ
لو يردُّ الدمعُ شيئًا ، لقد　　　ردَّ شيئًا دمعُك الساكِبُ

فأقول : « يا أماه لقد أفزعتِنى ! » فتقول : « اذهبْ يا بُنىّ « لو تُركَ القَطَا ليلًا لَنام » [١] . ثم تشيحُ وتنصرفُ ، ولا والله ماقدرتُ منها على أكثر من أن أسألها فتجيبنى بمثل ما أخبرتُك . فبالله ، يا أَبَهْ ، لاتدع أمى تموتُ بحسرة تتساقط عليها نَفْسُها ! ارحمها يرحمك الله .

ويذهبُ جُوان ويَدَعُنى لما بى ، ويأخذنى ماحَدُث وما قَدُم ، وكيف ولم أُنْكِرْ منكِ يا كلثمُ شيئًا منذ رجعت من غيبتى بالكوفة ؟ وإنى لأدْخُلُ عليها فتُدَاعبُنى وتضحك لى وتذهبُ بى فى لهوها مذاهبَ ، ولا والله إنْ وقعتُ منها على مَسَاءة تضمرها أوهمّ تكتمه ، وكأن الحياة قد منعتْ دونها غِيَرَ النفس فهى لا تتغير . وهذا جُوان يقول ، فلئن صَدَقَ لقد كذبتنى عيناى وكذبَ علىّ قلبى ، وإن كلثم لَتلهُو بى وتتلعّبُ وأنا فى غفلة عن كُبْر شأنها وأساها ! وأذهب من ساعتى أدور فى الدار أنظر ، فإذا كلّ شىء أراهُ قد لبس من همّ نفسى غلالة سوداء نشأت بينى وبينه ، وإذا أيامنا المواضى قد بُعثتْ فى أَسْمال هلاهيل تطوف متضائلة فى جنباتِ البيت وهى تنظرُ إلىّ نظرة الذليل المطرَّد المنبوذ ، وإذا كلثم قد خرجت إليهنّ كاللبؤة المُجْرِية [٢] رِيعتْ أشبالُها ، وإذا أنا أسمعُ همهمة كأنين الجريح تنفذُ فى أذنىّ من حيثما أصْغَيتُ ، وماهو إلّا أن أرانى فى فراشى قد توكأتُ على مرفقى ، والغشيةُ التى أخذتنى تنقشعُ عنى شيئا بعد شىء . وبعد لأيٍ ما ذكرت ماكان من حديث جُوان كما كان ، فنهضت من مكانى أَطلب كلثم فى غِرَّتِها حيث هى من البيت .

وقصدت مقصورتها فإذا هى قد أجافت الباب [٣] ، فذهبت أفتحه وإنّ يدى

---

(١) هذا مَثَلٌ ، يضرب لمن يتنبه لنواذر الشر فيأخذ حذره .

(٢) المُجْرِية : ذات جِرْو ، وهو ولدها .　　　(٣) أجاف البابَ : رَدَّه عليه .

لتأبى علىّ أن تمتد خشية أن أطلع منها على ما يسوؤنى ، وهى أحبُّ إلىّ من أن أراها مغمومة أو مكروبة على غير ما عودتنى وعودتها . فأستأذنها من ورائه قالت « مهلًا يا أبا الخطابِ ، وبخير ما جئت » . فقلت لنفسى « كذب والله جُوان وما كان كاذبًا » . فلما فتحتْ لى الباب رأيتُ سُنَّة وجه كالسيف الصقيل يبرق شبابًا ورضى ، وقالت « مرحبًا بك ياعمر ، لو رأيت الساعة جاريتى وهى تدخلُ على ساعية تجرى تقول : سيدتى أَدْرِكى مولاى فقد سمعت الناس يتناشدون من شعر قاله اليوم ، وإذا فيه .

ليس حُبٌّ فوق ما أحبَبْتُها   غير أن أقتل نفسى أو أُجَن

فاحفظيه ياسيدتى من روعة المصيبتين . فقلت لها : لقد وقى مولاك السوءَ أن ليس بينه وبين الناس إلا لسانه ! ولا يقتل مولاك نفسه أو يجنّ حتى يقتل الحمام نفسه على هَدِيله [١] أو يجنُّ » .

لم أدر ما أقول ، فقد كانت كلماتُ جوان قد تشبحَّتْ لعينىَّ ودوَّت فى أذنى ، فما أطقتُ صبرًا أن أسألها : « مايقولُ جوان ؟ زعم أنك لا تزالين مهمومة لأمر يستخبرك عنه فلا تخبرينه ، ولقد مضت السنون بينى وبينك ، ولا والله ما علمتُ إلا خيرًا ولا رأيت إلا خيرًا ، وما قال إلا ما يجعلنى آسَى على ماكان منى إليك مما ساءك أو رابك » . وماكدتُ أتمُّ حتى رأيتها تنتفض كالرشأ المذعور أفزعته النبأة [٢] ، وبَرِقَت فتخاذلت وغَرِقَ صوتها فما تنطقُ فخاصرْتها [٣] ومشيت بها إلى مجلس فى البيت وجلست أتحفَّى بها حتى تهدأ . وبعد قليل ما قالت : « أما إذا كان هذا يا أبا الخطاب فوالله إنْ كتمتُك شيئًا » .

ثم أطرقت ساعة ، وأنا أنفُذُها ببصرى أطلب غيب ضميرها ، ثم رفعت إلىَّ بَصَرها ونظرت نظْرَة المرتاب ثم قالت « إنى مُحَدِّثُك يا أبا الخطاب عما كان

---

(١) الهديل : فَرْخٌ - زعموا - كان على عهد نُوح عليه السلام فهلك ضيعة وعطشا ، فيقولون إنه ليس من حمامة إلا وهى تبكى عليه .

(٢) النبأة : الصوت الخفىّ ، يَنُمّ عن الصائد .

(٣) خاصرتها : أخذت بيدها فى المشْى .

كيف كان . هذه جاريتى ظمياءُ تدخل عليَّ كالمجنونة منذ أيام تقول : « سيدتى ، يمين الله أن تكتمى عليَّ ما أقول » . فأقول : « أمنتِ ياظمياء ! ما يروعك » ؟ فتقول : « لا والله ما يروعنى إلا أن أدع مولاتى توصم بين نساءِ قريش وبنى مخزوم ، ويتحدث أهل مكة أن أم جوان قد لقيت من البلاءِ كذا وكذا » . فأقول : « ويلك ياظمياء ! انظرى ماتقولين ! » . فتقول : « لا والله إنْ هو إلا الحقّ ، أرأيت إلى تلك البيضاء الصهباء ذات العينين التى مازلت تجيئنى منذ أيام ، لقد قالت لى فى عُرض حديثها : يا ظمياء لقد جئت مكة من بلادٍ بعيدة ، وإنى لأسمع الناس على الطريق يذكرونها ويذكرون بيت الله الحرام ، فما ازددت إلا شوقًا أن أرى بيت الله الحرام ، وأن أرى الناس يجاورون هذا البيت العتيق ، وما وقع فى قلبى إلا أن أرى دنيا لم أرها ، وقومًا كتب الله لهم أن يكونوا أطهر وأتقى الناس لله . ولقد خرجتُ من بلادى وهى أبغضُ إليَّ لما أرى من فجور أهلها وانغماسهم فى كل إثم وباطل ، وكنت أرى أشد أهلنا فجورًا ولجاجًا أولئك الشعراء . ثم دخلت بلادكم وطوّفت فيها ما طوّفت حتى إذا انتهيت إلى أرضكم هذه ، لم أزل أعرف الشعراء فيكم أَفْجَر وأفسق وأضلّ » .

« فما أطقت أن أصبر يامولاتى حتى قلت : « مَهْ ياصهباء ، وكذبتِ . وأين بنو الأصفر [١] من بنى يعرب ؟ فإن شاعر العرب ليقول ، وإن قلبه لأطهر من أن يدنسه ما يدنس به شعراؤكم أنفسهم يابنى الأصفر . وهذا مولاى وهو أغزل العرب لسانًا ، وما علم أحد عليه سوءًا . قالت صهباء : ما أحسن ما رباك أهلك ياظمياء ! وأحسنى ماشئت ظنك فى مولاك . قلت : تبًّا لك . وإنك لَترِيغين [٢] إلى مولاى منذ اليوم ، فلا والله لقد كذبتِ وخسئت أيتها الصهباء الطارئة التى لا مولى لها . فقالت صهباء : كذبتُ وخسئتُ ! ما أصدق ماقال مواليك « من دَخل ظَفار حَمَّرَ » [٣] ! وإنك لغريرة ياظمياء ، وأنا الصهباء الطارئة من بنات الأصفر لَأَخْبَرُ منك بغيب مولاك عمر . قلتُ : كيف قلتِ ؟ قالت : إنه الحق ، وإن لمولاك غيبًا

---

(١) بنو الأصفر : هم الرُّوم .

(٢) أراغ إلى فلان : طلبه سرا فى خفاء للإضرار به .

(٣) ظفار مدينة يمنية كانتِ لِحِمْيَر . وحَمَّر : تَعَلَّم الحِمْيَرِيَّة ، وهذا مَثَلٌ .

عميت عنه عينك وعين مولاتك ، وهو أحرص عليه من أن يطلع على خَبْئِه أحد قلت وأنَّى لك أيتها الغريبة ؟ قالت : دعى عنك ، فهو الذى أحدثك .

« ثم دنتْ مِنّى كالتى تُسِرُّ إلىّ ، وقالت : ماكذبتُك أيتها الحُلْوَة الغريرة ، فهذا مولاكِ قد ذهب إلى الكوفة منذ زمن ، ألم يكن ذلك ؟ وهذا مولاكِ قد نزل بأفسق خلق الله وأخْبثهم عبد الله بن هلال الحميرىّ الذى يزعُم أنه صديق إبليس وخَتَنُه (١) وصاحب سرِّه ، وإذا هذا الفاجر يخرجُ إليه قَينتينِ من أجمل خلق الله وأَحسنه يغنيانه بشعره حتى ذهبَ عَقْلُه ، وإذا هو يديرُ مولاك يوما بعد يوم على أن يُفتَتَن بهما ، حتى إذا بلغ منه ما أراد ضمن له أن تكونا بالطائف بحيث لا تراهما عينُ بشر . لا تنظرى إلىّ كالمرتابة ، فهذا الخبيث ابن هلالٍ قد ألقى الطاعة إلى إبليس حتى عظُم أمره عنده فهو يُخْدِمُه (٢) ويُناطقه ، وحتى لقد ترك له صلاة العصر تقربًا إليه ، وحتى أباحه إبليس أن يأمر الشياطين تتلعَّب ببنى آدم ، ومن شرطه عليه أن لايزال أبدًا يجمَعُ بين الرجال والنساءِ فى الحرام . وهو رجل كما يقول مولاى ...» . قالت ظمياء : وإن لك لمولى ياصهباء ؟ قالت صهباء : دَعِينى حتى أتمّ ياظمياء .. هو رجُل قد أوتى من القُوَّةِ على السِّحْر والقدرةِ على تلبيس أنظار الناس ما لم يجتمع لأحد من شياطين السَّحرة قبله ، فلو هو مسَّ وجْه امرئ بمنديله الأزرق ذى الوشيِ لم تأخُذْه عينُ بشر . وهكذا هو يفعل بمولاك وصاحبتيه حتى لا يراهم الناس . قالت ظمياء : وإنَّ هذا يكونُ ؟! قالت صهباء : نعم ! وليس فى الأرضِ أحدٌ يطيق أن يَدْرأ شرّ هذا الشيطان الخبيث إلا مولاى . فقالت لها ظمياء : ولكن أنَّى لمولاك ياصهباء أن يكونَ عَرَف الذى خبرتنى به إن كان ما تقولين عن مولاى مما سمعته منه ؟ قالت ظمياء : فدنت منّى ونظرتْ فى عَينىَّ بعينين مذعورتين يخفِقُ فيهما مثل شقائق البرق ، ثم قالت : ما من شىء يفْعَله هذا الخبيث ابن هلالٍ حيث كان إلّا كانَ عند سيّدى خبرُه . فقالت لها ظمياء : وَيْبى ! أحقًّا قلت ياصهباءُ ؟ قالت : وَىْ ، أو كنتُ كاذبةً عليك وما أنا

---

(١) الخُتُونة : المصاهرة ، والخَتَنُ : أبو امرأة الرجل ، وأخو امرأته وكل من كان من قِبلِ امرأته .

(٢) يُخْدمه : جعل له خَدَمًا .

وأنت إلّا من هذه الجوارى الغريبات المستضعفات ؟ ومالك تكذّبينى وإنْ عندى من برهانِ ذلك مالا قِبلَ لك بردّه . قالت ظمياء : بالله ! قالت : بالله ، فاذهبى إلى صِوَان سيّدك فى هذه الغرفة التى إلى جوارنا ، وأخرجى من بين المِطْرف السابع والثامن من ثياب مولاكِ ماتجدين !

[قالت كلثم امرأة ابن أبى ربيعة] :

« فهبّت ظمياء فدخلت إلى صِوَانك (تعنى عمر) فأخرجت شيئًا رجعتْ به إلى صهباء . ثم إذا هى تدخلُ علىّ وتقصُّ قصة ماكان ، فأمرتها أن تأتينى بصهباء لأسمع ماتقول ، فروت لى كل ما حدثتك به يا أبا الخطّاب .

(قال عمر بن أبى ربيعة) :

« فما تمالكت أن قلت لكلثم : ماتقولين ؟ وأى شىء هذا الذى كان بين مطرفى السابع والثامن ؟ فقالت كلثم : رُويد ياعمر ، إما أن تدعنى أتمّ وإلَّا والله لا سمعتَ منى شيئًا حتى يقطَع الموت بينى وبينك . قلت : ويحك ، فأتمى .

قالت كلثم : « ثم إنى سألت صهباء عن سيدها ومولاها فقالت إنه رجل صالح يسيح فى الأرض ، وإنه قد جاء فَحجَّ حِجَّتَهُ وهو على سَفَرِه بعد قليل يضرب فى البادية حيث يشاء الله . قلت لها : أو يعلم مولاك من أمر ما تحدثينى عنه أكثر مما قلتِ ؟ قالت : لا أدرى يامولاتى ، فإنه ربما دعانى ويجعل يحدثنى ويحدثنى حتى أقول لن يَسْكُت ، وما هو إلا كخاطفة البرق حتى يقطع فلا يتكلم . فربما عدت فسألته فلا والله ما يزيد على أن ينظر إلى ويبتسم . قلتُ لها : أو تستطيعين ياصهباء أن تأتينى بمولاك ، ولك عندى مائة دينار ؟ كلا لا نلت من مال مولاتى شيئًا ، ولكنى سأديرُه حتى يأتيك لما أرى فى وَجْهك من الخير والسَّعْدِ .

* * *

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

صديق إبليس

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

« وذهبت صهباء وبقيت أترقَّبُها ثلاثة أيام ولياليها وهى لا تجىء ، حتى إذا كانت ليلة خرجتَ إلى الطائف آخر خَرْجة ، جاءتنى صهباء فى جِنْح العَتمَة ودخلت هى وظمياء . قالت : لقد أطاع مولاى مرضاتك ، فإن أذنتِ جئتُ به الساعة . قلت لها : لبِّثى حتى يأوىَ جوان . فلما كان بعد هدأة الليل وفقدنا الصوت ، ذهبت صهباء ساعة ثم جاءت . وَدَخَل عَلىَّ رَجُل أسمر طُوالٌ نحيل البدن مَعْروق الوَجْه أبيض اللحية أشعثُ أغبر ، كأن عينيه جمرتان تَقِدان فى وقْبَين [١] غائرين كأنهما كهفان فى حِضْن جبل ونظر فى عينى فوالله لتمنيتُ أن الأرض ساخَتْ بِى ولم أنظر فى عينيه ، فما هو إلّا أن سلَّم حتى سمعت نغمةَ صوتٍ شجى كحنين الوالهة ، فوالله لتمنيت أن يتكلم ما بقيتُ . ولم أدر ما أقول ودَهِشْت وهلك صوتى ، فنظرت فإذا هو يبتسم إلىَّ ثم يقول : « يا أم جوان ! لقد سعيت إلى بيتك وما سعيت من قبل إلى بيت إلا إلى هذه البَنِيَّة « يعنى الكعبة » . وقد جاءتنى فتاتى صهباء تحدثنى عما كان منها إليك ، وقبيحٌ بامرئ أفزع قلبًا ساكنًا أن يدعه أو يطمئن ، ولو كنتُ أعلم أنها مفتوقة اللسان ، ما حدَّثتها بشىء أبدًا » . قالت كلثم : فكأن الله جعل لى قوة سيلٍ جارف فقلت له : كذبت يارجل وكذبت بنت الأصفر ، ووالله لئن لم تأتنى ببرهان ما تقول ، لتركت شيبتك هذه أباديدَ [٢] فى أكفّ صبيان مكة . ووالله لو صدقت لأسترنَّك

---

* الرسالة ، السنة الثانية عشرة (العدد ٦٠٢) ، ١٩٤٤ ، ص : ٦٠ - ٦٢

(١) الوَقْب : النُّقْرة فى الصخر يستنقع فيها الماء .

(٢) أبادِيد : متفرِّقة ، قِطَعًا قِطَعا .

ولأكفينَّك ماعشتُ . فقال : « جزاك الله خيرًا يا أم جوانٍ أما إذ كذبتى فآيتى أن تذهبى فتستخرجى من جوف حقيبة عمر الحمراء بين جلدها ومفرشها كتابَ عبد الله بن هلال الفاسق بخط يده ، قد جعله تميمة لزوجك أن لا يراه أحدٌ إذا خرج إلى مأوى الفتاتين بالطائف ، ومعه منديلُ ابن هلال الأزرق ذو الوشى ، يمسح به وجْهَه قبل أن يرحل » . فما كذَّبت أن طِرْتُ إلى ما زعم ، فوالله لقد صَدَق وبَرَّ .

« قال عمر » ، قلت : ماتقولين ؟ قالت : صه ياعمر فوالله لقد صدق وبرّ ، وقلت له : أيها الشيخ ! أفأنت تعلَمُ أين تجد هاتين الخبيثتين ؟ قال : لا . قلت : فما تزعمُ فتاتك مِن أن لا شيء يفعله الخبيث ابن هلالٍ إلا كان عندك خبره ؟ قال صدقتْ . قلت : فكيف لا تعلم ؟ قال : إنه أخبث وألأم وأضل وأدهى وأقرب إلى إبليس وبنته بَيْذَخْ ذات العرش من أنْ أُطِيق معرفة ما انقطع بينى وبينه . قلت : وما بَيْذخ ذات العرش ؟ قال : إنها ابنة إبليس التى اتخذت عرشها على الماء حولها سودٌ غلاظ يشبهون الزُّطَّ ، حفاة متشققو الأعقاب ، ولايصل إليها إلّا من قدّم لها القرابين من حيوان ناطق وغير ناطق ، وترك لها من الصلاة والصوم ، وقدم إليها من الذهب والفضة واللآلىء حتى ترضى ، فإذا فعل ما تريد وصل إليها فسجد تحت عرشها ، فَتُخدِمه [1] من يريد وتقضى حوائجه . قلت : وما علمُك بهذا أيها الشيخ؟ قال : ذاك شيء قد كان ، والله هو التواب الرحيم . قلتُ : قد كان ! قال : نعم أما اليوم فلا ، وما يأتينى بأخبار اللعين الزنديق ابن هلال إلا صاحب من الجن قد آمن بإيمانى ، ولكنه محجوبٌ عن الأسرار . فقالت أفلا تكرمنى أيها الشيخ فتسأل صاحبكَ أن يحتالَ ليعرف ؟ قال : لا أدرى ! ولكن ائتينى بطستٍ أُناطِقْ صاحبى .

« فأتيته بطستٍ فكبَّه ، وأخرج من كُمِّه غلالةً سوداءَ فنشرها عليه ، وأَمَر بالفتائل فأطفئت ، وطلب جمرات فى طبقٍ فلما تم ذلك أخرج عُودًا من المندلى فطيَّر دُخَانه ، وجلس حتى وإن عينيه لتبِصَّان [2] فى الظلماءِ ، وجعل يتمتم

---

(١) تخدمه تجعل له خَدَمًا .

(٢) تبِصّ : تَلْمَع .

ويدندن ويُهَمْهِم حتى كدتُ أنشقُّ ، ثم قال : يازوبعة ! فإذا صوتٌ يأتى كأنما يخرجُ من جوف بئرِ شَطونٍ [١] يقول : لبَّيك يا أبا الحسن ! وقال : أتدرى أين أنا ؟ قال : بلى دَرَيْتُ ! قال : لقد حضرنى من الأمر ما تَعْلم ، أفأنت بمُدْركى بمأوى قينتى ابن هلالٍ ؟ قال : لقد علمتَ ما لى ببيذخَ طاقة إيمانى بالله ورسوله ! قال : أفلا تحتال ؟ قال : تبًّا لك ! أتروموننى أن أَرتَدَّ إلى الكفر بعد الإيمان ؟ قال يازوبعة ! أَمالك مِنْ صديقٍ ترفقُ به حتى تستلَّ منه السرّ ؟ قال زوبعة : هذا فراقُ بينى وبينك أيها الخبيث . ووالله ماتركتَ السِّحْرَ إلّا وفى قلبِك رَجْعَةٌ إليه . خسئتَ أيها الفاجر ! » . وإذا الطستُ يتحرَّك فينقلبُ فأرى كمثل شرارة النار تنطلقُ مُدَّة ثم تخْفَى . قال الشيخ : يا أمّ جوان ، لقد رأَيت ، ومالى من حيلةٍ . قلت : احتَلْ لى وقاكَ الله السوءَ ، ولا والله لا تخرج من هذه الدار حتى تعطينى المواثيق بأن تفعلَ ما أريد . قال : أم جُوَان ، وكيف بعذاب الله ؟

« قالت كلثم : فوالله ما إن سمعتُ مقالته حتى خانتنى قدماى فوقفت أبكى ويرفضُّ دَمْعى كلذْع الجمْر ، ورأيت الدُّنيا قد أطبقت علىَّ ، وماهو إلّا أن أَنشِجَ بالبكاء . فدنا الشيخُ وأسر إلىَّ أَنْ أبْشرى أمَّ جُوان ، فلا والله ما أدعُك أبدًا حتى يطمئن قلبك ، واصبرى غدًا تأتيك الصَّهْباءُ . وما أفقتُ حتى رأيتُنِى كالمأخوذة وظمياءُ تنضَحُ وجهى بالماءِ . وبقيت الليل كلّه أطويه ساعةً بعد ساعةٍ حتى أصبَحَ الناسُ ، وقلبى يجِفُ ، ودمعى ينهلُّ ، وكأنّ فى سَمْعى دوىَّ النَّحْل ، حتى إذا قام قائم الظهيرة جاءتْ صهباء ، فقالت : يقول لك مولاى إنه يَبْغِى رَفْرفَيْن من الديباج ، وعشرة أثواب من الإبريسَم ، وبُرْدين كذّابين [٢] من الخزّ ، وخمسين لؤلؤة لم تثقب . فما كذّبتُ أن أعطيتها ما طلبتْ . وغابت يومين ثم جاءتنى مع العشى وقالت : يقول لك مولاى : لو أطاقَ أن لا يكلّفك لفَعَل ، ولكن الأمرَ قد

---

(١) بئر شطون : بعيدة القَعْر .

(٢) الرفرف : البِساط ، وكل ما كان مِن دِيباج فهو رفرف . كذَّابيْن : يأتى مفرده أكثر مايأتى بصيغة المؤنث ، والكذَّابة : ثوب يُصْبَغ بألوان ، يُنْقَش كأنه مُوَشّى ، وفى حديث المسعودى : رأيت فى بيت القاسم كذَّابتين فى السقف ، لذا أظن أن صواب الكلمة بالتاء ، أى مؤنثة .

استعصى عليه بعد توْبته ، وإن يَبْذَخ (بنت إبليس) لتتقاضاه كِفاءَ ما عَصَاها فى طاعة الله . وإنها قد طلبت أن يذبحَ لها من الذبائحَ ما يسيلُ على جنباتِ الغَوْرِ (مسكن الجن) حتى ترضَى . قلت : كم يريد مولاك ؟ قالت : بين المئتين والثلاثمئة . فوالله ما كذّبتُ أن أعطيتُها . فما غابت إلّا يومًا أو بعضه حتى جاءت تطلبُ المنديلَ الذى أعصبُ به رأسى ، فما كذَّبتُ أن أعطيتُها . ثم جاءتنى من الغَدِ عند الأصيل ، فقالت : يقول لك مولاى لا تصلى العشاء الآخرة الليلةَ حتى يُؤذِنَك . فوالله لقد كبر على ولكنى أطعتُه ، وإذا أنا أسمعُ فى سُدْفَة [١] الفجر صوتًا كالمتحدِّر ما بين جبلين يقول : قُومِى إلى صلاتِك . فقمتُ فصلَّيْتُ وما كدتُ حتى أذّن الفجر . فلما كانَ بعد أيامٍ جائتنى صهباءُ تقول : أبشرى ! سيأتى مولاى الليلة . قلت : مرحَبًا به من ضيف . فلما دَخَلَ الليل وسكن الناس ، جاءَ الشيخ لميعاده فسلّم وسكتَ ثم قال : انظرى إلىّ يا أم جوان . فنظرت فى عينين كالنار المشعلة فى الليلة الدّامسة ، وجعل يُمر يده بين عينىَّ وعينيه ، فكلما احتجبتا عنى أظلمت الدنيا فى عينى ، وإذا وقعت عينى فى عينه أضاءَ مابينى وبينه كالسراج المتوهج ، فوالله ما شعرت إلا وظمياءُ تنضحنى بالماءِ حتى أفيق . قلت : ياظمياء ! أين الشيخ ؟ قالت : لقد أَذنتِ له أن ينصرف بعد أن أعطيته من المال ماطَلَب .. قلت : تبًا لى أين كان عَقْلى ؟ وكم أعطيته ؟ قالت : ألف دينار ذَهَبًا ، وواعدَك أن يأتيك بعد سبعة أيام بمأوى الخبيثتين .

« قالت كلثم : وهذا اليوم ميعاده ، ووالله لئن صدقتنى ياعُمَر لقد حفظتك ماعشتُ فى قلبى » .

« قال عمر بن ربيعة » : « فوالله ماكنت أدرى ما أقول ، إلا أنى قلت لها : أَصْدُقُكِ ؟ لقد ضللتِ إذن أيتها الحمقاء » . قالت : « أنا حمقاء أيها الفاجر الفاسق ! ثم قامت إلى صوانها فاستخرجت منه شيئًا ونشرته لعينى ، فإذا سَرَقَةٌ [٢] من حرير أبيض عليها صورتان ، فما تأملتها إلا كانتا والله قينتى ابن هلال حيث رأيتهما وسمعتهما بالكوفة ، ولقد كانتا فى السَرَقة أجمل وأفتن وأحبَّ إلىَّ مما

---

(١) السُدْفَة : الظلمة .

(٢) السَّرَقة : أجود أنواع الحرير .

كانتا . قلت : إنهما والله ياكلثم قينتا ابن هلال ! قالت : وصدق الشيخ أيها الفاجر ! أَتَدَع حرائر بنى مخزوم إلى الخبيثات الدنيئات من بغايا الكوفة ، تخالف إليهن تحت الليل والسِّحر والكفْر وعبث الشيطان بك وبعقلك .

[قال عمر] : وإذا جوانٌ بالباب ينظر إلى الصورتين ، ثم يتقدم ويقول : ما بك يا أمَّاه ! فتقول : هذا الخبيث الفاجر يدع الحرائر من بنى مخزوم ملطَّمات (١) ويختلف إلى زوانى الكوفة يقتادُهن إليه الخبيث ابن هلال بالسحر والطلاسم . وهذا منديله يمسح به غبارَ وجهه لا يراه الناس ساعيًا إلى فجوره .

[قال عمر] : وجعلت تقص على جوان قصة ماكان ، وهى تنظر إلىَّ كاللبؤة المُجْرِية ريعت أشبالها ، فما كادت تفرغ حتى جاءت ظمياء مُعْجَلةً تقول : مولاتى ، صهباء بالباب . قالت كلثم : إيذنى لها . فما كدت أراها حتى فزعت قائمًا إليها وأخذتُها بغدائرها : « وإنك لأنتِ أنتِ أيتها الشيطانة . فانقضَّتْ علىَّ كلثم تذودنى عنها وتقول : دعها أيها الفاجر قلت : إنها فِتَن جارية الخبيث الفاجر عبد الله بن هِلال ولطالما خدمتنى بالكوفة ! أليس كذلك يافتن ؟ قالت : أراك ياسيدى فما أنا إلا جارية بائسة مسكينة يركبنى هذا الشيطان بخبثه وخبائثه . قلت : وأين ابن هلال صديق إبليس ؟ قالت : ماتدركه يامولاى ! فقد ارتحل الليل وتركنى والثَّقَل . قلت : وما جئتِ تبغين ؟ قالت : أرسلنى أطلب المال من مولاتى .

قالت كلثم : دعها ياعمر الآن ، لقد ضللتُ إذن مافعلتُ ، ووالله لقد خدعنى الشيطان ابن هلال . أين كان .

فقال جوان : والله يا أمَّه ! لقد كان فجور أبى بخَبِيثتيْن من بغايا الكوفة ، أحبَّ إلىَّ من شِركك بالله وكفاك . قُومى يرحمك الله فتوبى إلى الله مما كان من ضلالك وكفرك .

* * *

---

(١) ملطمات : إما عنى بيض الوجوه ، وأصل ذلك فى الفرس إذا سالت غرته فى أحد شِقَّىْ وجهه ، وذلك من علامات الكرم . وإما أراد أن وجوههن (وسائرهن بالطبع) تفوح بالمسك ، وهى اللطيمة .

من وراء حجاب

أخى الأستاذ الزيات :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ، فقد أكرمتنى ودعوتنى لكتابة مقالتى لعدد الهجرة من الرسالة ، فجعلت أماطل الساعات كعادتى حتى تضطرّنى إلى مأزقٍ أجد عنده مفرًّا من حمل القلم ، والإكباب على الورق ، وترك الزمن يعدو علىَّ وأنا قارٌّ فى مكان لا يتغير وزمان لايتحول . فلما كارب الوقت وأزفت الساعة ، فزعت إلى ذلك الكتاب القديم الذى طال عهد « الرسالة » به ، وهو « مذكرات عمر بن أبى ربيعة » ، حملت الكتاب حريصًا عليه ، ووضعته على المكتب بين يدىّ ، وترفقت بصفحاته وأنا أقلبه كما يقلب العاشق المهجور تاريخًا مضى من آلام قلبه . ووقعت على ورقة حائلة اللون قد تخرّمها البِلى ، وإذا فيها هذه الأبيات الثلاثة ، لم ينل منها شىء ، لا تزال ظاهرة السواد بيِّنة المقاطع :

« فصروف الدهر فى أطْباقه ... خِلْفَةٌ فيها ارتفاع وانحدارُ [(١)]
بينما الناس على عليائها ... إذ هوَوْا فى هوَّة منها فغاروا
إنـمـا نَـعْـمَـة قـوم مُـتْـعـة ... وحياة المرء ثوب مستعارُ »

لم أدر لِمَ نقل « عمر بن أبى ربيعة » هذه الأبيات فى مذكراته ، فإنها قائمة وحدها ليس قبلها ولا بعدها شىء يدل على ما أراد من ذكرها، فجعلت أداور الأوراق لعلى أبلغ مبلغًا من توهُّم خبرها الذى سيقت من أجله ، وجعل معناها يداور قلبى ويساوره حتى كفَّت يدى عن الحركة ، وسكن بصرى على مكانها ، وأحسست كأن القدر قد نام فى ظلالها كالمارد الثمل طرحه طغيان السكر حيث

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٥٣) ، يناير ١٩٤٦ ، ص : ٨ - ١١

(١) أطباقه : أحواله المختلفة . خِلْفة : يخلف بعضها بعضا ، يتعاقب فيها الخير والشر ، والغنى والفقر ، والصحة والمرض .

استقر ، وأطاف بنفسى جو من السكون والرهبة والجلال ، وأخذت أستغرق فى تأمل هذه الحياة المتكررة المتطاولة الدائبة منذ عهد أبينا الشيخ آدم رحمه الله إلى يوم الناس هذا . فآنست فترة [١] تأخذنى ، ثم نعسة تتغشَّانى ، وسبحت فى غمرة طويلة لذيذة لا عهد لى بمثلها منذ عَقَلْتُ .

وإذا أنا أفضى من غمرتى إلى ميدان فسيح أخضر الجوانب متراحب الأرجاء ، وإذا مسجد بعيد يستقبلنى كأحسن ما رأيت من مسجد بناءً وبهاءً ، قد تباعدت أركانه وتسامت فى جو السماء مآذنه ، ويبرق بابه ويتلألأ شعاع الشمس عليه . فقصدت قصده ، ولم أكد أدنو حتى رأيت جموعًا غفيرة من الخلق يستقبلون الباب خارجين ، فى ثياب بيض وعمائم بيض كأنها غَمامٌ تزجّيه الرياح [٢] . فوقفت وسألت أول من لقيت : ما الذى جمع الناس ؟ قال : إنه الشيخ أيها الفتى . قلت : فمن الشيخ يرحمك الله ؟ قال : غريب والله ، إنه الشيخ أبو جعفر الطبرى إمام أهل السنة ، وشيخ المفسرين ، وعمدة المحدِّثين ، وثقة المؤرخين ، ردّ الله غربتك يافتى . قلت له : جزاك الله خيرًا ورضى عنك وأرضاك ، أترانى أدركه الساعة ؟ قال : هو رهين هذا المسجد لا يبرحه ، فادخل تلقه .

ولم أزل أحتال للدخول وأمواج الناس تتقاذفنى عن الباب حتى كدت أيأس من لقاء الشيخ ، وظننت أنى لو بقيت دهرًا لم تنقطع هذه الأمواج المتدفقة من باب المسجد . وظللت أزاحم حتى بلغ منى الجهد ، وانتهيت إلى صحن المسجد وقد انفضّ جمع الناس ، ولم يبق فيه غيرى . وجعلت أسير أتلفت وانظر فى مقصورة بعد مقصورة ، حتى رأيت بصيصًا من ضوء فى مقصورة بعيدة ، فلما وافيتها ، وكانت الشمس قد آذنت بغروب ، رأيت مسرجة معلقة وحجرة واسعة ، وآلافًا مؤلفة من الكتب قد غطت الجدران . فاستأذنت ثم سلمت فلم أسمع مجيبًا ، فدخلت ، وإذا فى جانب منها شيخ ضافى اللحية أبيضها جميل الوجه ، قد اتكأ وأخذته سنة من نوم ، وقد مالت عمامته عن جبين يلمع كأنه سُنَّة مصقولة من ذهب ، وبين يديه كتب وأوراق مبعثرة أو مركومة ومحابر وأقلام .

---

(١) فترة : ضَعْف وفُتُور .

(٢) تزجّيه : تدفعه وتسوقه .

سرقت الخطو حتى قمت بين يدى هذا الشيخ النائم ، ثم جلست وجعلت أقدم ثم أحجم أريد أن أمسك شيئًا من ورقه لأقرأه ، ثم عزمت فأخذت ما وقعت عليه يدى ، فإذا هو تتمة تاريخ أبى جعفر الطبرى الذى كان سماه « تاريخ الأمم والملوك » ، وكان الجزء الذى فيه يبدأ من سنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف من الهجرة (سنة ١٣٦٥ هجرية الموافق لسنة ١٩٤٦ م) ، فانطلقت أقرأ تاريخ هذا الزمن وما بعده . وعسير أن أنقل لك كل ماقرأت ، فسأختارلك منها نتفًا تغنى ، كما كتبها الإمام أبو جعفر ، وبعضها منقول بتمامه ، وبعضها اختصرت منه حتى لا أطيل عليك . قال أبو جعفر :

[ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

فمن ذلك ماكان من إجماع المجلسين الأمريكيين على فتح أبواب فلسطين لشذَّاذ المهاجرين من اليهود . وكتب إلىَّ السُّدّى ، وهو مقيم هناك فى أمريكا ، أن موقف الرئيس ترومان الذى كان ادَّعاهُ من إيثاره العقل على الهوى فى هذا الأمر ، إنما كان حيلة مخبوءة أراد بها أن يغرر بالبلاد العربية والإسلامية ، ثم يفاجئها بحقيقته . وهو فى ذلك إنما يعمل للظفر بمعونة اليهود فى الانتخاب الآتى للرياسة . ولما كان هواه هو الذى يُصرّفه ، فقد علم أنه طامع فى الرياسة حريص عليها ، وأن اليهود فى أمريكا هم أهل المال ، أى أهل السلطان ، أى هم الأنصار الذين إذا خذلوه فقد ضاع . قال السدّى : وقد سمعت بعض أهل العقل والرأى فى أمريكا يستنكرون ماكان منه ومن قرار مجلسيه ، ويرون أن الديمقراطية اليوم قد صارت كلمة يراد بها التدليس على عقول البشر ، ليبلغ بها القوى مأربه من الضعيف المغرور بهذه الرقية الساحرة التى يدندنون بها فى الآذان . وقد أخبرنى الثقة أن الرئيس ترومان قد أَوْحى إليه بعض بطانة السوء أن العرب والمسلمين قومٌ أهل غفلة ، وأن دينهم يأمرهم بالصبر ويلح فيه ، فهم لا يلبثون أن يستكينوا للأمر إذا وقع ، ولا يجدون فى أنفسهم قوة على تغييره أو الانتقاض عليه ، وأن الزمن إذا تطاول عليهم فى شىء ألفوه ولم ينكروه . فإذا دام دخول اليهود فلسطين وبقى

الأمر مسندًا إلى الدولة المنتدبة (وهى بريطانيا) ، وانفسح لحمقى اليهود مجال الدعوى والعمل والتبجح ، وألح على العرب دائمًا إجماع الدنيا كلها (أى الديمقراطية) بأن الدولة اليهودية فى فلسطين حقيقة ينبغى أن تكون وأن تتم كما أراد الله ، فيومئذ يلقى العرب السَّلَم ، ولا يزالون مختلفين حتى ينشأ ناشئهم على إلف شىء قد صبر عليه آباؤه ، فلا يكون لأحد منهم أدنى همة فى تغيير ما أراد الله أن يكون ، مما صبر عليه آباؤهم وأسلافهم - وهم عند العرب والمسلمين - أهلُ القدوة .

وفى هذه السنة كتب إلىَّ السُدّى أيضًا يقول إنه لقى أحد كبار الدعاة من اليهود ، وكان لا يعرفه ، فحدثه عن أمر اليهود فى فلسطين ، فقال له الداعى اليهودى : لا تُرَعْ ، فنحن لابدّ منتهون إلى ما أردنا ، رضى العرب أم أبوْا . وما ظنُّك بقوم كالعرب خير الحياة عندهم النساء ، وقد قال نبيهم : « حُبِّبَ إلىَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجعلتْ قُرَّة عينى فى الصلاة » ، ولقد سلطنا عليهم بنات صهيون ، وهن من تعلم جمالا ورقة وأبدانًا تجرى الحياة فيها كأنها نبع صافٍ يتفجر من صفاة شفافة كالبلَّوْر . وهن بنات صهيون دلال وفتنة ، وعطر يساور القلوب فيسكرها ويذهلها ثم يغرقها فى لذة يضن المرء بنفسه أن يصحو من خُمارها أو نشوتها ، منصرفًا عن أمر الدنيا كله لا عن الصلاة وحدها التى جعلت قرة لعين نبيهم . فهن فى فلسطين ، وهن فى الشام ، وهن فى مصر والعراق وتونس والجزائر ومراكش ، ولولا تلك البقعة العصية التى لا تزال نخشى بأسها على ضعفها وقلتها وفقرها - أعنى الحجاز وما جاوره - لقلت لك : لقد قضينا على هذه العرب ، وعلى هذا الدين الدخيل الذى سرق منا التوحيد وادّعاه لنفسه ...

[ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

فمن ذلك ماكان من اجتماع ملوك العرب وأمراؤهم ووزراؤهم بعد الحج من

السنة التى قبلها ، اجتمعوا فى مدينة رسول الله ﷺ ، وقرَّ قرارهم على أن يعلنوا للناس جميعًا وينذروهم بما رأوا وبما أجمعوا عليه :

الأول : أن ميثاق الأطلسى ومواثيق الدول الكبرى كلها تغرير بالضعفاء وتلعب بعقولهم .

الثانى : أن فلسطين ستجاهد ، ومن ورائها بلاد العرب والمسلمين جميعًا تظاهرها بالمال والولد .

الثالث : أن الفتك والغدر والاغتيال ليس من شيمة العرب ولا من دين المسلمين ، وأن حوادث الاغتيال الشنيعة المنكرة التى اقترفها اليهود ينبغى أن تقابل بالصدق والصراحة لا بالغيلة والغدر .

الرابع : أن الأمم العربية والإسلامية تعلم أن ليس لديها اليوم من السلاح مايكفى لقتال الأمم المعتدية التى تظاهر اليهود بالمال والسلاح ، ولكنها ستقف كلها على بكرة أبيها صفًّا واحدًا تقاتل بما تصل إليه يدها من مقاطعة ومنابذة وكبرياء . وأنها تفعل ذلك ما استطاعت ، ولكنها لن تظلم يهوديًا ولا نصرانيًّا ولا أحدًا من أهل الأديان ، ولن تضطهد بريئًا ولا لاجئًا ، وأنها لن تقنع بشىء بعد اليوم إلا بجلاء المعتدين والمستعمرين من بلادها ، وجلاء اليهود عن أرض فلسطين ، ومن شاء أن يبقى فيها من يهود ، فله ما لنا وعليه ما علينا .

الخامس : أن الأمم العربية الإسلامية قد عزمت على أن تبدأ منذ هذا اليوم فى انتخاب مجلس عام تمثَّل فيه جميعًا ، وهذا المجلس هو الذى سيضع الدستور العام للدول العربية والإسلامية ، حتى إذا تمَّ وحّدت هذه الدول سياستها الداخلية والخارجية ، وصارت يدًا واحدة فى العمل ، لتقاوم بذلك اتحاد الأمم الديمقراطية الغربية ، التى لم تزل تريد أن تجعل الشرق سوقًا وأهله عبيدًا .

[ثم دخلت سنة ثمان وستين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

ففيها أراد اليهود فى بعض البلاد العربية أن يظاهروا إخوانهم فى فلسطين ،

فأجمعوا على جعل يوم السبت كله منذ الصباح يوم عطلة فأغلقوا دكاكينهم ، ورفعوا عليها أعلام الدولة الصهيونية المجترئة ، واجتمعوا فى بِيَعهم وجمعوا مالا كثيرًا بلغ عشرين مليونًا من الجنيهات لمساعدة المصانع التى كادت تغلق أبوابها من جرَّاء المقاطعة التامة التى أحسنت الأمم العربية توجيهها وتدبيرها .

ومما كان من ذلك فى هذه السنة اجتماع المؤتمر العام لنساء العرب فى دمشق ، وقد قرّرن أن تعود المرأة إلى بيتها عاملة على إنشاء جيل من البنين والبنات لم تفسده الشهوة التى استبدت بالناس فى تقليد ذلك الفجور القبيح الذى عملت يهود على نشره فى بلادهنّ من زينةٍ وتبرجٍ ورقص وتحلُّل من أخلاق السلف ، وذلك لكثرة ماوقع من حوادث هدمت بيوتًا عزيزة وأسرًا كريمة ، وأفضت إلى ضروب من المآسى لم يطق أحد عليها صبرًا .

وفيها أيضًا أجمعت الصحف العربية والهندية الإسلامية والتركية والفارسية مقاطعة الإعلان اليهودى . وكل صحيفة تخالف هذا الإجماع يُمحى اسمها واسم رئيس تحريرها ومحرّريها من سجل نقابة الصحافة ، ولا تفسح لأحد منهم فرصة حتى يعمل فى صحيفة أخرى بعد هذه المخالفة .

[ثم دخلت سنة سبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

اشتعلت نيران الحروب فى الشرق كله ، واجتمع رؤساء الدول العربية والإسلامية فى مكة المكرمة ووحّدُوا قيادة الجيوش العربية ، ولكن لم يلبث سفير بريطانيا فى مصر وسفير أمريكا أن أرسلا برقية إلى المجتمعين فى مكة يطلبون وقف الحركات الحربية التى سموها (ثورة) ، ورغبوا إلى ملوك العرب ووزرائهم أن يتمهّلوا حتى يصدر تصريح مشترك من الدولتين الكبيرتين ، على شريطة أن تمتنع البلاد العربية من متابعة السياسة الروسية التى تتظاهر بمؤازرة العرب والمسلمين .

وبعد أيام صدر هذا التصريح ، وهو ينص على أن للعرب ما أرادوا من وقف

الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وعلى العرب أن يتولوا بأنفسهم مفاوضة يهود فلسطين على السياسة التى يريدونها ، وأن بريطانيا وأمريكا لن تتدخَّلا فى الخلاف الناشب بين الفريقين ، وأن الدولتين الكبيرتين ستمنعان كل مساعدة تُرسل من بلادهما إلى فلسطين من مال أو سلاح ...

[ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

تمَّ استخدام الذرَّة وانفلاقها فى كل شىء ، وحدث فى زراعة البلاد انقلاب عظيم ، إذ أصبح من اليسير استنبات نبات الصيف فى الشتاء ، ونبات الشتاء فى الصيف . وقد بدأ ملوك العرب أعظم عمل فى التاريخ ، وهو استخدام أسلوب جديد يحوّل الرمالَ العاقرة إلى أرض خصب وافرة الزَّرع ، وقد نفِّذ هذا فى جزء كبير من صحراء جزيرة العرب . أما فى مصرَ والسودان ، فقد تَمَّ توزيعُ ماء النيل وضبطُه حتى لا يضيع من مائه إلا أقل قدر ، وبذلك أتيح لمصر أن تُنشىء ثلاثة فروع جديدة شَقَّتها فى الصحراء الشرقية حتى أفضت إلى بحر القلزم (البحر الأحمر) ، وصار ما بينها أرضًا مَريعة ذات خصب . وبذلك سيتاح لمصر أن يبلغ عدد سكانها أربعين مليونًا من الأنفس فى أقل من عشرين سنة .

ومما كان من ذلك نهضة عامة فى سياسة البلاد العربية ، جعلت الرأى العام العالمى يناصر القضية العربية مناصرة تامة فى أكثر بقاع الأرض ...

[ثم دخلت سنة خمس وسبعين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

كثرت حوادث الاغتيال والفتك فى كثير من البلاد العربية والأجنبية ، وقُتل من العرب وأنصار العرب من سائر الأمم خلق كثير ، واستفحل الشرّ استفحالا عظيما ، حتى ثارت الصحف الإنجليزية والأمريكية وطالبت حكوماتها بإعلان قرار واحد بأن الرأى العام والسياسة العامة فى سبيل السلام تقتضى أن تُبذل النصرة الكاملة للعرب وللقضية العربية ، وأن تتعاون الدول على ردّ العدوان الصهيونى

الذى صار طغيانًا شديدًا فى جميع بلاد الأرض ، وأنه ينبغى على الدول جميعًا أن تضحى فى سبيل ذلك بكثير من المصالح المالية ، وهى قيود اليهودية التى جعلت كل الأمم ترسف فى أغلالها ...

[ثم دخلت سنة ثمانين وثلاثمئة بعد الألف]

ذكر ماكان فيها من الأحداث :

كتب إليّ السُّدِيّ يقول : إن أمريكا قد قررت إجلاء اليهود من أرضها كلها ، وأن تستصفى أموالهم ، ولا يبقى فيها إلا علماء اليهود وحدهم إن شاءوا . ومن المنتظر أن تفعل بريطانيا وسواها من الدول مثل مافعلت أمريكا .

وفيها ثار العمال اليهود فى فلسطين على أصحاب المصانع اليهودية ، وذلك من جرّاء بوار أكثر التجارة اليهودية التى نهكتها المقاطعة العامة فى بلاد العرب والمسلمين ، ولقلة الأجور ، ولكن الحكومة اليهودية ضبطت الأمر وبذلت الأموال ، وجنّدت جيوشًا عظيمة العدة والعدد . وحدثت أحداث عظيمة فى أكثر بقاع الأرض . حتى وقع التنابذ بين الدول الكبيرة التى لا يزال لليهود فيها سلطان عظيم .

وأخوف ما يُخاف أن تقع فى هذه السنة حرب عالمية تستخدم فيها جميع الأسلحة الجديدة التى يخشى أن تكون على العالم دمارًا وخرابًا .

* * *

واستيقظ الشيخ من غفوته ، ونظر إليّ نظرة المتعجب ، وقال من أنت ؟ وماتفعل ؟ فانتبهت فزعًا ، وإذا أنا أقرأ فى تفسير الشيخ أبى جعفر الطبرى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

* * *

تهجم على التخطئة « السلام عليكم » :

إلى أخى البصام :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد ، فقد رأيتك تستغرب هذه التحية المباركة [١] التى يهديها الرجل إلى أخيه ، وأتاك هذا الاستغراب من أن قومًا زعموا أن « القاعدة » هى أن نبتدئ الكتاب بـ (سلام عليك أو عليكم) ، بدون (ال) التعريف ، فإذا جاء الختام قلنا : (السلام عليك أو عليكم) ... وأن بدء الكتاب بقولنا (السلام عليكم) خطأ شائع فى هذه الأيام !! إلخ . واستدللت بقول الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فى أكثر من ثلاثين موضعًا على وجوه مختلفة . وصدق الله الذى يقول فى سورة مريم : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا ﴾ بـ (ال) التعريف ، وصدق الله الذى يقول فى سورة طه لموسى وهرون : ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴾ بـ (ال) التعريف أيضًا . فلا تستغرب ياسيدى !

ولا تستغرب أيها السيد الكريم إذا علمت أن أهل القبلة جميعًا كانوا ، ولا يزالون ، وسيظلون إلى آخر الدهر ، يقول الرجل منهم إذا انتهى من سجوده وقعد للتشهد : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » . ولا تستغرب إذا أنت قرأت فى صحيح البخارى فى باب (مايتخير من الدعاء بعد التشهد ليس بواجب) : « حدثنا مسدَّد ، قال حدثنا يحيى ، عن الأعمش ، حدثنى شقيق ، عن عبد الله قال : كنا إذا كنا مع النبى ﷺ فى الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان . فقال النبى ﷺ : لا تقولوا ، السلام على الله ، فإن الله هو السلام ، ولكن قولوا : التحيات لله والصلوات والطيبات ، السلام

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٥٩) ، فبراير ١٩٤٦ ص : ١٩٩ - ٢٠٠

(١) وذلك فى مقاله : إلى الأستاذ الفاضل محمود محمد شاكر ، الرسالة ، العدد ٦٥٨ ، فبراير ١٩٤٦ ، ص : ١٧٠ - ١٧١

عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين – فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد فى السماء ، أو بين الأرض والسماء – أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله . ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو » . وكذلك فى باب (التشهد فى الآخرة) من صحيح البخارى .

ولا تستغرب ياسيدى أيضًا إذا مر بك وأنت تقرأ فى مسند أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٤٣٩ من حديث عمران بن حصين : « أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليكم ، فرد ، ثم جلس فقال (يعنى رسول الله) : عشْرٌ . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد ، ثم جلس ، فقال : عشرون . ثم جاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد ، ثم جلس ، فقال : ثلاثون » . أقول : يعنى رسول الله ﷺ : عشر حسنات ، وعشرين حسنة ، وثلاثين حسنة . وكل ذلك بـ (ال) التعريف أيضًا .

ولا تستغرب ياسيدى إذا رأيت فى مادة (سلم) من لسان العرب : « ويقال السلام عليكم ، وسلام عليكم ، وسلام ، بحذف عليكم . ولم يرد فى القرآن غالبًا إلا منكّرًا .. فأما فى تشهد الصلاة ، فيقال فيه معرَّفًا ومنكّرًا ... وكانوا يستحسنون أن يقولوا فى الأول : سلام عليكم ، وفى الآخر : السلام عليكم ، وتكون الألف واللام للعهد ، يعنى السلام الأول » . ومن هنا أتى من لا يُحسن العربية ، وقلّ إطلاعه على كتبها وفقهها – والاستحسان هنا منصبٌ على ماكان فى التشهد – فإنه ، كما ترى عنى بالأول ، ماكان فى التشهد ، وبالآخر السلام الذى يُخرجُ من الصلاة . وهذا شىء قال به بعض فقهائنا وأئمتنا استحسنوا من عند أنفسهم أو مما روَوا .

ولا تستغرب ياسيدى إذا وقفتَ يومًا على قول الأخفش « ومن العرب من يقول : سلام عليكم ، ومنهم من يقول السلام عليكم . فالذين ألحقوا الألف واللام حملوه على المعهود والذين لم يلحقوه حملوه على غير المعهود » . ثم عاد فقال : « وفيهم من يقول : سلام عليكم ، فلا ينوّن » ؛ ثم ذكر العلة فقال « حمل ذلك على وجهين : أحدهما حذف الزيادة من الكلمة كما يُحذف الأصل على نحو « لم يك » ، والآخر أنه لما كثر استعمال هذه الكلمة ، وفيها الألف واللام ،

حذفا لكثرة الاستعمال كما حذفا من اللهم ، فقالوا : لهُمّ » . وكأنه جعل « السلام عليكم بالتعريف هى الأصل الذى كثر استعماله » .

فلا تستغرب إذا نظرت فرأيت أن الذى جاء فى مقالتى ليس خطأ ولا مجاراة على خطأ . ولا تستغرب إذا أنا قلت لك : إن أدعياء اللغة إنما يُؤتَوْن من سوء التقدير لما يقرأون ، ومما انطوت عليه قلوبهم من حب التعالم على الناس بشىء يدعونه ويلتمسون له الحجة ، حتى ما يدرك أحدهم فرق مابين « سلام عليك » و« سلام » و« سلامًا » ، كما جاءت فى كتاب الله فى أكثر من ثلاثين موضعًا ، وبين ماجاء فى كتاب الله أيضًا من قوله ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ ، وقول رسول الله الذى تلقاه المسلمون عنه فى تشهد الصلاة وفى التحية .

واعلم ياسيدى أنى قنعت لك ولنفسى وللناس بالنقل مجردًا ولم أتبعه ببيان الفروق فى المعانى ، وما ينبغى وما لا ينبغى ، ولا تحرَّيت لك ولا للناس أن ألج بهم موالج فى دقيق العربية وغامضها تدل على أن من نقلتَ أنتَ عنه هذا القول قد تمحَّل [1] وتهجَّم على ما لا علم له به ، وعلى ما لا يحسنه ولا يجيده !

فلا يغرنْك التبجح بالعلم ، ولا تقنع من المتحذلقين بما يسمونه « القاعدة » ، فلعلها باطل مزور ، وكذب مختلق ، واجتراءٌ على العربية هى من سوآته براءٌ ، ولعل دليلهم يكون هو الدليل على بطلان ما يزعمون كما رأيت . وفى هذا مقنع وهدًى .

والسلام عليكم ورحمة الله .

* * *

(١) تمحل : سَعَى إلى الشىء وطلبه وتصرَّف فيه .

وأيضا تهجم على التخطئة !

إلى أخى البصام :

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فيخيل إلىَّ - والله أعلم - أنك رجل واسع المعرفة ، مغرًى بالتحصيل ، دقيق البصر ، تطلب الكلام وإسناده ووجهه ومكانه وضوابطه . وحسب طالب المعرفة أن يكون كمثلك .

وقد طلع علىَّ مقالك فى الرسالة [(١)] ، فما أدرى والله من أى أمريك أعجب ؟ من واسع معرفتك ، أم من حسن تهديك إلى مواطن الشبهة فى كلامى . أم لعلى أعجب من استجلابك للحجة بعد الحجة فى تخطئة شىء كان الناس فى غنى وراحة عن اضطرابهم بين صوابه وخطئه ؟

ومختصر القول هو أنك تريد تقول إن الكتاب ينبغى أن يبدأ كما بدئ فى بعض كتب رسول الله ﷺ وكتب أصحابه بقولك : « سلام عليك » فإذا كان الختام قيل : « والسلام عليك » ، وأن من بدأ الكتاب بقوله : « السلام عليك » فقد أخطأ . أفهذا شىء من أدب الكتابة واتباع السُّنة وحسب . أم هو قاعدة توجب الاتباع نحوًا ولغة ورواية ، فيكون من بدأ بقوله : « السلام عليك » معرفًا فقد أخطأ فى حق النحو واللغة والرواية ؟ وكلامك كله يدل على أن البدء بالسلام المعرَّف خطأ من قبل النحو واللغة والرواية . أليس كذلك ؟

فإذا كان ذلك كذلك ، فقد رويت لك قول صاحب اللسان فى مادة (سلم) : « ويقال السلام عليكم ، وسلام عليكم ، وسلام بحذف عليكم » ، وهذا ولا ريب قول اللغة والرواية والنحو فيما رواه لنا الرواة ، فى تحديد بدء السلام (الذى هو التحية) . هذه واحدة .

ثم ذكرت لك قول الأخفش الذى رددته على ، وقلتَ إنه لايعتدّ به (هكذا) ، لأنى لم أذكر مصدره الذى نقلتُ عنه ، وفيه تصريح بيِّن كتصريح

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٦٤) ٢ مارس ١٩٤٦ ، ص : ٣٣٣ - ٣٣٦

(١) العدد ٦٦٢ ، مارس ١٩٤٦ ، ص : ٢٨٣ - ٢٨٤ .

صاحب اللسان ، ثم زاد فأَظْهَرَنا على العلة فقال إن « سلام عليكم ، حذفت منه الزيادة (وهى الألف واللام) كما يحذف الحرف الذى هو من أصل الكلمة فى قولنا : (لم يك) ، وعلة أخرى هى أنه لما كثر استعمال « السلام عليك » بالألف واللام حذفا لكثرة الاستعمال . وهذا تقرير يدل على أن اللغة والنحو والرواية تجعل الأصل فى السلام المبدوء به هو التعريف .

فإن شئت أن تعرف أين وقع هذا الكلام عن الأخفش فاطلبه فى ص ١٥٢ ج ١ من كتاب تهذيب الأسماء واللغات للنووى وفى غيره أيضًا . هذه ثانية .

فإذا شئت أن تزداد علمًا فخذ كتاب « المخصص » لابن سيده ج ١٢ ص ٣١١ واقرأ قوله : « فأما قولهم : سلام عليك ، فإنما استجازوا حذف الألف واللام منه ، والابتداء به وهو نكرة ، لأنه فى معنى الدعاء ، ففيه وإن رفعتَ معنى المنصوب » . يريد كأنك تدعو فتقول : « سلاما » . وقوله « استجازوا » دليل على أن الأصل هو التعريف بالألف واللام فى ابتداء التحية ، وأن الحذف ترخُّص منهم ، وهو شبيه بقول الأخفش . هذه ثالثة .

فإن شئت أن تضرب الأمثال لنفسك بالشعر كما ضربتها لى ، فأقرأ قول جريرفى ديوانه ص ٤٤٣ وفى النقائض ج ١ ص ٢١٢ .

يا أمّ ناجِيةَ السّلامُ عليْكُم قبلَ الرواحِ وقبلَ لوْمِ العُذَّل

هذه رابعة .

وإن شئت أن تقرأ قول لبيد فى الخزانة ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٨ وفى ديوانه :

إلى الحَوْلِ ثم اسْمُ السلامِ عليكُما ومن يَبْكِ حوْلًا كاملًا فقد اعْتذَر

فافعل ، تجد قولهم أن كلمة (اسم) مقحمة ، وتقدير الكلام فيما يقول النحاة : « ثم السلام عليكما » ، وتجد أيضًا فى إحدى الروايات « إلى سنة ثم السلام عليكما » . هذه سادسة (١) .

فانظر لنفسك هل أخطأ كل هؤلاء وأصبت أنت ؟

---

(١) كذا فى الأصول ، وحقها أن تكون : هذه خامسة .

واعلم مشكورًا أن المقام فى هذا كله مقام ابتداء لا مقام ختام مسبوق بسلام منكر غير معرف .

وأما نص ابن قتيبة فهو كلام بين لا غموض فيه ، فالرجل يقول لك : « تكتب فى صدر الكتاب : سلام عليك ، وفى آخره السلام عليك » ، ولم يقل لك إنه « ينبغى » ، ولا أن القاعدة « أن تكتب فى صدر الكتاب كذا ... » ، وهو إنما ذكر هذا فى كتابه فى (باب الهجاء) لا فى باب أدب الكتابة كما ترى ، ولم يأمر الرجل ولم ينه ، ولم يقل لك إن من قال فى أول كتابه « السلام عليك » معرفًا فقد أخطأ ، كما شئت أنت تقوّله . وأما ماذكره من أمر التعريف ، فإنه أراد أن يعلمك لِمَ عُرّف ثانيا وقد جاء منكرًا وهو أول ، وكان حقه أن يأتى فى الآخر منكرًا مرفوعًا كما جاء فى الأول فقال لك : « لأن الشىء إذا بدئ بذكره كان نكرة ، فإذا أعدته صار معرفة ، وكذا كل شىء . تقول : مر بنا رجل ، ثم تقول : رأيت الرجل قد رجع ، فكذلك لما صرت إلى آخر الكتاب ، وقد جرى فى أوله ذكر السلام عرفته أنه ذلك السلام المتقدم » ، ويريد أن يقول إن التعريف هنا « للعهد لا للجنس » . هذا كل ما فى كلام الرجل لم يوجب شيئًا ولم يمنع شيئا .

وأما الآية التى فى سورة مريم من قول عيسى عليه السلام ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ ... ﴾ ، وما جاء من قول الزمخشرى فيها : « قيل أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله يعنى فى قول الله تعالى ليحيى : ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ... ﴾ فذلك تفسير من الزمخشرى لمعنى (ال) فى قول من قال إن التعريف هنا للعهد . وأبى الزمخشرى أن يكون كذلك ، لأن العهد ههنا باطل عنده ، فالسلام المذكور فى قصة يحيى كان من قول الله سبحانه قبل مولد عيسى ، وهو آت فى أول السورة فى الآية (١٥) ، ثم مضى بعدها [واذكر فى الكتاب مريم] وذكر الله سبحانه قصتها ، حتى أفضت إلى كلام عيسى وهو فى المهد إذ قال : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ... ﴾ فى الآية (٣٣) فبيْنَ السلام الأول والثانى (١) انقطاع فى المدة (٢) وانقطاع فى السَّرْد (٣) واختلاف فى مُبْتَدِئ السلام ومُلْقِيه ، فالأول من الله والثانى من عيسى . هذا وسلام عيسى فى الآية الثانية المعرف فيها السلام ، ابتداء ولا ريب .

ومن أجل ذلك ذهب الزمخشرى إلى أن التعريف ههنا للجنس لا للعهد (وهذا كما ترى يخالف كل المخالفة ما أراده ابن قتيبة فى كلامه) . ثم ذكر الزمخشرى نكتة البلاغة فى التعريف فقال إن تعريف الجنس هو الصحيح لا تعريف العهد « ليكون تعريضًا باللعنة على متهمى مريم وعلى أعدائها من اليهود » . وهى عندى تعليل ضعيف جدًّا من الشيخ رضى الله عنه ، وكان خليقًا به أن يصرف عنه وجهه . ولولا أنه كان مولعًا بنكت البلاغة لما وقع فى مثل ما وقع فيه . وإن شئت أن تزداد فقهًا ومعرفة بما قلت فاقرأ تفسير الشهاب الخفاجى والألوسى والقونوى وأبا[1] حيان وكتاب الأنموذج للرازى وتدبر ما فيها كل التدبر .

وأما قوله فى الآية الأخرى من سورة طه : ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ إن معنى التعريف ههنا التعريض بحلول العذاب على من كذب وتولى ، فهذا جيد وحسن لقوله تعالى فى الآية التى فيها : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ . هذا أيضًا طلب لنكت البلاغة ، وتبيان لأن التعريف ههنا للجنس . ولكن الزمخشرى لم يقل لك ، ولا غيره فيما أحسب يقول لك : إن تعريف الجنس ينبغى أبدًا أن يكون متضمنا معنى تعريض بشىء كالعذاب أو الويل أو الهلاك أو سوى ذلك كله .

ولو كان ذلك كذلك أيها الصديق لكان قصر تعريف الجنس على التعريض عجبًا من العجب المضحك ، فانظر إلى قولك « سلام عليك » التى كان أصلها « سلامًا عليك » منصوبة بفعل محذوف ، التى عدل بها من النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات معنى السلام واستقراره ، مع بقائها فى معنى الدعاء ، فأنت إذا عرفتها تعريف الجنس فقلت « السلام عليك » اقتضت التعريض ، فعندئذ تقول لى كما قلت : « وبديهى أيها الأستاذ أنك لا تعنى بقولك (السلام عليكم) فى بدء كتابك الأول تعريضًا بأحد إذ لا حاجة إلى التعريض » .

---

(١) كذا فى الأصول ، والصواب : أبى ، إلا إذا كان أستاذنا رحمه الله أراد : واقرأ أبا حيان وكتابَ الأنموذج .

فخذ عندئذ أختها وهى قولهم « حمد لله » التى كان أصلها حمدًا لله » منصوبة بفعل محذوف ، والتى عدل بها من النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات معنى الحمد واســتقراره ، مع بقائها فى معنى من معانى الشكر والدعاء . فإذا عرفتها تعريف الجنس فقلت : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أفيقتضى ذلك تعريضًا أو توبيخًا أوتهكمًا !!! ألا يكون هذا عندئذ عجبًا من العجب المضحك .

ومن أجل تعريف الجنس ما أتعب الزمخشرى نفسه فى آية مريم وفى آية طه . وفى سورة الفاتحة من تفسير قوله : « الحمد لله » فاقرأه هناك وتدبره كل التدبر .

وأما مسألة حديث التشهد فأراك جُرْت فيها على الحق . ولقد قلت فى مقالك : « أما أهل القبلة فتشهُّدهم بعد الصلاة مختلف عليه ، فمنهم من يقول (سلام عليك) ومنهم من يقول (السلام عليك) » . وقبل كل شىء ، فتشهُّد أهل القبلة لا يكون « بعد الصلاة » وهو « من الصلاة » ومن تركه أو بدّل فيه بطلت صلاته . هذه واحدة ، وأما الثانية ، فاختلاف أهل القبلة ليس يقال كما رويتَ ، فالصحابة جميعًا والتابعون من بعدهم ، وأئمة المذاهب من عرفت منهم ومن لم تعرف ، مذهبهم تعريف السلام فى التشهد كله إلا (ابن عباس) من الصحابة ، والشافعى من أصحاب المذاهب ، فإنه ارتضى تشهد ابن عباس وآثره لأنه عنده (هو) أتم الروايات وأكملها ، ولكنه لم ينكر التعريف ، ولا استنكره المزنىّ ولا سواه من أئمة مذهبه . فلو أنت عنيت نفسك فرجعت إلى شرح البخارى كابن حجر (ج ٢ ص ٢٦١ وما بعدها) والعينى (ج ٦ ص ١٠٩ ومابعدها) لعرفت أن الصحابة والتابعين مجمعون على روايته بالتعريف فى التشهد جميعًا ، ولرأيت أن أكثر الصحابة قالوا فى حديث التشهد إن رسول الله ﷺ كان يعلمهم التشهد كما يعلمهم السورة من القرآن ، ولرأيت النووى وهو من أصحاب الشافعى يقول : « قوله السلام عليك أيها النبى ، يجوز فى السلام فى الموضعين حذف اللام وإثباتها، والإثبات أفضل » . أبعد هذا ياسيدى تطالبنى بأن أطلعك أنت « على نص يوثق به يشير إلى أنهم منذ زمن الرسول (ﷺ) يقولون فى

التشهد : السلام عليك أيها النبى » ! عسى ولعل ، ولعل أهل القبلة أخطأوا جميعًا وأصبت أنت ! بما أوتيت من التدقيق والتحقيق والفحص وطلب المواثيق !!

وأما إنكارك الحديث على ماخَيَّلَتْ [١] لك ، وأنه مما لا يستشهد به أهل اللغة والنحو ، واحتجاجك على ذلك بشيء اقتطعته من بحث فى خزانة الأدب ج ١ ص ٦ ، ولم تتمه على وجهه بالتدقيق والتحقيق والفحص وطلب المواثيق كدأبك وعلى عادتك ، فهذا باب وحده لو ارتطمت فيه لم تعرف مخرجك منه . وما الذى ألجأك إلى هذا أيها العزيز ؟ ألأنى أتيتك بحديث المسند ج ٤ ص ٤٣٩ وفيه النص على أن المسلمين كانوا يبدأون التحية بقولهم « السلام عليك » ؟

والحديث الصحيح الذى استخلصه رواتنا رضى الله عنهم ، فنفوا عنه كذب الكاذبين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين حجة فى اللغة والنحو ، ولو زعم لك زاعم أنه لا يكون حجة فى اللغة ولا فى النحو فاعلم أنه مبطل ، وأنه غافل لا يدرى ما يقول . ولو رجعت إلى الخزانة التى نقلت عنها (وحسبك ولا أزيدك) علمت أن صاحبك نقل الذى نقلت لى فى كلامك ، وأنه رجل عالم طالبُ حق لا مغرور بباطل ، فقد ذكر وجوه اعتراض المبطلين فى الاحتجاج بالحديث ثم نقضها حجة حجة ، وصرح بأن تدوين الأحاديث وضبطها وقع فى الصدر الأول من الإسلام قبل أن تفسد اللغة وترتضخ الألسنة باللكنة الأعجمية ، كما يعلم ذلك من درس تاريخ رواية الحديث وتدوينه حقّ دراسته ، ثم صرح فى آخر كلامه بأن لا فرق بين جميع روايات الحديث مهما اختلفت ألفاظها ، فى صحة الاستدلال بها فى اللغة والنحو . وكنت حقيقًا أن تقرأ كلَّ هذا قراءة طالب العلم ، فلا تسألنى أن أغلق باب الاستشهاد بالحديث ، من أجل كلمات رويتها لم تحسن وضعها فى مواضعها .

وإلا فحدثنى أيها العزيز لم ترى علماء اللغة ، كصاحب اللسان ، وابن الأثير ، والزمخشرى صاحبك وصاحب كتاب الفائق ، وسواهم ممن عرفت ومن لم

---

(١) على ما خيَّلت : على غَرَر من غير يقين ، وأصله مثل ، وتمامه : على ماخيلت وَعْثُ القَصيم .

تعرف - يملأون كتبهم استشهادًا بالحديث على معانٍ لم توجد فى غير الحديث ، ولو طلبت لها شاهدًا من الشعر أو غيره لم تجد . فإما أن يكونوا هم المبطلين ، وإما أن تكون أنت على حق ، فنبطل من أجلك نصف اللغة ونصف النحو وأشياء أخرى كثيرة .

ثم انظر إلىّ أيها الصديق ! ألست أنت الذى تقول هذا ، وتقول لى أيضًا فى صدر من كلامك معلّما ومنبّها ومقرعًا إنه « فاتنى أن الحديث لا يستشهد به أهل اللغة والنحو » . هو أنت أنت الذى لم يلبث فى آخر كلامه أن يأتى بشىء يناقض هذا كل المناقضة ، فنقلت كتاب رسول الله إلى المقوقس ، وهو من الحديث ومما رواه المحدثون ، وكتابه إلى كسرى ، وهو من الحديث ، وكتاب أبى بكر إلى المرتدين ، وهو من رواية أهل الحديث ، ثم أردفت ذلك بقولك : « ومعلوم أن هذه الكتب مُدَوّنةٌ ويستشهد بها اللغويون والنحاة » ؟! ياعجبا كل العجب ! فمن الذى روى لك هذه الكتب ؟ أليسوا هم الذين رووا لك الحديث ، وحديث التشهد ، وحديث السلام فى المسند ؟ وأين دوَّنت هذه الكتب إلا فى الكتب التى دوّن فيها الحديث ؟ ومافرق ما بين تدوين الحديث وتدوين هذه الكتب ؟

وإن كنت قد ارتضيت هذه « الكتب المدوَّنة » حجة يوثق بها ، فخذ كتاب الزمخشرىّ صاحبك ، وهو المسمى بالفائق ج ٢ ص ٣ ، اقرأ فيه وفى غيره أيضًا : « من محمد رسول الله إلى بنى نهد بن زيد . السلام على من آمن بالله ورسوله ...» إلى آخر الكتاب ، ولم يعترض الزمخشرى أيضًا على هذا البدءِ ، ولم يقل إنه خطأ فى اللغة ولا فى النحو .

ثم خذ صاحبك الطبرى ج ٣ ص ١٥٦ الذى نقلت منه كتاب رسول الله إلى المقوقس ، وكتاب أبى بكر ، وصاحبك « كتاب صبح الأعشى » ج ٦ ص ٤٦٥ ، الذى نقلت عنه كتاب الرسول إلى كسرى ، ثم اقرأ هداك الله : «لمحمد النبى رسول الله ﷺ من خالد بن الوليد . السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ... » إلى آخر الكتاب .

فهل قنعت أيها العزيز بما سقت إليك ؟ وأمحضك النصح أن لا تتبع تلك

الناجمة التى نجمتْ بين أهل اللغة تريد أن تتبجح بالعلم والمعرفة والفقه ، فتأتى صواب الناس ترميه بالخطأ على الشك والتوهم وسوء التأويل وفساد الفهم . واعلم أن العربية تعلِّم العقل ، فمن شاء أن يطلبها بحقها فليصبر عليها صبر المؤمن . وأنت امرؤ فيك خير فلا تُضيع ما آتاك الله بالعجلة والتسرّع ، فتثبت قبل أن تحكم . وتدبر قبل أن تقطع ، واستقصِ قبل أن تستوثق ، وانظر لنفسك قبل أن تزلّ بك قدمٌ . واعلم أن شرّ أخلاق الناس اللجاجة ، وشرُّ اللجاجة لجاجة العالِم ، وشر لجاجة العالم لجاجته فيما لا يعلم أو فيما لا يحسنُ ، وأن نصف العلم قولُ المرء فيما لا يدرى : لست أدرى . فالفهمَ الفَهْمَ فيما تلجلج فى صدرك هداك الله وأعانك وسدّد خطاكَ . والسلام عليك ورحمة الله .

* * *

هـــــزل ... !

يخيل إلىَّ أن بين قلمى والليل صبابةً أو هوًى قديمًا . فطالما رأيتنى أعقد الرأى والعزمَ نهارًا على شىء أجعل الكتابة له قيدًا إذا جَنَّ الليلُ ، فما أكاد أحملُ القلم وأبدأ حتى أرى القلم ينقض علىَّ رأيى وعزمى ويمضى إلى حيث شاء كما شاء ، فما يُبقى من آية النهار المبصرة شيئًا إلا طمسَهُ أو أزاله أو نكَّر من معارفه ، وما أظنّ إلا أن كل كاتب قد ابتُلِىَ من قلمه بمثل الذى ابتُليتُ به أو بشىء يقاربه . ومن أعسر شىء ألقاه من القلم أنى ربما بدأتُ الكتابة ، فإذا هو مِطواعٌ حثيثٌ لا يتوقف ، وإذا كلمةٌ مرسلةٌ إليه ليقيدها ، فإذا هو كالفرس الحرون قد ركب رأسه وأبى إباءً ، فلا أزال أترفقُ به واستحثُّه وأُديره بين أناملى لِيَلِينَ ما استعصى من طباعه ، ولكنه يأبى إلا لجاجة وعنادًا ، ثم ينزع إلى وجه غير الذى أردتُ ، وإذا أنا مضطر أن أعود من حيث بدأ هو لا من حيث أردتُ أنا أن أبدأ ، وعندئذ يمضى على هواه وعلى ماخيّلتْ . فقد عرفت ذلك من عاداته قديمًا ، فما يكاد يفعل ذلك حتى أثوبَ إلى ورقة أخرى فأبدأ الكتابة من حيث أراد ، وأمرى لله . أفترانى أخطئ إذا أنا زعمت أن لقلم الكاتب شخصية مستقلة بل منفصلة تكاد أحيانًا تغلب حامله على رأيه وعلى تقديره وعلى عزائمه ؟ أم الإنسان المفكر صاحب العقل شىء آخر غير إنسان الكاتب حامل القلم ؟ فهو حين يفكر يُعطى أفكاره الحرية والسَّعة والحماسة مايجعلها أقدر على التصرف فى وجوه الرأى وشعابه ونواحيه ، فإذا حمل القلم ليملى عليه بعض أفكاره ، واستقل قلمه بالفكرة بعد الفكرة يزنها ويقدرها على قدر عقله لا على عقل حامله ، فربما عرض له أن ينبذ منها أو يتنقَّصها أو يتجافى عن طريقها فيسدَّ عليها المسالك ويضرب عليها بالأسداد ، ثم يشرع إلى وجه غير الذى يُرَاد له ؟ أم الإنسان إذا فكر ثم أراد أن يكتب وحمل القلم صار هو نفسه شخصًا آخر غير الإنسان المفكر بغير قلم

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩١) ، سبتمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٠٧٥ - ١٠٧٧

محمول ؟ كل ذلك ممكن ، ولكنه على كل حال مَتْعَبةٌ وشقاءٌ لحامل القلم مابعده شقاء ولا تعب .

وأعرف رجلا من أصدقائى الكتاب ، إذا حمل القلم وكتب كلمات ألقى قلمه ضجرًا يائسًا متململا من عُسر المدخل الذى دخل به على ما أراد ، فإذا عاد عاد القلم إلى جماحه وتعذره ، ولا يزال كذلك مرة بعد مرة حتى يرى قلمه قد رضى وأطاع ومضى إلى آخر حرف فى المقالة غير متوقف ولا متلعثم ، وقد قال لى : إنه ربما مضت الأيام على ذلك الحِران ، مع أنه يعلم مستيقنًا أن الفكرة كانت قد اختمرت واستوت وتهيأت له من قبل أن يحمل القلم بأيام ، وأنه كان يظن أنه لن يحمل قلمه حتى يراه قد انساب انسيابًا لا يعوقه شىء ، فإذا فرغ من كتابة ما أراد لم يجد أنه زاد قليلا ولا كثيرًا عما كان فكَّر فيه وعزم على كتابته . فأى سر هذا الذى ينطوى عليه القلم حتى يكون هو المتصرف الذى لا يردّ لما أرَادَهُ أمر ؟ قد تقول : إنه الحالة النفسية التى يكون عليها الكاتب ؛ وقد تقول : إنه الجو الذى تعيش فيه الكلمات التى يبتغى استنفارها من مكامنها ؛ وقد تقول أشياء كثيرة من هذا وأمثاله ، ولكن يبقى أنك لا تكاد تميز بعدَ الكتابة شيئًا من الاختلاف عما كنت قد فكرتَ فيه وأدرته فى نفسك وعرفت أنه قد أطاع لك ، فمن أين جاء هذا التوقف العجيب الذى تعتاده بعض الأقلام ؟!

وأنا قد جربت نفسى ، فرأيتنى إذا أردت أن أكتب أحيانًا شعرًا يدور فى قلبى ويلح على خاطرى ، فأمسكت أى الأقلام وقعت عليه يدى ، فإذا هو عصىٌّ عنيدٌ لا تلين له سنٌّ - أو قناةٌ على مايقولون - فإذا ألقيتُه وحملتُ القلم الذى اعتدتُ زمانًا أن أكتب به الشعر ، أو الذى اعتاد هو أن يكتب لى الشعر ، انطلق على سجِيته طيّعًا رفيقًا سهل المقادة حسَن التهدّى إلى قِبْلة الشعر . فأحبُّ الآراء إلىَّ أن أجعل للقلم شخصية منفصلة تعين الكاتب أو تعانده ، فذلك أشبه بالسلطان العريض العظيم الذى فرضته الأقلام على الحياة ، والذى لولاه لعاش الإنسان ومات وكأنه لم يوجد قط .

* * *

كنتُ أردتُ أن أكتب شيئًا عن المتنبى وعن حكمته وبصره بالحياة وبالناس وبما يعتلج فى القلوب على اختلافها ، وذلك لحديث جرى بينى وبين أحد ضيوف مصر من أهل العراق . وأردت أن أقارن بين ما يسمونه شعر الحكمة ، وبين حكمة المتنبى فى شعره ، وأين وقع منه سائر الشعراء ؛ فما كدت أبدأ حتى عرضت لى أبيات المتنبى التى يقول فيها :

إنما أنفسُ الأنيس سباعٌ يتفارسنَ جهرةً واغتيالا
من أطاق التماس شىءٍ غِلابًا واغتصابًا لم يلتمسه سؤالا
كل غادٍ لحاجةٍ يتمنى أن يكون الغَضَنْفَرَ الرئبالا

وذكرت عندئذ ذلك البيت الذى أحيتْه أم كلثوم حين غنت فى شعر شوقى :

وما نَيْل المطالب بالتمنِّى ولكن تُؤخذ الدنيا غِلابا
وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الإقدام كان لهم رِكابا

وأردت أن أعرض للفرق بين القولين ، وبين العبارتين ، وبين القوتين ، وبين البيانين . فأى دقة وأى هداية كانت لهذا الرجل الفذ الذى لو احتلت على بعض ألفاظه أن تجد لها بديلا فى كلامه لأفسدت معنى البيت وقوته وعبارته وبيانه ! فخذ مثلا لفظ « الأنيس » ، وتخير ما شئت من حروف اللغة وضعه حيث وضع المتنبى لفظه ، واقرأ وانظر وتدبر ، هل يليق أو يسوغ أو يلين أو يستقر فى مكانه من البيت ؟ ضع مكانه « الإنس » أو « البشر » أو « الناس » أو « الأنام » أو ما شئت ، سواء استقام الوزن أو لم يستقم ، تجد الفرق بين الاختيارين عظيما واسعًا . فهو قد اختار اللفظ والبناء الذى يدل دلالة على المؤانسة والرقة والتلطف وإظهار المودة والظرف وحلاوة الشمائل ولين الطباع ، ليظهر لك أنها تخفى تحت هذا كله طباعًا وحشية ضارية مترفقة حينًا وباغية أحيانًا ، فمهد للصورة التى أرادها باللفظ الذى لا يستغنى عنه فى دقة الصورة وحسن بيانها . فأين هذا من ضعف شوقى الذى لم يزد على أن جمع كلمات رُصّ بعضها إلى بعض لا حاصل لها ولا خير فيها . وما قيمة ذكر الركاب ، مع الإقدام والاستعصاء والمنال ؟ وأما

البيت الأول « وما نيل المطالب » ، فهو كلام عامى دائر على الألسنة ، ولا فضل فيه ، بل هو أشبه بتقرير ضعيف عن معنى ليس بشىء .

وعندئذ عرض لى أنا أن هذا الفعل من شوقى هَزْلٌ للمعانى ، وهزل فى طِلابها ، وهزل فى إدراكها على وجهها . وإذا هذا القلم يسألنى - أو يأبى إلا أن يذكرنى - بأن الهزلَ الذى كان فيه شوقى خير من كل هذا الهزل الذى أصبحنا وأمسينا نعيش فيه . فالدنيا تجدُّ من حولنا ونحن نهزل ، ولا نكاد نجد من كبار رجالنا أحدًا قد نهض به جَدُّه وجِدُّه فى ناحية إلا وقد سقط به هزله فى ناحية أخرى . وأن أشدّ البلاءِ من مثل هذا الرجل أن يُلبس عليه حتى يظن أن هذا الهزل هو أجدُّ الجدّ ، لأنه ظن أنه ما بلغ إلا بجدٍّ كان فيه طبيعة مغروزة فظن حتى صار ظنه حقًا عنده .

ولسنا نحب أن نطعنَ على الرجال بالحق فضلا عن الباطل ، ولكن بلادنا فى كل مكان من مصر إلى الشام إلى لبنان إلى فلسطين إلى العراق إلى بلاد الهند إلى أندونسيا إلى الجزائر وتونس ومراكش ؛ قد أحست شعوبها أن ساعة الجِدِّ قد آذنت ودنتْ ، وأنها ساعة إذا أفلتت فلن تعود إلا بلاء وعناء وشقاء . ومع ذلك فالرجال والزعماء وأصحاب الرأى أيضًا ، وهو أشد البلاء ، وقد ركَّبُوا فى رؤوسهم أُذنًا من طِين وأُذنًا من عجين - كما يقول المثل العامى - فما يسمعون حسيس النار التى تشتعل فى صدور أبناء هذا الشرق إلا كحشرجة الميت ، فهم يعالجون أمورنا على صورة من اليأس والملل ، كأنما يرجون الظفر بأى شىء كان ، ماداموا يحسبون أنهم إذا رفعوا لأعين الناس هذا الذى ظفروا به ، وقالوا لهم لقد ظفرنا لكم بخير ما ترجون ، صدّقهم الناس وصفقوا لهم ومشوا فى ركاب مجدهم ، وجأروا إلى الله بالشكر على ما أنعم على أيديهم . فهم ليسوا طُلَّاب حق ضائع بل طُلَّاب مجدٍ كاذب ، يظنون أنهم يختمون به أعمالهم الصالحات .

فأى هزل كهزل رجال الهند مثلا ، وهم الذين عركوا ساسة الإنجليز مئة وخمسين عامًا أو تزيد ، ولقوا من خداعهم وكذبهم وتغريرهم وقسوتهم وشناعة أحقادهم ما لا ينسى مواجعه إلا غِرٌّ غافل ؟ وإذا الذين كانوا بالأمس نار الثورة

وضِرامها قد رضوا أن يستمتعوا بالحكم ويصيروا وزراء فى شعب مستعبد تدوسه أقدام الغاصبين ، وهو لا يزال يسمع منهم أن الهند جزء لا يتجزأ من هذه الإمبراطورية التى لا تغيب الشمس عن أملاكها - فأى هزل أسخف وأبعد فى الغفلة والسذاجة وسوء تقدير من هذا الحكم ؟ وفيمَ يدلس هؤلاء على إخوانهم الذين يعرفون كما يعرفون من خبايا النيات البريطانية التى تدسّ لهم السمَّ فى الدَّسم ؟ أو لم تكفهم العِبْرة التى لا تزال أختهم مصر ترفل فى أغلالها منذ سنة ١٩٢٤ إلى يوم الناس هذا ، حين قَبِل رجال الثورة أن يكونوا للناس حُكامًا تحت ظلال الغَصْب والاحتلال ؟

وأى هزل أشد على النفس الشاعرة مرارة وغضاضة من رجال قاموا من غفلتهم ومنامهم يسمعون الشعب كله ينادى الجلاء ووحدة وادى النيل ، أى ينادى بالحق الطبيعى الذى لا يحتاج إلى تفسير ولا بيان ولا شروط ، والذى ظلت مصر صابرة تهمس به أحيانًا وتصرخ به أحيانًا أخرى منذ سنة ١٨٨٢ ، وإذ هم يطالبون بالذى يطالب به الشعب ، ولكنهم لا يلبثون قليلا حتى يرضوا لأنفسهم أن يدخلوا من باب المفاوضة مع البريطانيين ، فلما دخلو داروا فيها كما تدور بهم ، وهم كانوا أولى الناس بأن يعرفوا بعد طول التجربة ماعرفه الشاب مصطفى كامل إذ قال لهم : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، لأنه أدرك المفاوضة معناها أن ينزل الضعيف عن أكثر حقه للقوى الطائش الباغى ؛ فما ظنك به وهو ليس بقوى طائش باغ وحسب ، بل أيضًا منصور مظفر قد خرج من الحرب وهو يظن أن الدنيا له وأنه وإن كان ضعيفًا بين الأقوياء ، إلا أنه هو الجبار العظيم [بين][1] الضعفاء ؟ وأنه سوف ينال من الأقوياء والضعفاء بحيلته وسياسته ما لا ينال بالعنف ، فلذلك آثر طريق المفاوضة ، واتخذ أعوانه لينيموا الشعب إليها حتى يهدأ ويسكن ويظن أنه بالغ ما يريد ؛ لأن الدنيا تغيرت ، ولأن العالم فى حاجة إلى نظام جديد ليس بينه وبين القديم شبه . وظلت المفاوضات أشهرًا وهى تسير فينا على

---

(١) زدت هذه الكلمة ليستقيم السياق ، فمكانها مطموس فى الأصول .

عكازتين كأنها هى الأخرى من ذوى العاهات الذين خَلّفتهم الحرب عُرْجًا وظُلَّعًا أو شرًا من ذلك . فأى هزل هذا ؟ أى هزل هذا الذى يؤمن به رجال يخالهم الناس من أصحاب العقل والحكمة وسداد الرأى فى المعضلات ؟ وماذا فعلوا منذ بدأوا إلا أن قدَّم الإنجليز مشروعًا وقدموا مشروعًا ؟ ولا يزالون كذلك إلى يومنا هذا . فهم إنما يتقارضون كلامًا لا يغنى عنهم ولا عن مصر . وفيم يتفاوضون ؟ ألا إن الحق بيّن والغصْب بيّن ، فقولوا لأصحابكم الذين تفاوضون إن مصر لا تريد إلا تحقيق هذه الكلمات : « الجلاء ووحدة وادى النيل » . إننا نريد مصرنا وسوداننا . إننا لا نريد منكم إلا أن تدعونا وشأننا ، اخرجوا من بلادنا ، فارقونا . قولوا ذلك وعلِّموا الشعوب بإيمانكم وإصراركم أن تكون أشد إصرارًا وإيمانا وأوفى شجاعة وأقدر صبرًا ، وإلا فسوف يأتى يوم يجدُّ فيه الشعب جدَّه ، فإذا الذى ظننتم أنه مجد لكم هو أبغض شىء إلى الشعب ، واعلموا أنه لا مجدَ إلا بِفِعَال ، والهزل مَخْبثة للفَعال ، فجدّوا إذن وعودوا إلى الإنجليز من حيث بدأوا بكم .

إن هذا الذى يحدث فى الهند وفى مصر حسرة للنفوس تطوى تحتها أسوأ مغبَّة ، فهل من رجال ينقذون بلادهم من شرّ هذه الموبقة المستطيرة ؟ إن الحكام والمفاوضين طُلاَّبَ المجد لن يذوقوا لذة المجد حتى يكون الشعب هو الذى يذوق لهم طعمه ، فإذا استكرهه ، فلا تخدعنهم الحلاوة التى يجدونها فى ألسنتهم ، فإنها مرارة الدهر وذلّ الأبد ، ورحم الله المتنبى :

مَن أطاق التماس شىء غلابًا   واغتصابًا لم يلتمسه سؤالا

فعلام المفاوضة ، وفيم السعى إلى الحكم ؟

* * *

بين جيلَين ... !

انتفض شعر المتنبى فرمى إلىّ بهذين البيتين ، وهما على بساطة لفظهما كالجبلين الشامخين فى تاريخ الحياة الإنسانية :

سُبِقْنَا إلى الدُّنيا فلو عاش أهلها مُنعنا بها من جَيْئة وذُهوبِ
تملَّكَها الآتى تملُّك سالبٍ وفارقها الماضِى فِراق سَليبِ

أفليس لمَلك الموت من عَملٍ إلا إخلاء الطريق للقادم ، حتى يتاح له أن يغدوَ ويروح فى الأرض التى ورثها عن السابق الذى مهّد له بمواطئه سبيل الحياة !! ولعلّ ملك الموت يَحارُ أحيانًا حيْرَة تديرُ رأسه فى الأمر الذى حمل أوزاره ، وكُلِّف بقضائه ، ولعله يرى أحيانًا أنه يزيلُ خيرًا كثيرًا ليخلُفه شرٌّ كثير ، فهو تَرَدُّدُ المتحسّر على ذاهبٍ هو [أَوْلَى] [(١)] بالبقاء من قادم ، ولكنه يقضى قضاءه الذى لا يجد عنه مَنْدُوحَة ولا مهربًا ؛ وهو ككل صاحب صناعة قد أَلِفها ودرِب بها ولا يجيدُ سواها ؛ فهو يعيش بها على الرضى وعلى السخط ، على الفقر والغنى ، وعلى الفتور والنشاط ؛ وهو كسائر الخلق مُيَسَّرٌ لما خُلق له ، ولو تُرك له أن يختار لاختار قديمًا كثيرًا على جديد كثير ، ولآثر ناسًا على ناس وحياةً على حياةٍ . ولقد أرثى أحيانًا لهذا المخلوق البائس الذى يسَّرهُ الله لصناعة الإفناء والإهلاك ، فإنه ولا ريب يرى ما لا نرى ويحس ما لا نحس ، ولربما كلِّف أن يقبض الروح من زهرة ناضرة لم تكد تستقبل الحياة . فهو يذوب لها رقة وحنانًا لما سوف تتجرّعه من غُصصه وسكراته وحشرجته ومكارهه ، فكيف يقسو على من هو بالرحمة أولى ، وبالبقاء أخلق من أُخرى لم يُبق فيها العمر المتقادم إلا الأعوادَ والأشواك والجذورالتى ضرَبت فيها الآفاتُ ، وبَرِم بها البِلَى من طول مُرَاغمتها له على العيش !

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩٢) ، أكتوبر ١٩٤٦ ، ص : ١٠٩٩ - ١١٠١

(١) لم يبق من الأصل إلا هذين الحرفين : لى ، فجعلتها كما ترى .

وكيف يفعل هذا البائس حين يعلمُ أنه قد دنا أجلُ عقل عبقريّ لم يتمّ عمله لخير هذه الحياةِ الإنسانية ، فهو مأمور أن يطفئ نوره ليخلُفَه عقل دَجُوجيّ لا يأتى إلا بالسواد والإظلام ؟ أتُرى أنامله ترتجف من الإشفاق والضنّ والبُقْيا على هذا السراج الذى أُمر أن يقطع عنه أسباب الحياة ؟ أم تُراه يفعل ذلك وهو مسلوب العقل والإرادة والإحساس كأنه قائد من رجال الحرب الحديثة ، لا عقل له إلا الحرب ، ولا إرادة له إلا الحرب ، ولا إحساس له إلا الحرب ، فهو كله حرب على الجنس البشرى شِيبه وولدانه ورجاله ونسائه ، لا يرحم صغيرًا ، ولا يوقِّر كبيرًا ، ولا يشفق على أمٍّ ولا ذات جنين ! أم تراه يعلمُ ما لا نعلمُ من خَبْءِ هذه الحياة الدنيا ، وأن جليلها الذى نجلُّه ونوقره هو أولى الشيئين بالمهانة والتحقير ، وأن الحقير الذى نزْدريه كان أولاهما بالتجلَّة والتوقير ؟ فهو إذن يؤدى عمله راضيًا عن نفسه وعما يعمل ، لا تزعجه الرحمة لما لا يستحق رحمة ، ولا يُمسك يده الإشفاق عما لايستأهل إلا الإرهاق والتعذيب . وكأننا نحن إنما نحبُّ ونبغض ونرضى ونكره على قدر إدراكنا وما بلغ ، لا على منطق الحياة المتطاولة الآماد والآباد ، فنرى الأشياء متصلة بمصالحنا ومنافعنا ، ومحصورة فى حاجات أنفسنا وآمال قلوبنا ، لا متماسكة ممتدَّة فى كهوف الأمس السحيق ، وسراديب الغد العميق .

فلو أن هذا المَلك كان ميسَّرًا لإدراك الحياة ومعانيها بمثل العقل الذى ندركها نحن به ، وكان كمثلنا فى تقدير الأقدار على قياس الحاجات والآمال الراهنة محجوبًا عن الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، لرأيناه يحرص أحيانًا على أن يُبْقى على بعضنا ويعجل أحيانًا فى القضاء على بعض آخر نظنُّ ويظنُّ معنا أنه لا معنى لبقائه فى هذه الدنيا ليكون زِحامًا من الزِّحَامِ لا عمل له إلا أن يَعُوق المتقدم ، ويعثرُ به الماشى ، ويتفلَّل من جرائه حدُّ الماضى المتعجل ، ولكان الناس يومئذ يأتون إلى الدنيا ليجدوها ممهَّدة من نواحيها لا يلقى لاحِقٌ عَنَتًا من وجودِ سابق ؛ ولا يصادف إلا طريقًا خاليًا لا يضطره إلى جهاد ولا حيلة ولا حذر ، ولا يحمله على النظر والتأمل والهمة إصلاح الفاسد والفكر فى أسباب

الفساد ، وبذلك يتعطل العقل وتقف الإرادة ويستنيم المرءُ إلى الراحة حين يرضى عن عمل من سبقه من الذين أبقى الموت عليهم لأنهم أهلٌ للحياة . وكذلك تنقطع مادة الحياة ، ويتفانَى الخلق بالرضى والقناعة كما يتفانون اليوم بالتسخُّط والطمع . بيد أن موت الرضى والقناعة شرٌ كله لأنه عقيم لا ينتج ، أما موت التَّسَخُّط والطمع فهو إلى الخير أقرب ، لأنه يبقى البقية الصالحة التى تستمرُّ بها الحياة متجددة على وجه الدهر .

ومن أجل ذلك قُدّر للآتى القادم على الدنيا أن يأتى منذ يولد وفى إهابه حبّ التملك والتسلط والأثرةِ والعناد واللجاج فى صغير الأمر وكبيره ، وكذلك الطفل . وقُدّر للذاهب الراحل عن هذه الدنيا أن يدلف إلى الغاية ، وقد نَفَض عن نفسه أحب أشيائها إليه فهو يؤثر الزُّهد والإيثارَ وسعة العقل وقلة المبالاة فى كبير الأمر وصغيره ، وكذلك الشيخ . فإذا الآتى مُتَمَلِّك سالب ، وإذا الماضى مفارق سليب .

فهذا هو تاريخ الصراع بين أجيال الناس كلهم ، والأمم جميعها ، والآراء بأسرها ، والمذاهب برُمَّتها ؛ إلى آخر هذا الحشد الحاشد مما يقع عليه الخلاف فى هذه الحياة الدنيا ، وليس يكون فيها شىء إلا كان مظِنَّة للخلاف . وهذا الصراع المُفنى هو نفسه سرُّ القوة المحْيية ، وهذا الجهاد المتواصل فى طلب الغلبة والظهور ، والنصر بين السالب والمسلوب هو الحياة . وهذا العناء الشديد الذى يلقاه الشباب حين يحتدم الصدام بينهم وبين أهل السنِّ من قدماء الأحياء هو تكملة الإنسان الجديد الذى يريد أن يتملك مواطئ أقدام الإنسان القديم الذى كتب عليه أن يرحل ويُفسح الطريق لمن هو أولى منه بالعيش وعليه أقدر : وقديمًا قال القائل :

لكلّ جديد لَذَّةٌ ، غيرَ أننى وجدت جديدَ الموت غير لذيذ

فيأتى الآتى إلى جديد الحياة ، فإذا هو بها مشعوف لهيفٌ ، وإذا هو نفسه جديد ، فهو معجبٌ بجديد نفسه ساخرٌ من قديم غيره ؛ وإذا سرُّ كل « آت » هو جدّته الموفورة ، وسرُّ الضعف فى كل « ماض » هو جدّته البالية . وللجديد نخوة

ونشوة وإرباءٌ [1] على القديم ، وفى القديم هيبة وذهول وتقصير عن الجديد ، والصراع بين القديم والجديد هو صراع على الحياة وعلى البقاء وعلى الخلود ، ولذلك لم يخلُ وجه الأرض قط من نِزَال دامٍ مفزع بشِع بين هذين الجبارين : الجبار الآتى الذى يريد أن يستأثر بالحياة ، والجبار الراحل الذى يلتمس لجبروته الخلود . ولا تزال الدنيا دنيا ما اصطرع هذان الجباران ، فإذا سكن ما بينهما فقد انطفأت يومئذ جمرة الحياة ، ولم يبق إلا رمادها .

ونحن اليوم أحوج ماكنا إلى حدّة الصراع بين الجبارين : جبار الشباب وجبار الهرم ، لأن الحياة التى حولنا تريدنا على ذلك ، إذا أغفلنا مطالب الحياة الإنسانية نفسها ، والتى لا بقاءَ لها إلا على مكاره النزاع والنزال والمصاولة . ولكن يخيَّل إلىّ أن جبارنا هذا الشابَّ لم يعرف بعْدُ أن اتخاذ الأهبة للقتال شىء لا غنى عنه لمن يريد أن تكون له العزّة والغَلبة ، وأنه ينازل جبارًا سبقه إلى الدنيا فعرفها وخَبرها واستعدَّ لها ، وصرف همه إلى درسها وتمحيصها ، وأنه قد بذل فى إبان شبابه من جُهد التحصيل والاستعداد ، ما غفَل هو عن مثله بين اللهو والعبث والآراء غير الممحصة ، وأخْذ الدنيا على أهون وجهيها وأيسرهما ، وعلى أن الصدق فيما قاله أسخف قائل : « اضحك يضحك لك العالم » !!

ليس معنى الصراع بين الجديد والقديم : هو أن ينازل أصغر الخصمين وأقلهما تجربة ، أكبرهما وأوفاهما تجربة ، وهو يضمر له فى نفسه الإزْراءَ به والتحقير له والاستهانة به وبسابقته فى الحياة ، كلا ، بل هو يحرص أشد الحرص على فهم خصمه ، وعلى معرفة حيله ، وعلى درس قوته ومواطن الضعف فيها ، وعلى أساليب معالجته للأشياء التى حازها بالنصر والغلبة على من سبقه . وذلك يقتضيه أن يجعل صدر أيامه وريِّق شبابه وقفًا على الدرس والتحصيل ورياضة النفس ، وتربية القُوَى ، وتعهُّد نفسه فى مراشدها وتجنيبها مغاويها ، فإذا فعل كان أهلا لمن ينازله ، وكان خليقًا أن يكتب له النصر عليه ، ولكن شاء الله أن يسلك جبارنا الشاب أضلَّ الطريقين .

---

(١) إرْباء : زيادة .

فماذا كانت العقبى ؟ بقينا إلى زمن نرى فيه الشيوخ الذين أكلَ الدهر جِدَّتهم ، وأبلى هممهم ، وأفنى حوافزهم ، وقطع دابر الحماسة من نفوسهم ، هم الذين يتولون تصريف الأمر فى غدِنا تصريفَ العاجز ، ويدبرون سياستنا للمستقبل تدبير الذاهل ، ويسيرون بهذا الشرق كله إلى رَدَغةٍ [١] موحلة يرتطم فى أوحالها الشيب والشبان جميعًا . وإلا فأين الشباب المبشر بالخير المهدى إلى طريق الرشاد ، ليكون لشيوخنا إذا عجزوا عَضُدًا ، وإذا قصَّروا باعًا ، وإذا سقطوا خلفًا ؟

إنى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ، ولكن لا أرى أحدًا

ومعاذ الله أن أكون ممن يُخْلى هذه الأمم من رجال شبان يدخل فى أطواقهم أن يغيروا وجه هذا الغد الذى نستقبله ، ومعاذ الله أن يلمّ بى اليأس ويتداخلنى القنوط ، فإنى لأرى فيهم رجالا لو هم صرفوا عامًا أو عامين فى التأهب لصراع الغد ، أى لصراع الحياة ، أى لإنقاذ بلادنا من خَوَر الشيخوخة ، وجبن الهرم ، وعجز السنِّ ، وضعف الكِبَر الطاحن ، ومن غرور هذه جميعًا بسالف تجربتها واحتناكها ، لأدركنا البغية التى يظن شيوخنا أنها محال ، وأنها طَفْرة ، وأنها جرأة وتقحُّم ، وارتماء فى مهاوى الهلاك .

أو ليس من أكبر العار فى هذا الزمن أن يكون الشرق الذى بلغ بفتيانه قديمًا ما بلغ ، هو اليوم مبتلى بفتيانه أشد البلاء ؟ أليس من الخزى أن يعرف أحدنا كيف تعاون شبابنا قديمًا وكهولنا وشيوخنا على فتح الدنيا ، فإذا خَلَفهم يتعاونون جميعًا شيوخًا وشبانًا وكهولا على ترك بلادهم وأرضهم لقمة سائغة لكل طامع ، ولحمًا ممزقًا بين يدى كل جزَّار وإن هان ؟

إن علينا نحن الشباب أن نوقر شيوخنا ونجلَّهم ونستفيد من تجاربهم ، وعلينا أن ننازلهم ونصارعهم ، ونأخذ من أيديهم المرتعشة ما يستقرُّ فى راحاتنا الثابتة التى لا تخافُ ولا تتهيب . علينا أن نأخذ حقنا أخْذ الكريم المقتدر ، من أقران نصارعهم ليموتوا موت الكريم البذَّال . وعلى هذا الصراع بين جيلينا يتوقف أمر

---

(١) الرَّدَغَة : الطين .

الخير الذى نبتغيه ، والاستقلال الذى نجاهد فى سبيله ، والعزة التى نسعى إلى اقتحام أهوالها .

وعلى شيوخنا أن يعلموا أنه لابد لهم من شباب شديد الأسر يشد أزرهم إذا ضعفوا ، ويخلفهم إذا هلكوا ولكنهم غفلوا زمانًا فتركوا النشء ينشأ بين أحضانهم ، فلم يسدّدُوه ولم يعاونوه ولم يعدُّوه لغدهم ، وقلبوا آية الحياة وبدَّلوا معناها ، فكانوا هم الصبيان حين تخلقوا بأخلاق الصبيان ، وأصرُّوا على حبّ التملك والتسلط والأثرة والعناد واللجاج فى كبير الأمر وصغيره !

هذه الأيام تمضى بنا سِراعًا ، فلنقدّر لغدٍ ، فإن مستقبل الشرق معقود بنواصى شبابه ، فإذا نَفَضَ عن نفسه غبار الكسل والمجانة واللهو ، كان إلى النصر أسرع ساعٍ ، وعلى الدنيا الجديدة أكرم وافدٍ .

* * *

اسلمي يامصر ... !

ظللتُ سنوات معتزلًا أو كالمعتزل ، وما اعتزلتُ إلا لأن الحياةَ أرادتنى على ذلك فأطعتها ، وليتنى مافعلتُ ! ثم جاءت أيام حتى كادت تقتلعُ جذور الحياة من أغمض أعماقها فى نفسى وفى قلبى وفى سائر بنيانى وحواسّى ، فانتبهت كالذاهل وأنا لا أدرى أحيٌّ أنا أم ميت ، وإن كان لم يشعر بما أشعر رجلٌ أو رجلان أدركا ما أنا فيه من مِحنة وشقاء . ثم انجلت الغمة وارتفعت الغشاوة ، وبدأتُ أرى الدنيا كما ينبغى لمثلى أن يراها ، فأقبلتُ عليها أتفحصها كأنى أقرأ تاريخًا جديدًا [لم يكن] (١) لى به علم ولا خَبر . ومن يومئذ آثرت أن أُغفل شأن الشعراتِ البيض التى تلتمع على فوديَّ نذيرًا وبشيرًا ، وقلت لنفسى : كذب والله علىٌّ بن جبلة الخزاعى . فإنى لأجد الشعرات البيض أخفَّ على قلبى محملا وأشهى إلى نفسى من كل ما استمتعت به فى صدر شبابى ، وكيف أشجَى بشىء قد جعله الله بديلًا من جنون الصِّبا وعُرَامِ الشباب (٢) . وأنا أسوق هنا أبيات علىّ بن جبلة ، وإن كان لاحاجة للمقال بذكرها ، لأنى أعتدُّها من أجود الشعر وأرْصنه وأحسنه تمثيلًا لمقدم الشيب ، وأدقه تصويرًا لإحساس الفزع الذى تتجرَّعه النفوس الشاعرة فى يوم الكريهة – يوم المشيب . قال يذكر الشيب وقد بلغ الأربعين :

ألقى عَصاه ، وأرْخى من عمامته
وقال : ضَيفٌ . فقلت : الشيبُ ؟ قال : أجلْ !
فقلتُ : أخطأت دار الحىّ ! قال : ولِمْ ؟
مضتْ لك الأربعون التُّمُّ ! ثم نزَلْ

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩٤) ، أكتوبر ١٩٤٦ ، ص : ١١٥٧ – ١١٥٩

(١) زيادة من عندى ليستقيم السياق ، ومكانه فى الأصل متآكل ، ولم يظهر إلا حرف النون موصولا بآخر هكذا : ـن .

(٢) عرام الشباب : قوته وعنفوانه .

فما شَجِيتُ بشىء ما شَجِيتُ به ،

كأنما اعتمَّ منه مَفْرِقى بجَبَلْ

ولست أُنكر أن عُلوّ السن بالمرءِ أمر ينبغى أن يلقى له باله ويتعهده حتى لا يؤخذ على سهوة وفى غفلة ، وأن الشيبَ هو النذير العريان . ولكن ما بالشيبِ من عارٍ ، فنحن إنما خلقنا لنحيا ونموت ، فلتكن حياتنا كلها كما بدأَتْ جهادًا متصلا جريئًا فى سبيلِ الغاية التى نفخ الله فينا من أجلها الروح . وقبيح بامرئٍ علمته الأيام ووعظته الأَسَى [١] – منذ كان أبوه الشيخ آدم إلى يوم الناس هذا – أن يجزَع أشفَّ جزَعٍ من منهل لم ينج سابق من ورُوده ، ولن يَنْجُوَ من وروده لاحق .

وليت شعرى ماذا يضيرنى من شيبة فى شعراتٍ ، إذا كان قلبى لا يزال غَضًّا جديدًا كأنه ابن الأمس القريب ؟ ولو قد كان ذلك ضائرى لقد هانت الحياة هوَانًا يجعلها أسخف وأخفّ وأضأل من أن أحفل بها أقل حفل . وكذلك عقدت عزمى على أن أضربَ فى مسالك الحياة حيث لا يعوقنى وقار غثٌّ ، ولا حنْبلية متزمّتة ، وحيث أخبرُ الحياة على وجهها الذى هى عليه اليوم ، لأعرف ما الذى ستكون عليه غدًا . فأسرعت إلى حلقات الشباب ممن تجاوزوا العشرين وأشرفوا على الثلاثين ، لأرى كيف يفكرون ، وانظر كيف يعملون ، وأعرف ماذا يدبرون ، وأعلم أين يستقبلون ، فرأيت ونظرت وعرفت وعلمت ، فأشفقتُ وأمَّلتُ ، وخفتُ ورجوتُ ، ولكنى على ثقة من أن رحمة الله أوسع من أن تضيق بأمة ضَلَّت فى بيداءِ هذه الحياة ، وقد خرجتْ تضرب فى جوانبها مطموسة البصر إلا ما شاء الله .

كان من أهم ما شغلنى أن أسمع ماذا يقولون عما يشغل الناس جميعًا فى هذه الأيام ، وأن أناقشهم فيما يقولون حتى أعرف خبء نفوسهم وضمائرهم ، وأن أنقل ما استطعت شيئًا مما يعتلج فى هذه القلوب الشابة التى تريد الحياة الحرة الكريمة – أى تريد الفطرة التى فطر الله الناس عليها . وينبغى لكل صاحب قلم أن

---

(١) الأَسَى : جمع أسْوَة ، وهو ما يأْتَسِى به الحزين يتعزى به ، وهى أيضا القُدْوَة .

يحرص أشد الحرص على بيان مايرى وما يُراقب ، فإن الجيل الماضى الذى صارت إلى يديه مقاليد الحكم فى مصر غافل كل الغفلة عن الآمال والآلام التى تساور القلوب المصرية الشابة ، وجاهل كل الجهل بالمولود الجديد الذى ولد فى أرض مصر وشبّ ونشأ واستوى وكاد يبلغ مبالغ الرجال . يقول قائل الشباب :

« لقد خرجت مصر كلها ، عالمها وجاهلها وغنيها وفقيرها ، تنادى يومًا ما باسم « الجلاء » وباسم « وحدة وادى النيل من منبعه إلى مصبه » وباسم البلد الواحد الذى هو « مصر والسودان » . والشعوب أو الجماهير إن شئت ، لا تعرف تفاصيل التاريخ ولا يهمها أن تعرف ، بل هى تحس وتدرك وتتمنى وتسعى وتفعل كل شىء بالإلهام الذى يسدّده الفطرة المستقيمة ، وهذه الفطرة المستقيمة إذا نظرت إلى شىء استوعبت لُبّه وطرحت نُفايته . ولقد نظر الشعب المصرى بفطرته المستقيمة فرأى دولة طاغية تحتل سماء بلاده وأرضها وبحارها ، بل تحتل أرزاقها المقسومة لأهلها من طعام وشراب ، وتشاركها فى نسمات الهواء بل تضيق عليها أيضا ، وتحرمها النفحة بعد النفحة من هذه النسمات ، وإذن فهى تمنع عنها ما هو مباح للوحوش فى مساربها ، والبهائم فى مراعيها ، والطير فى مسابحها . وإذن فلابد من أن تظفر بما يظفر به أدنأ الخلائق وأهونها على الناس وعلى الله ربّها وربهم وإذن فالشعب لن يعرف إلا كلمة واحدة هى : « الجلاء » ، ولا ينادى إلا بشىء واحد هو : « اخرج من بلادى أيها الغاصب » ، ولا يعرف من التاريخ ولا من السياسة ولا من البراعة والحذق فى الدهاء إلا أن هذا غاصب واقف بالمرصاد يغتاله ويغتال أسباب حياته ، ويرمى به فى الرغام ليعيش هو فى رغد وفى بحبوحة .

« قام الشعب فأسمع من كانت له أذنان ، فإذا فئة من محترفى السياسة ، ومن كل محتال عليم اللسان ، ومن كل وجيه زيَّنَه ماله وغناه ، ومن كل ذى صيتٍ رفعته الأقدار بالحق أو بالباطل – قد هبُّوا جميعًا مع الشعب يقولون بمثل الذى يقول ، فظنَّ الشعب أنهم قد صدقوا بعد ماضٍ كذَبَ على التاريخ وعليهم فرضى عنهم وأعانهم ، ولكن لم يلبث إلا قليلا حتى رأى الوادى يموج عليه بالحيَّات

والأفاعى والعقارب ، وكل لدَّاغ ونفَّاث وغدَّار ، فانتبه فزعًا يطلبُ النجاة مما تورط فيه من ثقة بأقوامٍ لم ينالوا يومًا ما ثقته ، ولا حمّلهم أمانته ، ولا رضى عن أعمالهم ولا سلَّم إليهم مقاليده إلا مرغمًا أو مغرَّرًا أو مخدوعًا . ثم بقى الشعب يترقب نهاية هذه المفاوضات العجيبة التى نالت فيها مصر كل شىء إلا الجلاء ، وحازت كل خير إلا الاستقلال ، ورأت كل عجيبة إلا عجيبة ارتحال الجيوش البريطانية ذات الزى العسكرى أو الزىّ المدنىّ » .

ويقول قائل الشباب : « إننى لا أعرف تاريخ القضية المصرية على الوجه المعقّد الذى يدلِّسُ به الساسة علينا ، ويدخلون المخافة والذعر فى قلوبنا . ولا أعرفُ من تاريخ هذه القضية إلا أن بلادى كانت توشك أن تكون قُبيل سنة ١٨٨٢ إحدى الدول العظمى فى العالم ، ثم إذا بأوربة كلها تتألّبُ على هلاكها وقتلها ، والولوغ فى دمِها بتحريض دولة واحدة قد امتلأ قلبها جشعًا وحقدًا . فلما ظفرت بما أرادت ، ذَادَتْ كل دولة عن طريقها . ورمت مصر غدرًا وخيانة فاحتلتها فى سنة ١٨٨٢ ، وحسدتها الدول ، وخافت مغبة احتلالها لأرض مصر ، فتألبت عليها وطالبتها بالخروج منها ، فوعدت أن تجْلُو عن أرض مصر جلاءً ناجزًا بعد أن تستقرّ الأمور ويتوطَّد سلطان العرش المزعزع ! وقامت مصر تطالب بالجلاء فوعدت أيضًا بالجلاء ، وظلت بعد ذلك تَعد وتَعِد وتَعِد وهى لاتمل وعدًا ولا تحققه ، إلى أن كانت سنة ١٩٤٦ ، فإذا هى تعلن الجلاء إعلانًا تامًّا صريحًا بيّنًا واضحًا ناجزًا سريعًا ، وتبدأ تجلو ، ولكن من غرفة إلى غرفة ، ومن سرير إلى سرير ، ولكنها لا تخرج من باب الدار إلى لَقَم الطريق [١] .

« ثم إننا نرى هذه الفئة التى اختالت فى ثياب « الزعامة » ومجدتها الصحافة وسمتها باسم « الزعامة » قد دخلت فى المفاوضات بينها وبين البريطانيين باسم مصر ، ومصر منها برَاءٌ ، فإذا بريطانيا تزعم للشعب أنها جَلت عن مصر ، فأخلت القلعة ، أخلتْ فندق سميراميس ! وكانت فيه القيادة العليا البريطانية للجيش البريطانى فى مصر ، وأخلت كذا ، وستجلو عن كذا ، لكنها تأبى فى المفاوضات

---

(١) لَقَمُ الطريقِ : وسطه .

إلا أن تبقى فى مصر لتشارك مصر فى الدفاع عن أرض مصر العزيزة – على بريطانيا بطبيعة الحال !

« أفتظن هذه الفئة أن الله قد سلب الشعب المصرى فطرته السليمة ، حتى تخدعه كل هذه الترهات الباطلة التى يرسلها كهنة السياسة من كهوف المفاوضات على وادِيه المحرَّم ؟ لئن ظنوا فقد خابت ظنونهم وباءوا بأخيب الرأى وأبعده عن مواقع الصواب . إن الذى بيننا وبين بريطانيا قد بان وتكشَّف لكل ذى بصر . نعم لقد مضَى على مصر دهر وهى مخدوعة بالمفاوضة ، مخدوعة بقدرة السياسة على نيل الحقوق المهضومة ، ولكن لم يبق فى مصر بعد اليوم شابٌّ فى قلبه ذرّة من إيمان بالحرية ، فى عقله ذرة من حسن التقدير وصدق التفكير ، إلا وهو يعلم صدق العِلْم أن المفاوضة معناها كذب القوىّ على الضعيف ، وذلة الضعيف بين يدى القوىّ . ونحن ننظر صابرين إلى هذا العبث الدائر بين رجال قد أحدُّوا أنيابهم ، وأعدُّوا مخالبهم ، رجال قد عرّضوا مقاتل أُمتهم لهذا الضارى المفترس ليقضم منها حيث شاء كما شاء ، ثم يقول للفريسة : لقد أعددت لك الأطباء والممرضين ليضمدوا جراحك ويحقنوا دمك ، ويدفعوا عنك عادية الرَّدَى ! وكذلك تكون شفقة الأسود الرحيمة !

« إن القضية المصرية أبسط قضيّة على وجه الأرض : غاصب قد أقرّت الدول جميعًا منذ سنة ١٨٨٢ أنه غاصب معتدٍ ، ومغصوبٌ لا يزال يصرخ منذ ذلك التاريخ ، ويقول لأهل الدنيا : أنقذونى . فما معنى الدخول فى المفاوضات بيننا وبين بريطانيا ؟ إن العالم كله مطالب بإخراج بريطانيا من مصر ، ونحن لا نحب أن نفاوض بريطانيا ولا ينبغى لنا أن نفعل ، بل الذى ينبغى هو أن نفاوض الدول كلها إلا بريطانيا فى شأن إخراج هذا الغاصب وإجلائه عن برّنا وجوّنا وبحارنا ، وفى صدِّه عن عُدوانه على أعراضنا وعلى طعامنا وعلى أرزاقنا وعلى أخلاقنا وآدابنا وثقافتنا ...

« إن بريطانيا دولة قوية ما فى ذلك شك ، ولكننا أقوى منها لأننا أصحاب حق . فليعلم هؤلاء المفاوضون أن مصر لن تقبل الدنيّة فى مستقبلها ومستقبل

أجيالها ، وليعلم هؤلاء المفاوضون أنهم لا يملكون التصرف فى رقاب أهل مصر الحاضرين ، ولا فى رقاب الأجيال الآتية ، وأنهم وإن كانوا مصريين كراما ، إلا أن مصر خالدة على وجه الدهر ، وهى أكرم منهم على أبنائها ورجالها الآتين . ونحن الشباب الناشىء نعرف أننا لن ننال لأنفسنا ولبلادنا حقها وحريتها إلا بالحزم والعزم وترك التهاون ، والإقلاع عن هذه الخبائث التى يسمونها المفاوضات ، ونسميها نحن المساومات . ونحن الشباب الناشىء نعرف أن الحياة لا معنى لها إذا خلتْ من الشرف والكرامة ، وأن الشرف والكرامة عندئذ هى الموت . فلنمت كِرَامًا صادقين ، فذلك خير من أن نعيش أذلّاء مستعبدين . ولتعلم هذه الفئة أنها تسير بمفاوضاتها فى وادٍ ، وأن الشباب يسير فى وادٍ غيره ، فليحذروا مغبة ما يفعلون ، وخير لبريطانيا أن تفهم هذا ولا تتجاهله ، فربما جاء يوم لا ينفعها فيه هذا التجاهل ، وكان خليقًا أن ينفعها الفهم وحسن الإدراك » .

هذا حديث الشباب أيها الشيوخ ، فاحذروا غدًا ، فإن القوة التى تتجمع فى الصدور قد أوشكت تنقض السُّدود التى رفعتها بريطانيا وشيدتها وجعلتكم عليها قُوَّامًا وحُرَّاسًا . أيها الشيوخ شاركوا الشباب قبل أن يأتى يوم لا يُغنى عنكم عقلكم ولا استبصاركم ولاتَلَبُّسُكم بأثواب السياسة ومُسُوحِ الحكمة وعمائم الوقار . وذلك يوم قد دنا أوانه .

* * *

بعض الذكرى .... !

كان ذلك منذ عشرين سنة ، وكنت فتى لا يملُّ الدُّؤوب والسعى ، وكانت أول مرة أدخل فيها بيت ذلك الشيخ [(١)] الضئيل البدن المعروق اللحم ، الذى ينظر إليك أبدًا كالمتعجب . وكان الذى سعى بى إليه حبٌّ قد ملأ قلبى له ، وإجلال قد أخذ علىّ العهد أن أفى لهذا الشيخ ما حييت وفاءَ الذكرى ووفاء العلم ووفاء الاقتداءِ ؛ وكنت يومئذ قد حضرت بعض دروسه فى مسجد البرقوقى ، وقرأت عليه شيئًا من كتاب أبى العباس المبرّد ، وكان يعدُّنى كبعض ولده لسابق معرفته بأبى رحمهما الله . وكنت يومئذ سقيم الجسم خفيف اللحم نحيل التجاليد ثائر الشَّعر ، فإذا لقيته فربما كان يقول لى : « كأنك آيبٌ من سفر بعيد أيها الفتى » . فكنت أفهم عنه ، فإذا انقلبت إلى الدار عدوت إلى المرآة لأرى ماذا حمل الشيخ على مقالته التى لم يزل يقولها لى ويدى على يده أو فى يده ، فما أرى سوى وجه شاحب ضامر ، وعينين غائرتين كأنهما تنظران إلى شىء بعيد فى جوف وادٍ سحيق عميق . فأقول لنفسى : هذا جُهْد التحصيل وكدُّ النفس فى قراءة هذه الأسفار القديمة التى تباعدت معانيها وتقادمت عهودها .

طرقتُ بابه فى ذلك اليوم على غير ميعاد ، ففتح لى صغير من حَفَدته وقادنى إلى غرفة الشيخ ، فإذا هو جالس على حشيّة على بساط كالح من تقادم الأيام ، وعلى يمينه خزانة كتب مطويّة فى جوف الجدار ، وأمامه صينيّة صفراء من نحاس فيها أداة القهوة ، وعلى يساره كتب مركومةٌ ، وفى يمناه قلم يكتب . فلما سمع حسّى رفع إلىّ بصره وسكن ، وظلّ كذلك ساعة وأنا بين يديه يأخذنى ماقرُب وما بَعُد من هيبته ، وجعل ينظر إلىَّ فأطال النظر ؛ ثم لم يلبث أن قال بصوت خافت ماكنت لأتبينه لولا أنى عرفت الذى يقول وكنت أحفظه ، وهى هذه

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩٦) ، نوفمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٢١٣ - ١٢١٥

(١) هو إمام العربية وحامل أمانتها شيخ أستاذنا سيد بن على المرصفى رحمهما الله .

الأبيات من شعر بعض الأعراب :

رأتْ نِضْوَ أسْفَارٍ ، أُميْمةُ ، شاحبًا
على نضو أسفارٍ ، فجُنَّ جنونُها [١]

فقالت : « مِنَ ايِّ الناس أنت ؟ ومن تَكُنْ
فإنك راعى صِرْمةٍ لا يَزِينُها [٢] ! »

فقلت لها : « ليس الشُّحوبُ على الفتى
بعارٍ ، ولا خيرُ الرجال سمينُها

عليك براعى ثَلَّة مُسْلَحِبَّةٍ
يَرُوحُ عليه مَخْضُها وحَقِينُها [٣]

سمينِ الضَّواحى ، لم تُؤَرِّقه ليلةً
- وأنعمَ - أبكارُ الهموم وعُونُها [٤] »

وكان الشيخ حسنَ التقسيم للشعر حين يقرؤه ، فيقف حيث ينبغى الوقوف ، ويمضى حيث تتصل المعانى ، فإذا سمعت الشعرَ وهو يقرؤه فهمته على مافيه من غريب أو غموض أو تقديم أو تأخير أو اعتراض ، فكأنه يمثله لك تمثيلا لا تحتاج

---

(١) نضو أسفار : مهزول قد أذابت لحمه الأسفار ولوحته البيد ، يعنى بالأول نفسه ، وبالثانى بعيره .

(٢) الصرمة : القطيع من الإبل والغنم .

(٣) الثلة : جماعة الغنم ، مسلحبة : أى منبطحة فى مراعيها قد اطمأنت شبعًا وريًّا . والمخض : اللبن الذى يستهلك فيه زبده فلا يكاد يخرج منه زبد ، وهذا أطيب ألبان الغنم وأمرؤها على البدن . والحقين : هو اللبن يجمع فى السقاء ويصب رائبه على حليبه ، فهو غذاء حسن ، وذلك كله كناية عن طيب مطعم هذا الراعى وحسن مشربه ، فهو فى خفض ونعمة .

(٤) الضواحى : مابرز من الإنسان كالمنكبين والكتفين ، يريد ممتلئ البدن من الراحة والدعة وسكون النفس . والأبكار : جمع بكر ، وهى المرأة لم تتزوج بعد . والعون : جمع عوان ، وهى المرأة كان لها قبل ذلك زوج . أما قوله : « وأنعم » فهى كلمة معترضة أراد بها أن قد طال على ذلك الراعى ما هو فيه من خفض ورغد وراحة ورفاهية حتى ربا وسمن وزاد ، فلم يشغله شيء يضنيه أو يأكل من بدنه .

بعده إلى شرح أو توقيف ، وكان فى صوت الشيخ معنى عجيب من الثقة والاقتدار ، وفى نبراته حين ينشد الشعْر معنى الفهم للذى يتلوه عليك ، فلا تكاد تخطئُ المعانى التى ينطوى عليها ، لأنها عندئذ ممثلة لك فى صوته . والصوت الإنسانىّ هو وحده القادر على الإبانة عن المعانى الخفية المستكنَّة فى طوايا النفوس أو فى أحاديث النفوس .

وربَّ رجل أو امرأة تسمع كلامه أو كلامها وأنت لا تعرف عن أحدهما شيئًا ، فيخيّل إليك وأنت تسمع أنك قد نفذت على نبرات هذا الصوت إلى أعمق الأعماق المدفونة فى هذه النفس الإنسانية التى تحادثك ، وهذا شىءٌ لا يكون إلا فى ذوى النفوس الصادقة الصافية البريئة من حشو الحياة وسفْسافها ، وهذه النفوس وحدها هى القادرة على أن تجعل الصوت بمجرَّده لغةً مبينة عن أغمض المعانى التى تعجزُ لغات البشر عن حملها وأدائها .

وأنت محتاج حين تسمع « لغة الصوت » أن تكون يقظ النفس حىَّ الإحساس ، نفَّاذًا إلى المعانى المتلفِّعَة بالغموض ، حسن التيقظ للنبرات التى تدل على ضمير اللفظ ، سريع الخاطر فى إدراك هذا الموج المتلاحق من الحركات المختلفة . فإذا كان الذى تسمعه كلامًا يُتلى أو يُنشد كالشعر مثلا ، وكان الذى ينشده قد عاش ساعة فى معانيه حتى تلبَّس بها ونطق لسانه معبّرًا عن لسانها وعن لسان قائلها الأول ، كان عليك أن تكون ليّنًا طيِّعًا سريع التبدُّل جرىء النفس فى غمرات العواطف ، حتى يتاح لك أن تعيش أنت نفسك فى هذه المعانى ساعة تتلى عليك وعندئذ تغشاك غمرة لذيذة تدبُّ فى غضون نفسك ، فتحسُّ كأنك تُبعث بعثًا جديدًا فى حياة جديدة حافلة بالصُّور التى قلما يدركها العقل إلا مُشوَّهة مشيَّأةً [١] متخالفة التركيب ، فلا يزال يجهدُ فى تلفيق أجزائها حتى لايبقى من أصولها الحيَّة الصريحة الصادقة شىء البتة . فإن استطعت يومًا أن تجد فى نفسك أنك مستطيع أن تكون على هذه الصفة ، فقد فهمت الشعر ونفذت إلى أغواره ، وإن عجزت عن بيان ما فيه .

---

(١) المُشَيَّأ : المختلف الخَلْق المُخْتَلُّه القَبيح .

وفى الناس ناسٌ ، وقليلٌ ماهمْ ، قد أجادوا « لغة الصوت » إجادة بارعة ، وإن كانوا فى أكثر الأحيان لا يدركون أنهم يحسنون منها شيئًا ، وذلك لطول ما انطوَوْا على أنفسهم حتى غمروها فى بحر النسيان . وربما سمعتَ أحدهم وهو يتكلم ، فما يكاد ينطق حرفًا أو حرفين حتى تحسَّ كأن كل معانى نفسه تنسربُ فى نفسك واضحة بيِّنَة ، وأنك قد عرفت منه ما يكاد يخفيه عن الناس جميعًا ؛ لأنه متكبر أو قانط أو هيَّاب جزوع ، وهذا الضرب من الناس هم أشد خلق الله حرصًا على إخفاء آلامهم ، وأبعدهم رغبة فى الاستمتاع بالعذاب الذى يقاسونه ، لأنهم يظنون أنهم بذلك قد حازوا النصر على آلامهم ، وعلى الناس أيضًا ؛ إذ استطاعوا أن يواروا عنه خبءَ ما فى نفوسهم الحزينة المعذبة .

* * *

لما سمعتُ الشيخ رحمه الله ينشد تلك الأبيات ، تمثَّلت لعينى تلك المأساة الخالدة بين الرجل الصادق والمرأة التى أحبَّها ، وكانت تطمع أن يكون لها كما خيّلَت لها أوهامها ، وأن يأتيها بتحقيق أحلامها - أى أحلام حواء منذ كانت حواءُ على اختلاف العصور وتباين الحضارات . فهذا أعرابيٌّ محب لصاحبته « أميمة » التى ذكرها فى شعره ، فدارت به الأيام فى فيافى الحياة ملتمسًا ما يحقق به أمانى هذه المرأة المحبوبة ، ثم عاد إليها وقد أذابت البيد منه ما أذابت بظمئها وشمسها وجوعها ومخاوفها . فلما رأته شَاحِبًا مهزولا رثًّا أسوأ حالا مما عهدته ، أنكرته وقد أثبتته معرفة . فجنَّ جنونها لأنها محبةٌ قد أخطأت فى الرجل الذى تحبُّ كل ماكانت تؤمله ، وخانها ماكانت تتمثله فى أحلامها من صحة وشباب وأناقة وجمال . وما أسرع ما تتنكر المرأة إذا خاب ظنها وتبددت أحلامها ، وفاجأتها الحقيقة العارية بالشىء الذى يخالف ماكانت تتوهم !

كانت المفاجأة صارخة فى نفس أميمة ، فلم تلبث أن غلبتها تلك الطبيعة المتقلّبة الغدَّارة التى طال عهد المرأة بها ، فأظهرت كأنها لا تعرفه ولم تلقَه ساعة من دهر . وجرى على لسانها ذلك الحديث الذى يرويه لنا المحبّ ، فقالت : مِن

أيّ الناس أنت ؟ ولم تقف عند هذا فأبدت الفزعِ منه لئلا يخونها ما فى حنايا ضلوعها فيظهر على لسانها فعادت تقول : ومن تكنْ ؟ ولكن أنَّى للمرأة الضعيفة التى زلزلت المفاجأةُ بنيانها أن تكتم حقيقة نفسها ؟ لقد كانت منذ هنيهة تسأله سؤال الجاهل من هو ومن يكون ، فإذا بها تنهار من شدة ما تعانى من اهتزاز كيانها ، فتقول له مقالة الناقد الساخر ، محاولة أن تبدى عن احتقارها وازدرائها لما ترى ، فزوَتْ عنه وجهها وهى تقول : لو كنت رَاعِىَ إبل لكنت خليقًا أن تنكر النفوسُ والأَعْيُن ما ترى من حقارتك وبذاذتك (١) ، فكيف ترجو أيها المحب المغرور أن تكون حسنًا فى عين من تحبُّ ، وأن تكون زينًا لامرأة أحبتك ؟ وهكذا المرأة - إلا من عصم الله ...

فهم الشاعر المحبُّ مرمى كلامها فأنف لنفسه ، فانطلق يسخر منها بعد أن تكشَّف له ضمير المرأة الغادرة . فقال لها : ليس الشحوب على الفتى بعارٍ ، ولا خير الرجال سمينها ، وإذا كان شحوبى قد ساءك وآذاك حتى أنكرت منى ما تعرفين ، فنعم ولك العُتْبى علىَّ . عليك بمن يزينك . اطلبى لنفسك راعى غنم قد اطمأنت به وبها الحياة ، فعاش خافضًا وادعًا لاهمَّ له إلا بطنه ، حتى امتلأ وتضلّع وغدا سمينًا بضًّا جميلا كأحسن ما تأملين ، فأنتن أيتها النسوة إنما تحببن من الرجال الزينة وحدها ، كأنكنَّ إنما تتخذن الرجال حليًا لا أصحابًا ولا أزواجًا . وهكذا المرأة ، هى لضعفها تؤثر لحياتها كل ظاهر يدلُّ على القوة فهى تؤثر البدن القوى على البدن الضعيف ، وتؤثر اليسر على الخصاصة ، وتؤثر القناعة على الطموح ، وإن كان قلبها يؤثر بالحب ذلك الضعيف الفقير الطمّاح الذى أضرَّ به الكدح ، ولكن قلب المرأة هو آخِر ما تهتم له إذا جاءها بمن لا ترضاه لحياتها ؛ فالمرأة مفتونة بكل مايدل على القوة الظاهرة ، ولا تكاد تبالى شيئًا بالقوة المستكنَّة كالعلم والعقل والجهاد والصبر ؛ لأنها تريد أن تحيا حياة مطمئنة محفوفة بما يحسدها عليه النساء سواها لا أن تحيا مجاهدة فى عذاب حبيب مجاهد .

---

(١) البذاذة : رَثاثَة الهيئة .

ومنذ سمعتُ الشيخ ينشد تلك الأبيات ، وقفتُ على كلمة فى هذا الشعر لا أزال أعجب لها وهى : « أبكارُ الهموم وعُونُها » « أبكار الهموم » ! يالها من كلمة عبقرية ! إن مزيَّة هؤلاء الأعراب البُدَاة على سائر من نطق بالعربية هى هذه الجرأة العجيبة التى تنقضُّ على اللغة فتنفضُها نفضًا وتختار من ألفاظها كلمة تضعها حيث تشاء ، فلا تراها تقلق فى مكانها أو تضطرب ، وهم بذلك يختصرون المعانى كلها فى كلمة واحدة يخبأون فيها أحلامهم وخيالهم وأحاسيسهم وأسرار قلوبهم ، كما خبأ هذا الأعرابى كل ماكان فى نفسه فى « أبكار » ، ودلَّ بها على المعانى التى كانت تضطرم فى قلبه حتى أضنته ومسحت وجهه بالشحوب ، وعرقت لحمه بالهزال ، وصيَّرته إنسانًا مُنكرًا فى عين من يُحب .

فهذا الأعرابىُّ الجرىء ، والمحب المزدَرَى ، والساخر المستخفُّ عندئذ بالناس وبالنساء وبالحياة ، قد أراد أن يُعْلِم « أميمته » الباغية أنها إذا كانت تؤثر عليه امرأً غضًّا ناضرًا ناعمًا لم تؤرِّقه هموم النفس ولم يُضرَّ به الكدح فى بوادى الأحلام والآلام والآمال ، فإنه غنىٌّ عنها ، وعن سائر نساء العالمين – وأن أمثالها لسنَ له بهمٍّ ، وأن له من حاجات نفسه وهمومها « أبكارًا » كأبكار النساء و« عونًا » كعونها ، فهو راض بها وبما يلقى فى سبيلها من أرقٍ وسُهادٍ . وأراد أن يُعلمها أنه لا يأسى على مافاته من بِكْرٍ ولا عوانٍ ، فإن للنفس الشاعرة همومًا « أبكارًا » لم تمسسها يدٌ ولا فكرٌ ولا حُلُم ، تجد النفس المحبة فيها مايجد المحبّ فى العذراء الحييَّة العصيَّة من فتنة وجمال ونضرة وشباب ، ولا يزال يداورها ويحاورها ويشقى بالسعى فى طِلابها شقاءً لذيذًا له فى القلب نشوة أو سُعار ، وهى « أبكار » لا تزال عذراء على وجه الدهر لا تغيِّر منها الأيام شيئًا ، ولا تُنيل الطالبَ المحبَّ إلا متاع الحبِّ المجرد من شهوات الأبدان ، بل هى تغتذى بالأبدان فتضنيها وتنهكها لتبقى هى أبدًا أبكارًا .

وللنفس أيضًا هموم « عُون » قد أصاب الناسُ منها ما أصابوا ، ولكن بقيت منها للنفوس الشاعرة بقية فاتنة بما فيها من دلال وكبرياء وقدرة على الامتناع عند

الإمكان ، ونُبْل فى الخضوع والتسليم عند العجز ، فهى تداور صاحبها وتحاوره حتى تشقيه شقاءً لذيذًا ثم تُنِيلُه مايشاءُ حتى يرضى .

ولقد عجبتُ للشيخ يومئذ وهو يكرّر : « لم تؤرِّقه ليلة ، – وأنعمَ – أبكارُ الهموم وعُونُها » فقد كان فى صوته ما جعلنى أنسَى أنى لم أزلْ واقفًا أنصِتُ لدبيب هذه الحياة فى جو الغرفة ، ثم خرجتُ من عنده ولا يزالُ صَدى صوته يردِّد فى نفسى تلك الكلمات المصورّة المبدعة : « أبكارُ الهموم وعُونُها » .

* * *

نافقَاء اليَرْبُوع

لى صديق ، أطال الله بقاءه ، يعيش فى الدنيا وهو خارج منها . هذا غاية نَعْته وصِفته : « يعيش فى الدنيا » وهو حريص عليها ، لاحرصَ البخيل الذى يجمع المال ، ولا حرصَ المستمتع المستهتر باللذات ، ولا حِرْصَ الطامح الطامع فى الخلود ، كلا هو حرصٌ على حِدتِه وعلى حِياله لا يُشبهه فى الناس إلا القليل . هو حِرْصٌ على التعجُّب منها ومما فيها ، وهو حرصٌ على النظر فى الأشياءِ والحيرة فى فهمها ، واضحة كانت أو مبهمة ، وهو حرْصٌ على استيعاب الحياة كما هى عند الناس من نُظرائه ومن غير نظرائه . ولا يخرجُ من كل هذا الحِرْص الشديد على الدنيا التى تحت عينيه إلا بطول التساؤل وبتنازُع الحيرة ، وبالخوف مما كان ومما لم يكن . هذه واحدةٌ .

وعجيبٌ أنه أبدًا مولَعٌ بهذا الحرص وَلوعَ المحبّ بحبٍّ جديد . وهو نفسه يعلم أنه حرص عقيم لا يجدى عليه شيئًا فى معرفة الدنيا ولا فى التثبُّت من شىء من أحوالها ، ولكنه يزدادُ به على الأيام وَلُوعًا وكلفًا وغرامًا حتى يستهلك نفسه فى السؤال والبحث والتقصّى عن أشياءَ لا تغنى عنه شيئًا ، ولا يغنى عقله فى إدراكها ، ولا يغنى قلبه فى الإيمان بشىء منها . وهو يأبى أن يُلقى عن كاهله هذا العبءَ الثقيل الفادح ، وإن كان يثق كل الثقة بأنه شىء لا جدوَى من حَمْله ، ولا من الصَّبر على بلواه . هذه ثانيةٌ .

وثالثة الأثافىّ ، كما قال أسلافنا ، أنه إنسان حىُّ النفس قابلٌ للتلقِّى ، فكل شىء من حوله يثير فى نفسه الفضول ، وينشُر عليه ذلك الحرصَ الشديد على المعرفة ، مجديةً كانت أو غير مجديةٍ ، لا يبالى ، فإذا هو كالمغموم إذا اعترضه مايعوقُه عن الاستقصاءِ. وأشدُّ من ذلك هولًا أنه لا يكادُ ينسى شيئًا مما ائتمنَتْه نفسه على استقصائه ، إذا قطعه ذلك العارض البغيض إلى نفسه ، فإذا عادَ إلى

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٦٩٨) ، نوفمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٢٦٩ - ١٢٧٠

ما لابدَّ له منه عاد أشدَّ رغبة فى النفاذِ والاستقصاءِ والبحث . فهو بذلك مُعَانٌ على الحرصِ على الدنيا وما فيها بالذى انطوت عليه جوانحه ، وبالذى فطرت عليه نفسه ، فهو لا يرى خلاصًا ، أو لا أرى أنا له خلاصًا ، من هذه العادة المتمكنة ، أو هذه الخصلة الكامنة فى أعمق أعماق طبيعته .

فهو بهذا الذى وصفت : « يعيش فى الدنيا » ، ولكنه « خارج منها » بشىءٍ آخر ، وإن كان متصلا بهذا كله أشد الاتصال . فهو لا يكادُ يعبأُ بنفسه شيئًا ، بل هو لا يعرف أن له نفسًا موجودة ، أو أصحُّ من ذلك أنه يشك كل الشك فى وجود نفسه ، فهو أبدًا مختلَسٌ من نفسه بالبحث عن نفوس الناس . وهذه مَثْلبة الفضول ، فإنها تمنعُ المرءَ عن التأمل فى نفسه ، فإذا أراد أن يتأملها فكأنما يتأمل شيئًا غريبًا ليست بينه وبينها وشيجةٌ أو آصِرةٌ أو عاطفة . ومن أجل ذلك تراه يدور من حياته هو فى مثل الحلقة المفرغة لا يدرى من أين بدأ ولا أين انتهى ، ولا يعرف أهذا هو الحق فى فهم نفسه أم الحق سواه . ويذهب ويعود فى البحث ولكنه لا ينتهى إلا إلى شىء واحد هو أنه لا يدرى .

كنتُ على وشك أن أكتب شيئًا حين أسرع هذا الصديق إلى التلفون ليسألنى هل قرأتَ جريدة « المصرى » ، وماجاء فيها من الذى سمّته « النص الحرفى لمشروع اتفاقية صدقى - بيفن ، ولبروتوكول الجلاء والسودان » : وذلك فى عدد الأحد ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، وكنت قد فرغت لساعتى من قراءته ومن التعجب لما جاء فيه . وأنا لا أستطيع أن أطمئن إلى نصٍّ مخْتَلس لا أدرى أحقٌّ هو أم باطل ، ولكنى قرأته فإذا لم يكن هو النص فكأنه هو ، لأنه أشبه مُعْوَجٍّ بحقيقة العوَج . ولا أظن أن الإنجليز يبلغ بهم صدق الطبيعة أن يقولوا فى السياسة شيئًا على وجهه وعلى استقامته . فلذلك خُيّل إلىّ أن فى هذا النص طرفًا من الحقيقة الدالة على طبيعة الاعوجاج فى ألسنة هؤلاء الساسة الإنجليز ، ولست أعجل إلى مثل هذا النص المختلس فأقول فى عبارته قولا ، فإن العجلة فى مثل هذا شىءٌ لاغناء فيه ، كما لا غناءَ لك فى إقناع الإنجليز بأن الحق الذى لك هو حقك ، إذا كان الإنجليزى يرى أنه ليس حقًّا لك ، وإن ظاهرتْك الدنيا كلها على حقك .

ونحن منذ كانت سنة ١٩١٩ أخذنا نجهل كيف يعامَلُ هؤلاء الناس ، فإن ذلك الخَطَل الذى ضَرَب على آذاننا وأبصارنا وقلوبنا ، والذى يسمونه « المفاوضة » قد جرَفنا فى عُباب مُتلاطم من الحيرة والضلال ، فما نكاد نبصر ولا نعى ولا نعقل شيئًا من حقيقة هذا الشعب الإنجليزى أو ساسته الذين يتصرفون فى أمور الدنيا كأنهم وارثوها وأصحابها الذين تلقَّوْا مقاليدها من يَدِ الله القدير العزيز . وكنت أظنُّ أن التجارب قد حنَّكت رجالنا فعرفوا مواعيد هؤلاء القوم ، وأدركوا كيف تكون مواثيقهم منذ علا أمرهم فى الأرض ، وكيف كان تاريخ معاهداتهم منذ كان لهم شأن فى هذه الدنيا يكتبون من أجله المعاهدات . بيد أن ذلك لم يكن ، لأن رجالنا يستضعفون أنفسهم ، ويظنون أن هذا الشعب لا يمكن أن يظفر بحقه إلا بمداورة الإنجليز والترفق فى معاملتهم ، حتى ينالوا من أيديهم ماتيسَّر ! وهذا عجبٌ ! بل هو غفلةٌ ، بل هو كدْح أحمقُ فى سبيل لا شىء . فقل لى بربك كيف يستطيع إنجليزى أن ينزل لنا عن شىء هو يريدُ أن يؤمن بأنه حقٌّ له ، وإن كان حقًّا موروثًا متحدّرًا مع أصل البشرية كلها ، وهو الاستقلال والحرية ! ...

خلق الله فى دوابّ الأرض دابة يسميها العرب اليَرْبُوع تكثر فى بلادهم ، وهى نوعٌ من الفأر قصير اليدين جدًّا ، وله ذنب كذنب الجُرَذ يرفعه صُعُدًا ، وفى طرفه شبْه النّوَارة ولهذا اليربوع أسلوب فردٌ فى حياطة نفسه وأموره ، حتى إنه يتخذ لعشيرته رئيسًا يقف حارسًا على جِحرَة اليرابيع يحميها ، فإذا قَصَّر فى الحراسة ، وهجم على اليرابيع من جراء غفلته وإهماله هاجمٌ أفزعها أو أضرَّ بها ، انقلبت على ذلك الرئيس فقتلتْه وأقامت غيره مقامه . ويتخذ كل يربوع منها جِحرَةً يلوذ بها ، ويجعلها سبعةً لها سبعة أبوابٍ . فيبدأ أول ما يبدأ بالجحر الذى يسمونه « الرَّاهطَاء » فيغطيه بالتراب حتى لا يبقى منه إلا على قدْر ما يدخل الضوء منه إلى جحره هذا ، ثم يحتفر جحرًا يسمونه « الحَاثِيَاء » يحثو عنده التراب برجليه ليخفى مدخله ثم يحتفر آخر يسمُّونه « الدَّامَّاءُ » لأنه يُدَمِّمه بتراب نَبِيثَته [1] حتى لا يَنْفذَ

---

(١) النبيث : التراب الذى يستخرجه من الحفَر .

منه عدُوّ ، ثم ينشىء جحرًا آخر يقالُ له « العانقاءُ » يملؤه ترابًا ، فإذا فجأه ما يخاف اندَسَّ فيه إلى عنقه . ثم يَحْفر « القاصِعاء » وهو جحرٌ يسدُّه سدًّا محكمًا لئلا يدخل عليه منه حيّة أو دابة . ثم يحفر « النافقاءَ » ويجعل على فَمه غشاءً رقيقًا ، فإذا أُخِذ عليه بقاصعائِه عدَا إلى هذه النافقاء فضربها برأسه ونفق منها ومرق خارجًا . ثم يجعل سابع سبعةٍ جحرًا يقال له « اللُّغز » يجعله بين القاصعاءِ والنافقاءِ، يحفره مستقيما إلى أسفل ، ثم يعدلُ به عن يمينه وشماله عُرُوضًا تعترض ، يُغَمِّيه ليخفى مكانه بذلك الإلغاز ، فإذا طلَبه طالب بعصًا أو سواها نَفَق من الجانب الآخر .

أفرأيت إلى كل هذه الحيطة وكل هذا التدبير ! فإن تعجبْ فإنك واجد فى الخُلُق الإنجليزى أكثر من هذا مداورةً وتَفَلُّتًا وإلغازًا ومراوغه . والإنجليز أنفسهم يعلمون أنهم كذلك وأنهم يخفون فى سرائرهم ما لو اطَّلعْت عليه لاستصغرت من احتيال هذه الدابة ما استكبرت . ومن أراد أن يدخل على الإنجليز جِحرَتهم وقع فى مَتاهة لا يدرى معها من أين ولا إلى أين . فمن العجيب الذى لا ينقضى عجبه أن يظن رجالٌ من رجالنا أن فى طوقهم أن يراوغوا الإنجليز فيستولوا على جحراتهم المحتفرة فى طبائعهم وأخلاقهم وعقولهم .

إن معنى المفاوضة والمعاهدة بيننا وبينهم هى أن يسعى الإنجليز جهدهم حتى تطمئن إليهم ، فإذا فعلت أخذوا بيدك وقادوك إلى مثل جحرة اليربوع ، فيدخلون بك من واحدٍ إلى ثان إلى ثالث ، حتى إذا خُيل إليك أنك قد تمكنت منهم « نفقوا » من نافقائهم بأسهل مما كنت تتصوَّر . وهكذا شهدنا وعرفنا وخبرنا منذ احتلّوا بلادنا فى سنة ١٨٨٢ ، فوعدوا الدنيا كلها - لا نحن وحَسْب - بالجلاء الناجز ، ولكنه ظلَّ وعدًا إلى هذا اليوم .

وجاءونا اليوم يعدوننا أيضًا أن يَجْلوا عنا بعد عام أو عامين أو ثلاثة - أىَّ ذلك كان . فمن الذى يصدق هذه اليرابيع ! ومن شفيعهم وضمينهم فى كل هذا ؟ أهو الخطُّ المكتوب ، أم اللفظ المنطوق ، أم سوابق العهود المؤكدة والمواثيق الغليظة !! إنها لغفلةٌ أن يرى امرؤ نفسه أقدرَ على خديعة هذه اليرابيع من قدرتها هى على خديعته . وليس يعلم شيئًا من ظن أن الإنجليز ينفضون أيديهم من شىء

هو كائن فى أيديهم . الإنجليز يرابيعُ بالطبع والممارسة ، حتى إن « النِّفَاق » الذى علمته فى أخلاق اليرابيع ، قد صار أيضًا خُلُقا من أخلاقهم يشهدون هُمْ به على أنفسهم ، ويشهدُ عليهم به تاريخهم منذ كان لهم التاريخ . وهذا النفاق المطبوع هو الذى جعلهم أقدر شعوب الأرض فى كل شئون السياسة . وما مواعيدهم ، ولا معسول ألفاظهم ، ولا روعة دعوتهم إلى الحرية ، ولا كمال إخلاصهم فى تحرير الجنس البشرى من غوائل النازية ، ولاصبْرهم على المكاره فى سبيل المثل الأعلى للإنسانية – كل ذلك ليس ببعيد عنا فى زمن الحرب الماضية . لقد نطقوا بكل شىء ، ولكنهم لم يحققوا شيئا مما نطقوا ، فكيف نرضى لأنفسنا أن نؤمن بأنهم فاعلون معنا شيئًا لم يردّهم خجل ولا حياء عن نكث مثله وإخلافه ، بل أكبر من ذلك أنهم فعلوا نقيضه ودافعوا عن فعله بمثل القوة والبلاغة التى كانوا يزيّنون بها لأمم الأرض أن تُعينهم فى أيام محنتهم وبلواهم !

ومن عجائب الإنجليز أنهم يعلمون علمًا ليس بالظن أنهم معتدون متغطرسون ظالمون ، يأكلون الحقوق أكلا لا يرعون فيه حرمة ولا ذمة . ومع ذلك فهم من طول ممارستهم للنفاق قد انتهوا إلى أن أقنعوا أنفسهم بأن هذا الاعتداءَ وهذه الغطرسة وهذا الظلم ليس له وجود حقيقىّ ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أنهم وحدهم دون سائر العالمين أهل العدل والنَّصَفة والتواضع ، وأنهم هم الذين جاءوا إلى الدنيا ليردوا الحقوق إلى أهلها ، وأنهم هم القُوَّام على هذه الرسالة السامية . ولذلك ترى كلام رجالاتهم كلامًا نَيِّرًا مضيئًا فاتنًا ساحرًا إذا عرضوا لمعنى الحرية وما أطافَ بها ، ويُخيل إليك أن إيمانهم بهذه المثل العليا إيمان لا يعتوره نقصٌ . وهذا حق ، ولكنهم إذا جاءوا إلى تنفيذ مايقولون رأيتهم أهل بغْى وعُدْوان فيما ترى ويرى الناس ، ولكنهم هم يصرُّون على أن هذا هو الحق الذى لا محيصَ لك ولا للناس عن الأخذ به ، تقول : وإن كان بغيًا وعدوانًا ، فأقول : وإن كان بغيًا وعدوانًا !

والإنجليزى يرى أن هذه الأمانة التى حُمِّلها هى الأمانة ، وأنه مؤدِّيها على وجهها ، فإن أنت خالفته وزعمتَ له أنه يجورُ عليك جورًا عبقريًّا قال لك : إنك

شديد المُماكَسَة [١] مولَعٌ بالجدال ، ويحاول أن يبسُط لك الأمر بسطًا حتى تقتنع بأنه غير ظالم ، بل هو العادل الذى لا يعرف العدل أحدٌ سواه . ومن شاء أن يناقض هذا الذى أقوله فلينظر إلى حُجَّة هذا الشعب فى موقفهم أو احتلالهم للهند . وفى احتلالهم لمصر من أجل الهند . فالهند مستعبدة ظُلمًا وجورًا ، وهم يريدون أن يحللوا بقاءهم فى مصر ، لأن فيها قناة السويس ، وهى التى تؤدى أو تسهل الطريق إلى بلاد الهند . فإذا خرجت القناة من أيديهم كان ذلك وبالا مستطيرًا على مصالحهم فى الهند ! فينبغى عندهم أن ترضى مصر بالأمر الواقع ، وهو بقاؤهم حراسًا على القناة ، لئلا تضيع مصالحهم فى البلاد التى استعبدوها واستذلوها وأفقروا أهلها وأكلوا أموالها وأعروْا ذَرَاريها ، وهتكوا الستور عن أحرار نسائها . ياله من منطق ! وهل فى طاقة أحدٍ أن لا يقتنع برأيهم فى حفظ كيان هذه الإمبراطورية الضخمة ! كلا بل ينبغى أن يُطيع العالم وأن يَسمع . فلو أن الإنجليز فرَّطوا لهوَى العلم البريطانى إلى الرغام فى أرض الهند ، ولبقيت الهند عارية لاتجدُ هذا الدفءَ الحلو اللذيذ ، ولا هذا الظل الوارف الناعم الذى ينشره عليها علم بريطانيا !

فحدثنى أيها الصديق ماذا تريد بعد ذلك أن أقول لك فى هذه المعاهدة التى تريد إنجلترا أن توقعها مصر راغمة أو راضية ! دَعْ عنك الحيرة ، ودع عنك تقلب الرأى ، واختر لى أنت رأيًا أصير إليه . وإلا فإنى أقول لك كما قلت دائمًا : إن المعاهدة بيننا وبين بريطانيا ، هى أن ندخل معها فى جُحر اليربُوع حتى إذا استقرَّ بنا المقام قليلا « نفقتْ » كما يمرق اليربوع من نافقائه إذا سُدّت عليه المسالك !

* * *

(١) المماكسة : المشاكسة . والمماكسة أصلها فى البَيْع وهى انتقاص الثمن واستحطاطه والمنابذة بين المتبايعين .

ساعة فاصلة ... !

إذا المرءُ لم يحْتَلْ وقد جَدّ جِدّه ... أضاع وقاسَى أمرَه وهو مُدْبِرُ
ولكن أخو الحزْمِ : الذى ليس نازلا ... به الخطْبُ إلا وهو للقصْدِ مبصرُ
فذاك قريع الدهر ، ماعاش ، حُوّلٌ ... إذا سُدَّ منه مَنْخِرٌ جاشَ مَنخرُ [١]

وأيُّ خطب !! فنحن أمة قد عاشت أكثر من أربع وستين سنة تجاهد عدُوًّا لدودًا ، واسع الحيلة ، كثيرَ الأعوان ، ينفثُ سمه حيث مشى ، ويُخفى غوائله ليكون فتكه أخْفى وأنكى وأشدَّ . فاتخذ لنفسه من صميم هذا الشعب رجالا خدعهم عن عقولهم ، وزيَّن لهم أن يعملوا فى الدسيسة للأرض التى أنبتتْ عليهم شحومهم ولحومهم وحملتهم على ظهْرها هم وآباءَهم وأبناءهم وذَرَاريهم ، وأظلَّتهم سماؤها بالظلِّ الوارف الظليل ، وسكَبَتْ فى نفوسهم سرَّ الحياة ، وسقاهم نيلها بدَرِّهِ الذى اشتدَّت عليه أبدانهم وأحوالهم ، ومهّد لهم من المتاع ما أطغاهم ، وكان خليقًا أن يملأ قلوبهم شكرًا ، وألسنتهم حمدًا وثناءً . وزاد فأطلق فى جنَبات هذا الوادى أسرابًا من صعاليك الأفاعى الأجنبية ، أَخافت الوَادِع ، ولدَّغت السليم ، وذادَتْ عن سُهول هذا الوادى كل حيٍّ من أبنائه حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبتْ وضاقت عليهم أنفسهم . ولم يزل ذلك دأبنا ودأب عدوِّنا حتى أتاح الله الحرب العالمية الأولى فاستعلن من ضغينته وبغضائه ما اكتتم ، وأعلن الحماية على أرض مصر . فلما خرج ذلك العدوّ من لأوائها [٢] منصورًا مظفَّرًا ، لم يبال الشعب المصرى العزيز بسطوة ولا بأسٍ ولا قوةٍ من حديد

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٧٠٠) ، ديسمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٣٢٣ - ١٣٢٦

(١) قريع : فعيل فى معنى مفعول ، وهو الذى قرعه الدهر بنوائبة مرات حتى جرَّب وتَبَصَّر . حُوَّل : الواسع الحيلة ، يفتنُّ فيها ، فلا يُؤْخَذ عليه طريق .

(٢) اللأواء : الشِّدَّة .

ونارٍ ، فثار ثورته العجيبة فى أوائل سنة ١٩١٩ ، وما كان يخيّل للعدو الباغى أن ذلك شىءٌ ممكن ، وبعد لأى ماتحقّقَ من أنه شعب حديدُ العزم لا تُرْهبه القوة الباطشة ولا العدوان الغشوم . فاحتال له حيلة أخرى يفرّق بها بين الرجل وأخيه ، والأب وبنيه ، والأمِّ وفلذات أكبادها ، فرمانا بالداهية الدَّهياءِ التى جعلت الناس يختلفون بينهم على غير شىء إلا الحُكم والسلطان ، وتدسَّس إلى قلوب الرجال شيطانٌ مريدٌ هو : تلك الحزبية والعصبية للأشخاص ، فكادت تنقض بناءَ هذه الأمة حجرًا حجرًا .

ثم كان من رحمة الله أن جاءت الحرب العالمية الثانية ، فخرج منها عدوُّنا مرة أخرى منصورًا مظفرًا ، فلم يبالِ الشعب المصرى وخرج يقول له : « اخرجْ من بلادى ، وردَّ علىّ جنوب الوادى » وكادَ يكون ماكان فى سنة ١٩١٩ ، ولكن العدو كان أسرع حيلة وأرشق حركة ، فنَصَّبَ رجالا منَّا ليحملوا بلادهم على سبيل مضَلَّة . فكانت هذه المفاوضات الخبيثة التى ظلَّت تدور شهرًا بعد شهرٍ إلى غير نهاية إلى يومنا هذا ، بيد أن الشعب نفسه ظل هادئًا متربصًا طوال هذه الشهور وهو عالمٌ أن المفاوضة كلامٌ لايغنى فتيلا ، وأن « الجلاءَ » حقٌّ لا ينازعه فيه أحد ، وأن ضَمَّ السودان إلى أخته مصر حقٌّ لن يعوقه عنه بطشٌ ولا جبروت ، وأن الحرية حقُّ البشر منذ يولدون إلى أن تُطمَّ عليهم القبورُ . ومضت الأيام والشعبُ يسمع لجَاج المفاوضة وهو غيرُ راضٍ ، ولكنه استنكف أن يحولَ بين طائفة من أبنائه وبين ما يظنون فيه الخير لبلادهم ، فتركهم يعملون ليعرفوا أخيرًا ما عرفه هو بفطرته النقيّة : أنْ لا خير فى مفاوضة الغاصب القوىّ حتى يردّ على المغصوب الضعيف ماسلَبَ منه ، وأن الإباء هو خُلُق الأحرارِ ، وأن العزْمَ هو المنقذ من ضلال السياسة ، وأن اجتماع الكلمة على الجهاد فى سبيل الحق هو الخلاصُ وهو سبيل الحرية .

وقد انتهت الآن هذه المفاوضات وجاءنا المشروع الذى يرادُ لنا أن نصدّق عليه ونقبله ، فللأمة حقُّها اليوم أن تقول كلمتها ، ولكل مصرىّ أن يقول كلمته ، وليس لهيئة المفاوضة ولا لرئيس الوزارة أن يفتاتَ على حقّ الشعبِ بشىء

لا يرتضيه الشعبُ ، فإن هذه ساعة حاسمةٌ فى تاريخ الشعب المصرىّ ، بل ساعة حاسمة فى حياة أبنائنا الذى يدبُّون على الأرضِ ، وحياة النّسْل المصرى الذى يسرِى فى الأصلاب حتى يأتى قدرهُ وإنه لهوْلٌ أى هول أن ينفرد رجُلٌ أو فئة من رجالٍ بالتصرُّف فى هذه الأنفُس البشرية كأنهم أصحابها وخالقوها والنافخو الحياة فى أبدانها . فالله الله أيها الرجال فى مصاير بلادِكم وأبنائِكم وورثة المجد القديم الذى يطالبهم كما يطالبنا بأن نعيش أحرارًا فى بلادنا ، وبناةً لأمجادِنا ، وحَفَظَةً على تاريخ أجدادنا . وليأذن لنا أولئك الذين يظنون أنهم كما قال الشاعر :

وعلمتُ حتى ما أُسائل واحدًا　　　عن عِلْمِ واحدة لكى أزدادها

وليأذن لنا أولئك الذين يظنون أنهم مالكو رقابِ هذا الشعب بمالهم أو جاههم أو سلطانهم ، وليأذن لنا أولئك الذين هانت عليهم أنفسهم فضاقوا ذرعًا بإباء هذا الشعب أن يكون ككلْب الرُّفقة يشركهم فى فضلة الزَّادِ ، فإذا ضجروا به قالوا له اخسأ أيها الكلب ، وليأذن لنا المخلصون من الكُتاب الذين يظنون أن التساهل والتغاضىَ لا بأسَ به ما دُمنا لا نملك أسطولا ولا طائراتٍ ولا سلاحًا ولا قنابل ذرّية ، وأنه لذلك لابد لنا من أن نحالف حليفًا قويًا ينصرنا إذ بُغى علينا ، ويردّ عنا إذا زحف عدو إلينا - ليأذن لنا أولئك جميعًا أن نتكلم بلسان مصر المظلومة المهضومة ؛ فإنها هى وحدها التى ينبغى أن تنطق وتقول ، فإن قولها هو القول الفصْل ، لا قول العلماء الذين يرون أن لا علم إلا علمهم ، ولا قول أصحاب المال والسلطان ، ولا قول المتهاونين الذين يرضون من نيل الحق أيسر ما ينال .

إن هذه المعاهدة الجديدة التى تمخضت عنها المفاوضات الطويلة تقوم على أربعة آساس :

الأول : أن الجلاء سيتم بعد ثلاث سنين .

الثاني : أن تعد مصر بأن تقوم مع إنجلترا بالعمل الذى تتبيَّن ضرورته فى حالة تهديد سلامة أى دولة من الدول المتاخمة .

الثالث : مجلس دفاعٍ مشترك يقرّر الرأى فى الذى سموه « تهديد السلامة »

وجعلوا له حق تنظيم الأسباب التى تسهّل مهمة اشتراك الجيش المصرى مع الجيش الإنجليزى فى الحرب .

الرابع : أن تكون الأهداف الأساسية فى مسألة السودان هى تحقيق رفاهية السودانيين وتنمية مصالحهم وإعدادهم « إعداد فعليًّا » للحكم الذاتى ، وممارسة حق اختيار النظام المستقبل للسودان ، وإلى أن يتم ذلك بعد التشاور مع السودانيين تظل اتفاقية سنة ١٨٩٩ سارية وكذلك المادة ١١ من معاهدة ١٩٣٦ - هذا محصَّل ماتقوله المعاهدة الجديدة .

ومصر تقول إنها لا تثق بالمواعيد الإنجليزية المتعلقة بالجلاء فقد بلتْ ذلك أكثر من ستين عامًا فلم تر إلا شرًّا ، وإنها لا تريد أن تُقِرّ ساعة واحدة للإنجليز بالبقاء الشرعى فى بلادها فكيف ترضاه وتوقع عليه وتعترف بشرعيته ثلاث سنوات طوالا . ونقول إن تحديد السنوات خداع وبيل العواقب غير مأمون البقاء فإنها لا تدرى ماذا عسى أن يكون غدًا أو بعد غدٍ ، وإن الإنجليز قادرون إذا شاؤوا على الجلاء فى أقل من ستة أشهر جلاء كاملا عن كل بقعة من بقاع هذا الوادى ، فالإطالة مُرَادَةٌ لنفسها لأسباب جهلها من جهلها وعلمها من علمها . وقبيح بامرئ ذاق الذل من وعود الإنجليز ستين عامًا أن يجهل شيئًا عن مثل هذا الوعد المدخول المكتم بالأسرار .

أما الأساس الثانى : فإن مصر تقول إن بلاء البلاد المتاخمة لمصر هو كبلائها مِثلا بمثل . فالإنجليز هم الجاذب الداعى إلى أن يعتدى عليها معتدٍ طاغٍ يريد أن يضرب إنجلترا فى مكامنها ، كما كانوا سببًا فى عدوان الألمان والإيطاليين على مصر فى الحرب الأخيرة السالفة . فلماذا يريد الإنجليز أن يتخذونا أعوانًا وأنصارًا على إذلال جيراننا ، وأن يجعلونا نعترف ضمنًا بأن لهم حق الدفاع عن هذه البلاد التى سلطوا عليها بَغْى استعمارهم ؟ ولماذا تسفك مصر دماء أبنائها فى سبيل المحافظة على هذه الإمبراطورية التى ملأت رحاب الأرض جورًا ؟

ثم إن هذا العدوان إذا وقع ، فهو النذير العريان بالحرب العالمية الثالثة ، والمعتدى فيه معروف منذ اليوم للإنجليز ولغير الإنجليز . والأسباب الداعية إلى

انفجار هذا البارود راجع إلى أسباب أخرى غير الرغبة فى التوسُّع . وهو جشع الاستعمار القائم اليوم فى هذا الشرق الأوسط والشرق الأدنى والهند . يوم يقع هذا العُدوان فالدُّنيا كلها ستهبّ هَبة رجل واحد ، ولا يدرى أحدٌ منذ اليوم كيف يكون الأمر غدًا وأين تكون مصلحته ، فعلام تريدنا إنجلترا أن نتعجَّل ، وأن ندخُلَ نحن فى حروبها التى ضرَّمتْ نيرانها منذ كانت ، وأن نفرض على أنفسنا منذ اليوم قيدًا لعلّ غدًا يأمرنا أن نعود إلى خلافه حتى لا نكون طعمة للمنصور إذا كانت إنجلترا هى الخاسرة ؟ أليس يقول لنا ذلك المنصور يومئذ ، لقد قاتلتمونى وحاربتمونى فأنا أستحلّ دياركم وبلادكم وأقداركم بحكم الفتح ؟ فماذا تقول مصر يومئذ ؟ ومن زعَمَ أن سياسة الدنيا سوف تجرى غدًا على النهج الذى جرت عليه حتى اليوم ، فقد أنكر عقله وأنكر تلك القوى العاملة التى تؤثر فى سياسات العالم . ثم لماذا تريد إنجلترا أن تكون قيِّمةً على مستقبلنا ونحن شعبٌ حيٌّ حرٌّ يريد أن تكون بلاده ملكا له ليتوخى لها مراشدها التى ينبغى أن يتوخاها ؟ وإذا كان الإنجليز يؤمنون بأن مصلحتنا غدًا ستكون فى أن نكون معهم يدًا واحدة ، فعلام الجزع إذن ؟ أو يظنون أننا نخرج غاصبًا من بلادنا ثم ندعها نُهْبى تتعاورها أيدى لصوص الأمم فلا نؤازرهم فيما نرى أن لنا فيه منفعة وصلاحًا ؟ اللهم إن الإنجليز يعلمون أننا على حق فى هذا كله وأنهم هم المبطلون ، وإنما يريدون بهذا النص أن يمكثوا فى بلادنا سادة يستضعفوننا ويمنعوننا أن نفعل فى بلادنا ما نريد ، أى أن نظل أمة لا جيش لها ، ولا مصانع فيها ولا قوة لها ، وأن تظل « مجالا حيويا » لها ولأشياعها وأفاعيها من نفايات الأمم وحثالات الشعوب ، وأن يكون وجودهم بيننا معوانًا لهم على تفريق كلمتنا وتشتيت قلوبنا ، وأن يظل المصرى يحس بهذا الإحساس القبيح الذى يوهن القوى ، وهو أنه غريب فى بلاده .

أما الأساس الثالث : فهو باطل كله لأنه مبنى على الثانى ، ولأنه شىء لا مثيل له فى تاريخ معاهدات الدنيا كلها ، ولأن أخطاره على مصر أخطار موبقة ، فإن كلمة القوى هى العليا ؛ فإذا قلنا لإنجلترا إننا نرى كذا وكذا ، وقال إنجليز هذا المجلس : كلا إن هذا ليس لنا برأى ! فمن يكون الفَيْصل بيننا يومئذ ؟ أليست

هى قوة الإنجليز نفسها ؟ وإذا كانت مصر تخرج اليوم من استعباد خمس وستين سنة ، فهل تظن أن الرجال المصريين الذين سيضمهم هذا المجلس ، سوف يكونون أو يختارون إلا ممن ترضى عنهم إنجلترا وتقول إنها تستطيع « العمل معهم » ؟ هل يظن غير هذا عاقل ؟ يالهذه من سخرية بنا وبعقولنا وبعقول كل من يقرأ هذه السفسطة الإنجليزية ! .

أما الأساس الرابع ، فإن مصر لم تعترف قط باتفاقية سنة ١٨٩٩ ولن تعترف بها ، وهذه المعاهدة تريدنا أن نعترف بها ، وتريدنا أيضا أن نرضى سَلفًا عن أبشع المبادئ التى لاعقل فيها . وهى بتر جنوب مصر عن شمالها . فالسودان ليس أمّة نحن مستعبدوها بل هى جزء من مصر من أقدم عصور التاريخ ، وهى أهم لمصر من مصر نفسها بشهادة عقلاء الساسة من إنجليز وغيرهم . ولو فرضنا أن فئة أضلتها الأموال الإنجليزية والوعود البريطانية والأكاذيب الملفقة ، قامت من السودان وقالت : إنى أريد أن أكون أمة وحدى ودولة وحدى ، فهل يُقبل هذا إلا إذا قبلت إنجلترا مثلا أن تقوم إسكتلندة – وبين الإسكتلنديين والإنجليز من الفروق مالا يوجد مثله بين مصر والسودان – فتقول : سوف أكون أمة وحدى ودولة وحدى . أفترى إنجلترا تقول يومئذ نَعْمَ ونُعْمَةُ عَيْنٍ [1] وتخلى بينهم وبين ما يريدون ، أم تخضعهم يومئذ بقوة السلاح وبالحديد والنار كعادتها فى كل بقاع الدنيا ؟ ونحن ولله الحمد ليس بيننا وبين السودان مثل هذا ، بل السودان كله ، إلا من طمس مالُ الإنجليز قلبَه ، كلمة واحدة على أنه جنوب مصر لا أنه أمة وحده أو دولة وحده . إن مصر لا تستطيع أن تفرط فى بتر السودان من جسمانها ، فإن فى ذلك هلاكها وهلاك السودان جميعًا . فليقلع عن هذا الرأى كل من غفل عن حقيقة الوطن المصرى أو الوطن السودانى ، فمعناهما سواء .

بقى شىء واحد هو أن إنجلترا قد خرجت من هذه الحرب فى المرتبة الثالثة من دول العالم . فإذا جاءت الحرب الثالثة فإنجلترا خارجة منها لا محالة كما

---

(١) نُعْمَة العين : قُرّتُها . وما ذكره أستاذنا بعض حديث سيدنا رسول الله ﷺ ، وتمامه « إذا سمعتَ قولا حسنا فرُوَيْدًا بصاحبه ، فإن وافق قولٌ عملاً فنَعْمَ ونُعْمَةَ عَيْنٍ آخِه وأَوْدِدْه » .

خرجت فرنسا – أى إنها سوف تخرج ولا تملك غير الجزيرة البريطانية إن بقيت لها ، فعلام نربط مصايرنا بمصير مُظْلِم يُفزِّع أهله منذ وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ؟ وكان ينبغى أيضًا أن لا يغيب عن أذهان أولئك الأذكياء أن هذه الفرصة إذا أفلتت لن تعود ، فإن إنجلترا اليوم لا تملك أن ترغمنا على شيء ، وإنها لتهددنا وتبدئ وتعيد فى تهديدها ، ولكننا إذا صبرنا وعزمنا وأبينا ميسمَ الذل الذى تريد أن تَسِمَنا به ، فهى لن تملك إلا التسليم بلا قيد ولا شرط . فكان عليهم أن يكونوا أبصر بخير هذه الأمة المجاهدة المصرية ، وأجرأ على تلك الأمة الإنجليزية ، ولو فعلوا لرأوا عجبًا ، فإننا إنما أُتينا من قبل الخوف والهيبة والعجز عن إمضاء العزيمة على وجهها ولكن لم يفت الأوان بعد ، فاحملوا على أنفسكم أيها المفاوضون المصريون واملأوا قلوبكم إيمانًا بالله ، وإخلاصًا للوطن ، وأجمعوا رأيكم وارفعوا النير عن هذا الشعب بالإباء والأنفة والحميّة ، ورفْض المفاوضة والمعاهدة ، فإن إنجلترا لن تملك يومئذ صرفًا ولا عدلا ، فإن لم تفعلوا فالله من ورائكم محيط . واحذروا غضبة الشعوب فإن لغضباتها مواسم ككيّ النار هى ذل الدهر وسُبّة الأبد .

* * *

احذَرِى أَيتُها العَرَب

اليوم ، لقدْ أحدّ الجزَّار شفرته وشمّر عن ساعديه ، وأقبل على الذبيحة يريدُ أن ينحرَها نحرًا فذًّا ، وهى راضيةٌ عنه داعية له ، مستسلمة بين يديه ، مقرّةٌ له بأن ذَبْحها هو نجَاتُها ، وأن شفرته هى كما قال الراجزُ فى دَلْوه :

« قاتِلَتى وملؤُها حياتى » !! (١)

وبالأمس – فى سنة ١٨٨٢ – وطئت إنجلترا أرضَ مصر لتدعم ما تزعزع من أركان عَرْشِها ، كما زعمت وزعم لهَا من لا يتورّع ولا يتحرَّج ، ومنذ ذلك اليومِ والسكّين ماض فى تمزيق أشلاء ذلك البَدَن المخدَّر بالأكاذيب وبالغفلة وبالجهل وبالخيانة ، والذى كان يُسَمَّى العالمَ العربى والعالم الإسلاميّ . ومامضى إلّا قليلٌ حتى طارَتْ أشلاءُ هذا البدن بِدَدًا متفرقة مفَصَّلَةً ، ذهبتْ مصر وحدها ، وذهب الشامُ وَحْدَه ، وذهب العراق وحده ، وذهبت مراكش وحدها ، وذهبت طرابُلس وحدها ، وذهبت تركيا وحدها ، وقطعت عُنُق الخلافةِ ، وقضى الأمرُ .

واليوم يوشِكُ أن يكون ماكان بالأمسِ ولكن على أسلوب آخر : أن تُحْشَد هذه المِزَقُ المقطعة حَشْدًا جديدًا لتساق إلى يوم الحشر ، لتساق مَخدَّرة بالأكاذيب وبالغفلة وبالجهل وبالخيانة مَرَّةً أخرى إلى الهُوّةِ المضطرمة التى لا تُبْقى على حىٍّ ، إلى الحرب الثالثة .

* * *

هذه إنجلترا تريدُ مرّة أُخرَى أن تعود بحِيَلها ورجالها وأعوانها وصنائعها ، وبمداوراتها وسياساتها ، لتضرب الضربة الأولى كما ضربتْها فى سنة ١٨٨٢ ، وتخضع أعناق المصريين شاهدَهم وغائبَهم لأَحكام معاهدةٍ عجيبة ظاهرها فيه

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٧٠٢) ، ديسمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٣٧٩ – ١٣٨١

(١) مر هذا الرَّجَز فى مقال « إلى أين ؟ تَتِمَّة » ، ص : ١٨٨

الرحمة (أى الدفاع عن مصر والشرق) وباطنُها من قِبَله العذَاب أى نكال الحرب الثالثة . ولن تفرغ منها - إذا قدّرَ الله أن تفرغَ ، ولا قَدَّر - حتى تحملها لتدور بها على أمم العرب واحدةً بعد واحدةٍ ، لتنال منها صَكًّا مكتوبًا ، بالأسلوب الإنجليزى ولا ريب ، يجعلها جميعًا فى قبضة الأسد البريطانى ليوم الحَشرِ ، فعندئذ تسوقهم جميعًا كعادتها إلى المجزرة الكبرى مُقدَّمين فى الصفّ الأول ليكونوا قُرْبانًا لجبّار الحروبِ ، ووقاءً للدَّم الإنجليزى أن يُهْرَاق منه فى حروب الإمبراطورية البريطانية إلّا ما لا بُدَّ منه تَحِلَّةَ القسم [1] وردَّ العين الحاسدة ، كما حدث فى الحرب الأولى والحرب الثانية ، حيث لم يُسْفَك من الدم الإنجليزى إلا الأقل ، وحملَت العبءَ كله تلك الأنعام البشرية التى جُمِعت من الأسْود والأبيض ، من بقاع إفريقية وأرجاءِ الهند ومن نَواحِى هذه الإمبراطورية التى تقبّل الشمسُ مواطئَ أقدامها حيثما دارت فى مَدَارها .

فاحذرى أيتها العرب ... احذرى .

إن السياسة البريطانية هى السياسة البريطانية ، أى هى الجشَعُ المحتالُ المخادعُ الذى يستَلُّ منك أعزَّ ماتحرصُ عَلَيه بالشدِّ والإرخاء والترغيب والترهيب والظهور والاختفاء ، حتى تنهارَ النفوسُ وتسكُنَ من جَهْدٍ أو إعياء . انظرى ماذا فعلتْ ، أو ماذا كانت تريد أن تفعلَ بمصر . شهرٌ بعد شَهْرٍ بعد شَهْرٍ والدُّنيا كلُّها من حولنا تعج عجيجًا بالمفاوضة والمعاهدة وبالأخذ والردّ ، وبالموافقة والمعارضة ، وباللين والشدة ، وبالسكينة والصخب ، حتى دارت الرؤوس على أعناقها ، وتحيَّرت العيون فى حَمَاليقها ، وتشتَّت منارُ الهُدَى وخيفَ على صاحب الرأْى أن يزول عن رأْيه ، ومازالت إنجلترا تمدُّ للطامعين مدًّا وهُمْ يسعَوْن وراءَ ألفاظها الخلَّابة حتى أعيتْهم ، وكادت لهم كيدًا شديدًا حتى أطغَتْهم فطغوا ، وأرادوا أن يضربوا على عقول هذه الأمة وألسنِتها بالقهر والعنف والاستبداد حتى تدَعَ العقلَ واللسانَ ، وتقبلَ منهم ما أرادوا هم أن يفرضوه علينا فرضًا .

---

(١) تحلّة القسم : أى بقَدْر تحلته ، أى وقتا يسيرا .

ولكن يأبى الله أن يكونَ لهذا الكيد كله قرارٌ ، فهذه الفئة التى ظنَّت أنها سوف تخدعُ إنجلترا عن نياتها الملفَّقة فى الألفاظ الكاذبة ، قد جاءَها البرهان الساطِعُ القاطِعُ ، بأن هذه الدولة « المفاوضة » تضع الألفاظَ على قدرِ ماتريدُ ، لا على قدر ما يريدُ مفاوضُها أن يفهم . فإذا خيَّلتْ له نفسُه أنه فاهمٌ من النصِّ ليقول لها ويبين عن فحوى ألفاظها أرسلت عليه شيئًا يردّه إلى صوابه . فبالأمس كان المفاوض المصرىّ يزعم لمصر أنه جاءها « بوحدة وادى النيل » ، وأن النصّ المتعلق بالسودانِ كان خيرًا كلّه ، وأنّ وأنّ ... فما أصبح الصباحُ حتى طلع عليه شىءٌ من أشياء بريطانيا يقول له : جاوزتَ حَدَّكَ فاستبْقِ ، وإن بريطانيا لا ترضى هذا التفسير المصنوع من جانب واحد ، وأن السودان وديعة فى اليد البريطانية ، والودائع مستردَّة ، والخيانة فيها تفريطٌ لا يليقُ بالشرف البريطانى ! فنحنُ فى السودان أمناءُ عليه ، ولن ندعَه لمصر العادية الباغية تفعل فيه ما تشاءُ كأنه جزءٌ مِنها !! بل لابُدّ لنا من أن نبقى هناك حرَّاسًا حتى يبلغ السودان رشده بعد السنين التى يقتضيها بلوغه الرُّشْد ! وعندئذ يكون للسودان أن يختار بعد أن يكون قد تهيأ لحكم نفسه بنفسه .

هذه هى السياسة الصريحة المتكشفة ، وهذه هى بريطانيا على حقيقتها ، وهذه هى ألفاظها المكتوبة مفسرة فى تصريح حاكم السودان . فليت شِعْرى ما الذى يظنُّه امرؤ فى نَفْسه ذَرةٌ من الإيمانِ بحقّ الإنسان فى الحرّية . ما الذى يظنه كائنًا بعد ذلك فى تفسير نصوص المعاهدة التى يُرَادُ لنا أن نرتبط بها مع هذه الإمبراطورية ؟ ومهما تكنْ نصوصُ المعاهدة ، ومهما يُقَلْ فى تسويغها أو تقريظها ، وسواءٌ أكانتْ هذه المعاهدة المعروضة اليوم أم غيرُها ، فهل يحِلُّ لمصرىٍّ أو عربىٍّ أن يأْمَنَ على بلادِهِ بعد هذه الخَديعة التى لا تعرفُ وَرَعًا ولا حياءً ؟!

وليس هذا فحسب ، لقد قال حاكم السودان ما شاء ، فماذا كان جواب الحكومة المصرية على هذا التصريح العجيب !

كان الجواب أن ينشر رئيس الوزراء كلمة يحتج فيها على تصرف حاكم

السودان ، وأنه قد تجاوز حدود وظيفته من حيث هو حاكم إدارى ، ومن حيث هو موظف مصرى بريطانى معًا ! أيكون حقًّا حاكم السودان هو المسئول عن تصريحه ، وهو ينسبُ ما يقول إلى الحكومة البريطانية بلسانه ! هذا ، ومن الغفلة أن يظن ظانٌّ أن رجلا إنجليزيًا يدير شيئًا من أمور هذه الإمبراطورية يجرؤ أن يتكلم من ذات نفسه بالنيابة عن حكومته ويوقعها فى ورطة سياسية كهذه الورطة . إذن أفما كان أولى وأجمل وأكرم وأنبل وأشجع أن يوجه الاحتجاج رأسًا إلى الذى أنطق هذا الرجل بما نطق به وأن يقال لهذه الحكومة البريطانية « المفاوضة » إنك أنت الملومة لا هذا الرجل ! ولكن هكذا كان .

فما الذى سيكون غدًا أيها الرجال المدافعون بأقلامكم وألسنتكم إذا جاءتكم لجنة الدفاع المشترك ، وجاء البريطانى ، ونطق لسانه بما لا تطيقه هذه الأمة ولا ترضى عنه ؟ أتظنون أن موقف الرجال المصريين الذين سيختارون ليكونوا أعضاء فى هذه اللجنة ممن تستطيع أن « تعمل معهم » ، سوف يكون أكرم أو أولى أو أشجع من موقف رئيس الوزارة السابق حيال تصريح حاكم السودان ؟ ستقولون كما قلتم : هذا مطعنٌ فى الضمير الوطنى المصرى ... وكلًّا ! ليس هذا مطعنًا ، فإن الرجال الذين سيختارون لهذه اللجنة سيكونون ممن « صُنِعوا على عين بريطانيا » منذ احتلت مصر فى سنة ١٨٨٢ إلى هذا اليوم . ولأن يقال إن هذا الذى نقول مطعنٌ خير من أن تُلقى مصر كلها تحت أقدام بريطانيا وفى تنُّور حروبها ، لتكون دماءُ أبنائها فداءً للدم البريطانى الطاهر المقدس .

* * *

أيتها العرب احذرى ... احذرى هذا المصير الذى يرادُ لمصر لا قدر الله أن تصير إليه . ولئن كان هذا يومنا نحن ، فغدًا يومكم ليُعرض عليكم مثل الذى عُرض علينا ، لتكون لكم « لجنة دفاع مشترك » كلجنتنا نحن ، فاحذرى أيتها العرب ، ولا تقرى بينك وبين بريطانيا معاهدة أبدًا ، فإن بريطانيا تريد بجمعكم اليوم على مثل هذه المعاهدة ، كالذى أرادته بكم جميعًا يوم وطئت أقدامها أرض مصر فى سنة ١٨٨٢ ، تريد أن تمزقكم بعد أن تكونوا وقودًا لنيران الحرب الثالثة .

أيتها العرب احذرى ... فإذا كنت نازلة فى ميدان الحرب الثالثة فانزليها حرة لتموتى حرة ، ولكن لا تُلقى بفلذات الأكباد فى أتون الحرب المسعورة ، ليكونوا هناك عبيدًا ويموتوا عبيدًا ، كما تريد المعاهدات الإنجليزية بنا وبأبنائنا وبناتنا وأوطاننا .

أيتها العرب احذرى ... لقد لبثتْ إنجلترا تدس لكم وعليكم وتنشِّئُ فيكم أجيالا من الخلق صاروا لها صنائع وأعوانًا ، أرادوا ذلك أو لم يريدوه ، وعرفوه أو جهلوه ، وعين إنجلترا بصيرة نفاذة فهى تختارهم وتمهد لهم ، وتحمِلهم بسلطانها وبحيلتها وبتهديدها حتى ترفعهم إلى الذروة التى تجعلهم أهلا للمكانة فى بلادهم ، ثم لا تزال تعمل هنا وهناك بأنامل بصيرة قادرة متدسسة حتى يتم اختيارهم ، فيتولوا هم زمام هذه الشعوب المسكينة ، ثم تقول لهم كما قال الأول :

فعِشْ فيما يليك بغير قصدٍ فإنى عائشٌ فيما يلينى

وإذا هؤلاء المساكين الذى ارتفعوا إلى غير أقدارهم ومنازلهم يكيدون لأممهم من حيث يشعرون أو من حيث لا يشعرون ، وإذا سياسة الأمم الناهضة فى أيد لا تُحسن إلا العيث والفساد ، ومصايرها على ألسنة لا تُحسن إلا التغرير والدهان والممالقة .

أيتها العرب احذرى .. ودعى المفاوضة والمعاهدة بينك وبين بريطانيا حتى ترد إليك كل حقوقك كاملة غير منقوصة ولا متهضّمة ، فإذا فعلتْ فانظرى فى مراشدك . أما إذا قال لك هؤلاء : وماذا تفعلين أيتها العرب إذا لم تفاوضى إنجلترا وتعاهديها ؟ إذا ألقوا إليك هذا السؤال العاقل الحكيم الذى يفرض عليك أن تتركى نصيبًا من الحرية من أجل كواذب الآمال والوعود ، فاعلمى أن هذا التعاقل « الشديد » فسادٌ فى الطبائع التى تلقيه عليك :

يرى الجبناءُ أن العجزَ عقلٌ وتلك خديعةُ الطبع اللئيمِ

وأنتم أيها الكتاب العرب : هذه أمانة القلم تعرض اليوم عليكم . وهى أثقل الأمانات ، فاحملوها بحقها أو دعوها بحقها ، فإن الأيام أسرع مُضيًّا من البرق فى حواشى الغمام . ومن حمل أمانته فعليه أن ينذر قومه قبل أن يأتى يوم لا تغنى فيه النُّذر ، وقبل أن يأتى يوم لا يردّ فيه البكاءُ على فائت !

* * *

من استرعَى الذئب ظَلم

في سنة ١٩٢٧ عرفت رجلًا إنجليزيًا ، فنشأت بيني وبينه مَوَدّة ، وكان رجلًا حريصًا على أن يعرف أشياء كثيرة على وجهها الصحيح ، وكان صادق اللسان فيما يبدو لى منه . وإن كنت قَلِقَ الشكّ فى صدق اللسان الإنجليزى ! وكانَ لطيف المعشر طلق المحيَّا ، فيه دُعابة رقيقة لا تبلُغُ العُنْفَ ولا يتجاوز بها حدَّها . وبقينا معًا سنة كاملةً ؛ فكان كأكمل الناس أدبًا ، وأَزْكَنهم [1] عقلًا وأبعدهم عن الملاحاةِ والمغاضبة وسوءِ العشرةِ . كان إذا تقصَّى مِنِّى أمرًا أخلصتُه القول ، فقد ظننتُ أنى جرَّبْتُه وعرفته ونفذت فى طوايا ضميره . وكان هو يحدّثنى فلا أشكُّ أبدًا أنه كسائر أهل جلدته ، بل كان خَلْقًا غير الخلقِ فيهم ، فهو يقول ويعنى ما يقول ، وليس كأمثالهم يَتَسَلَّل من إهابٍ ليدخلَ فى إهابٍ . ولم أزل أطمئنّ إليه وإلى حديثه وإلى بثِّه ما فى نفسى ونفس بلادى مِنْ شعورٍ ، فكان لايتردَّدُ فى إعطاءِ الحق لمن له الحقُّ ، ولا يرضَى أن يكونَ ظالمًا ولا متعنّتًا ولا مدافِعًا بالعصبية أو الكبرياءِ أو المماراةِ .

وفى سنة ١٩٢٨ جاءت امرأتُه من بلادها ودعانى مرَّاتٍ فما لبثتُ أن رأيتُ هذا الرقيق الوديع المنصِف ينقلبُ خشنًا جريئًا على الباطل جائرًا فى الحكومة ، مُتعنّتًا فيما كان بالأمسِ يعطى النَّصفةَ فيه ، وإذا هو شديد اللَّدَد تيَّاه الخصومِة ، وإذا هو ينسلخُ من إهاب ليدخلَ فى إهابٍ كفعل سائر قومه ، فكانَ ذلكَ آخر عهدى به ، وكان من عاقبته أنى كرهتُ هذه الإنجليزية العجيبة التى يقال فيها ما قال الشاعر : « كالعُرِّ يكمُنُ حينًا ثم ينتشرُ » [2] . فإنّ مجئ امرأته أعداهُ كما يُعْدى الجَرَب ، فثار ما كمن فيه منه ثم اسْتَشْرى ، فإذا هو وافِدُ قومٍ هُم ما هُمْ .

---

* الرسالة ، السنة الرابعة عشرة (العدد ٧٠٤) ، ديسمبر ١٩٤٦ ، ص : ١٤٣٥ - ١٤٣٨

(١) أزكنهم : أفطنهم وأكثرهم فهما .

(٢) العُرّ : الجرَب .

وفى هذه السنة التى انتفض عليه فيها عُرُّ قومه ، جلسنا يومًا نتحدّث فجرى الحديث إلى ذكر السودان ، فقال لى إن قضية مصر فى مسألة السودان ليست إلا دعْوَى لا خير فيها ، فإن هذا النِّيل الذى تزعمون أنه يربط بين مصر والسودان رباطًا لا انفصام له لا ينفعكم فى إقرار الحجة لدعواكم أن مصر والسودان أمَّة واحدة أو ينبغى أن تكون أمة واحدة . وقال : أرأيت إلى نهر الدَّانوب ، كيف يجوزُ فى العقول أن يَدَّعى مُدَّعٍ ممن يعيش على مدّه أنه يُوجِب توحيد الأمم التى عليه لتكون أمة واحدة ؟ أو ليسَ إذا قام شعبٌ من شعوب الدانوب فادَّعى بمثل ما تدّعون ، فإن الواقع كله يبطلُ حجَّته ، والعقل يوجب أنْ يشكَّ المرءُ فى صحة إدراك هذا الشعب ؟ فهذه هذه ، فليس ينفعُ قضيَّة مصر أن تدَّعى أن النيلَ بينكما هو الرباط الذى يوجب أن تصيرَ مصر والسودان أمة واحدةً . والعجبُ العجابُ عندى أنَّ حديث السودان كان قد جرى بيننا قبل أن يمسَّه عُرُّ قومه ، فلم يقتصر يومئذ على أن يسكت ؛ بل كان قد وافقنى على ماذكرتُ لهُ من حجة فى قضية السودان ، فإذا هو قد نسى كُلّ هذا بعد أن ارتدَّ إلى سِنْخه [١] وطبيعته ... وهكذا الإنجليز .

ومضى الزَّمنُ ، وإذا بنا نسمع إحدى الببَّغاوات [٢] التى سُلِبَت العقل وكُسِيَت الريش الجميل ، تردّد هذا القول المدخول الفاسدَ من جميع نواحيه ، ولو كان قائله إنجليزيًّا لهانَ الأمرُ ، وهو هيّن على كل حالٍ ، ولكنه مع أشَدّ الأسف سُودانىٌ بالمولد والإهابِ ، أما قلبُه فقد بيع بالمزادِ فوقع فى قبضة الرَّجُل الذى رفعتْه إنجلترا بين عشية وضُحَاها من وهدة البؤس والحرمانِ ، وكان فيهما رجلًا فاضلًا ، إلى ذروة الغِنَى والجاه ، فأصبح بعدهُما جانحًا إلى النقصان ساعة بعد ساعة .

زعمت الببّغاء أنّ ليس فى الدنيا شىءٌ يقال له وحدة وادى النيل ، كما أنه ليس فى الدنيا شىءٌ يقال له وحدة نهر الدانوب ، وأنّ الذى يُبْطِلُ هذه يُبْطِلُ تلك

(١) السنخ : الخليقة والسجيّة .

(٢) يعنى الأستاذ هنا يعقوب عثمان .

في مقام الاحتجاج ، ويخرجُ من هذا إلى أن السُّودان ينبغى أن يكون أمّة وَحْدَه ، وأن مِصْر أو أثرياء مصر ! « ينصبون فخاخًا تخفى أغراضهم الحقيقية ببراعة بالغة خلف الثوب اللامع من الدين واللغة والتاريخ ، وهو الثوب الذى اصطنعوه بأيديهم » . هكذا قالت الببّغاء التى يزعمون أنها رئيس تحرير جريدة النيل وعضو فى وفْد حزب الأمة فى لندن لهذا التاريخ !

فهذه الببّغاء تجمع إلى نقيصة الترديد والتقليد نقائصَ كلّ واحدة منها شرٌّ من الأخرى هى الجَهْلُ بمعنى ما يقول ، والكذب على أهل السُّودان ، والجرأةُ فى التهجُّم على الناسِ بما ليس يعلم ، والتدليسَ فى التاريخ ، والعبثُ بمصير أمّته المصرية السودانية ، وشرُّهنّ جميعًا ما يلوحُ فى خَبِيء كلامِه مِنَ العَدَاوة البغيضة التى يؤرّثها هو والمستأجرون من أمثاله بين مصر والسودان .

وقِصّةُ هذا الدانوب الذى يحتجُّ به ذلك الإنجليزى ثم احتجَّت به الببغاء الملقَّنَة ، قِصَّةٌ فاسدة المبنَى والمعنى ، والإغماضُ فى الاحتجاج بها دالٌّ على ضيقِ التصوّر وقلة العقْل وجُثُومِ الجَهْل فى جمجمة قائلها . فهذا النهر ينحدر من منابعه فى بادن مخترقًا ألمانيا ثم النمسا ثم هنغاريا ثم يوغوسلافيا ثم بلغارْيا ثم رومانيا حيث ينتهى إلى مصبّه فى البحرِ الأسودِ ، فهو مشترك بين ست دُولٍ كُلّ واحدة منها لها خصائصها ، حتى يبلُغ التباين بينها مبلغًا ليس بعده شىءٌ ، فى اللُّغة والعادات والآداب والتاريخ وأسباب الحياة كُلها تقريبًا . هذه واحدة .

أما الثانية فهذا النهر واقِعٌ فى قلبِ أوربة ، وهذه الدول كلها قائمةٌ على حِفافَيه متاخمة لدُوَل أُخرى تُحِيط بها شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ، فهو ليس نهرًا فى صحراء جرداءَ كما نرى فى نهر النيل الذى يحده من الشرق صحراء ، ومن الغرب صحراء ومن الشمال بَحْر ينتهى إليه مصبه ، وفيه دلتا مصر .

وأمّا الثالثة ، فهو أنه ليسَ نهرًا تقوم على جوانبه الزراعة فى خطٍّ ضيّقٍ فى بلدٍ واحدٍ كالذى تراهُ فى نيل مصر والسودان ، بل لعلّ أكبر فوائده هى النَّقْل لا الزراعة وحدها .

وأما الرابعة فهى أن هذا النَّهْر يمرُّ فى دُوَلٍ ستٍّ قوامُ حياتها الصناعة لا الزراعة

وحدها . أما نهر النيل فالزراعة هى قوامُ حياة أهله وسبَب أرزاقهم ، والذى فيه من مادة الخِصْب يوجب أن يكون نهرًا للزراعة واستصلاح الأراضين البور التى تَحُفُّ به من شرق وغرب .

وأما الخامسةُ فهى أن إقامة السُّدود على نهر الدانوب لايمكنُ أن يرادَ بها إلحاق ضَررٍ بالأرضين التى تقع على مُنحَدره ، فإذا أرادَ ذلك مُرِيدٌ وعزمَ على أن يضر بلد بمنع ماءِ الدانواب عنه فقد وقعت الواقعة بين ستِّ دُوَلٍ كُلها متأهِّب للحرب فى سبيل ردِّ هذا البَغْيِ . فهو كما ترى أمر مستحيل بطبيعته .

وهناك قول كثير ولكنْ حَسْبُنا هذا لمن يريد أن يَفْهم فهمًا ، لا أن يردّد الأقوال ترديد الببَّغاوات التى تُبَاع وتشترى للأغراض الخبيثة التى تريدها إنجلترا بهذه الببغاوات المسكينة . فهذه المقابلة السخيفة بين مسألة الدانواب ومسألة النيل لاتدلّ على شيء إلا على جَهْل الناطق المردّد لها ، ولاتقوم حُجّة إلا على خُبْث النيَّات التى أخذت تندسُّ لتفرِّق أوصال هذا الوادى وتزايل بين روابطه التى لن تنفصم ، بإذن الله .

ونحن نحمد الله على أن الأحرارَ أهلَ السودان ليس لهم برأيٍ أن يقطعُوا أَرحامَهُم ، ويُخربوا بُيوتهم بأيديهم ، ويمزِّقُوا هذه الوشائج الممتدّة من أقصى عُهُودِ التاريخ إلى يومنا هذا . فنحن نسوق الحديث إلى هذه الببغاوات التى تنتسب إلى الشعب الأبىّ الحرّ لعلها تفىء إلى الحقِّ ، وإلى الذين يهادنون فى الحق الأبْلج [١] مخافة أن يقالَ إن مصر تريد أن تبسط سلطانها على السُّودَان فى زمن تنادى فيه الأمم بالحق الأبلج أيضًا فى تقرير المصير . ولولا أن هذا كله تدليسٌ خفىٌّ يُراد أنْ تروّعَ به القلوبُ ، ثم يتغلغلَ خُفْيةً إلى معانٍ بعيدة يُراد بها قتل السودانِ ومصر جميعًا ، لكان الردّ عليه هو إهمالُه وازدراؤه .

إن هذا النيل الجارى بين الصحراء الشرقية والصحراء الغربية من أقصى الجنوب إلى أدنى الشمالِ يُوجِب أن نكون أمةً واحدةً ، فليس مثله كمثل

---

(١) الأبلج : الأبيض الواضح .

الدانوب . فإنه إذا قُدِّر للسودان أن يكونَ وحده مستقلًّا ، وهذا أبعد البعيد ، أو تحت سلطان إنجلترا ، وهو الشيء الحادث والذى يُرَاد الإيغالُ فى إقراره بفصله فصلًا تامًّا عن مصر ، فإن الخطر الدَّاهم والداهية المصبوبة تكون على مصر جاثمة حاضرةً فى كل أوانٍ ، فإن أسهل السَّهل أن تُضارّنا إنجلترا فى ماءِ النيل ، وأن تمنع عنا رِفْده متى شاءت وتتخذه سلاحًا مخوفًا مفزعًا وحشيًّا للتهديد والإرهابِ بقطع مادَّة الحياة فى مصر بل فى الشرق الأوسط ، فإن قحط مصر هو قحط الشرق الأوسط ، بل قحط جُزْءٍ عظيم من حوض البحر الأبيض المتوسط . فإذا كان ذلك فبمن نستنجد ؟ ومن أين نؤمِّل النُّصْرة ؟ برمال الصحراء الشرقية وسوافى[1] الصحراء الغربية !! إنه إذا كان مثل ذلك فى أى مكانٍ من الدانوب لهبَّتْ أممٌ بأسرها – أمم صناعية – تدفع البَغْى دفعًا رادعًا رادًّا للحق مانعًا لاستمرار هذا البغى . أما مصر ، فماذا تصنعُ أيها المأجورون للدسيسة الإنجليزية ! أتدافع برجالٍ هدّهم الجوعُ والظمأ والوباءُ ؟ تعست الحماقة !

ولو كانت إنجلترا هى الأمة التى تسكن هذا الجزء من وادى النيل المسمى باسم مصر ، لما تردَّدت ساعة واحدة من أجل هذا وحده أن تفتح السودان فتحًا وتنتهبه انتهابًا ، وتحتج لفعلاتها فيه بكل حجةٍ . لأن النيل حياة إذا جاء بمَدِّه ، وموت إذا أمسك سَيْبه . وهذه إنجلترا نفسُها ليس لها حُجة فى البقاء الذى تريده فى الشرق الأوسط وفى قناة السويسِ وفى نواح أخرى كثيرة ، إلا أنها إذا خُلِّيتْ جلبت على الإمبراطورية كل شرٍّ ، وقطعت شُرْيان الحياة الذى يمدُّها بالطعام والمال والقوة والسلطان . أفيجوز فى العقل أن تحتج إنجلترا بذلك فى سبيل أن تبقى عند قناة السويس وفى فلسطين ، ولا نحتجُّ نحنُ بأضرارٍ محققةٍ إذا كان فى السودان إنسانٌ واحدٌ فى يده قدرةٌ على الإضرار بمصر إضرارًا يصيب أبدان أهلها وأرواحهم ، ثم أبدان ملايين أخر من أهل الأمم التى تجاورنا ونستعين بها وتستعين بنا .

---

(١) السوافى : ما تحمله الرياح من الرمال فتلقيه .

ونحن لا نقول هذا ولا نسوق الحجة على هذا الوجه لندعى - كما يُراد لنا اليومَ أن ندَّعى - إنَّ لِمصْر حقًّا فى استعمار السودان أو احتلاله أو الوصاية عليه أو غير ذلك من الأباطيل المضللة ، بل لنقول إنَّ هذا وحده يوجبُ عقلًا أن يكون وادى النيل كلُّه دولةً واحدة ، لها حكومةٌ واحدة ، وتشريع واحدٌ ، ونظامٌ نيابى واحدٌ ، شأنُ السودان فيها كشأن أَسْوَان ، وقنا وجرجا ومديريات مصر كلها ، فإن موقع أية مديرية من هذه المديريات كلها هو من الناحية الجغرافية كموقع السودان ؛ فلو جاز أن يُفصل السودان اليوم عن مِصر بحجة ، فهذه الحجة تنطبق كل الانطباق على أسوان ثم قنا ثم جرجا إلى أن تبتلع النيل كله . وأيضا فإن مكان السودان كمكانها من الناحية التاريخية والأدبية والأخلاقية والدينية . وإذن فالنيل يحدث بلسانٍ لا يكذبُ بأنه لا يمكن أن يتجزَّأ إلا إذا جاز التجزؤ على هذه المديريات حتى تُصبح كلّ واحدة دولة قائمة برأسها . والشعب الذى يسكن أسفل الوادى (المعروف باسم مصر) ، والشعب الآخر الذى يسكنُ أعلاه (المعروف باسم السودان) ، شعبٌ واحدٌ ناطقٌ بلسان عربىٍّ مبين لا يعرف نفاق اللسان الإنجليزى ولا تكاذُبه وخداعَه ، بأنّه أيضًا لا يستطيع أن يتجزأ ، ولا هو قابل للتجزّؤ .

ولقد استزلَّ الشيطانُ بعض ساستنا ؛ فأخذوا يقولون إنَّ مِصر لا تريد أن تستعمر السودان ، بل تريد أن تمنحه الاستقلال الذاتى ! فحِلًّا حلًّا [1] أيها الرجال ، فإن هذا ما يريده الإنجليز ، إنهم يريدون أن تقرُّوا بألسنتكم ما الحق شاهدٌ على بُطْلانه ، وهو أن الشعب المصرىَّ شىء ، والشعب السودانى شىءٌ آخر ، ويريدون أن تقولوا إن النيل ممكنٌ أن يتجزَّأ ، ولو بعضَ التجزّؤ ، فإن هذا حسبهم منكم اعترافًا وتقريرًا . فتوبوا أيها الساسة من هذا الإثم ، ولا يُرهبكم حقُّ تقرير المصير ، ولا مجلس الأمن ، ولا هيئة الأمم المتحدة ، فإن هذه الرهبة باطِلٌ كلُّها . توبوا أيها السَّاسة ، ولا تخافوا من أكذوبة الدانوب ، فهو النهر الوحيد

---

(١) حِلاًّ : أى مَهْلًا .

الذى تتعدَّدُ الدُّول على حفافيه ، وهو نهر ليس له قيمة زراعية . واعلموا أنه لا يكاد يوجد فى الدنيا كلها نهرٌ زراعىٌّ وَاقِعٌ مجراه فى أكثر من أمةٍ واحدةٍ ، وهذه الأمة الواحدة يكون لها كل السلطان عليه من منبعه إلى مصبّه . لا تخافوا أيها الساسة وتوبوا وتبرأوا مما قلتم ، وخيرٌ لكم أن تدرسوا طبيعة النيل والأضرار المخوفة من تمزيقه ، وأن تعرفوا ماذا تريدُ إنجلترا بفصل السودان عن مِصر وضمّه إلى الجزء المفضى إلى جنوب إفريقية والجنرال سمطس ، فهناك البلاء الأعظم .

أيها المصريون السودانيون : إن النيل هو إفريقية كلُّها فاحذروا أن تضيعوا أوطانكم ، وتُلْوِوا (١) بأمجادِكم ، وتضعوا أعناقكم فى نير العبودية السرمدية إذا احتوشتكُمْ (٢) العناصر الغريبة عن إفريقية النائمة التى بدأت تستيقظ من غفوةٍ طالت عليها الآباد . احذروا كذب البغاة الطغاة المفسدين فى الأرض ، واحذروا ببغاواتهم وصنعاءهم فإنهم الحارقة الآكلة إذا استمكنوا منكم وأوضعوا (٣) خِلالكم يبغونكم الفتنة ويَسُومونكم ذُلا مستورًا ببهرج الاستقلال وتقرير المصير . لاتخافوا مجلس الأمن ولا هيئة الأمم إذا قدمتم إليهم قضيَّة فيها كلُّ دليل لا يبطله شىء من تاريخٍ ولا عقلٍ ولا مصلحةٍ .

وأنتم يا أخواننا وأهلنا وعشيرتنا فى السودان احذورا الدولة التى تريد استقلالكم ، وتريد أن ترعاه لكم ، كما رعت غيره من قبل !! فإن « مَنْ استرعى الذئبَ ظَلَم » (٤) .

* * *

(١) أَلْوَى به : أَوْدَى به وأهلكه .

(٢) احتوشتكم : اجتمعوا عليكم وأخذوكم من كل جانب .

(٣) أوضع : أسرع .

(٤) هذا مَثَلٌ .

من مذكرات عمر بن أبى ربيعة

حديث غد ...

(قال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة) (**) : خرجتُ فى صفر من سنة أربعين أريدُ المدينة أزورُ فتيانًا من أصحابى بها ، وأتحسَّس الأخبارَ أخبار الفتن المشئومة التى توزَّعت قلوب المسلمين ، وأنظر ما فعل بُسْر بن أبى أرطاة بِمُهاجَر رسول الله ﷺ ، فقد بلغنا أنه أحدث فيها أحدَاثًا عظامًا .

غادرت مكة يوم غادرتها وهى كالتنُّور المتوقِّد ، فقد ذابت عليها الشمس ، واحتدمَ وَهجُها وبقينا نتنفس بين أخشبيها [١] لظى من فيح جهنم ، حتى يحس المرء كأنّ الدمَ يفورُ فورانًا فى عروقه ، وقد خدر النهارُ من حوله فلا ريحٌ ولا روْحٌ ، فلكلّ نَفَسٍ لذعة فى الخياشيم والصدر تنشف الرِّيق حتى يكادُ اللسان ينشقُّ من فرط جفافه ، وحتى يكاد يظنُّ أنه الجنون . ما أصبرنا يا أهل مكة على صياخيدِها [٢] ، وما أحبها إلينا على شدة ما نلقى من لأوائها ! بورِكتْ أرضًا وتعالى من حرَّمها وتقدَّست أسماؤه .

كان النهارُ حرًّا ماحقًّا منعنا التأويب ، فكان سيرُنا كله إدلاجًا [٣] تحت غـواشى الليل إلى أن يُسْفِرَ الفجر وطرفًا من النهار . ولشدَّ ما أعجبنى الليل وراعنى حتى تمنَّيتُ أيّامئذ أن الدهر ليل كلُّه ، فقد كنت أسرى تحت سماءٍ زرقاء ملساءِ صافية كأنّ النجومَ فى حافاتها وعلى صفحتها دُرٌّ يتلالأ على نحرِ غانيةٍ وأنا تحت

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٠٥) ، يناير ١٩٤٧ ، ص : ١٤ - ١٧

** كتب عمر هذه الكلمات وهو فى السابعة عشرة من عمره ، فقد كان مولده ليلة الأربعاء لأربعٍ بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين يوم مقتل عمر بن الخطاب (شاكر) .

(١) الأخشبان جبلا مكة المطيفان بها ، وهما أبو قبيس والأحمر .

(٢) الصياخيد : جمع صَيْخود ، شدة حَرّ الشمس .

(٣) التأويب : الرجوع بالليل ، يعنى لا ينزلون ليلا وإنما يسيرون الليل كله ، وهو الإدلاج ، لأنهم لا يستطيعون السير نهارا لشدة حر الشمس .

أنفاسها كالشارب الثمل . وكيف تفعل هذه البيداء بنا وبقلوبنا ؟ قيظٌ يسلخُ جلد الحية ويذيبُ دماغ الضبّ ، لا يلبث أن تنفحنا بعده بنسيمٍ هفافٍ كأن الليل يتنفس به ليخفف عنا بلاء نهارنا ، ويفوح من بُرُود الليل شَذا الأقاحيّ (١) فيفغم (٢) الفضاءَ كلَّه أحيانًا حتى يخيل إلىّ أن البادية المجدبة قد استحالتْ روضةً تنفث أزهارُها الطيبَ من حيث استقبلتُ ، فأجد لها روحًا على كبدى وراحة فأعبُّ من أنفاسها عبًّا حتى أقول لقد سَكِرتُ من غير سُكرٍ . ثم ما أندى رويحةَ الفجر على قلوب السارينَ فى هذه المهامه السحيقة المتقاذفة (٣) ! فإن عبيرَها وبَرْدها والنور المشعشع على أرجائها يجعلك تحسُّ حسًّا لا يكذب بأنك تحيى فى لذاذات لا ينقضى منها أربٌ ولا يستحيل لها مذاقٌ . ولقد حبب إلى الخروجُ إلى البادية كلما وجدتُ فى نفسى طائفًا من سآمة أو مللٍ ، فيا بُعدَ ما بين الحاضرةِ وجوّها الكامِد الجاثم ليلا ونهارًا ، وبين هذه الرِّحاب المتمادية التى يبثُّها النهارُ لواعجه وحرقه ، ويأتى الليل فيناجيها نجوى خافتةً بما فى ضميره العميق المشتمل على أسرار الحياة برِّها وفاجِرها ، وتقف النجومُ على أرجاء سمائها مصغياتٍ مشرقات زاهرات كأنما يومِضُ بعضُها لبعضٍ فرحًا بما سمعتْ من تلك الأسرار المصونة المكتمةَ .

* * *

كلما أوغلنا فى البادية وفى قلب الليل ازددتُ فتنةً بليالى الصحراء وتهامُس رمالها وتَناجى كواكِبها ، وأسمعُ للَّيل هَسْهسةً كأنها أحاديثُ قُلوبٍ عاشقة قد تدانى بها السِّرارُ ، فتمضى الساعات والعيشُ ماضيةٌ بنا فلا نملّ ولا نكلُّ ولا نحسُّ وحدة ولا مخافةً ، كأنّا قد دخلنا الحرم الآمنَ الذى لا يراع اللائذ به . وجعلتْ نفسى تتجدَّد وتتطهر كأن برد الليل قد غسلها فما تشوبُ نقاءها شائبة .

---

(١) الأقاحى : جمع أقْحُوان : نَبت طيب الريح ، حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر ، تُشبَّه به ثغور النساء .

(٢) يفغم : يملأه برائحة طيبة .

(٣) المهامه : جمع مهمه ، وهو الصحراء . المتقاذفة : البعيدة .

وبعد ليال أفضتْ بنا المسالك إلى « الرَّبَذَةِ » التى بها قبر أبى ذرّ الغفارى رضوان الله عليه ، فلم يبق بيننا إلى المدينة سوى ثلاثة أميال ، وأدركنا الفجر وإننا لعلى مشارفِها ، فقلنا نعوجُ بها فنصلى الفجر ثم نرتحل حتى نبلُغ المدينة فى نهار يومنا هذا . فلما أنخنا جمالنا وقمنا إلى الصلاة ، سمعت صوتَ قارئ قد تأدَّى إلينا من بعيدٍ ، فتلمَّسْته حتى تبينتُ صوتًا رَاعِدًا تقيًا كأنه الجبالَ والرمالَ والدنيا كلَّها تهتزُّ على نبراته القوية العنيفة الصادقة ، وكأنه يمضى فى إهاب الليل المهلهل فيفْريه فريًا ويمزقه بمُدًى من النور ، وكأنه يسيلُ فى البطحاءِ كالسَّيل المتقاذفِ فتموج فيه رمالها كأمثالِ الجبالِ نُسفتْ من قراراتها ، وكأنّ ألفاظهُ هَبَّاتُ عاصفةٍ تفضُّ دُرُوع الليل فضًا ، وكأنّ نغماتِه أنوار مشعشعة تخالطُ هذا كلَّه فتملأ الفجر فجرًا من نُورِها ونور ألفاظها ومعانيها . وأول ما تبيَّنْتُه حين دنوت منه بحيث أسمع قراءته : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ ، إلى آخر الآيات ، فلما أخذ يكبر سمعت التكبير يملأ جنبات الأرضِ كلها مترددًا ظاهرًا كأن لم يبق فى الدنيا شىءٌ إلا كبر بتكبيره .

فرغ الرجل من صلاته ووضع عمامته وبقى حيثُ هو قليلا ثم قام ، فأضاءَه لى ذَرْوٌ [١] من نور الفجر الناهد من قبل المشرق ، فإذا رجل فى السبعين من عمره وافر اللحية أبيضها ، أسمر شديد السمرة طوالٌ جُسامٌ فارعٌ كأنه صعدة [٢] مستويةٌ ، أصلعُ الرأس شديدُ بريق العينين ، نظر إلينا نظرةً وحيًّى ثم انفتل راجعًا إلى فسطاط مضروب قريب من حيث كان يُصَلّى . رأيتُه وهو يمشى كأنه قائدٌ يحسُّ

---

(١) ذَرو : القليل من الشىء . والناهد : الذى بدأ فى الظهور .

(٢) الصعدة : القناة تنبت مستوية ، ولما كان الرمح يُصْنَع منها سُمِّى صَعْدَة .

كأن الجحافِلَ من ورائه تمشى على أثره . وبعد قليل جاءنا رجل كأشدِّ من رأيتُ من الناس نَفاذَ بَصَر ، فحيَّانا وقال : من الناس ؟ قلت : عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى . قال : ابنُ العِدْلِ [1] ؟ رحم الله أباك ، فقد شهد معنا المشاهد بعد عام الفتح . قلت : فمن يكون الرجل الذى أوى إلى فسطاطه يرحمك الله ؟ قال أو ماعرفته ؟ إنه محمد بن مَسلمة الأنصارىّ صاحبُ رسول الله وصاحب أبى بكر وعمر . قلت : فما جاء به ، وقد سمعنا أن رسول الله نهى عن أن يرتدَّ المرءُ أعرابيًا بعد الهجرة ، وأنه ذكر ثلاثًا من الكبائر منها « التعرُّبُ بعد الهجرة » ، فيعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجرًا . قال : صدقت يابُنّى ، ولكن لذلك خبرٌ :

كانَ محمد بن مسلمة فيمن ثبت مع رسول الله يومَ أُحُد ، فأعطاهُ رسول الله سيفًا وقال له : « إنه ستكون فتنة وفُرقة واختلافٌ ، فإذا كان ذلك فأت بسَيْفِك أُحُدًا فاضربْ به عُرْضَه حتى تقطعه ، واكسر نبلك واقطع وتَرَك ، واجلس فى بيتك حتى تأتيك منيّة قاضية أو يد خاطئة ، فإن دَخَلَ عليك أحدٌ إلى البيت فَقمْ إلى المخدَع ، فإن دَخَلَ عليك المخدع فاجثُ على ركبتيك وقل : بؤ بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاءُ الظالمين » . وقد فعل حين كانت هذه الفتن بين علىّ ومعاوية فكسر حدّ سيفه وقعد فى بيته ، وأطاعَ نبيَّه وعصى الشيطان الذى استزلَّ هذه الناس التى يقتل بعضُها بعضًا . ولقد قضى فى مكانه هذا ثلاث سنواتٍ يدعو ربه أن يصلح بين هاتين الفئتين من المسلمين التى جعلت تتفانى على دُنْيا فانيةٍ ، وعسى ربُّك يستجيبُ لدعاءِ هذا الرجل الصالح فتحقن الدماءُ وتوصَل الأرحامُ ويعزُّ بهم دين الله فى هذه الأرض .

(قال عمر) : فسألتُ الرجلَ أن يستأذن لى على أبى عبد الرحمن محمد بن مسلمة ، فذهبَ ثم جاء يُومئ إلىَّ أن أقْبل . فدخلت على أبى عبد الرحمن

---

(١) كانت قريش تلقب عبد الله « العدل » ، لأن قريشًا كانت تكسو الكعبة فى الجاهلية بأجمعها من أموالها سنة ، ويكسوها من ماله سنة فكان وحده عدلا لقريش جميعًا فى ذلك ، وكان تاجرًا موسرًا .

فسطاطه فإذا فيه سيف مُعلَّقٌ على جانب منه ، فلما سلَّمتُ ردّ التحية وقال : مرحبًا بك يا ابن أخي ! ماجاء بك ؟ قلت : زائرٌ إلى مدينة رسول الله يا أبتاه . فدعانى أن أجلس ، فوالله لقد أخذتنى للرجل هيبَةٌ ماوجدتها لأحد ممن لقيت من صحابة رسول الله ، ولا من أمراءِ المسلمين ، وكانت عيناهُ تَبِصَّان فى سُدْفَة (١) الفسطاط كأنهما قِنْديلان يلوحانِ فى ظلامٍ بعيدٍ . وجعلتُ أنظر يمينًا وشمالا فلا ألبث أن أثبت نظرى على سيفه المعلق ، فلما رأى العجَب فى عينىّ قال : لعلك تقول ، لقد كسر سيفه ، وهذا السيفُ معلقٌ بحيث أرى ! ثم قام واستنزل السيف واخترطه (٢) فإذا هو سيفٌ من خشب .

ثم قال : لقد فعلت ما أمرنى به رسولُ الله ﷺ واتخذتُ هذا أُرْهِبُ به الناس .

* * *

(قال عمرُ بعد حديث طويلٍ) : قلت له : يا أبتاه والله لقد آنستنى وأدنيتنى وأطلقت لسانى فلو سألتك ! قال : سل ما بدا لك يا ابن أخى . قلت : لقد حدَّثتنى عن قتلك كعب بن الأشرف اليهودى ، وعن قتل يهودَ أخاك محمودًا رضى الله عنه ، فهلا حدثتنى عن إجلائك يهودَ عن جزيرة العرب فى زمان عُمَر ؟ فقال :

رحم الله الرجل ، فقد كان شديدًا فى الحق حافظًا للعهد ، ولكن يهودَ قومٌ غُدُرٌ ، أساءُوا الجوار وخانوا العهد وتآمروا على المسلمين ، فعزمَ عمرُ على أن يجليهم عن أرض العرب ليقطعَ غدرهم ويحسم مادة النفاق فى هذه البقعة المباركة . فأرسَلَ إلىّ وقال « لقد عهد إليك رسول الله مراتٍ أن تجلى يهود ، فأنا أتبع سنته وأعهد إليك أن تجلى لى يهود عن أرض العرب ، فلا تظلمهم ولا تؤذِهم ، ولكن لا تدعْ منهم صغيرًا ولا كبيرًا ولا طفلا ولا امرأة حتى تستوثق من جلائهم بجموعهم عن أرضنا . ولئن عشت لأُجْلِيَنَّهم عن كل مكانٍ كبَّر فيه

---

(١) تبصان : تلمعان . السدفة : الظُّلْمة .

(٢) اخترط السيف : استلّه من غمده .

المسلمون لله ، فإنهم أهل فسادٍ ونفاقٍ وخَبَث » . فخرجتُ إلى طوائف اليهود فى خيبر وسقتهم مستقبلًا بهم الشام ، فلما بلغنا غايتنا أقبل علىّ رجل من ولد الحارث أبى زينب اليهودىّ ثم قال لى : لقد كنت مسترضعًا فينا يا أبا عبد الرحمن ، وكنت أنت وابن الأشرف رضيعى لَبَانٍ ، فما لبث أن جاء هذا الدين واتبعتم ذلك النبىّ حتى قتلت أخاكَ ورضيعَك ، وها أنت تخرجُنا من ديارنا وأرضِ أجدادنا ، وترمينا فى ديار الغُرْبة ، فهلا كنت تركت كل ذلك لغيرك أيها الرجل ! فقلت له : يا أخا يهودَ ، لئن كنت قتلتُ رضيعى فقد قتل قَوْمُك أخى محمود بن مسلمة غدرًا ، وعرضتم لحرم رسول الله بالتشبيب والبذاءة والسّفَهِ ، وأردتم أن تغدروا بنبى الله وتدلوا عليه صخرة لتقتلوه ، أفتظنّ يا أخا يهودَ أنّا تاركوكُم تعيثون فى الأرض فسادًا ، وتكفرون النِّعم ، ولا ترعونُ حرمة ولا ذِمامًا ولا عهدًا ، وتتآمرون على المسلمين تحت الليل ، وتعدون عليهم غارِّين آمنين ؟ ووالله لقد صبر عليكم عُمَر صبرًا طويلًا ، ولو كان حَزُّ رقابكم جزاءً بما تصنعون لقلَّ ذلك لكم .

قال ابن الحارث : لشدَّ ما تِهْتُم علينا أيها الناسُ ، فوالله ليكونن لهذا اليوم الذى أذللتمونا فيه وفضحتمونا وأجليتمونا عن أرضنا وأرض آبائنا يوم مثله يكون لنا عليكم ، فقد جاء فى كتبنا أنه سوف يجىء يوم تدخل فيه اليهودُ على أبناءِ يعرب هؤلاء فتذيقهم بأسًا شديدًا وعذابًا غليظًا ، حتى ترى اللُّقمة فى يد المسلم قد أدناها إلى فيه فإذا على رأسه رجالٌ من أشدَّاءِ يهود تنفره حتى يدعَها لهم . ولتدخلنّ نساؤنا على نسائكم حتى لا تبقى امرأة منكم إلا نامت بشرٍّ ليلةٍ ممّا تَلْقى من نسائنا ، ولنسوقنكم كما سقتمونا حتى نجليكم عن ديار آبائكم وأجدادكم ولنفعلن الأفاعيل حتى تكون لنا الكلمة العليا ونحن يومئذ أحق بها . والله ما نصبر على ما آذيتمونا إلا انتظارًا لما يكون غدًا كما قال لنا أنبياؤنا . وكأنى أنظر إلى غدٍ ، فأرَى وجوه الأحباب من بنى إسرائيل قد سقطت عليكم من كل فج كأنهم جرَادٌ منتشرٌ تأكل يابسكم وطريَّكم ، ولا تدعُ لكم موطئ قدم إلا كان تحته مِثْل جَمْرِ النار . وإنكم لتقولون إن الله قد ضرب علينا الذلة والمسكنة . فوالله لئن

صدقتمُ اليوم إذْ أَمِر أمرُكم (١) ، لتعرفنّ غدًا أننا شعب الله الذى لا يرضى له الله بالذلة والمسكنة ، ولقد كنَّا ملوك الأرض فدالت دولتنا كما دالت من قبلها دول ، ولكن الله بالغُ أمره يوم تدولون كما دُلْنا ويعودُ الأمر إلينا ، فنحن قوم أولوا بأس شديد ، ونحن أهل الكتاب الأوّل ، ونحن أتباع الحقِّ . فإذا جاء ذلك اليوم يا أبا عبد الرحمن فستعلمون أيُّنا أشدُّ تنكيلا . فوالله لنتخذَّنكم لنا أعوانًا على أنفسكم ، ولنضرِبَنّ غاديكم برائحكم ومقبلكم بمدبركم ، ولنوقعنَّ الفتنة بينكم حتى يُصْبح الرجل مِنكم مؤمنا ويمسى كافرًا ، وليكوننَّ لنا من أنفسكم رجالٌ يخْربون بيوتهم وبيوت آبائهم وهم عنا رضوان ولنا مطيعون !

قال محمد بن مسلمة : فسمعتُ الرجل يقول قولًا كبيرًا ، فقلت له : لئن صدقَ أنبياؤكُم فكانَ ذلك ، فما صدقوا إلا ليصدقوا رسول الله فى خبرِه ، فأنتم اليوم أشتاتٌ مبعثرون فى جنبات الأرض ، وليزيدنكم ربُّكم فُرْقةً وشتاتًا ، فإذا جاء ذلك اليوم فدخلتم علينا أرضَنا وعلا أمركُم فى حيث يشاءُ الله منها ، فلكى تتم فيكم كلمةُ الله وليعذِّبكم وليستأصل شأفتكم من أرْضه ، ولتكونوا عبرةً للطاغين من أمثالكم ، فقد قال الصادق المصدّق رسول الله : « تقاتلكم يهودُ فتسلَّطون عليهم حتى يقول الحجرُ : يا مسلم ! هذا يهوديّ ورائى فاقتله » ، فوالله ليكوننَّ ذلكَ كما أرادَ الله ، ويومئذٍ يعضّ طُغاتكم وطواغيتكُم أطراف البنان من النَّدم ، فالعربُ هى ماعلمت يا ابن الحارث لا ينامُ ثائرها (٢) ولا يُخْطم أنفها بخطامٍ .

(قال عمر) قلت : يا أبا عبد الرحمن ! وإن ذلك لكائنٌ ؟ قال : يابنى ، ما علمى بالغيب ! ولكنه إذا جاء فليقضِيَنَّ الله بيننا قضاءَه ، ويكونُ يومئذ فناؤهم على أيدينا ، فأمرُ المسلمين إلى ظهور ، وأمر يهود إلى حُكم الله الذى ضرَب عليهم الذِّلة والمَسْكَنة إلا بحبلٍ من الله وحبل من الناس . والله يحكم لا معقِّب لحكمه .

* * *

(١) أَمِرَ أمركم : اشتدَّ وقوِىَ . (٢) الثائر : الذى لا يُبْقى على شىء حتى يُدرك ثأرَه .

مصر هى السودان

دخلت المسألة المصرية السودانية فى ساعة حاسمة لابد فيها من العمل والتسديد والحزَامة والتصميم ، وأصبح لزامًا على أهل الرأى ورجال السياسة أن ينزعوا الخوف من قلوبهم ويطرحوا التردّدَ جانبًا ، ويقبلوا على المعركة مستبسلين لا يخافون . وقد صار أمر مصر والسودان إلى مصير ليس فى تاريخ مصر والسودان أسوأ منه ، فكل نكولٍ عن أداء الواجب وعن التنبيه والتحذير خيانة لوادى النيل لا يغتفرها لنا آباؤنا ولا أحفادنا من بعدنا . وإذا أضعنا اليوم حق مصرَ والسودان علينا ، فقد ضاع كلُّ ماترجوه بلادُ العرب والمسلمين من أطراف الصين إلى أقاصى المغرب الأقصى ، وإذا الفرصة السانحة قد أفلتتْ من يد هذه الأمم إلى غير رجعة . فمسألة مصر والسودان ليست إذن مسألة مفردة برأسها بل هى أمّ المسائل العربية والشرقية جميعًا ، وموقفنا حيالها هو المحكُّ لكل ما يرجوه الشرق ويؤمله .

بيد أن مسألة مصر والسودان قد أصابها من البلْبلة على مر السنين الطوال ما يُخشى معه أن يدعَ للعدوّ منفذًا يتدَسسُ منه إلى إحداث الفرقة والتنابذ ، وقد بدا شيءٌ من آثارهما فى العهد الأخير بعد أن استطاعت الدولة الخدّاعة أن تستميل قلوب نفر من أهل المطامع ورجال السوء فى السودان وغير السودان . فلابُدّ إذن أن نبدئ ونعيدَ فى بيان الحقيقة التى لا تطمس نورها الأكاذيب الملفّقة ، ولا يُطفئ رونقها طول الإهمال والترْك . وإنا لنأسف أن قد مضى على كبار ساستنا زمانٌ وهم يظنون أن علاج المسألة المصرية مفصولة عن السودان هو الطريقُ إلى نيل الحق من غاصب وادى النيل ، فأصبح الناس وإذا هم يرون ضلال الساسة الغابرين فى بتر قضية وادى النيل وشطرها إلى شطرين سموها باسم المسألة المصرية والمسألة السودانية . ولو هم عملوا ، منذ ولّاهم الله سياسة هذه الأمة ،

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٠٨) ، يناير ١٩٤٧ ، ص : ١٠٤ - ١٠٦

على أن القضية واحدةٌ ، وتجزئتها مفسدة للجزءين كليهما ، لسار تاريخ مصر والسودان غير هذا السير الخبيث الذى ساقتنا بريطانيا فى سراديبه المضللة المظلمة .

إن الجزء المسمى بمصر من هذا النيل المنحدر من منابعه إلى مصبه فى البحر الأبيض المتوسط ، جزءٌ يسيرٌ من مجرى هذا النيل ، وهو واقع فى صحراء جرداء لولا هذا الجزء من النيل لاتَّصلت رمال الجانب الشرقى والجانب الغربى من الصحراء وتصافحت على مسيله. وهذا الجزءُ الخصبُ بمدّ النيل ، خط ضيق محصور أكثره بين الجبال والرمال ، ولا يرجو أهله منه خيرًا إلا باسم النيل وبماء النيل وبركة النيل . فإذا حبس النيل ماءه أو منع بركته ، أو وُجد على الجزء الجنوبى منه (وهو السودان) من يحبس ماءه ويمنع بركته ، انقلبت هذه الأرض المصرية نقمة على أهله وشرًّا وبلاءً . والتاريخ يحدِّث منذ قديم الأزمان بأنه ما امتنع ماء النيل أو قلَّ إلَّا حدثت فى مصر المجاعات والقحوط التى أهلكت الحرث والنسل ، حتى اضطُرّ أهل مصر فى كثير من أزمان القحط أن يأكل الرجل لحم أخيه وولده من شدة المَتْرَبة التى حاقت بهذا البلد الخصيب . فالنيل هو كل شىء فى بلدٍ لا تمطره السماء إلا غبًّا [١] ، وليس فيه ما يُغنى أهله عن أن يجعلوا مادة حياتهم وأرزاقهم مما تخرجه الأرضُ التى يكدحون فى زراعتها كدحًا شديدًا ، والتى لا تنفع فيها زراعة إلا إذا استوفت حظَّها من ماء هذا النيل .

وقديمًا قامت فى هذا الجزء الأدنى من النيل أممٌ وحضارات لا تزال آثارها باقية إلى هذا اليوم ، وكان أوْلى بقيام هذه الأمم والحضارات الجزء الأعلى وهو السودان ، لولا أن أهل الزمن الماضى فرُّوا من وقدات الشمس المحرقة فى السودان إلى هذا الجزء الأدنى فأقاموا الحضارات على حفافيه ، ولكنهم مافعلوا ذلك إلا وهم مطمئنون إلى أن الجزء الأعلى ليس فيه دولة قائمة يمكنها أن تردَّ هذا النيل عن مجراه إلى قرارة هذا الوادى الذى سُمى « مصر » . ولو كان هناك

---

(١) الغب : المرَّة بعد المرة دون اتصال ، يعنى قليلا .

شيء مثل ذلك لرأينا ، كما رأينا فى شأن الوجه القبلى والبحرى ، رجالا ينصبون أنفسهم لضَمّ الشمال إلى الجنوب وتوحيدهما حتى لايكون فى الأرض الواحدة دوَلٌ متقسّمة يناوئ بعضها بعضًا ، فلا تقوم لواحدة منهما قائمة ، ولا يكون لواحدة منهما مجدٌ أو حضارة أو تاريخ ، وبذلك بقى النيل الأعلى (السودان) فى سَلْم دائما ، إذ لم تكن فيه دولة مناوئة ، وبقيت صلته بمصر كصلة أى بلدٍ من بلاد الدنيا يكون فى أرضها جزء متروك لم يُعمر بالهجرة أو الاستصلاح والاستثمار . وهذا الترك لا يدلُّ على اقتطاع هذا الجزء ، بل على أن الحاجة لم تدفع بعدُ إلى استصلاحه أو استثماره . هذا هو التاريخ القديم فى العلاقة بين جزئى النيل « مصر والسودان » .

ومضى التاريخ على هذا إلى أن جاء العصر الأخير ، فقام شمال النيل « مصر » ليضم الجنوب « السودان » ، كما قام الشمال من أمريكا لضم الجنوب إليه ، وكما قام جزءٌ من بريطانيا نفسها ليضمَّ إليه بلاد الغال وأرض إسكتلندة . ولو بقى شمال أمريكا منفصلًا عن جنوبه ، وبقيت بلاد الغال وبلاد إسكتلندة على أحوالها التى كانت عليها منذ قرون ، لما كان فى الدنيا شيءٌ يسمى الولايات المتحدة ، ولا شيء يسمى بريطانيا . وإذن فضَمُّ السودان إلى مصر بالحرب لا يمكن أن يسمى « فتحًا » بل هو ضمٌّ فحسب ، فلذلك يخطئُ بعض الساسة الذين يحتجون فى المسألة المصرية السودانية بهذا الشيء السخيف الذى يسمونه « حقُّ الفتح » . وكل ما هنالك هو أن هذا الجزء المتروك من أرض مصر أو أرض السودان - كما تشاء - كان لابد فى ضمه من بعض الحرب حتى تستقر الحال ويستتبّ النظام ، كما حدث فى كل بلاد العالم منذ أقدم عصور التاريخ ، فى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، وهذا شيءٌ بديهيٌ لا يحتاج إلى زيادة .

ويتبع هذا الخطأ فى الاحتجاج بحق الفتح خطأ آخر أقبح منه ، وهو احتجاجُ من يحتجُّ بما أنفقت الأرض الشمالية على الأرض الجنوبية من الأموال ، وهذا أيضًا فاسدٌ كل الفساد . فكل دانق أنفقته مصر فى السودان هو حق السودان على مصر ، كحقٍّ أى قرية فى أرض مصر ، وكحق كل شارع أو مديرية . فينبغى إذن

أن ننفى من احتجاجنا كلَّ شيء يسمى نفقات أنفقت فى السودان ، فإن كل ذلك هو حق السودان الذى إذا قصَّرْنا فى أدائه وجب عليه أن يطالبنا به بالكلام أو بالسيف أو بكليهما . ومن المؤلم أن يكون هذا الأسلوب الذى جَرَى ولا يزال يجرى على ألسنة بعض الساسة ، هو خديعة بريطانية قديمة لم نزل ننزلق فى مداحضها ونزلُّ ، حتى كادت تكون نكبة عقلية ألمَّتْ بهؤلاء الساسة .

فلا بد إذن من وضع هذه الحجج حيث ينبغى أن توضع فى زوايا الإهمال ، وأن ينظر الساسة إلى الحق الطبيعى الذى يجب لمصر على السودان ، والذى يجبُ للسودان على مصر ، وأنا أقدِّم فأقول إن حق السودان على مصر هو الأصل ، وهو الحق الأعظم ، وهو الحق الذى لا يمكن مصر مهما بلغت من قوة ومجد وحضارة أن تتنصَّل منه أو تتبرأ ، فإذا فعلت ، فذاك هلاكها وضياعها فى هذا العصر وإلى الأبد البعيد .

إن السودان كما كان قديمًا ، وكما هو الآن ، هو حياة الأرض التى تسمى باسم « مصر » ، فزراعتها وتجارتها ومالها وأهلها وتاريخها وحضارتها ، كل ذلك فضلٌ أتى به النيل . والنيل فيما بعد أسواره إلى منابعه واقع فى الأرض التى تسمى السودان ، فإذا أبى السودان أن يُفْضِلَ على مصر بالقدر الكافى من ماء النيل ، فقد حدثت المجاعات ، وهلكت الزراعة وبارت التجارة وذهب المال واندثرت الحضارات وانطمس التاريخ ، ولم يبق فى الدنيا دولة تسمى نفسها الدولة المصرية ، بل مكان فى الصحراء يقال له مصر ليس إلا ، مُجَردًا من كل ما تكون به دولة أو أمة . فالحقيقة التى ينبغى أن لا نتمارى فيها بالعصبية أو الكبرياء هو أن السودان هو سيّد هذا الوادى الذى يمدّه النيل بمائه ، وإذن فالسودان هو أحق الشقيقين باسم الدولة ، فإما أن يسمى وادى النيل كله باسم الدولة المصرية برضى أهل السودان ، أو أن يسمى هذا الوادى باسم الدولة السودانية برضى أهل مصر . فهذا هو الوضع الصحيح للمسألة المصرية السودانية .

ومن البيّن الذى لا خفاء فيه أن السودان كَنْزٌ كله ، بمائة ومعادنه وغاباته وحيوانه وكل شيء فيه ، والذى فى مصر من ذلك لا يعدل واحدًا من ألف من

هذه القوى الطبيعية المكنوزة فى أرضه وجباله وسمائه . وهذه القُوَى هى التى تجعل لصاحبها السيادة العليا على الذى يستمدُّ من فضلها . فمصر تستمد من قُوى السودان جزءًا يسيرًا وهو الماء ، وتستمدّه برضى أهل السودان ومسالمتهم وأخوَّتهم ، فمن العبث إذن أن تدَّعى مصر « سيادة » على السودان ، بل الحقيقة التى لامراء فيها هى أن سيادة السودان هى العليا ، وأن مصر جزء من السودان ، وهو جزء عظيم خصب صالح للاستثمار فى الزراعة وغيرها استثمارًا عظيما ، فمن مصلحة السودان أن يُفْضِل الماء على هذا الجزء لتزدهر زراعته وحضارته ويكون للسودان ذخرًا من القوة يضارع القوة التى فيه . والسودان محتاج إلى هذا الإفضال لأن المنطقة الصالحة للزراعة فى مصر أعظم وأجدى من المنطقة الواقعة فى الجزء المعروف اليوم باسم السودان . ومن هذا تعرف كيف دبَّر الله لهذين الشطرين العظيمين أن لايجد أحدهما مَنْدُوحَة تغنيه عن صاحبه ، وتفرض على كل واحد منهما أن يتشبث بصاحبه ، فإذا تنابذا وتنافرا وتدابرا وتقاطعا ، حاق بهما جميعًا مايحيق بكل أخوَين متنابذين متدابرين ، وهو الهلاك والضياع الذى تُخاف مَغَبّته .

وأنا لا أظن أن فى الدنيا شيئًا هو أوضح للعقل السليم من هذا الذى ينبغى أن يكون بين مصر والسودان ، أى الحقوق الطبيعية التى يفرضها وجود هذين الشطرين المتجاورين : شطر لابقاء له وحده وهو مصر ؛ وشطرٌ هو القوَى الكامنة التى تعطى البقاء للشطر الأول ، وذلك هو السودان . والشطر الأول منهما « مصر » هو الذى مهد الله له سبيل القوة والتاريخ والعلم فكان فى الوجود أسبق الشطرين إلى قيام الدولة فيه ، والشطر الآخر باقٍ ساكنٌ قارٌّ ... شيخ وقور رزين لا يفارق خَلْوَته إلا بسيب من العطايا والمنح التى يرسلها إرسالا إلى الشطر الأول ليحيى ويقوى ويكون سلطانًا فى أرضه ، وتاريخًا فى الزمن ، وحضارة فى العالم ، ولكن الشيخَ هو سرّ السلطان والتاريخ والحضارة - هو السودان . وذلك حسْبُه .

وقد كتب الله لمصر أن تكون كما هى الآن ، وأن تكون دولة فى الدول لها سلطان ظاهِر ولها عمل فى بعض السياسة ، ولها آمال فى تحرير نفسها وتحرير العرب وتحرير الشرق من بُغاة الاستعمار فى أوربة وأمريكا وروسيا ، فكيف يجوز

فى عقل عاقلٍ أن تدع أباها الذى يمدها بكل هذه القوة ينخزلُ عنها وينفصل ليقع فى يد الدولة المستعمرة المعروفة فى الناس باسم بريطانيا ؟ إن مصر هى السودان ، ولا مصر بلا سودان ، وإذا كانت إنجلترا نفسها تدّعى أن الهند لازمة لها ، وقناة السويس لازمة لها ، وكذلك روسيا فيما تدّعيه ، وكذلك أمريكا فى دعوى مصالحها فى الأرض والبحر والجوّ ، فكيف يجوز فى عقل عاقل أن يُراد لدولة ترجو أن تكون دولة فى هذه الدنيا العريضة المتراحبة – وهى ليست إلا خطًّا محرومًا حظَّ الحياة وأسباب البقاء – بانفصال السودان المفضل المتكرِّم عليها بأسباب القوة التى تمكنها من أن تكون دولة ؟

إن واجبنا اليوم هو أن نموت فى سبيل السودان ، لأن السودان هو حياتنا ، ونحن بضْعَةٌ منه ، فدفاعنا عنه وموتنا فى سبيله هو دفاع الولد البارّ عن أبيه ، والذى لا حياة له ولا عزّ ولا مجد إلا بحياته وعزه ومجده . نحن لا نريد سيادة على السودان بهذا المعنى العاميّ الجلْف ، فإن السودان هو سيّد هذا الوادى ، ولكننا نريد أن تبقى مصر حيّة قوية فى كنف السودان أبينا ومادة حياتنا . إننا لن نفرّط ساعة فى السودان لأن الدولة المصرية ليست شيئًا ، ولن تكون شيئًا فى هذا الوجود إلا بالسودان . ولو أنصف القَدَرُ وأنصف الناس ، لكان ينبغى أن تسمى « الدولة المصرية » الدولة السودانية . أما بريطانيا فهى تريد السودان ، لأنها تدرك هذا كله حق الإدراك وتعلم أنها إذا بقيت فى السودان ، تحكمتْ فى حياة مصر كلها ، وزادت عليه ما فى السودان من كنوز لا تزال مطمورة تحت تاريخ الحياة الإنسانية المتقادمة منذ أبعد الآباد . فليحذر السودان ولتحذر مصر ، فإن مصر هى القوة الحقيقية لأهل السودان ، والسودان هو الحياة الحقيقية لمصر . فإذا انفصل أحدهما عن الآخر ماتا كلاهما بين أنياب الوحش الذى لا تشبع نهمته ولا تسكن ضراوته .

* * *

لا تدابَروا أيها الرجال !

زعموا أن رجلا ضلّ له بعيرٌ فأقسم لئن وجده ليبيعنّه بدرهم ، فأصابه ، فقرن به سِنَّوْرًا وقال للناس : « أَبيع الجمل بدرهم ، وأبيعُ السنور بألف درهمٍ ، ولا أبيعهما إلا معًا » . فقيل له : « ما أرخصَ الجملَ لولا الهرَّة ! » فذهبت مثلا !

والظاهرُ أن بعض ساستنا لا يفتأون يفعلون فِعْل هذا الأعرابىّ ، كأنما كُتبَ عليهم أن يتحدَّوْا دائمًا إرادة هذا الشعب المسكين المصفّد فى الأغلال الوثيقة ، وكأنما كُتب عليهم أن يختلقوا العِنادَ اختلاقًا حتى يضيِّعوا عليه كل فرصة سانحة لنيل حقوقه المهضومة منذ قديم الأيام ، وكأنما كُتبَ عليهم أن يتعيَّشوا بنكَبَات هذا البلد وآلامه . وإلَّا فليحدثنا هؤلاء الساسة فيم يختلفون اليوم ، وعلامَ يتدابرون تدابُر الذئاب التى قال فيها القائل :

وكنتَ كذئب السَّوْء ، لما رأى دمًا
بصاحبه يومًا ، أحالَ على الدَّمِ ! (١)

لقد ظلَّت المسألة المصرية السودانية منذ أكثر من نصف قرن وهى تتخبط فى أساليب السياسة البريطانية وتكاذيبها وخُدَعها وتغريرها بعقول الرجال ، وتكاثرت النكَبات على مصر والسودان ، واتخذت بريطانيا صنائع لها لبسوا ثوب الصديق وهم ألدُّ عدوٍّ وأبشعُه وأخلاه من الشرف والمروءة ، ولم تزل مصر والسودان تجاهد بطبيعتها الحرة الصريحة المكنونة فى صدور أهل هذا الوادى الحر النبيل ، فغلبت الشرّ وقهرَته ، واستعلنتْ على أبين ماتكون وأكمله ، فانتهينا من ذلك الوباء الفتاك الذى كان ينخر فى جسم هذا الوطن ، والذى كان يتهادى عليه من سماهم الناس « زعماء » – انتهينا من وباء « المفاوضة » ومن حصر المسألة المصرية

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧١٢) ، فبراير ١٩٤٧ ، ص : ٢١٨ – ٢٢٠

(١) البيت للفرزدق ، وقد مر فى مقال « أخوك أم الذئب » ، ص : ٢٠٦

السودانية فى حيازة بريطانيا وشرف تاجها وَوُعودها المبذولة بألفاظٍ من سراب .
وهذه النتيجة وحدها هى حَسْبُ مصر والسودان من جهادِهما ، فإنه لم يكن من المعقول أن يقف مغصوب ضعيف ليفاوض غاصبًا قويًّا مفاوضة الندّ للندّ كما كان « الزعماء » يزعمون ! ووالله ماندرى كيف كان يجوز ذلك فى عقولهم « الزعيمة » ؟ وكيف كانوا يخدعون الناس عن عقولهم « المزعومة » !! ولكنه كانَ ، وعلم أسرار ذلك عند الله خالق الزعماء !

ثم خرجنا من بلاء المفاوضة إلى عرْض قضيتنا - قضية مصر والسودان - على مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة لتحكم بيننا وبين بريطانيا المغتصبة الجريئة على حقوق خلق الله ، وعلى الإيقاع بين الأمم والشعوب ، وعلى خلق المشكلات التى لا وجود لها ، كما فعلت فى فلسطين ، ثم تظاهرها بعد ذلك بأن حلّ هذه المشكلات هو همُّها ، وهو تعبٌ صبَّه الله عليها وحمَّلها إياه ، وهى كانت تتمنى لو زعمتْ أن الله لم يصبَّ عليها هذا التعب ولم يحمّلها عبء حله وتصريفه حتى تبلغ إرضاء المختلفين فى هذه المشكلات !! وهى تريد أن تخدع الأمم فى مجلس الأمن أو فى هيئة الأمم المتحدة بهذا الكذب الأبلق [1] ، وعندها من أفانين الدعاية وأساليب الصحافة ، ومن رجال القلم واللسان ما يعينها على إجازة هذا الكذب الصِّرف إلى عقول الرجال فى مجلس الأمن أو سواه .
وهى تعلم أن هؤلاء الرجال قليلا ما يعرفون من سيئاتها ومظالمها وبغيها وجرائمها وآثامها فى هذا الشرق الذى ابتُلى بها وبخداعها .

وظنى بساستنا ، هداهم الله ، أنهم يعرفون هذا حق المعرفة ، فإن لم يكونوا يعرفونه فقد نُبهوا مرارًا ويومًا بعد يوم ، فهم الآن على أتم علم بما يُخاف وما يُتجنَّبَ فى ساعة العُسرة التى نحن فيها منذ فتح الله مغاليق القلوب المُصْمتة فأدركت أن المفاوضة عبث لا يُجدى ولا يغنى ، وإنما هو الجهادُ العامُّ فى سبيل نيل الحق المغصوب . فما معنى هذا التدابُر إذن ؟

---

(١) الأَبْلَق : يعنى الواضح ، وأصل البَلق ارتفاع التحجيل (أى البياض) إلى فخذىْ الفرس .

معناه أن هؤلاء الساسة قوم تصرفهم أهواؤهم ، لا حقوق هذا الوطن الذى أعطاهم حق الحياة فيما أعطى ، ومعناه أيضًا أنهم قوم جَمدوا على سياسة لا يحسنون غيرها ولا يفهمون الأشياء إلا على أسلوبها . وهو أخسُّ الأساليب ، ومعناه أيضًا أنهم يجهلون معنى خروجنا من أسر المفاوضات وارتفاعنا بقضية وادى النيل إلى مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة . ولو همْ نفوْا من صدورهم هذه الشحناء القديمة البغيضة لأدركوا موقف مصر والسودان حق الإدراك . فالأمم لا ترتفع إلى مجلس الأمن أو هيئة الأمم إلا فى القضايا التى تهدد السِّلم العالمى ، أى التى يخشى أن تجرّ إلى حرب مبيدةٍ بين الأمم ، فإذا ارتفعت أمتان إلى المجلس أو الهيئة لكى يحكم بينهما ؛ فمعنى ذلك أنهما قد بلغا مبلغًا يمكنُ أن يسمى « حالة حرب » كما يقولون اليوم ، وإذن فاحتكامنا إلى مجلس الأمن معناه أن ههنا « حالة حرب » يرادُ من مجلس الأمن أن يتداركها . فإذا كان ذلك كذلك فهل فى عقل عاقل أن تكون أمة فى ساعة أشبه بساعة حرب ، فإذا رجال من قادتها يقومون ليتنابزوا بالألقاب ويتكايلوا بالتهم ، ويتدافعوا بالبغضاء ، ويبسطوا ألسنتهم فى حديث الماضى الذى عفَّى عليه الزمن حين عفَّى على أسبابه وهى المفاوضات التى كان قوم يستأكلون بها كراسى الوزارات ومقاعد البرلمان ؟

ألا فليعلم هؤلاء جميعًا أننا لا نريد أن ننصر قومًا على قوم فما بنا إلى أحد منهم حاجة ، وأننا إنما نريد لهذا الوطن أن يخرج من المحن منصورًا مؤزّرًا ظافرًا بالحق المسلوب . إن مصر والسودان قد أعلنت على بريطانيا - باحتكامها إلى مجلس الأمن - مايمكن أن يسمى حربًا بغير سلاح ، فكل مصر سودانى هو اليوم جندى منوط به حراسة الثغرات التى يتدسس منها العدوّ الأكبر وهو بريطانيا ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا زعيم ولا تابع ، فأهل هذا الوادى جميعًا يدٌ واحدةٌ وسواسيةٌ كأسنان المشطِ فى التكليف الذى كلفوا به ، وعلى كل منهم أن يبذل ما وسعه من النصيحة والمشورة اللذين سيتولون الدفاع عن حق الوطن فى ذلك المكان الذى سنحتكم إليه .

وخيرٌ لأولئك الذين يقولون : إن فلانًا هذا لا يصلح لعرض القضية المصرية

السودانية على مجلس الأمن أو هيئة الأمم أن ينزعوا هذا الإفك من ألسنتهم فإنه مضَلة ومفسَدة وخذلان للوطن لا لفلان أو فلان ، وخير لهم أن يقضوا الليالى الطوال فى درس الحجج التى سنتقدم بها لإقناع رجالٍ يجهلون كل الجهل تاريخ النكبة البريطانية التى صبَّها الله على رأس مصر والسودان ، وخير لهم أن يستخرجوا آثام بريطانيا وضروب بغْيها فى مصر والسودان ، وفى الهند ، وفى فلسطين ، وفى سائر بلاد الشرق ليعرضوها جملة واحدة تصريحًا أو تلميحًا ليكشفوا لرجال مجالس الأمن عن فظائع بريطانيا وأفعالها البشعة منذ سلطها الله على هذه البلاد ، فإن أكثر التاريخ الذى يقرؤه هؤلاء مكتوب بأقلام بريطانية وأهواء بريطانية . وإلا فحدثونا مَن مِن رجال مجلس الأمن ، فضلا عن شعوب هؤلاء الرجال ، عرف ألوان الخساسات التى ارتكبت فى دنشواى ، وفى فلسطين أيام الثورة العربية ؟ إننا لن نذهب إلى مجلس الأمن وحده بالقضية المصرية السودانية بل سنذهب إلى كل فرد فى روسيا وأمريكا وسائر الشعوب المشتركة فى مجلس الأمن . وإننا لن نذهب بالقضية المصرية السودانية وحدها ، بل سنذهب بجميع قضايا الشرق الذى ذاق نكال بريطانيا أكثر من قرن ونصف قرن . إننا نريد أن نُدخل قضيتنا وسائر قضايا الشرق فى كل بيت وفى كل نادٍ وفى كل مصنع ، وفى كل مكان فيه إنسان يعقل - كما تفعل بريطانيا الغادرة بباطلها الذى تنفثه فى كل حنيّة من حنايا هذا العالم ، متظاهرة بأنها المدافعة عن الحق وعن الحرية وعن العدالة وعن رفع مستوى الشعوب !! وياله من كذب لا يفله إلا الحق الأبلج [١] ! فأين نحن من هذا كله ؟ أين ؟ أفى البغضاء وتعداد المساوئ الماضية ، وبسط الألسنة فى المطوىّ من الأحداث القديمة ؟ إننا لن ننال شيئًا إذا فعلنا إلا الخزى والعار وعرض فضائحنا على أعين الناس !

إننا أيها السادة محاربون ، فافعلوا فعل المحاربين فى ساحة القتال ، لا فعل المتشاتمين على قارعة الطريق . واذكروا هذا الوطن ، فهو أحقُّ بالذكرى من ضغائنكم وإحنكم [٢] وثاراتكم . اجعلو هذه كلها دَبْرَ آذانكم وتحت أقدامكم ،

---

(١) الأبلج : الأبيض الواضح .

(٢) الإحَن : جمع إحْنَة ، وهى البغضاء .

فإن الوطن يأمركم بهذا فأطيعوه ولا تطيعوا داعى الشهوات وكراسى الحكم ومقاعد البرلمان فكلها عرض زائل ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وهى هى التى تتقدم إلى مجلس الأمن بقضيتها ، لا فلان هذا ولا فلان ذاك ؛ فالكلمة الآن لمصر التى أنتم أبناؤها ، لا لأحدٍ منكم على حياله . فأجمعوا أمركم ، ولا تحملنكم الكبرياء على تزييف القول إرضاءً لشهوات أنفسكم ، فإنكم إن فعلتم كدْتم لبلادكم وأوطانكم وشرقكم كيدًا لا يكيده عدوّ حقود ولا شامت باغٍ لكم أهوال المصائب . وماذا تريد بريطانيا إلا اختلاف الكلمة وتفرّق الوحدة ؟ ألم تدركوا بعد ماذا كان يريد كهفُ [(١)] بريطانيا بيفن حين زعم أنه لم يعرف أنه أخطأ إلا يوم عزمت مصر والسودان على رفع قضيتها إلى مجلس الأمن ، فإنه زعم أنه أخطأ إذ أدار المفاوضات بينه وبين حكومة أقلية !! وياسبحان الله ! إنه لم يُرد من تلك الأكثرية التى يعرّض بها إلا أن تكون خصومة ولدَدًا على حكومة الأقلية ، وأن يستثير دفائن الأحقاد ويفتَّ من عضد الأمة التى سوف ترغمه وترغم بريطانيا على احترام إرادتها وحقها . فإن لم يكن فى الاتحاد والتناصر إلا قتل هذه الكلمة وما ترمى إليه ، حتى يحمل الرجل حسرتها إلى الأبد - لكان ذلك واجبًا مفروضًا وخيرًا مرغوبًا فيه . وكيف جاز فى العقول - أعنى عقول بعض الساسة - أن الأمر أمر حكومة أقلية أو أكثرية !! لا أدرى ، ولكنه كان .

ومع كل ذلك ، فالأمر كله تدليسٌ سخيف ، ففى البلاد المنكوبة المهضومة الحقوق ، لا رأى لأكثرية ولا أقلية بل الرأى للشعوب وللبلاد ، أى للشعب من حيث هو تاريخ ماضٍ وتاريخ حاضر وتاريخ مستقبل ، فحكومة الأكثرية لو هى خانت الأمانة وفرطت فى حقوق البلاد ومهرت ووقعت وأسلمت المقاليد وعقدت المعاهدات وأقرها البرلمان وأجاز كل ماجاء فيها من تفريط - فذلك كله باطل ، لأن الحق ههنا حق طبيعىٌّ متوارث فى البشرية كلها ، لا يغيّر رأى الأكثرية شيئًا من حقيقته وجوهره ، ولا تمتلك الدولة القائمة فى أرض البلاد المحتلة أو المهتضمة أن تنزل عن هذا الحق لأحد ، فنزولها عنه عملٌ باطل من أصله .

(١) يقال : فلان كهفُ بنى فلان : أى ملاذهم ووَزَرُهم .

وإذن فالذى يقيّد الأكثرية ، ويؤيدها هو حق الشعب وهى بحرصها على هذا الحق تسمى أكثرية لا بغيره . فلو جاءت الأقلية وفعلت مايدل على أنها حريصة على هذا الحق الطبيعى المتوارث الذى لا يمكن حكومة أن تتنازل عنه لأحد ، فهذه الأقلية بمنزلة الأكثرية ، لأنها هى المطالبة بالحق الطبيعى ، وهذا شىء بيّنٌ واضح ، اللجاجة فيه شهوة وعبث .

أو ليس عارًا أن يكتب المرء مثل هذا لقومٍ كان لهم جهاد فى سبيل بلادهم ؟ إنه لعار . ألم يكن لهؤلاء أسوة حسنة فى سورية ولبنان حين وقفت صفًّا واحدًا كالبنيان المرصوص ، على ماكان يومئذ من اختلاف أشد وأعنف من اختلاف رجالنا ؟ بلى قد كان .

أيها الرجال ! إن العالم كله ينظر إلينا ، وإن قلوب الشرق كله تخفق إشفاقًا علينا وحبًّا لنا ، وإن الأمم الجريحة التى مزّق الوحش البريطانى أوصالها قد كفَّت عن الأنين لتسمع صوتكم وهو يُدوِّى فى جنبات الأرض لتنسى عندئذ آلامها وأوجاعها ، وإن فلسطين – وآه لفلسطين – إن الجزع ليأكل قلوب أبنائها مخافة أن تزل أقدامنا ، وهم قد ناطوا بنا رجاء قلوبهم . فرفقًا أيها الرجال ولا تخذلوا شعبًا مجاهدًا كتب عليه أن يقاتل أنذال الأمم .

أيها الرجال ! لا يغرنكم هذا الوحش البريطانى ، فإنه يضرب بقوائمه وهو كالصريع فذَفِّفوا [1] عليه باتحادكم ، وأجهزوا عليه بتناصركم ، وانسوْا ما مضى وخذوا عُدَّتكم للذى سيأتى ، فإنه النصرُ لمصر والسودان بإذن الله مذِلِّ الجبابرة ، ومُرْغم الطغاة الغادرة ، وناصر الأمم المتآزرة .

* * *

---

(١) ذَفَّف على الصريع والجريح : أَجْهز عليه .

إنه جهاد لا سياسة !

عجبتُ أشدَّ العجب حين قرأتُ فى الأسابيع الماضية خبر وساطة سورية ولبنان وغيرهما من بلاد العرب والتى أرادوا بها اجتلابَ التفاهم بين بريطانيا ومصر والسودان . ومعنى ذلك أن البلادَ التى دفعتها الغيرة والصداقة والقُربَى إلى هذه الوساطة ، تَعْنِى أو تظنُّ أو تؤمِّل أن تكون المفاوضةُ بيننا وبين بريطانيا خيرًا من الارتفاع إلى مجلس الأمن أو الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ، ليقضى بيننا فيما اختلفنا فيه !

وللعجب من مِثْل هذا الفِعْل وجوهٌ كثيرةٌ . فمن ذلك أننا ظللنَا نُفاوض هذه الدولة المتغطرسة سنين طوالا مغرَّرِين بالمفاوضة ، فما أجدتْ علينا إلا ألوانًا من البلاء ، وعلمتنا ضروبًا من كَذِب الألسنة واحتيالها وخداعها ، وعرفنا أن بريطانيا تراوِغُ ما استطاعت المراوغةَ ، وتتجنَّى ما أطاقت التجنِّى ، ولا نكسبُ نحنُ من ذلك شيئًا إلا الفرقَة والتدابُر والتنابُذ والتشاتُم ، وهى كلُّها من مبيدات الأمم . نعم ، وكانت العبْرة التى لا عبْرة بعدها أن القوم الذين ظلُّوا أكثر من خمسة وعشرين عامًا يُصرُّون على أن المفاوضة هى خير طريقٍ لاستنقاذ حقوقنا من الأيدى الغاصبة ، هم هُم القوم الذين عرفوا أن لا جدْوى من المفاوضة ، فقطعوها وآثروا أن يرفعوا الأمر إلى هيئة دولية تحكُم بيننا . هذا فضلا عن أن صريح الرأى ، وصريح الدلالة ، وصريح التجربة ، تُوحى جميعًا بأن بريطانيا لم تستفد قطُّ من شىء فى هذا الشرق المبتلى بها ما استفادت من مبدأ المفاوضة . فهو الذى أتاح لها فى مصر مثلاً أن تُطفئَ جمرة الشعب المصرى التى ظلَّت تتوهَّج فيما بعد سنة ١٩١٩ ، حتى صدق فيها قول المتنبى :

وكم ذا بمصر من المضحكاتِ ولـكـنـه ضـحـكٌ كـالـبُـكـى

فمن هذه المضحكات المبكية ، ما كان من تغرير المفاوضين الذين جاءوا

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧١٤) ، مارس ١٩٤٧ ، ص : ٢٧١ - ٢٧٣

بمعاهدة ١٩٣٦ ، والذين استطاعوا أن يصبُّوا فى آذان الشعب من الكلام الفاتن حتى احتفل بها احتفاله المذكور على أنها « معاهدة الشرف والاستقلال » !! ومن ذلك أن ترى شعبًا قد أُوذى وامتُهِن وحقّر على يدِ فئة من طُغاة العسكريين فإذا هو يحمل ممثل هذا الشعب بعدَ قليل على الأعناق ! ونحنُ لا نذكر هذا رغبةً فى ذكره ، ولكن الذين توسَّطوا ينبغى لهم أن يعرفوا هذه الفظائع التى أورثتنا إياها مبادئ المفاوضة وما يتبعُها .

ومن العجب أيضًا أن سورية ولبنان تعلم حقّ العلم ، وتعلم بالتجربة التى جربتها مع الفرنسيين ، أن المفاوضة لا تجدى ، وأنها لم تنلْ حقَّها إلا حين كانت يدًا واحدةً تطالب بحقها المغصوب ، فلم تقبل معاهدة ولا شروطًا ولا وعودًا تعد بها فرنسا ، وأصرّت على ذلك إصرارَ الكِرامِ القادرين ، فإذا فرنسا تجلو بجيوشها جميعًا عن كل بقعةٍ من بقاعها ، وكل مكتب من مكاتبها . فالذين يعرفون هذا فى أنفسِهم ، إذا هم أتوْا خلافه أو أرادوا غيرهم على إتيان خلافه ، إنما يزيدون العجبَ عجبًا ولا ريبَ .

أما العجبُ فهو أن هذه الدول التى بذلت وساطتها نسيتْ موقف بريطانيا فى مسألة السودان كل النسيان ، وغفلت عن السرّ الذى دفع بها إلى إيثار التشدّد على المساهلة ، والصراحة على المواربة . وذلك أنها لا تريدُ أن تفصِل السودان عن مصر مُكايدةً لها أو انتقامًا منها ، بل لأنها لا تريدُ الجلاءَ عن مصر كلَّ الجلاء ، وهى تعلم أن السودان هو مصر ، فبقاؤها فيه هو بقاؤها فى مصر سواءً بسواء . ولكن بريطانيا لا تريدُ أن تفضح نفسَها بالإصرار على البقاءِ فى أرض مصر ، فاخترعت قصة الدفاع عن مصير السودان واستقلاله أو تهيئته للحكم الذاتىّ وأنه لابُدَّ لذلك من أن تبقى فيه حتى يتهيَّأ ويستعدَّ ، وأن تمنع مصر الباغية من العدوان على السودان !! وهذا كله تدْليسٌ بيِّنٌ ، وكنا نرجو أن يعرف المتوسِّطون حقيقة هذه المسألة على وجهها فيكفُّوا عن الوساطة التى تعودُ بنا إلى المفاوضة – أى إلى تعذيب الشعب المصرىّ السودانىّ سنين أُخَر ، وإلى بقاءِ العالم كله جاهلا بعدالة قضية مصر والسودان على وجهها الصحيح .

وأما أعجبُ العجبِ : فهو أنهم نسوا ما تُلاقى فلسطين على يد البريطانيين اليوم ، من إرخائها الحبْل لنذالة الإرهاب اليهودى ومعاونتها فى هجرة اليهود بأساليبها الخدَّاعة ، واحتمالها فى ذلك الأمر ما لم تكن تحتملُ قليلا أو كثيرًا من مثله حين ثارتِ العربُ على ظلمها وبغيها وعدوانها هى وأشياعها من يهود . وهل ننسى ، نحن العرب ، لم وعدت بريطانيا شُذَّاذَ اليهود الذين ضربَ الله عليهم الذلةَ والمسكنةَ ، بأن ينشئوا فى فلسطين وطنًا قوميًّا ، ثم معاونتهم لهم فى ذلك ، ثم إغضاءَها عن جشع اليهود بعد ذلك وطلبهم إنشاءَ « دولة يهودية » تقوم فى قلب الأوطان العربية التى تحيط بها من كل ناحية ؟

إن الوساطة لا تكون حقًّا إلا حين تتوسَّط بين شريفين كريمين يُحْسِنان تقدير الوساطة . فما الذى رأته سورية ولبنان وسواهما من الشرف والكَرم فى تاريخ بريطانيا فى بلادِ العرب حتى تركب هذا المركب الوعر ؟

الجواب : لا شىء ، بل النقيضُ هو الصحيح .

* * *

وأنا لا أكتب هذا عتابًا ولا ملامةً ، فأنا لا أشك فى أنهم جميعًا إنما أرادوا الخير ، وظنُّوا الخير ، وعملوا للخير ، ولكن غير ذلك كان أولى وأدلَّ على فهم الحقائق .

لقد وقعت الحربُ العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) فإذا الشعوب العربية فِرَق مقطَّعة بين الدولتين الباغيتين فرنسا وبريطانيا ، وكان رأى العرب مفرَّقًا ضائعًا فى فوضى الاضطراب الذى أعقبَ الحرب ، ومع ذلك فقد قامت الثورات فى كل مكان مطالبة بالحقوق الواضحة التى لا جدال فى وضوحها ، فأنكرتها علينا بريطانيا وفرنسا ، ولكنَّا مع ذلك ثُرْنا وبقينا نثور فى كلّ مكانٍ .

ثم جاءتنا الحرب العالمية الثانية ، فإذا رَأْى العرب مُجْتمعٌ غير مفرَّق كما كانَ بعد الحرب الماضية ، وبدأنا نثورُ فإذا الثورات قد خمدت بعد قليلٍ ، وإذا نحنُ نوشِكُ أن نتفرق بعد اجتماع . ولعلّ هذا رأى غريبٌ مع ما نرى من قيام الجامعة العربية ، ومن تصريحها فى مناسبات كثيرة بأنها تؤيد مطالب مصر

أو مطالب غيرها من الأمم العربية بالإجماع . بيد أن السبب الذى من أجله أخشى تفرُّق الكلمة هو ما رأيت من أمثال هذه الوساطات التى تردّ كلُّها إلى سبب واحدٍ ، هو أن الرأى العربىّ لم يدرُسْ القضايا دراسة مستوعبةً ، ولم يتخذ لنفسه خُطَّة بيّنةً واضحةً فى كل قضية . وأظنُّه لو فعل ذلك لنفى من قلبه خاطرَ هذه الوساطات بين أقوام العرب ، وبين الدول المتغطرسة التى لا أمانة لها ، ولا هدفَ لها إلا استعباد هذا الشرق بأساليب « مطابقة لمقتضى الحال » .

وإنه لأولى بنا جميعًا ، نحن العربَ ، أن نصارح بالعداء كلّ أمة من أمم الطغيان الاستعمارى ، وأن نحذرَ كلَّ الحذر مزالق السياسة وأساليبها الخدَّاعة ، فإننا أمم مجاهدةٌ ، وينبغى أن تظل مجاهدة حتى تنال حقها فى كل مكان ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . والمجاهد مُقاتلٌ ، لا صاحب سياسة ومُوَاربة ومداراةٍ ، فإن ضرَرَ هذه الثلاثة على الشعوب المجاهدة أكبَر من أن نَغْفُل عنه أو نتهاون فيه .

وأنا أتعجَّبُ أحيانًا : لماذا لا تتعاونُ الدول العربية جميعًا والدول الشرقية الخاضعة للاستعمار ، فتهبّ هبَّة رجل واحد ، وتقاطع هذه الدول الباغية ، وتقول لها : إنى لن أتعاون حتى أنالَ كلَّ حقوقى كاملة غير منقوصة ! وهذا شىءٌ ليسَ بغريبٍ بعد قيام هيئة الأمم المتحدة التى يزعمون أنها أنشئت للمحافظة على سلام العالم ، والتى تنقض مبادئها كل حجة تقالُ فى مسألة مخافة العُدْوان على هذه الأمم بعد خروج الجيوش المحتلة من أراضيها ، ولو فعلنا ذلك ، وأبينا أن نُلْقى السَّلَم حتى تحلّ هذه القضايا الكثيرة التى عقَّدتها بريطانيا وأشياعها من الدول المستعمرة ، لكان قريبًا أن ننال كل ما نريد ، ولكان ذلك معوانًا للشعوب العربية والشرقية على الشُّعور بقوَّتها وعزتها واجتماع كلمتها ، ولكان ذلك وِقاءً لنا من أن نكون كما نحن الآن : خداعٌ يُراد بمصر ، وخداع يُرادُ بالسودان ، خداع يُراد بالمغرب ، وخداعٌ يرادُ بالهند وما جاوَرَها .

إنه ليس عجيبًا . بل الدلائل على صدقه وعلى صلاحه ما رأينا من نتائجه بعد قيام الجامعة العربية التى لا تزال فى أول نشأتها . فالجامعة العربية على قلة وسائلها

وقلة تجربتها ، قد جعلت العالم الغربى كله يتنبَّه إلى أن فى الدنيا شيئًا من القوة لا يَنفع فى الخلاص منه سلاحٌ فتَّاك ولا غطرسةٌ حربية . فإذا اجتمعت الكلمةُ فى الشرق كله ، وهبَّت الأمم الشرقية كلها مرة واحدة لاستيقظ العالم كله على صوت هذه الضجة المدوِّية ، ولطالبت الأمم الغربية نفسها بدراسة هذه المسائل المعقَّدة وفهمها على وجهها الصحيح ، لا على الوجه الذى ظلَّت بريطانيا وسواها من حكومات الاستعمار تعمل جهدها سنين مطاولة على تدليسه وبثِّه فى صحافتها وكتبها وإذاعاتها . فلا سبيل إلى ردّ هذه الأكاذيب جملة واحدة إلا بأن نشعر العالم جملة واحدة بما نريد ، فيتنبَّه ويستعدُّ للمعرفة ، فنتخذ عندئذ كل وسيلة إلى إفهامه عدالة قضايانا ، ونكشف له عن الأكاذيب التى أذيعتْ عليه من قبْلُ ، ونفضح أساليب سياسة الاستعمار فى تشويه الشعوب وقضايا الشعوب .

هذا رأىٌ ، وطريقة العمل له ميسرة وواضحة . وهو شىءٌ كبيرٌ ، ولكن صاحب الحقّ الذى يستهوِل الإقدام على بيان حقه بالأساليب التى ينبغى اتخاذها وإن عظمت ، لن ينال شيئًا إلا العجز ، وتراكم العجز بعد العجز ، ثم ضياع حقِّه إلى الأبد .

ولقد بدأت مصر والسودان تخرج بقضيتها عن محيط المفاوضة إلى الاحتكام إلى الدول الممثلة فى هيئة الأمم المتحدة ، فينبغى على كل عربى وشرقىّ أن يحرّضَها على ركوب هذا الطريق وإن شق مسلكه ، وينبغى على كل دولة عربية وشرقية أن تقف صحافتها وإذاعتها صفًّا واحدًا للجهاد فى سبيل مصر والسودان – أى فى سبيل فلسطين وليبية ومراكش والجزائر وتونس والهند وما وَالاَها ، أى فى سبيل الدفاع عن حقوق جميع الشعوب التى ذاقت مرارة الاستعمار ونكاله أجيالا أو أعوامًا . والعاقبة للمجاهدين الصابرين على لأْوَاء [1] الجهاد وبأسائه .

* * *

(١) اللأواء : الشِّدَّة .

الخيانة العظمى ... !

كثرت لجاجة الصحف البريطانية ومراسليها فى مسألة مصر والسودان ، ولا تزالُ تلحُّ فى ترديد الأقوال التى تشكك فى عرض قضية الجلاء عن وادى النيل - مصره وسودانه - على مجلس الأمنِ أو أية هيئة دولية يكون من حقّها أن تنظر مثل هذه القضية ، ولم تزل هذه الصحف ومراسلوها يدسُّون كلمة « العودة إلى المفاوضة » دسًّا عجيبًا حيث يحتاج إليها الكلام وحيث لا يحتاج ، وهذه عادة قديمة وأسلوب عتيق كسائر أساليب بريطانيا فى الخُدَع التافهة التى تسمِّيها سياسة . ولسنا ندرى على أىّ أساسٍ يبنى هؤلاء المراسلون ، أو الموحون إليهم ، كلامَهم وثرثرتهم هذه . ولكن الشىء الذى لا نشكّ نحنُ فيه ألبتّة ، والذى ينبغى أن تعرفه بريطانيا ومن ترسلهم إلى مصر والسودان ليحملوا إليها أنباء هذه البلاد - هو أن الشعب المصرىّ السودانىّ قد قال كلمته منذ اليوم ، وقد قَضى على كل سياسىٍّ يخرجُ على إجماع الشعب بالخيانة العظمى كما تفهمها الشعوب - لا كما تفهمها الحكومات . وقد انعقد إجماع الشعب على اختلاف الأحزاب التى ينتمى إليها :

١ - بأن لا مفاوضة بيننا وبين بريطانيا بَتةً وقولا واحدًا .

٢ - وأن الجلاء كلمةٌ يرادُ بها أن تجلوَ بريطانيا عن وادى النيل لا عن مصر دون السودان .

٣ - وأن طلَب الجلاء ينبغى أن يعرضَ على هيئة دولية لها شرفٌ تخافُ أن يُثْلَم ، ولها مكانة تتحرَّج عن سقوطها فى أعين البَشَر .

٤ - وأن التجربة قد دلَّت على أن بريطانيا خِلْوٌ من هذين الشرطين ، وهما شرطان لابُدَّ منهما لمن نرتفع إليه بقضيتنا أو من نفاوضه فيها .

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧١٦) ، مارس ١٩٤٧ ، ص : ٣٢٧ - ٣٣٠

٥ - وأن كل دعوةٍ يُراد بها أن نعود إلى المفاوضة فى حقٍّ من الحقوق المكفولة لسائر البشر ، ليست إلا خيانة توجب على مُرتكبها ما توجبه سائر الخياناتِ من قصاصٍ .

٦ - وأن مصروالسودان أمةٌ واحدة ، سوف تتولى بنفسها عقاب كل خائن .

هذا مختصر ما ينبغى لبريطانيا وساستها أن يعلموه علم اليقين .

أما مراسلوها وجواسيسها الذين كُلِّفوا بأن يحملوا إليها الأنباء التى تهتدى بها فى سياستها التى تخصُّ مصر والسودان فقد كذبوها أفحش الكذب ، لا لأنهم يريدون الكذبَ على أُمَّتهم البريطانية ، كلّا ، بل لأنهم جهلوا كلَّ الجهل طبيعة الشعب المصرى السودانى ، وخدعتهم الظواهرُ عن حقيقة النار المضطرمة فى أحشاء مصر والسودان ، منذ استيقن شعب مصر والسودان أنّ بريطانيا أمة من أخلاقها الغَدْر والوقيعة وإخلاف الوعدِ والتلوُّن فى ألفاظٍ من بهرج الكلام وزائفه ونحن لن ننصبَ أنفسنا لإفهام هؤلاء القوم ما طبيعة شعب مصر والسودان ، ولكنَّا سنحدثهم عن مسألة المفاوضة نفسها كيف كان من أمرها ، ولهم بعد ذلك أن يحكموا بما يشاؤون ، فإن إخراجَ الغُرور من رأسِ المغرور أعسر من ردّ النور إلى عيْنَى الأكمه [١] ؛ ولا سيَّما إذا كان غرورًا بريطانيًّا متغطرسًا .

ففى أوائل القرن الماضى قام فى مصر فتى ينادى فى جنبات هذا الوادى : « بلادى ! بلادى » فهبَّتْ مصر والسُّودان تتلفَّت مستجيبة لهذا الداعى النبيل الصوت ، الحبيب النداء ، القوىّ الإيمان . لقد كانت مصر والسودان هى التى تنادى مصر والسودان ، فهى دَمُه ، وهى أعصابه ، وهى نفْسه ، وهى جنانه ، وهى لسانه ، وهى حقيقته التى صار بها هذا الفتى يُدعى بين الناس « مصطفى كامل » . ثم أوحت مصر والسودان إلى فتاها أن يقذفَ فى وجه بريطانيا ذاتِ البأس بكلمتها الخالدة : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، لأَن حقيقة مصر والسودان المستقِرّة فى بنيان هذا الفتى كانت تعلم من سرّ ضميرها أن هذا هو الحق ، وأما كلّ شىءٍ

---

(١) الأكْمَه : الذى يُولَد أَعْمَى .

سواه فباطلٌ وقبضُ الريح ، كما قال سليمان . نظرت مصر والسودان إلى هذا الفتى الضئيل المعْرُوق وهى تبكى من فَرْطِ لهفتها وتخوُّفها ومن فرط ما كانت تشعرُ به يومئذ من العجز الذى استهلكها وأثقلها عن أن تكون مثله توقُّدًا ونشاطًا وقوة وحياةً ، ولكنها آمنت به ورضيتْ عنه وجعلت دمعها شهادةَ الإيمان بحقّه وحقّها الذى أجراه الله على لسانه

ونجمت يومئذٍ فئة من خلق الله الذين شاءَ برحمته وحكمته أن يجعلَ مصر والسودان لهم منبتًا ومَباءةً كما جعلها منْبتًا ومباءةً لسائر الهوامِّ وخَشَاش الأرض وهَمج الجوّ ، وقامت بريطانيا تتعهَّد هذه الفئة وتغذُوها وترضعُها من دَرِّها بُغيةَ أن تشتدَّ فتكون سباعًا وجوارحَ وأعوانًا لها على الفتك بهذا البلد الأمين ، وماهو إلا قليلٌ حتى خرجَ منها خلقٌ يعْوى فى وجه الفتى وينبَحُ ويهرُّ هريرًا لا ينقطعُ ، ولكن مصر والسودان أبتْ إلا فتاها فأطاعتْه وأنكرت تلك الفئة التى نبتت أبدانها على شيء غير نيلها وتربة هذا النيل .

ثم قبض الله إليه فتى مصر والسودان ، فخرجت مصر والسودان فى جنازته تبكى الصوت الذى ردَّد الكلمة الخالدة المنبعثة من سرّ أحشائها : « بلادى ! بلادى ! لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، خرجت مصر والسودان حتى سباعُ بريطانيا وعُواتها ونُبَّاحُها يبكون أيضًا ، لأن فى دمهم شيئًا من مصر كان يحنّ بهم إلى صوت بلادها ومأتمها ونواحها .

بقيت مصر تذكُر فتاها ، وتسمع صدى كلماته من حيثما تلفَّتت ، حتى جاءت الحرب العالمية الأولى وخشعتِ الأصواتُ لهدّ القنابل ودوى الرصاص ، فما كاد يسكتُ ناطق الحرب حتى انبعثت مصر بالقوة الدافعة التى جيَّشَها فى قلبها هذا الفتى الشاب ، وصرخت فى وجه بريطانيا الظافرة : « حقّى ! حقّى ! أيتها الغاصبة » . لم تَهبْ بأسها ولا سطوتها ولا جبروت الظفر المسكِر الذى ثملت بنشوته .

ثم كان شيءٌ لا ندرى كيف كان !!

كان منطق الحوادث يقضى بأن تردّد هذه الجماهير الثائرة كلمة مصر والسودان الخالدة : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، ولكنها اقتصرت يومئذ على

ما يتضمن ذلك النداء الحكيم الذى نادى به فتى مصر فجعلت تقول : « الاستقلالُ التامّ » ، وخرجت بريطانيا تُقتِّل بالرصاص جمهورًا ثائرًا مطالبًا بحقه مستبسلا فى سبيله ، فكلما انطلقت رصاصة انطلقت معها صيحةٌ واحدة من حناجر أمة بأسرها : « الاستقلال التام » ، فكأنها رأتها تغنى عن كلمتها : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » . فهما عندها كلمتان مترادفتان .

وألحّت بريطانيا فى التقتيل والفتك والعُدوان والبغى ، وألحت مصر والسودان فى الجرأةِ على باطل بريطانيا مطالبة بحقها وهو « الاستقلال التام » ، ولم يكن يدورُ بخلدها شىء إلا هذا النداءُ وحده ليلا ونهارًا وبكرة وعشية ويومًا بعد يوم ، ولم يكن يجرى فى وَهْم الشعب الثائر المطالب بالحق أنَّ أحدًا سوف يقول : تعالى أفاوضكِ يا بريطانيا ! فيَحذر عندئذ حذره ويعود إلى ندائه الأول الذى هو الكلمة المستكنة المضمرة فى دَمِ هذا الشعب الذكىّ على قلة علمه ، القوى على ضعفِ حيلته .

ثم كانَ شىء لا ندرى كيف كان !!

كان زعيم هذا الشعب الثائر « سعد زغلول » ، وكان رجلا شيخًا ، ولكن ناهيك به من شيخ ، وكان خطيبًا حسبُك من خطيب ، كان يسمعُ الهمهمة التى تدور فى دم الشَّعب ولا تجد لها بيانًا ، فيصوغ لها بيانًا من عنده ويلقى به إلى الشعب فإذا هو يسمعُ كل ما فى ضميره مترجمًا فى ألفاظٍ حية تتردَّد فى أذنيه . وفُتِن الشعب بسعدٍ ، بلسانه الذى ينطقُ بأسراره التى تتحيَّر فى دمه ولا يعرفُ كيف يبينُ عنها ، وأسلم القياد لرجل يهديه ويرشدهُ ويعبِّر عنه ، ويلطم بشيخوخته الوقورة الصاحية شبابَ بريطانيا الظافرة الطائشة السَّكرى براحِ النصر .

ثم كان شىء الله يعلم كيف كان !!

فإذا هذا الشعب المأخوذ بسعد ، الفائر بالثورة فى طلب حقه المتَهَجّم على بريطانية العاتية ، المائج من منبع النيل إلى مصبه يطلبُ الحرية من قيوده وآصاره [١] فتتلقَّاه أسنّة الرماح البريطانية ويتخطّف أرواحه رصاصُ الوحوش ذاتُ

---

(١) الآصار : جمع إِصْر ، وهو الثِّقل ، وما يقعد بالإنسان فلا يستطيع حِراكا .

المدنية العريقة منذ كان أرسطو إلى هذا اليوم !! إذا بهذا الشعب المنادى بالاستقلال التام يسمعُ دعوةً إلى مفاوضة بريطانيا لا يدرى أحدٌ كيف جاءت وكيف تدسست إليه ، وإذا سعدٌ هو المفاوض ، فمشت مصر فى آثار زعيمها ثقةً به وتسليما لهُ ، ورجتْ لحكيمها الشيخ أن يرتدَّ إليها باستقلالها التام ...

كان هذا ولا يدرى أحدٌ كيف كان !!

ولكن بقيتْ فى مصر والسودان بقيَّة لم تزلْ تسمع صدَى كلماتِ الفتى الأوَّل ، فهبَّت تصرُخ فى وجه الشعب المطالب بالاستقلال التام !! حذَار حذارِ ، وألحَّت فى صراخها ولكن مات صوتها فى دوىِّ الأصوات المطالبة بالاستقلال التام ! وفى موْج الجماهير ، وفى أزيز الرصاص وهديره وقصفه . وأخيرًا وقف رجلٌ يسخر من كلمة مصر الخالدة : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » سُخريةً لاذعة ملفَّفة فى ثوب الدُّعابة المحبَّبة إلى هذا الشعب منذ قديم الأزمان ، والذى يُدَاعب ويحب الدُّعابة ولا ينساها وهو فى حبل المشنقة ، أو فى سياقِ الموت . وكانت هذه الدُّعابة أفْعَل من رصاص بريطانيا وحِرَابها ونذالتها جميعًا فى قتل كلمة مصر والسودان : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ، حتى صار من يقولُ بها معدودًا عند أصحاب العصبيات الجاهلية فى عداد المجانين والموسوسين والبلهِ والملاحيس .

نعم كان ذلك ولكن لا ندرى كيف كان !!

ولكن بقى شىءٌ واحدٌ جهلته بريطانيا وجواسيسُها ، وجهله كل مِفراحٍ طيَّاش من أصحاب العصبيات الجاهلية التى غلبت على قلوبهم وأعمت أعينهم . ذلك الشىء الواحد هو أن المفاوضات ظلَّت تجرى منذ بدأت إلى أن كانت سنة ١٩٣٦ ، والشعب يتبَعُ المفاوضة بقلبه عسى أن يرجع إليه الرجال المفاوضون بحقٍّ مصر كاملا غير منقوصٍ ، وهو من ورائهم يدفعهم دفعًا رجاء أن ينفعهم ذلك فينتفع بنفعهم . ولكن ... ولكن مرة أخرى ، وفى الثالثة كان الشعب يفعل ذلك مجتمعًا ، فلو سألتَ كل رجل وكل أنثى وكل طفل أيضًا : « هل ترجو من وراء هذه المفاوضات خيرًا ؟ » فهو قائل لك : « يا سيدى ، ياما جرَّبْنا » ثم يمضى لشأنه يائسًا تكادُ دماؤه التى تجرى فى عروقه تبكى من الحسرات التى تقطِّع قلبه وتنهش ضمير حياته !

هكذا كانت مصر والسودان برغم المفاوضات الدائرة ، وبرغم مطالبة الشعب مجتمعًا أحيانًا بهذه المفاوضة . كانت الدّماءُ تجرى فى الأبدان المصرية السودانية وتُهَمْهم وتدمدمُ ، ولكن الرجُل الذى يفهم معنى هذه الهمهمة الخفيّة لم يكنْ موجودًا ، وهى لا تستطيع العبارة عن نَفْسها بلسان ناطقٍ مبين . وبقينا جميعًا ننظُر ، لأن عبارة أمثالنا لن تؤدّى إلى شىء ، إذ لم يكن لأحدٍ يومئذٍ من قوة الاستجابة لنداء الدم المصرى السودانى ، ولا من استعداد الأبدان والعقول التى تجرى فيها هذه الدماء ، ما يجعَل لكلمة مصر الخالدة « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » صدًى يتردّدُ فيستجيب له الوادى كُلّه كما استجاب للفتى الأوّل مصطفى كامل ، وبقيت الأبدانُ العاقِلَةُ (والتى هى الشعب بأفراده) فى ناحية ، والدّم الذى يجرى فى هذه الأبدان نفسها فى ناحيةٍ أخرى – وجعلَ الله بأسَنا بيننَا ، فكانت إرادة الله ولا رادّ لما أراد .

ثم كان شىءٌ ونحن ندرى كيف كان .

فقد سكنتْ زمجرة المدافِع ، وعجيج القنابل الذرية ، وقامَ رجالٌ يريدون مفاوضة بريطانيا ، ولكنهم لم يلبثوا إلّا قليلًا حتى سمعوا صوت الدَّم المصرى السودانى ينطقُ من كُلّ ناحيةٍ « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » فتمَّت المعجزة التى كان كل امرئ يترقَّبها ، وكان لمصر والسودان النَّصْر بعد الهزيمة المنكرة الأولى ، وظهرت كلمةُ الحقّ حتى صار أكفَرُ الناس بها هو أشدَّهم إيمانًا ، وأجودَهم فى سبيلها بروحه وحياته ، وعادت مِصْر والسودان إلى حقيقتها المستكنّة فى سِرِّ القلوب والدماءِ والأحشاءِ ! « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » : كلمة حكيمة صريحةٌ قويّة ، ظاهرة المعنى ، بيّنة الطريق ، كريمة المنْبت لأنها بنت مصر والسودان – لا يسخرُ بها بعد اليومِ أحدٌ إلا كان دَمُه هو أوّل من يسخرُ منه ويزدريه ويلعنُه ويبرأ من الانتساب إليه .

هذا ما كان من أمر المفاوضات بيننا وبين بريطانيا ، فليفهمه من شاء كما شاء . وليقُل أصحاب الغرور المتغطرس ، وليقل أشياعُهم من المضللين : هذا شعرٌ ، وهذه عاطفةٌ ، ولكنَّها ليستْ بحقيقة معقولة أو تحليل متّزنٍ . ونقول :

نعم ! إذا شئتم ، ولكنّ الشعوبَ هى العواطف أوّلًا ، وعواطف الشعوب أصدقُ حُكْمًا من عقول الساسة !

وأخيرًا ، ليعلم من لم يكن يعلَم من المتغطرسين أو من الساسة العقلاء الذين أظلَّتهم سماءُ مِصْر ، أن دم الشَّعب قد نطقَ بالكلمة المتحيّرة فيه ، وأجمعَ عليها ، وكتبَ على نَفْسه أن يَنْفِى الخبثَ عن مصر والسودان . ومعنى ذلك أنّ كل من خرج على إجماعه فقد خانَ وادى النيل خيانة عُظْمى ، وأنّه رهنٌ بالقِصاصِ ، وأن قصاصَ الشعوب أبقى على وجه الدهر من قصاص الحكومات .

والكلمة الآن لمِصْر والسودان ، لا لفلان الزّعيم ولا لفلان السياسىّ – فمن شاء أن يخالف عن كلمة مصر والسودان فليتقدّم ، ولينظر ما هو لاق فى غد أو بعد غدٍ .

* * *

الجلاءُ الأعظَم

أكتب هذا وكُلّ ذرةٍ فى ثَرَى مصر وفى جَوّها وفى مائها تَتَلفَّتُ حوَاليها لتنظُر إلى الضجَّة التى خفقت فى جَنَبات الأرض المصرية لليوم المشهود - يوم الجلاءِ عن مُدُنِ الوجهين القبلى والبحرى إلا ما استثنته بريطانيا غصْبًا وافتئاتًا . نعم هو الجلاءُ - جلاءُ الجندى المتغطرس الذى كان يمشى على أَديم مصر تيَّاها مستكبرًا متعاليًا ليذلَّ الشَّعب الذى احتقره وازدراه على قوّته وعلى سلطانه ، ولم يعبأ به ولا بثيابه ولا بكبريائه . وكيف يفعل ذلك وهو الشعب الفقير الذى يسير فى الطريق حافيًا فى أسمالٍ ؟ وكيف يفعل ذلك وهو الجاهلُ الذى لا يقرأ ولا يكتبُ ولا يعلمُ من أمر الدُّنيا إلّا ماحضر بين يديه ؟ وكيف يفعل ذلك وهو الشعب الذى هَزَمته بريطانيا فى موقعة التل الكبير سنة ١٨٨٢ ، ثم انساحت جيوشها فى أَرضه تأخذُ ما تأخذ وتدعُ ما تدعُ وهو ساكنٌ قارٌّ راض بالمذلَّة التى كتبها اللّهُ عليه ؟ هكذا كانَ يمشى كل جندى بريطانى على أرضِ مصر هو يحدّث نَفْسه بهذا كله ، والمصرىّ ينظر إليه نظرةً ليس فيها الحقد ولكن فيها الاحتقار ، ويبتسم إليه ابتسامة ليس فيها الرضى ولكن فيها السخريةُ ، ويصافحه مصافحة ليس فيها الترحيب ولكن فيها الإيمان بأن الذى أَمامه إنسانٌ مغرورٌ يظنُّ أن الدنيا باقيةٌ له ، وهى الدنيا التى تداولتها من قبله القرون والأمم فزالوا وبادوا ، ونالها من بعدهم من كانوا لهم تبعًا أو عبيدًا .

هكذا كان ينظر الشعبُ الجاهل الفقير المهزوم بزعمهم نظرة الفيلسوف الذى قَنِع بما عنده فاستغنى عما عند الناسِ ، شعب فقيرٌ ولكنه عزيزٌ ، شعب جاهل ولكنه مؤمنٌ ، شعب مهزوم ولكنه مترفعٌ عن دنايا الأخلاقِ .

* * *

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧١٨) ، إبريل ١٩٤٧ ، ص : ٣٨٣ - ٣٨٥

نعم هذا الجلاءُ ، ولكن هل يقنع هذا الشعب به ؟ وهل يزيلُه الفرحُ بما تمَّ عن الهدَفِ الذى رَقى إليه ؟ إنّ بريطانيا قد عَلِمَتْ أن لا قِبَل لها بإبقاء جنودها مفرقةً فى مُدُن مصر فتكون قَذى فى العيون يحدث آلامًا تنبه النفوس يومًا بعد يوم إلى عُدْوانها وبغيها ، فآثرتْ أن تحمل جنودها وتجمعهم فى مكانٍ بعيد عن عيون الشعب ، تريدُ أن تجعل مثل هذا العبث مِنَّةً يحملها الشعبُ المصرى ، فيكفَّ عن مطالبتها وعن كشف عيوبها وسيئاتها وخَبثها . فلما رأت أن هذا الشعب العجيب قد فرح بجلائها عن بعض أرضه ، ولكنه لم يكفَّ عن مطالبتها ، ولا عن إماطة اللثامِ عن رذائلها ، قامت صُحُفها تزعم أن الصحف المصرية قد شنّت على بريطانيا « حملة سِبَاب » فى نفس المكان الذى أشارت فيه إلى مسألة الجلاء إشارة عابرة . وهذا دليلٌ على أن موقف الشعب قد غاظها غيظًا شديدًا وأنها كانت تؤمل أن تخدعنا بهذا الجلاءِ من أماكن فى أرض مصر إلى مكان واحد حصين فى أرض مصر أيضًا ، فلما كان غير الذى أرادت زعمت أنها « حملة سباب » .

ومن الذى يسبُّ ؟ أمصر المسكينة التى احتملت وقاحة جيوشها وقوّادها منذ سنة ١٨٨٢ ، وصفاقة رجالها الذين جاءوا ليحكموا هذا الشعب بالقوة والبطش من أمثال كرومر وكتشنر واللنبى ولويد ومايلز لامبسن ؟ أهى مصر المسكينة التى تسب اليوم بريطانيا وقد سمعت سفاهة الصحافة البريطانية على شعبها وهو يوصف بالرعاع ، وسباب الصحف البريطانية للطلبة المصريين الذين كانوا يخرجون من مدارسهم للجهاد فى سبيل وطنهم وبلادهم

إن مِصر حين تصف أعمال بريطانيا بالسفاهة والوقاحةِ والصفاقة - لا تسب بل تقرر حقائق وتسميها بأسمائها التى خلقت لها ، ولم تخرج فى ذلك عما وصفها الرجال المحايدون الذين وقفوا ينظرون إلى أعمال بريطانيا فى مصر والسودان . فالشعب المصرى لا يسب بريطانيا وإنما تسبُّها أفعالها وأفعالُ رِجالها . وإذا أرادت بريطانيا أن لا تسمعَ المسبّة من الشعب المصرى ومن سواه فى أقطار الأرضِ ، فلتقلع عن سياستها التى توجب لها هذه الصفات ، والتى تدفع

أممًا كثيرة غير مصر والسودان إلى أن تصفها بأشد مما وصفتها به مصر والسودان .

والعداوة التى بيننا وبين بريطانيا قائمة ما بقى فى أرض مصر من منبع النيل إلى مصبه جندى بريطانى واحد ، ولن نكفّ عن عداوتها وعن ذكر سيئاتها إلا إذا جلت جلاءً تامًّا عن كل مكان انتزعته من بلاد مصر والسودان بالكذب والمكر والخديعة والتدليس ، ولن تكفّ ألسنة مصر عن وصف أعمالِ بريطانيا بأسمائها التى خلقت لها إلا إذا كفّت هى عن عُدوانها وأعطت كل ذى حق حقه . إنها عداوة باقيةٌ بيننا وبينها حتى تدعَ لنا أرضنا ، وتدع للعراق أرضه ، وتدعَ لفلسطين العربية أرضها ، وتقاوم معنا كل باغٍ أعانته هى فيما مضى على بغيه وعدوانه ، كالذى كان من أمرها فى مسألة تونس ومراكش والجزائر وليبية وبلاد إفريقية التى أطلقت فيها يَدَ فرنسا وإيطاليا ليطلقوا لها يدَها فى مصر وفى سوى مِصر .

بل إن جلاء الجنود البريطانية لن يكفى وحده أن يكون مَدعاة لنسيان تاريخ بريطانيا وأفعالها ، لقد دخلت بريطانيا بلادنا وبلاد سوانا ، فاستعانت بشذاذ الأمم الذى لا يجدون فى بلادهم ما يأكلون ، وجاءت بهم إلى مصر والسودان وكل أرض كتب الله عليها أن تبتلى ببريطانيا وسياستها الاستعمارية ، وحمت هؤلاء الشذاذ وشدت أَزرهم وملكتهم الأموال والأرزاق ، ونفخت فى قلوبهم كبرياءَ الحقيرِ الذى علا بعد ضعةٍ ، ومدت لهم مدًّا طويلا حتى صاروا سادة علينا وهم يأخذون ما فى أيدينا - أى يسرقون ما فى أيدينا . أتت بالشذاذ من كل أمة وجعلتهم جاليات وأقليات وفرضت على نفسها حمايتهم فيما تزعم ، واستنكفت لهم أن يتقاضوا فى محاكم البلاد التى آوتهم بعد تشرد ، وميزتهم عن أبناءِ البلاد فى كل شىء حتى فى معاملاتها التجارية ، حتى صارت لهم قوة المال وفجور المال وطغيان المال ، فعاثوا فى الأرض فسادًا ، يفسدون بيوتنا ، ويتعالَوْن عنا ، ويحتقرون أبناءنا ورجالنا ، ويسخرون من آدابنا وعقائدنا ، ويطعنون فى أخلاقنا ، ويشتموننا فى الطرقات وهم فى حمى بريطانيا ذات المجد والشرف !!

وأكبر من ذلك أنها حَمت هؤلاء الشذاذ حماية أخرى ليكونوا لها جنودًا فى

ثياب مدنية ، فأقطعتهم المدارس ينشئونها حيث يشاؤون ، وجاءت بدنلوب ليضرب التعليم المصرى ضربات قاضية لا تزال إلى اليوم باقية لا تدرى وزارة المعارف كيف تخلص منها . وإذا هذه المدارس تأخذ أبناءنا من بيوتنا ، فتضعهم بين جدرانها ، وتنفث فيهم سمَّها ، وتحقِّر لهؤلاء الصغار بلادهم وأهلهم ، وتمتهن لغتهم حتى كانت تمنع طلبتها عن أن يتكلموا بالعربية بتة ، ولا فى أوقات الفسحة ما بين الدروس ، فإذا فعل ذلك طفل منهم عوقب أشد العقاب ، وداروا به على الفصول كأنه مجرم قد ارتكب أشنع جريمة يعاقب عليها القانون . وبقيت بريطانيا الممثلة فى دنلوب ونظام دنلوب ورجال دنلوب تحمى الوباء وهذا البلاء حتى استفحل ، وخرج جيل من أبناء مصر نفسها ينظر إلى بلاده كأنها أرض غريبة يحتقرها كما رأى أن الأجنبى يحتقرها ، وكما رأى زميله الأجنبى يزدريها .

وأكبر من ذلك أيضًا أنها أخذت هؤلاء المساكين الذين أضلّتهم مدارسهم الأجنبية فآوتهم ونصرتهم ثم مكَّنت لهُمْ وصاروا لها أشياعًا يثنون عليها ويفضلونها على سائر أهل الأرض وعلى أهل بلادهم . واتخذوا لذلك كل أسلوب يدل اتخاذه على أن بريطانيا لا تتورع عن أن تجعل أخسَّ الطبائع البشرية والشهوات الإنسانية سلاحًا تقاتل به الشعب الذى اعتدت عليه واستبدت به . فصار الشعب المصرى يسمع مصريًّا مثله يبسط لسانه فى تاريخ شعبه وفى أخلاق شعبه غافلا عن السبب الأول الذى كان داعيًا إلى انهيار هذا الشعب ، ألا وهو بريطانيا وشُذّاذها .

فكل هذا وكثير سواه كان احتلالا أدبيًّا ضرب على مصر والسودان كما ضرب عليها الاحتلال العسكرى ، فنحن لن نكتفى بأن يزول الاحتلال العسكرى بجلاء الجنود ؛ بل لابد من إجلاء ما ورَّثناه الاحتلال العسكرى من نُظم ومن شيع ومن عادات ومن أخلاق ؛ حتى لا يكون المصرى والسودانى غريبًا فى بلاده ، مُمْتَهَنا فى أرضه ، مضروبًا بالفقر والجهل والهزيمة فى دياره .

ذلك هو يوم الجلاء الأعظم : يوم يعود إلينا أخونا المصرى السودانى المقيم فى بريطانيا « يعقوب عثمان » ليقول لبلاده إنى أخطأت فاغفرى لى زلتى

وتجاوزى عن خطيئتى ، ويوم يخلع الشباب المصرى السودانى من فتيان وفتيات كل الزينة التى أضفتها عليهم مدارس الليسيه الفرنسية ، وفكتوريا الإنجليزية ، والمدارس الأمريكية ، ويخرجوا إلى أهليهم خاشعين خاضعين نادمين يعتذرون من الآثام التى ألموا بها أو قارفوها فى حق بلادهم وفى حق آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم وأسلافهم وأعقابهم .

بل يوم يخرج المهدى عن أمواله لمصر والسودان ، ويعفّر وجهه فى ثرى النيل الأعظم ، ويستغفر الله مما كسب من الإثم فى حق مصر والسودان ، أرض آبائه وأجداده ، بل فى حق أبيه الذى لم تتورع بريطانيا عن إهانة عظامه وهو ميت لا يملك دفعًا عن نفسه .

إنه يوم الجلاء الأعظم - يوم يقف كل مصرى سودانى أيامه وساعاته للتكفير عما فرط منه ، ويوم يعمل جاهدًا فى إزالة كل أثر للاحتلال فى نفسه ، ويوم يخرج إلى الطريق ليميط الأذى عنه استعدادًا لمقدمِ الأجيال الحرة التى ترث أرضًا طاهرة لم تلوثها غفلة القرون الماضية أو ضعفها أو استكانتها أو رضاها بالذل والمهانة طمعًا فى مال زائل ومجد حائل .

إنه يوم الجلاء الأعظم ، يوم لا يسمع ثرَى مصر لسانًا أعجميًا من أهله أو من غير أهله ينطق بغير اللغة التى ينطقها الشعب المصرى السودانىّ ، ويوم لا يخرج المصرى السودانىّ فتتحداه تلك الطوائف من شذّاذ الأمم ناطقة بغير لسانه وساخرة من لسانه .

إنه يوم الجلاء الأعظم ، يوم يستطيع المصرى السودانى أن يقف على ثرى أرضه مطمئنًا لأنه حرٌ من أحرار ، وينظر حوله متلفتًا يمنة ويسرة فلا يرى إلا وجوهًا عربية وبلادًا عربية تضم الأحرار أبناء الأحرار .

* * *

نحن العرب ...

إنى لأسألُ نفسى ، كما يسألُ كل عربى نفسه : « إلى أين يسار بنا تحت لواء هذه الحضارة البربرية الحديثة ؟ » وجواب هذا السؤال يقتضى العربى منا أن يلمح لمحًا فى طوايا النفوس وخبايا السياسات ، ويقدمَ الحذر بين يديه ، ليكون على بينة من رأيه ومن مصيره أيضًا . ولعل القارئَ قد فوجئ لإقحام هذا الوصف للحضارة الحديثة بأنها حضارة بربرية ، ولكن لا يعجل بالعجب مما لا عجب فيه فإنه حق بيّن لا تخطئه العين البصيرة .

نعم ! إنها حضارة لم يوجد لها مثيل بعدُ فى التاريخ كله منذ كان آدم إلى يومنا هذا . حضارة قد نفذت إلى أسرار المادة فكشفت عنها كشفًا يسَّر للبشرية أن تقبضَ على زمام الحياة وتصرِّفها فى حيث شاءت وإلى حيث تريد ، وجعلت الإنسان يشعر شعورًا لاخفاءَ فيه بأنه قادر على أن ينشىء التاريخ إنشاءً ، ويبنى الوجود بناء جديدًا ، ويملأ ظلام الليل وضياء النهار حياة وقوة وجلالا ، وينفث فى الأشباح روحًا ويكسوها لحمًا ويعطيها من مقدرته ما يجعلها كائنًا متصرفًا بشىء أشبه بالعقل والإرادة . ونعم ! إنها حضارة قد قامت أركانها على علم جم يعجز المتأمل عن إدراكه وبلوغ آفاقه ، علم تدسس إلى ضمير الأرض والسموات فاسترق السمع إلى نجواه وإلى خواطره فقبس منها قبسًا مضيئًا أنار ظلمات هذا الوجود الذى لا يعلم ما انطوى عليه إلا الله الذى يعلم الخبءَ فى السموات والأرض . ونعم ! إنها حضارة أزرت بالحضارات كلها وجعلتنا نشعر بالقوة التى طواها الله فى هذا « العالم الأصغر » حتى مكن له أن يكون سيد « العالم الأكبر » غير منازع .

نعم : إنها حضارة مجيدة عاتية ، أحيت الإنسانية ورفعت شأنها ، ولكنها على ذلك كله حضارة بربرية طاغية قد امتلأت فسادًا وجورًا وحماقة وفجورًا ،

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٠) ، إبريل ١٩٤٧ ، ص : ٤٣٩ - ٤٤١

حضارة بربرية رفعت الإنسانية من ناحية العقل ، ولكنها قتلت ضميرها ومزقت شرفها ، وجعلتها تشعر بقوة غير شريفة ولا صالحة ولا أمينة فى أداء حق الإنسانية عليها .

والعربى منا إذا نظر اليوم فينبغى أن ينظر أولا إلى هذه « البربرية » من الناحية التى لها مساس به وبحياته وبتاريخه على هذه الأرض ، ليعلم إلى أين تريد هذه الحضارة أن تسوقه ؟ وأى بلاء تريد أن تبتليه به ؟

إن تلك الدول التى صارت دولا فى تاريخ هذه الحضارة البربرية وبمعونتها تريدنا على أشياء وتريد بنا أشياء لابد لكل عربى أن يراها بعين لا تغفل . هذه الدول التى ادعت ولا تزال تدعى أنها خاضت غمار الحرب المبيدة الثانية دفاعًا عن حرية البشر فى الحياة ، وعن رفع مستوى المعيشة فى هذه الأرض ، ترتكب كل يوم من ضروب الخيانات والغدر والنذالة ما لم يشهد التاريخ مثله ، كما لم يشهد مثل حضارتها هذه البربرية .

هذه أمريكا وبريطانيا وروسيا وفرنسا جميعًا ولا نستثنى تزعم كل يوم أنها تغضب للحق ، حق الناس فى الحرية ، وتثور استنكارًا للمظالم التى تفرض على الشعوب العاجزة عن دفع الظلم ، وأنها تحوط الإنسانية من أن يدنسها باغ أو طاغ بجبروته وبطشه ، وهى جميعًا لا تزال تملأ جنبات الأرض عجيجًا وضجيجًا إذا رأت ضيما أصاب شعبًا من الشعوب ، وتتنبل كل منها بالدفاع عنه وبالذياد عن حقه المهتضم ، ونرى أمريكا خاصة ومن دونها جميعًا تذيع بين الناس وتشيع أنها حامية الحضارة ، وأنها حامية الناس من البغى ، وأنها لم تخض غمار الحرب إلا لهذا وحده : أن تحمى الحضارة من الدمار ، وأن تحمى الناس على اختلافهم من البغى . وكذلك تفعل بريطانيا أيضًا ، وهكذا تزعم روسيا ، وهكذا تتبجح فرنسا .

ولكن - هذه فلسطين فلذة أكباد العرب قد شهدت أنذال الأمم يطأون ديارها منذ سكنت الحرب العالمية الأولى ، ثم أخذوا يسيلون عليها سيلا منذ ذلك اليوم يريدون أن يجلوا العرب عن بلادها ليحتلوها وينشئوا فى ربوعها دولة يهودية ، فإذا بنا نرى أمريكا تعينها بالمال واللسان والقلب ، ونرى بريطانيا تغريهم

بما يريدون وتصبرُ على إذلالهم لها صبرًا لم يعرفه قط تاريخ بريطانيا التى كانت تسمى رجال العرب المجاهدين « رجال العصابات » ، ونرى روسيا وفرنسا تلوذان بالصمت المطبق لا تقول ولا تنبس ولا تتحرك دفاعًا عن الحضارة ، ولا دفاعًا عن الهضيمة التى تراد بالإنسانية ، كما تحركت من قبل .

وهذه تونس والجزائر ومرّاكش تجرى فيها المذابح الوحشية التى لم يعرف التاريخ مثلها . فتسيل دماء أربعين ألف عربى ما بين عشية وضحاها ، بين سمع سفراء الدول وبصرها ، فلا نرى أمريكا ولا بريطانيا ولا روسيا تثور أو تغضب أو تقول ، وتمضى فرنسا الباغية تنفذ سياستها فى تدمير شعوب برمتها . تدمر حضارتها وماضيها وقواها وتستل الأرواح من أبدانها بالسلاح غدرًا وغيلة ، وتمتهن الرجال وتسب الأديان وتفتك بالأحرار ، ويرى ذلك ويسمعه سفراء أمريكا وبريطانيا وروسيا المدافعات عن الحرية وعن الحضارة وعن الإنسانية .

نعم ، وهذه فرنسا أيضًا تقيم الولائم للسباع والوحوش فى جزيرة مدغشقر ، فتفتك بأهل الجزيرة فتكا لا رحمة فيه ولا هوادة والعالم كله يسمع ، والإشاعات تتناقل خبر المجازر وتسميها « إخماد ثورة » وتقف بريطانيا صامتة عليها الوقار ، وتدير أمريكا ظهرها قد شغلتها هيئة الأمم المتحدة التى تنظمها للدفاع عن حريات البشر ورد البغى عنهم ! وتنكب روسيا على إصلاح معايش خلق الله ورفع الضَّيْم عنهم بالمساواة بينهم فى حقوق الحياة !

وهذه بريطانيا ترتكب شر الأفاعيل فى السودان وفى إفريقية ، وتقول لأمريكا وفرنسا وروسيا إنى أريد أن أكفل لهؤلاء الناس استقلالهم ، أريد أن أرد عنهم اعتداءَ بنى جلدتهم الطامعين فى استعمارهم ، وأريد أن أترفق بهم حتى أرفعهم من حضيض الجهالات لكى يصبحوا شيئًا فى تاريخ هذه الإنسانية ، فهى تقتل منهم كما تقتل السائمة ، وتدعهم عراة بل تجبرهم على أن يظلوا عراة ليخرجوا لها من ثمرات الأرض ما يرفع مستوى معيشتهم . وتعرف ذلك أمريكا وفرنسا وروسيا فيقولون لها أن نعم ، ولك الشكر ، ونعم ما تفعلين !

وهذه أمريكا تنطلق من معزلها مرة واحدة لتقول للعالم إنى أحمى الضعفاء وأجبر كسر المحتاجين ، وأعين على نوائب الحق ، وأدفع الظلم عن الناس ، وأرفع الضيم عن المضيم ، وترى كل هذا ويراه سفراؤها ورجال جامعاتها فى الشرق ، فلا تكون نصرتها لنا إلا بأن تذهب إلى جزيرة العرب وإلى إيران وإلى بلاد كثيرة من بلادنا لتأخذ البترول ، وتقول لنا سأعطيكم من المال مبلغًا ضخمًا ترفعون به مستوى معيشتكم ، فلا تحملوا المصالح الأجنبية فى بلادكم على محمل سيئ أيها الرجال العقلاء . أما مسألة مصر والسودان ، وأما مسألة مراكش وتونس والجزائر وهذه المذابح والمجازر ، وأما مسألة فلسطين وما فيها من الجور والبغى والعدوان والنذالة ، وأما مسألة العراق وسائر البلاد العربية ، فذلك كله أمور تتم على وجه آخر إذا جاء حينها ، وأنا لا أستطيع أن أتدخل فى شئون الدول ، بل الأمر كله متروك لهيئة الأمم المتحدة إن شاء الله ، فاطمئنوا .

هكذا يرى العربى فعل هذه الدول القائمة على الحضارة والمدافعة عن تاريخ الإنسانية وعن شرفها وعن حريتها : فإذا رأتنا نقول لها الحق ، غضبت وزعمت أننا قوم نتعصب على الأجانب بجهلنا وغباوتنا وحماقاتنا الموروثة ، وصدقوا ، فنحن جهلاء أغبياء ، لأننا صدقنا يوما أن روسيا هبت لتدفع الظلم عن الطبقات المهضومة الحقوق ، وأن بريطانيا ثارت لتدفع الشر عن الإنسانية المهددة بالجبروت والطغيان ، وصدقنا فرنسا أنها هى الداعية إلى العدل والمساواة والإخاء ، وصدقنا أمريكا أنها البريئة المدافعة عن حقوق البشر وتساويهم فى هذه الحياة لا فرق بين صغير الأمم وكبيرها ، أو ضعيفها وقويها ، إننا جهلاء وأغبياء ، لأننا أبحنا بلادنا للأجانب ليرفعوا لنا مستوى العلم والثقافة ، ومستوى العيش والحياة ، فأكرمناهم وآويناهم وخُدعنا بهم ، وحرصنا على أن نجعلهم لا يشعرون بأننا نريد أن نكون حربًا عليهم ، فأنشأوا ما أنشأوا من مدارس ومتاجر وأوغلوا فى بيوتنا وأراضينا فسرقوا منا قلوب أبنائنا وأموال أغنيائنا وفقرائنا ، واستبدوا بالأمر دوننا ، وتركونا لا نستطيع أن ننفذ فى بلادنا ما تنفذه كل دولة من القوانين والأحكام . فإذا أردنا نحن أن نفعل شيئا قليلا مما تفعله الدول لحماية أرضها وأموالها ، ثاروا علينا من الشرق والغرب ومن يمين وشمال يرموننا بالتعصب ،

ويمنون علينا أنهم هم الذين رفعوا مستوى معيشتنا ، وهم الذين علمونا كيف نلبس وكيف نأكل وكيف نشرب .

فهل يحل منذ اليوم لعربى أن يصدق أكاذيب هذه الأمم الباغية فى دعواها ومزاعمها ؟ هل يحل لعربى أن يثق بأن أهل هذه الحضارة التى اشتملت على روائع الفن والعلم والفلسفة ، قد صاروا حقًّا أهل حضارة تستحق أن تسمى حضارة لأنها قربت المسافات بالطائرة التى تخطف فى جو السماء خطفًا ، ومست موات الأرض فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وألقت السحر فى بنان الإنسان فإذا هو طبيب يدفع عوادى الموت عن رجل فى النزع ليس بينه وبين الموت حجاب ؟ هل يحل لعربى أن يصدق شيئًا من هذا كله وهم يكذبون على خلق الله العرب ويغررون بهم ويخدعونهم ويقتلونهم ويذبحونهم بلا رحمة ولا شفقة ولا ضمير يفزع من كل هذه الجرائم البشعة فى تاريخ الإنسانية !

تعس العلم وتعس الفن وتعست الفلسفة ، وتعست هذه الحضارة البربرية ، إذا كان هذا خلقها وهذا ضميرها ! وما نفع العلم والفن والفلسفة إذا هى خلطت لنا نحن العرب بالكذب والوحشية حتى فى الأعمال التى يصفونها بأنها علمية خالصة [١] . إننا على ضعفنا وجهلنا وفقرنا أكرم نفوسًا ، وأعلى أخلاقًا ، وأنبل قلوبًا من أهل هذه الحضارة البربرية التى لا يثور أهلها إلا لحاجة فى نفوسهم ، والذين لا يفزعون مما ترتكب أيديهم من الوحشية فى بلادهم وفى بلاد غيرهم من البشر .

ليعلم أهل هذه الحضارة فى أوربة وأمريكا ، وينبغى أن نعلمهم نحن فى بلادهم وبين ظهرانينا أننا لن نهاب بعد اليوم أن نكاشفهم بعداوة عربية ، لا كعداوتهم هم . تلك العداوة الممزوجة بالرقة والخداع والكذب والتغرير ، إنها عداوة طالب الحق الذى ينتصف لعدوه من نفسه ، وينتصف لنفسه من عدوه ، والذى لا يغمط حقًّا ولا ينكر معروفًا ، ولكنه لا ينسى أن عدوَّه هو عدوه !

---

(١) يحسن بالقارئ أن يقرأ مقالة فى مجلة الكاتب المصرى شهر إبريل سنة ١٩٤٧ بعنوان « بين السياسة والعلم » للدكتور سليمان حزين ، فهى تكشف عن استخدام العلم أحيانًا فى أحط الأساليب السياسية (شاكر) .

ولقد سمع أحد رجالنا ، هو ابن شبرمة ، يومًا عروة بن المغيرة وهو ينشد هذه الأبيات :

لا أتقى حسَك الضغائن بالرُّقى ... فعْل الذليل ، ولو بقيت وحيدا[١]

لكن أعد لها ضغائن مثلها ... حتى أداوى بالحقود حقودا

كالخمر خير دوائها منها بها ... تشفى السقيم وتبرئ المنجودا[٢]

فقال : لله در عروة ! هذه أنفس العرب .

فهذه نفوسنا ، لن تهادن من يعادينا عداوة طويت على الضغائن الصغيرة المحتقرة ، فإذا أنابو وانتصفوا لنا من أنفسهم ، وعرفوا قبح ما أَتَوْا وشناعة ما ارتكبوا ، فيومئذ نصافحهم مصافحة العربى الذى لا يضمر الغدر ولا الغيلة ولا الفتك ، ولا يعرف الكذب ولا المخاتلة .

* * *

(١) الحسك : نَبْتة تضرب إلى الصُفْرة ولها شوك يُسمَّى الحَسَكُ أيضا ، لا يكاد أحد يمشى عليه إذا يبس إلا مَنْ فى رجليه خُفّ أو نَعْل ، هذا هو أصل استعماله ، ثم استعمل فى الضغن والعداوة والبغضاء .

(٢) المَنْجود : الذى أخذه الكَرْب حتى أشرف على الهلاك .

الحكم العدل

يسمع كل عربى ويقرأ أن بلاده فى حاجة إلى « الدعاية » لها فى بلاد الأجانب ، وبخاصة فى أمريكا التى صارت اليوم ملتقى الأمم التى يسمونها الأمم المتحدة . وصارت هذه الكلمة حلوة على ألسنة رجال الصحافة العربية وعلى ألسنة رجال السياسة العربية ، فكلهم يقول لك أو يكتب لك إننا تعوزنا « الدعاية » لبلادنا فى الخارج . ولا بأس فى أن يستحلى رجال الصحافة ورجال السياسة كلمة يديرونها على ألسنتهم ، ويجدون فى طعمها وفى نبرتها وفى جرسها لذة تحملهم على ترديدها واللجاج بها ، ولكن البأس كل البأس أن يفضى استحلاء هذه الكلمة إلى استحلاء صب الملامة والتأنيب على أنفسنا ، ونحت أَثْلاتنا [1] بالتعنيف على ما نرتكب من تقصير فى حق أوطاننا . ولو كان ذلك التقصير حقًّا محضًا لا يعتوره رأى ينقضه ، لكان كثرة اللجاج فيه عملا لا خير فيه البتة . ومع ذلك فلنفرض أنه حق محض ، فما وراء ذلك ؟

نعم إنه لحسن أن نظهر الناس على وجه الحق فى مطالبنا ، وعلى بشاعة الظلم المضروب علينا ، وحسن أن ندعو الناس إلى سماع حجتنا ؛ وحسن أن نزيل من أوهام أولئك الخلق ما علق بعقولهم عنا ؛ وحسن أن نبدى لهم حقيقة أنكروها أو أنكرتها علينا السياسات فصدقوا السياسات وكذبوا أعينهم وأسماعهم . كل ذلك حسن ، ولكن ليس بالحسن أن نأخذ الأمور من أقفائها لا من وجوهها ، وأن ندع الرأى البين إلى الرأى الخفى ، وأن نغفل الحقيقة الواقعة ونبصر الرجاء الذى لا يدرى المرء أيتحقق له أم لا يتحقق .

فمسألة « الدعاية » تكاد اليوم تكون منصبة كلها على الدعاية فى « أمريكا » ، إذ لا سبيل إلى الدعاية فى روسيا بحال من الأحوال ، وبريطانيا هى طرف النزاع

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٢) ، مايو ١٩٤٧ ، ص : ٤٩٦ - ٤٩٨

(١) أثلاتنا : جمع أثلة ، وهى أصل كل شىء .

فى مسألة مصر والسودان ومسألة فلسطين وفى سائر المسائل الشائكة التى يعانى العرب منها ما يعانون ؛ وكذلك شأن فرنسا فى مسألة بلاد تونس ومراكش والجزائر ، فلم يبق إلا أمريكا ، وهى التى يدور حديث رجال الصحافة ورجال السياسة فى وجوب الدعاية لقضايانا فى أرجائها .

فلننظر إذن إلى جدوى هذه الدعاية علينا هناك ، وفى إمكانها قبل جدواها ، وفى حقيقتها قبل جدواها وإمكانها .

فأمريكا لم تزل تزعم منذ الحرب الماضية أنها نصير العدل والحق ، وأنها عدو البغى والعدوان ، وأنها صديق الأمم المستضعفة ، وأنها تبغض أشد البغض كل الاستعمار ، أى أنها الحكم العدل الذى لا يرى بغيًا ولا عدوانًا ولا مظلمة إلا نبض قلبه إشفاقًا ، وتحركت دماؤه اشمئزازًا وأنفة ، وأبى إلا أن يكون كما أراده الله أن يكون حكما عدلا لا يرده عن إقرار الحق والعدل جهد يبذله ، ولا دم يريقه ، ولا مال ينفقه فى سبيل الحق والعدل والحرية .

وهى لا تزال تحقق ذلك - فيما ترى بكل ما آتاها الله من قوة وحيلة ومعرفة ، فهى تتدسس إلى قلب روسيا لتكشف الغطاء عن هذا الوحش الباغى المستقر بين جنبيها ، والذى يخشى أن يكون أشد بغيًا وعدوانًا من الفريق الأول الهالك « ألمانيا » . وهى تتسلل إلى خفايا السياسات فى أرجاء أوربة لتظهر العالم على أساليب روسيا فى العمل لإدخال كل أوربة فى حوزتها وتحت سلطانها ، وهى ترسل جيوشًا لا تحصى من الخبراء والمخبرين ليستطلعوا طلع الحقائق التى تسترها روسيا فى كل حنية من حنايا هذه الأرض ، وهى تؤوى إليها كل شريد أو طريد ناله عسف الروس وبطشهم وتفسح له صدرها ، وتفسح له الصحف أيضًا حتى يقول للناس ماذا تحاول روسيا أن تخبأ عن الناس ، وكيف تفعل روسيا بالناس ، إلى آخر هذا كله .

بل أعظم من ذلك أنها لم تتردد لحظة واحدة فى أن تبذل كل البذل لتركيا واليونان حتى يتاح لهما أن يصدا عن نفسهما بلاء الروس وبطشهم واضطهادهم ، وأن تكونا جبهة مزودة بالقوة التى تعينهما على الجرأة فلا يروعهما تهديد الروس

ولا تخويفهم . ولم تتوان صحف أمريكا عامة عن أن تجعل مسألة تركيا ومسألة اليونان من أعظم المسائل التى تشغل الرأى العام حتى يتهيأ للكونجرس أن يؤازر حكومته فى سياستها التى أرادتها لدرء خطر الروس عن هذين البلدين .

كان هذا كله ليس يشك فيه أحد ، ورأت أمريكا أنها إنما تؤدى بذلك حق الإنسانية عليها ، وتؤدى حق المكانة التى تبوأتها عند الناس ، وتؤدى ما يجب على الحكم العدل الذى لا يبغى إلا إقرار الحق والعدل ، وإزهاق الظلم والجور .

ولكن ما الذى فعله هذا الحكم العدل فى شأننا نحن العرب ؟ كان أول ما فعله أنه طلب باسم الحق والعدل أن تبيح فلسطين أرضها لصعاليك الأمم فتؤويهم وتمهد لهم أن يقيموا فى قلب بلاد العرب دولة يهودية تفعل بهذه العرب ما تشاء ، وسكتت باسم الحق والعدل عن المحرضين من يهود بلادها على انتزاع الأرض عامرها وخرابها من يد العرب لتكون فى يد صعاليك اليهود ، وغفلت باسم الحق والعدل عن شعب يسكن هذه الأرض منذ آلاف السنين تريد اليهودية أن تفقره وتذله وتنتزع منه أرض آبائه وأجداده بالجور والعدوان والنذالة الحديثة التى تسمى قوة المال . ثم أرسل الحكم العدل رسلا من عنده ليدرسوا القضية مع طائفة أخرى من البريطانيين ، فخرجت رسل الحكم العدل وهى ترى أن العرب أمة متأخرة ، وأنه لابد لليهود من أن يستعمروا هذه الأرض ليرفعوا عن هذه الأمة المتأخرة أساطير الجهل وغشاوة البؤس - ولو أفضى ذلك إلى أن يخوضوا فى الباطل خوضًا حتى يبلغوا الحق !

ثم جاءت مسألة مصر والسودان ، فإذا نحن نموج ونضطرب ونفزع من هول الغدر البريطانى وهذه المظالم الاستعمارية ، وإذا الحكم العدل يصم آذانه ويستغشى ثيابه باسم الحق والعدل حتى لا تروعه صرخات المظلومين والبائسين ، وإذا صحافته تضن بكلمة واحدة أن تقولها فى إنصاف هذا الشعب من الظالمين والباغين عليه ، بل لعل أكثرها ذهب إلى خلاف هذا وألح فيه .

وليس يقول أحد وهو يَجِدُّ إن هذا الحكم العدل يجهل قضية فلسطين ؛ ولو هو كان يجهلها حقًّا لكان أول ما تفرضه عليه هذه الحكومة التى تبوأها فى

العالم أن يرسل إلى فلسطين رجالا من أهل سياسته ، ورجالا من أهل صحافته ليدرسوا وينبشوا وينقبوا ويكشفوا خفايا الدسائس اليهودية والبريطانية كما يفعلون فى روسيا وفى أوربة وفى سواهما من بلاد الله . وليس يقول أحد وهو يَجِدُّ إن هذا الحكم العدل يجهل قضية مصر والسودان ، فلو كان حقًّا يجهلها لفعل مثل ذلك حتى يتاح له أن يقف على أسرار هذه القضايا ليحكم بين الناس بالعدل والقسطاس ما دام مصرًّا على أنه حكم عدل لا يبغى من وراء عدله إلا إقرار الحق وإزهاق الباطل . ولو فعل لرأينا الصحف فى بلاده تملأ الدنيا عجيجًا وضجيجًا وبحثًا وتنقيبًا وكشفًا عن خفايا السياسات كما تفعل فى مسائل روسيا وأوربة .

لا ، بل أكثر من ذلك أن لهذا الحكم العدل رجالا طالت إقامتهم فى مصر والسودان ، وفى فلسطين والشام ، منهم رجال الصحافة ومنهم رجال الجامعتين الأمريكيتين ورجال المدارس الأمريكية ، ومنهم رجال الشركات ومنهم غير هؤلاء ممن يُذْكَرون بأسمائهم ومن لا يُذْكَرون . فماذا يفعل هؤلاء جميعًا ؟ أى معروف يسدونه إلى البلاد التى طالت إقامتهم بين أهلها فعرفوهم وخبروهم ؟ أليس فيهم إنسان واحد فيه قدرة على أن يعرف خفايا الدسائس اليهودية والبريطانية فى بلاد مصر وبلاد الشام وفلسطين ؟ أليس لأحد منهم لسان ينطق بالحق دفاعًا عن أمم يكتم الاستعمار حقها ويبطش بها بطشًا وحشيًّا لا رحمة فيه ؟ كلا بل فيه ، ولكنهم حرب علينا ولا يريدون أن يقولوا لبلادهم ، وكأن بلادهم لا تريدهم أن يقولوا - وإلا ففيم صمتهم ، وفيم ممالأتهم لبريطانيا ويهودها وأفاقيها جميعًا من حثالات الأمم ؟ أم ترانا لا نستحق عدل الحكم العدل ؟ أم نحن لسنا بأهل لأن تقال فى حقوقنا كلمة تجعل الحكم العدل يتنبه إلى أن فى الدنيا شعبًا تبلغ عدته أكثر من مائة مليون وعشرين مليونًا من الأنفس البشرية قد ضربه الاستعمار اليهودى والبريطانى والفرنسى ضربات مبيرة مبيدة بغير شرف ولا ورع ولا إنسانية .

أيقال إن رجال الجامعات والمدارس ، وهم أهل العلم والثقافة والأدب ، ليسوا سوى جماعة يعيشون فى سراديب العلم والفلسفة لا يعرفون ما يجرى على

أديم هذه الأرض ؟ وأنهم لا يخالطون أحدًا ولا يخالطهم أحد ؟ وأنهم رجال مقنعون بالأثواب الجامعية من فرع الرأس إلى أَخمص القدم ، فهم عمى لا يبصرون إلا نور العلم ، وصم لا يسمعون إلا نداء الحقائق الخالدة فى الفلسفة ؟

كلا كلا ! إنهم يسمعون ويبصرون ، ولكنهم لا يريدون أن يبينوا عما يسمعون وعما يبصرون ، فإذا أبانوا فلن يبينوا عن الحق ، بل يبينون عن خلافه مما سمعوه من أعوان بريطانيا وأشياع يهود ، ويطعنون فينا كل طعن ، ولا يرون بأسًا من تعظيم أخطائنا وإخفاء صوابنا أو حقنا . بل يمنون علينا أن فعلوا لنا وفعلوا ، وهم يعلمون علم اليقين أننا لو قد كنا أحرارًا فى بلادنا لفعلنا لأنفسنا ما لا يستطيعون هم ولا سواهم أن يفعلوه لنا .

ثم فليخبرونا : أنحن الذين يجب علينا أن نتولى الدعاية لبلادنا فى بلادهم ؟ أيجب علينا أن نذهب إلى الحكم العدل الذى يرسل إلى بلاد الله سوانا من يعرف خبايا أسرارها ، فنقول له بألسنتنا إن حجتنا كذا وكذا ، وفضائلنا كذا وكذا ، ونعدد له مناقبنا ووجوه حقنا ومظالم عدونا ، فإذا به يسمع لنا ويقنع بما نقول نحن ، وينسى كل ما تقول بريطانيا واليهود ، وإذا الرأى العام الأمريكى قد أصبح معنا !!

كلا ليس هذا بمنطق ولا حق ، بل الحق هو أن الحكم العدل هو الذى يجب عليه أن يتتبع حقائق القضايا ويرسل رجاله ورجال صحافته ليعرفوا ويسألوا ، ويجب عليه أن يطالب المقيمين من أهله فى بلادنا أن يقولوا الحق غير متجانفين ولا باغين ولا تابعين للأهواء والعصبيات ، وأن يتولى هو وصحافته بيان الحق فى ذلك كله حتى يستطيع أن يحكم بالعدل ، وإلا كان حَكَمًا لا يصلح للحُكْم .

أما دعاتنا الذين يحرضوننا على « الدعاية » لأنفسنا فى بلاد الحكم العدل ، فليعرفوا أن الصحافة هنا لن تقبل منا أن ننشر ما نشاء إلا أن ندفع عليه مالا كثيرًا ، وهم ينشرون لنا على أنه « إعلان » لا أكثر ولا أقل ، وأن القارئ سوف يقرؤه على أنه إعلان لا أكثر ولا أقل . فإذا كان لنا أن نرجو خيرًا من الحكم العدل ، فهو يوم يلين قلبه ويرق ويشعر أننا أهل لأن ترفع عنا المظالم ، ويومئذ يرسل إلينا من يسألنا

ويستخبرنا ويعود لقومه قضاة الحق أن أنصفوا مظلومًا طال ظلمه ، وأما قبل ذلك فلا . وإن كان هذا لا يمنع أن نبذل من الجهد ما نرجو أن يوقظ الحكم العدل من سباته الذى طال كما طال ظلمنا . وقبل ذلك فلنحذر أن نلوم أنفسنا على تقصير لم يكن ، لأنه ليس تقصيرًا بل هو معرفة للحقيقة الظاهرة وهى أن الحكم العدل لا يريد أن يكون معنا نحن العرب دون الناس جميعًا - حكما عدلا .

* * *

هى الحرية

قالوا فى قديم الأمثال : « ليس المتعلق كالمتأنق » ، فالرجل الذى أنعم الله عليه بسعة العيش ، وأرخَى باله من هموم الحياة ، مطيق أن يتأنى فيما يختار لنفسه متذوقًا ومتخففًا حتى يرضى ، أما الذى قَدَر اللهُ عليه رزقه فهو كاالسهم فى الوتر المشدود ترمى به يد الحاجة إلى هدف يتخايل له أو يتحقق ، وهو لو أراد لما أطاق إلا الذى فعل لأنه مدفوع بالاضطرار . ورب سارق لم يجد من السرقة بُدًّا لأنه دفع إليها بحاجة طبيعية لا يطيق أحد خلافها ، وهو التعلق بالحياة والإبقاء على النفس ، فهو يريد أن يطعم الغريزة التى تلهب أحشاءه بالجوع المهلك . ومهما تكن روادع نفسه ، ومهما تكن قوتها ، فهو منتهٍ إلى ساعة لا يجد عندها إلا أن يمد يده ليأخذ شيئًا يمسك عليه رمقًا يوشك أن يتبدد . وما مد الرجل يده ، ولكن الحياة هى التى مدتها ، فهو خليق أن لا يكون عندئذ مسئولا عما فعل . وكذلك الشأن فى أحداث كثيرة تكون فى هذه الحياة الدنيا وفى هذا الناس ، فإن المجتمع الإنسانى يعنف بأبنائه أحيانًا ويعتسف بهم أضل المجاهل ، لأنه لا يبالى بأن يكفل لأبنائه جميعًا حاجتهم التى لا غنى لأحد منهم عنها ، ولأنه يغفل فى فورانه عن الطبائع الأولى التى تتطلب زادها من الحياة ، والتى إذا فقدت هذا الزاد لم تبق على شىء ، ولم تَرْعَ شيئًا ، ولم تَرْعَوِ عن شىء . وهذا ضلال قديم فى نظام المجتمع الإنسانى ، أراده الأنبياء بالإصلاح ، وأراده عقلاء المفكرين بالتغيير ، فأدركوا شيئًا ووقف بهم العجز عن كثير ، لا من عجز فى هدايتهم أو آرائهم ، بل من عجز المجتمع عن أن يدرك سمو الأغراض التى رمى إليها الأنبياء والمفكرون .

وفى عصرنا هذا أمثال كثيرة على تغلغل الفساد والجهل والعسف وقلة المبالاة

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٤) ، مايو ١٩٤٧ ، ص : ٥٥٢ - ٥٥٤

فى قلب المجتمع الإنسانى . أمثال يكون فيها الأفراد هدفًا منصوبًا لاضطهاد جماعة الأمة أو الشعب ، وأمثال تكون فيها الأمة هدفًا لاضطهاد جماعة الدول أو الشعوب .

فليس فى الأمم اليوم أمة لا تتداعى وتتنادى باسم الحرية : حرية الفرد ، وحرية الفكر ، وحرية العقيدة ، وحرية التجارة إلى آخر هذا الحشد من الحريات ، فهى بذلك تقرر جميعًا أن الحرية أكبر أغراضها ، وهذا طبيعى ، لأن الحرية هى إحدى الطبائع المستقرة فى الإنسان الفرد ، وهو يطلبها طلبًا حثيثًا ملحًا ، حتى ولو اضطر أن يستعبد نفسه لعمل يكدح فى سبيله طول حياته ، ولكن غايته من هذا الكدح هى أن يتحرر من الكدح وهذا إحدى عجائب الطبيعة البشرية .

نعم إن الحرية غاية الفرد التى يسعى إليها وهو وحيد فى مشاعره وفى بعض وجوده ، ولكنه إذا صار فردًا من جماعة كان للجماعة سلطان على هذه الحرية وتصرفها ، وهو شىء من حقها أيضًا . ولكنها إذا أرادت أن تتعسف وتحرمه حريته فقد أساءت من حيث أرادت الإحسان ، ولا تكون الجماعة رشيدة حتى تعرف أن الحرية حاجة طبيعية لابد للفرد من الاستمتاع بها على وجه من الوجوه ، فلابد إذن من أن تتيح أوسع ما يمكن من مجال تتصرف فيه الحرية على الأسلوب الذى يجعلها وافية بحاجته الطبيعية . ومن هنا يأتى الفرق بين نظام ونظام ، فيكون هذا بغيضًا مملولا ، وذاك محببًا مألوفًا .

والأمم اليوم فى جماعة الدول بمنزلة الأفراد فى الجماعة ، فلا بد للنظام الذى يريد أن يكون محببًا مألوفًا من أن يتيح للأمم جميعًا أوفر قسط من الحرية يتيح لها أن تتصرف على الأسلوب الذى يجعل الحرية وافية بحاجتها الطبيعية ، فإذا لم تفعل ذلك جماعة الدول انتقضت الأمم المسلوبة حريتها ورأت ذلك النظام بغيضًا مملولا ، وكرهته وكرهت أهله ، وصارت حربًا على الجور والعسف حتى تنال حريتها وتستمتع بها طبقًا لحاجتها الطبيعية . ومن أجل ذلك فيما زعموا ، أنشأوا هيئة الأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية .

ولكن ماذا نرى من فعل جماعة الدول اليوم ؟ إنها جميعًا قد أنكرت بأسلوب

يجمع بين الخسة والمكر والنفاق ، أن تكون فلسطين المضطهدة أمة عربية مستقلة حرة كما تشاء الفطرة الإنسانية ، وأرادوها أن تكون يهودية تفتح أبوابها لأنذال أمم الأرض ، فهم يتدسسون إليها من كل حدب ومن كل فج ، وهم يزمعون أن يغزوها بأجساد يهودية تتساقط من الطائرات على أرضها ، وأرادوها أن تظل ساكنة هادئة مطيعة حتى تمتلئ جنباتها بالأنذال الذين يريدون أن يحولوها عن عربيتها إلى يهوديتهم .

وهذه الأمم التى كانت ، ولا تزال تتداعى وتتنادى باسم الحرية ، تسمع وتبصر ، فيسكت بعضها ويمالئ بعضها ، ويعاضد بعضها ، وتأذن جميعها للصهيونية الخبيثة أن تزرع بذورها الخبيثة فى الأرض الطيبة . فإذا قامت العرب تناديهم باسم الحرية حاوروها وداوروها وتندلوا معها بكل أساليب الخسة والخداع والنفاق ، لأنهم يريدون أن لا تكون الحرية حقًّا لهؤلاء العرب ، ويريدون أن تكون يهود عونًا لهم على سلب هذه الحرية من العرب ، ولن يبلغوا بإذن الله ما يريدون .

ثم هذه مصر والسودان ظلت أكثر من خمس وستين سنة وهى تتفزع من ثقل النير المضروب عليها ، فلما جاءت الساعة التى لا تطيق معها صبرًا على ضروب الذل والهوان التى لقيتها من احتلال جيوش بريطانيا ، ومن احتلال شذاذ الآفاق الذين نزلوا أرضها فرتعوا فى نواحيها كما يرتع السوس فى الصوف فى الصيف ، كما يقولون ، ولما جاءت الساعة وطلبت الفطرة الإنسانية فى مصر حاجتها من الحرية التامة التى تتنادى بها تلك الأمم ، لاذت تلك الأمم بالصمت ولجأت إلى الخداع وتلفعت بالنفاق ، ويوشك أن تنكر على مصر والسودان حقوقهما فى هذه الحرية العامة التى ينبغى أن تستمتع بها البشرية كلها أممًا وأفرادًا .

بل أعجب من ذلك أنها لجأت إلى أدنأ الأساليب يوم أرادت تفريق كلمة المصريين بأن يوقعوا الشقاق بين أهل دينين ظلا أجيالا يتعاشر أهلهما بالمعروف . فلما سقط فى أيديهم وأخفق سعيهم وحبطت أعمالهم ، انحازوا إلى أسلوب آخر هو تسليط جماعة من المرتزقة يقال لهم المراسلون الصحفيون ، يذيعون عنا كل خبيث بكل لسان لا يرعون حرمة ولا ذمه ولا عهدًا . وحرضوا أيضًا أعوانهم من

الأجانب الذين عاشوا فى مصر طويلا أو قليلا ، ليجلسوا فى المجالس ويذيعوا أن بلادنا وبلاد العرب جميعًا تسيء اليوم إلى الأجانب . ويعنون بذلك أنه منذ جلا الإنجليز عن جزء من مصر ، صار المصريون وحوشًا مفترسة تعتدى على الأجانب وتهينهم وتزدريهم قولا وفعلا . وكل ذلك يتناقله المراسلون الصحفيون من المرتزقة ، ويرسلونه ليذاع فى الصحف فى جنبات الأرض . ونحن نعلم علم اليقين أن هذا ليس من فعل المرتزقة أنفسهم ، بل هو من حث بعض الدول وإغرائها لهم بأن يقولوا هذا ويذيعوه ويتناقلوه بينهم وبين من يلقون .

هذا ، والأجانب أنفسهم قد عاشوا فى مصر مع بريطانيا خمسًا وستين سنة ، وهم يمتهنون المصريين ويسيئون إليهم فى أنفسهم وأموالهم وأرضهم وعقائدهم ، حتى ألفوا هذا النوع من الغطرسة ، فلما جئنا اليوم نأباها عليهم كما تأباها بريطانيا وأمريكا وكل بلد قل شأنه أو ارتفع ، تصاخبوا علينا ، وراحوا يبسطون ألسنتهم وأفعالهم فينا وفى أخلاقنا وعاداتنا ، فإذا أراد أحدنا أن يكفكف من شر أحدهم ، انطلق يزداد صخبًا وجلبة يستصرخ الدنيا كلها على هؤلاء المتوحشين الذين يسمون المصريين . ومع ذلك فمصر منذ عشر سنوات هى مصر اليوم لم يزد ما كان يلقاه الأجانب أمس فيها من رد وقاحتهم وجرأتهم علينا ، على الذى يلقونه اليوم من ذلك ، ولكنهم سمعوا ألسنة هؤلاء المرتزقة تذيع عنا الأباطيل ، فانطلقوا يتصايحون علينا كأننا صادرنا أموالهم وأجليناهم عن بيوتهم ، ونصبنا لهم المشانق، وأعملنا فيهم استئصال الشأفة كما كان يفعل طاغية ألمانيا باليهود !!

ثم تأتى المرتزقة من المراسلين فتزعم أن بلادنا قد أصبحت متطرفة فى الحماسة للحرية ، وأن كلمة « مصر للمصريين » قد أصبحت أهم كلمة فى مصر ، ويقوم صعلوك منهم يقول : « ولذلك لا يعجب المرء كثيرًا حينما يراهم (يعنى المصريين) قد ضلوا الطريق ! ولكننا نعجب حينما نتساءل : إلى متى سوف يستمرون فى اندفاعهم الذى لا يكبح جماحه من أجل الحرية ؟ » .

ونحن نأسف لأن الشعب المصرى لا يزال هادئًا صابرًا على كل هذه الوقاحة

التى يصبها علينا مرتزق بين ظهرانينا ، ونأسف لأن حكومتنا المصرية لا تزال هادئة صابرة ، بل مجاملة أشد المجاملة لهذا النوع من المرتزقة . وكان خليقًا بأية حكومة فى الدنيا - لا حكومة مصر - أن تعرف أولئك الذين أذاعوا أنباء غير صحيحة فى طائفة من المسائل التى تتعلق بمصر ، وأن تقول لهم إنكم كذبتم ، فإما أن تكفوا عن إذاعة هذه الأكاذيب ، وإما أن تغادروا بلادى . ثم ترفع كل الأدلة التى تفضح كذب هؤلاء الكذابين من المرتزقة إلى حكوماتهم ، وأن تبرىء ذمتها من دخيل لا يرعى أدبًا ولا خلقًا ، ولا يعرف قدره ولا أقدار الناس !

إننا نطلب الحرية وسننالها ، وسنكون أحرارًا فى بلادنا نسوسها بالسياسة التى نرتضيها لأنفسنا . ونحن لن نرضى لأنفسنا إلا الإنصاف ، ننصف أنفسنا ، وننصف من يعاشرنا من الأجانب . ولكن إذا ظن الأجانب أن هذا الإنصاف الذى لهم ينبغى أن يكون على ما تعودوه منذ خمس وستين سنة ، من امتهان المصريين ومن الغطرسة عليهم ، ومن بقائهم طبقة واحدة ترى أنها أنبل منا ، وأشرف منا ، وأحسن عقلا منا ، وأولى بثروتنا منا ، وأحرى بالامتياز من كل مصرى يعيش على أرض مصر - فيومئذ سوف ننصفهم أيضًا ، ولكن بما نرضى به نحن غضبوا أو رضوا ، وضجوا أو سكتوا .

أما الدول التى تتنادى باسم الحرية ، والتى تنكر على مصر والسودان ، وعلى فلسطين ، وعلى العراق ، وعلى بلاد المغرب كلها - أن تكون أممًا حرة ، فلتفعل ما تشاء ، لأن هذه العرب لن تهادن إلّا مَن يهادنها ولن تجامل إلا من يجاملها ، ولن تعاون إلا من يعاونها ، ولن تمد يدها إلا إلى من يمد لها يدًا نقية من الغدر والفتك والنفاق .

الحرية حق طبيعى ، فنحن بالغوه ومدركوه شاءت الأمم أم أبت . والقوة الدافعة إلى طلب الحرية غريزة فطرية ، فنحن خاضعون لها حتى تحقق غايتها شاءت هذه الأمم أم أبت . والإنصاف طبيعة فينا ، فنحن سننصف أنفسنا وننصف من يعاشرنا ، رضى بذلك من رضى وكرهه من كره . وهذا كله شىء ليس لنا فيه خيار ، لأننا كدنا نموت ونريد أن نحيا . ونحن نتعلق فى حياتنا هذه كالجائع

المشرف على الهلاك حين يتعلق بكسرة خبز ورشفة ماء ، هى الحرية ، وأما هم فيريدون أن يتأنقوا ويتنبلوا ويتفاصحوا باسم الحرية التى يريدون بها حريتهم هم مقرونة بالاعتداء على سواهم من الشعوب المتعلقة بالحرية أمثالنا نحن .

وسوف يأتى على الناس يوم وتظهر العرب ، وتعلم هذه الأمم كيف تكون الحرية ، ثم تقودها إلى هذه الحرية مرغمة كما يُقاد الجمل .

* * *

قضى الأمر ...

قضى الأمر ، وانتهت الحكومة القائمة عن ترددها ، وألفت الوفد الذى سيذهب إلى مجلس الأمن ليعرض موضوع الخلاف الذى بيننا وبين بريطانيا . وعن قليل سيسمع العالم كله لقضية مصر والسودان ، ويصغى إلى حجتنا التى ستلقى إليه ، وإلى حجج بريطانيا فى دفاعها عن الذى تدعيه . ولو كان الأمر أمر عدل وإنصاف وبعد عن التحيز وأنفة من الظلم ، لما بالينا أن ندعو حكومتنا أو شعبنا إلى خطة سوى عرض القضية كما هى ، بلا حاجة إلى تتبع سوءات بريطانيا وعورات أفعالها . ولكن لا عدل ولا إنصاف ، بل هو التحيز والظلم . هذا ما ينبغى أن نتوقعه بعد الذى كان من موقف الأمم الغربية والأمة الروسية من أعظم قضايا الشرق وأوضحها برهانًا وأبينها حجة ، أعنى قضية فلسطين .

ولسنا نقول هذا تثبيطًا لوفدنا أو لشعبنا ؛ كلا فإن القضية المصرية السودانية قضية للجهاد لا للسياسة . فلنفرض أن الأمم ظلمتنا وتحيزت لبريطانيا فجارت علينا وضلعت [1] معها فلن يضيرنا ذلك ، بل هو الداعى الأعظم إلى الاستماتة فى الجهاد إلى أن ننال حقنا غير منقوص ولا مهتضم . ولكن هذا الأمر المخوف أو المتوقع يوجب علينا أشياء لا مناص لنا من المحافظة عليها والحرص على أدائها .

فقد كان من سياسة بريطانيا قديمًا أن تمزق وحدة هذا الشعب وتوقع بين أبنائه العداوة والبغضاء وقد فعلت ، فصارت أحزابنا أحزابًا تسيّرها شهوات رجال يتطلعون إلى مناصب الحكم كما يتطلع الظمآن إلى الماء أو سراب الماء وكان من سياستها أن تلاين وتساير حتى يصبح السودان شيئًا قائمًا بذاته أو كالقائم بذاته ، ففعلت . وكان من سياستها أن تغرى شهوات قوم من أهل السودان بالحكم

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٦) ، يونيو ١٩٤٧ ، ص : ٦٠٨ - ٦٠٩

(١) ضلعت معها : مالأتها وساندتها .

أو السلطان ، ففعلت ، وانقسمت فئة من أبنائه مضللين بوعود كاذبة لن تتحقق ، وخرجت عن بقية الشعب مؤزرة بالمال ففجرت ومردت ، وبريطانيا من ورائهم تنفخ فى نيرانهم حتى يأتى اليوم الذى يجعلونهم فيه حربًا على بلادهم وهم يظنون أنهم يعملون لخيرها وفلاحها . تم ذلك كله لبريطانيا ، ولكننا مع ذلك لا نبالى به قليلا ولا كثيرًا ، لأننا نعلم أن هذا الشعب المصرى السودانى شعب كريم ذكى الفؤاد ، تجتمع قلوبه عند المحنة يدًا واحدة على عدوه الباغى إليه الغوائل .

بيد أننا الآن فى ساعة غير التى كانت بالأمس ، فالقضية المصرية السودانية سترفع عن قليل إلى مجلس الأمن ، أى مجموعة من الدول لبريطانيا عليها فضل ، أو لها عليها تأثير . والزمن الذى ستعرض فيه لن يطول كما كانت تطول سياسة بريطانيا . وإذن فقد أصبح واجبنا نحن أن نتآزر ونتداعى ولا ندع هذه الفرصة تفلت منا ونحن عنها غافلون .

ليكن الوفد الذاهب إلى مجلس الأمن وفدًا لم تجتمع له الصفات التى تنبغى أن تجتمع لوفد مصر ، وليكن رئيس الحكومة الذى سيرأس الوفد رجلا غير الذى كانت ترجوه بعض الأحزاب ، وليكن أعضاء الوفد رجالا غير الذين كنا نتوقع أن يكونوا – ليكن كل ذلك ، ولكن أليسوا مصريين سودانيين يجاهدون ما استطاعوا فى سبيل حق مصر والسودان فى الحياة الحرة التى تنبغى أن تكفل لكل حى ولكل أمة ؟ أليسوا رجالا منا قد انبروا للمحاماة عنا فى مجلس يخشى أن يكون أقرب إلى عداوتنا منه إلى صداقتنا ؟ أليس مطلبهم هو مطلب مخالفيهم من سائر الأحزاب فيما يخص قضية مصر والسودان ؟ بلى ، وما أظن أحدًا من مخالفيهم يستطيع أن يقول خلاف هذا أو يدعى نقيضه .

وهذا المجلس الذى هو أقرب إلى العداوة منه إلى الصداقة لن يفرق بين مصرى نختلف عليه أو مصرى نتفق عليه . وبريطانيا لن تكون أقل عنفًا ولجاجة إذا كان الذى يرتفع بالقضية إلى مجلس الأمن إنسانًا اتفق المصريون والسودانيون عليه ، لأنها تريد بكل ما تبذله أن تأكل حق هذا الوادى وتحيف على مستقبله ، لا تبالى بما يسمى أقلية أو بما يسمى أكثرية . وإذن فالعقل قاض علينا بأن نلقاها

ونلقى مجلس الأمن يدًا واحدة وعلى قلب رجل واحد أيًا كان هذا الرجل . ونحن نعلم أن هذه دعوة قد كثر الداعون إليها فباءوا بالخيبة مرة بعد مرة ، ولكن كان العذر عندئذ قائمًا ، فإن الحكومة لم تكن قد ارتفعت إلى مجلس الأمن بعد ، وكان هناك مجال لشهوات الأحزاب أن ينال أحدها فضل التقدم للدفاع عن حقوق مصر والسودان . أما الآن فقد قضى الأمر ، فمصر والسودان تطالب أحزابها بحقها عليها ، فإذا أحجم أحدها ، أو أحد رجالها ، عن الذى تقضيه عليه حقوق الوطن ، فذلك « خائن » ، خائن بالمعنى الصريح التام الشامل الذى تنطوى عليه هذه الكلمة .

وكلمة الخيانة كلمة عظيمة نأنف أن يتصف بمعناها مصرى سودانى لأنها تصم صاحبها بأنذل ما يكون فى طبيعة البشر ، وهى جريمة لا تغتفر ، وجزاؤها جزاء لا يحد . ولا نظن أحدًا أحب أن يعرض نفسه لها راضيًا عامدًا قط ، بل الظن أنه إنما يخطئ وجه الصواب فيقع فى أقبح العيب ويخوض فى أشنع العار . وقد جاءت الساعة التى توجب على كل مصرى سودانى أن يقف ساعة ساكنًا هادئًا مفكرًا متورعًا خشية أن يقع فى هذه الخطيئة أو يلم بهذا الإثم ، وأن يحرر نفسه لحظة من شهواتها الجامحة ، وينفض عن قلبه غبار أعوام من الأحقاد الحزبية والسخائم الوزارية ، ليتطهر لوطنه ولبلاده ، وليستهدى بهدى الوطن فى ساعة المحنة . إنها أعظم خطيئة يقارفها مصرى سودانى منذ اليوم ، لأنها خذلان لوطنه فى ساعة يرى فيها الأعداء يتناهشونه من كل مكان ، ويريدونه بالشر من كل ناحية ، ويكيدون له أخبث الكيد فى كل أرض .

ولن يضير أحدًا أن يكون له رأى يخالف هؤلاء الرجال الذاهبين إلى مجلس الأمن فى شئون لا علاقة لها بمجلس الأمن ، فيدع عناد الرأى إلى مناصرة الحق - بل إلى مناصرة وادى النيل فى حقه الطبيعى الذى لا يعرف الرجال وآراءهم وسياساتهم ، بل يعرف حقه على أبنائه من أى رأى كانوا ، وفى أى زمن ولدوا ، وعلى أى دين نشأوا . أقول هذا وأنا غير يائس من أن تجتمع كلمة هؤلاء المختلفين على هذا الحق البيِّن الذى لا ينازع فيه عاقل .

وأنا أدعو « الكتَّاب » الذين أنتسب إليهم بهذا القلم ، أن يجتمعوا على رأى واحد ، ويقوموا مرة واحدة لدعوة الشعب إلى الطريق الحق ، وأن يبرئوا أقلامهم من الأحقاد الصغيرة التى أنشأتها بينها بريطانيا يوم مزقتنا أحزابًا ، ليملأوها بالحقد الأعظم على العدو الأعظم الذى لم يدع لنا عرضًا إلا هتكه ، ولا فضيلة إلا لوَّثها ، ولا كرامة إلا تهجم عليها بالتحقير والتشنيع . وإنما أوجه دعوتى إلى الكتَّاب ، لأنهم هم أصحاب الرأى الأول ، وهم بناة الأمم ، وهم حياة الشعب ، وهم القوة التى تؤازر الضعيف حتى ينال حقه ، وتلطم الجبار حتى يدع الحق لأهله . إن التبعة الملقاة على كواهل الكتَّاب ، هى أعظم تبعة ألقيت على مصرى سودانى فى هذه الساعة ، فهى أعظم من تبعة الوفد الذاهب إلى مجلس الأمن ، لأنه بدونها لا يستطيع أن يواجه هذه الأمم مواجهة النّد للنّد ، ومواجهة صاحب الحق لظالمه ، ومواجهة المؤمن بقضيته للكافر بهذه القضية . ولو فعل الكتَّاب ما يوجبه عليهم حق مصر ، فلن يستطيع مخالف أيًا كان أن يفتَّ فى عضُد الذاهبين بقضيتنا إلى مجلس الأمن ، وليس اليوم يوم لهو ولا لعب ولا شهوات ، بل هو يوم الجد والصبر والزهد ، وظنّى بالكتَّاب أنهم أسرع الناس إلى معرفة مفصل الصواب فى كل أمر ، فلن يخطئوا أن يعرفوا ذلك وثرى مصر والسودان يهمس لهم داعيًا مؤلبًا حافزًا على العمل لتحرير بلادهم من نير العبودية .

وأنا مؤمن بأننا سننال حقوقنا كلها كاملة ، شاء مجلس الأمن أم أبى ، وبأننا صائرون إلى ساعة تجتمع فيها القلوب المصرية السودانية على كلمة واحدة ، شاء رؤساء أحزابنا أم أبوا ، وبأن المستقبل قد بانت لنا معالمه ، فإن عميت عنه عيون قد تقادم عليها الزمن فخبا ضوؤها ، ففى الوادى عيون ناظرة مبصرة لم تطمس نورها حزازات الماضى ولا شهوات الحكم ، وأنهم هم الذين سيحكمون على الرجال حكمًا لن يرد ، إنهم مصر والسودان أيها الساسة ، فاحذروا مصر والسودان وأحكامها عليكم ، فمن وضعته فهو الموضوع إلى يوم الفصل ، ومن رفعته فهو المرفوع إلى آخر الدهر !

* * *

أسد إفريقية

إلى أسد إفريقية الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى .
السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبعد :

ملأت فضائلك البلاد ، ونقبت
في الأرض ، يقذفها الخبير إلى العَمِى
فكأن مجدك بارق فى مزنة
قِبَل العيون ، وغرة فى أدهم (١)
واليوم مُقْذٍ للعيون بنقْعِه (٢)
لا يهتدى فيه البنان إلى الفم
لم يبق غير شفافة من شمسه
كمضيق وجه الفارس المتلثم

فأنت ، أبقاك الله ومتعك بالعافية ، قد كنت فى تاريخ العرب الحديث نفحة علوية من مجد آبائنا الغر الميامين ، وكنت فى ضمير كل عربى صدى للأمانى البعيدة التى لا تزال ترددها دماؤنا فى أبداننا العربية الحية ، وكنت قبسًا من فضائل أسلافنا يحدث عن نفسه بلسان عربى مبين ، وكنت برهانًا جديدًا لأهل البغى على أن العربى لا يذل أبدًا ولا ينام على الضيم يراد به . ثم كتب الله لك بعد عشرين سنة من الأسر أن تعود كما كنت عربيا حرًّا حَمِىَّ الأنف ذكى الفؤاد ، تأنف لأمتك وعشيرتك أن يروا ميسم ذلهم وهوانهم على جبين أكرمه الله بالنصر مرة ، وامتحنه بالأسر تارة أخرى . فعش فى حمى مصر أيها الرجل أميرًا على

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٢٨) ، يوليو ١٩٤٧ ، ص : ٦٦٣ - ٦٦٥

(١) المُزْنَة : السحابة البيضاء المحملة بالماء . الغُرَّة : بياض فى جبهة الفَرَس . الأدهم : الأسود .

(٢) النَّقْع : الغبار ، وأكثر مايستعمل فى الغبار الذى يُثار فى المعارك .

قلوب مليون نسمة من العرب وأربعمئة مليون من المسلمين ، وجزاك الله عما قدمت للعرب أكرم جزاء وأوفاه .

كنتُ يومئذ فى العقد الثانى من عمرى شابًا ينبض بين جنبيه قلب يتلفت إلى مجد آبائه ويحن إلى تاريخهم حنينًا طويلا كأنه لوعة ثكلى على وحيدها ، وكانت مصر كلها لا تزال ترسل الصرخة إثر الصرخة طالبة أن تنال فى الحياة حريتها التى استلبها البغاة الطغاة شياطين الأرض ، وكانت الدماء فى أبداننا تريد أن تطفى ظمأ الأرض المصرية بما يجرى على ظهرها من دماء الشهداء حتى تمحوا عار الاحتلال عن هذه الأرض المطهرة ، ولكن زعماءنا أبوا إلا السلم وطمعوا أن ننال حقنا بالمفاوضة ، أى بخديعة الغاصب حتى ينخدع لنا فيترك لنا ما سلب .

ثم أصبحنا يومًا فإذا بنا نسمع عن « أسد الريف » الذى هب من غابه ونفض نواحيه وزمجر واجتمع للوثبة ، وإذا هو يضرب يمينًا وشمالا لا يدع للأسبان متنفسًا حتى اضطرهم إلى أقبح مواطن الذل تحت قدميه ، وأوردهم شرائع العار شَلًّا [(١)] وطردًا حتى سجدت له تلك الجباه المتغطرسة فى حمأة من الضراعة والذل .

كانوا يريدون أن يسوموا أهل مراكش أن يسجدوا لهم فى مثلها ، فأبيت إلا أن تعرفهم أقدارهم تحت هاتين القدمين الطاهرتين النبيلتين ، فأتم لك الله النصر عليهم كما شاء .

ثم أراد الله أن يعرفنا ويعرفك أن أنذل من النذل ناصره على نذالته ، فهبت إليك تلك الدولة الأخرى المعروفة باسم فرنسا ، وهى يومئذ ثانية أمم الأرض فألبت عليك جيوشها وجحافلها « وبيتانها » [(٢)] ؛ وفزعوا إلى نصرة الأسبان المهزومين ، وظلوا يستجيشون عليك ، أنت الضعيف الفرد ، كل ما آتاهم الله من بسطة فى العلم وقوة فى البأس ، حتى غلبوك على أمرك ، ثم خدعوك ، ثم غدروا بك ، ثم نفوك على عادتهم من فساد الطوية وحقارة الفعل . فأصبح كل عربى

---

(١) الشَّلّ : السَّوْق العنيف الشديد .

(٢) بيتان : مرشال فرنسى مشهور ، كان قائد جيوش فرنسا ، ثم استسلم لجيوش المحور ، وكوّن حكومة فيشى .

على ظهر الأرض يحس أنه الأسير المنفى المغدور به ، وانطوت قلوبنا على بغض لا ينام لهذه الأمم التى لا شرف لها ولا ذمة ولا عهد .

ثم تقضت الأعوام وشارفتُ الأربعين ، وإذا أنت حر طليق فى أرضى وبلادى ، فما كدت أسمع ذلك حتى انطوت أيامى وعدت كما كنت فى نحو العشرين ، شابًّا يحس دماءه تغلى لهذا النبأ كأننى انطلقت من الأسْر وخرجت من المنفى لأعيش حرًّا طليقًا كما تعيش أنت اليوم فى مصر . ومصر هى أم المروءات ، فإن ساء ذلك فرنسا أمَّ الغدر والخيانة ، فإننا لن نفارق أخلاقنا وأخلاق آبائنا لكى نعينها على آثامها ومساوئها ، بل سنرد عليها بغيها مهما لقينا فى ذلك من سوء أخلاقها وقبح فعالها .

ونحن لا نعلم علمًا يقينًا ماذا فعلت بك هذه الأمة الحريصة على ابتذال عرضها بين الأمم ، أيام كنت فى مَنْفاها ، ولكن كفانا طول الاستقصاء أن نعلم أنها حرمت على تلك الألسنة العربية الصغيرة فى أبنائك أن تعرف منطق آبائها وأسلافها ، فقد اضطرتها بجبروتها وقسوتها أن تتجافى عن الكلمة العربية التى تمثل للعربى أمجاد أمته فى ألفاظ من نور هذه اللغة الشريفة . وسيقولون إنك أنت الذى أردت لأبنائك أن ينشأوا على ذلك اللسان الفرنسى ، ولكن كذبوا فما من عربى يطيق أن يدع أبناءه الأحرار فى أسر لغة أخرى غير اللغة الحرة التى عاش عليها آباؤهم وأجدادهم . ولست أشك فى أنهم قد اتخذوا لذلك كل وسيلة حتى لم يدعوا لك حيلة تدفع بها عن قلبك حسرة الأب العربى وهو يرى أبناءه ينشأون غرباء عن لسان أمهاتهم اللاتى أرضعنهم بدَرّ عربى حر آبٍ للضيم طالب للعزة والشرف والنبل .

وقد أراد الله غير ما أرادوا ، فها أنت اليوم بين أهلكِ وعِشيرتك من أهل مصر ، وهؤلاء أبناؤك هم أهلنا وإخوتنا ، وهذه مصر بلادهم لهم فيها ما لنا ، فعن قليل يهدم اللسان العربى ذلك اللسان الفرنسى ، ويرتد العربى عربيًّا كما أراد الله له أن يكون ، كما ردك الله حرًّا كما أراد لك أن تكون . وأما فرنسا فقد رد الله غيظها فى صدرها حتى يأكل منها ما بقى مما تستطيل به على الناس .

لا تأس أيها الرجل على ما فات ، فإن فى الذى لقيه الناس من بعدك لعزاء لك

عما لقيت فى منفاك ، وإن الذى أنت فيه اليوم لهو نعمة مَنَّ الله بها عليك لتحمل مرة أخرى سيف الجهاد فى سبيل أمته التى أنزلت بها فرنسا من بطشها ومظالمها ما لا قبل لأحد بالصبر على مثله . وقد ردك الله إليها لترى رأى العين ماذا فعل بعدك هؤلاء القوم بقومك ، ولتشهد مصارع الأحرار من أنصارك ، ولتملأ قلبك من القوة التى تفل الحديد وتنسف الجبال وتجتاح الجيوش - قوة الإيمان بالله الذى لا يخذل من نصره ونصر أولياءه بالحق فى يوم الجهاد .

إن فرنسا لم تدع فى تونس والجزائر ومراكش مكانًا إلا نفثت فيه من سمها ، أو ضربت فيه بإبرتها [١] ، أو تدسست إليه بغدرها وجهالتها . إنها أمة لم ترع ذمة للإنسانية ولا للمروءة ولا للشرف ولا لشىء مما يصير به الإنسان حيًّا متميزًا من سائر الوحوش والضوارى - أمة تفترى على الناس افتراء مقيتًا ثم تتبجح على الناس باسم الحرية والإخاء والمساواة ، أمة من الأذلاء لم يكد الغازى يغزو بلادها فى الحرب الماضية حتى ألقت سلاحها وسجدت على مواطئ قدميه تمسح عنهما غبار الغزو ضارعة متذللة ، أمة لم تأنف آلاف مؤلفة من أبنائها أن تطلب التجنس بالجنسية الألمانية يوم أصابتها هزيمة واحدة فى أول حرب تهزم فيها ، ولم تستنكف نساؤها أن تفتح الأغلاق للغزاة غير متورعات ولا كريمات .

إننا أيها الأمير نبغض هذه الأمة كأشد ما يبغضها دمك الذى يجرى فى عروقك ، لأننا إخوة جمعتنا رحم واحدة هى العروبة ؛ ونحن لا نخصها وحدها بهذا البغض ، بل نبغض كل أمة على غرارها قد استحلت مرعى البطش واستطابت ثمار البغى والعدوان .فنحن العرب لم نولد لنعيش ، بل ولدنا لنعيش أحرارًا فى الدنيا ، ولنعلم أهل الدنيا معنى الحرية ، وكيف تكون الحرية . ولئن قعد بنا اليوم عجز عن تعليم هذه الناس ، فعن قريب سوف يأذن الله لنا بأن نأخذ بالأسباب التى تتيح لنا أن نعلمهم ما خلقنا من أجله ، وعن قريب تنقشع عن عيون كثيرة ضلالات كثيرة أوهمتها أن العرب أمة متخلفة قد نفض الزمن منها يديه فصارت كَلًّا وعالة على أهل الأرض .

---

(١) وكذلك تفعل العقارب ، فسُمّها فى إبرتها .

إن العربى من أمثالك هو الذى سيشهد تراب هذه الأرض فى يوم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا ، أن فضائل البشرية كلها لم تزل حية على فطرتها الأولى فى هذه القلوب الزكية المطهرة ، قلوب العرب ، وأن العالم سيكون أسرع تقبلا للمعانى العربية فى الحرية والإخاء والمساواة من تقبله لتلك المعانى الفرنسية التى تلفعت بالجشع واللؤم والغدر والخداع ، وأن العربى هو وحده الذى يستطيع أن يحقق على هذه الأرض معنى الحرية والإخاء والمساواة لأنه حر بالفطرة لم يألف ذلا قط ، ولأنه أخ لمن آخاه لأنه لا يعرف الغدر ، ولأن الناس عنده سواء لأنه لا يفتات على أحد ولا يفترى على سواه من الناس .

وأنت أيها الأمير سيف من سيوف الله ، ونحن جند من جنود الله فعش بيننا سيفًا مصلتًا مسلولا على أعناق البغاة والطغاة والظلمة ، حتى يأتى اليوم الذى كتب الله لك أن تكون فيه ذبحًا لعدونا وعدوك ونصرًا لأمتنا وأمتك ، ومخرجًا لبلادنا وبلادك من ظلمات الأسر إلى نور الحرية .

والسلام عليك ورحمة الله

* * *

شعب واحد ، وقضية واحدة !

يقول العربى الأول :

وحولى من هذا الأنام عصابة	توددها يخفى ، وأضغانها تبدو
فما العيش إلا أن تصاحب فتية	طواعن ، لا يعنيهم النحس والسعد
إذا عربى لم يكن مثل سيفه	مضاء على الأعداء أنكره الجد
يضارب حتى ما لصارمه قوى	ويطعن حتى ما لذابله جهد[١]

فهذا العربى الذى اكتنفته عصابة شر أخرجت له أضغانها ، قد كاد يمثل لنا أمر العرب كلهم فى أيام الناس هذه . فما من أمة من الأمم الغربية وأشباهها إلا أحاطت بنا عداوتها من كل جانب ، تسر ذلك حينًا وتستعلن به أحيانًا كثيرة . وليتها رأت ذلك حسبها من وغر الصدور ، بل جاوزت ذلك إلى الاستخفاف بمئة مليون من الناس خلق الله ، تنظر إليهم كما ينظر السيد إلى عبده ورقيقه ، وتعاملهم كما تعامل المرأة الطاغية أمَة جعلها الله تحت يدها ، فهى تسومها الخسف كأشد ما يبغى الضعيف حين يستمكن له سلطان وبطش . وقد مضت العبر بأن هؤلاء القوم لا يكادون يفهمون إلا اضطرارًا ، وبالقهر والغلبة ، كما لم يفهم السادة يوم استبدوا أن الرقيق لن يصبروا طويلا على الذل ، حتى جاء اليوم الذى حمل الرقيق على المركب الوعر فثاروا واستنقذوا حريتهم قوة واقتدارًا . وكذلك نحن لن نبلغ شيئًا فى إفهام أولئك القوم أن عملهم سئ العاقبة ، مهما توسلنا إلى إفهامهم بالدعاية والمناشدة ، بل لن نبلغ شيئًا إلا يوم يستوى لدينا بحق معنى الموت ومعنى الحياة الحرة ، فضلا عن معنى الموت ومعنى الحياة الذليلة .

فمن العبث إذن أن ندعو هؤلاء القوم إلى سواء بيننا وبينهم ، لأن القوة قد

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٠) ، يونيو ١٩٤٧ ، ص : ٧٢٢ - ٧٢٤

(١) الذابل : الرمح الأسمر الصلب .

أسكرتهم فأطاشت حلومهم ، وتركتهم لايدركون إلّا ذلك المعنى الخسيس للحياة ، معنى الفائدة العاجلة بغير نظر إلى عدل ولَا نصفة . وهم قوم تقوم حضارتهم على تزييف الشرور حتى تبدو فى صورة الخير ، وتدليس شريعة الوحش حتى ترى شريعةِ إنسان أنعم الله عليه بالعقل والعاطفة ليوازن بينهما موازنة تجلب عليه السعادة فى الدارين . ومن العبث أن تحتال عليهم بما يسمونه « السياسة » ، فالقوى وحده هو الذى يعرف كيف يستفيد من « السياسة » أما الضعيف فاعتماده على السياسة وبال مستطير الشر ، يهدمه ويصرعه ، ويمكن لعدوه أن يفترس منه حيث شاء وكيف شاء .

فلا مجاز لنا نحن العرب إلا أن نعرف أنفسنا ، وأن ندرك حقيقة حياتنا ؛ وأن نؤمن بأن القوى لا ينال بقوته بل باستسلامنا ، وأنه لا يحيف علينا ببطشه بل بتهاوننا واستصغارنا لشأن أنفسنا ؛ وأن أجهل الجهل أن يظن ظان أن مئة مليون من خلق الله يمكن أن يفنوا على بكرة أبيهم بسطوة ساط أو بغى باغ ، وأنهم هباء لا يزن فى ميزان القوة جناح بعوضة ، وأنهم غنم مسيرون يُهاهِي [1] بهم راع عنيف تسوقهم عصاه إلى حيث أراد . نعم لا معدى اليوم لكل عربى من أن يحس فى قلبه مؤمنًا بما يحس ، أنه خُلِقَ لعصيان أمر الرعاة الطغاة ، وأنه مأمور من عند مَن خَلَقَه أن يثبت فى مكانه لا يطيع عصا الراعى ولا زمجرته ولا زئيره ولا إرهابه ، وأنه مكلف يحمل أمانة من لدن دبت على الأرض قدم عربية ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من عجم ومن عرب .

فالعربى اليوم هو أعظم الناس حملا للتكليف ، لأنه يحمل وزر ما هو فيه من ضعف ينبغى أن ينفض عن نفسه آصاره [2] ، ويحمل حق أجيال مقبلة توجب عليه أن يعمل ويمهد لها فى هذه الأرض ، ويحمل أيضًا أمانة آباء وأجداد وأسلاف مهدوا له هذه الدنيا التى يسكنها من أطراف الهند إلى أقصى مراكش ، ومن حدود تركيا إلى أقصى السودان . هذا ، وهو يعيش فى عالم عدوّ له قد قبض

---

(١) يُهاهِي : يَزْجُر .

(٢) الآصار : جمع إِصْر ، وهو الثِّقَل الذى يُعْجِز الإنسان فلا يستطيع حِراكا .

على زمام الكون ، واستولى على عناصر القوة ، ونال أسباب السماء وأطاعته نواحى الأرض ، فأى تكليف أشق من التكليف الذى يحمله هذا النبيل المسكين الذى يعيش فى الدنيا مشردًا مضطهدًا مجهولا مهضوم الحق يوميًا بملفقات العيوب ؟

وأول ما يجب على هذا العربى منذ اليوم أن يضع بين يديه صورة أرضه التى توارثها عن آبائه بالحق الذى لا ينازعه فيه منازع إلا مستطيلا أو متهجمًا : أرض تبلغ مساحتها مساحة قارتين من قارات الدنيا ، ثم يقول لنفسه : هل يستطيع أحد أن يبيدنى ويبيد أهلى وعشيرتى ويستأثر بهذه الأرض يفلحها أو يعمرها أو يقيم فيها للإنسانية حضارة أو دولة ؟ وهل يستطيع أحد أن يقسرنى قسرًا على ما لا أريد أن أفعله مما يحب هو أن يتم له ؟ وهل يستطيع أحد أن يأخذ قلبى من بين جنبى ليصرفه فى هواه كما يشتهى أو يريد ؟ وجواب ذلك كله « كلا ! » ولا ريب . ففيم إذن أخدم نفسى لمن لا يريد إلا إذلالى ، والفتَّ فى عضدى ، وأكل أرضى وما أنبتت من نبات وحيوان وإنسان ؟

فهذا شأن الفرد الواحد ، فما ظنك إذن بمئة مليون يكونون على قلب هذا الفرد الواحد ، يدًا واحدة ، ورأيًا واحدًا ، وعملا واحدًا ، وإصرارًا على أن لا ينازعنا أحد فى حق نحن أصحابه وحماته والمكلفون بحياطته ورد العادية عنه ؟ فإذا آمن العربى بهذه العقيدة التى لا مناص له عن الإيمان بها ، فهل يدور فى وهمك أن أحدًا يجرؤ على غصب العرب على ما لا يريدون ، أو حملهم على شىء يصرون إصرارًا على أن لا يقبلوه ؟

إن قضية العرب قضية واضحة بينة المعالم : هى أننا لا نريد إلا أن تكون بلادنا جميعًا مستقلة حرة ، لا يحتل عراقها جندى واحد ، ولا تخضع جزيرتها لسلطان ملوك البترول ، ولا ينال نيلها من منبعه إلى مصبه سلطان بريطانى أو غير بريطانى ، ولا تقع شامها ولبنانها تحت سطوة غاصب ، ولا يعيث فى أرجاء مغربها فرنسى خبيث القول والفعل مجنون الإرادة . وهذا كله شىء لا يملك كائن من كان أن يجبرنا على خلافه أو على الرضى به .

ونحن العرب قد أصبحنا دولا لكل دولة منا سياسة يخشى أن تكون ناظرة إلى

استجلاب منفعة خاصة ببلد دون بلد ، ويخشى أن تكون كلمتنا فى قضية العرب لا تزال محصورة فى دائرة أصحاب الأقلام دون أصحاب الحكم والسلطان ، ويخشى أن تكون أعمالنا مفرقة لا تجتمع إلى نهاية واحدة فى وقت واحد . وإذن فلابد منذ اليوم أن نسن لأنفسنا سياسة جديدة فى كل شأن من شئون العرب ، تجتمع بها كلمتنا وأهدافنا وأعمالنا حتى تبلغ الغاية جملة واحدة ، ويدًا واحدة وفى وقت واحد . وينبغى أن لا نرضى منذ اليوم أن تفرق قضية العرب وتجعلها قضايا ممزقة : هذه قضية مصر والسودان ، وتلك قضية فلسطين ، والأخرى قضية طرابلس وبرقة ، والرابعة قضية تونس ، والخامسة قضية الجزائر ، والسادسة قضية مراكش ، والسابعة قضية العراق .. بل إن هذه القضايا كلها قضية واحدة لا تنفك منها واحدة عن أختها أبدًا .

والعمل لهذه القضية الواحدة ينتظم أفراد العرب ، من ملوك إلى وزراء إلى ساسة إلى أصحاب الأعمال إلى جماعات المثقفين إلى عامة الناس ، ويحمل عبئها كتاب العربية لأنهم هم اللسان الناطق بما يعتلج فى صدور هذه الفئات كلها ، وهم المسددون لخطوات الشعب ، وهم بناة المبادئ والمدافعون عنها والداعون إليها ، وهم الذين يحملون الحكومات العربية على انتهاج خطة واحدة ، وعلى الإيمان بمبدأ واحد ، وعلى الوقوف فى ساعة العسرة موقفًا لا ترتد عنه قيد أنملة لإيمانها بأن العرب قوة لا تلين لغامز [(١)] ، وبأنهم أهل أرض تقع فى قلب العالم لا يطيق معتد أن ينال منها نيلا ، إذا ثبتت له كعادة آبائهم وأجدادهم فى الدفاع عن الحوزة والحمى .

ونحن العرب نجهل اليوم أننا قوة كأقوى ما فى هذه الأرض ، يجهل ذلك أفرادنا متفرقين . وتجهله حكوماتنا موزعة الأهواء والأهداف ، ويجهله ساستنا بما كتب الله عليهم من محنة هذه السياسة . فنحن اليوم أحوج ما كنا وما نكون إلى معرفة حقيقة هذه القوة ، وإلى إدراك ما تقتضيه هذه القوة أيضًا .

---

(١) الغامز : غَمَز العُود : جَسَّه ، لكى ينظر أين يلينه ويقيمه .

فالرجل الذى يعرف أنه قوى ينبغى أن يجعل قوته عملا ظاهرًا لا يرتد مخافة إرهاب أو نكبة أو شر يلاقيه . فإذا شاء رجال العرب وأماثلهم أن يصبحوا فى تاريخ العرب مجدًا لا ينكسف ضوؤه أبد الآبدين ، فليستلهموا تاريخ أسلافهم الذين خرجوا من أرضهم وديارهم شعثًا غبرًا جياعًا ، ولكنهم خرجوا أيضًا مؤمنين بأن كلمة الله هى العليا ، وأن حقهم ، وإن قل ناصره ، أقوى من باطل سواهم وإن كثر أعوانه والعاملون له . وعليهم أن يزأروا زئير الأسد فى غابه ، حتى يستيقظ النائم ، ويتأهب الأعزل ، ويجتمع المتفرق ، وعليهم أن يحاصروا عدوهم بالمدافعة عن حقهم ، قبل أن يحاصرهم بالتهجم على حقوقهم ، وعليهم أن يعلموا علم اليقين أن العربى حين يمد يده إلى سيفه ، فهو يمدها إلى قوة زاخرة لا تزال تنحدر إليه منذ آلاف السنين بمدد لا ينضب من العزة والشرف والمجد الذى تناله يد المتطاول .

إننا قوة لن يتجاهلها أحد مهما بلغت قوته إلا كنا شجى فى حلقه ، لا مجازًا وبلاغة ، بل هى الحقيقة المجردة عن كل مبالغة .

* * *

إننا قوة سوف تجبر بريطانيا وروسيا وأمريكا وسائر أمم الغرب على أن تعرف أن العرب ، قد أفاقوا فى العصر ، وأنهم قد عزموا على أن ينالوا حقهم أو أن ينتزعوه انتزاعًا من كل من تسول له نفسه أن يهتضم حقوق الناس ويأكل أموالهم ويعيث فى بلادهم فسادًا وطغيانًا وشرًا . إننا نحن العرب أمة واحدة فى دول متعددة ، وسنكون أمة واحدة تحمى حقوق الضعفاء من أى الناس كانوا . إننا نحن العرب أمة قوية وإن ظن الناس بنا الضعف ، ونحن أصحاب هذه الرقعة من الأرض ، سوف تكون خالصة لنا دون الناس لا تشاركنا فيها دولة بريطانية ؛ أو دولة صهيونية أو دولة فرنسية .

وعن قريب سوف تقول حكومات العرب كلمتها ، وسوف يجتمع رأينا على أننا لن نرضى بأن نجعل قضيتنا أجزاء يتلعب بها هذا ويلهو بها ذاك ، إنها قضية واحدة ، يرفعها شعب واحد ، مطالبًا بحق واحد ، هو أننا أحرار فى بلادنا .

* * *

هذه بلادنا

هذه بلادنا : العراق ، وسورية ، ولبنان ، وفلسطين ، وشرق الأردن ، وجزيرة العرب ، واليمن ، ومصر والسودان ، وبرقة ، وطرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش - هذه بلاد العرب التى ينطق أهلها اللسان العربى ويدين أكثرهم بالإسلام ، فهما من أجل ذلك جبهة واحدة ممتدة من الشرق إلى الغرب ، وتملأ رحابها أكبر قارة على وجه هذه الأرض . وهى جميعًا أرض بكر لم ينبش العلم ذخائرها المدفونة تحت ثراها الغنى ، ولم تنل يده إلا قليلا مما تقله أرضها من حيوان ونبات ، ولم تنفطر روحها بعد عن الإنسان الجديد الذى انساح فيها من قبل يوما ما ، فملأها عدلا وكانت ملء جنباتها ظلمًا وعدوانًا وبغيًا وكفرًا بالله ، ثم بالطبيعة البشرية المطهرة من أدران الحقد والأثرة والجشع وقلة الإنصاف .

فلنلق نظرة عليها جميعًا بلدًا بلدًا ، لنر ماذا فعل الله بأهلها ، وماذا كتب عليهم ، وماذا قدر لهم .

فالعراق أغنى مشارف الجزيرة العربية وأكرمها تربة ، وقد نزلت عليه بريطانيا محتلة وسامته الخسف سنين حتى عقدوا معه معاهدة لم تمنع بريطانيا من التدسس بسلطانها إلى جميع مرافقه ، فهو لا يستطيع أن يؤدى حق أرضه عليه كما يجب ، وسلطان بريطانيا هناك سلطان جائر عنيف لا يزال كما كان على أول عهد الاحتلال ، ويخشى أن يزداد فيه سلطانها وسلطان شريكتها ووارثتها أمريكا ، بما جد من شئون النفط والبترول وما إليهما .

وأما سورية ولبنان ، فقد جلت عنهما فرنسا جلاءً تامًا على أثر الأحداث العالمية التى جاءت مع الحرب الماضية ، فاستردتا استقلالهما بغير قيد ولا شرط . ولكن يخاف عليهما ما يخاف على سائر البلاد العربية من تسرب السلطان

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٢) ، يوليو ١٩٤٧ ، ص : ٧٧٧ - ٧٧٩

البريطانى والسلطان الأمريكى ، وطغيان هذا السلطان بالضرورة الملحة الملزمة ، إذا قدر لهما أن تظلا محاطتين من جميع النواحى بالمواقع التى فيها لهذا السلطان أثر قوى .

وأما فلسطين ، فهى الأرض المظلومة المضطهدة التى أراد بغى بريطانيا وأمريكا أن يجعلاها وطنًا لأعوانهم من نسل إسرائيل ، ومعنى ذلك أن تصبح فلسطين كهف الجشع البريطانى الأمريكى ، يعمل له وفيه جيل من خلق الله الذين عرفوا بالخسة وقلة المبالاة وعدم الورع فيما يأتون وما يذرون ، وهم ولا ريب يؤيدون سياسة بريطانيا وأمريكا فى فرض سلطان القوة وسلطان المال على هذه البقعة من الأرض المقدسة ، وعلى كل مكان آخر يحيط بها من قريب أو بعيد .

وأما شرق الأردن ، فقد كفتنا المعاهدة التى عقدت بينه وبين بريطانيا أن نقول فيه قولا يصفه بأفضل مما وصفته هذه المعاهدة ، وهو أنه أرض بريطانية فى قلب البلاد العربية .

وأما جزيرة العرب ، فقد تدفق عليها سلطان بريطانيا وأمريكا من كل مكان ، لأنه فرض أن آبار البترول تكاد تكون حقًّا خالصًا لهما ، يدفعان فى سبيل أخذه مالا قليلا زهيدًا ، ثم ينقلانه إلى بلادهما ليكون ذخيرة من ذخائر القوة التى تحرك الآلات ، وتنتج المصنوعات وتمد أمريكا وبريطانيا بكل أسباب القوة والغلبة فى هذه الدنيا الجديدة التى لا حظَّ فيها إلا للقوى الغاصب . واستقلال جزيرة العرب أصبح اليوم مهددًا بتغلغل نفوذ ملوك البترول الذين يخدمون ولا شك سياسة بلادهم على أى وجه كانت هذه السياسة .

وأما اليمن فلبريطانيا هناك بعض السلطان ، ويخشى بعد قليل أن يتدسس إليه سلطان أمريكا أيضًا وتصبح اليمن مضطرة إلى الخضوع لما خضعت له جاراتها العربية من سلطان هؤلاء الأقوياء .

وأما مصر والسودان ، فمن الذى يجهل سلطان بريطانيا فى أحد شقيه ، وهو مصر ، إنه سلطان قد ظلت السياسة البريطانية تمهد له منذ ستين عامًا بكل أسلوب

من أساليبها فى اتخاذ الصنائع ، وإضعاف الأخلاق ، وابتزاز الأموال ، وفتح أبواب الهجرة لصعاليك الأمم ، وقذف الأرض بكل سخافة من سخافات المدنية ، وحجبها عن كل جد وكل عمل يراد به خير هذه البلاد . وأما السودان ، فلم يزالوا به حتى كادوا ينتزعونه جملة واحدة ، وحتى قسموه إلى جنوب وشمال ، وحتى حرموا على أهل الشمال أن يخالطوا أهل الجنوب ، وحتى حرموا على أبنائه أن ينالوا قسطهم من العلم والحرية والتجربة فى هذه الدنيا المملوءة بالعلم والحرية والتجربة .

وأما برقة وطرابلس فقد انتهت بهما الحرب إلى أن صارتا تحت سلطان بريطانيا المباشر ، ولا يدرى أحد ماذا يجرى فيهما هناك الآن على وجه التحقيق ، ولكنهما على كل حال تحت سلطان بريطانيا وشريكتها أمريكا .

وأما تونس والجزائر ومراكش فهى أسوأ بلاد العربية كلها حالا بوقوعها تحت سلطان فرنسا . وفرنسا هذه أمة أهل جبروت وحماقة وجهل ، فهى تتخذ العسف وتصطنع القسوة فى كل عمل تعمله فى تلك البلاد . ولكن ليس يدرى على وجه التحقيق ما الذى تضمره بريطانيا وأمريكا لفرنسا وحكمها فى تلك البلاد . أتريد حقًّا أن تؤازر [١] فرنسا مرة أخرى على استعادة بعض مجدها وسلطانها فى هذه الدنيا ، وبذلك يزداد طغيانها وبغيها على أهل تونس ومراكش والجزائر ؟ أم تراهما يريدان أن يحتالا حتى يزيلا فرنسا عن تلك البلاد ليفرضا معًا عليها سلطانًا بريطانيًّا أمريكيًّا - إما متعاونتين وإما منفصلتين ؟ ومهما يكن من شيء فالذى فيه هذه البلاد اليوم ، أو الذى يخشى أن يقع عليها غدًا هو أن السلطان الأجنبى هو السائد فيها قوة واقتدارًا .

فأنت ترى غير مرتاب أن هذه الأمة العربية التى تعيش فى كل هذه البلاد العربية ، قد أصبحت هدفًا لأطماع دولتين متحدتين فى أغراضهما وأهدافهما : هما بريطانيا وأمريكا . فهل يشك فى هذه الحقيقة أحد ؟ كلا ولا ريب ، وإذن

---

(١) كذا فى الأصول ، وحق الكلام التثنية ، أى : أتريدان حقًّا أن تؤازرا ، ألا تراه قال بعد : « أم تُراهما يريدان أن يحتالا ... » .

فنحن أمة واحدة مقسمة اليوم إلى أمم متعددة تواجه فى الميدان جبهة واحدة لها أغراض لا تختلف ولا تفترق . وهذه الجبهة الواحدة لم تزل تتعاون بأسلوب بعد أسلوب فى تنفيذ أغراضهما فى كل بلد من بلادنا ، وتتآزران على فرض سلطانهما مجتمعًا أو مفترقًا ، وتتوسلان إلى ذلك بالوسائل التى تتاح لكل منهما فى كل بلد من هذه البلاد .

فالآن وقد تبين أننا أمة واحدة مقسمة إلى أمم ، وأننا نلقى عدوًّا واحدًا هو بريطانيا وأمريكا مجتمعتين يضربان بسلاحهما غدرًا هنا وهناك وثمة بلا رحمة ولا شفقة ولا إنسانية ، فقد أصبح لزامًا علينا وفرضًا لا مخلص لنا منه أن ننظر إلى الحقيقة الواحدة التى لا يختلف عليها إلا من نزع الله من قلبه البصيرة الهادية إلى سُبل الرشاد ، ألا وهى الاتحاد التام فى لقاء هذا العدو .

ومنذ سنوات أجمعت طائفة من أمم العرب على تكوين الجامعة العربية ، واشترطوا فى الأمة التى تصير عضوًا فى هذه الجامعة أن تكون مستقلة . ومعنى ذلك هو الاستقلال المعترف به دوليًا ، لا الاستقلال الحقيقى ، فإنهم لو طلبوا ذلك لما كان فى الجامعة العربية عضو واحد من هذه الأمم التى ذكرنا . فالجامعة العربية كما هى الآن لا تفى البتة بحاجة العرب ، ولا تقوم على الأساس الصحيح الذى ينبغى أن تقوم عليه . نعم إن الجامعة العربية لم تقصر فى الدفاع عن حق العرب جميعًا تقصيرًا تُلام عليه ، وهى تبذل غاية جهدها فى صد عدوان المعتدين عليها ، وتبذل أقصى جهدها فى أم المشاكل العربية ، وهى مشكلة فلسطين التى سوف تكون يومًا ما ، أول شرارة تنطلق فى تاريخ العرب الحديث لتنير لنا الطريق السوى الذى ينبغى للعرب أن يسلكوه .

ولكن لابد منذ الآن أن تعمل الجامعة العربية على ضم سائر البلاد العربية الأرض واللسان ، لتكون شعوب هذه البلاد كلها جبهة واحدة ، ذات سياسة واحدة ، وأهداف واحدة ، وقيادة واحدة ، حتى نلقى فى الميدان ذلك العدو الواحد المتآزر على هلكة العرب ، وهو بريطانيا وأمريكا . وإنه لا معنى لأن تبقى فلسطين وتونس ومراكش والجزائر وبرقة وطرابلس غير ممثلة فى جامعة الدول

العربية تمثيلاً صحيحًا كسائر الدول العربية ، فإن مهمة الجامعة هى أن تعمل على أن تجعل هدفها الأول أن تتخذ كل وسيلة لضم شتات العرب فى هذه الدنيا ، كما فعل اليهود من أهل الأجناس المختلفة فى توحيد قيادتهم وجعل قضيتهم قضية واحدة ، وهم معتدون على أرض ليست لهم ، ونحن أهل أرض واحدة نملكها نحن العرب ملكا لن ينازعنا فيه أحد . وليس من الرأى ولا من الحكمة أن نترك هذا العدو الواحد يلقانا فى أكثر من جهة واحدة وهو صاحب القوى الطاغية الباغية ، وأن نظل نحن متفرقين ليس يجمعنا نظام واحد تحت قيادة واحدة تعمل لهدف واحد هو تحرير البلاد العربية كلها جملة واحدة من هذا النير المضروب عليها . وكما قلت من قبل إننا شعب واحد ، وقضيتنا قضية واحدة ، فلا معنى لأن نجعل هؤلاء يتلعبون بنا ، ويقسموننا ويفرقون بين قلوبنا ، ويشغلوننا حينًا بهذه القضية ، ثم يعملون فينا حتى نيأس ، فإذا بقضية أخرى تستنفد جهودنا ، ثم أخرى ثم رابعة . كلا ! هذا فساد فى الرأى وضلال قديم قد جربناه فألفيناه وبالا علينا ونقضًا لقوانا وتمكينًا للعدو من أنفسنا .

إنه لابد من تجديد النظر فى شأن الجامعة العربية ، فإن العرب قد هبوا بعد هذه الحرب من رقدة طالت عليهم ، وهم مقبلون على العالم شُعثًا غُبرًا كما أقبل آباؤهم من قبل ، وهم ينظرون إلى مدنية عظيمة قد بلغت غايتها وهى اليوم فى سبيل الانحدار إلى الهوة العميقة التى طمرت فيها مدنيات سالفة لم تكن أقل منها شأنًا ولا أضعف خطرًا . وينبغى أن تعلم جامعة الدول العربية ، أو الجامعة العربية ، أن عملها ليس سياسة محضًا بل هو أيضًا حض وتحريض وبعث لهذا الجيل من الناس المعروف باسم العرب ، حتى تتم يقظته وحتى يعرف أى شىء يستقبل وأى شىء يستدبر ، ليرث هذه المدنية التى أوشكت أن تزول عن وجه هذه الأرض .

إنه قول جرىء ، ولكنه حق ملء السمع والبصر ، حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلنأخذ أهبتنا قبل أن تأتى الساعة التى نضطر فيها إلى العَجلة التى كان لنا عنها مندوحة ، إن كل عربى قد فرض عليه واجب هو أقدس الواجبات فى هذه الدنيا – ألا وهو الأمانة التى يرث بها الأرض ويكون فيها

خليفة يصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك الدماء ولا يأكل حقوق الناس بالبغى والعدوان . والجامعة العربية إذا بُنيت على هذا الأصل وقامت على هذه الفكرة ، فقد أدت للبشرية أكبر خير أُدى إليها على وجه الدهر ، وقد استنقذت حضارة الإنسان من الهلاك المحقق على يد الجنس الأوربى ، بل لعلها لم توجد فى هذا الوقت من هذ العصر إلا لتؤدى هذه المهمة وحدها بعد أن تجمع شمل العرب وتقف بهم صفًّا واحدًا يقاتل طغيان عدوها المستبد الذى يلقاها بسلطانه الجائر ، ويقاتل أيضًا ذلك السلطان الذى انفجر من ملتقى القارتين ، أوربة وآسية ، لكى يكون دمارًا لنفسه وللحضارة الأوربية الفاسدة الضحلة .

ونحن العرب – فيما أرجو – لن نباع منذ اليوم فى سوق الرقيق التى يسمونها « هيئة الأمم المتحدة » ، فقد عرفنا بالتجربة كيف فعلت هذه الهيئة فى مسألة فلسطين وسواها من عربدة القوِىّ الذى أطارت صوابه نشوة السلطان المُسكر .

* * *

شهر النصر

كان محمد ﷺ ، قبل أن ينبأ [١] رجلاً من العرب ، ثم كان أول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث [٢] فيه الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود مثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء . ومن يومئذ صار هذا الرجل من العرب رسول الله الذى وجبت على الناس كافة طاعته والامتثال لأمره فيما نهى عنه وما أمر . وذلك أول الإسلام الذى نفض العرب من بواديهم حتى ملأوا الأرض عدلا وإيمانًا وتكبيرًا باسم الله العلى الأعلى .

وقد فجئه الحق وهو بغار حراء فى يوم الاثنين لثمانى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، فيومئذ نزل أول القرآن إذ قال له الملك : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زمّلونى زمّلونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى ! » فقالت خديجة : « كلا ، والله لا يخزيك الله أبدًا ، إنك لَتصل الرحم ، وتحمل الكَل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

فكان كما قالت رضى الله عنها ، فلم يخزه ربه الذى أرسله بالحق ليهدى الناس إلى صراط مستقيم . وذلك أول الإسلام .

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٤) ، يوليو ١٩٤٧ ، ص : ٨٣٥ - ٨٣٧

(١) ينبأ : أى قبل أن يحمل إلى الناس نبأ ربه .

(٢) تحنّث : تَعَبّد واعتزل الأصنام .

ثم كانت سنة ثنتين من الهجرة ، ففى يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان كانت غزوة بدر الكبرى ، وهى الوقعة العظيمة التى فرق الله فيها بين الحق والباطل ، وأعز الإسلام ودمغ الكفر وأهله ، وكانت فيصلا فى تاريخ الإسلام . ويومئذ حقق الله للمؤمنين ما وعدهم إذ يقول : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ ثم قال الله تعالى يمن على المؤمنين ما أكرمهم به : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

فكانت بدر الكبرى هى المنة العظمى على البشر جميعًا ، إذ أتاح الله يومئذ للمسلمين أن يسيحوا فى الأرض ، وأن ينصروا الله وأن يجعلوا كلمته هى العليا ، وأن يردوا العرب إلى شريعة أبيهم إبراهيم عليه السلام وهى الحنيفية السمحة ، فانكشفت خلائق العرب بنبلها وكرمها وعدلها وصفائها حتى لم يبقَ على ظهر الأرض من بلغته الدعوة ، أو من رأى هؤلاء الأحرار المؤمنين حتى تبع قبلتهم وآثرهم بالحب ، فمكّن الله للعرب أن يفتحوا الأرض ويثلوا العروش ويملكوا ما أظل ملك كسرى وقيصر فى ثمانين عامًا ، وأقاموا حضارة قامت على العدل والمساواة والإنصاف والتسامح ، وعلى رعاية أهل الأديان وحياطتهم ، وعلى رد بغى الباغين وعدوان المعتدين من أى مِلة كانوا .

كان الإسلام فيصلاً حقًّا فى تاريخ الأديان ، وكان أول أمره فى يوم الاثنين لثمانى عشرة ليلة خلت من رمضان ، وكانت غزوة بدر الكبرى التى نصر الله فيها أهل الإسلام من العرب فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان . ثم شاء الله أن يدور الزمن دورته على مجد العرب وحضارة العرب ، وأن تكون مصر والسودان مناط آمال العرب فى هذا العصر ، وشاء ربك أن ينعقد إجماع مجلس

الأمن على أن تعرض قضية مصر والسودان فى يوم الثلاثاء بعد أن تخلو من رمضان ثمانى عشرة ليلة من سنة ١٣٦٦ من الهجرة ، وهو اليوم الموافق للخامس من أغسطس سنة ١٩٤٧ من ميلاد المسيح عليه أفضل الصلاة والسلام . إنها إن شاء الله بشرى الحق بأن الله قد كتب لقضية مصر والسودان أن تخرج من معمعة مجلس الأمن مؤيدة بنصر الله ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ . فهذا شهر مبارك قد عوّد الله فيه العرب والمسلمين أن ينصرهم على عدوهم ، وأن يمكّن لهم فى الأرض ، وأن يؤيدهم بالنصر فى ساعة العسرة حيث هم قليل مستضعفون يخافون أن يتخطفهم الناس ...

ولا يستهينن أحد بخطر هذه القضية ، فإن مصر والسودان هى قلب إفريقية أولا ، ثم هى قلب العالم العربى ، ثم هى قلب العالم الإسلامى كله . فالنصر الذى سوف تناله إن شاء الله على بريطانيا هو نصر لهذه الثلاثة واجتماع لكلمتها ، وتاريخ جديد لحياة إفريقية وحياة العرب وحياة الإسلام .

إنها ساعة فاصلة فى تاريخنا ، فعلى كل مصرى سودانى أن يعد عدة الجهاد ، وأن يملأ منذ اليوم كنانته ، وأن ينصر هذا الوفد الذى سافر إلى أمريكا بيده وقلبه ولسانه ، وهذا فرض واجب لا يكاد يسقط عن أحد منا من ذكر أو أنثى . فإننا فى ساعة يصنع فيها التاريخ ، ولن يخطئ المخطئ المتعمد ، أو يولى المقاتل المتهيب إلا كان ذلك فتًّا فى أعضاد المجاهدين الذين رموا بأنفسهم فى وطيس المعركة .

ونحن نناشد زعماء الأحزاب الذين تعوّدوا الخلاف والنزاع أن يكفوا غرب ألسنتهم عن إخوانهم الذين سبقوهم اليوم إلى جهاد عدوهم ، وأن يوجهوا قدرتهم على الطعان إلى نحور القوم الذين اغتصبوا حقنا وآذونا وضربونا بالذل والهوان أكثر من ستين عامًا ، ولم يرعوا فينا شيئًا من إنسانية أو شرف . وكل كلمة تنال من وفدنا إلى أمريكا هى ضرب من التخذيل يسوء مصر والسودان ، ويسر بريطانيا التى تحاول اليوم أن تملأ الدنيا علينا كذبًا ، فلا نكونن إذن حربًا على أنفسنا ، وعونًا على اهتضام حقها ، ونصرًا لأعدائنا على أنفسنا .

* * *

وحقيق بمصر والسودان فى هذه الساعة الفاصلة التى شاء الله أن يوافق تاريخها الساعات الفاصلة فى تاريخ العرب والإسلام – حقيق بها أن تتوجه إلى الرجل العربى الشريف الأصل الكريم المحتد الطاهر النسب ، والذى إن شاء كان النصر الأعظم الحاسم لقضية مصر والسودان ، وكانت كلمته القضاء الفصل والحجة الدامغة لأباطيل بريطانيا ودعواها ، الرجل الذى هو ثانى اثنين [1] فى السودان ، فشق الإنجليز ما بينهما بالدسيسة والوقيعة والتخذيل حتى فرقوا بين الأخوين .

فإلى الرجل الذى مثلت بريطانيا بجثمان أبيه الطاهر ، وإلى الرجل العربى المسلم الذى يؤدى حق ربه وحق عباده خاشعًا متخشعًا لله ، وإلى المصرى السودانى الذى أراد الله أن يمتحنه بأعظم المحن فى هذه الساعة الفاصلة فى تاريخنا ، وفى هذا الشهر المبارك من شهور الإسلام – إلى السيد المهدى :

إنك أيها الشريف رجل من العرب ثم رجل من المسلمين قد أكرمك الله وأيدك وبارك لك وأعانك ، والرجل العربى المسلم لا يتخلف عن نصرة الحق بل هو كما قال له ربه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ . والرجل العربى المسلم لا يلدغ من جحر مرتين ، وبريطانيا قد لدغتنا جميعًا مرارًا كثيرة . أليس زعمها أنها حريصة على استقلال السودان وكفالة حرية أهله فى تقرير مصيرهم ، هو نفسه ما كان يوم دخلت مصر زاعمة أنها لا تريد استعمارا ولا اعتداء ، وأنها إنما تريد تثبيت العرش صدقة وتبرعًا ، فإن استتب عادت إلى بلادها وجلت عن بلادنا ؟ فهل فعلت أيها السيد الشريف العربى المسلم ؟ إنى لأنزهك عن أن تخدع بكذب بريطانيا فهى أكذب من هذه الحياة الدنيا وأغدر :

وخلائق الدنيا خلائق مومس ... للمنع آونة وللإعطاء
طورًا تبادلك الصفاء ، وتارة ... تلقاك تنكرها من البَغْضاء

فهذه بريطانيا العدو المحتال الذى من شيمته أن يوقع بين المتحابين ليحطم

---

(١) يعنى بالآخر : السيد الميرغنى .

بأسهما جميعًا . وهذه مصر التى ربطها الله بالسودان منذ أقدم الأزل والتى هى قطعة من السودان يراد بترها منه ، فإلى أيهما أنت أقرب ، وفى هوى أيهما أنت أرغب ؟

إننا ندعو الله الذى هدانا وهداك إلى الإسلام أن يهديك إلى الحق ويسددك وينصرك ، وأن يوفقك إلى ما يتمناه قلب كل مصرى وسودانى : أن تكون ناصر الإسلام وقاهر الأعداء ومُحِقّ الحق ومبطل الباطل ، فتضع يدك فى يد أخيك السيد الميرغنى وتخرجا على بريطانيا مرة أخرى واحدة تعلنان أن مصر والسودان أمة واحدة وأن بريطانيا كاذبة فيما ادعت علينا وعليكم ، وأن لا حياة لأحدنا إذا اقتطع عن صاحبه . افعل هذا أيها السيد الشريف العربى ، تكن أعظم مجاهد فى تاريخ إفريقية وتاريخ العرب وتاريخ الإسلام . افعل هذا فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، والذى نصر الله عباده ببدر وكانوا يومئذ مستضعفين فى الأرض يخافون أن يَتَخَطَّفهم الناس . افعل هذا أيها الشريف العربى تنل بكلمة واحدة مجد الأبطال ومجد الملوك ، ويصبح اسمك هدى ومنارًا لكل عربى وكل مسلم ما بقى على الأرض عربى أو مسلم . إننى أدعوك باسمى وباسم الصداقة التى كانت بينك وبين أبى رحمة الله عليه . أدعوك دعوة رجل صائم لله وأدعو الله أن يهديك ويؤيدك بنصره ويمكّن لك ، وفى هذا الشهر الطاهر المبارك يرجو المسلم أن تستجاب دعوته : فاللهم أعنا وانصرنا بالهدى . اللهم خَذِّل عنا أعداءنا . اللهم أنقذنا وارحمنا وكن عونًا لنا ولإخواننا فى الدين والعروبة .

أيها الشريف العربى ، إننا وقوف نترقب ، ونتوق ، ونتلهف . وظنى فيك أنك فاعل ما أراد الله من نصرك لأهله ، وأنت أهل الخير ومعدن الكرم وابن الصناديد الأماجد من بنى قَحطان . السلام عليك أيها الرجل سلام أخ وابن أخ .

* * *

فى الماضى

كنت أتمنى أن يكون لى مكان هذا القلم الأصم قلم حى نابض يصحبنى حيثما سرت ، ويلهمه الله من دقة الحس ما يجعله يتلقف كل خاطرة تومض فى أعماق نفسى ، ويشعر بكل هاجس يعتلج فى سر ضميرى ، وإلا فإن الكاتب ذا القلم أعجز من أن يطيق لمّ هذا الشعث المنثال المتتابع من الخواطر والهواجس التى تنتابه وتعتريه وهو يرى أو يسمع أو يفكر . وفى هذا اليوم بعينه كنت أشد الناس ضراعة فى التمنى أن لو أتاح الله لى مثل هذا القلم النابض الحى حتى يأخذ عنى وعما يحيط بى ، ويسجله قبل أن تمسحه عن قلبى يد الدقائق والساعات التى جعلها الزمن رصدًا على الأفكار تمحوها بالنسيان ، أو تطمسها بالفتور ، أو تعفيها بتراب الحوادث التى تجد فى كل لحظة من لحظات العمر .

* * *

خرجت أنا وصديقان لى ، هما الأستاذ علّال الفاسى الزعيم المراكشى الصابر على لأواء [١] الجهاد فى سبيل بلاده ، والأستاذ يحيى حقى القصاص المبدع فى زمن ليس للإبداع فيه قيمة ولا قدر ، وكان الذى دعانا إلى هذا الخروج فنان كهل قد ودع الصبا ولكنه تشبث بعطره ونفحاته وتوهجه ، فلا تزال تشم من فنه حين يتحدث عنه شذًا لطيفًا من عنفوان الصبا والشباب ، وذلك الفنان هو الصديق الأستاذ حسن فتحى المهندس الذى أبى أن يتعبد للهندسة ، بل أرادها أن تكون عبدًا له يخدم فنه الذى يعيش فيه ويعيش به .

كان يوم الأحد السادس عشر من رمضان سنة ١٣٦٦ يومًا قائظًا ومدًّا [٢]

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٦) ، أغسطس ١٩٤٧ ، ص : ٨٦٠ - ٨٦٢

(١) اللأواء : الشدة والبأس .

(٢) المدّ : الماء ، يعنى رطوبة الجو .

يجعل العرق ثقيلا كثيفًا يضجر النفس ويأخذ بالأنفاس ، فلما ركبنا السيارة ، وتخففنا من بعض ثيابنا ، واستقبلتنا لفحات الهواء الساخن ، انتعشت القلوب ودبت فيها الحركة ، على سكونها وفتورها من شدة الصيام وحاجة الأبدان إلى الماء فى مثل هذا اليوم ، وعندئذ بدأ الفنان يتحدث عن الوجه الذى يقودنا إليه فطاف علينا من حديثه مثل الظل حتى نسينا أننا فى رمضان فى يوم قائظ تحت الشمس . إنه ماض بنا إلى أثر عربى قديم فى ناحية « بيت القاضى » يقال له « قاعة محب الدين الشافعى » وتعرف أيضًا بقاعة « كتخدا » . فلما أوشكنا على دخول القاهرة القديمة شممت روائح مصر الإسلامية ، وتمثلت لعينى خوالى أيامها ، ورأيت كأن هذه الجموع التى تسير فى الطرقات كأنما انبعثت من الماضى البعيد بلباسها وشمائلها وآدابها رائحة غادية تحت عينى ، وكان حديث الفنان يُحْيى هذه الصور فى نفسى حياة جديدة ، حتى كدت إخالنى أحدثها وأسمع رجع حديثها ، وأرى الثياب الفضفاضة ، والعمائم البيض ، واللحى المرسلة ، والسمت الوقور ، والمشية الهادئة ، وكأن كل شىء قد انقلب فجأة فصار ماضيًا لم تمسخه يد الحضارة الغربية الحديثة ، ولم تمح من بهائه وروائه ذلك الجمال الوديع اللطيف المطمئن القانع بالحياة كما شاء الله أن تكون .

ثم نزلنا من السيارة ، وفتح لنا باب القاعة التى صارت فى عداد الآثار ، فما كادت قدمى تطأ بلاطها الضخم حتى أحسست كأن قلبى ينتفض من فجاءة الذكرى ، وكأنى دخلت دارى التى ألفتها وعشت فيها ، وسمعت فى أرجائها غمغمة الحديث وقهقهة الضحكات ، والتى سعيت فى نواحيها طفلا وشابا وكهلا حتى نشأت لها فى قلبى مودة لا تبليها الغربة ، ولا تطمس آثارها الرحلة فى أرجاء الدنيا ، وتطارح الزمن المشِت المفرق بين الأحباب والأحباب . ففى هذا المكان عهدتنى أجلس على أريكة موشاة بالثياب المطرزة ، وأستقبل هذه « الفسقية » الجميلة التى أراها فى وسط القاعة ، مزينة أرضها بالرخام الملون المرسوم على أشكال تستريح إليها العين راحة لا يعدلها شىء من متاع هذه الأرض . ومن هذا المكان عهدتنى أرى تلك الحلية الهائلة التى كأنها محراب

الدهر ، مصنوعة منمقة ، قد أجلَّها وأدقها الصَّنَع الماهر الذى لم يعبأ بالزمن كيف يمضى ويتصرم ، بل كان كل همه أن يتقن الفن الجميل الثابت الذى يريك الإبداع فى صورة حية باقية تشعرك بأن الحياة هى الاستمتاع بفن الحياة لا بأشياء الحياة . ومن هذا المكان كنت أرسل طرفى إلى القبة العالية التى تتوسط السقف كأنها هامة مفكرة كل أفكارها أحلام جميلة سامية لم تتدنس بالمطامع الدنية التى يكدح فى سبيلها الإنسان على أديم هذه البسيطة .

وجعل صديقنا الفنان يحدثنا وهو يتدفق من نواحيه عن روعة هذا الذى نرى وعن جلاله وعظمته ، وعن هذه الضخامة الهائلة فى البناء ، وكيف استطاع بانيها الفنان أن يحفظ النسب بين ضخامتها وبين سائر ما فى القاعة كالأبواب وغيرها حتى لا يشعر الإنسان بالرهبة والمخافة والارتياع ، بل يشعره بأنه مالك هذا كله والمستولى عليه والمستمتع به ، فهو يروض الفخامة والضخامة حتى تكون أليفة مستأنسة محبة إلى رائيها وصاحبها ، فجعل الأبواب بين بين لا تطول قامة الرجل إلا قليلا ، ولم يجعلها هى أيضًا عالية ضخمة فخمة ، فيحس المرء عندئذ بالقلة والذلة والغربة والوحشة فى البيت الذى هو سكن النفس ومكان ارتياحها ؛ وكنت أسمع هذا ونحوًا منه ؛ ولكن لم يأخذنى منه شىء ، فإنى كنت أسمع همسات من هنا وهنا ومن ثم ، هى همسات الآباء والأجداد تذكرنى بما أضعناه من فن نحن أنشأناه وتعهدناه وقمنا عليه وأتقنا دقيقه وجليله ، ثم رحنا نستعير أشياء الناس نتشبع بها ونتصنع ، على غير هدى ولا بصيرة ولا فن ، وأكاد أقول ولا حياة ، فنحن أحياء ولا أحياء ، لأننا نستعير حياتنا ولا ننشئها إنشاء ، ونتزين بزينة مسلوبة نحن فيها كالصعلوك الأشعث الأغبر فى ثياب ملك . كنت أسمع حديث الأسلاف ، وأسمع فى صوت صديقنا الفنان وهو يشرح ويبين بكاء وحسرات وتنهدات وآلامًا كأنه وقف يؤبن أعزّ أحبابه متجلدًا خاشعًا بين أقوام لا يحسون ما يحس ولا يشعرون بما يشعر به . إنه خليق أن ييأس ، ولكنه يجاهد حتى ينتزع الأمل من بين دواعى اليأس ، يريد أن يستنقذ الدرة المضيئة قبل أن تلفها الأمواج الطاغية العاتية وتذهب بها إلى حيث لا رجعة .

كنت كالمأخوذ لا أريد أن أفارق هذا الملك الذى أعيش فى رحابه . إنها قاعة صغيرة ، ولكنها قد اتسعت حتى رأيتها تشمل كل هذه الأرض المصرية لأن كل شىء فيها منتزع من طبيعة الأرض وجوّها وسمائها وأيامها ولياليها واختلاف فصولها ، ومن طبائع أهلها وشمائلهم ونوازع قلوبهم ومن كل شىء يقول أنا مصرى عربى . وأخيرًا فارقتها على رغم ، ولم أدر حتى انتهينا أو انتهت بنا السيارة إلى قاعة أخرى أو أثر آخر بنى بعد جيل من زمان هذه القاعة ، فكان الفرق بينًا . فقد أخذ الضعف يغزو القوة ، ولكن القوة أبت إلا أن تتبدى كما هى برغم هذه الطوارئ التى تنتابها أو تعمل فيها . فههنا أثر الضعف الإنسانى إذا بدأ الإنسان يشعر بأنه غير حر وغير مريد للحرية ، وأنه مروع فى حياته بشىء لا يملك له دفعًا ولا ردًّا ، فهو يتخاذل وكذلك يتخاذل فنه ويتخاذل بناؤه . وهو حائر لا يدرى ما يأتى وما يذر ، فإذا فنه حائر لا يدرى ما يأتى وما يذر ، وهو مختلط الإرادة ، وإذا فنه مختلط يأخذ بأسبابها الأولى ولكنه لا يلبث أن يحيد عنها إلى شىء ليس منه ولا من خاص طبائعه . ومع كل ذلك فإن النفحة الخالدة لا تزال عالقة به تجعله قوة صريحة مصممة مريدة للبقاء .

ثم خرجنا إلى آخر أثر زرناه وهو « بيت السحيمى » ، وهو بيت كامل - لا قاعة ولا جزء من بيت - وأخذنا نطوف فى أرجائه ونواحيه ، فهذه غرفة الضيوف ، وهذا مصلى الرجال ، وهذا مكان الطعام ، وهذه غرفة استقبال النساء ، وهذه غرف النوم ، وهذا مصلى النساء ، وكلها موزعة على مساحة الأرض فى الطابق الأسفل والأعلى على نظام هندسى فيه شىء من التحرّر من أسر الهندسة الدقيقة ، فتكاد تشعر بأن بانيه لم يكن يبالى أن يتقيد بشىء ، بل يريد أن يكون حرًّا طليقًا يفضى من مكان إلى مكان كما يشاء له هواه . وكنت كلما دخلت منها مكانًا أحسست بشىء فيه ينادينى ، فلما دخلنا القاعة الأولى هتف بى الهاتف إلى الصلاة ، فقمنا نصلى ، فكأنى ما صليت فى دار قط سوى هذه الدار . إن فى البناء روح إسلامية عجيبة ، فيه ورع وصدق ومحبة وتخفف من ثقل هذه التكاليف الداعية إلى الكدح والطمع والعدوان ، وفيه ألفة لم أحس بمثلها قط ، ولم أشعر إلا يومئذ أن أصدقائى الذين معى هم أصدقائى لا معارفى ، ألقاهم بوجه

وأستدبرهم بوجه ، ولم أجد إلا يومئذ تلك اللذة المنعشة بالأخوة تجمع بين الرجلين على اختلاف الدار والنشأة ، وخفق قلبى خفقة كأنه يقول لعلال الفاسى : مرحبًا بك من أخ جمعت بينى وبينه أخوة هذا الدين النبيل الذى جعل أهله أمة واحدة فكانت خير أمة أخرجت للناس .

ومضينا نطوف بالدار العجيبة ، فكأنى كنت أسمع حس أهلها وهم يتنادون ، وأراهم وهم يسعون وأشهد إماءهم وعبيدهم وهم يطوفون عليهم ، وأرى الضيوف وهم يتسامرون . فلما دخلت غرفة استقبال النساء ، ورأيت الذوق اللطيف والنوافذ عليها المشربيات الدقيقة الصنع ، والخزانات القائمة فى الجدران بنقشها البديع ، ورأيت « الصفَّة » التى يلمع رخامها وتتحلى بزينة من رسومها الدقيقة وأعمدتها القائمة كأنها ساق غانية راقصة ، ورأيت ذلك الزجاج الملون بالألوان الهادئة الناعمة ، وهذا الجو الساطع بالغنى والنعمة ، الساكن بالوقار والطمأنينة ، الناعم بالرقة والجمال ؛ عندئذ أخذنى مثل الحلم فرأيت ربة الدار فى حليها الأنيق وثيابها الموشاة ، وضفائرها المرسلة ، ووجه ينير فى جنبات هذه القاعة بالنبل والكرم والحفاوة بضيوفه من الأصحاب والأحباب ، وسمعت حديثهن المتخافت باللفظ المرقق والصوت الناعم المنغم ، وانتهت إلى ضحكاتهن الحيية التى كأنها ابتسامة مشرقة من وراء نقاب . رأيت الماضى ينبعث كله بفضائله ورذائله ، ورأيتنى أعيش ساعة أتنسم نسمات من حياة أجدها فى دمى ، كما يجدها كل مصرى وعربى فى دمه ، ولكننا كدنا ننساها بطول الترك وقلة العمل على استحيائها واستنقاذها واستعادتها ، حتى نتعلم منها كيف نكون أحرارًا فى التعبير عن سر طبائعنا الكامنة فى أعماق قلوبنا وضمائرنا . إن هذا الفن الذى أوحت به حضارة لها أصول لا تزال قائمة فى نفوسنا ، وفى تربة أرضنا ، وفى جو سمائنا - ينبغى أن ينبعث جديدًا مرة أخرى بما يلائم حاجتنا ، وبما يعيننا على تمييز أنفسنا بين الناس فلا ندخل فى غمار حضارات الأمم التى لا يجمع بيننا وبينها وطن ولا خُلق ولا دين ولا أدب ولا جنس ولا دم ولا شىء مما يتقارب به الناس أو يختلفون ، وتمنيت عندئذ أن أفيق من أحلامى فأجدنى قد رجعت إلى دارى فإذا هى تنفحنى

بهذه النفحات التى تحيى النفس لأن فيها شيئًا من سر هذه النفس . فلما خرجنا من بيت السحيمى حقّق الله طرفًا من هذه الأمنية .

لقد حملنا صديقنا الفنان إلى داره ، وهى فى عمارة كسائر عمارات القاهرة فى ظاهرها ، وهو يسكن منها شقة كسائر الشقق التى يسكنها سائر المصريين ، بيد أن المصريين يعيشون عبيدًا لهذه الهندسة الغربية الغريبة عن بلادهم ، ويسكنون فيها إلى أنماط من الحياة ليست لهم وليسوا منها فى شىء . أما هو فما كاد يفتح لى الباب حتى هبت تلك النفحة المسكرة من الماضى المنبعث حيًا نابضًا كأحسن ما تنبض الحياة . لقد رفعت هذه الأبواب الحديثة الثقيلة ووضعت مكانها الستائر من النسيج العربى الشرقى بألوانه وتقاسيمه وفنه ، ووضع مكان بعضها أبواب مشبكة ، وأقيمت هنا وهنا المشربيات الدقيقة ، وبسطت الأرض بالبُسُط العربية الرسم المصرية الصنع ، وهذه الأرائك والمناضد والقناديل وكل شىء يجعل البيت عربيًا هادئًا مطمئنًا فى وسط هذه المعمعة الطاحنة الفوارة التى تسحق طبائعنا ، وتمسخ قلوبنا ، وتحيل أذواقنا ، وتجعلنا عالة على الأمم ، نأخذ منها عارية [١] لا تزيدنا حضارة بل تزيد بؤسًا وشقاء وحيرة ونفورًا وقلقًا فى هذه الحياة وفى هذه الأرض ، وفى هذه الطبيعة التى تكتنفنا من حولنا ، وفى هذه الطبائع التى تستولى على دخائلنا وضمائرنا .

هذا بيتى ! هكذا قال لى قلبى ، فاطمأننت وكان الصوم والتعب قد بلغا منا جميعًا ، فآوينا إلى مضاجعنا ، فلما قمنا إلى إفطارنا ، وأضيئت القناديل (بالكهرباء) ورأيت ظلال المشبك على الجدران وطالعتنى المشربية من ناحية البيت ، رأيتنى أحيا فى هذا الغموض الهادئ بقلب جديد نابض مؤمل فى الحياة ، مستبشر راض عنها غير يائس منها . وتمنيت لكل مصرى أن يقضى فى الماضى يومًا من كل أسبوع حتى يجدد حياته ، وحتى يتاح لنا بذلك أن نجدد لأنفسنا فنًا وعيشة وسيرة وحضارة ليست مسلوبة ولامنتزعة ولا مستعارة من أحد من خلق

---

(١) العارية : الشىء المستعار .

الله ، بل هى فننا نحن وعيشتنا نحن وحضارتنا نحن ، تألفها نفوسنا وقلوبنا ، ويعرفنا الناس بها وتكون علمًا علينا ، وتدل على أننا نصنع الفن فنجيد ، ونبنى الحضارة فنبدع كما أبدع آباؤنا رضى الله عنهم . يوم واحد تعيشه فى الماضى وتحس أنك قد عشته وتَملَّيت بالعيش فيه ، لهو ذخيرة لا تنفد تعينك على فهم طبيعة الأرض التى تسكنها ، وعلى الوصول إلى كنه ما تنطوى عليه نفسك ، وهو بعث للهمة الراقدة وإحياء للقوة الكامنة ، وتحرير لنا من أسر التعبد للمدنية الغربية على غير هدى وفى غير طائل . يوم فى الماضى يحرر المرء من أسْر الحاضر ، فإذا نالت النفس حريتها فهى خليقة أن تعرف طريقها إلى تحرير أمة من استعباد أمة أخرى ، أرادت أن تفرض عليها إرادتها وحضارتها معًا . ونحن مقبلون على اليوم الذى ينبغى أن تملأ قلوبنا حرية مستمدة من أصولنا البعيدة ، لا حرية مستعارة من الأمم المعاصرة ، فلنرجع إذن إلى الماضى قليلًا ، ففيه المدد الذى لا ينفد والمَعِين الذى لا يغيض .

* * *

عبر لمن يعتبر

فى اليوم الخامس من أغسطس ١٩٤٧ ارتفعت مصر والسودان بقضيتها إلى مجلس الأمن تطلب النصفة من بريطانيا التى اعتدت على استقلالها واحتلت أرضها من منبع النيل إلى مصبه ، ووقف رئيس وفد مصر والسودان « محمود فهمى النقراشى باشا » يميط اللثام عن السياسة البريطانية منذ سنة ١٨٨٢ ، وكان لابد له من أن يكشف طرفًا من سوءات هذه الدولة التى قام كيانها على استعباد الشعوب وإذلالها واهتضام حقوقها . وكان الذى كشفه شيئًا ضئيلًا إذا قيس بما كان يمكن أن يقال أو يكشف من الأساليب الخبيثة التى دأبت بريطانيا على التذرع بها إلى عدوانها الوحشى على الأمم فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الميلادى . وكان رئيس وفد مصر والسودان يذكر الماضى ويروى عن التاريخ أصدق رواية فى أعف لفظ ، فأبى له أدبه أن يصف أفعال بريطانيا باللفظ الذى ينبغى أن توصف به ، والذى سوف يصفها به التاريخ بعد أن تسقط هذه الدولة من عداد الدول التى يكون لها فى هذه الأرض سلطان يقوم على القوة الغاشمة ، والدعاية الكاذبة ، وعلى التضليل والافتراء والعبث بعقول الناس .

ولم يكد النقراشى يفرغ من عرض قضية بلاده على أعضاء مجلس الأمن ، حتى هبَّ مندوب بريطانيا السير « ألكسندر كادوجان » يروى لمندوبى مجلس الأمن تاريخ هذا العدوان البريطانى رواية ملفقة مبتورة حشوها العبث بالتاريخ ، والاستهانة بالجنس البشرى ، والاستخفاف بعقول الذين يسمعون روايته المدلسة عن تاريخ حقبة من الدهر يستطيع كل مندوب ممن يسمعونه أن يفتح بعدها أى كتاب من كتب التاريخ الصحيحة ، فيعرف مقدار السخرية التى سخر بها هذا الرجل من سامعيه . وكان يسوق هذه الرواية المزيفة بأسلوب الواثق المطمئن بل

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٣٨) ، أغسطس ١٩٤٧ ، ص : ٩١٥ - ٩١٨

بأسلوب الصادق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولا ريب فى أن السير « ألكسندر كادوجان » هو أول من يعلم أن الذى يقوله باطل كله ، ولكنه رجل من ساسة بريطانيا - أى رجل من أعظم الممثلين الذين يجعلونك تحس أن المسرح قد انقلب تحت عينيك حقيقة واقعة .

ونحن لن نعلق على ما قاله « النقراشى باشا » ولا على ما قاله « السير كادوجان » ، فالحق أبين من أن يحتاج إلى إيضاح لمن أراد الحق والتمسه وحرص [على] [١] التثبت منه ، ولست أظن أن أحدًا من مندوبى أمم مجلس الأمن يخفى عليه وجه الحق فى الذى سمع من الرجلين . فإن كان بناء مجلس الأمن قائمًا على العدل والإنصاف وإيتاء كل ذى حق حقه ، فقد نالت مصر إذن حقها من غاصبها كاملا غير منقوص ولا مشروط بشرط . وإن كان مجلس الأمن هو سوق الرقيق الحديثة التى أنشأتها الأمم الغالبةَ لكى تبيع خلق الله وتشتريهم على الهوى ، فإن مصر والسودان سوف تعلّم هذا المجلس علمًا جديدًا لم يكن يتوقعه من أمة ضعيفة أضعفها الاستبداد البريطانى على مدِّ خمسٍ وستين سنة - لأنها أمة قوية قد علمها هذا الاستبداد أن الحقوق تنال بالجهاد المر ، وبالدم المهراق ، وبالإيمان الذى لا يتضعضع .

ولقد كان فيما قاله « النقراشى » وفيما قاله « كادوجان» عِبَرٌ لمن أراد أن يعتبر ، ونحن العرب أحوج الناس اليوم إلى الاستفادة من العبر المواضى ، فإن جهاد مصر والسودان حلقة من حلقات الجهاد الذى كُتِبَ علينا منذ احتلت بلادنا بريطانيا وفرنسا وسواهما من الأمم التى استعانت على ضعفنا وغفلتنا بقوتها ويقظتها وجشعها الذى لا يشبع ولا ينطفئ .

فأول هذه العبر أنه ينبغى للمجاهدين فى سبيل بلادهم أن يحذروا كل الحذر من الخوف ، فإن الخوف آفة الجهاد ، وما ساور الخوف قلبًا إلا انتزع منه البصيرة التى هى رائد كل مجاهد . وما نفى الخوف امرؤ من قلبه إلا زلزل بجرأته قلب

---

(١) يتعدى هذا الفعل بـ « على » ، فزدتها .

خصمه وجعله يضطرب بين يديه وإن كان أقوى منه بأسًا وأشد صولة . وقد نفى « النقراشى » الخوف من قلبه ، فوقف « كادوجان » بين يديه مضطرب الحجة حتى لم يجد لنفسه مناصًا من أن يلجأ إلى الأكاذيب القديمة التى ألفتها بريطانيا وبرعت فى تزويقها وتزويرها تريد بذلك أن تسحر عقول الناس . ولو كان الساسة العرب قد حرصوا على أن يكون هذا موقفهم فى كل أمر وفى كل عهد وفى كل ساعة ، لما أتيح للاستعمار البريطانى والفرنسى أن يبقى ضاربًا بجذوره فى بلادنا إلى هذا اليوم من أيام الناس . فهذه جرأة اللسان ، فعلى ساستنا منذ اليوم أن يتبعوا ذلك بجرأة أخرى هى جرأة العمل ، ولو فعل الساسة أفعالهم بجرأة وشمم وإباء على الضيم ، لما رأينا اليوم بلدًا كمصر والسودان يعج بالمستهترين من الأجانب والمشردين وصعاليك الأمم ، يستولون على أمواله وأراضيه وأخلاق بنيه باسم حرية المهاجرة وحرية التجارة وحرية العمل . لقد أظلهم الاستعمار البريطانى بظله وحماهم حتى بات المصرى والسودانى غريبًا فى بلاده ، يأكله كل طارئ ، ويدعه جوعان عريان منبوذًا فى بلاده وتحت سمائه .

وعبرة أخرى هى أن التساهل مخافة العواقب شر كله . فقد رأى بعض ساستنا أنهم إنما يفعلون خيرًا كثيرًا لبلادهم إذا تساهلوا لبريطانيا فى بعض الحقوق ، ظنًّا منهم أن ينالوا من وراء ذلك حقوقًا أخرى هى أولى بالتقديم والنظر والاهتمام ، فكانت العاقبة أن دخلنا مع بريطانيا فى الدائرة المغلقة التى يسمونها « المفاوضة » . فإذا نحن نضيع حقوقنا كلها جملة واحدة ، وإذا بريطانيا تريد أن تحتج علينا اليوم بما تساهل به أولئك الساسة فى حقوق بلادهم ، فتأكل علينا حقنا كله حين تريد أن تمنعنا من أعظم الحقوق البشرية وهى الحرية . وتريد أن يقطع قلب مصر بقطع السودان عنها ، لأن قومًا من الساسة غفلوا زمنًا طويلا عن رفض كل اتفاق لا يشمل السودان كما شمل الجزء الشمالى من وادى النيل وهو مصر ، فارتضوا أن يعلقوا مسألة السودان ويأخذوا من عبث بريطانيا ما زورته لهم وخدعتهم به ثم هى اليوم تمن علينا أنها أعطتنا تلك الفضلات التى لا يعبأ بها إلا الذليل الخانع المقيم على الضيم .

وعبرة ثالثة هى أن زعماء الثورة على العدو ينبغى أن يظلوا أبدًا زعماء الثورة ، لا رؤساء حكومات تحت ظل حماية مقنعة تسمى استقلالًا كذبًا وتضليلًا فى العرف الدولى . فكان ينبغى لهؤلاء الزعماء أن يظلوا بمنجاة من إثم الحكم تحت ظل الاستعباد البغيض وأن يكونوا دائمًا أيقاظًا لا تنيمهم شهوة الحكم ، وبذلك يضمنون لبلادهم أن تظل يدًا واحدة على العدو ، وأن تظل يقظة متنبهة لا يخدعها لفظ « الاستقلال » عن الخبث الذى انطوى عليه وأن يصارحوا الشعب دائمًا بالحقيقة التى لا تستر ، وهى أنه صار « مستقلا » فى العرف الدولى ، وأن يكشفوا له ما استطاعوا عن خدع الاستعمار الذى يعبث بهم . وإلا فأى خديعة كانت أكبر على هذا الشعب من خديعة الناشئة فى المدارس والبيوت ، وهم يقرأون ويسمعون أن مصر دولة مستقلة ، وهى اليوم تقف لتقول للناس على رؤوس الأشهاد فى مجلس الأمن إن الاستقلال الذى ضمنته بريطانيا !! كان استقلالا مزيفًا ، لأن الجنود البريطانية كانت لا تزال تحتل بلادنا ولأن السفير البريطانى كان ينصب الحكومات المصرية ويقيلها كما يشاء وتشاء دولته المستعمرة لبلادنا . لقد ظن أولئك الرجال أن هذه سياسة وكياسة وحسن تدبير ، فإذا هى غفلة وحماقة وسوء تقدير . ولولا يقظة هذا الشعب الأبى الكريم ، لما استيقظ هؤلاء الزعماء البتة ، ولمضوا إلى الغاية فى التنازع على الحكم وشهوات الحكم وفتن الحكم ، فالشعب هو الذى انتهى بنا إلى مجلس الأمن لا الزعماء ولا أولئك الساسة .

وعبرة رابعة هى أنه ينبغى لزعماء الثورة أن لا يقبلوا البتة مفاوضة الغاصب على حق من حقوق البلاد ، فإن حقوق الحرية مترابطة لا ينفك بعضها من بعض ، ففيم يفاوض الإنسان إنسانًا قد سلبه حقوقه ؟ إنها كلمة واحدة : « هات حقى » ، ولا تدع المطالبة بالحق كاملا حتى يتركه لك أو تموت دونه . وما دام الغاصب لا يستطيع أن يفنى شعبًا بأسره ، فالشعب هو الظافر المنصور فى النهاية ، مهما لقى من عذاب وتنكيل واضطهاد وبؤس .ولو كان هذا من فعل مصر والسودان منذ سنة ١٨٨٢ لما انقضت سنوات بعد سنة ١٩١٩ سنة الثورة ، حتى كان الغاصب قد أسلم إلينا حقوقنا كاملة بلا معاهدة ولا مفاوضة . ولكن زعماء الثورة رموا بأنفسهم فى المفاوضات ، فكانت العاقبة أننا بقينا نفاوض بريطانيا سبعة عشر

عامًا ، فإذا هى تعطينا معاهدة سنة ١٩٣٦ تحت الضغط والقهر والتهديد ، وإذا هذه المعاهدة احتلال تام ، ولكنه سمى فى العرف الدولى « استقلالا » .

وعبرة خامسة هى أن الذين يدخلون المفاوضات ويعقدون المعاهدات تحت ظلال السيوف ، وبضرورة التهديد والقهر ، كان ينبغى عليهم أن يكونوا ناسًا غير زعماء الثورة ، أما زعماء الثورة حين يفعلون ذلك ، فهم بين رجلين : إما مدلس كذاب يخدع الناس ويقول للناس هذه معاهدة الشرف والاستقلال ، وهى ليست سوى معاهدة للاحتلال الدائم ، وإما رجل ضعيف الرأى منخوب الفؤاد يوقع على المعاهدة ثم لا يجرؤ أن يقول لشعبه إن هذا الذى وقعت عليه احتلال لبلادكم فاحذروه وارفضوه وثوروا فى وجهى ووجه من رضيه معى . وهذا الثانى لن يستطيع أن يقول ذلك ، فهو مضطر إذن إلى التلفف والتلفيق والسكوت وادعاء الشجاعة حين يقول : « هذه معاهدة لولا القهر والتهديد لما وقعتها » ، ويقولها فى غمرة تلك الأمواج الهائلة من الخداع والأكاذيب التى اصطلح على نشرها بين الشعب الغافل المنكوب زعماء من أنفسنا ، وساسة من أخبث ساسة بريطانيا فى هذا القرن . ياله من عبث أيها الساسة المخادعون ! وتبت أيديكم يوم وقعتم وثيقة أراد بها الغاصب إذلالكم وإذلال بلادكم فقبلتموها ، وهو اليوم مُصِرّ على أخذ بلادكم بما جنت أيديكم من شرور تلك المعاهدة الخبيثة التى زعمتم أنها فرضت عليكم فرضًا . وقد كانت لكم مندوحة عن قبولها لولا الضعف والخور والجبن وشهوة الحكم التى استولت على قلوبكم .

وعبرة سادسة هى أن بريطانيا وكل دولة مستعمرة من هذه الدول الأوربية لا تتورع عن اتخاذ كل وسيلة تبلغ بها غايتها ، فمن أجل ذلك ينبغى للشعب أن يعرف منذ الساعة الأولى رجاله ورجال عدوه ، وأن يَسِمَ الخونة بسِمَة لا تزول ، وأن يتناقل هذا التاريخ عامًا بعد عام وجيلا بعد جيل فى البيت والمسجد والمدرسة والمجالس ، فهذا وحده هو الكفيل بأن يعرف الشعب حقيقة كل زعيم تسول له نفسه أن يستغل غفلة الناس أو ذعرهم أو لهفتهم فيغرر بهم فى مزالق السياسة الاستعمارية ، فإن مصر والسودان ظلت أعوامًا تأبى أن تعترف باتفاقية سنة

١٨٩٩ التى فرضتها بريطانيا على مصر والسودان على يد رئيس وزراء كان خليقًا أن يخون بلاده ، ثم جاء الموقعون على معاهدة سنة ١٩٣٦ فقبلوا أن يكون لهذه الاتفاقية الباطلة التى لم تعترف بها مصر قط - ذكر فى معاهدتهم الوبيلة الخبيثة . فلو كان الشعب يومئذ على ذكر لما كان من شئون الخونة السابقين وما فعلوه ، لما جازت عليه الكلمة الملعونة فى معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ولثار يومئذ على هؤلاء الزعماء لأنهم أهدروا كل جهاده الماضى ، وكل ما أراق من دماء وأضاع من جهود ، وأنفق من سنين بنص موبوء فى معاهدة موبوءة .

ولن نفرغ من ذكر العبر الكثيرة التى توحى بها هذه الساعات فى المعركة الفاصلة بيننا وبين بريطانيا فى مجلس الأمن وفى كل عبرة من هذه العبر خير كثير يرجى أن لا يفوت العرب إذا حذروا وانتبهوا وآثروا السلامة مما وقعنا نحن فيه . ومن حسن الحظ أن أكثر زعماء العرب اليوم من مراكش وتونس والجزائر وليبية وفلسطين والعراق هم اليوم أشد إحساسًا من أسلافهم بالتبعة الملقاة على كواهلهم ، وأقوى إيمانًا بالحقوق الإنسانية من بعض زعمائنا فى الماضى ، ولكن ينبغى لهم أن يجتنبوا كل الاجتناب أن يقبلوا مفاوضة الغاصبين أو معاهدتهم أو الدخول معهم فى حديث السياسة والكياسة واللباقة ، فإن هذا وإن أفاد قليلا ، فإنه شر مستطير على مستقبل الشعب فى الشئون السياسية ، وفى النواحى الأخلاقية . وحسب هؤلاء الزعماء العرب ما جربته مصر من مطاولتها والمد لها أكثر من تسع وعشرين سنة باسم المفاوضات والمعاهدات ، حتى فقد الشعب كثيرًا من إيمانه بحقوقه ، ولولا أن الله أتاح لنا هذه الحرب الأخيرة لتنفض عن عيوننا النوم والتخدير الذى أصابها باسم المفاوضة لظللنا إلى اليوم نيامًا تجرنا بريطانيا وراءها طمعًا منا فى أن ننال شيئًا من حقوقنا بمفاوضتها ومعاهدتها .

أيها الزعماء العرب لا تخونوا بلادكم : أى لا تفاوضوا بريطانيا أو سواها من الدول المستعمرة ولا تعاهدوها ولها فى بلادكم ظل من سلطان ، ولا تخافوها ولا تخشوا لها بأسًا ولا قوة واحرصوا على أن تبقى شعوبكم عالمة بحقيقة ما يحيط بها بكل أسلوب تستطيعونه ، وإياكم والحكم فإنه الفتنة المبيدة والآفة

الحالقة [١] والبلاء المبين . لقد كان لكم فينا عبرة فاعتبروا ، وقفوا منذ اليوم أيقاظًا لا تغفلون ، فربَّ ساعة سوف تأتى علينا وعليكم فنناديكم للجهاد ، فهبوا معنا واحذروا أن يكون بينكم زعيم يسول لكم أن الخير فى الرضى والتراضى والتساهل ، فإن ذلك هو الوبال ، وهو آخرة العرب إن فعلتم ، إن مصر والسودان قد بدأت أول الجهاد ؛ فاستعدوا أيها العرب !

* * *

---

(١) الحالِقة : المُهْلِكة .

اتقوا غضبة الشعب !

أجلت قضية مصر والسودان فى مجلس الأمن إلى يوم الثلاثاء التاسع من سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، بعد أن تمتعت بريطانيا بالخذلان الذى كان مثله أبعد شيء عن بالها منذ عشرات سنوات وحسب . فقد تعودت بريطانيا أن تأمر أو تدسَّ فيطاع أمرها أو دسُّها ، وتخرج ظافرة من كل معركة تدور بينها وبين أمة من الأمم التى ابتليت بشرها الذى لم تنطفئ له جمرة منذ نجمت قرون هذه الدولة فى تاريخ العالم الحديث . ونحن نسأل الله أن يتمَّ الخيبة على هذه الدولة الطاغية بانهيار نظامها الاقتصادى ، ليخلص العالم من الأخطبوط الفاجر الذى ضمَّ فى أحشائه وبين جوارحه دولا برمّتها من الهند إلى العراق إلى مصر والسودان إلى جنوب أفريقية - إلى عالم كان يتمدّحُ شعراؤها بأن الشمس لا تغيب عن ملكه ، وأنها هى التى حملت أمانة الجنس الأبيض و (عبءَ الرجل الأبيض) فى تحضير الأجناس الملونة ، أى استعبادها وظلمها ، وإغراء فرنسا وبلجيكا وهولندة وسواها من أقزام الدول باستعباد جزء من هذه الشعوب ، تسومها الخسف بكل نذالة تدخل فى طوق هذه الأمم .

إن مجلس الأمن هو اليوم بين اثنتين : إما أن يُشهد العالم كله على أنه أقيم على حق ، وأنه حافظٌ وازعٌ ينهى الطغاة عن الإيغال فى طغيانهم ، وإما أن يشهد العالم كله على أنه سوق حديثة للرقيق والنخاسة أقيمت لتتاجر بعباد الله بلا حياء ولا ورع . فكان تأجيل قضية مصر فى هذه المرة ، بعد المناقشات التى دارت فيه دليلا على أن مصر والسودان قد استطاعت شيئًا ما أن توقظ طرفًا من ضمير هذا المجلس ، ومن ضمير الأمم التى اشتركت فيه ، واستطاعت أيضا أن تجعل بريطانيا مغمورة فى ركام الفضائح والفظائع التى ارتكبتها فى مصر والسودان ، والتى تصر على المضى فى ارتكابها بكل جرأة لا تستحى .

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٤٠) ، سبتمبر ١٩٤٧ ، ص : ٩٧٢ - ٩٧٤

ونحن نحب أن نثنى ثناء خالصًا من قلوبنا على الرجل المصرى السودانى ، الذى لم يزعزعه تهديد بريطانيا وترويعها ، ولم ينل من قلبه الخوف ، ولم تثنه عن الهدف الأعظم حِيَل ولا أشراك ولا جدال ولا تغرير ، فانطلق يبين عن أهداف مصر والسودان وعن حقوقها وعن البلاء الذى نزل بها بيانًا شفى صدور المصريين والسودانيين جميعًا . إننى لم أعجب بهذا الرجل لأنه سياسى بارع ، ولا لأنه قانونى ضليع ، ولا لأنه خطيب مفوّه ، ولا لأنه رئيس حكومة – كلا بل لأنه أول رجل بعد أن ذهب مصطفى كامل – وقف وحده فى عرين الأسد البريطانى ليسمع الدنيا كلها أن هذا الأسد البريطانى قد اعتدى عليه وبغى وطغى وظلم وتجبر ، وفعل الأفاعيل الخسيسة التى أراد بها استعباد مصر والسودان . إنه الرجل المسئول الوحيد الذى قام فى مجلس دولى يطعن بريطانيا العظمى طعنا متداركا غير راحم ولا مشفق ولا هياب ، وهو يعلم أنه يطعن بهذا الطعن دولا كثيرة من أعضاء هذا المجلس . لقد كان محمود فهمى النقراشى رجل مصر ، لأنه كان وطنيًا يتكلم بلسان الجروح التى مزقت جسد أمته ، لا بلسان السياسى المحتال الذى يريد أن يرضى هذا ويتجنب غضب ذاك . وهذا وحده هو السّرّالأعظم الذى جعل قضية مصر والسودان أعظم قضية عُرِضَت على مجلس الأمن وأخطرها ، وهذا وحده هو الذى أوقع التخاذل فى الصفوف التى جمعتها بريطانيا ، وظنت أنها سوف تنصرها فى باطلها نصرًا مبينًا ترجع بعده مصر والسودان خاشعة خاضعة تحت ظلال الخذلان الذى أمّلت بريطانيا أننا سوف نمنى به .

لقد ضرب النقراشى مثلا خالدًا فى تاريخ مصر الحديث فدل بذلك على أنه رجل يركن إليه فى ملمّات الأحداث . مرت على مصر والسودان حقبة كان الذى يقول فيها بمثل قالة النقراشى فى مجلس الأمن يُعد رجلا مخبولا خياليًا تسخر منه الصحف والمجلات ، وتزدريه جماهير من المخدوعين ، ويتخذ هدفًا لكل دعابة تجرى بها ألسنة الهازلين من أحلاس [1] النوادى والقهوات . إن هذا الرجل جدير

(١) الأحلاس : الملازمون . جمع حِلْس ، وأصل الحِلْس : كل شىء وَلِىَ ظهر البعير والدابة تحت الرَّحْل والقَتَب والسرج ، ومن ثم قيل للمقاتل الذى لا يبرح الحرب ، والفارس الذى يلزم ظهر الفرس : حِلْس ، فيقال : هم أحلاس الخيل .

بأن يرفع اسمه منذ اليوم حيث لا تنال مكانه أسماء الدجالين والمنافقين الذين ظهروا فى تاريخ السياسة المصرية منذ سنة ١٩١٩ إلى يوم الناس هذا . فحسبه فخرًا ومكانة أن يكون هو الذى استطاع أن يجمع إرادته وعزمه وحزمه ، فلم يصرفه خوف أو إغراء عن تحقيق كَلِمَة مصر والسودان الخالدة ، وعن إعلان هذه الكلمة فى أرجاء الدنيا ، وهى : « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » .

* * *

ويقابل هذا الرجل الصادق رجال آخرون من صنائع بريطانيا - كانوا من صنائعها القدماء منذ تحركت مصر والسودان فى سنة ١٩١٩ تطالب الدولة الباغية باستقلالها ، وتريق دماءها وتبذل مهجها ، ويأتى أحدهم فيكون سيفًا مسلولا على أعناق إخوانه المصريين يتعسف بهم عسف الجبار المارد ، وإن كان هو فى نفسه ليس بجبار ولا مارد إلا كما كان أبو حية يسمى قضيب الخشب الذى يحمله سيفًا هندوانيًا (١) - وإنما كان جبروته وتمرده يومئذ من جبروت بريطانيا وتمردها - فهو دمية تلعب بها لا أكثر ولا أقل .

لقد قام النقراشى يعلن ملأ الأمم فى نواحى الأرض ، أن هذه ساعة فاصلة فى تاريخ مصر والسودان ، وأنه قد عزم على طرد الإنجليز من بلاده ، وأنه لن يقبل مهادنة ، ولا مفاوضة ولا مراوغة بعد اليوم ، وأن بلاده توشك أن تنفجر ، وأن البلاء على الأبواب لن يمنعه ضغط الدول الأعضاء فى مجلس الأمن ، وأن مصر والسودان قد أبت إلا طرد بريطانيا من بلادها كلها بلا مهلة ولا تريث ولا مواعيد ، ووقف مندوب بريطانيا يصر إصرار البغاة الطغاة على أن المعاهدة تخول له احتلال أرضنا ، ويستدل مرة بعد أخرى بالذى كان فى مفاوضات صدقى - بيفن وكأنه يريد أن يقول إن صدقى قد قبل ما يأتى هذا الرجل - يعنى النقراشى - فينكره ويرفضه ، ويكذب على مصر والسودان فيدعى أنها تريد طرد بريطانيا وجلاءها جلاءً تامًّا ناجزًا عن أرض وادى النيل كله ، على غير ما تدل عليه مفاوضات صدقى - بيفن .

---

(١) هو الهيثم بن ربيع ، من شعراء الدولتين . وكان أهوج بخيلا جبانا كذابا . وكان له سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق ، يسميه « لُعاب المنية » .

وفى خلال ذلك يقف صدقى باشا الذى اتخذته اليوم بريطانيا حجة على مصر ، ليقول إن خير الوسائل لنيل حقوق مصر والسودان من بريطانيا هى المفاوضة ، كأن هذا الرجل لم يعلم بعد أنه ظل يروح ويغدو ويتلاعب هو وتتلاعب بريطانيا ، وكانت العاقبة أن أفضى الأمر به إلى الاستقالة ، بعد التكذيب الخبيث الذى كذبت به بريطانيا كل شيء قاله فى تفسير بروتوكول السودان . لقد كان العذر متسعًا لامرئ سواه إن قال بمثل الذى يقول به . ومتى يقول هذا الرجل هذا الكلام ؟ يقوله فى ساعة الحرب التى شنتها مصر والسودان على بريطانيا !

إننا لا نبالى كثيرًا ولا قليلا بما يقوله هذا الرجل وأمثاله ، وليس من همنا أن نقف عنده لنفنّده ، بل همنا أن نبين أن وراء كلامه معنى آخر ، هو أن بريطانيا لما أحست بتباشير الخذلان الذى سوف تناله فى مجلس الأمن ، وعرفت أنها لن تستطيع أن تواجه العالم بالأباطيل التى كانت تواجه بها المفاوضين فيرهبونها ويخشون بأسها ، فلجأت عندئذ إلى قدماء صنائعها فى وادى النيل ليخذلوا قلوب الناس ويخوفوهم ويوقعوا بينهم يبغونهم الفتنة ، ويكون ذلك فَتًّا فى عضد النقراشى ، وتمهيدًا لانقلاب يحدثونه مرة أخرى بالقهر والتهديد ، وبخيانة من يستحلى موارد الخيانة لبلاده - لمال يناله ، أو جاه يحرزه ، أو أبهة يختال فيها ، أو أمل يمنى بإدراكه على يد بريطانيا صاحبة النعم الجزيلة والآلاء التى لا تنفد !

إن بريطانيا تبذل الآن كل جهدها فى ردّ مصر والسودان عن الطريق الذى لا طريق غيره لمن أراد أن ينال حقه ، وأن يجعل هذا الحق ذِكْرًا مذكورًا فى قلوب الأبناء والأحفاد حتى لا تنطمس معالمه ، وحتى لا ينخدع الناس عنه بقليل مدلس عليهم كما حدث فى تاريخ مصر والسودان منذ سنة ١٩٢٤ إلى هذا اليوم ، حتى بلغ البلاء أن صار الناشئة يقولون : « مصر والسودان دولة مستقلة » ، وكلهم يعلم ويرى ويشهد بعينيه الغزاة فى ثيابهم يروحون ويغدون فى الشوارع والطرقات ، ويغشون دور الملاهى ويقيمون المدارس المعادية لروح مصر والسودان فى قلب بلادنا ، ويحمون لصوص الأجانب ، وينصرونهم على أبناء البلاد بكل ما استطاعوا .

ومصر والسودان لن ترتد مرة أخرى إلى طريق « المفاوضة بين مصر وبريطانيا » ولن ترتد إلى تعليق مسألة السودان وجعلها مسألة قائمة على حيالها ، ولن ترتد إلى الاعتراف بالورقة الباطلة التى كتبت فى سنة ١٨٩٩ لتشرك بريطانيا مصر فى حكم السودان . فإذا كان صدقى باشا قد علم من الثقة الذى أوعز إليه أن هذه الخطة هى الباقية ، وأنها هى التى سنصير إليها بعد انهزامنا فى مجلس الأمن ، وأنه لا محيص لمصر والسودان من المفاوضة قبل الجلاء عن وادى النيل كله – فقد كذب الذى أوعز إليه بذلك . وليعلم صدقى باشا أن الرائد لا يكذب أهله [١] ، وأننا نحن أصدق حديثًا من الذين يعتمد هو على حديثهم ، فمصر والسودان قد علمت اليوم علمًا ليس بالظن أن مفاوضات صدقى – بيفن ، كانت زلة وقى الله شرها ، وأن الله سخر النقراشى ليقيل مصر والسودان من تلك العثرة المردية ، وأن مصر والسودان قد عزمت أمرها على أن لا تضع يدها فى يد بريطانيا ما دام لها على أرض وادى النيل ظل تستظل به أفاعيها ، وثعالبها ، ووحوشها وصنائعها أيضًا .

وخير لصدقى باشا ومن كان على شاكلته أن يعلم أشياء كثيرة ، فلا يغرر بنفسه فى مهالك بريطانيا التى تطأ بأقدامها كل من يخدمها إذا رأت فى ذلك خيرًا ينفعها . خير له أن يعلم أن الزمن الذى كان هو فيه أحد أبطال السياسة ، قد انقلب كله وذهب وعفَّى عليه الذى عفى على مآرب كثيرة . وخير له أن يعلم أن الجيل الذى يعيش فى هذه الأيام غير الجيل الذى كان يرهب سوط الجلاد ويخاف وسْمَ السياط على أبدانه ، وخير له أن يعلم أن العِلْمَ القليل الذى كان يناله الرجل فيتبجَّح به ويخيل إليه أنه صار عقلا وحده ، قد حل محله عقل كثير لا قبل لأحد بدفعه بعد اليوم . وخير له أن يعلم أن الدُّرة التى تتوهج اليوم بالإخلاص لمصر والسودان ، خير من كل الدُّرّ القديم الذى زيفته بريطانيا وملأت قلبه نعمة وجاهًا وسلطانًا ، وخير له أن يعلم أن دَمَ أى صعلوك مصرى سودانى مخلص

---

(١) هذا مَثَلٌ ، يضرب للذى لا يكذب إذا حدَّث . وأصل الرائد هو الذى يُرْسَل فى البحث عن الكلأ والمرعى ، فإذا لم يَصْدُق قومه فقد غرَّر بهم وأهلكهم .

لبلاده ، قد صار أكرم على مصر والسودان من دماء السادة الذين سادوا بالخيانة والنفاق والخداع . وخير له أن يعلم فى أول ذلك كله وآخره أن احتقار مصر والسودان ، وازدراء هذا الشعب النبيل ووصمه بأنه لم يبلغ بعد المرتبة التى تخوّله أن يتبوأ مكانه فى العزة والكرامة – لن ينفع بعد اليوم صاحبه والمتحدِّث به ، والعامل على تثبيته فى أذهان من يحدثهم . وخير له أن يعلم أنه لا يزيد على أن يكون فردًا من أفراد هذا الشعب لا أكثر .

ليس من همّى مرة أخرى أن أتناول قول صدقى بالنقد أو التفنيد ، ولكن كل همى أن أدُلّ ناسًا من خلق الله الذى نبتت لحومهم ، وجرت دماؤهم ، وامتلأت بيوتهم خيرًا من ماء النيل الذى يجمع مصر والسودان ، على أن شعب مصر والسودان قد حزم أمره على أن يستأصل شأفة الماضى كله ويقطع دابر المنافقين المختالين بغير سلطان أتاهم ، وأنه قد أجمع عزمه على أن يحطم سلاسل الاستعباد كلها ، وأنه لن يقف دون غايته لرهبة أو رغبة ، وأنه عرف أن الساسة قد خدعوه زمنًا طويلا فأيما سياسى من القدماء ، ممن كان من صنائع بريطانيا أو من المخدوعين بشرف بريطانيا ، تسول له شياطين نفسه بعد اليوم أن يظن أنه أهدى من النقراشى وأعظم وأقدر ، وأنه بالغ ما لم يبلغه النقراشى بالمفاوضة والمساومة على حقوق مصر والسودان فمصيره أن ينال من بأس هذه الأمة الناهضة المتدفقة العارمة شرًّا كثيرًا كان أحوط له أن يلوذ منه بملاذ كريم ، هو يستظل بظل الأمة التى ولدته وأنشأته وكرمته بالانتساب إليها . فإذا أبى أحدهم إلا أن يطلب لنفسه مجدًا بدعوة بلاده إلى المفاوضة أو خيانة بلاده بقبول عون بريطانيا له حتى يبلغ الوزارة كما بلغها بعضهم من قبل على أسنة الحراب البريطانية ، فإنه سيعلم يومئذ أن الشعب المصرى السودانى أشد منه ومن بريطانيا بأسًا وظلما ومصابرة على الجلاد ، وسيعلم أنه قد قدر فخاب فامتحن امتحانًا شديدًا كانت له عنه مندوحة .

أيها الساسة القدماء ! احذروا غضبة الشعب ، فلكل شعب غضبة كالنار المشعلة تأكل الأخضر واليابس ، وهذا أوان غضبة مصر والسودان بعد أن يبس الثرى بيننا وبين بريطانيا .

* * *

مؤتمر المستضعفين

كانت جلسة مجلس الأمن فى يوم الأربعاء ١٠ سبتمبر ١٩٤٧ هى الحكم الفاصل فى قدر هذا المجلس وفى بيان قدرته على فض النزاع الذى ينشب بين الدول صغيرها وكبيرها . وكان ظن الذين دعوا إليه وأنشأوه - أو كانت دعواهم - أن هذا المجلس قد أنشىء ليكون فيصلا فى الخصومات التى يخشى أن تفضى إلى حرب ، وأنه هو المهيمن على السلام وحفظه فى هذا العالم المائج المتدافع . فجاءته قضية مصر والسودان ، وليس فى قضايا الدنيا كلها ما هو أوضح منها وأبين ، ووجه العدل فيها ظاهر لكل ذى عينين عمشاوين فضلا عن عينين بصيرتين ، ومع ذلك كانت كل جهود هذا المجلس العجيب أن يقول للمتخاصمين : اذهبا فاطلبا شيئًا تصطلحان عليه ! وليس فى الدنيا ماهو أعجب من هذا ، متخاصمين أعجزهما أن يجدا للصلح مكانًا بينهما ، فيقول لهما الحاكم الوازع : اذهبا فاطلبا صلحًا !!

ونحن لا نريد أن نطعن فى هذا المجلس ، ولا أن نقول إنه شىء لا قيمة له ولا غناء فيه ، ولا أنه أوشك أن يصبح سببًا فى فساد العالم ودافعًا جديدًا لتقريب ساعة الحرب ، ولا أنه كشف عن قدر من العجز يحل للناس معه أن يطلبوا حله ويسرِّحوا وفود الأمم المشتركة فيه إلى بلادهم ، لا نريد شيئًا من هذا ، بل نرى أنه مجلس لابد من بقائه على ما هو عليه ، ولابد من ذهاب كل دولتين متخاصمتين إليه ، فإنه يتيح للمظلوم أن يفضح ظالمه ويكشف عن آثامه التى يسترها عن العالم بالأكاذيب والتمويه . ولكن كل ما نريده هو أن يتفضل هذا المجلس بأن ينفى عن نفسه نقيصة الغش والخداع ، فإنه أنبل وأعظم من أن يرتضيهما لنفسه ، فقد زوّر عليه الذين أنشأوه فوضعوا له اسمًا لا يناسب جلالة قدره ولا حقيقة معناه ، وألصقوا به شيئًا ليس من الإنصاف أن يلصق به ، وهو المحافظة على الأمن

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشر (العدد ٧٤٢) ، سبتمبر ١٩٤٧ . ص : ١٠٢٨ - ١٠٣٠

العالمى الذى يقتضى أول ما يقتضى أن تتساوى الدول المشتركة فيه فى السيادة على الأرض التى يشملها اسم الدولة ، حتى لا يقع التنازع بين سيادة وسيادة ، فيختل التوازن ويصير الأمن العالمى مهددًا بالزوال .

ونحن نقترح أن يسمى هذا المجلس « مجلس الأجاويد » ، وقد اخترت هذه التسمية لقصة سمعتها : ففى الشطر الجنوبى من وادى النيل المعروف عندنا باسم « السودان » ، والمعروف عند بريطانيا وأشياعها باسم السودان المصرى الإنجليزى ، ألف الناس إذا تخاصموا أن يلجأوا إلى جماعة من أصحاب الرأى يسمونهم « مجلس الأجاويد » ، فيأتى المتخاصمون فيذكرون أسباب خصامهم ، وتنظر الجماعة فى أمر هذا الخصام ، ثم ترى رأيها فتقول لأحد المتخاصمين : أكرمنا وانزل عن كذا ، وتقول للآخر : وأنت فأكرمنا أيضًا وانزل عن كذا . ولا تزال تأخذ من هذا ومن ذاك ، فإن قبل المتخاصمان أن ينزل كل منهما عن شىء وينزل خصمه عن مثله ، فذاك ، وإلا رفعت الجماعة يدها عن الأمر كله وقالت للمتخاصمين : لقد نفضت يدى ، فاذهبا فاصنعا ما تشاءان !

فمجلس « الأجاويد » هذا أشبه شىء بمجلس « الأمن » لولا أن الأول طابق اسمه مسماه ، وأن الآخر كذب اسمه على مسماه . فمن الحسن كل الحسن أن يغير هذا المجلس اسمه ويبقى هو ، لأنه مكان يتاح للدول فيه أن يعرف بعضها بعضًا على حقيقته بغير تدليس ولا تجمل ولا مواربة . وهذا فى نفسه غاية مطلوبة ومنفعة لا مراء فى أنها خير ينبغى الحرص على إدراكه وتحصيله ، بل نقول أكبر من ذلك : إن تسريح وفود الدول المشتركة فى هذه المجلس شر ينبغى اتقاؤه ، لأنه يحول بين الدول وبين إدراك هذه الغاية المطلوبة والمنفعة العظيمة .

وندع مجلس « الأجاويد » وما وحل فيه من عجز وضعف واحتيال على تفادى الحزم ، ومن فراره عن وجه الحق فيما يعرض عليه من الخصومة ، فإنه لم يخلق لمثل ما نطالبه به حين نذكر حقوق مصر والسودان أو سواهما من أمم الأرض . ندعه لننظر فى خاصة أمرنا نحن دون أن نعبأ شيئًا بما فعل هذا المجلس ، أو سوف يفعله .

وملخص تاريخ القضية المصرية السودانية ، كما يعرفه كل أحد ، هو أن مصر والسودان كانت فيما قبل سبتمبر سنة ١٨٨٢ دولة واحدة لها حدود معروفة معترف بها فى المحافل الدولية كلها لا ينازعها فيه منازع . وفى سبتمبر سنة ١٨٨٢ اتخذت بريطانيا ما كان من أمر الثورة العرابية التى قام رجالها للمطالبة بحقوق الشعب الدستورية ، ذريعة للتدخل فى شئون مصر الداخلية ، وكانت نيتها مبيتة على العدوان على استقلال مصر والسودان ، وإخضاع هذه الدولة للسيطرة البريطانية الاستعمارية التى كانت يومئذ فى عنفوان شدتها . فتم لبريطانيا ما أرادت ، وانتهكت حرمة الشرائع الدولية ، وادعت أنها أرادت تثبيت عرش خديوى مصر فى ذلك الوقت محمد توفيق . ولما رأت أن الدول الأوربية المستعمرة قد بدأت تناوئها ، زعمت أنها لن تلبث إلا قليلا حتى تجلو عن أرض مصر والسودان مرة واحدة فى أقرب وقت مستطاع ، حددته أحيانًا وتجاهلت تحديده أحيانًا أخرى . وظلت تماطل وتتعسف وتؤوّل ، وتكذب وتفترى على مصر والسودان أخس افتراء ، وهى فى خلال ذلك تهدم كيان هذه الدولة المصرية هدمًا تامًا بحجة الإصلاح حينًا ، وبحجة المحافظة على « حقوق » الأجانب فى مصر وعلى مصالحهم .

فلما جاءت الحرب العالمية الأولى ، انتهزت بريطانيا هذه الفرصة وأعلنت الحماية على مصر والسودان دون أن تعبأ شيئًا بحقوق شعب مصر والسودان ، وهى مطمئنة إلى سكوت الدول الحلفاء على فعلها فى هذه الساعة الحاسمة من تاريخ العالم . ثم انتهت الحرب وهب الشعب المصرى السودانى يطالب بريطانيا باستقلاله ، ولكن بريطانيا لم تلبث أن وجدت منفذًا لتفريق كلمة هذا الشعب ، فلوحت للزعماء بأنها تريد إنصاف مصر والسودان ، وظلت تستدرجهم حتى قبلوا مبدأ مفاوضة بريطانيا فى حقوق مصر الطبيعية ، فأقبل هؤلاء الزعماء على مفاوضة بريطانيا منذ ذلك الوقت ، فكانت زلة وخيمة العواقب فى تاريخ مصر والسودان ، ولو لم يكن لها من الشر إلا أنها أفضت إلى تعليق مسألة السودان من كل المفاوضات إلى سنة ١٩٣٦ ، لكان ذلك حسبها من البلاء الذى ليس بعده بلاء .

ولما حدثت مفاوضات سنة ١٩٣٦ الخبيثة ، وانتهت بمعاهدة الاحتلال التى فرضت على مصر فرضًا تحت ظل الاستبداد والتهديد والتخويف ، وقعت زلة أخرى أكبر من زلة المفاوضات نفسها ، وهى ذكر الورقة الباطلة المعروفة باسم اتفاقية سنة ١٨٩٩ - فكان ذكرها كأنه اعتراف بشرعيتها ، واجتماع كل هذه الأخطاء واحتشادها منذ سنة ١٩٢١ إلى هذا اليوم ، هو الذى مكّن لبريطانيا أن تقف فى مجلس الأمن لتتكلم بالكلام الذى لا معنى له إلا أنه تزوير للحقائق ، ولكنه تزوير اعتمد على هذه الأخطاء نفسها . فلولاها لما كان لبريطانيا كلام يقبله عقل عاقل ، ولشق عليها أن تدلس فى الحقيقة البينة ، وهى أنها دولة معتدية حكمها كحكم سائر الدول المعتدية فى الدنيا . ومع ذلك ، فإن شيئًا من هذا لم ينفع بريطانيا ، فالدول قد علمت ولا ريب أن بريطانيا معتدية بعد أن كشف النقراشى القناع عن الفضائح التى كانت مكتومة عن الناس وعن الدول ، وبعد أن أبان فارس الخورى عن أساليب بريطانيا فى قهر الدول الضعيفة وابتزاز حقوقها .

فلما أحجم مجلس الأجاويد عن أن يقطع برأى فى مسألة مصر والسودان ، وخاف أن يمس كرامة بريطانيا الدولة الشريفة النبيلة إذا هو حكم لمصر والسودان بالحق ، وتنزه عن وصف بريطانيا العفيفة الطاهرة بأنها دولة معتدية على حقوق الدول المسالمة - رجعنا من حيث بدأنا فى سنة ١٨٨٢ ، أى أننا وقفنا وحدنا لنقول للعالم مرة أخرى ، هذه دولة معتدية ، فلابد من رد اعتدائها ودفع عدوانها وبغيها بأى وسيلة تتاح لنا . فينبغى إذن أن ننذر بريطانيا إنذارًا لا رجعة فيه ، بأن تسحب جنودها من كل بقعة كان يرفرف عليها علم مصر والسودان فى سنة ١٨٨٢ دون نظر إلى معاهدات سابقة أو عرف جار ، أو اتفاقات باطلة . فإذا فعلنا فقد نبذنا إليه على سواء (١) ، وأعذرنا أنفسنا أمام هذا العالم الجشع من الدول المستعمرة .

---

(١) هذا بعض من كلام الله تعالى ، جاء فى سورة الأنفال ، آية : ٥٨ : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ ، أى ناجزهم بالحرب ، وأعْلِمهم قبل حربكِ إياهم أنك قد فَسَخْتَ العهد بينك وبينهم ، بما كان منهم من ظهور أمارة الغدر والخيانة منهم ، حتى تصير أنت وهم على سَواء فى العلم أنك محارب لهم .

ونحن شعب لا طاقة له بحرب بريطانيا بالسلاح ، لأنها ظلت خمسًا وستين سنة تنزع من أيدينا كل سلاح ، وتضعف جيشنا بكل أسلوب ، وتحيط بنا من كل مكان ، حتى لا نجد لأنفسنا منفذًا نستطيع أن نستجلب منه السلاح الحديث الذى يعيننا على حربها . هذا حق ، ولكنه على وضوحه ليس بشىء ، فإن الأمة التى تريد استقلالها وتحرص عليه لن تمنعها قلة السلاح من أن تفعل شيئًا كثيرًا تستطيع به أن تنال ما تريد . وبريطانيا لن تستطيع أن تفنى هذا الشعب المصرى السودانى إذا هب لقتالها مجردًا من كل سلاح إلا سلاح العزيمة والتضحية وبذل المهج وإرخاص النفوس والدماء فى سبيل الوطن .

وبريطانيا ترى أن من مصلحتها أن يستقر السلام فى هذا الشرق الأدنى ، وهى تتخذ هذا حجة لبقائها فى مصر والسودان وفلسطين والعراق ، فينبغى أن نبحث عن الأسلوب الذى يفسد عليها هذا السلام الكاذب الذى تنتهك هى حرمته باحتلال أرض هذه الشعوب ، والعالم العربى كله يعلم أن مصر والسودان هى قلب بلاده فإذا ظل هذا القلب ضعيفًا مأسورًا فى قيود الاستعمار فالعالم العربى عاجز عن أن يفعل شيئًا فى سبيل النهضة التى تجيش بها صدور أبنائه ، وهو أيضًا عرضة للبقاء الطويل تحت نير الاستعباد الأوربى الفاجر المتعصب ، وهو أيضًا لحم على وضم [١] ينال منه كل طارئ وأفاق ما يشاء ، ويصب عليه من ازدرائه واحتقاره ما تسول له نفسه الخبيثة ، لأنه يعلم أنه قوى فى حماية هذه الدول الطاغية المستعمرة جميعًا . فلزام إذن على هذا العالم العربى كله أن يهب هبة واحدة للجهاد – من أقصى مراكش إلى حدود العراق بغير استثناء – متخذًا كل وسيلة من المقاطعة إلى المحاربة الظاهرة والخفية جميعًا .

وهذا الغرض السامى يتطلب منا أن نجمع شملنا ، لا فى مصر والسودان وحدهما ، بل فى كل مكان من هذا العالم العربى ، وفى كل ناحية من نواحى

---

(١) لَحْمٌ على وَضَم . هذا مَثَلٌ . الوَضَم : كل ما وُضِع عليه اللحمُ من خشب أو غيره لتقطيعه ، ويضرب مثلا للذلة والضعف . وفى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « إنما النساءُ لحمٌ على وَضَم إلا ما ذُبَّ عنه » .

العالم الإسلامى . وينبغى أن يتجرد منا جميعًا رجال يجوبون هذه الدنيا لتأليب الشعوب العربية والإسلامية على عدوان هؤلاء المعتدين ، ولعقد المودة بيننا وبين الشعوب التى أظهرت مودتها لنا ودفاعها عنا . وينبغى ألا يفزعنا شىء فإننا مأكولون ، والمأكول لا يبالى أن يأكله هذا أو ذاك ، وجرأته هى وحدها الكفيلة بأن تضمن له ضربًا من الحرية فى الاختيار . ومع ذلك فعسى أن يحدث شىء لم يكن أحد يتوقعه ، فننال حقنا كاملا دون أن نطوق أعناقنا بمنة يمتنها علينا شعب أو دولة . وحسبنا أن بريطانيا تريد أن يستقر هذا الشرق وهذا العالم الإسلامى حتى توغل هى فى عدوانها ، فلنمنعها هى وأشياعها مما يريدون .

هذا العمل الجليل لا يغنى غناءه إلا إذا تعاونت الحكومات العربية والإسلامية معًا ، وتعاونت شعوبها أيضًا مع هذه الحكومات تعاونًا شاملا كاملا لا ثغرة فيه ، فأول ما ينبغى أن تقوم مصر والسودان فتدعو إلى عقد مؤتمر عام لكل الشعوب الصغيرة المجاهدة فى سبيل الحرية والاستقلال ، وأن يتولى هذا المؤتمر العام تحديد الخطط التى ينبغى أن نسير عليها حتى نبلغ هذه الغاية التى تُقِضّ مضجع بريطانيا ورأس أشياعها أمريكا لنسارع إلى دعوة هذا المؤتمر العام إلى عقد أول اجتماع فى أقرب فرصة مستطاعة ، فإن الإرجاء مفسدة للجهود وإضعاف للقوى وإضاعة للوقت ، والإسراع لا يضر بل هو أنفع شىء ما دام الهدف الأسمى هو أن نزعج بريطانيا وأمريكا أولا ، وأن نتفق على الخطط العامة التى تكفل لنا نيل حقنا من هذه الشعوب المستعمرة العادية على استقلالنا وحريتنا .

وهذا المؤتمر لا يتعارض قط مع عمل الجامعة العربية ، لأنه محدد الهدف ، ولأنه يقوم على أساس واحد هو الاتفاق على أساليب الجهاد كلها ، وعلى حشد القوى التى تعين عليه ، وعلى اختيار الفئة الصالحة للتجول فى أرجاء العالم لإثارة الشعوب العربية والإسلامية ودعوتها إلى أخذ حقها دون مساومة أو مفاوضة وعلى تحديد أعمال القائمين بالدعوة فى كل مكان ، وعلى التمهيد لعقد الصلات بيننا وبين الشعوب التى تناصرنا على نزع ربقة الاستعمار عن أعناق الأمم المستضعفة فى كل مكان ، مهما اختلفت ألوانها أو أجناسها أو أديانها .

إن هذا المؤتمر ضرورة لأزمة ألجأتنا إليها بريطانيا وأمريكا وأشياعهما من الدول الشريفة النبيلة التى قامت لنصرة الحق والعدل والمساواة ! وبريطانيا وأمريكا وأشياعهما لا يريدون أن يدركوا أن هذه ساعة حاسمة فى تاريخ العالم العربى والإسلامى ومن يعيش معهما من الأمم التى وقعت تحت سيطرة الاستعمار ، وهم يماطلون ويراوغون ويتملصون من الفروض التى كتبوها على أنفسهم فى ميثاق الأمم المتحدة ، وهم يأبون أن يعترفوا بأننا شعوب تريد أن تعيش حرة لأن هذا هو حقها فى الحياة ، فينبغى إذن أن نجيّش كل قوانا وأن نعد العدة لإقناع هاتين الدولتين ومن يلوذ بهما بأننا قوم نأبى أن نعيش عبيدًا فى دنيا لم يخلقها خالقها إلا لتكون أرضًا للأحرار ، وأننا أمم لها من الحقوق مثل ما لبريطانيا وأمريكا وأشياعهما ، وأن الله لم يخلق هؤلاء الناس ليسودوا العالم ويستعبدوا أهله بالظلم والعدوان والكذب والتغرير .

إننا لا نريد عدوانا على أحد ، ولكننا قد أبينا أن نقبل العدوان من أحد كائنًا من كان ، وبالغًا من القوة والبطش والجبروت ما بلغ . وقد أعذر من أنذر .

* * *

لا هَوَادة بعد اليوم

لا يحل لعربى منذ اليوم أن يرفع يده عن سلاح يعده لقتال عدو قد أحاطت به جيوشه من كل ناحية . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يدع ثغرة من ثغور العدى إلا سدها بنفسه أو ولده أو صديقه . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يضع عن عاتقه عبء الكد والكدح التماسًا للراحة أو الدعة . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يتواكل ويقول لنفسه : لقد تعبت ، وما يضرنى أن أترك هذا لفلان فهو كافيه . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يقول : غدًا أفعل ما حقه أن يفعل اليوم . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يخدع نفسه عن حرب دائرة الرحى بيننا وبين اليهود وأشياعهم من أمم الأرض . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يكتم الحق عن أهله أو عن عدوه ، ويقول هذه سياسة وكياسة وترفق . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يمالئ قومًا يكاشفونه بالعداوة والبغضاء ونذالة الأخلاق . ولا يحل لعربى منذ اليوم أن يقبل من رجال السياسة تأجيل شيء من قضايا العرب ، فهى كل مترابط لا ينفك منها شيء عن شئ .

لقد عرف كل عربى وكل مسلم على ظهر هذه الأرض ما آلت إليه القضية المصرية السودانية فى مجلس الأمن ، وعرف كل عربى وكل مسلم ما صارت إليه قضية فلسطين فى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ، فهل بقى بعد هذا مجال لناظر حتى يقول : سوف أحتال بالسياسة حتى أنال ما هو حق لى ؟!

إن بريطانيا وأمريكا وسائر الدول التى تدير لهما الساقية ، قد كشفت عن طواياها بما لا يدع لأحد علة يتعلل بها أو يتشبث ، فقد قالوا الكلمة الصريحة الواضحة بأنهم عدوٌّ لنا وحرب علينا ، وأنهم يبغون أن يحطموا هذا الجيل العربى ، وأن يسلطوا على رقابه أنذال اليهود وأوباش الاستعمار ، وأنهم يعتقدون أننا قوم لا نصلح لأن نحكم أنفسنا بأنفسنا ، أو أننا أمم قُصَّر لم نبلغ رشدنا ولا يظن بنا

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٤٤) ، أكتوبر ١٩٤٧ ، ص : ١٠٨٤ - ١٠٨٦

بلوغ الرشد . فهذا ترجمة موقف الدول المعادية حيال قضية مصر والسودان وحيال قضية فلسطين .

وسر هذه العداوة - ولا نكتم الحق - هو أن أوربة وأمريكا جميعًا لا يزالون يعيشون فى أنفسهم إذا ذكر العرب فى أحقاد صليبية لم تستطع المدنية ولا استطاع العلم ، ولا استطاعت سهولة المواصلات ، ولا استطاعت كثرة الهجرة والرحلة ، أن تنفيها عن قلوبهم ، بل لعلها زادتهم أضغانًا على أضغان ، ولا تزال أوربة وأمريكا تقول : خطر الإسلام وخطر العرب ، كما كانوا يقولون الخطر الأصفر والخطر الأسيوى . وإذا كان بعض ساستنا الذين لقوا ساسة الأوربيين والأمريكيين قد انخدعوا بظاهر من القول حين سمعوا أحاديث أولئك المرائين المنافقين من ساسة أوربة وأمريكا ، وظنوا أن لين القول دليل على صدق العقيدة ، حتى أجروا فى أحاديثهم ذكر « عطف أمريكا على العرب » و « عطف بريطانيا على العرب » ، فقد ضلوا ضلالا مبينًا . إن أوربة وأمريكا لا تعرف العطف على العرب ، بل هى العدو ، وهى البلاء المصبوب علينا ، وإلا فكيف تعطف بريطانيا على العرب وهى التى لا تزال تفعل الأفاعيل فى مصر والسودان ؟ وكيف تعطف أمريكا على العرب وهى التى خذلت مصر والسودان فى مجلس الأمن ؟ وكيف تعطف بريطانيا وهى التى ورَّطت الدنيا كلها فى مشكلة فلسطين ، ثم تجىء فتطلب من هذه الدنيا أن تحل لها المشكلة ؟ وكيف تعطف أمريكا وهى التى تمد اليهود بالمال والقوة والسلاح والدعاية ؟ وكيف وهى التى تبيح لشركات النشر والإذاعة والصحافة أن تدلس وتكذب وتخدع فى شأن العرب ، ولا تجد منكرًا ينكر ، ولا لسانًا يدافع ، ولا قلمًا يشمئز من هذه الوسائل التى تطفح بالغدر والبغى والنذالة ؟!

إنهم جميعًا يظاهرون علينا اليهود ويظاهرون علينا الاستعمار ، ويفعلون ذلك علانية لا يستخفون ، ففيم نحتال نحن بالمداورة أحيانًا خشية أن نثير علينا هؤلاء المظاهرين ومخافة أن نُرمى بالتعصب ؟ فيم نخاف ونحن فى معمعة هذه الحرب التى تشنها علينا بريطانيا وأمريكا بالاستعمار وباليهود ؟ ولم نخاف أن نتعصب

لحريتنا واليهود يتعصبون لعدوانهم جهارًا ؟ إن العرب قد عاشوا على ظهر هذه الأرض أكثر من ثلاثة عشر قرنًا فكانوا أمةً وسطًا لم تظلم ولم تضطهد ، بل نصرت المظلوم وآوت المضطهد ، ورفعت النير عن رقاب الأمم مجوسها ونصاراها ويهودها ، حتى جاء أمر الله وذهبت ريحهم وغلبت عليهم الأمم . فتاريخ العرب كله دليل على أن هذا الجيل من الخلق يأنف أن يظلم وأن يضطهد ، ولكنه يأنف أيضًا أن يقبل الظلم والاضطهاد ، فإذا رد الظلم عن نفسه ودفع الاضطهاد عن حماه ، وحمى حوزته دون عدو باغ ، أو توقى شرًّا يوشك أن يتوغل فى قلب حياته ، فما يفعل ذلك عن تعصب أو حقد أو جهالة ، بل هو الحق ووسائل الحق !

وإذا كان فيما نفعله ، أو فيما يجب أن نفعله ، شىء يؤخذ على أنه صرامة وشدة وحنبلية متزمتة ، فبما اضطررنا إليه فعلناه . وإليك مثلا هذه الدول العربية التى بدأت تضج ضجيج البعير آذاه العبء الفادح من غول الاستعمار الأدبى والسياسى والاقتصادى ، والتى بدأت تعرف أن كل باب من أبواب الحياة قد وقف عليه ديدبان من اليهود أو من الأجانب الطارئين ، ليذودوا العربى عن الانتفاع ببلاده التى هى له ملك متوارث منذ أقدم عصور التاريخ - يذودونه عن الانتفاع بتجارة بلاده ، لأن شياطين التجارة ومردتها فئة من هذه اليهود وهذه الأجانب ، ويذودونه عن الانتفاع بمعادن أرضه ، لأن أبالسة الحديد والنار هم أصحاب المناجم فى أرضه وبلاده ، ويذودونه عن الانتفاع بقوى شعبه ، لأن خزان المال من اليهود والأجانب يضربون العمال بالفقر والذل والبؤس ، ولا يدعون لهم متنفسًا ، ولا طريقًا إلى بلوغ المستوى الذى يحق لهم بجهودهم التى يجودون بها ، فتكون لليهودى والأجنبى غنى ومالا وثروة وعجرفة وتغطرسًا على هذه الأمة العربية ، ونكبة وبلاءً واستعمارًا كأنه جوامع [1] من غليظ الحديد مضروبة فى أوتادها الراسخة فى جوف الأرض العربية . هكذا هو ، فماذا تفعل هذه الدول ؟

---

(١) الجوامِع : جمع جامِعَة ، وهى القَيْد ، سُمِّيت بذلك لأنها تجمع اليَدَيْن إلى العُنُق .

أليس من الحق لكل بلد عربى أن يسن قانونًا لأهله أو قانونًا لحكومته إذا استطاع - أن يحرم على كل يهودى وأجنبى أن ينشىء شركة إلا إذا كان كل عامل فيها وكل موظف من أهل البلد ، وأن تكون أرباح الشركة لا تزيد على قدر معلوم ، وأن يكون الدخل وقفًا على البلاد التى يستثمر فيها جهوده ، فلا يخرج مالا ولا يختزنه فى مصارف بلاد أخرى غير البلاد التى استوطنها ، وزعم أنه جاء ليسدى إليها خيرًا بعلمه أو فنه أو صناعته أو تجارته ؟

أليس من الحق لكل بلد عربى إذا هو رأى هذه الأجانب وهذه اليهود تملأ عليه الجو ، وتأتيه مهاجرة من كل مكان هجرة حرة غير مقيدة أن ينظر لنفسه ومصالحه ، ويعرف أن هؤلاء خطر ينبغى درؤه واتقاؤه بكل وسيلة ؟ فإذا منعنا الهجرة أو قيدناها فأى تعصب فى هذا ؟ وإذا كنا نعلم علم اليقين أن هؤلاء الطارئين هم من حثالة اليهود وحثالة الأجانب ، وأنهم أرذل خلق الله أخلاقًا وأقلهم علمًا وأخسهم نفوسًا ، فأى تعصب فى أن نقول للعالم كله إننا نأبى أن نؤوى هذه الحثالة القذرة فى بلادنا وبين أهليها ، وأن نمنعهم أن يتدسسوا إلى حمى أعراضنا بنذالاتهم وفجورهم وعهرهم وبالخبث التى انطوت عليه دخائلهم ؟ وإذا كنا نعلم علم اليقين أن هذه الحثالة الخبيثة ، وهذه الرمم الإنسانية تفعل فى شوارعنا وطرقاتنا ما لا تستطيع أن تفعل مثله فى بلاد غير بلادنا التى وقعت تحت بطش الاستعمار قرنًا أو بعض قرن ، فأى تعصب فى أن نسن قانونًا يوجب ترحيل هؤلاء الطارئين ، أو يوجب نزع الجنسية المصرية أو العربية أو السورية عن هذه الفئة التى جاءت دخيلة على بيوتنا وديارنا وأخلاقنا ؟

إن من حق البلاد العربية أن تفعل ذلك ولا تبالى بنقد منتقد ولا هجوم متهجم ، ولا إقذاع مبطل ولا سفاهة مدخول السريرة خبيث الطوية . كلا إنه ليس حقًّا لها وحسب ، بل هو فرض لا مناص من أدائه والقيام عليه وحياطته كل الحياطة ، إن هذه اليهود وهذه الأجانب هى ذرائع الاستعمار ، وهى أداة البطش التى سلطها الاستعمار على رقابنا ، وهى الخبيثة المردية التى تفشَّى داؤها حتى أَوْهَى القوى وأوهن العزائم ، وأكلنا لحمًا طريًا وتركنا عظامًا نخرة .

وها نحن الآن مقبلون على حرب بيننا وبين اليهود ، وحرب بيننا وبين الاستعمار ، وكلاهما حرب لا هوادة فيها ولا مفر منها ، فكيف يجوز فى العقول أن ندع العدو بين ظهرانينا يعيث فسادًا وخيانة وتجسسًا ، بل يأخذ من أموالنا ويرد على أموال عدونا ، فيضعفنا ويقويه ، وينهكنا وينميه ، ويوهننا ويضريه ؟ إن من القوانين الدولية فى زمن الحرب أن تضع الدولة يدها على أموال أعدائها جملة واحدة ، فتستثمرها فى حقها وبحقها لتكون لها قوة وعتادًا ، ومن القوانين الدولية أن تقبض الدولة على أبناء الدولة المعادية فتأسرهم فى المعتقلات حتى تضع الحرب أوزارها ، خشية أن يفجروا فى الأرض ويكونوا عيونًا عليها ، وبلاء فى داخلها ، و « طابورًا خامسا » فى شعبها ، فهل شك أحد فى ذلك أو استنكره أو بغض إلى دولته فعل ذلك ؟ كلا ! وإذن فكيف يجوز للعرب منذ اليوم ، وقد شرعوا فى الجهاد وعزموا على أن يحطموا أغلال الاستعمار ، وأن يقوضوا عرش اليهودية الباغية ، أن يتهاونوا فى الضرب على يد هذه التجارة اليهودية فى قلب بلادهم ، أو أن يهادنوا هذه الشرذمة الوبيئة التى تعيش بين ظهرانيهم ، أو أن يبيحوا لأعوان الاستعمار من شذاذ الأمم والأفاقين أن يسرحوا حيث شاءوا من بلادهم ، وأن يستولوا على مايشاؤون من أموالهم وأرزاقهم ، وأن يدخلوا فينا ليكونوا عيونًا علينا فى هذه الحرب التى تدور بيننا وبين يهود ، وبيننا وبين الاستعمار والمستعمرين .

ومن الذى حمل اليهود على الهجرة إلى مصر مثلا ؟ أليست هى الفكرة الصهيونية ؟ ومن الذى حمل الأجانب على الهجرة أيضًا إلى بلادنا ؟ أليس هو الاستعمار ؟ فكيف ندع الصهيونية والاستعمار يجوسان خلال الديار ونحن فى مَعْمَعان [1] القتال ؟ وأنا أضرب مثلا لم أزل أتتبعه منذ قامت اللجنة التى وكل إليها كتابة تقرير عن فلسطين ، ومنذ رفعت قضية مصر والسودان إلى مجلس الأمن .

---

(١) المَعْمَعان والمَعْمَعَة بمعنى .

فمنذ ذلك الحين وأنا أنظر وأتسمع ، وأتفرس الوجوه ، وأتوسم الشمائل ، فإذا هذه اليهود وهذه الأجانب قد خفتت أصواتها ، ولانت أخلاقها ، وهذبت غطرستها ، وحلت لنا ألسنتها ، وابتسمت لنا وجوهها . ولم أكن أجهل أن ذلك كله نفاق ورياء وخديعة يظنون أنها تخدعنا عن طوايا قلوبهم . فلما كان من أمر القضية المصرية السودانية ما كان ، وظهر من مستور اللجنة المزورة ما ظهر ، إذا هذه الأصوات الخافتة قد صارت نعيقًا ، وإذا الأخلاق اللينة قد صارت عرامًا ، وإذا الغطرسة المهذبة قد انقلبت فجورًا متمردًا ، وإذا الألسنة الحلوة قد صارت مرًّا زعاقا [1] ، وإذا الوجوه المبتسمة قد شاهت بالتجهم وإذا الشمائل المؤدبة قد صارت عجرفة وطغيانًا ، وإذا هذه الخلائق الفاجرة تمشى على أرضنا تيهًا وخيلاء كأنها جنس وحده ونحن عبيده وأذلاؤه ، وإذا نظرات الازدراء وكلمات التحقير تقال على مسمع منا ومنظر بلا حياء ولا أدب ولا خلق ، وإذا كلمة « عربى » تتردد مرة أخرى على ألسنة هؤلاء الأنذال الجبناء فى كل مكان بعد سكوتهم عن النطق بها خوفًا وفزعًا أن يكون قد دنا موعد نصر العرب فى قضية فلسطين وقضية مصر والسودان . هذا كله شيء تتبعته أنا ومن أعرف ، بلا زيادة ولا دعوى كما تفعل هذه الخبائث من يهود وشذاذ الآفاق .

إنها الحرب المبيرة أيها العرب ، فلا تكن يهود التى ضرب الله عليها الذل والمسكنة والتشرد فى جنبات الأرض ، أحمى منكم أنوفًا وأشد منكم حفاظًا ، وأقوى منكم حمية ، وأجرأ منكم قلوبًا ولا تكن يهود أيها العرب أشد محافظة على باطلهم منكم على حقكم . واعلموا أيها العرب أن الذى بيننا وبين يهود والذى بيننا وبين الاستعمار دم لا تطير رغوته ولا ينام ثائره ، وقد جدت الحرب بكم فجدوا يا أبناء إسماعيل ويا بقية الحنيف إبراهيم ، ولا يهولنكم مال اليهود ، ولا بطش بريطانيا ، ولا مخرقة أمريكا ، فإن الحق لله ، وكلمة الله هى العليا .

* * *

(١) زُعاق : يقال ماء زُعاق ، إذا كان مُرًّا غليظا لا يُطاق شربه من أُجوجته .

حديث الدولتين

الآن حَصْحَصَ الحق ، ولم تبق في نفس ريبة تحجبها عن رؤية الحقيقة سافرة بينة واضحة تكاد تنطق وتقول هأنذا فاعرفونى ؛ فهذه بريطانيا أمّ المكر والدسائس قد دخلت أرض فلسطين العربية ليقول قائد جيشها يومئذ حين وطئت قدماه المدنستان هذه الأرض المطهرة : « هذه آخر حرب صليبية » ، فكان ذلك إعلانًا عما اعتمل فى نفوس أولئك الغزاة من سخائم الحقد والضغينة والعصبية الجاهلية الموروثة ، ثم لم تلبث هذه الدولة أن نكثت عهودها للعرب ، وكانت قد قطعت هذه العهود على نفسها لتستجر معونة العرب لها فى الحرب العالمية الأولى . ولم يكن ذلك فحسب ، بل إنها كانت تكيد للعرب من وراء حجاب فقطعت عهدًا آخر يناقض عهودها للعرب ، وكان هذا العهد لرجل غير مسئول من الأفاقين الصهيونيين المتعصبين . فلما دخلت فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى أظهرت أنها دولة لا تستطيع أن تنقض عهدها فإن العهد هو شرفها الشامخ الباذخ النقى الطاهر ، فمن أجل ذلك أصرت على أن تحمى اليهود الذين جاءوا من أرجاء بلاد الله ليحتلوا أرض فلسطين . وظلت وكالات الأنباء تطمس حق العرب فيما تنشره الصحافة ، وتجلو باطل اليهود جلاء منيرًا حتى انخدعت الدنيا كلها بالترهات التى تحوكها هذه الشركات الصهيونية .

وثار العرب يطلبون حقهم ويريدون طرد هؤلاء الدخلاء من أرض الآباء والأجداد ، فوقفت بريطانيا تذود عن باطل اليهود فتفتك بالعرب فتكا وحشيًا ، تعذب طلاب الحق وتهينهم وتشردهم لا ترعى حرمة لطفل ولا شيخ ولا امرأة ، وضربت الغرامة على القرى والدساكر والبلاد لأهون سبب ، وهى فى أثناء ذلك ترخى للأفاقين من اليهود وتغريهم بالعرب وتمهد لهم فى الحكومة حتى يستولوا

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٤٦) ، أكتوبر ١٩٤٧ ، ص : ١١٤٠ - ١١٤١

على السلطان ، وتحميهم من شر العرب وبأسهم ، وتسلطهم على رقاب المسلمين والنصارى أهل فلسطين . وجعلت صحفها وشركات أنبائها تذيع على العالم الأكاذيب ، وتصور العرب فى صورة المعتدين الباغين ، وتسمى الأحرار من أبناء إبراهيم وإسماعيل عصابات ولصوصًا وفتاكا ، وترميهم بالبهتان والكذب ، وتستر عن العالم كله فظائع ما ترتكبه فى حق الأحرار المجاهدين .

وظلت بريطانيا على ذلك الطغيان الفاجر تعمل بالدسيسة والوقيعة والكذب والتغرير ، حتى جاءت الحرب العالمية الثانية ، فقام الأبالسة من رجال السياسة البريطانية يفتلون فى الذروة والغارب [1] من هذه العرب حتى لانوا وانخدعوا بأن بريطانيا سوف تنصفهم وتعطيهم حقهم يوم تضع الحرب أوزارها ، وهى فى خلال ذلك تجند اليهود فى جيوشها وتزودهم بالسلاح وتدخلهم فلسطين وتظهر الكراهة لما تفعل ، وتبطن الغدر فيما تريد ، فاحتشدت من اليهود جيوش جرارة فى فلسطين باسم الديمقراطية والدفاع عنها ، وباسم الاضطهاد الذى أنزله النازيون بهم فى أوربة ، وبغير ذلك من الأسباب الكثيرة التى تعلقت بها السياسة البريطانية .

ووضعت الحرب أوزارها ، واشتد ساعد اليهود ، وهم أهل المال وحُرّاسه ، فأعانوا بريطانيا ، ثم لم يلبثوا أن كشفوا القناع فى أمريكا وهم فيها القوة الظاهرة فى انتخاب رئاسة الجمهورية وأصحاب الشركات والأموال فى نواحى الاقتصاد الأمريكى ، وهم شياطين الصحافة والمستولون على إعلاناتها وشركات أنبائها ورجال تحريرها ، فإذا أمريكا تندفع فى طريق الصهيونية غير عابئة بالحق الظاهر ، ولا بمصالحها فى بلاد العرب ، ولا بكرامتها بين الأمم ولا بسمعتها فى دواوين التاريخ . وإذا هى أشد بغيًا على العرب من بريطانيا ، وإذا صحافتها أشد جلافة من الهمجى الذى لم يهذبه تأديب ولا تثقيف .

---

(١) فَتَل فى الذروة والغارب : مَثَلٌ . والذُّرْوَة : أعلى السنام ، والغارِب : مابين السنام والعنق . وأصله أن يكون البعير مُصْعَبا ، فيحك صاحبه سنامه وغاربه ، ويفتل الوَبَر بينهما بأصابعه حتى يؤنسه بذلك فيلين وينقاد فيستمكن منه فيخطمه .

هكذا كان أمر بريطانيا وأمر أمريكا ، وإذا هيئة الأمم المتحدة ترسل لجنة إلى فلسطين لتضع تقريرًا ، وإذا هذا التقرير فجور ليس بعده فجور ، ولا عجب فإنها لجنة كانت أول أمرها ضالعة مع اليهود ، فقسمت أو أشارت بأن تقسم فلسطين قسمة جائرة بين العرب واليهود . أما العجب العجاب فهو أن نرى بريطانيا العظمى ذات السلطان والبأس والبطش ، تذل لعدوان اليهود على جنودها وعلى جلد ضباطها وشنقهم واختطافهم وتعذيبهم ، ثم يأتى قرار التقسيم الذى اقترحته اللجنة ، فإذا بريطانيا تزعم أنها سوف تجلو عن فلسطين وتدع العرب واليهود لكى يحلوا هذه المشكلة المستعصية على ساسة بريطانيا العظمى أيضًا !! ...

فماذا تريد بريطانيا بهذا الانسحاب المفاجئ بعد أن كانت هى سر النكبة التى نزلت بساحة العرب مسلمهم ونصرانيهم فى فلسطين وفى سائر بلاد العربية ؟

لا جرم أنها تريد أن يقع القتال بين العرب واليهود ، وتخرج هى سالمة من هذا الصراع ، وهى فى خلال ذلك سوف تعطى اليهود من المعونة والسلاح ، ويجهد أسطولها خفية فى تهريب الأفاقين إلى فلسطين .

أما أمريكا فهى تضحك الثكالى بسياستها فى هذه المشكلة ، فهى تلجأ إلى هيئة الأمم المتحدة ويقوم مندوبها فى اجتماع اللجنة الخاصة ببحث مشكلة فلسطين ، ويكشف القناع عن سياسة هذه الدولة المحدثة فى السياسة ويقول إن حكومته تؤيد مشروع تقسيم فلسطين ، وتؤيد سياسة الهجرة التى اقترحتها لجنة التحقيق فى تقريرها ، وليس هذا فحسب ، بل تتبرع هذه السياسة الأمريكية فتقترح تجنيد قوة دولية من المتطوعين بواسطة هيئة الأمم المتحدة ، لكى تتولى الإشراف على تنفيذ قرارات الجميعة العمومية .

فماذا تريد أمريكا بهذا التدخل المفاجئ ، بعد أن كانت بمعزل عن الغلو فى السياسة الاستعمارية ، ولها مصالح كثيرة فى بلاد العرب تعمل جاهدة على تثبيتها وتوطيدها ؟

لا ريب فى أنها تريد أن تحل محل بريطانيا فى حمل خبائث الاستعمار بعد أن شاخت أمُّ الخبائث ، ولا ريب فى أن نفسها تسول لها أن اليهود أهل جد

وعمل وإتقان وأصحاب مال وافر وأنهم إذا تم لهم إقامة دولة يهودية فى قلب البلاد العربية ، فذلك إيذان باستيلائهم على الميادين الاقتصادية كلها ، وأن يهود إذا فعلت ذلك ضمنت لأمريكا الحق الأول فى السياسة الاقتصادية فى الشرق الأوسط كله . وإذن فأمريكا تريد أن تلتمس أسبابًا للتدخل فى مسألة فلسطين ، فهى تؤيد اليهود مستهينة بمصالحها فى بلاد العرب ، لكى يقع القتال بين العرب واليهود ، وتنتهز هى الفرصة فتعين اليهود بالمال والسلاح والرجال ، ثم تلعب هى وبريطانيا لعبًا خبيثًا فى هيئة الأمم المتحدة لكى يجندوا جيشًا دوليًا لتنفيذ مشروع التقسيم بالقوة ، ويكون قوام هذه الجيش من أهل العصبية الصهيونية الذين استشرى أمرهم فى بلاد أمريكا . ويومئذ تدخل أمريكا الشرق الأوسط كله بصك توقعه لها هيئة الأمم المتحدة - أى سوق الرقيق الدولية .

وإذن فالأمر كما ترى بيّن كإسفار الصباح ، وهو أن هاتين الدولتين الاستعماريتين تتخذان أسلوبين مختلفين فى الظاهر متفقين فى الباطن ، يفضى إلى حمل العرب على قتال يهود . ونِعم ما أرادا .

ونحن العرب نقبل منهما هذا التحريض الخبيث ، لأننا نريد أن نقاتل اليهود قتالا لا هوادة فيه ، فإن دماءنا ليست أغلى من حريتنا وشرفنا وديننا . ولعل أمريكا قد سمعت لأولئك الأفاقين اليهود الذين يزعمون لها أننا نهدد على غير طائل وإنما هى جعجعة ولا طِحْنَ لها [1] ، فآثرت أن تكشف سوءتها وقبيح نيتها للعرب وتصالح اليهود وتتملقهم وتحطب فى حبالهم . فلتعلم أمريكا ولتعلم بريطانيا أنا لسنا كاليهود ولسنا كسواهم من الذين يجرؤون لأنهم يحملون أسباب الغدر والخيانة والإبادة ، فلو لقوا أعداءهم وجهًا لوجه لفروا واندحروا صاغرين . إن العرب ليريقون دماءهم فى سبيل الحرية والشرف والنبل وإن كانت كثرة السلاح مما يعوزهم ، وفرق بين النذل الجبان والشريف الشجاع ، فهذا يكون أقل السلاح حصنًا له وحافزًا ومحرضًا ، وذلك إذا رأى حملة صدق انتثرت نفسه وطار قلبه

---

(١) الطِّحْن : المطحون ، وأصله مثل هو : أسمع جَعْجَعَةً ولا أرى طِحْنا .

وألقى عدته وسلاحه وأغمض فى الأرض هاربًا . فهذه يهود وهذا نحن أيها المخدوعون ...

إن بريطانيا وأمريكا وصحافتها قد استعلنت لنا بأحقادها فلنعلن نحن أحقادنا . وإن يهود قد استغرت بقوتها وبمعونة بريطانيا وأمريكا ومظاهرتها لعدوانها علينا ، فلا تأخذنا بعد اليوم رحمة بيهود ، فقد رحمناهم يوم اضطهدوا ، وآويناهم أيام شردوا ، وأفسحنا لهم بلادنا وقد طردتهم الأمم المسيحية القديمة طرد الكلاب الجربى ، ولكنهم أنكروا ذلك ونسوه ، وعضّوا اليد التى مسحت آلامهم وجروحهم على مر العصور . ونعم ما فعلت يهود ، فإنها قد أيقظتنا من غفلتنا ، ويسرت لنا أن ننقذ العالم عاجلا أو آجلا من عربدة هذا الجيل الذى طهر الله أسلافه ، وصب لعنته على الأخلاف لعنة باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها ...

* * *

بَلْبَلَة

لستُ امرءًا قانطًا ولا متشائمًا ولا يائسًا من خير هذه الأمة العربية ، بل لعلنى أشد إيمانًا بحقيقة جوهرها وطيب عنصرها وكرم غرائزها ، بل لعلنى أشد إيغالا فى الإيمان بأنها صائرة إلى السؤدد الأعظم والشرف السرى والغلبة الظاهرة إن شاء الله ، وأنها هى الأمة التى أرصدها بارئ النسم لرد العقل على هذه الإنسانية المجنونة فى هذه الحضارة الهوجاء . فالعرب مذ كانوا هم الجوهرة التى أطبقت عليها صحراء الجزيرة ، فما زالت تكتمهم فى ضميرها وتحنو عليهم وتمنعهم من كل فساد داخل حتى صفا ماؤهم ورق شبابهم وأضاؤوا من جميع نواحيهم . فلما جاءهم محمد بن عبد الله بشيرًا ونذيرًا وهاديًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا ، صار كل رجل من صحابته نجمًا يهتدى به الضال ويأتم به المسدَّد . ويومئذ تمت المعجزة الكبرى فى تاريخ العالم ، فانطلقت هذه الفئة الصالحة من عباد الله كأنها السيل المتدفع ، وكأنها الرياح العاصفة ، وكأنها الأشعة المتلألئة ، وكأنها قدر الله ، فدكّت حصون الروم ، وثلّت عروش الفرس ، ودوّخت جبابرة الأمم ، حتى ورثوا أرض الله وأقاموا فيها الحق والعدل بالميزان والقِسْط ، وجاءت سلالتهم فجددت حضارة الدنيا ، وإذا الذين كانوا بالأمس بداة جفاة غلاظًا فيما يرى الناس من أهل الحضارات السالفة ، هم الناس وهم العلم وهم أصحاب الإمرة فى كل فن وعلم وسياسة وتدبير ملك . إنها لمعجزة لم يوفها مؤرخ حقها من المجد والقوة والظهور .

فهذا الجيل من عباد الله مطوى على صلاح كثير وخير عميم وقوة خارقة ، لا أظن أن الزمن قد ذهب بها ومحقها ، فلذلك أرانى وملء قلبى الإيمان بأنه سوف ينتهى إلى الغاية التى كتبت له فى تاريخ هذه الإنسانية . وعسى أن يكون

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٤٨) ، نوفمبر ١٩٤٧ ، ص : ١١٩٩ - ١٢٠١

زمن ذلك كله قد أتى وأظل ، فإنى أسمع نشيش الحياة وهى تتخلق فى مرجل الوجود وقد أحاطت به النيران المجنونة المتضرمة من كل مكان . ولكن لابد لتحقيق ذلك كله من عمل يتولّاه رجال من هذه الأمة ، فينفخون فى الضرم حتى تستعر النار الخالدة لتنفى عن هذا الجيل كل خَبث ألمَّ به من أدران الحضارة التى يعيش فيها عالمنا اليوم . غير أنى أخشى أن يكون الإهمال والعجلة وقلة المبالاة وأخذ الأمور بالاستخفاف ، مما يفضى إلى فوات الفرصة التى أمكنت ، ويقضى على هذا الأمل الذى يضىء لنا من بعيد ينادينا إلى ما فيه خيرنا وخير هذا الناس .

ويخيل إلىّ أننا نعيش اليوم فى عصر بلبلة واختلاط ، وهذا شىء قد أصاب أممًا كثيرة من قبلنا ، فلم يعقها ذلك عن إدراك الغايات التى حرصت على السعى إليها وعلى بلوغها . بَيْدَ أنه لابد لأمة أرادت أن تخلص من هذه البلبلة أن يتجرد من رجالها ونسائها فئة لا ترهب فى الحق سطوة ولا بطشًا ولا اضطهادًا ولا تدخر دون مطلبها جهدًا ولا عزيمة ، ولا يثنيها إخفاق ، ولا تلفتها فتنة ، ولا يصرفها الفرح بقليل تناله عن الكدح فى سبيل ما ينبغى أن تناله .

وقد أراد الله لمصر أن تكون فى هذا العصر قدوة العرب ومجتمع أمرهم وكعبة قصادهم ، وهذه البلبلة فى مصر أشد ظهورًا وغلبة منها فى غيرها من بلاد العرب ، فأخوف ما نخافه أن تظل مصر غافلة عن شر هذه البلبلة فتعدى سائر العرب بالأسوة والقدوة ، فينتشر الأمر انتشارًا يعجز المخلصين أن يلموه . فبين ظهرانينا اليوم ألوف من الطلاب العرب قد جاءوا من كل قطر لينهلوا من علم مصر ، ويعودوا إلى بلادهم ليجاهدوا فى سبيلها ، فإذا أعدتهم هذه البلبلة فسوف يحملونها معهم إلى بلادهم فيفرقوا المجتمع من كلمة أممهم ، ويرتكس الأمر حتى يصبح ولا علاج له . هذا ، وأنت لا تعدم صدى البلبلة فى الصحف والكتب والمجلات المصرية التى أخذت تزداد انتشارًا واتساعًا ، فكيف لا يخشى أن يعم هذا البلاء كل بلاد العرب ويتغلغل فى نواحيها ؟ ويومئذ نصبح طعمة للأمم الضارية التى تحيط بنا من كل مكان ، وتحد لنا أنيابًا عصلا تنهشنا بها يوم يتاح لها أن تنقض على هذه الفريسة التى لا تدفع عن نفسها .

فمن شر هذه البلبلة ، ما ترى من سوء تدبير الأحزاب السياسية المصرية ، فهى قائمة على نزاع دائم فى سبيل الحكم ، يكيد بعضها لبعض ، ويأكل بعضها بعضًا ، ولا يرعى أحد لأحد حرمة . وتنشىء هذه الأحزاب صحافة يكون هم محرريها للتشهير بمن يخالفهم فى الرأى والمذهب ، فيدلسون الحقائق ، ويكتمون الحق ، ويفترون على الناس الكذب ، ويلوون ألسنتهم بالحديث ويحرفون أعمال من يعادونهم تحريفًا لئيما مستهجنًا ، كل ذلك ابتغاء مرضاة رؤساء الأحزاب وأصحاب الأمر فيها . هذا ، على أن هذه الأحزاب قد نشأت أو أنشئت بغير أهداف مُبَيَّنة للناس تعاهدهم على أن تسعى إليها ، وبغير برنامج لإصلاح هذه الأمة التى لم تجد لها نصيرًا من أبنائها ، وبغير نظام ينفى عن الحزب الدخلاء والملوثين وذوى الأغراض الخبيثة .

ثم يأتى بعد ذلك نوع من الصحافة يتلبس بالورع ، ويتظاهر بالتقوى ، ويتخشع بالبراءة من التعصب ، ويبدى للناس أنه طالب خير للناس ، وأنه مريد لنفع هذه الأمة وعامل على ترقيتها وتهذيبها وهو فى خلال ذلك يدس لها سمًّا زعافًا ومنية قاتلة ، شيئًا فشيئًا ورويدًا رويدًا وساعة بعد ساعة ، حتى لا تمجه الألسنة لأول مذاق ، ثم إذا بان طعمه شيئًا لم تستنكره ، ثم يستمر حتى إذا دام قليلا ألفته وربت عليه ، ثم إذا زادته شيئًا لم يكن إلا طيبا مستساغًا ، ثم إذا الناس يطلبونه أو يخيل إليهم أنهم يطلبونه لأنه مما يتصل بأدنأ الغرائز الحيوانية والشهوات البهيمية ، ويجند لكل هذا الخبث جمع من الكُتاب الذين ضلوا عن حقيقة أنفسهم ، وطائفة من الشباب الذين أفسدتهم المدارس الأجنبية والجامعات الغريبة عن هذه الأمة ، وهذا الضرب من الصحافة الخبيثة هو البلاء المستطير الذى لم يجد إلى اليوم من يكشف عن طواياه الخبيثة وأساليبه القاتلة ، وعن دبيبه فى رأى هذه الأمة العربية دبيب الضلالة فى قلب الغرير المفتون .

ثم يأتى بعد ذلك كتاب وعلماء ورجال من أصحاب الرأى ليس فى قلب أحد منهم تقوى لله ولا خشية للإثم ولامحبة للحق ، فيرى أحدهم الرأى الفطير [1]

---

(١) الفطير : كل شىء أُعْجِل عن إدراكه واستحكامه فهو فطير .

فلا يلبث أن يمسك القلم فيجرى السواد على بياض الورق ، فإذا هى مقالة أو كتاب أو رأى أخبث منه صاحبه والناطق به ، فيأخذه المبتدئ المتطلع ، فيعتقده كأنه لقطة نفيسة بغير تحقيق ولا تمحيص ، فإذا سمع رأيًا يخالف ما قرأ لهذا الكاتب البليغ أو الأستاذ الكبير أو الفيلسوف القدير ، أنكره وأدبر عنه ، فيزيده هذا الإنكار لجاجة ، وتزيد اللجاجة عنادًا ، ويملأه العناد كبرًا ، فيعمى عن الحق وهو بين ، ولا يزال يهوى فى العناد حتى يصير ذلك عادة فى مسألة بعد مسألة ورأى بعد رأى ، وإذا هو عند نفسه أكبر من أن يأخذ عن فلان لأنه يخالفه فى الرأى .

وتزيد الدولة هذا الأمر ضراوة واستعارًا ، فتولى الأمور غير أهلها ، وتضع الناس فى غير منازلهم ، وتكرم فلانًا بإلحاقه بوظيفة كذا لأنه من أشياع الحزب الذى يتولى الحكم ، فإذا خافت عليه أن ينتزع من مكانه إذا جاءت وزارة أخرى ، ألحقته بعمل لا يقبل العزل . فإذا جاء وزير للمعارف مثلا وله أصحاب مِن شيعته ممن عرفوا بشىء من الأدب ألحقه بالمجمع اللغوى مثلًا تكريمًا له ، فيريد هذا الرجل أن يحقق معنى هذا التكريم على ما خيلت ، فينبرى لإبداء الرأى فيما لا يحسن ، ويكشف عن عورة من الجهل لا تستر . وليتها كانت رأيًا بدا له فكان صاحبه الأول ، كلا ، بل هو يعمد إلى آراء أماتها الذى أمات الخرافات والأساطير فيخيل إليه أنه – وهو الأديب المؤلف الكاتب – مستطيع أن يحيى هذه الرمم البالية برأيه وحجته وحسن معرضه ، فكيف تكون مغبة هذا الجهل على شاب ناشىء يقرأ ملفقات السخف المدلس ، وليس عنده قدرة على تمحيصه .

ويأتى آخر يلقيه وزير صديق مثلا على كرسى الجامعة ليدرس العلم لطلاب العلم ، فإذا هو عازم على أن ينشىء علمًا جديدًا لطلابه ، فيبحث فى تجاريب عقله عن أشياء يخيل إليه أنها فن جديد وبلاغة جديدة وعلم لم يصل إلى إدراكه سابق ولن يناله لاحق إلا بالتلقى عنه والوقوف بين يديه . ويخرج هذا الأستاذ جيلا من مساكين الطلاب لا يحسنون شيئًا إلا التعصب له والتسمى باسمه والتشبه به فى فساد الرأى وقلة العلم وضعف الملكة . ويجتمع منهم ومن شيخهم فئة تتهجم على العلم بغير علم ، فإذا أراد أحد أن يقف فى سبيلها تناعقت باسم حرية الرأى

وحرمة الجامعة . فكيف تكون العاقبة إذا خرج مثل هؤلاء على الشباب الناشئين بأمثال آرائهم المقيتة الجاهلة ، وعلى رأس كل منهم تاج مكتوب عليه « دكتور فى الآداب » أو « دكتور فى الفلسفة » أو « دكتور فى التاريخ » ؟ وكيف يسلط هؤلاء على عقول ناشئة العرب ، يفتنونهم بالألقاب والأسماء ، وبتعاون هذه الفئة المضللة على نصرة بعضهم لبعض ؟

فإذا بقى الأمر على ما ترى فى أمر زعمائنا ، وفى أمر سياستنا ، وفى أمر اجتماعنا ، وفى أمر أدبنا ، وفى أمر صحافتنا ، وفى أمر مدارسنا وجامعاتنا : فكيف نرجو أن نصل إلى غايتنا ؟ وكيف يتاح لهذه الشعوب العربية الكريمة أن تتأهب للمعركة الفاصلة فى تاريخ العرب ؟ وكيف تجتمع كلمة العرب على بلوغ الهدف الأعظم ، وهو هدف يرمى إلى إنقاذ الإنسانية كلها من ردغة الخبال [١] التى ألقت بها فيها حضارة ضخمة ، ولكنها قد حشيت شرًّا كثيرًا وخبثًا ؟

ولو شئنا أن نتقصى ظواهر هذه البلبلة فى أشياء كثيرة مما يتعرض لها الشعب مرغمًا أو مريدًا أو مخدوعًا لأطلنا ، فما من شىء إلا وقد اختلط فيه الأمر على غير هدى . وإذا شئت أن تقدر سوء ما جنينا من شرها ، فجالس من شئت من طوائف الشباب وجاذبهم الحديث ، واستدرجهم إلى المناقشة فى رأى أو علم أو فن ، تسمع العجب العاجب من الخلل فى موازين الأشياء ، والحيرة المطبقة فى تقدير ما يقع تحت أبصارهم وأسماعهم ، والعجز المضطرب عن ضبط الرأى ، والضعف المطلق عن القيام بحق العقل والإدراك . وأكبر من ذلك كله أنهم أصبحوا لا يرون صاحب رأى إلا وهو دونهم ، فلا يسلم من انتقاصهم ونقدهم ، فإذا صححت لهم وأردت أن تقيمهم على الطريق استكبروا وأعرضوا ، فكيف تأتى أنت فتعلم حامل شهادة الحقوق أو الطب أو الأدب أو الفلسفة شيئًا يستيقن هو فى نفسه أنه قد فرغ منه وعلمه علمًا ليس بعده إلا العروج إلى سماء الخلود .

وكذلك الأمر فى طبقات أخرى من العلماء إلى الأدباء إلى رجال القلم إلى

---

(١) ردغة الخبال : مضى تفسيرها . وأصل الردغة : الطين .

أصحاب الصناعات إلى عامة الناس . وهذا شيء مخوف مدمر للجهود التى بذلتها طائفة من السلف القريب فى تسديد خطى هذا الشعب وترقيته وتهذيبه وتطهيره من الجهل والبلادة والغفلة . وإذا طال ذلك ولم نعالجه فى مدارسنا وجامعاتنا وصحافتنا ، وفى دور التسلية ، وفى أندية المجتمع ، فالعاقبة الوخيمة بالمرصاد لمن أهمل وأضاع وترك الأشياء تمضى فى غير عنان وعلى غير هدى .

ونحن الآن أحوج ما نكون إلى صحافة جديدة حرة لا تخاف شيئًا ولا تخشى ، تدل على مواضع العيب لا للطعن والتشهير وسب هذه الأمة ، بل لعلاجها والدفاع عنها ونصرتها على نفسها . ونحن الآن أحوج ما نكون إلى شباب من الكُتاب وشيوخ من المحنكين يخلصون الرأى لهذه الأمة ، فلا يدعون الفرصة تفوت ويحملون الشعلة الجديدة إلى الجيل الجديد الذى لم يلوثه العناد والكبرياء واللجاجة والمراء . ونحن الآن أحوج ما نكون إلى طائفة ممن خبروا الحياة وعرفوها ليكونوا شهداء على مدارسنا وجامعاتنا وصحافتنا ، تستعين بهم الدولة على نهج جديد يمنع عن جماهير الشباب وطوائف الأمة كل ما يزيد هذه البلبلة إيغالا وضراوة .

إن الزمن يمضى مضاء حثيثًا كالنار فى الهشيم ، فإن شئنا أن نحيى وأن نستعد للذى أعدنا الله له من الظهور فى الأرض ، وإصلاح ما اختل من شئونها ، فعلى كل قادر أن يجمع أمره ، وأن يدعو أصحابه ، وأن يلم الشعث المتفرق ممن يظن فيهم خيرًا ، لكى يتعاونوا جميعًا على رد هذا البلاء بالرفق فى مواضع الرفق ، وبالبأس فى مواضع البأس ، وبالبتر حيث لا يجدى شيء إلا البتر بلا هوادة ولا رحمة ...

* * *

لسان السياسة البريطانية

دعت السفارة المصرية فى لندن إلى مأدبة عشاء تكريمًا لأعضاء الغرفة التجارية المصرية الإنجليزية ، فى يوم الخميس ٦ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وكان من المدعوين السير ستافورد كريبس وزير التجارة البريطانية ، فقام السير ستافورد وألقى على الحاضرين خطبة من أخطر الخطب التى تناولت شئون مصر السياسية والتجارية ، وقد نشرت الصحف البريطانية هذه الخطبة فى الصدر ، وترجمتها أكثر الصحف العربية ، ومع ذلك فلم أجد أحدًا علق عليها بما ينبغى أن يقال فى تفسيرها وتأويل مراميها .

كان من أول مرامى السير ستافورد أن يبين بأجلى بيان أن « التعاون الثقافى » و « التعاون التجارى » بين مصر وبريطانيا كفيلان بأن ينتهيا على مر الأيام إلى حل النزاع السياسى الناشب بين الدولتين ، وهو يرجو أن ينسأ الله فى أجله حتى يرى هذا الحل الموفق بين المتنازعين . وقال إن هذا النزاع بين مصر وبريطانيا ليس سوى « خلاف » يسير فى تاريخ طويل حافل بعلاقات المودة ، وبالذكريات الجميلة بين البلدين فيما يعتقد . وزعم أنه على يقين من أن الصلات التجارية والروابط الثقافية إذا هى سارت على نهج موافق ينفى عنها كل ما يزعج أو يثير الخواطر ، فإنه سوف يعيش بإذن الله حتى يرى حلا موفقًا مرضيًا يفض ذلك الخلاف السياسى اليسير ، ويومئذ تخرج الدولتان منه وقد أصبحت الصلات التى بينهما أقوى ، وأصبحت المودة أصدق ، وأصبحت النفوس أسلم . وزعم أيضًا أن هذا الضرب من الصلات والروابط سيظل هو الغالب بين الأمتين على كل خلاف سياسى . ثم امتلأت جوانب هذه الخطبة بإشارات خفية إلى أسلوب بريطانيا فى الاستبداد التجارى الذى اعتصرت به الحياة من أمم كثيرة غير مصر والسودان ،

---

* السياسة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٥٠) ، نوفمبر ١٩٤٧ ، ص : ١٢٥٨ - ١٢٦٠

وإلى التهديد الملثم بأن بريطانيا مضطرة إلى تحطيم هذا التعاون إذا أصرت مصر على إنفاذ قانون الشركات الذى أصدرته منذ عهد قريب ، ثم لم ينس السير ستافورد كريبس الوزير البريطانى عادة قومه فى المن الخبيث البغيض المتلفع بالعواطف الإنسانية النبيلة ، فزعم أن عطف بريطانيا على مصر فى محنة الكوليرا كان مبعثه العطف الإنسانى البالغ والرثاء العميق ، لا الدافع السياسى أو الحافز التجارى . وفى الخطبة كثير من أمثال هذه التلفيقات العجيبة .

زعم السير ستافورد أن الروابط الثقافية والتجارية كفيلة بحل ما سماه « خلافًا » سياسيًا ، وهو يرمى بهذا إلى تحقير هذا « الخلاف السياسى » الطارئ ، لأن تاريخ العلاقات البريطانية المصرية فيما يدعى حافل بعلاقات المودة وبالذكريات الجميلة !! فهل سمعت أذن بأغرب من هذه الدعوى ؟ إن أجمل الذكريات بيننا وبين بريطانيا هو احتلالها أرض مصر والسودان أكثر من خمس وستين سنة ، وسعيها الحثيث فى فصم عُرَى مصر والسودان فصما لا مجاملة فيه ولا هوادة . إن هذا الخطيب السياسى يعلم أنه يلقى خطبته فى دار السفارة المصرية التى دعت لتكريم أعضاء الغرفة التجارية المصرية الإنجليزية ، ولكنه يتجاهل هذا ويستهين بالمنزلة السياسية التى ينبغى أن تكفل لدار السفارة المصرية ، فيقف ليحط من قدر النزاع السياسى بين مصر والسودان وبريطانيا ، ويسميه « خلافًا يسيرًا » ، كأن حرية شعب واستقلال أمة ليس شيئًا يقام له وزن بإزاء ما يسميه العلاقات التجارية والروابط الثقافية ؟ ونحن نعجب لِمَ سكت رجال السفارة عن رد هذا التحقير للهدف الأعظم الذى أراقت مصر والسودان فى سبيله ما أراقت من دماء ، وجادت فى سبيله بالأموال والأرواح والأبناء ، وصبرت فى الجهاد من أجله على مُرّ الحياة وبَأْسائها صبرًا طويلا كله آلام وتباريح ؟

إن كل حرف فى خطبة السير ستافورد كان كأنه يقهقه ساخرًا من هذا الشعب الذى يريد أن يعيش حرًا فى بلاده ، فكيف فات من سمع هذه الخطبة من المصريين أن يقف ليعلم السير ستافورد أن النزاع السياسى بيننا وبين بريطانيا هو الحياة وهو الحرية ، وهو الهدف الذى لن تلفتنا عنه مودة نشأت من رابطة ثقافية أو علاقة تجارية ؟

ثم ماذا يعنى السير ستافورد بقوله إن العلاقات التجارية والروابط الثقافية كفيلة بحل هذا النزاع السياسى ؟ إنها كلمة يلقيها وهو يقدّر كل ما وراءها من سياسة بريطانيا فى إذلال شعوب الأرض التى وقعت تحت سلطانها الجائر . فعلاقة بريطانيا التجارية بالبلاد الضعيفة هى أن تجعل رؤوس الأموال مستثمرة فى البلاد فى يد فئة من الخونة أو فئة من الأجانب ، وبذلك تضمن لتجارتها ميدانًا هى صاحبة الكلمة الأولى فيه وتضمن أن يكون لهذه الفئة من الخونة أو الأجانب السيادة التامة على الشعب المستذل البائس الفقير الجاهل ، وتضمن أن لا تقوم لهذا الشعب قائمة ما دامت هذه الفئة هى صاحبة القوة المدمرة فى الحياة ، وهى قوة المال ، وتضمن أيضًا ناسًا من هؤلاء الخونة وهؤلاء الأجانب يقولون للبلد الفقير الجاهل البائس الذى سُلب قوة المال : لم لا تفعل أنت مثل الذى نفعل ؟ وهم يعلمون أنه غير مطيق أن يفعل ، لأن قيادة أخطبوط القوة المالية فى أيديهم هم لا فى يد الشعب المسكين . وليس فى الدنيا شىء هو أوضح من هذه السياسة اللئيمة ، فإن مصر والسودان كادت فى بحر سنوات معدودة أن تكون أقوى دولة على شاطئ البحرين الأبيض والأحمر ، وأعظم دولة فى إفريقية ، وذلك فى عهد محمد على ، وأدخلت من ضروب الإصلاح والتدبير فى مجتمعها وفى سياستها وفى صناعتها وزراعتها ، ما لا غناء فى ترديده الآن ، فأبت بريطانيا أن ترى دولة قوية تنازعها سيادة الشرق الأوسط ، كله ، فألبت عليها الدول حتى حطمت أسطولها فى نفارين ، ثم تخونتها من أطرافها حتى انكمشت فى أضيق رقعة ، ثم انتهت إلى احتلال مصر والسودان مرة واحدة فى سنة ١٨٨٢ . ومنذ ذلك اليوم وبريطانيا تدعى أنها جاءت لإصلاح أمرنا ، فإذا هذا الإصلاح قاصر على أن تطلق يد الخونة والأجانب فى مال مصر وثرواتها ، وأن تحرم الشعب المصرى من كل خير ، وتضطهده وتقاتله بأخبث الأسلحة ، ثم تتركه جائعًا عاريًا جاهلا لا يطيق أن يدفع عن نفسه . فأى خير جنيناه من هذه العلاقات التجارية بيننا وبين بريطانيا إلا الذل القاتل والإذلال المهين ؟

وما الذى فعلته بريطانيا منذ سنة ١٨٨٢ لهذا اليوم ؟ إنها لم تأل جهدًا فى

فتح باب الهجرة للأفاقين واللصوص والمجرمين من كل جنس وملة ، وأطلقتهم على هذا البلد الأمين يعيثون فى أرجائه فسادًا ، وحمتهم بامتيازاتها وامتيازات الدول ، ويسرت لهم أن يعيشوا عيشة البذخ والرفاهية إلى يوم الناس هذا . وقد ذكر السير ستافورد أن مصر كانت فى زمن هذه الحرب الأخيرة « تستمتع برخاء غير طبيعى فى عدة وجوه ، على حين كانت بريطانيا على النقيض تمامًا ، فقد كانت مجبرة على الإنفاق عن سعة فى الخارج خلال فترة الحرب ، لحماية نفسهاوحماية الديمقراطية فى العالم » ، وهو يعلم أحسن العلم أن هذا الرخاء لم تعرفه مصر ولا المصريون ، ولا السودان ولا السودانيون ، بل عرفته الجاليات من الأجانب الذين عاشوا فى مصر أو الذين وفدوا على مصر . وهو يعلم أحسن العلم أن الذين تسميهم بعض الصحف تندرًا بأغنياء الحرب ، وترمز إليهم برجل مصرى يلبس لباسًا محدثًا عليه ، ليسوا سوى فئة قليلة إذا قيست بالآلاف المؤلفة من الأجانب الذين عقدوا الأموال وجمعوها وصاروا شيئًا بعد أن لم يكونوا إلا حضيضًا موطوءًا ، وأنا أعرف مئات من هؤلاء الأجانب كانوا يعيشون قبل الحرب عيشة الكفاف بل عيشة الصعاليك ، فإذا كلهم قد أصبحوا من الثروة والعزة بحيث إذا رأيت أحدهم ظننت أنه قوة إلهية تمشى على الأرض المصرية لتستذل هذا الشعب المصرى ، وكأنها لم توجد ولم تخلق إلا لهذا وحده . وبقى الشعب المصرى أسوأ حالا مما كان فيما قبل سنة ١٨٨٢ ، فما الذى فعلته بريطانيا ؟ وما دعواها فى إصلاح هذه البلاد ؟

وهذا كله بين لكل مصرى ، وهو أشد بيانًا ووضوحًا فى عينى السير ستافورد كريبس ، ومغالطته فى الحقائق التى يعلمها لا هدف لها إلا أن تدل على أنه سياسى بريطانى حقًّا ؟!

ثم ما هذه الروابط الثقافية التى يرجو أو يزعم أو يحقق السير ستافورد أنها كفيلة بأن تغطى هذا النزاع بين الدولتين : بين الدولة المتغطرسة المستبدة التى تحتل بلادنا ، وبين الشعب المسكين الذى ظل خمسًا وستين سنة يجاهد فى نيل استقلاله والتمتع بحرية الدولة المستقلة ؟ لقد أغنانا السير ستافورد عن طلب الدليل

بأن ذكر عدد الطلاب الذين أكرمت بريطانيا وفادتهم فى هذه السنة ففتحت لهم أبواب جامعاتها . ولسنا ندرى كيف يرجو السير ستافورد أن يكون هؤلاء الطلبة الذين درسوا في بريطانيا عاملا فى حل النزاع السياسى بين مصر وبريطانيا ؟ ولكنا نعلم يقينًا أنه ما من شاب نعرفه ذهب إلى بريطانيا وعاد إلى مصر وهو مصرى القلب واللسان إلا وهو مظلوم مضطهد فى هوة من هوى النسيان ، وأنه ما من شاب نعرفه منهم عاد إلى مصر وهو يبرأ منها بلسانه وقلبه وجوارحه إلا كفلته بريطانيا ومهدت له حتى يتبوأ المنزلة التى تنبغى لمثله . ونحن لا نحب أن نسمى أحدًا باسمه ، ولكنى أعرف أن آلافًا غيرى يعرفون أحسن مما أعرف ، وعندهم من خبر ذلك أوثق مما عندى . أفهذا هو التعاون الثقافى الذى رمى إليه السير ستافورد ؟

لا ريب فى أن هذا هو التعاون الثقافى الذى يعنيه ، وهو لا يلقى بالا كثيرًا إلى شيء غيره من ضروب التعاون الثقافى لنشر العلم والمعرفة . بل إن بريطانيا نفسها لم تعن منذ دخلت مصر والسودان إلا بهذا الضرب وحده ، وما أظن أحدًا يجهل ما كان من أمر البريطانيين يوم دخلوا مصر فمزقوا مدارسها ، وعملوا عمل الحريص على نزع كل شيء يفضى إلى تعليم الشعب المصرى من يد المصريين ، وأصروا على أن يأتوا بداهية من دهاتهم هو دنلوب ، ليضع برامج التعليم المصرى . فكانت العاقبة أننا بقينا إلى هذا اليوم نرتطم فى الأوحال التى قذفنا بها دنلوب ، ونعيى عن إصلاح التعليم بعد الذى ابتلى به ، وبعد تلك الفئة من الرجال الذين أنشأتهم الثقافة البريطانية وأنشأهم دنلوب على ما يريد وأعطتهم بريطانيا مقاليد التحكم فى وزارة المعارف المصرية .

ولم يقف الأمر عند شأن التعليم بعدئذ ، بل سار على هذا النهج فى كل عمل فى الوزارات المصرية ، منذ كان وزير الاحتلال مصطفى فهمى باشا إلى هذا اليوم إلا من عصم الله . ومع ذلك فالفساد الذى لحق الإدارة المصرية كلها من جراء هذا الضرب من التعاون الثقافى ، قد تغلغل وضرب بجذوره فى كل شيء حتى فى الاجتماع المصرى . وكل هذا بين لا خفاء فيه . ولنا عودة إليه إن شاء الله .

ثم إن تعجب فاعجب لهذا الغضب الرقيق والعقاب الحلو الذى جرى على لسان السير ستافورد كريبس من جراء « تهور » الحكومة المصرية فى سن قانون الشركات . إن هذا القانون لا يكاد يعد شيئًا إذا قيس بقوانين الشركات وغير الشركات فى بريطانيا نفسها ثم فى سائر بلاد العالم ، ولكن السير ستافورد يغضب هذا الغضب الرقيق ويعاتبنا هذا العتاب الحلو ، لأن هذا القانون ينال شيئًا قليلا من الأجانب الذين يعيشون فى مصر . وكيف لا يعاتب ولا يغضب علينا ، والأجانب هم الناس ، وهم مصر ، وهم أصحاب المصالح الحقيقية كما كانت تقول بريطانيا قديمًا .

إن الذى يريده السير ستافورد ، أو الذى تريده بريطانيا ، شىء واضح هو أنه لا يحل للشعب المصرى أن يفكر ساعة واحدة فى أن يسن فى بلاده قانونًا يقيد حرية الأجانب أو يحد من ضراوتهم وفجورهم ، وإلا فعلى هذا الشعب المصرى أن يحتمل تبعة هذه الجرأة وهذه الوقاحة التى تدفعه إلى الحد من سلطان سادته وأصحاب الكلمة العليا فى بلاده . ولذلك رأينا الصحف البريطانية تغمز وتلمز أيضًا حين صدر قانون إقامة الأجانب فى مصر ، مع أن مثل هذا القانون فى بريطانيا نفسها يجعل الأجنبى يعيش فى أرضها وعليه مَلَكانِ يكتبان كل شىء حتى ما توسوس به نفسه . ولكننا لا نستطيع أن نسن فى بلادنا قانونًا كقانونهم وإلا فإننا متعصبون يضطهدون الأجانب ، وهذا التعصب كفيل بأن يقضى على كل نهضة فى بلادنا ، وكفيل بأن يزعزع ثقة الأمم فينا ، وكفيل بأن يمنع عنا مدد بريطانيا الصالحة التقية الورعة !!

إن هذه الخطبة التى ألقاها السير ستافورد كريبس هى خلاصة موجزة لأسلوب بريطانيا فى إذلال الشعوب ، وإذلال شعب مصر خاصة ، فعسى أن لا يفوت الحكومة المصرية أن توغل فى شرحها وتتحسس سائر مراميها ، لكى تعرف أن ساعة الجد قد دنت ، وأنه ليس بيننا وبين بريطانيا إلا العداوة المكشوفة ، وأن علينا أن نعمل رضيت بريطانيا أو أبت ، وعلينا أن نصابرها وأن نحتمل الضنك والبأساء فى سبيل إنقاذ مصر والسودان من براثن هذا الوحش الضارى .

* * *

لبيك يافلسطين !

لقد عزمت الأمة العفيفة النبيلة الورعة ، وهى بريطانيا العظمى بلا مراء ، أن ترفع يدها عن فلسطين ، وأن تجلو بجنودها عن هذه الأرض المطهرة ، وأن تترك الأمر لأصحاب البلاد ، هكذا ، يصرفونه على ما توجبه مصالحهم !! وفى هذا الوقت نفسه قامت روسيا السوفيتية الغامضة تؤازر أمريكا الصريحة فى صهيونيتها على تقسيم فلسطين تقسيما لا يدرى المرء كيف يصفه ، أهو حماقة ، أم جور ، أم صفاقة ، أم نذالة مركبة فى طبائع الأمم الجشعة ؟ ثم رأينا بريطانيا هبت تستنكر هذا الذى تبيته روسيا وأمريكا لفلسطين .

هذا ملخص ما يدور فى أمر فلسطين دون تزويق أو تدليس . ونحن لا نريد أن نبخس بريطانيا حقها فى هذا الموقف الذى تقفه من مسألة فلسطين ، ولكنا أيضًا لا نريد أن نلغى تصرف العقل فنصدق أن هذه الأمة البريطانية تفعل هذا حُبًّا للعرب ، وحفاظًا على حريتهم ، ورغبة فى معونتهم ونصرتهم . فإنها هى التى نفثت فى هذه الصهيونية الخبيثة من روحها منذ دخل الرجل الصليبى « ألنبى » أرض الآباء المطهرة ، وهى التى ضمنت لهؤلاء الصعاليك إنشاء وطن قومى فى فلسطين ، وهى التى أغضت عن تسلل هؤلاء اللصوص إلى بلاد ليست لهم ، وهم الذين نكّلوا بالعرب تنكيلا لم يشهد التاريخ أفجر منه ولا ألأمَ أيام ثورة العرب عليهم وعلى جلائهم من اليهود ، وهى التى استعانت باليهود فى الحرب العالمية الثانية ودربتهم وجندتهم وفتحت لهم أبواب الأرض المقدسة ، وهى التى أعانت تهريب اليهود وحمتهم ووقفت تعبث فى مراقبة الهجرة اليهودية ، وهى التى صبرت على إذلال اليهود لها وعلى جلدهم جنودها وضباطها واغتيالهم وخطفهم واتخاذهم رهائن ، هذه بعض فضائل بريطانيا وشىء من نبيل مواقفها فى مسألة فلسطين !!

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٥٢) ، ديسمبر ١٩٤٧ ، ص : ١٣١٣ - ١٣١٥

وبعد أن فعلت كل هذا طلبًا للأجر والحسبة من الله خالقهم وخالق الصهيونيين ، زعمت أنها ولاشك نافضة يدها من هذا الأمر ، وجالية بجنودها عن هذه الأرض ، وتاركة الناس أحرارًا يدبرون شئونهم بأيديهم ! فكيف يفهم العقل من كل هذا أن بريطانيا تعترض على مسألة التقسيم لأنها تريد خيرًا للعرب ، وتحافظ على وعودها لهم ، وتعمل على رد شر اليهود ومن يعاونهم عن هذه الأمة المسكينة ؟! كيف ياشياطين السياسة ؟!

إن لها من وراء كل هذا التنكر للتقسيم أربًا آخر لا ندرى ما هو على التحقيق ، ولكنا إذا عرضناه على أفاعيل بريطانيا منذ كانت بريطانيا ، فلن نعدم الشك فى نيتها ، ولا الاهتداء إلى موضع الدَّخَل [1] فى تصرفها ، ولا آيات الكذب فى دعواها . وقبل هذا وذاك ، لا يستطيع قلب عربى أن يطمئن إلى أن بريطانيا وأمريكا ، وهما الدولتان المتعاونتان على الخير والشر ، تختلفان فى هذه المسألة بعينها ، إلا أن يكون اختلافهما تعمية وتدليسًا لشىء هو أجدى عليهما وعلى الصهيونيين اليهود من اتفاقهما ! وليكن الأرب المكنون بعد ذلك ما يكون !

ونحن العرب لا نحب أن نلقى إثم هذه الصهيونية الجائرة على أمريكا وروسيا للذى نراه اليوم من موقفهما وتشددهما وحرصهما على تقسيم فلسطين ، لا لأنهما أمتان بريئتان ، بل لأن الدوافع التى تحملهما على هذا الحرص وهذا التشدد إنما جاءت بعد أن فعلت بريطانيا فعلتها ، وأصّلت لهذه الخبائث أصلا قويًا فى الأرض المطهرة ، ونزعت من يد العرب كل حول وطَوْل فى تصريف شأن بلادهم ، وبعد أن تكرمت بريطانيا على العالم كله بإحداث مشكلة لا حل لها إلا الحل الذى تفصم به كل عقدة خبيثة تستعصى على المحاول .

إننا لا نريد أن نخدع مرة أخرى بنفاق بريطانيا وأكاذيبها وتصنعها لأعين الناس بالبراءة وحب الخير والحرص على الوفاء بالعهود وإنجاز المواعيد ، وبريطانيا تريد أن تذهب فى أمر فلسطين مذهبًا جديدًا لتكون شهيدًا جديدًا يستنزل العطف

---

(١) الدَّخَل : الخداع والفساد .

والمحبة من قلوب العرب ، وتريد أن تقف هذا الموقف لأنها تريد أن تخدع مصر والسودان ، وتخدع سورية ولبنان ، وتخدع العراق والباكستان ، وتخدع كل ناطق باللسان العربى فى مشارق الأرض ومغاربها . ولكننا لن ننخدع مرة أخرى أيها الشهيد الذى استحل دم الأحرار فى مشارق الأرض ومغاربها .

هذه بريطانيا ، وأما أمريكا ، فقد طالما ذهبت فى الدفاع عن الحرية مذهبًا كريمًا ، ولكن ذلك شيء كان ثم انقضى ، فأمريكا اليوم دولة تصرفها الأحقاد الكثيرة ، وعلى رأس هذه الأحقاد إصرارها على التعصب البغيض إصرارًا لا هوادة فيه ، حتى فى قلب بلادها . ثم يلى ذلك تحكم اليهود وتسلطهم على رؤوس أموالها ، وعلى شركاتها ، وعلى مجتمعها ، وعلى رجال سياستها . فالشعب الأمريكى اليوم أُلعوبة تلهو بها الصهيونية اليهودية وترفعها وتخفضها كما تشاء ، ولسنا نحن الذين نقول هذا ، بل هذا ما تقوله فئات من الأحرار الأمريكيين أنفسهم ، ولكن هؤلاء الأحرار لا حول لهم ولا طَوْل ، لأن كل شيء هناك فى قبضة اليهود ، ولأن رئيس الولايات المتحدة ، أيًا كان هذا الرئيس ، لا يكاد يصل إلى كرسى الرئاسة إذا خذلته اليهود وأعرضت عنه فى الانتخابات ، فهو بالاضطرار يدور حيثما داروا به حتى يصير رئيسًا للولايات المتحدة ، فإذا صار رئيسًا ، فهو فى قبضة اليهود أيضًا طمعًا وخوفًا واضطرارًا . وتظن أمريكا ، أو يظن ساستها ، أنهم إذا ناصروا إنشاء الوطن اليهودى ، أو الدولة اليهودية ، فهم بذلك سوف يخلصون من قبضة هذا الوحش اليهودى ، وأنهم يومئذ قادرون على أن يطردوه من بلادهم ويقولون له : هذه بلادك فاذهب إليها . وهذا تسويل من شياطين اليهود ، وباطل من أباطيلهم يدندنون به فى آذان هؤلاء الساسة ، فاليهود يريدون أن ينشئوا الدولة اليهودية ، لا ليسكنوها ويتركوا البلاد التى أكرمتهم وأضافتهم وخلطتهم بأنفسها ، كلا بل يريدون بهذه الدولة أن يسيطروا على قلب العالم ، وهو الشرق الأوسط ، وأن يحتفظوا بسيطرتهم فى سائر بلاد الله كما هى ، ليكون لهم السلطان فى الأرض ، والغلبة على الأمم جميعًا مسلمها ونصرانيها ، فكلاهما عدو لها ، وهى تحمل لهما جميعًا عداوة لا تفتر ولا تموت . والذين يستنكرون

أن يكون هذا هدف اليهود ، لم يقرأوا شيئًا من كلام الصهيونيين ، ولم يعرفوا أن هؤلاء اليهود يطمعون طمعًا لا يشكون فيه ، وهو أن الخلافة فى الأرض ستكون لهم ، وأن هذا الشعب المختار ، هو الذى اختاره الله لسيادة الدنيا واستعباد البشر غير اليهود ! فأمريكا مخدوعة هى وساستها ، إذا ظنت أنها بمناصرتها لهؤلاء السفاحين اليهود ، سوف تكسب شيئًا إلا ذل الحيرة والاضطراب .

وأما روسيا الغامضة ، فسلطان اليهود فيها ليس أقل منه فى أمريكا ، وهم الذين يسولون للروس أنه إذا أنشئت فى فلسطين دولة يهودية ، وإذا ناصرها الروس حتى تكون ، فمعنى ذلك أن روسيا سوف تجد منفذًا لها إلى قلب العالم ، أى إلى الشرق الأوسط وأن اليهود لن يخذلوا المذهب الشيوعى ، بل سيفسحون لدعاته المكان ، ويجعلون فلسطين مأوى لهم وملاذًا وكهفًا ، وأن تعاون الروس واليهود سوف يخلص روسيا من سلطان بريطانيا وأمريكا فى هذه الرقعة من الأرض ، وأن اليهود فى حاجة إلى معونة إحدى الدول الكبرى ، فإلا تعنهم روسيا وهى أقرب إليهم من أمريكا وبريطانيا ، فباضطرار ما يبسطون أيديهم إلى أمريكا وبريطانيا ويعاهدونهما على الخير والشر فى التسلط على هذا الشرق الأوسط . وروسيا دولة تصرفها فكرة غالبة كفكرة اليهود هى الاستيلاء على أغنى بقاع الأرض ، لتستطيع أن تنشر مذهبها ، وأن تتوسل بهذا المذهب إلى هدم الكيان الاجتماعى فى الأمم ، فإذا تم لها ذلك استطاعت أن تحكم هذه الأمم وتصرفها على ما يشاء لها هواها . فهى يومئذ صاحبة السلطان الأعلى ، وهى القوة المدمرة وهى الظافرة فى الميدان الاجتماعى والسياسى ، وهى يومئذ قد أمنت أن تخشى لبريطانيا العظمى والولايات المتحدة بأسًا أو قوة .

هذا تفسير هذه المشكلة المعقدة التى تريدنا بريطانيا ، وتريدنا أمريكا ، وتريدنا روسيا ، على أن نكون فيها كالشاة المذبوحة لا نألم السلخ . فتبًّا لهم جميعًا ، والله المستعان .

بقى شىء آخر لا يخطئه أحد إذا فكر فيه ، وهو أن هذه الدول جميعًا تعلم علم اليقين أنها ترتكب جريمة من أبشع الجرائم فى تاريخ الإنسانية ، جريمة لم

ترتكب مثلها أمة من الأمم المتوحشة فضلا عن الأمم الجاهلة ، فضلا عن الأمم المثقفة التى تدعى أنها حارسة الحضارة الإنسانية والقائمة عليها - تلك هى إقحام شعب على شعب آخر ليجليه عن بلاده ، وليستذله ، وليستعبده . إن هذه الدول جميعًا تعلم أن هؤلاء اليهود هم أبشع خلق الله استبدادًا إذا حكموا ، وهى تعلم أنهم خلق قد خلت نفوسهم من كل الشرف والنبل والمروءة ، وأنهم خلق تملأ قلبه العداوة والبغضاء والحقد على البشر جميعًا ، وأنهم خلق لا يتورع عن شيء قط يرده عن اقتراف أحط الآثام فى سبيل مايريد - إنها تعلم هذا وأكبر منه وأشنع ، ومع ذلك فهى تريد أن تطلق هذه الوحوش الضارية من غابات الجهل والعصبية والحقد ، لتعيث فى هذا الشرق الأوسط كله بفجورها وبغيها وضراوتها، فتهدم ما تهدم ، وترتكب ما ترتكب ، باسم الحضارة والمدنية والثقافة ... فيالها من جريمة ! يالها من جريمة أيتها الأمم الحارسة لتراث الحضارة الإنسانية !!

ثم بقى شيء وراء ذلك كله ، ينبغى لكل عربى أن يعلمه ، ولا سيما أولئك الذين يتعرضون اليوم لسياسة هذا الشرق العربى ، وهذا الشرق الإسلامى كله - هو أن إقدام هذه الدول الثلاث على مناصرة المجرمين الصهيونيين تنطوى على معنى قد استقر فى أنفسهم وغلب عليها ، وهو احتقارهم للعرب وازدراؤهم لهم ولمدنيتهم ودينهم وحضارتهم واجتماعهم ودولهم وملوكهم ، وقديمهم وحديثهم ، وأن هذا لبان ارتضعوه منذ كانت الحروب الصليبية ، وأن الثقافة والعلم وسهولة اتصال الأمم بعضها ببعض ، كل ذلك لم يغير شيئًا من عقائد الصليبية الأولى فى هذا الشرق العربى ، وكل ذلك لم ينفع شيئًا فى نزع السم الذى اختلط بالدماء وجرى فى العروق مع نسمات الهواء ومضغات الغذاء . وأنه لولا هذا الداء القديم ، وهذه العلة المستعصية ، لما ارتضت هذه الدول أن تبدى كل هذه الجرأة على الحق فى مشكلة فلسطين ، بل لوقفت كما وقفت من قبل فى مسألة دانزيج وغيرها مناصرة لحق الناس فى الحرية كما تزعم . هذا معنى لا يفوت عربيًا مسلمًا كان أو نصرانيًا ، لأن هذه الدول تتصرف بأحقاد جاهلة عمياء ، لا ببصر وتمييز وعدل .

وغاب عن هذه الدول جميعًا شيء واحد ، هو أن هذه الأمم التى يصبُّون عليها أحقادهم المرذولة وسَخائمَهم العتيقة ، قد لقيت من قبل أشد مما تلقى اليوم ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تخرج على الدنيا طاهرة نبيلة لا تحمل حقدًا ولا ضغنًا ، فانتشلت الحضارة الإنسانية من أوحال الجهل العميق الذى كانت تعيش فيه أوربة وأمريكا وروسيا ، ورفعت النار لكل مهتد حتى اهتدى .

إن هذه العرب لاتنام على ذل أبدًا ، فلتعلم هذا روسيا ، ولتعلمه بريطانيا ، ولتعلمه أمريكا ، وليعلمه الأَفاقون من اليهود .

لقد نادت فلسطين غير نيام ، نادت أيقاظًا يحملون بين ضلوعهم تلك الشعلة الخالدة فى تاريخ الإنسانية ، والتى نحن القوَّام عليها والقائمون بها ، والتى نحن لحاملوها حيثما سرنا فى الأرض - شعلة الإيمان بالله الواحد القهار - إن كل سلاحٍ سلاحٌ مفلولٌ إذا لقى سلاحنا ، لأننا لا نقاتل بالتدمير والخراب ، بل بالتعمير والإنشاء ورد الحقوق على أهلها وإن كانوا قد ظلمونا ونكلوا بنا من قبل . ولتعلم هذه الأمم العدو لنا جميعًا أن المعجزة التى كانت يومًا ما ، سوف تكون مرة أخرى يوم ننبعث من ظلماء هذه الحوادث سراعًا إلى نجدة أمنا فلسطين ، فتنبثق الأرض عنِ جنود الله القدماء :

عن كل أروَعَ ترتاعُ المنونُ له	إذا تجرد ، لا نِكسٌ ولا جحِدُ [١]
يكاد حين يلاقى القِرْن من حنَق	قبل السِّنان على حوْبائه يرِدُ
قلوا ، ولكنهم طابوا ، وأنجدهم	جيش من الصبر لا يفنى له عدد
إذا رأوْا للمنايا عارضًا لبسوا	من اليقين دُروعًا مالها زَرَدُ [٢]

هذه ليست خطابة ولا حماسة أيتها الأمم ، بل هى الحق ، وهى عادتنا وعادة الله فينا ، والله غالب على أمركم وأمرنا ، ونحن جند الله فى الأرض على رغمكم ، وإن سخرتم أو كذَّبتم !

* * *

(١) النِّكس : الضعيف الجبان .

(٢) الزَّرَدُ : حَلَقُ الدِّرْع .

فلسطين :

ثلاثة رجال

أحب أن أقدم بين يدى كلامى هذا كلمة أو كلمتين لابد منهما : الأولى ، أن أبتهل إلى الله أن يبرئ قلوبنا من الجبن والخور والبخل ، وأن يؤيدنا بالصبر والقوة ، وأن يرفع عنا غضبه ومقته ، فقد كتب علينا الجهاد فى سبيله بما استطعنا . وأحب لكل كاتب وقارئ أن يتوب إلى الله مما اكتسب من إثم يده أو قلبه أو لسانه ، ليتجرد إلى الجهاد وهو طاهر مصمم لا تلفته الدنيا عن الدفاع عن الحق .

والثانية : أنى كنت كتبت عن قضايا العرب وعن فلسطين ، فكنت لا أزال أذكر الإسلام وأشفعه بذكر نصارى الشرق ، لأنى أعدهم منا ومن أنفسنا ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا . وكنت أرى أن نصارى الشام والعراق قد بذلوا من الجهود فى قضايا العرب ما صرح عن مكنون أنفسهم وعن إخلاصهم الذى لا يدفع ، وأنهم جزء لا يتجزأ من العالم العربى ومن العالم الإسلامى ، وكنت أتخوف أن يقف قبط مصر مترددين عن المشاركة الصريحة فى جهاد العرب والمسلمين فى مسألة فلسطين ، ولكنى أشهد الله اليوم أن قبط مصر قد ملأوا قلوب العرب والمسلمين غبطة بهم وإكبارًا لهم ، وحرصًا على مودتهم حرصًا لن يعمل فيه بعد اليوم دس ولا كيد ولا وقيعة . إنه لا يحل لامرئ مسلم أو عربى بعد اليوم أن يرتاب أو يتشكك فى نبل هؤلاء الإخوان الذين نصرونا فى ساعة العسرة لا تدفعهم إلى هذه النصرة رغبة ولا رهبة .

وسأسجل فى هذه الكلمة مآثر لرجلين من أجلِّ النصارى شأنًا ، لأنهما وقَفَا فى الجهاد موقفًا يوجب علينا أن نخلد ذكرهما فى تاريخ العرب وتاريخ

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٥٤) ، ديسمبر ١٩٤٧ ، ص : ١٣٦٨ - ١٣٧١

المسلمين ، ولا سبيل إلى جزاء هذين الرجلين إلا بأن نرفع ذكرهما فى هذه الساعة وإلى أبد الدهر ، لأنهما قطعا السبيل على كل خبيث من شياطين السياسة القذرة التى انبعثت فى أوربة وأمريكا ، وعلى شياطين اللؤم الصهيونى الدنىء .

أما الأول فهو الشيخ الجليل الصادق غبطة بطريرك الأقباط الأرثوذكس الأنبا يوساب ، فقد اجتمع المسلمون والعرب فى المسجد الجامع الأزهر فى يوم الجمعة ٢٢ المحرم سنة ١٣٦٧ ، فإذا الناس يفاجأون بمقدم القمص متياس الأنطونى سكرتير غبطته مندوبًا من قبله ، ومعه إخوانه من رؤساء الأقباط فى مصر ، القمص جرجس إبراهيم رئيس الكنيسة القبطية الكبرى ، والقمص عبد المسيح سعد ، والقمص مرقص غالى . ودخول هؤلاء الأربعة الكرام إلى المسجد الجامع فى ساعة الجمعة ، ونيابتهم عن غبطة البطريق الأعظم فى شهود هذا اليوم المشهود وخطبتهم الناس فى هذا المسجد ، ومشاركتهم فى أكبر مؤتمر إسلامى فى مصر ، قد دل دلالة صريحة على أن الأنبا يوساب البطريق الأعظم ، هو رجل قد نور الله قلبه بالحق ، وآتاه من الفطنة والصدق والأمانة فى دينه وخلقه ما يجعل عمله هذا أمانة فى عنق كل مسلم وعربى ، يحميها ويدفع عنها ويعتز بها ويكرم أصحابها فى عامة أمورنا وخاصتها . وقد فعل ذلك من تلقاء نفسه غير متردد ، فدل ذلك على أنه رجل سياسى مخلص ، وعلى أنه يدرك تمام الإدراك كل ما يحيط بهذا الفجور الصهيونى من الخبائث ، وعلى أنه يأبى أن يدخل بين أقباط مصر ومسلميها مفسد يبغى الوقيعة .

ومن قبل ما وقف هذا البطريق الأعظم موقفًا رد كيد البريطانيين فى نحورهم ، وذلك فى حادثة الزقازيق التى دبرتها بريطانيا لإفساد مابين المسلمين والأقباط ، فلولا حكمة هذا الرجل النبيل ، لكان هذا الحادث البغيض سببًا فى اشتعال نار الفتنة التى أشعلت بريطانيا مثلها من قبل لتفرق كلمة الأمة تفريقًا يجعل بعضها لبعض عدوًّا . ونحن نحمد الله إذ جعل فى إخواننا القبط رجلًا كهذا الرجل الجليل ، يقف حارسًا يقظًا على أمته وأمتنا ، يرد عنها كل مكيدة . وما دام فى الأقباط هذا الرجل وأمثاله ، فالمسلمون والعرب جميعًا لا يالون بعد اليوم أن

يبذلوا مهجهم في الذود عن إخوانهم ، وفى حمايتهم ، وفى الدفع عن كل شيء يسوءهم ، ما بقى على ظهر هذه الأرض مسلم يؤمن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر . إنه دَين فى أعناقنا للقبط ، نسأل الله أن يهبنا القدرة على أدائه وإن أَبَوْا هم أن يقبلوا عن هذه المأثرة جزاء .

وأما الرجل الآخر فهو كصاحبه يتلألأ قلبه بنور الإخلاص والإيمان ، تكلم فأبان عن نفس حرة أفزعت « اليهود المسئولين فى مدينة الإسكندرية » أى يهود مصر ، فأقبلت طائفة منهم تريد أن تثنى هذا الرجل الجليل عن إذاعة حديثه ، فأجابهم بأنه ما قال ما قال إلا وهو يعتقد أنه قول صريح سليم ، وليس إقحامًا للدين فى السياسة ، وأنه يقصد حماية التراث المقدس للمسيحية ، وأنه إنما يتكلم عن عقيدة وإيمان بما يقول . ذلكم هو الرجل النبيل غبطة البابا كريستوفورس الثانى بطريرك الإسكندرية وإفريقية للروم الأرثوذكس .

وقد جاء فى هذا الحديث أن غبطة البطريق الأعظم للروم قد دهش لإنشاء دولتين فى فلسطين ، ودهش أيضًا من أن تكون أمريكا والاتحاد السوفيتى هما الداعيتين إلى هذا التقسيم . ثم قال :

« إنه لتزداد دهشتنا أن تعمد الولايات المتحدة الأمريكية إلى هذه المحاولة الجريئة رغم أحداث التاريخ الدالة على فساد هذه الفكرة وخطرها . ولهم العبرة فيما حاوله الإمبراطور جوليان الرومانى . لا ندرى كيف فكرتا فى وضع الأراضى المسيحية المقدسة في حماية أولئك الذين رغبوا دائمًا ، جماعات وأفرادًا ، فى أن يعيشوا حتى يروا اليوم الذى لا يسمع فيه ذكر للمسيح . وهل يستطيع إنسان أن يتصور اليهود حرسًا وحماة للأمكنة المقدسة . وهم الذين سيعمدون إلى تدنيسها بمجرد السيادة فيها ؟

« ونحن نرى أيضًا أنه لا يمكن أن يسمح للفاتيكان أن تكون له السيادة فى فلسطين ، فإن الحروب الصليبية قد برهنت على فساد هذه الفكرة . ولهذا فإننا نحن الروم الأرثوذكس نرى فى حالة إلغاء الانتداب الدولى على الأراضى المقدسة ، أو عدم وجود دولة عربية مكان هذا الانتداب ، أن تعطى للمسلمين

حماية هذه الأراضى ، لأنهم منذ مارسوا حكمها فى هذه القرون الطويلة ، برهنوا على أنهم جديرون بثقتنا » .

وهذا كلام أقل ما يقال عنه إنه كلام رجل مؤرخ عالم بصير لا يدفعه إلى ما يقول هوًى لشىء ولا رهبة لمكروه . فإن غبطة البابا كريستوفورس قد قضى طفولته وشبابه فى فلسطين ، قد عرف بنفسه شعور اليهود ضد العرب وضد الأرض المقدسة ، كما قال متكلم بلسان البطريركية الرومية .

وقد أثبتُّ حديث البطريق الأعظم بتمامه لأنه سوف يصبح وقائله جزءا لا يتجزأ من تاريخ الإسلام ، ولأننا نحن المسلمين نحب أن نحمل المنن فى أعناقنا فنحافظ عليها ونرعاها وندافع عنها ونجزيها أحسن الجزاء ، إن حديث هذا الشيخ الأجل سوف يصير من تاريخنا يرويه أربعمائة مليون عربى ومسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وهو حديث يفسر كل ما كنا نقول به من مشايعة الدول الأوربية والأمريكية للصهيونية الفاجرة ، قائمة على الصليبية الحمقاء . فهم يحاربوننا حربًا صليبية لا يستثنون فيها مسلمًا ولا نصرانيًا فى الأرض الإسلامية والعربية وقد كان بعض الناس يعيب علينا هذا الرأى ، ولكن حديث البطريق الأعظم قد كشف الغطاء عن كل ذلك ، ومهد للتاريخ أرضًا جديدة يدرس فيها هذا الصراع بين أهل الشرق العربى الإسلامى من مسلمين ونصارى ، وبين الغرب الصليبى من نصارى ويهود . ولكن نصارى الشرق غير نصارى الغرب ، فهؤلاء قوم ملئت قلوبهم أحقادًا صليبية مظلمة لا عقل فيها ولا ضمير لها ، أما نصارى الشرق فهم يعرفون تمام المعرفة أن نصارى الغرب قوم مفترون جاهلون متعصبون يريدون أن يدنسوا هذه الأرض المقدسة باليهود عداوة للمسلمين غير ناظرين إلا بالعين الصليبية البغيضة ، لا بعين الإنصاف والحق كما ينظر نصارى المشرق . وحسبنا هذا البيان من البطريق الأعظم ، فإنه حسنة لن ينساها له مسلم إلى أن تقوم الساعة .

وقبل أن أنتهى إلى ذكر الرجل الثالث أحب أن أنبه القارئ ، وأنبه قومى العرب فى كل مكان ، وفى مصر خاصة ، إلى أنه ما كاد « يهود مصر » يعلمون

نبأ إذاعة هذا الحديث فى الصحف حتى تبادروا إلى غبطته يريدون أن يثنوه عن نشره وإذاعته . فما معنى هذا الذى يفعله اليهود الذين خلعنا نحن عليهم الجنسية المصرية ؟ وماذا تقول حكومتنا فى هؤلاء القوم الذين يريدون أن يكونوا أعوانًا للصهيونية فى قلب بلادنا فى هذه الساعة ؟ أو يحدث هذا فى مصر فى الأسبوع الماضى ، وإذا بنا نقرأ اليوم (٨ ديسمبر سنة ١٩٤٧) أن الشرطة العراقية ألقت القبض عند الحدود العراقية السورية على ثلاثة يهود عراقيين من موظفى شركة الزيت العراقية ومعهم جهاز إرسال لاسلكى . فما معنى هذا ؟ ليعلم اليهود أن العرب لن يقبلوا أن يكون للطابور الخامس عمل فى بلادهم .

وننتهى من هذا التعليق لنضم إليه خبر الرجل الثالث الذى ينبغى أن يعرفه العرب والمسلمون ، فقد أفضى سيادة حاييم ناحوم أفندى الحاخام الأكبر للطائفة الإسرائيلية فى مصر بالتصريح الآتى :

« إنى أرى أن مركزى بوصف كونى رئيسًا دينيًّا وروحيًّا لأبناء الطائفة الإسرائيلية ، يحول بينى وبين الخوض على صفحات الصحف فى أى مناقشات مهما كان نوعها أو الغرض منها . ولكن إزاء كثرة ما وجه إلينا من أسئلة واستفهامات أرى أن واجبى يحتم على أن أتوجه إلى السائلين وإلى جموع الأمة المصرية الكريمة بكلمة أرجو أن تكون حدًّا فاصلا لهذا الموضوع : فأبناء الطائفة الإسرائيلية التى أتشرف برياستهم الدينية هم جزء لا يتجزأ من الأمة المصرية ، يشعرون بشعورها ويتألمون لألمها . فكيف إذن يحاول البعض التشكيك فى عواطفهم نحو أبناء بلدتهم المصريين . إن دستور البلاد يكفل لنا جميع الحقوق الممنوحة لأبناء مصر الكريمة سواء بسواء ، ولذلك فإن واجبنا نحو بلادنا يجعلنا نعمل بشعورنا كمصريين . وقد أصدرت أمرى إلى رجال الكنائس الإسرائيلية بإقامة الطقوس الدينية ليعظوا فيها أبناء الطائفة على أن يتضافروا مع إخوانهم المصريين فى هذا الظرف العصيب » .

ونحن نشكر الحاخام الأكبر ، ولكن ليعلم سيادته أنه قبل أن يتوجه إلينا بكلام يكون « حدًّا فاصلا » ينبغى أن يعمل هو وأبناء طائفته عملا يكون « حدًّا

فاصلا » ، وهذا مع الأسف لم يحدث قط ، وأخشى أن أقول إنه لن يحدث قط .
ثم ليأذن لنا سيادته أن نوجه نظره الكريم إلى الذى ذكرناه وذكرته الصحف ولم يستنكره أحد من يهود مصر ، وهو ذهاب بعض المسئولين من اليهود فى ثغر الإسكندرية كى يثنوا البطريق الأعظم للروم الأرثوذكس عن إذاعة حديثه . أهذا أيضًا إقحام للدين فى السياسة .

وليأذن لنا سيادته أن نقول له إننا نعيش فى أرض مصر ، واليهود يعيشون معنا فيها لا فى المريخ ، وأننا نعلم علمًا يقينًا أن جمهورًا كبيرًا من شباب اليهود فى مصر ، يجرى بينهم الحديث وبين المصريين ، فلا نجد أحدًا منهم يكتم مشايعته لإنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، بل يفرح بها ويصر على التصريح بأنها خير لبلادنا ، وأنه ينبغى علينا نحن العرب أن نعاون على إنشاء هذه الدولة ، وأن نعيش معًا فى سعادة وأمن ورخاء !!!

وليأذن لنا سيادته أيضًا أن ننبهه إلى أن هذه الساعة التى جاش فيها العالم الإسلامى والعربى ، ليدفع عن فلسطين الجور الذى أرادت هيئة « الأمم المتحدة » التى تصرفها روسيا وأمريكا وبريطانيا ، هى ساعة فاصلة فى تاريخ العرب والمسلمين ونصارى الشرق جميعًا ، وليأذن لنا أن ننبهه أيضًا أن النار المشتعلة الآن تفصح كل الإفصاح عن المعنى الذى ينطوى عليه تقسيم فلسطين ، فكيف ذهب عن فطنة سيادته أن يذكر كلمة واحدة صريحة تفصح أيضًا كل الإفصاح عن استنكاره واستنكار طائفته لهذا التقسيم الجائر الذى أرادت أن تفرضه على العرب هيئة الأمم المتحدة ؟

وليأذن لنا سيادته أيضًا أن ننبهه إلى أن الصهيونية تدعى أنها تتكلم باسم يهود العالم جميعًا ، وأن جميع الدلائل إلى اليوم تدل على أن كثرة يهود العالم منضمة إليهم ، فما هو الضمان الذى يقدمه لنا سيادته حتى تطمئن قلوبنا إلى أن يهود مصر ليسوا كيهود سائر العالم ؟

وليأذن لنا سيادته أيضًا أن ننبهه إلى أن الصهيونية قد أذاعت منذ القديم أنها تريد أن تستولى على أرض إسرائيل كلها من الفرات إلى النيل ، وأن هذا مطبوع منشور فى كتبهم ، وأنه حين ذاع نبأ التقسيم وقف مفلوك صهيونى يستنكر

التقسيم ثم يرضى به على مضض ، لأنه الخطوة الأولى التى تفضى إلى استيلائهم على أرض بنى إسرائيل كلها من الفرات إلى النيل ، وأنا لا أظن أن مثل هذا مما يغيب عن الرجل الفاضل العالم أحد أعضاء المجمع اللغوى العربى [١] .

وليأذن لنا سيادته أن نذكره بوصية الله لنا فى محكم تنزيله إذ يقول : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ ، فالمسلمون والعرب جميعًا سوف يقاتلون من يقاتلهم من الصهيونيين ، أما سائر اليهود فلن يعتدى عليهم مسلم ولا عربى ماداموا فى ذمتنا ولا يؤلبون علينا . فهل يأذن سيادته بأن يعلم أن المسألة ليست مسألة سياسية نريد أن نقحم الدين فيها ، بل هى مصير العرب والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ؟ وهل يأذن لنا أن نسأله أن يدفع عن يهود مصر كل شك وريبة بأن يصدر بيانًا صريحًا عن موقف يهود مصر فى مسألة التقسيم ؟ وهل يأذن لنا سيادته أن نطالبه ونطالب أبناء ملته من يهود مصر بأن يفعلوا فعلا صريحًا واضحًا يدل على أن عواطفهم هى عواطف الأمة المصرية تشعر بشعورها وتتألم بألمها ؟ وهل يأذن لنا سيادته أن نقول له إن هذا الذى يجرى الآن ليس « ظرفًا عصيبًا » كما جاء فى كلامه ، بل هو أوضح من ذلك ، هو حرب بيننا وبين يهود العالم وكل من يناصرهم من الأمم ، وأنها حرب سوف تستمر إلى أن يستقر الحق فى قراره ولو طالت مئة عام ؟ أفليس من الحكمة إذن أن يتخلى الحاخام الأعظم عن العزلة التى يريدها لنفسه ويدخل هو وأبناء طائفته فى الجهاد الذى كتب علينا نحن العرب من مسلمين ونصارى ويهود لكى ندفع عن بيت المقدس أدناس الصهيونية ؟

هذه كلمة مجاهد عربى يتقدم بها إلى الحاخام الأعظم تعليقًا على حديثه الذى سوف يبقى مذكورًا فى تاريخ الإسلام والعرب ، لم أعمد فيها إلى شرح أشياء أعرفها حق المعرفة ، انتظارا لما يكون من عمل سيادة الحاخام الأكبر . وليعلم سيادته أن الأحداث أسرع من لمحات البرق فى السحاب المتراكب ،

---

(١) يشير الأستاذ شاكر رحمه الله إلى الحاخام حاييم ناحوم .

فليبادر إلى الخير مبادرة من عرف وجه الحق فلم يحجم به عن الجهاد خوف ولا فزع ولا إرهاب . إن عمل الحاخام الأكبر هو « الحد الفاصل » الذى ينتظره اليوم أربعمائة مليون مسلم قد استيقظوا وأدركوا أن يهود العالم قد أعلنوا عليهم الحرب ، فلن يخدعهم بعد اليوم شيء عن الطريق الذى سار فيه آباؤهم من قبل ، فنصرهم الله وأيدهم وهزم أعداءهم وأعلى كلمتهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس .

* * *

إياكم والمهادنة

« ما هكذا تُورَدُ يا سَعْدُ الإبْل ! » [١]

إنما حملت أمانة هذا القلم لأصدع بالحق جهارًا فى غير جَمْجَمَة ولا إدهان . ولو عرفت أنى أعجز عن حمل هذه الأمانة بحقها لقذفت به إلى حيث يذل العزيز ويمتهن الكريم . وقد قصرت نفسى إلى هذا اليوم على مجلة « الرسالة » لأنها ملاذ الأقلام الحرة التى لا تثنيها عن الحق رهبة ، ولا تصدها عن البيان مخافة . وقد جاء اليوم الذى لم يعد يحل فيه لامرئ حر أن يكتم قومه شيئًا يعلم أنه الهدى ، فمن كتمه فى قلبه فقد طوى جوانحه على جذوة من نار جهنم ، تعذبه فى الدنيا ويلقى بها فى الآخرة أشد العذاب . وأنا جندى من جنود هذه العربية ، لو عرفت أنى سوف أحمل سيفًا أو سلاحًا أمضى من هذا القلم لكان مكانى اليوم فى ساحة الوغى فى فلسطين ، ولكنى نذرت على هذا القلم أن لا يكف عن القتال فى سبيل العرب ما استطعت أن أحمله بين أناملى ، وما أتيح لى أن أجد مكانًا أقول فيه الحق وأدعو إليه ، لا ينهانى عن الصراحة فيه شىء مما ينهى الناس أو يخدعهم أو يغرر بهم أو يغريهم بباطل من باطل هذه الحياة .

والأمر بيننا وبين يهود سافر كإشراق الصباح لا يغطيه شىء ، ولا تعمى عن جلائه عين ، فهو الحرب الضارية التى لا ترحم . فمن شك فى هذا فإنما يشك عن دَخَل [٢] وفساد لا عن يقين خطأ يلتمس فيه العذر . والحرب معنى معروف

---

* الرسالة ، السنة الخامسة عشرة (العدد ٧٥٦) ، ديسمبر ١٩٤٧ ، ص : ١٤٢٣ - ١٤٢٦

(١) هذا مَثَلٌ ، يُضْرَب لِمَنْ قَصَّر فى ما أُسْنِد إليه . وهو يُقْرَن غالبا بشطره الأول وهو :

* أَوْرَدَها سَــــعْدٌ ، وسَعْدٌ مُشْتَمِلْ

(٢) الدَّخَل والفساد بمعنى .

للبشر منذ كانوا على هذه الأرض ، ولها أساليب لا يجهلها خبير بها ولا غير خبير ، ومَن جهل هذه الأساليب أو تجاهلها أو دعا قومه إلى اطراحها والإغماض عنها فإنما يدعوهم إلى الهلكة والفناء والخزى وذل العصور والآباد . فكل كلمة تقال منذ اليوم فى أمر هذه الحرب فهى إما تحريض على القتال ، أو تثبيط عنه . وكل امرئ منا محاسب بما يقول علا شأنه أو سفل ، فإن الحرب لا تعرف شريفًا ليس لسانه بشريف ، ولا تتنكر لمغمور يضئ عنه بيانه أو عمله .

وقد قرأت فى هذه الأيام الأخيرة وسمعت كلمات لا يرفعها أو يشفع لها أن يكون قائلها فلان أو فلان . فإن قيادة هذه الحرب لن تكون لمن يهادن فى الحق الأبلج (١) ، أو يجامل فى المحنة المهلكة . فمن ذلك أنى سمعت الأئمة على منابر المسلمين تذكر الناس بأمر فلسطين وما حل بها وما يراد فيها ، ثم تعقب على ذلك بتذكير الناس بأن فى بلادهم مواطنين من يهود - هم كما يقولون - أهل ذمة ، لهم ما لأهل الذمة والمعاهدين من الأحكام فى ديننا ودين نبينا . وقرأت أيضًا بيانًا من « هيئة وادى النيل » أذاعه رئيسها سعادة محمد على علوبة باشا يقول لنا فيه : « إن لكم مواطنين من اليهود فى مصر ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم . وقد شاعت حولهم شائعات السوء فقيل إنهم يمدون الصهيونية بالمال ، وإنهم يضنون بمالهم فلا يساهمون معكم فى رد عدوان الباغين . ونحن على يقين من أن إخواننا اليهود فى مصر - وهم أصحاب الملايين - سيبذلون من مالهم للعروبة فى محنتها كما تبذلون ، وسيسارعون إلى تكذيب هذه الشائعات ببذلهم وعطائهم لا بأقوالهم وتصريحاتهم » .

ولست أدرى ما الذى يحمل هؤلاء القوم على ركوب هذا المركب فى تغطية عيون الناس عن أفاعيل يهود منذ كان لهم على هذه الأرض مكان يسرحون فيه ؟ فإذا كانوا يريدون أن لا تقع الفتنة بين يهود مصر وبيننا ، فكفاهم أن يذكروا أن العرب والمسلمين منذ كانوا لم يضطهدوا هذا الجنس من خلق الله إلا عقابًا

---

(١) الأَبْلَج : الواضح ، وأصله الأبيض .

لشىء جنته أيديهم ، ثم يتركونهم وادعين لا يمسهم شر ولا عنت تحت ظل هذه الدول العربية والإسلامية . وإذا كانوا يريدون أن يفتوا الناس بأن يهود هم أهل ذمة لهم ما لأهل الذمة فى أحكام الإسلام ، فقد أخطأوا . ولا يستطيع متأول أن يتأول على دين الله أن هؤلاء اليهود أهل ذمة أو معاهدون كما توجب أحكام الإسلام لمن يوصف بهذه الصفة . وكان حسب هؤلاء أن يأمروا الناس بالتطوع للقتال والتبرع بالمال ، وأن يصفوا لهم هذه الحرب الملعونة التى تشنها علينا العصبية الصليبية من أوربة وأمريكا ، وأن ينفضوا قلوب الناس حتى يبتدروا مراكزهم فى صفوف المقاتلين ، فإن الحرب كما يقولون جدها جد وهزلها جد . فإذا كان هذا العبث مقبولا يومًا ما ، فإنه اليوم فت فى عضد الأمة المسكينة التى أحاطت بها الأمم لتأكلها « أكل الضروس حلت له أكلاؤه » [1] . فليقلع هؤلاء الواعظون عن عظة فيها الهلاك لأقوامهم ، والذل لأبنائهم ، والعبودية لبلادهم .

أما النداء الذى أذاعه علوبة باشا فقد أفزع كل حريص على خير أمته وبلاده . وكيف لا يفزع امرؤ يقرأ نداء موجهًا إلى عامة الشعوب العربية ثم شعب مصر خاصة وفيه هذه الثقة المطلقة بأن اليهود برآء من كل قادحة تقدح فى إخلاصهم للقضية العربية !! وفيه هذا اليقين الذى لا يتزلزل بأنهم سوف يجودون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل فلسطين العربية !! ويأتى هذا البيان من رجل معروف الاسم ، مشتغل بالقضايا السياسية والوطنية والعربية ، ينظر إليه الشباب نظرة التوقير والإجلال لما يقول .

ونحن لا ندرى هل وقف على شىء غاب عن الناس جميعًا وعرفه هو ، فاستيقن أن ظاهر أمر يهود مصر غير باطنهم ، وأنهم إنما يرسلون الأموال إلى الصهيونية ذرًّا للرماد فى عيون الناس ، وأنهم يتولون تهريب الأسلحة إلى الصهيونية رحمة بالعرب ودفاعًا عن قضيتهم ، وأنهم يجمعون الشبان اليهود ليبثوا فيهم الدعوة إلى الهجرة إلى أرض الميعاد ، ليدخلوا فلسطين ويكونوا عونًا للعرب على إخوانهم من اليهود الصهيونيين !!

---

(١) الضَّرُوس : الأَكُول . الأكلاء : جمع كَلَأ ، وهو العُشْب .

حسبكم أيها الساسة القدماء ! لئن ظننتم أنكم بأمثال هذا الكلام تستطيعون أن تلينوا الصخر من قلوب يهود مصر حتى ينحازوا إليكم ، ويكونوا لكم أعوانًا على أبناء جلدتهم ، فقد خاب ظنكم وخاض بكم الأباطيل المركومة . إنه ما من يهودى على ظهر هذه البسيطة إلا وهو صهيونى متعصب يخفى تحت ذلته ومسكنته غوائل الغدر والفتك . إن يهود العالم على قلب رجل واحد : يريدون أن يلتهموا هذا الشرق العربى كله ، ويكونوا سادته وكبراءه والحاكمين بأمرهم فى كل ثنية من ثنايا أرضه . لا نقول لكم اقرأوا كتب الصهيونية لتعلموا ، بل اقرأوا كتابهم الذى يدينون به ، واسترقوا السمع فيما يجرى على ألسنتهم وهم يتخافتون بينهم ، وادخلوا بِيَعَهم ، وانظروا فى وجوههم ، وتفرسوا فى سمتهم وشمائلهم وحركاتهم ، فيومئذ تعلمون أن تحت هذه الصفحة البريئة المتلألئة أخطبوطًا سفاحًا قد قتله الظمأ إلى دمائكم ولوَّعه الشوق إلى فرائس أموالكم وبلادكم . وليس بسياسى من لم يعرف عدوه معرفته بنفسه التى بين جنبيه . وليس بسياسى من كتم هذه المعرفة عن قومه فى ساعة القتال والحرب . ولا تظنوا أن يهود تنخدع لكم عن أنفسها حتى تنالوا منها شيئًا تعلم أنه خذلان لدينها وعقائدها وأهوائها ومطامعها منذ كان لهم فى هذه الأرض مجال يتحركون فيه .

إن الذين نشروا هذا النداء إنما يخادعون أنفسهم وأهليهم عن حقائق ما يجرى على أعينهم وبمنظر منهم ومسمع ؛ وهذه صحف تنشر كل يوم من خبائث يهود فى أرض مصر ما يفزع ، وتضع أيديكم على الجريمة وهى تنشأ فى قلب بلادكم ، فكيف يتاح لكم أن توفقوا بين ثقتكم بغيب مكنون فى قلب اليهود ، وظاهر يأتيكم من أفعالهم علانية غير مستور أو محجوب ؟ نحن لا نريدكم أن تحرضوا الناس على الفتك باليهود ، فالعربى أنبل نفسًا من أن يفتك ويغدر . بل نريدكم أن تدعوا هذه العظات والسياسات المتعفنة جانبًا ، وأن تلقوا إلى قومكم بالحقائق مجردة من كل مهادنة أو مراوغة ، حتى يعلم شباب العرب أن فى قلب بلادهم قوى يخشى أن تغلب عليهم وتنتزع منهم أمرهم ، وتفت فى محصدات [(١)]

---

(١) المُحْصَدات : القوية الشديدة ، وأصله فى الحبال إذا أُحْكِم فَتْلُها .

عزائمهم ، ولتستولى على الأمد (١) قبل أن نطيق نحن صدقًا أو عدلا فيما كتب علينا من هذا القتال المر .

أيريد أن يعلم من كتب هذا النداء أشياء قد غابت عنه ؟ فليعلم أن يهود مصر يبذلون اليوم آلافًا مؤلفة من الأموال لشراء قطع متجاورات من الأرض فى مشارف مصر ، يدفعون فيها من المال ثلاثة أضعاف ثمنها أو أكثر . وليعلم هؤلاء أن يهود مصر قد فرغوا منذ عشر سنوات من الاستيلاء على تجارة الجملة كلها فى أرض مصر . وليعلم هؤلاء أن هذه الفئة القليلة من يهود قد استطاعت فى زمن الحرب أن تتغلغل فى نواح كثيرة من أعمال لم يكن ليهود مصر بها عهد . وما من شىء من هذا كله إلا وهم يأتونه على هدى وبصيرة وتدبير محكم ، ناظرين إلى شىء واحد ، هو أن الدولة اليهودية سوف تكون فى فلسطين ، وأنهم يومئذ مطالبون بأشياء يؤدونها لدولتهم ، وهى أشياء مفهومة معروفة ، الغرض منها أن تخفق راية يهود على هذه البقعة من الأرض ممتدة من شاطئ الفرات إلى ضفاف النيل .

أيها الناس لا تستهينوا بأمر يهود ! انظروا ماذا كان من أمرهم منذ عشرين سنة ، ثم انظروا إلى خبرهم اليوم ، من كان يظن أن لليهود شأنًا أو خطرًا فى هذه الدنيا منذ عشرين سنة ، إلا من هدى الله ؟ ثم انظروا اليوم إلى هذه الفئة القليلة من سكان هذه الأرض كيف استطاعت أن تغلب على عقول الأمم والساسة ، وأن تغطى على الحق وهو مشرق كعين الشمس ، وأن تدفع أكبر دولة فى الأرض وهى أمريكا إلى ارتكاب أبشع جريمة فى تاريخ الإنسانية ، وأن تدلس على الرأى العالمى كله حقائق هذه الجريمة ، وأن تشترى بأموالها القلوب والأمم والناس والأفراد . انظروا إلى هذا كله قبل أن تتكلموا ، واتقوا غضب الله قبل أن تزل ألسنتكم بالوعظ المهلك لأنفسكم وأهليكم .

ألا تخافون أن تكون هذه القوة المدمرة التى ذكرتموها فى ندائكم – قوة أصحاب الملايين – وسيلة لتسلط يهود يومًا ما على ساستكم ورجالكم وحكوماتكم ، وأن تكون تهديدًا لكم ولأممكم بالمجاعات والاضطرابات

---

(١) الأَمَد : الغاية والمقصد .

الاقتصادية والسياسية ، وأن تكون أسلوبًا من أساليب تأليب الأمم عليكم فى هذه المحنة حتى تعطوا المقادة ليهود وأنتم صاغرون ؟ أيها الساسة لا تستهينوا ، فمن استهان بعدوه فقد فرط ، ومن استهان بعدوه فقد مكنه من مقاتله ، ومن استهان بعدوه فقد منحه فرصة للفتك به .

واعلموا أنها الحرب بيننا وبين يهود . والحرب لا تلهو . وهذه الفئات التى تقيم فى أوطان العرب من اليهود سوف تكون يومًا ما « طابورًا خامسًا » ، بل هى اليوم كذلك . واعلموا أن اليهود قد مرنوا على أساليب التجسس وتحسس الأخبار فى هذه الحرب ، وأنهم كانوا أعوانا للأمم المقاتلة فى حرب الأعصاب ، وأنهم قوم مردوا على النفاق منذ قديم الآزال ، فكيف تأمنون جانبهم ، وتطالبون قومكم أن يأمنوا جانبهم ؟

ثم أراكم تدعون يهود للتبرع بأموالها فى سبيل قضية العرب ، بل أن يبذلوا أموالهم لتقاتلوا بها أهلهم وعشيرتهم ، فبئس الشىء تطلبون . إن أول ما فى هذا الجهل بالطبيعة البشرية ، ثم غاية الجهل بطبيعة هذه الفئة من يهود التى ظلت أكثر من ألفى سنة تنطوى على نفسها ، وتحافظ على روابطها ، وتجعل دينها هو قوميتها ووطنها ، لا وطن لها ولا قومية إلا اليهودية صرفًا خالصة لا تشوبها شائبة من محبة وطن له أرض وسماء ، إلا أرض الميعاد - إلا فلسطين - إلا أرض إسرائيل من شاطئ الفرات إلى ضفاف النيل .

ثم ألا تخافون أن يتبرع لكم هؤلاء اليهود بآلاف من أموالهم أو أموالنا على الأصح ، يخادعونكم بها ثم يهربون إلى قومهم الملايين ، يعينون بها عليكم ، ويكسبون بها غفلتكم عنهم وعن حركاتهم وأعمالهم ودسائسهم فى قلب بلادكم ؟

أيها الساسة اطلبوا سياسة أخرى غير هذه تكفيكم شر يهود . إننا لا نريد منهم مالا ، ولا نريد منهم حبًا للأوطان التى أظلتهم وحمتهم ، ولا نريد منهم رجالا يقاتلون فى صفوفنا ، وإن ديننا لينهانا عن أن نقبل منهم شيئًا ، اطلبوا أيها الناس سياسة أخرى تضمن لكم أن تعرفوا خبء يهود ، وأن تصطنعوا من الأسباب ما يكفل لكم قطع أيديهم وألسنتهم عن التدسس والتجسس والمكيدة والغدر . لا تأمروا الناس بالفتك بهم ، بل نحن العرب نحمى الذمار حتى عدونا نحمى ذماره ، ولكن دبروا

أمركم وسنوا من القوانين ما ينهى يهود الأوطان العربية عن الغدر بهذه الأوطان التى حمتهم وهم مشردون مضطهدون قد مزقهم الناس كل ممزق .

إن العالم العربى اليوم قد استيقظ من غفوة طالت ، وهو اليوم لا يسمع للساسة القدماء إلا كما يستمع المقاتل البطل إلى صيحات الجبان المذعور ، فليعلم هؤلاء أنه أولى بهم أن يمنحوا الشباب من حكمتهم وتجاريبهم وعقلهم ما يهديهم ويقويهم ، لا أن يعظوهم بالمواعظ التى تحفر تحت أقدامهم هوة مظلمة بعيدة القعر ليس يسمع فى أرجائها إلا هماهم الموت وهو يدب والغًا فى دم أو منشبًا مخالبه فى فريسة . ارحموا الناس وارحموا أنفسكم أيها الرجال .

* * *

ويحكم هبُّوا !

أيتها العرب !

أيها المسلمون !

إنكم لا تُغْلَبون اليوم عن قلة ، ولئن كتب الله عليكم أن تُغْلَبوا فإنما تغلبون بإثم ما اقترفت نفوسكم ، وما اجترحت أيديكم ، وما فرطت عقولكم ، وما نسيت قلوبكم ، وما أضعتم من حق تؤدونه لأنفسكم وأسلافكم وذريتكم ، ووالله ما أراكم تغلبون عن جهالة ، فقد وهبكم الله عقولا راجحة ، ونفوسًا حرة ، وعزائم قد أذلت لكم أعناق الأمم منذ كان لكم فى الأرض شأن يذكر .

وإن الله مبتليكم بمحنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة ، بل هى محنة لعامتكم وخاصتكم فى نواحى الأرض ، فإن أحكمتم الرأى وصدقتم العزم ، وعرفتم عدوكم من صديقكم - ولا أرى لكم فى هذه الدنيا صديقًا - فقد آن لكم أن تنهجوا للبشرية منهجًا مستقيما وصراطًا سويًّا . فلا تقولوا إنما نحن ضعفاء ، فالضعيف من ظن فى نفسه الضعف وإن كان أقوى الأقوياء ، ولا تقولوا إنما نحن جهلاء ، فالجاهل من استهزأ بالعلم وتهاون فى طلبه وإن كان أعلم العلماء ، ولا تقولوا إنما نحن فقراء ، فالفقير من جهل أن الله قد آتاه العزم والجلد والعقل ، وإن كان أغنى الأغنياء . فاصدقوا أنفسكم وثقوا بالله الذى امتحنكم بهذه المحنة ، فإنه ناصركم على عدوكم ، ومخرج لكم من خبء أنفسكم خيرًا كثيرًا قد غاب عنكم وعن الناس دهرًا طويلا . وإياكم والخوف ، فإنه الآفَةُ الملتهمة ، وما استشعر الخوف عزيز إلا ذَلَّ ، ولا قَوِىٌّ إلا خار ، ولا أَبِىٌّ إلا تضرع لكل خسف يراد به .

انظروا ! فهذه فلسطين قد اجتمعت الأمم على أن تمكن فيها لأنذال يهود مكانًا يتبوأه طغاة المال وطواغيت الفجور وأبالسة الشر ، وقد أخذوا يمدونهم بالمال والسلاح ليقهروكم وتكون لهم الكبرياء فى هذه الأرض .

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٥٧) ، يناير ١٩٤٨ ، ص : ٢١ - ٢٣

وانظروا ! فهذه دولة الباكستان قد اجتمعت فيها كلمة المسلمين على أن يكونوا أمة عدتها مئة مليون ، فإذا عباد البُدِّ [١] (بوذا) قد دمروا عليهم من كل مكان يذبحونهم ويقتلونهم ويفتكون بالنساء والأطفال ، ويهتكون أعراض الحرائر ، ويدخلون على المصلين فى مساجدهم فيضعون السيوف فى رقابهم والخناجر فى ظهورهم ، ويغتالون الآلاف من الآمنين ، والدنيا كلها تسمع وتبصر ، فلا تجد فيهم منكرًا ولا مستبشعًا ولا معترضًا على ضراوة عباد البُدّ .

وانظروا ! فهذه أندونيسيا تُجْمِع هيئة الأمم المتحدة على تركها فريسة للطغاة البغاة من شرذمة الخلق الذين يسمون بالهولنديين . ويزعمون لكم أن مجلس الأمن قد أمر بوقف القتال ، فإذا هولندة تضرب صفحًا عن حكم هذا المجلس ، وتوغل فى تقتيل هؤلاء المساكين بالنذالة المعهودة فى المستعمرين الذين لا يفرقون شيئًا بين هؤلاء البشر وحيوان الغاب ، بل لعلهم بحيوان الغاب أرحم ، وعليه أحرص ، إبقاء على جلده أو فروه مما يرتفقون [٢] به فى صناعة أو تجارة .

وانظروا ! هذه بلاد المغرب من حدود مصر إلى أطراف المغرب الأقصى قد ضربت عليها فرنسا بالأسداد ، وحمت عنها كل بارقة من خير ، وسامت أهلها عذاب التقتيل والاضطهاد ، وسلبتهم كل قوة تتيح لهؤلاء الأبطال الصناديد أن يعيشوا فى بلادهم عيشة الكفاف ، وشردت كل من دعا قومه إلى المطالبة بالحق المغصوب ، وأراغت [٣] أن تجعل هذه البلاد الشريفة ذيلا ملحقًا بالجمهورية الفرنسية .

وانظروا فهذه مصر والسودان قد فغر لها الوحش البريطانى فاهُ يريد أن يقضم السودان قضمة واحدة ليجعله قطعة من أوغندة وجنوب إفريقية ، ويدع مصر ترعة إن شاء منع عنها الماء حتى يقتل أهلها جوعًا وظمأ ، وقد قضى فى ديارنا أكثر من خمس وستين سنة حتى هدم كيانها . وسلط عليها لصوص الأجانب واليهود ،

---

(١) البُدُّ : الصَّنَم .

(٢) يَرْتفِقُون : يَنْتَفِعُون .

(٣) أراغت : طلبت .

حتى ما تكاد تجد مصر حيلة فى سن القوانين التى تحمى بلادها من استبداد اللص الطارئ بصاحب البلد المقيم .

انظروا لكل بلد تنطق فيه العربية ، أو يذكر فيها اسم الله مقرونًا باسم محمد ﷺ ، تروا حربًا تشن على أهل العربية والإسلام بلا هوادة ، وبأوقح الأساليب وأخفاها :

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

إنها الحرب . إنها المذابح ! إنها الحالقة [١] التى أجمعت أمم أوربة وأمريكا أن تستأصل بها قوتكم وتجعلكم عبيدًا أذلاء فى أرض الله . إنها الفتن المظلمة التى أطبقت عليكم من كل مكان ، فجعلت فيكم رجالا ونساء وخلقًا كثيرًا صاروا عدوًّا لأنفسهم وبلادهم وإخوانهم ، جهلا وعنادًا وتقليدًا وسوء رأى .

إنه لم يبتل قوم فى تاريخ هذه الدنيا بمثل ما ابتليتم به ، فقد مضت القرون وأنتم فى غفلة عن عدو قد استفحل أمره واستوت قوته واستمر مريره [٢] ، فدخل عليكم بلادكم فاستعبدكم فيها وحاربكم بعلمه وجهلكم ، وقوته وضعفكم ، واجتماع كلمته وتخاذلكم ، فلما أفقتم من الغفوات الطويلة لم تجدوا فى أيديكم مالًا ولا سلاحًا ولا علمًا ، فليس لكم منذ اليوم إلا الشىء الذى هو أقوى من المال والسلاح والعلم : الإيمان بحقكم ، والصبر على لأواء هذه الحرب الضروس . فآمنوا واصبروا ، فإن قوة الإيمان وحدها تدمر حصون البغى ، وتدفعكم إلى طلب المال والسلاح والعلم ، وتطهر قلوبكم من كل ضعف ، ولا تأسوا على قتيل فى هذه الحرب ، فإن كل دم يراق من دمائكم إنما هو غيث تغاثون به يغسل عنكم أدرانكم ، ويسقى ثرى جف ، فينبت لكم أبطال الوغى وصناديد القتال فى كل ميدان من ميادين هذه الحرب .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

اطلبوا المال من وجوهه ، ودبروا أمركم فى حياتكم ، فإن المال قوة غاشمة

---

(١) الحالقة : المُهْلِكة .

(٢) استمر مريره : استحكمت قوته ، وأصله من إمرار الحَبْل ، وهو فَتْلُه فتلا محكما .

تضارع أقوى قوى الطبيعة التى لا يقف دونها شىء . واطلبوا السلاح من حيث استطعتم ، فإن السلاح ناصر من لا ناصر له إلّا قوته فأنشئوا المصانع والمعامل وأخفوا أمركم حتى لا يطلع عليه العدو الذى يعيش بين ظهرانيكم من الأجانب واليهود . واطلبوا العلم حيث استطعتم ، فالعلم حياة ابن آدم ، لا حياة له بدونه ، وهو عون المال والسلاح والحافظ عليهما والقائم بأمرهما . وكل طالب علم فهو مجاهد فى سبيل الله وفى سبيل أهله وبلاده ، فلا تفتروا عن طلبه . وليعلم كل طالب عِلْم أو مال أو سلاح أنه إنما يفعل ذلك لأمرين : أولهما تحقيق معنى الكرامة الإنسانية ، والآخر تحقيق الحرية لبلاده وأمته .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

لست أكتب لكم لتقرأوا ، ولكنى أنذر قومى فى ساعة لا ينبغى للمرء فيها إلا أن يصدق أهله . أنذركم بعداوة الأمم لكم ولمجدكم وتاريخكم ، فربّوا لهم أضغانكم وغذوها وحوطوها ونشئوا صغاركم على بغض هذه الأمم التى حشدت لكم عصبية الجاهلية ، وعصبية الصليبية ، وعصبية الاستعمار ، وعصبية الألوان . أرضعوا كل مولود لبان الأضغان والأحقاد على هؤلاء الطغاة ، وأمروهم أن يعيشوا فى هذه الأرض لشىء واحد هو أن يقاتلوا أهل البغى والعصبية حتى تستأصلوا هذه الشأفة الخبيثة من أرض الله التى أورثهم إياها قائمين بالقسط والعدل والرحمة وإيتاء كل ذى حق حقه . وإنه لا ينجيكم من هذه البلية إلا أن تتمرسوا بصدق العداوة ، فهى التى توقظ فيكم كل عزيمة غافلة ، وتهديكم إلى مواطن الضعف فى نفوسكم ، وإلى مكامن الغدر فى نفوس أعدائكم ، ومن جهل مواطن الضعف فى نفسه كان خليقًا أن يصاب منها ، ومن عمى عن مكامن الغدر فى نفس عدوه كان قمينًا أن يرتكس [(١)] فى مهاويها . لقد فضح الصبح أعداءكم وأضاء لكم عن خبايا قلوبهم ، فلا يكن أمركم عليكم غمة ، فأنتم بين اثنتين : إما المكاشفة بالعداوة السافرة فى غير مداورة أو سياسة ، وإما أنْ ترضوا لأنفسكم أن تصيروا

(١) يرتكس : يَرْتَدّ .

طعمة لهذه الأمم الباغية على الشرذمة اللئيمة من إسرائيل . وما أظنكم ترتضون الثانية فليس لكم إلا الأولى .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

لقد انقضت دهور وأنتم تساقون إلى قدر لا يعلم غيبه إلا الله ، فاستبد بكم قوم أولى ضرار وبأس شديد ، فأفسدوا قلوب جمهرة من أبنائكم وذراريكم ، فنشأت تحت ظلال هؤلاء الطغاة ناشئة من أنفسكم تعاظم أمرها ، وصار لها فيكم مكانة تتبوأها . وكل ذى مكانة أو سلطان أو ثروة فهو مليئ بأن يخدع الجماهير وهم أسرع إلى طاعته ومتابعته فيما يخدعهم به ، فاحرصوا على ألَّا تتبعوا الرجال على أسمائها بل اتبعوا الهدى وإن جاءكم على يد المحتاج الراغب ، وتبينوا المدلس عليكم من الناصح لكم . ولا تقولوا هؤلاء سادتنا وكبراؤنا ، فما أضل البشر إلا سادتهم وكبراؤهم . ولا ترددوا إن رأيتم معوجًا أن تقوموه مهما بلغ من الشأن ، فإن تقويمكم إياه أبقى له وأجدى عليه . ولا تخروا على آراء السادة والكبراء صُما وعميانًا ، بل اسمعوا نبضات القلوب ، فرب لسان ينطق بالخير وهو ينبض بما فيه فسادكم وفساد أمر بلادكم . وأبصروا وتبصروا ، فإنه لا يعطى المقادة إلا السائمة التى تقودها عصا الراعى لا العقل والإدراك . احملوا سادتكم وكبراءكم على وضح الصراط ، فكل ضال منهم سوف يضل خلقًا منكم كثيرًا ويورده موارد الهلاك .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

إنها ساعة فى تاريخكم ليس بعدها إلا النصر أو الهزيمة ، وكل امرئ منكم يحمل تبعة لا يسقطها عنه عذر ، ولا يعذره فى أداء حقها شيء . وأنتم أربعمائة مليون نسمة لا عصابة قليلة فى الأرض ، فإن كنتم صفًّا واحدًا وبنيانًا مرصوصًا ، فاعلموا أنه لن يغلبكم شيء ، ولن تهد هذا البنيان قوة مهما بلغت على ظهر هذه الأرض ، فتماسكوا وتقاربوا وتعاونوا ، ولا تدعوا ثغرة يدخل منها عليكم عدوكم لينقض هذا البنيان الذى بناه آباؤكم وأسلافكم فى آلاف السنين ، وأنتم الأعلون إن شاء الله ، وليهود الذلة والمسكنة مضروبة عليهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أيتها العرب ! أيها المسلمون !

لا تهابوا أهل العصبية الصليبية فى أمريكا وأوربة ، ولا تثقوا بأحد منهم ، ولا تهادنوهم فى حقكم ، ولا تناصروهم كما ناصرتموهم من قبل فغدروا بكم وتألبوا عليكم وامتهنوكم وقابلوا حقكم بالازدراء ، والتحقير فى هيئة الأمم المتحدة ، وأنكروا كل يد أسديتموها إليهم ، ومزقوا أوطانكم ، وسلطوا عليكم فواجر أممهم ، وأرادوا أن يدمروا أوطانكم ، وأن ينشئوا لجراثيم اليهود وكرًا خبيثًا فى الأرض المقدسة فى سرارة [1] بلادكم . فإن فعلتم فيومئذ يعلم هؤلاء الأخباث والأشرار أن العرب وأهل الإسلام وأهل دين المسيح فى الشرق ، كلهم على قلب رجل واحد يريدون أن يقيموا فى هذه الأرض شريعة الإنسان العادل لا شريعة الوحش الضارى فى ظلمات الأدغال والغابات .

ياساسة العرب !

إياكم وخداع الناس ، ولا تخادعوا ربكم الرقيب عليكم ، فيوشك أن يحل عليكم غضب من ربكم ثم غضب الناس عليكم ، ولا تبيعوا تاريخكم وتاريخ آبائكم وذريتكم بعرض زائل ومجد مزيف ، واعلموا أن قومكم قد ثاروا من مضاجعهم ليطلبوا حقهم بحد السيف ، فلا تكونوا مخذلين ولا واعظين ولا متهاونين . واعلموا أنها الحرب ! شذاذ الأمم وصعاليك اليهود بين ظهرانيكم ، والبغاة الطغاة عن أيمانكم وعن شمائلكم يلتمسون الفرصة ليمحقوا العرب والمسلمين ويطحنوهم طحنًا .

فهبوا جميعًا إلى الجهاد فمن نجا فقد فاز بالنصر وبرضوان الله عليه ، ومن قتل فقد فاز بالشهادة وجنة الخلد والذكر الذى لا يفنى . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .

* * *

---

(١) سَرارَة الشىء : أكرمه وخياره .

لا تَملُّوا

شدَّ ما فزعتُ حين قرأتُ فى صدر الأهرام (الاثنين ٥ يناير ١٩٤٨) نبأ تلك المحاولة الجديدة للتوفيق بين فرنسا والمغرب (أى مراكش) . وقد آثر الموحى بهذا المقال أن يسمى هذا الأمر « محاولة جديدة » ولكنى أعلم أنها ليست سوى « حيلة » أخشى أن تغرر بكثير من قراء العربية ، لقلة اطلاعهم على أنباء هذا الشعب الأبى السجين الذى ضربت عليه فرنسا نطاقًا من الكتمان والصمت ، لم يضرب على شعب قط فى هذه الدنيا ، ولا فى بلاد السوفيت . وأنا أحب أن أكشف الغطاء عن هذه « الحيلة » التى يُرادُ بها تضليل الناس عن حقائق كالشمس ظاهرة لكل من متعه الله بنعمة البصر . وأحب أن أصفى [1] هذا الكلام لقرَّاء « الرسالة » لأنهم همُ الفئة الحية التى تقرأ لتعلم وتعمل بما تعلم .

فهذا الشيء الذى سماهُ بعضهم « محاولة جديدة للتوفيق بين فرنسا والمغرب » ، ليس شيئًا سوى محاولة من فرد واحد يعاونه قليلٌ من الناس على إحداث خرق فى إجماع أمة كاملة ، وصدع بنيان مرصوص لم أعلم فيه إلا خيرًا وتماسكا وبقاء على كلمة الحق التى لا تزول ، وهى « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » إن كان ثمة حاجة إلى مفاوضة أو معاهدة .

وبلاد المغرب ثلاثة : تونس ، والجزائر ، ومراكش ، وفى كل قطر من هذه الأقطار الثلاثة حزبٌ له الكثرة الساحقة ، بل لا يكادُ يوجد فيه أقلية حتى نقول إن لهذا الحزب كثرة ساحقة ، بل الحزبُ هو الأمة ، وهو التعبير الصادق عنها . وهذه الأحزابُ لا يمكن أن تسمى أحزابًا بالمعنى المعروف فى مصر والذى كان وليد الاحتلال البريطانى الذى فرَّق الكلمة وباغض بين القلوب .

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٥٨) ، يناير ١٩٤٨ ، ص : ٤٥ - ٤٨

(١) أصفيتُهُ الودَّ : أخلصته مما يكدره ويهجنه .

ففى تونس الحزبُ الدستورى ، ورئيسه الحبيب بورقيبة . وفى الجزائر حزبُ الشعب ، ورئيسه أحمد مصالى الحاج ، ومندوبه فى مصر والسودان هو الشاذلى المكى . وفى مراكش حزبُ الاستقلال ورئيسه محمد علال الفاسى . وفى المنطقة الخليفية عن مراكش حزبُ الإصلاح ورئيسه عبد الخالق الطريس . وهذه الأحزابُ هى المعبرة عن بلاد المغرب كلها ، ورؤساؤها جميعًا مقيمون الآن فى مصر ، وجميعهم على رأى واحد قد أذاعوه فى كل وقت وفى كل بلد ، وهو « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » وهم جميعًا لا يزالون إلى هذه الساعة على هذا الرأى لم يتحوَّل عنه أحدٌ منهم ، ولن يتحوَّل بإذن الله . وإجماعُ هؤلاء الرجال هو إجماع أمم المغرب كلها ، شعوبًا وأفرادًا . وهؤلاء الرجال هم الذين شرَّدتهم فرنسا أو إسبانيا وَسجنتهم ونفتهمْ واضطهدتهم ، وباعدَت بينهم وبين أهليهم وحلائلهم وأبنائهم ، وأرادت أن تقصم أعوادهم فلم تجد إلا بأسًا ومضاءً ومصابرة وجهادًا فى سبيل الحق الأول لكل شعب وهو الحرية والاستقلال . وهؤلاء الرجال هم الذين بقوا إلى اليوم لا ينخدعون بما انخدعت به أمم من قبلهم من مفاوضات ومعاهدات ومحادثات ، وسياسات خربة خراب ذمم اليهود . ومن هؤلاء الرجال وحدهم يؤخذ حديث ما بين فرنسا والمغرب ، وعلى هؤلاء الرجال وحدهم يعتمد ، وإلى هؤلاء الرجال وحدهم تُلْقِى شعوب تونس والجزائر ومراكش بالمقادة ، بعد أن جرَّبتهم وعرَفتهم واطمأن قلبها إليهم وإلى ما يأتون وما يذرون . وهم قوم لا يفتات عليهم ، ولا يقضى على شعوبهم وهم غُيَّب . وهم رجال يعملون ولا يدَّعون ولا يتظاهرون ،ولا يخادعون الناس بشىء لم يكن ، أو بسلطان لهم لم ترضه بلادهم وشعوبهم ، وهم قائمون على الدعوة إلى تحرير بلادهم ، ولهم مكاتب فى مصر والشام ، وفى فرنسا وإنجلترا وأمريكا ، لم تزل تتكلم بالكلمة الواحدة التى لا حِوَلَ عنها وهى : « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » .

فما هو إذن « حزبُ الشورى والاستقلال » الذى اتخذ لنفسه رئاسته محمد ابن الحسن الوزانى هداه الله ، واحتمل ثقل النيابة عنه محمد العلمى العربى سدَّد الله خطاه ، إنه حزب كما تسمى الأحزاب ، ولكنى أعلم ويعلم كل من وقف

على حقيقة النبأ فى بلاد المغرب ، أنه حزب لا يتبعه من شعب مرّاكش أحد إلا من شذ عن إجماع أمة قد جاهدت منذ سنة ١٩١٢ وظلت تقاتل فرنسا وإسبانيا إلى سنة ١٩٣٣ ، لم تضع السلاح إلا بعد أن فنيت صفوة المجاهدين ، وقلَّ الزاد وعزَّ السلاح وحوصروا حصارًا شديدًا أكثر من إحدى وعشرين سنة كاملة .

وما أظن أحدًا نسي جهاد البطل الذى أذلَّ هامات الإسبان والفرنسيس حتى خدعوه وأمّنوه ثم غدروا به ، وهو الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى .

إن هذا الحزب الذى قدَّم إلى المقيم الفرنسى الباغى الجنرال جوان « مذكرة ضافية لتعمل حكومة باريس على تحقيق ما ورد فيها بما يحفظ حسن العلاقات مع فرنسا » لا يعبر البتة عن عزيمة شعب مراكش ، بل يعبر عن رأى رئيس الحزب ونائبه وحدهما . فنحنُ نعلم علم اليقين أن حزب الاستقلال ، وحزب الإصلاح فى مراكش ، هما صاحبا الرأى الأول والأخير فى هذا الأمر الذى يتعلق بإجماع الشعب المراكشى ، وأن الأمة المراكشية كلها من وراء كلمتها : « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » ، ونحن نعلم أن جلالة محمد الخامس ملك مراكش يعلم أن الشعب مجمع على أن لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال ، وأنه هو نفسه الذى يتولى قيادة الدعوة إلى أن لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال .

وقد استطاع نائب حزب الشورى هذا ، أعنى الأستاذ العلمى أن يوجه نظر الصحافة المصرية إلى هذه البدعة التى مضت عليها شهور منذ قام محمد بن الحسن الوزانى داعيًا إلى الاتفاق مع فرنسا أو على الأصح مظهرًا رغبته فى الاتفاق مع فرنسا ، بعد ابتعاده عن حزبه الذى نشأ فيه ، وهو حزبُ الاستقلال الذى يرأسه محمد علال الفاسى . وقد نجح الأستاذ العلمى مرتين ، ولكن هذه الأخيرة هى أشدهما خطرًا . ولو علمت الصحافة المصرية أن شأن حزب الشورى الذى ذكرناه ، لا يكاد يكون شيئًا فى بلاد مراكش ، لطوت هذه الصحيفة مرة واحدة ، ولرجعت حديثها عن شأن مراكش إلى رؤساء حزب الاستقلال وحزب الإصلاح وسائر الأحزاب المغربية فى تونس والجزائر ، ولو فعلت لعلمت أن هذه « المحاولة الجديدة » ليست سوى محاولة رجل زعيم حزب ، نعم ، ولكن بغير شعب .

وكان حقًّا على هذه الصحف المصرية أن ترجع إلى مكتب المغرب العربى لتقف منه على حقيقة ما تقول . وكان حقًّا عليها أن تعتبر هذا الحزب بأشباهه عندنا من الأحزاب التى لا شعب لها إلا رئيسها ، وكان حقًّا على هذه الصحف أن تعرف أن سائر رؤساء أحزاب المغرب مقيمون فى مصر منفيون عن بلادهم فكان لزامًا أن ترجع إليهم قبل أن تنشر أشياء تمزق أصحاب الحق على أن لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال . وكان حقًّا عليها أيضًا ، إذ نسيت أن تفعل هذا ، أن تفكر فى شأن حزب الشورى المفاوض الجديد ، فهو مقيم تحت ظل السلطان الفرنسى هناك فى مراكش ، وهؤلاء سائر رؤساء الأحزاب المغربية مشردون منفيون مهاجرون إلى مصر ، لكى يخدموا بلادهم ويجاهدوا فى سبيلها وهم بنجوة من سلطان فرنسا فأى هذين أولى بأن يكون هو المطالب بحق بلاده ؟ وأيهما أولى بأن يؤذن له ويُستمع ؟ وأيهما أصدق تعبيرًا عن رغبة الشعب الذى ظل إحدى وعشرين سنة يقاتل فى كل بقعة من بقاع المغرب وحيدًا مجهولا حتى تفانى شيوخه وهلك كهوله وذُبِحوا ذَبْحَ فتيانه ، وورَّثوا أبناءهم أحقادًا لا تموت على فرنسا وعلى الطغاة من أشباهها .

وهؤلاء الزعماء الذين ذكرناهم آنفًا هم بقية السيف ، وهم المشردون المعذبون ، وهم العاملون الصادقون الذين آثروا الجهاد على أموالهم وأنفسهم وأهليهم وذراريهم ، وخرجوا يطوفون فى الدنيا ليؤلبوا العالم كله على بغى فرنسا وطغيانها وعدوانها وظلمها ، وقد تركوا وراءهم شعوبًا تدين لهم بالطاعة ، ولا ترضى أن تدين لأحد سواهم ، لأنهم إنما يعبرون عن سر عزائمها ونياتها ، أى عن الجهاد فى سبيل بلادهم بلا هوادة ، وإلى أن ينالوا حقهم كاملا لم تتخوَّنه [١] مكايد الاستعمار وخُدعه . وقد اتعظ هؤلاء الأبطال الصناديد بما لقى بعض إخوانهم من أمم الشرق ، حين زلقَت أقدامهم فزلوا فى المهاوى المظلمة المتشعبة التى تسل القوى من نفس سالكها ، ألا وهى هوّة المفاوضات والمعاهدات والمحادثات ، التى ابتدعتها شياطين الاستعمار الذين يعرفون باسم ساسة بريطانيا ، ففرقوا بين الأخوين ، وباعدوا بين العشيرتين ، ومدوا المطامع لخائنة الأعين ، [٢]

---

(١) تخوّنه : تنقّصه .

(٢) خائنة الأَعْيُنِ : ما تُسارِق من النظر إلى ما لا يَحِلّ .

فهب فريق من هنا يقاتل فريقًا من أهله هناك ، ووقفت بريطانيا بينهما تنظر وتضحك وتسخر ، وتحرك هذه الدمى إلى أن تنقطع الحبال فتهوى فى الهوة السحيقة الملعونة ، هوّة المفاوضات والمعاهدات والمحادثات . لقد عرفوا ذلك فأبوا أن يكونوا طعامًا لمستعمر جبّار يريد أن يتلعّب بهم ، فاختاروا ما هو أهدى لأممهم وأبقى فى وحدتها ، وأشد لقوتها ، وأنأى بها عن العداوات بين بعض الشعب وبعض . لقد عرفوا أن قيادة الثُّوار ، تقضى عليهم أن ينظروا إلى خير هؤلاء الثُّوّار قبل أن ينظروا إلى خير أنفسهم ، وعرفوا أن الذى هم مقدمون عليه هو الجهاد الذى لا ينتهى حتى ينتهى هذا الاستعمار البغيض ، وأن الأمم المجاهدة فى سبيل حقها ينبغى أن تظل مجاهدة حتى تنال حقها ، وأنه ينبغى أن ينشأ الجيل من شباب الأمة بعد الجيل ، وهو يرى أمامه مجاهدين لا يفترون ولا يضعون السلاح ، فذلك أحرى أن يملأ قلب الجيل حميّة وأنفة ورغبة فى بلوغ الكمال فى العلم والمال والسلاح ، حتى يجاهدوا كما جاهد آباؤهم وإخوانهم من قبل . وعرفوا أن المهادنة فى مثل هذا إنما هى مهادنة تورث الشعب ضعفًا ، وتمكن للدساسين والخبثاء أن يتخافتوا بينهم فى الدعوة إلى ما يفت القوى ويضعضع العزائم ، فلا يلبث أن ينفض عن المجاهدين من تخاذل وآثر الراحة على لأواء الجهاد . وعرفوا أيضًا أن الشعب الثائر غير الشعب الذى يتبحبح فى مسارح السلم ، فأولهما ينبغى أن يظل ثائرًا لا يعرف اللين أو التسليم أو الأخذ بيد والإعطاء بالأخرى . وفيم يلين أو يسلم أو يأخذ بيد ويعطى بأخرى ؟ أفى الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية ؟ أنبئونى أى شىء من هذه الثلاثة يتجزَّأ حتى يقبل اللين أو التسليم أو الأخذ بيد والإعطاء بأخرى ، وهو جوهر المفاوضات والمعاهدات والمحادثات .

لقد عرف هؤلاء النفر الذين رضى الله عنهم ورضيت عنهم أممهم ، أن الذى بينهم وبين فرنسا هو الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية ، فعلى فرنسا أن تسلم وأن تلين وأن تعطى بيد ولا تأخذ شيئًا ، لأنها لن تأخذ إذا أخذت إلا ذلك الذى أعطت . وهذا بداهة العقل ، وبداهة النفس الطيبة ، وبداهة الفطرة الإنسانية التى لا تنخدع بزيف الكلام ومزوَّقه . إما الحرية والاستقلال ، وإما الصراع فى سبيل الحرية والاستقلال ، ولا مفاوضة على شىء ينبغى أن يتم جميعًا أو لا يتم البتة على

نقصان وتخوُّن وتمزيق ، ولا معاهدة لحرّ على ترك شيء من حريته لغاصبه وسالبه والمهيمن عليه بالطغيان والجبروت ، فهو إن شاء منع وإن شاء أعطى .

كلا ، إنه الحق فلا معاهدة ولا مفاوضة ولا محادثة إلا بعد الاستقلال وجلاء آخر جندى فرنسى وإسبانى عن أرض المغرب كله : تونس والجزائر ومراكش . وإن فى البلاء الذى ابتليت به مصر والسودان والعراق وشرق الأردن وسواها من البلاد ، لعظة لكل امرئ أضاء فى قلبه الإيمان بالحرية والكرامة الإنسانية .

وما الذى يريده حزب الشورى الجديد فى مراكش ؟ أيريد أن تلقى بلاد المغرب على يده ما لقينا من بلبلة وضياع وهلاك وضعف ؟ أيريد أن يرى الشعب المراكشى أحزابًا يأكل بعضها بعضا ، ويتشاحن ضعيفها وقويها على مناصب الحكم ؟ أيريد أن يرى كل أسرة فى بلاد المغرب قد مزقتها الأهواء وعصفت بها عواصف الشهوات الخفية إلى متاع قليل من متاع هذه الدنيا من مال أو سلطان ؟ أيريد أن يرى الشعب يتلهف تلهف البائس المسكين على فتات ما تجود به عليه فرنسا فى معاهدة يقال له اليوم إنها « معاهدة الشرف والاستقلال » ثم يقال له بعد غد إن هذه المعاهدة نفسها « حماية بالثلث » ؟ أيريد أن يرى بعد قليل شباب بلاده وهم يتطاحنون على أسماء رجال لو انكشف الغطاء عنهم لكانوا سوأة فى كيان الشعب لو عقل لسترها كما كان يئد أهل الجاهلية بناتهم خشية الخزى والعار ؟ أم يريد أن يرى هؤلاء الشباب وهم لا يثقون بأحد من رجالهم بعد كشف الغطاء عن فضائحهم ، فيكونون حربًا على بلادهم يطعنون أنفسهم كل طعنة نجلاء بقولهم : « إننا شعب لا يصلح للاستقلال » ؟ أيريد هذا الشعب الذى لقيته أمم من قبلهم فاوضت وحادثت وعاهدت ، فخرجت من ذلك كله منهوكة مجرحة معذبة تمتهن أشرف شرفها بأخس قول وأرذله ؟ ..

حاشا لله أن يريد حزب الشورى لبلاده مثل هذا . وأنا أعرف الوزّانى منذ أكثر من عشرين سنة ، فأنا أسأله بالعهد الوثيق أن يفىء إلى ما فيه مرضاة الله ، وما فيه خير بلاده وخير أمته ، وأن يدع فرنسا بشرِّ النظرين [1] ، لا يقربها إلا

---

(١) بشر النَّظَرَيْن : أى بشر الأمرين فى الاختيار . وفى الحديث « مَن ابتاع مُصَرَّاة فهو بخير النَّظَرَيْن » ، أى خير الأمرين له ، إما إمساك المبيع أو ردُّه ، أيهما كان خيرا له واختاره فَعَله .

مقاتلا مجاهدًا رافعًا باسم بلاده وحريتها واستقلالها وكرامتها . وماخُلق الإنسان إلا للجهاد فى هذه الحياة حرًا كريمًا ، فإذا سلب الحرية وذيد عن الكرامة ، فعليه أن يجاهد فى سبيلهما جهادًا متطاولًا هو وأبناؤه وذراريه لا تداخلهم سآمة ولا ضجر ولا ملل مستعينًا بالله الذى ينصر المستضعفين فى الأرض وينصر الذين لم يملوا الجهاد فيلجأوا إلى المهادنة أو المفاوضة .

أيها الإخوان الصناديد ! جاهدوا وصابروا ورابطوا ولا تملوا حتى يأتيكم نصر الله ، ولا تعجلوا على ربكم فإن الله لا يمل حتى تملوا ، فإذا مللتم فيومئذ يحيق بكم ما حاق بكل من هادن فى حقوق بلاده .

* * *

كلمة أخرى

قرأت كلمة الأستاذ محمد العربى العلمى فى عدد الرسالة (٧٥٩) يردّ على ما كتبته فى قضية الاستقلال الذى تطالب به بلاد المغرب ، ومن حق الأستاذ أن يردَّ ، ومن حقه أن يعلمنى ما أجهل ، ومن حقه أن يرشدنى إلى وجه الصواب فيما زعمت أو رأيت ، كلّ هذا من حقه ، ولكن ليس من حقه أن يخرج الكلام عن جادّته ، أو أن يستنبط منه أشياء ليست فيه كقوله إنى عرضت للوطنيين من أهل المغرب « فاتهمت زعماءهم وأهل الرأى فيهم بالسفه والغفلة والتخاذل والتهاون فى حقوق البلاد أو ما يشبه ذلك من أنواع التهم » . فهذا شىء مردُّه إلى ما كتبتُ لا إلى ما يقول به الأستاذ العلمى . والسفه والغفلة وما يشبه ذلك من أنواع التهم !! كلمات كبيرة لا يحلّ للأستاذ أن يدّعى أنى أردتها بغير برهان من نص كلامى الذى كتبته .

ثم كرر الأستاذ العلمى أن الذى جاء فى كلمتى إنما هى أشياء أُلقيت إلىّ فحكيتها بلا تحقيق ولا روية ، أو ألقيت إلىّ فاعتقدتها كل الحقّ وأغفلت ما وراءها . وأظن أيضًا أن هذا شىء غير لائق به أن يقوله ، فضلا عن أن يكتبه . ولم أكن أظن أن الأستاذ العلمى يجترئ على أن يصفنى بأنى أُذُن تصرفه عن الحق صداقة صديق أو عداوة عدو ، ولكنه فعل ، فلا أقل من أن أجزيه بالصفح عنه إكرامًا لصديقى الأستاذ محمد بن الحسن الوَزّانى ، فهو رسوله وسفيره والنائب عنه .

ثم رأيت الأستاذ أكرمه الله يزعم أنى بما كتبت إنما كنت أحاول أن أحدث فى الائتلاف الوطنى المغربى « ثلمة » وأن ألقى حوله « بذرة من بذور الشقاق » . وهذا شىء كثير ، ولكنى أعود فأصفح عن الأستاذ ، لا لشىء إلا لأنى أترك الحكم فى هذا الأمر لمن يقرأ فيفهم ، وما أظن أحدًا ممن يطلع على ما كتبت يستطيع أن يقول إنى « حاولت » هذا الذى زعمه الأستاذ .

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٠) ، يناير ١٩٤٨ ، ص : ١٠٣ - ١٠٥

ثم رأيت الأستاذ يقول : « ولعلى لا أكون فضوليًا إن زعمت أن الذين ذكرهم الأستاذ شاكر من زعماء تونس والجزائر ليسوا معه على الرأى الذى نسب إليهم » ، وأنا لم أنسب إليهم شيئًا قالوه إلا قولهم « لا مفاوضة إلا بعد الاستقلال » ، وليس يهمنى أن يكون الأستاذ العلمى فضوليًا أو غير فضولى ، ولكن الذى يهمنى ويهمّ قراء الرسالة وسائر العرب والمسلمين هو أن الذى حكيت عن زعماء تونس والجزائر صحيح قد اتفقوا عليه وقيدوه بالكتابة كما جاء فى بيان سُمُوّ الأمير الجليل محمد بن عبد الكريم الخطابى الذى نشره فى صحيفة الأهرام . وقد جاء فيه أن الأمير أعزّه الله خابر جميع « رؤساء الأحزاب المغربية ومندوبيها » فاتفق رأيهم على تكوين « لجنة تحرير المغرب العربى » من كافة الأحزاب الاستقلالية فى كل من تونس والجزائر ومراكش على أساس مبادئ الميثاق التالى : ثم جاء فى نص هذا الميثاق « د - لا غاية يسعى لها قبل الاستقلال - هـ - لا مفاوضة مع المستعمر فى الجزئيات ضمن النظام الحاضر - و - لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال » . وقد وقع هذا الميثاق جميع من ذكرتهم فى كلمتى ومن لم أذكرهم من رجال الأحزاب المغربية فى تونس والجزائر ومراكش ، ومن بينهم الأستاذ محمد العربى العلمى ، والأستاذ الناصر الكتانى نيابة عن حزب الشورى والاستقلال .

والعجيب الذى لا يقضى منه عجب هو أمر الأستاذ العلمى ، فقد كتبت كلمتى للرسالة بعد أن قرأت فى الأهرام (الاثنين ٥ يناير ١٩٤٨) تحت عنوان « محاولة جديدة للتوفيق بين فرنسا والمغرب » ، وقد جاء فى هذا النبأ ما نصه : « ويقول الحزب فى مذكرته إنه يعتزم تحقيق المطالب الوطنية وهى استقلال البلاد - فى نطاق وحدته الجغرافية والسياسية ، وفى دائرة ملكية دستورية - من طريق المفاوضات ، والاتجاه بالمغرب فى مرحلة انتقال تسمح له بأن ينظم شئونه تنظيمًا حرًّا وبأسرع الطرق إلى تحقيق سيادته التامة واستقلاله المضمونين بمعاهدة تحالف وصداقة تبرم فى ظل الحرية والمساواة بين المتحالفين . ويمكن تهيئة الجو السياسى الملائم لتحقيق ما تقدم ، بأن يعلن رسميًا باسم فرنسا حق الشعب المغربى فى تدبير شئونه فى وقت قريب ، وبأن تعتبر مصالح المغاربة ذات أسبقية فى بلادهم ، مع الصيانة التامة لسيادة البلاد واستقلالها الوطنى » .

هذا ما جاء فى المذكرة التى قدمها حزب الشورى والاستقلال إلى الجنرال جوان المقيم الفرنسى ، وهو صريح فى النص على تحقيق « استقلال البلاد من طريق المفاوضات » ، وهذا هو الذى دفعنى إلى كتابة ما كتبت عن حزب الشورى والاستقلال ، وهو الذى دفعنى إلى أن أتوسل إلى الصديق محمد بن الحسن الوزانى « أن يفئ إلى ما فيه مرضاة الله ، وما فيه خير بلاده وخير أمته ، وأن يدع فرنسا بشرّ النظرين ، لا يقربها إلا مقاتلا مجاهدًا رافعًا باسم بلاده وحريتها وكرامتها واستقلالها » ، كما جاء فى آخر كلامى . وقد تحدث الأستاذ العلمى إلى مندوب الأهرام بما يطابق هذا المبدأ ، بيد أنى رأيته فى اليوم الثانى يوقع على ميثاق لجنة التحرير الذى ينص نصًّا صريحًا على أنه لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال . فهذا تناقض بين لا ينقضى منه العجب ، كما لا ينقضى عجب القارئ حين يقرأ كلمته فى الرد علىّ فيراه يقول إنى أزعم « أن زعماء تونس والجزائر فى القاهرة يرون رأى علال الفاسى فى القعود وعدم المفاوضة » ، ثم قوله إنه يؤكد لى « أن فكرة لا مفاوضة هذه إنما نشأت منذ قريب لا أجد داعيًا لاشتغال قراء الرسالة بها » ، ومعنى ذلك أنه يرى أن عدم المفاوضة قعود عن الجهاد ، وأن كلمة « لا مفاوضة » كلمة مستحدثة لا عهد لحزب الاستقلال ولا لحزب الشورى والاستقلال بها ، ثم يختم مقاله بأن يؤكد لى بأنه « لن يدخل فى أية مفاوضات إلا بعد إعلان الاستقلال » !! فهذا تناقض مُرٌّ شديد المرارة .

وأنا لا أكتب هذا لأرد على الأستاذ العلمى ، فإن هذا التناقض العجيب المر الشديد المرارة ، جعلنى أرى أن لا فائدة من الرد ، ولكنى آثرت أن أعرض على القراء شيئًا كنت أخشى أن يفوتهم الاطلاع عليه ، وهم فى حاجة إلى الاطلاع على مثله .

وأما ما جاء فى كلامه من ذكر فلان وفلان من رجال المغرب ، فلست أنبرى ، ولا يحق لى أن أنبرى ، للدفاع عنه ، لأنى كما قال الأستاذ : « غير متفطن إلى أنى أتحدث عن بلاد لم أرها ، وليس لى من أسباب العلم بها وبأهلها إلا القليل أو ما دون القليل ! » .

بقى شىء واحد يشق على مثلى أن يرضى عنه ، وهو إقحام الأستاذ لأسد الريف الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابى فى معرض هذا التناقض المر الشديد المرارة . فهذا البطل الذى نشأنا منذ الصغر ونحن نمجد اسمه ، ونسمو بأبصارنا إليه ، ونحوطه بقلوبنا وإيماننا ، ونجعله المثل الأعلى للعربى الأبى الذى لا يقبل ضيمًا ولا يقيم على هوان ، هو نفسه الذى علمنا بفعله لا بلسانه أنه « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » . فقد هبّ أسد الريف وانطلق يجاهد بالسيف ، وأبى أن يسلم للفرنسيس والإسبان شيئًا إلا سيفه بعد أن تقطعت أسباب الجهاد بالسيف ، وأعرض عن كل مهادنة بينه وبين الفرنسيس والإسبان ، واحتمل بلاء النفى والتعذيب صابرًا راضيًا مستعينًا بالله على أعدائه . أفلم يكن مما يرضى الفرنسيس والإسبان أن يهادنهم هذا الأسد ويفاوضهم ويأخذ منهم شيئًا ويسكت عن أشياء ؟ بلى ، لقد كان يرضيهم ولا شك ، ولكنه لم يفعل ، فمعنى ذلك كما فهمناه وكما فهمه الناس هو أن أسد الريف يرى رأيًا واحدًا هو أن « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » ، ولذلك احتمل ما احتمل ، وصبر صبر المؤمنين الذين لا يفتنهم عن الحق عذاب ولا نفى ولا تشريد . وإذا لم يكن الأستاذ العلمى قد فهم هذا من بطولة أسد الريف ، فليحدثنا إذن ماذا فهم ؟ وفيم كان صبر أسد الريف وبطل العرب على البلاء الغليظ عمرًا طويلا تحيا فيه رجال وتموت رجال ؟ وفيم كان جهاده وقتاله واحتماله رؤية أبنائه وهم يسقطون فى ميدان الوغى بين يديه ؟ أفعل كل ذلك ليفاوض ، فيأخذ شيئًا ويغضى عن أشياء ؟ حاشا لله .

أما الأستاذ محمد بن الحسن الوزانى ، فأنا لم أرده بإساءة كما أراد الأستاذ العلمى أن يقول ، بل كان كل كلامى منصبًا على المبدأ الذى جاء فى المذكرة المرفوعة إلى المقيم الفرنسى الجنرال جوان ، وهو مبدأ المفاوضة فى الاستقلال ، وهو مبدأ فاسد لن يسكت قلمى عن هدمه وتقويضه ، ولو قال به أعز الناس على وأكرمهم فى قلبى ، وهو عندى مذهب أقلية ، ولو قالت به أمة بأسرها . وسأبقى ما حييت أدعو الأمم التى ابتليت بالاستعمار إلى مبدأ واحد هو أن « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » ، فهو عندى مذهب أكثرية ، ولو لم يقل به إلا فرد واحد طريد شريد لا يجد فى الأرض مكانًا يؤويه ، أو عشيرة تنصره ، أو أذنا تسمعه . وكل حزب يدعو إلى المفاوضة ، فهو عندى حزب بغير شعب ولو تبعته الجماهير

المضللة ، وكل زعيم يدعو إليها فهو زعيم بغير شعب ، وإن استطاع أن يجمع الألوف تصرخ من ورائه مؤيدة وناصرة ، وقد كتبت هذا مرات فى قضية مصر والسودان ، وفى قضية العراق ، وفى قضية الهند . فكل ما جاء فى كلامى عن حزب الشورى والاستقلال ، فهو مبنى على هذا الأصل ، وأظن أن الأستاذ الوَزَّانى يعرف هذا مما قرأه من كلامى منذ قديم ، وأظن أنه فهم من كلامى عنه غير الذى فهم الأستاذ العلمى ، وأظن أنه لم يغضب حين قرأ ما كتبت مثل الغضب الذى احتمل الأستاذ العلمى حتى كتب ما كتب ، مما كان ينبغى أن ينزه عنه قلمه البليغ الجرىء .

وأنا أختم هذه الكلمة بأن أدعو صديقى محمد بن الحسن الوَزَّانى إلى صراط الحق ، إلى أن « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء والاستقلال » ، وأتوسل إليه مرة أخرى أن ينسى نفسه ، وأن يملأ قلبه إيمانًا بالحق الأعظم ، وهو حق شعبه وبلاده فى الاستقلال والحرية والكرامة ، ذلك الحق الذى لا يتجزأ ولا يقبل مفاوضة ولا مهادنة ، وأدعوه إلى الجهاد الشديد فى سبيل هذا الحق الذى لا تستطيع فرنسا ولا إسبانيا ولا بريطانيا ولا الدنيا كلها مجتمعة أن تمحو منه شيئًا أو تغير منه قليلا أو كثيرًا .

أيها الزعماء كونوا يدًا واحدة ، ولتكن دعوتكم واحدة ، واصبروا فى جهادكم ، ولا تفاوضوا عدوكم فى حق شعوبكم ، ولا تخاذلوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا فتذهب ريحكم ، واعلموا أن المفاوضة ليست سوى ملل من طول الجهاد ومشقته ، وأن الملل من كواذب الأخلاق ، وأن الزعيم لا يكون زعيما إلا بأخلاقه ، وقوام أخلاقه الصدق فى كل شىء - فى العداوة والصداقة ، وفى الحب والبغض ، وفى الرضى والغضب . سدد الله خطاكم ، ومهد لكم سبيل الهدى ، وطهر قلوبكم من كل كذب لا خير فيه .

* * *

١ – الفتنة الكبرى

بادرت إلى قراءة كتاب « الفتنة الكبرى » الذى صنفه الدكتور طه حسين ، لأنه أول كتاب له عن رجل من رجال الصدر الأول من الإسلام ، وهو « عثمان بن عفان » أمير المؤمنين وخليفة رسول الله ﷺ ، وأنا أعرف للدكتور مكانه من العلم والتحقيق ، وحسن تأتيه فى تخريج الكلام ؛ فمن أجل ذلك أيقنت أنه سيملأ هذا الكتاب علمًا يضارع قدر هذا الرجل ، ويوازن خطر الفتنة التى اضطرم سعيرها فى آخر خلافته ، وانتهى باغتيال خليفة رسول الله اغتيالا لم يعرف تاريخ الإسلام أبشع منه ولا أفظع . وقلت لنفسى قبل أن أتجاوز الكلمة الأولى من الكتاب : إن طه خير من يصور للناس هذه الأحداث المختلطة المضطربة ، وخير من يهديهم فى شعابها إلى مفصل الرأى ومقطع البيان . وقديمًا ما ضل الناس فى بيداء هذه الفتنة المظلمة ، وقديمًا ما أخطأ الكتاب فهم هذا الحادث الجلل ، وقديمًا ما حار الناس فى أمر المسلمين الذين ذبحوا خليفتهم كما تذبح الشاة المظلومة ، وقديمًا وحديثًا ما خاض الناس ، فما خاضوا إلا مضلة لا يهتدى فيها سار إلى علم يفضى إلى جادة واضحة أو إلى غاية معروفة .

رميت بنفسى وعقلى فى هذا الكتاب ، وأنا على مثل هذه الثقة التى وصفت ، وبمثل هذا الأمل الذى أملت ، فما كدت أفرغ حتى رأيت الكتاب كله يختلج بين يدى . ولست أحب أن يعرف القارئ لم اختلج الكتاب . فهذا حديث طويل لو بدأت أقصه لما عرفت أين أنتهى ، فأنا طاويه عنه ؛ لأنى أوثر أن أدع قلبه حيث هو من الاستقرار والأمن والرضى ، وأنا أفعل هذا وإن شاء هو أن أنشر هذا الذى طويت ، وأفعله وإن كره لنفسه هذا الاستقرار والأمن والرضى . وحسب القارئ أن ينظر معى إلى موضعين فى هذا الكتاب ، لم ينقض عجبى منهما ولن ينقضى عجبه حين يقف على خبرهما .

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦١) ، فبراير ١٩٤٨ ، ص : ١٣٤ - ١٣٨

وأسبق القلم فأزعم أنى أسلم جدلا ، كما يقولون ، بأن كل الذى أتى به الدكتور طه صحيح فى جملته وتفصيله ، وأن الصورة التى أراد أن يصور بها تاريخ عثمان رضى الله عنه وتاريخ أصحابه ومعاصريه صحيحة أيضًا فى جملتها وتفصيلها ، وأزعم فوق ذلك أنى لا أخالفه فى شىء منها خلافًا ما ، وأنى لو كتبت تاريخ عثمان ، وتاريخ الفتنة ، لم أقل إلا بما قال إذ ذكر هذه الفتنة الخبيثة فقال ص ١٠٩ « فالفتنة إذن إنما كانت عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء » . وأنت خليق أن تنظر فى هذا التكرار لهذه الصفة « فتنة عربية » و « عامة عربية » لتعلم ماذا يريد بهذا التكرار ، وما الذى يريد أن ينفيه من شركة أحد غير العرب فى دم عثمان ، وأنت خليق وحرى وجدير بأن تفعل هذا وأن تتأمل فتطيل التأمل ؛ لأنك سوف تلقى بعد قليل شيئا جديدًا كل الجدة ، وحسنًا كل الحسن ؛ فما تكاد تمضى صفحات حتى ترى بابًا فى ص ١٣١ يبدأ هكذا :

« وهناك قصة أكبر الرواة (المتأخرون) من شأنها وأسرفوا فيها حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدرًا لما كان من الاختلاف على عثمان ، ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة المسلمين لم تمح آثارها بعد ، وهى قصة عبد الله ابن سبأ الذى يعرف بابن السوداء . قال الرواة : كان عبد الله بن سبأ يهوديًا من أهل صنعاء ، حبشى الأم ، فأسلم فى أيام عثمان ، ثم جعل يتنقل فى الأمصار يكيد للخليفة ويغرى به ويحرض عليه ، ويذيع فى الناس آراء محدثة أفسدت عليهم رأيهم فى الدين والسياسة جميعًا » . ثم يقول : « وإلى ابن السوداء يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف فى البلاد الإسلامية أيام عثمان ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده إحكامًا ، فنظم فى الأمصار جماعات خفية تستتر بالكيد ، وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة ، حتى إذا تهيأت لها الأمور ، وثبت على الخليفة فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام » .

فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور منذ قليل على أن يصف الفتنة بأنها « عربية » ، وبأن العامة الذين كانوا شرار هذه الفتنة كانوا « عامة عربية » أى أنه

ليس لهذا اليهودى الخبيث عبد الله بن سبأ يد فيها ، وأن ليس لليهود عمل فى تأريث نارها . وهذا تخريج بين جدًا ، لا يخالفنا فيه أحد ولا الدكتور طه نفسه فيما نعلم . ثم يمضى الدكتور فى حديثه ليقول بعقب ذلك : « ويخيل إلىّ أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافًا شديدًا . وأول ما نلاحظه أنا لا نجد لابن سبأ ذكرًا فى (المصادر المهمة) التى قصت أمر الخلاف على عثمان ، فلم يذكره ابن سعد حين قص ما كان من خلافة عثمان وانتقاض الناس عليه . ولم يذكره البلاذرى فى أنساب الأشراف ، وهو فيما أرى (أهم المصادر) لهذه القصة وأكثرها تفصيلا . وذكره الطبرى عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر » . وأُرانى مضطرا أن أنقل لك أيضًا ما قاله الدكتور بعد ذلك فى ترجيح رأيه وبيان حجته قال :

« ولست أدرى أكان لابن سبأ خطر أيام عثمان أم لم يكن ؟ ولكننى أقطع بأن خطره ، إن كان له خطر ، ليس ذا شأن . وما كان المسلمون فى عصر عثمان ليعبث بعقولهم وآرائهم وسلطانهم طارئ من أهل الكتاب أسلم أيام عثمان ... ولو قد أخذ عبد الله بن عامر أو معاوية هذا الطارئ الذى كان يهوديًّا فلم يسلم إلا كائدًا للمسلمين ، لكتب أحدهما أو كلاهما فيه إلى عثمان ، ولبطش به أحدهما أو كلاهما . ولو قد أخذه عبد الله بن سعد بن أبى سرح لما أعفاه من العقوبة التى كاد ينزلها بالمحمدين (محمد بن أبى بكر ، ومحمد بن أبى حذيفة) لولا خوفه من عثمان ... ولم يكن أيسر من أن يتتبع الولاة هذا الطارئ ، ومن أن يأخذوه ويعاقبوه » ثم يقول فى ص ١٣٤ : « فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط . ولنكبر المسلمين فى صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء ، وكان أبوه يهوديًّا وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهوديًّا ثم أسلم لا رغبًا ولا رهبًا ولكن مكرًا وكيدًا وخداعًا ، ثم أتيح له من النجح ما كان يبتغى ، فحرض المسلمين على خليفتهم حتى قتلوه » . ثم يقول : « هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغى أن تقام عليها أمور التاريخ » . هكذا يقطع الدكتور الرأى جملة واحدة !!

هذا هو الموضع الأول ، أما الموضع الثانى فهو أشد الأشياء علاقة بهذا ، ولكن الدكتور قطعه عنه قطعًا كريمًا فترك صفحة ١٣٤ ومضى على وجهه فى هذا البحث الجليل إلى أن بلغ ص ٢٠٩ لكى يقول : « وهنا تأتى قصة الكتاب الذى يقول الرواة إن المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر ، فكروا راجعين . فهذه القصة فيما أرى ملفقة من أصلها » ، ثم اختصر قصة الكتاب اختصارًا وقال : « كل هذا أشبه بأن يكون ملهاة سخيفة منه بأن يكون شيئًا قد وقع . والأمر أيسر من هذا . تلقى أهل الأمصار وعدًا من إمامهم فاطمئنوا إليه ، ثم تبينوا أن الخليفة لم يصدق وعده ! فأقبلوا ثائرين يريدون أن يفرغوا من هذا الأمر وأن لا يعودوا إليه حتى يفرغوا » . ثم تبين للدكتور أن إلغاء هذا الكتاب الذى أرسل إلى والى مصر يأمره بقتل رؤوس الوفد الذى جاء من مصر ، ليس يحل الإشكال فى عودة الوفد بعد أن فصل عن المدينة راجعًا إلى مصر ، وتبين له أيضًا أن الغرض الذى ذهب إليه من أنّ أهل الأمصار تبينوا أن الخليفة لم يصدق وعده ، أى أنه كذب عليهم باللفظ الصريح ، شىء غير مستساغ ، فإنه سأل نفسه كيف تبينوا أنه كذب عليهم فلم يعرف كيف يجيب ، فألقى الغرض كما هو وزاد عليه أنهم أقبلوا ثائرين ، « فلما بلغوا المدينة وجدوا أصحاب رسول الله قد تهيأوا لقتالهم ، فكرهوا هذا القتال وانصرفوا كائدين ، حتى إذا عرفوا أن هؤلاء الشيوخ قد ألقوا سلاحهم وأمنوا فى دورهم ، كروا راجعين فاحتلوا المدينة بغير قتال » . ولكن رَأَى الدكتور طه ، وهو خير من يرى الآراء ، أن هذا الغرض مدخول كله إذا لم يعزز بغرض آخر ، ففكر وقدر ، ثم نظر ثم قال : « وأكاد أقطع بأن قد كان لهم من أهل المدينة أنفسهم أعوان دعوهم وشجعوهم ، ثم أعلموهم بما عزم عليه أصحاب النبى ، ثم أعلموهم بعودة المدينة إلى الهدوء والدعة ، ثم انضموا إليهم حين حاصروا عثمان » . وهذه كلها كما ترى فروض وتخيل ، وإقرار أيضًا بما أنكره فى أمر عبد الله بن سبأ من تنظيم (الجماعات الخفية) التى تتستر بالكيد ، فهو ينكر هذا المبدأ هناك ويقره هنا !! ثم يمضى الدكتور فى فروض ، فرضًا من بعد فرض ، حتى يريك كيف تعقدت الأمور فجأة إلى أن كان مقتل عثمان ، ولكنه يختصر

ذلك اختصارًا غريبًا عجيبًا لم أعرف له مثيلا فى كل ما كتب الدكتور وفرض وادعى ثم جزم الرأى وقطع به ، مما يعرفه أكثر قراء العربية الذين قرأوا للدكتور منذ أول نشأته فى الكتابة .

ولست أحب أن أقف بك عند شيء إلا عند هذين الموضعين فأنا أكره الإطالة فى تفلية كلام الدكتور ، خشية أن لا أنتهى ، فإن تحت كل حرف مما كتب علمًا كثيرًا لابد من تفليته وغربلته ورده إلى وجوه الحق التى زال عنها إلى سواها ، وأنت ترى أننا اضطررنا اضطرارًا إلى الإطالة بالنقل ، لئلا يفوت عليك شيء من لب حديث الدكتور وعلمه . وقد بدأ الدكتور حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء عبد الله بن سبأ فذكر أن « الرواة المتأخرين » أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها ، وأنها لم ترد فى (المصادر المهمة) ، وأن (ابن سعد) لم يذكرها وأن البلاذرى لم يذكرها فى أنساب الأشراف (وهو فيما يرى الدكتور أهم المصادر) ، وأن الذى ذكرها هو الطبرى « وأخذه عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر » كما يقول الدكتور .

١ - وبدء الدكتور بقوله : « الرواة المتأخرين » فيه إيهام شديد ، متعمد فيما يظهر !! فإن الطبرى ليس من الرواة المتأخرين ، فهو قد ولد سنة ٢٢٥ ومات سنة ٣١٠ ، فهو معاصر (البلاذرى) وفى طبقة تلاميذ (ابن سعد) صاحب الطبقات .

٢ - أن سيف بن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر هو من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبرى والبلاذرى ، وهو فى مرتبة شيوخ (ابن سعد) ، فقد مات فى زمن الرشيد ، أى فيما قبل سنة ١٩٠ من الهجرة . فلا يقال عنه ولا عن الطبرى أنهما من « الرواة المتأخرين » كما أراد الدكتور طه أن يوهم قارئه .

٣ - أن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإذا لم يكن كتاب الطبرى من (المصادر المهمة) ، فليت شعرى ماهى المصادر المهمة التى بين أيدينا ؟

٤ - أن الدكتور طه يعلم أن كتاب ابن سعد الذى بين أيدينا كتاب ناقص ، وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص وبعضها مختصر . والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر فى ٨٤ صفحة ، ولأبى بكر فى ٣٣ صفحة فلما جاء إلى عثمان ، والأحداث فى خلافته هى ما يعلم الدكتور طه ويعلم الناس ، لم يكتب سوى ٢٢ صفحة ، فلما ذكر على بن أبى طالب والأمر فى زمنه أفدح لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة . هذا على أن فى الكلام على طريق ابن سعد فى تراجم الرجال شىء آخر غير كتابة التاريخ ، فإنه لم يذكر فى هذا الفصل إلا قليلا جدًّا مما ينبغى أن يكتب لو أنه ألف كتابه فى التاريخ العام لا فى الترجمة للرجال . وهذا شىء يعلمه الدكتور طه حق العلم ولا ريب .

٥ - أنه كان من حجة الدكتور فى نفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين أن البلاذرى لم يذكره ، وهو فيما يرى (أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا) : ثم عاد فنفى أيضًا خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره . ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبرًا ما حجة فى نفيه ، ثم ينفى أيضًا خبرًا آخر قد ذكره ولج فيه ؟

وهذه الخمسة أشياء كنت أستحى أن أحدث الدكتور بها أو أناقشه فيها ؛ لأنها من الوضوح والجلاء بحيث لا تخفى على رجل مثله خراج ولاج بصير بالعلم أحسن البصر . ولكن بقى شىء واحد أحب أيضًا أن يتاح لى يومًا ما أن أعرفه ، وهو : هل كان فى نص البلاذرى قديمًا ذكر عبد الله بن سبأ اليهودى ثم سقط أو أسقط من الكتاب ؟ وهذا لا يتاح لى إلا إذا وقفت على نسخة قديمة وثيقة من كتاب أنساب الأشراف ، فإن هذه النسخة التى بين أيدينا إنما طبعت فى أورشليم ، وطبعها رجل من طغاة الصهيونية ، وقدم لها مقدمة لم تكتب لا بالعربية ولا بالإنجليزية بل باللغة العبرية ! وليأذن لنا الدكتور أن نشك أكبر الشك فى ذمة هذا اليهودى الصهيونى الذى طبع الكتاب فى مطابع الصهيونية فى أورشليم . فقد رأينا من قبل رجلا آخر حاطه الدكتور طه يومًا ما برعايته وعنايته واستقدمه إلى الجامعة المصرية ، وكان يسمى نفسه « أبا ذؤيب » إسرائيل ولفسون ، (وهو الآن فى فلسطين يجاهد فى سبيل الصهيونية) ، فألف كتابًا فى تاريخ اليهود فى بلاد

العرب ، وطبع فى مصر ، وقدم له الدكتور طه مقدمة أثنى فيها عليه ثناء بالغًا ، ومع ذلك فقد وجدنا فى الذى نقله من الأخبار والأحاديث تحريفًا وبترًا وانقطاعًا من نصوص محفوظة معروفة . أفلا يجوز لنا على الأقل أن نشك فى أن اليهودى الآخر طابع كتاب البلاذرى ، يفعل مثل هذا ؟ إننا على الأقل نشك ونتوقف . هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذرى ، قد يترك المؤلف فيها شيئًا فى مكان ، ثم يذكره فى مكان آخر ، وكان أولى أن يذكر فى المكان الأول ، وهذا شيء يعرفه الدكتور كما نعرفه وأحسن مما نعرفه ، أفلا يجوز أن يكون البلاذرى قد ذكره مثلا فى ترجمة (عمار بن ياسر) أو (محمد ابن أبى بكر) أو (محمد بن أبى حذيفة) أو رجل ممن اشترك فى هذه الفتنة ؟ وهو يعلم أن الذى وجد من كتاب البلاذرى قسم ضئيل جدًّا طبع منه جزء فى ألمانيا سنة ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودى الصهيونى طبع جزء آخر هو الذى فيه ترجمة عثمان فى سنة ١٩٣٦ ، ثم طبع جزء آخر فى سنة ١٩٣٨ قال الناشر فى مقدمته المكتوبة بالعربية إن هناك حوادث جرت فى عهد يزيد بن معاوية ، هى وقعة كربلاء وموت الحسين « ولم تذكر فى ترجمة يزيد ، بل ذكرهما فى تراجم بنى أبى طالب ، وذلك حسب ما اقتضاه نظام الكتاب وفقًا لتسلسل الأنساب » كما قال بنص كلامه . أفلا يجوز إذن أن يكون البلاذرى قد أدمج أمر عبد الله بن سبأ فى مكان آخر كما فعل فيما لاحظه وذكره هذا اليهودى ؟ كل هذا جائز ، ولكن الدكتور حين يريد أن ينفى شيئًا لا يبالى أن يجتاز كل هذا ويغضى عنه ، ليقول فيه بالرأى الذى يشتهيه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف .

ثم كيف نسى الدكتور أن من لم يرو خبرًا ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة كالبلاذرى والطبرى ؟ بل لعل الطبرى أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحصيلا له ، وهو الذى روى عنه أنه قال لأصحابه : « أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره قال : ثلاثون ألف ورقة . فقالوا : هذا مما تفنى فيه الأعمار قبل تمامه . فاختصره لهم فى ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال لهم : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم قدره ؟ فذكر نحوًا مما ذكره فى التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال : إنا لله !! ماتت الهمم ! » .

ومن قرأ كتاب الطبرى فى تاريخه أو تفسيره علم أن هذا حق ، وأن الرجل كان فارغًا للعلم لا يلفته عنه شىء قط ، ولا يدع شاردة ولا واردة إلا تقصاها وحققها ورأى فيها الرأى الذى لا يكاد ينقض . والفرق بينه وبين البلاذرى لا يخطئه بصير بهذا العلم فليس من الحجة فى شىء أن يقال (فى عصرنا هذا) : إن البلاذرى لم يذكر هذا ، فيكون ذلك كافيًا فى الرد على ماذكره الطبرى . وهذا شىء بين لا يحتاج إلى جدال كثير .

وإذن فالدكتور قد اشتط وركب مركبًا لا يليق بمثله حين نفى خبر عبد الله ابن سبأ ، وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى قد رأيت من تهافت أسلوبه فى البحث العلمى ؛ وإذن فالدكتور قد خالف سنة العلم والعلماء فى نفى الأخبار وتكذيبها بلا حجة من طريقة أهل التمحيص ، بل تحكم تحكما بلا دليل يسوقه عن فضيلة البلاذرى وتقديمه على الطبرى ، وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب ، وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها كما هو القول فى ابن سعد والبلاذرى معًا . وإذن فيحق لنا أن ننقل هنا كلمة للدكتور طه نفسه قالها عندما ذكر أصحاب محمد ﷺ ، وذكر الخلاف الذى كان بينهم ، وذكر أو زعم أنهم تراموا بالكبائر وقاتل بعضهم بعضًا ، وزعم أنه لا ينبغى لنا أن يكون رأينا فيهم أحسن من رأيهم هم فى أنفسهم ، فقال فى ص ١٧٢ من كتابه :

« ينبغى أن نذهب مذهب الذين يكذبون أكثر الأخبار التى نقلت إلينا ما كان بينهم من (فتنة) واختلاف . فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامى كله منذ بعث النبى ، لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن ، هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازى وسيرة النبى والخلفاء . فما ينبغى أن نصدقهم حين يروون ما يروقنا ، وأن نكذبهم حين يروون ما لا يعجبنا ، وما ينبغى أن نصدق بعض التاريخ ونكذب بعضه الآخر ، لا لشىء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا » .

وهذا حق ، ولكن الدكتور يحتج به فى معرض الطعن فى الصحابة ومعرض القول فى نسبة الأخطاء الماحقة إلى أصحاب محمد ﷺ ، ثم يعود فيسقط هذا

الرأى ، ولا يبالى به ، ويخالفه أشد المخالفة فى معرض رد الرواة الذين رووا لنا خبر الفتنة الخبيثة التى تولى كبرها عبد الله بن سبأ اليهودى . ولماذا يفعل ذلك لا ندرى ، بل الحق أننا ندرى ولكننا نأبى أن نتعجل القارئ بحكم لم نأت فيه بالبينة التى تدفع كل أقوال الدكتور فى قضية هذا اللعين ابن السوداء ، فللقارئ علينا حق لا يحل لنا أن نخونه فيه ، وحقه هو أن يرى حجج الدكتور كلها أولا ، ثم حججنا متابعة ثانيًا ، ثم نعطيه الحكم ليأخذه أو يدعه على هدى وبصيرة .

وموعدنا المقال الآتى بإذن الله .

* * *

٢ - الفتنة الكبرى

وإذن ، فقد أراد الدكتور طه أن يقول إن الفتنة الكبرى التى أفضت إلى قتل عثمان إنما كانت « فتنة عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء » فى ص ١٠٩ فمن أجل تحقيق هذه الكلمة الكبيرة ركب كل مركب فى تصوير الحياة الإسلامية الأولى بعد الفتوح بالصورة التى تنتهى به إلى هذا الغرض وحده دون سواه ، وهو الغنى والمال والسلطان ، وتزاحُم الأغنياء على الغنى والمال والسلطان ، وحسد العامة العربية لأصحاب الغنى والمال والسلطان . وأنا - كما قلت آنفًا - لن أحاول أن أنقض هذه الصورة ، ولن أعمل عملا فى الرد عليها إلا بمقدار ما ينبغى فى سياق التحقيق التاريخى لناحية من نواحى هذه الفتنة . ولكن الدكتور كشف عن هدف آخر حين جاء معرض هذه الفتنة ، فنفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى ، وخبر الكتاب الذى كتب فيه الأمر بقتل رؤوس وفد مصر . وهذا الهدف هو أن ينفى عن اليهود الشركة فى دم عثمان ، والتحريض على قتل الإمام ، فركب مركبًا وعرًا خالف فيه أسلوب العلماء فى جرح الأخبار ، وكذب الرواة فى شىء بغير برهان ، وصدقهم فى شىء آخر بغير برهان أيضًا ، وهو نفسه ينعى فى كتابه على « الذين يكذبون الأخبار التى نقلت إلينا ما كان بين الناس من فتنة واختلاف » ، فقال فى ص ١٧٢ : « فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامى كله منذ بعث النبى ، لأن الذين رووا أخبار هذه الفتن ، هم أنفسهم الذين رووا أخبار الفتح وأخبار المغازى وسيرة النبى والخلفاء . فما ينبغى أن نصدقهم حين يروون ما يروقنا ، وأن نكذبهم حين يروون مالا يعجبنا . وما ينبغى أن نصدق بعض التاريخ ونكذب بعضه الآخر ، لا لشىء إلا لأن بعضه يرضينا وبعضه يؤذينا » . بيد

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٣) ، فبراير ١٩٤٨ ، ص : ١٩٣ - ١٩٦

أن الدكتور طه نفسه ، قائل هذا الكلام ، قد فعل ذلك فكذبهم حين روى الرواة ما لا يعجبه ، وحين رووا ما يؤذيه ، وفعل ذلك أيضًا فصدقهم حين رووا ما يروقه ، وحين رووا ما يرضيه . فإن الذين رووا أخبار الغنى والمال والسلطان ، هم الذين رووا أخبار عبد الله بن سبأ اليهودى وأخبار الكتاب الآمر بقتل وفد مصر ، فلم أخذ شيئًا بغير برهان ، ونفى أخاه بغير برهان ؟

والشيء البيّن هو أن الدكتور الجليل أراد كما قال فى ص ١٣٤ أن يكبر المسلمين فى صدر الإسلام « عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء وكان أبوه يهوديًّا ، وكانت أمه سوداء ، وكان هو يهوديًّا ثم أسلم لا رغبًا ولا رهبًا ، ولكن مكرًا وكيدًا وخداعًا » . وهذا قصد حسن ونية جميلة ، ولكن الحق أحسن منهما وأجمل . وليس يجمل بنا ولا بالدكتور طه أن يغالط فى الحق لشيء يراه هو أو نراه نحن حسنًا جميلا . والتاريخ لا يكتب بالتحكم ، وإنما يكتب بالرواية ، ثم بالاستدلال ، ثم ببذل الجهد فى سد الفجوات ، وسبيل ذلك أن تأخذ من الماضى أسبابًا وعللا وحوادث ذات خطر ، فإن استقامت أن تمتد معك إلى الحاضر الذى تؤرخه ، فهى حقيقة بأن تكون شيئًا من التاريخ يوشك أن يكون حقًّا كله أو بعضه .

ولست أحب أن أعلم الدكتور طه ، ولكنى سأضع بين يديه حقائق لا يدخلها الريب أبدًا ، ثم أسأله أن ينظر فيها ، وأن يحكم هو بينى وبينه . وسأختصر القول اختصارًا ، فإن أكثر مادة هذا الحديث مما لا أظن بالدكتور أن يجهله أو يغفل عنه .

فلنعد إلى حديث قديم كان قبل البعثة بقليل ، وكان شديد الخطر فى تاريخ العرب ، وكان يوشك أن ينتهى إلى حدث جليل فى تاريخ مدينة رسول الله ﷺ . فقد كان يسكن هذه البلدة الكريمة بنو أم واحدة وأب واحد من قبائل الأزد بن الغوث : أمهما قيلة ، وأبوهما حارثة بن ثعلبة ، وهؤلاء هم الأوس والخزرج ، وكان يعيش بينهم هذا الجيل من اليهود الذى سكن جزيرة العرب ، أو سكن المدينة ، فكان من خبر ذلك شيء لم يكن مثله مثلا بين بنى هاشم وبنى أمية ،

وهو الحرب المتطاولة بين هذين الحيين اللذين ولدتهما أم واحدة وأب واحد ، ويسكنان معًا بلدة واحدة . وظل هذا القتال بين الحيين متجدد النيران إلى أن كان « يوم بُعاث » ، وهو كما قال ابن سعد ج ٣ قسم ٢ ص ١٣٥ :« آخر وقعة كانت بين الأوس والخزرج فى الحروب التى كانت بينهم ... وكانت هذه الوقعة ورسول الله ﷺ بمكة قد تنبأ ودعا إلى الإسلام ، ثم هاجر بعدها بست سنين إلى المدينة » .

ونشأة هذه العداوة العجيبة بين الأخوين : الأوس والخزرج ، واقتتالهما هذا القتال المر العنيف حقبًا متطاولة ، ودخول اليهود فى الحلف ، بعضهم مع الأوس وبعضهم مع الخزرج ، لا يصيبهم من أذى القتال بين هذين الحيين الأخوين إلا القليل ، وتداعيهم باسم اليهودية إذا حزب الأمر ، فيكونون يدًا واحدة على هذه العرب ، ليس له معنى إلا أن تكون هذه اليهود هى التى أرَّثت الحرب والعداوة بينهما لتؤثِّل فى هذه الأرض أموالا وآطامًا وحصونًا تكون لها عدة وقوة ، وتظهرها على أهل البلاد المالكين لها ، وتصرف وجه هؤلاء القوم عن الزراعة والتجارة وتثمير الأموال ، وتبقى يهود هى صاحبة الزراعة والتجارة وتثمير الأموال بالربا ومآكل السحت [1] . وهذا عمل يهود فى كل جيل ، وفى كل أمة ، وفى كل زمان إلى يوم الناس هذا .

ثم لا يلبث أن يلقى رسول الله ﷺ رهطًا من الخزرج عند العقبة ، وكانت يهود كما قال ابن إسحاق ، قد عَزُّوهم ببلادهم ، أى غلبوهم عليها واستأثروا بها ، فلما دعاهم رسول الله إلى الإسلام قالوا له : « إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك . فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعز منك » . فيؤلف الله قلوب الأوس والخزرج ، وهم الأخوان ، على الإسلام فيفشو فيهما فُشوًّا ظاهرًا . ولا يلبث رسول الله أن يهاجر إلى المدينة ، فلا يبقى حى من الأوس والخزرج إلا دخله الإسلام وظهر فيه . فيمر

---

(١) السُّحت : كل حرام خبيث ، وما خَبُث من المكاسب وحَرُم فلَزِمَ عنه العار وقبيح الذِّكر .

شأس بن قيس مِن يهود بنى قينقاع – وكان شيخًا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم – على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج ، فيغيظه ما رأى من ألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فيقول : « قد اجتمع ملأ بنى قيلة (يعنى الأوس والخزرج) بهذه البلاد ! لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملأهم بها من قرار . فيأمر فتى شابًّا من يهود أن يجلس إليهم فيذكر « يوم بعاث » وما كان قبله ، وينشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار . فيفعل هذا اليهودى ، فإذا الجماعة المؤتلفة على الإسلام تتنازع وتتفاخر ، فيتواثب رجلان من الأوس والخزرج ، فيقول أحدهما لصاحبه : « إن شئتم رددناها الآنَ جذَعة » [١] ، ويغضب الفريقان جميعًا ويقولون : « قد فعلنا ، موعدكم الظاهرة (يعنون مكانًا بعينه) ويتداعون : « السلاحَ السلاحَ » . ويخرجون إلى موعدهم ، فيبلغ رسول الله ﷺ الخبر ، فيخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى إذا جاءهم قال : « يا معشر المسلمين ! الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ؟ » فيعرف الأنصار ، أوسهم وخزرجهم ، أنها نزعة من الشيطان [٢] وكيد من « عدوهم » ، فيبكون ويتعانقون ، ثم ينصرفون مع رسول الله سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس اليهودى . (عن ابن إسحاق وغيره) .

وأنا لست أروى لك هذا إلا لتقف على كيد يهود كيف كان ؟ ولتعرف كيف كان ترفقهم إلى إثارة العداوة بين هذين الحيَّين منذ قديم ؟ ولتنظر لم كانوا يحبون أن تظل هذه العداوة حية متوقدة ليأكلوا من ثمراتها مالا وغلبة وسلطانًا على العرب ؟ ولتقارن هذا كله بما لا يزال يجرى إلى أيامنا هذه على يد هذه الشرذمة الخبيثة من بنى إسرائيل !

---

(١) جَذَعَة : أى كما كانت وكما بدأت ، أى الحرب .

(٢) كذا فى الأصول بالعين المهملة ، والصواب بالمعجمة . نزغ بينهم بنَزْغ : أَغْرَى وَأَفْسَد ، وفى محكم التنزيل ﴿ وإمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بالله ﴾ .

ثم ينزل الله جلت أسماؤه فى أمر هذه الفتنة يخاطب المسلمين الذين كان رسول الله بين أظهرهم ، لم يمت بعدُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وإذن ، فنحن لا نستطيع أن نكبر أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج عن أن يطيعوا فريقًا من اليهود حتى كادوا يردونهم بعد إيمانهم كافرين ، ولا أن ننزههم عن ذلك وهم تُتلى عليهم آيات الله وفيهم رسوله ! كما فعل الدكتور طه حين أراد أن ينزه أهل الصدر الأول من الإسلام فى سنة ٣٥ من الهجرة بعد أن قبض الله إليه نبيه بأكثر من عشرين سنة ، وبعد أن نشأت ناشئة من الشباب لا يدَّعى أحد أنهم جميعًا كانوا أحرص على إيمانهم من أصحاب محمد وأنصاره الأولين . وهذا خبر واحد رويته ، فإن شئت أن أروى الأخبار كلها لما وسعنى كتاب أشرح فيه أمر هذه الفتن التى أرَّثتها اليهود فى عهد رسول الله ﷺ ، ولا يسعنى أن أنص على كل آيات كتاب الله التى نزلت فى أخبار هذه الفتن . وحسبى أن أذكر من نسى أن أخبار المنافقين والآيات التى نزلت فيهم ، كانت كلها فى المدينة لا فى مكة ، وأن ذلك دليل على أن النفاق كان حيث تكون يهود ، وأن « الأعراب » لم يذكروا إلا فى السور المدنية مقرونًا بالنفاق والمنافقين ، وأن قول الله تعالى فى سورة براءة ﴿ الأعرَابُ أَشد كُفرًا ونفاقًا ﴾ نزلت فى بنى أسد وغطفان ، وهم كانوا حلفاء يهود فى الجاهلية وفى زمان الإسلام ، وهذا شىء أرجو أن يتذكره الدكتور حتى نعود إليه .

ولم يكن كل هذا المكر والكيد والإيقاع عملا جاء عفو الخاطر من يهود ، ولا كان مأتاه من إساءة لحقتهم من حلفائهم الأوس والخزرج من المؤمنين غير المنافقين ، بل هو شر انطوت عليه يهود لا يزايلهم ولو أحسن المسلمون إليهم ، وهو حقد وضغينة وكفر وعدوان على أهل هذا الدين ، وهم كما وصفهم الله أشد الناس عداوة للذين آمنوا بمحمد صلوات الله عليه . ودليل ذلك أن رجالا كثيرًا

من الأوس والخزرج كانوا يواصلون رجالا من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية ، فكانوا يصافونهم المودة بهذه الأسباب ، ويستنصحونهم فى أمورهم دون أن يشكوا فيهم أو يتوجسوا منهم خيفة . فأنزل الله فى محكم كتابه ينهاهم عن فعل ذلك : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ . وهؤلاء « الذين قالوا آمنا » هم الذين نزلت فيهم الآية السابقة قبل هذه فى سورة آل عمران : ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

وهذه الآية وسبب نزولها يدل دلالة صريحة على أن أهل الإسلام الأول ، كانو لا يزالون يعدون الحلف بينهم وبين يهود حلفًا صادقًا لا غش فيه ، وأن يهود كانت تظهر المودة وتخفى أشد العداوة وأشد الغيظ على هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، وأنهم كانوا يتخافتون بهذه العداوة ، وأنهم كانوا يخدعون هؤلاء المؤمنين بإظهار الإيمان وإبطان الكفر ، حتى إذا صدَّقهم بعض المؤمنين عادوا فأظهروا الكفر ليفتنوهم ويخدعوهم عن دينهم . فإذا صح هذا ، وهو صحيح ، ورسول الله بين أظهرهم ، فهو أحق بالصحة فى سنة ٣٥ من الهجرة ، لا نكبر أهل الصدر الأول من الإسلام عن أن يقعوا فى مثله وفى أشد منه .

ويستطيع الدكتور طه ، ويستطيع كل من أطاق القراءة ، أن يقرأ كتب السير والمغازى منذ هاجر رسول الله من مكة إلى المدينة ، إلى يوم دعاه ربه إلى الرفيق الأعلى ، فسيجد أنه لا تكاد تنتهى وقعة بدر الكبرى بالنصر الأعظم لجند الله حتى يسلم رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول وجماعته من المنافقين ، وكانوا أعوان يهود ، ومن يومئذ ينفجر النفاق ويستشرى خطره ، حتى تنزل فيه الآيات الكثيرة ، وحتى يطلع الله رسوله على خبايا نفوسهم وعلى أعيانهم . ومن يومئذ

يجاهر بعض اليهود بنقض العهد الذى كتبه رسول الله بينه وبينهم عند مقدمه المدينة ، فيكون مقتل اليهودى أبى عَفَك ، ثم تكون غزوة يهود بنى قينقاع ، ثم استعانة أبى سفيان بن حرب بيهود بنى النضير ينقلون إليه أخبار نبى الله . ثم يكون ما كان فى يوم أحد من خروج عبد الله بن أبى بن سلول المنافق مع رسول الله حتى إذا بلغ رسول الله أُحُدًا انخزل ابن أبى فى كتيبة أشياعه وهو يقول : « أيعصينى ويطيع الولدان ؟ » ، ثم يهزم المسلمون ، فإذا عادوا إلى المدينة شمت بهم عبد الله بن أبى بن سلول وأصحابه المنافقون ، وأظهرت اليهود القول السيء ، يقولون : ما محمد إلا طالب ملك ! ما أصيب هكذا نبى قط ! أصيب فى بدنه ، وأصيب فى أصحابه . ثم لا تمضى خمسة أشهر حتى يحاول يهود بنى النضير قتل رسول الله غدرًا حين جاء منازلهم ، فأتمروا أن يطرحوا عليه صخرة من فوق البيت الذى هو تحته ، فجاءه الوحى بما هموا به . ثم يخرج أبو رافع سلام ابن أبى الحقيق اليهودى بعد أشهر إلى « غطفان » ومن حولهم من مشركى العرب ، يغريهم بقتال رسول الله ﷺ . ثم ...

ولا تزال تمضى من حدث إلى حدث ، ومن غدر إلى غدر ، ومن نفاق إلى نفاق ، واليهود رأس ذلك كله ، والعاملون عليه ، والموغلون فيه ، إلى أن تنتهى إلى خبر اليهودية التى وضعت السم فى الشاة ودعت رسول الله ﷺ وهو بخيبر ، فأكل من شاتها ثم نبئ أنها مسمومة فلفظها .

فما معنى هذا كله ؟ معناه أن اليهود لم يفتر لهم لسان ولا يد ولا غش ولا غدر ولا خديعة ولا ضغن منذ ظهر أمر رسول الله ﷺ ، وأن هذه الشحناء لم تكن عن إساءة لحقتهم من الذين آمنوا بل كانت عصبية يهودية محضًا ، وخليقة مركبة فى طباع هذا الجنس من البشر ، وأن النفاق كان طرفًا من دسائسهم ومتنفسًا لأضغانهم على أهل هذا الدين ، وأن الله قد وصفهم وصف الحق إذ يقول تباركت أسماؤه : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا

مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

وهذه الصفة التى وصفهم الله تعالى بها ، لم تنقطع ولن تنقطع ما بقى على الأرض مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله . وسترى فى الكلمة الآتية كيف استطاع اليهود أن يفسدوا على المسلمين أمورًا كثيرة ، وأن يثيروا فتنة كادت تذهب بالإسلام كله لولا أن الله قد وعد عباده أن يظهر هذا الدين كله ولو كره الكافرون .

* * *

٣ - الفتنة الكبرى

كان من البيّن - كما رأيت قبلُ - أن يهود الحجاز قد شبوا فى الجاهلية نار العداوة بين بنى أم واحدة وأب واحد ، يسكنون بلدة واحدة ، وهم الأوس والخزرج ، فتمادت الحرب بين الأخوين أحقابًا من زمن الجاهلية حتى كادوا يتفانون فى يوم « بُعاث » الذى كان قبل هجرة نبى الله ﷺ إلى المدينة بست سنين . وكان الذى كان بين هذين الأخوين أمرًا جللًا شديدًا على بعض عقلاء الأوس والخزرج ، إذ صاروا إلى ما وصفهم به أصحاب بيعة العقبة الأولى من الأنصار إذ قالوا لنبى الله : « إنا تركنا قومنا ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بيننا » ، ويهود يومئذ « قد عَزُّوهم ببلادهم » أى غلبوهم عليها واستأثروا بها ، كما قال رجال من الصحابة وكما قال أكثر رواة التاريخ القديم . وكان بعض اليهود يحالف الأوس ، وبعضهم يحالف الخزرج ، ولكنهم كانوا يدًا واحدة إذا جد الجد ، فيخرجون من معارك هذين الأخوين لا يصيبهم شرٌّ كثير أو قليل ، بل كانوا يقولون لهم : « إن نبيًّا مبعوث الآن قد أظل بزمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإِرَم » وشغلت الحرب والعداوة هذين الحيين ، فانصرفوا عن الزراعة واستولت عليها يهود ، وشغلتهم عن التجارة فاستبدت بها يهود ، وشغلتهم عن حماية أرضهم فعاثت فيها يهود . وأخذت يهود تبنى فى المدينة وما جاورها آطامًا وحصونًا كثيرة متفرقة ، وتجمع فى هذه الحصون ما استطاعت من السلاح والحلقة [١] وعُدة الحرب ، وهى شىء كثير جدًّا كما ظهر ذلك بعد فتح هذه الحصون والآطام على يد رسول الله وأصحابه من المهاجرين والأنصار . ولم يكن ذلك من فعلهم فى المدينة وما جاورها وحسب ، بل كان مثله أيضًا فى جنوب الجزيرة ، فى اليمن وتلك البقعة من نجران وصنعاء إلى ناحية البحرين ، كانوا

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٥) ، مارس ١٩٤٨ ، ص : ٢٥٤ - ٢٥٧

(١) الحَلْقَة من الناس : الجماعة ، يعنى تعد الرجال للحرب ، أو أراد بالحلقة مطلق السلاح .

يقيمون الحصون والآطام ويجمعون فيها السلاح فيكثرون الجمع ، وينشئون لأنفسهم مدنًا أو شبه مدن فى هذه النواحى كلها ، هى لهم خالصة لا يساكنهم فيها أحد .

نعم ، ينشئون المدن والحصون والآطام ويجمعون السلاح ، ويحالفون من جاورهم من الأعراب والبدو ، ويوقعون بين حلفائهم العداوة والشر ، فى المدينة وفى غير المدينة من جزيرة العرب . فماذا كانت تريد يهود بإعداد كل هذه العدة من البناء والسلاح وإيقاد البغضاء ، وصرف وجوه الناس عن أسباب الحياة إلى معترك الحرب ؟ كانت تريد فى المدينة مثلا أن تسقط البلاد فى أيديهم خالصة لهم ، بعد أن يتفانى الأوس والخزرج فى حروبهم التى يؤرّثونها بينهم ، كما رأيت ذلك من فعلهم يوم رأى شأس بن قيس اليهودى ، ما رأى من صلاح ذات البين بين الأوس والخزرج بالإسلام ، فيرسل إليهم فتى من يهود يناشدهم ما تقاولوا من الشعر فى حروبهم ، فتكاد الحرب تقع بين الأوس المسلمين والخزرج المسلمين ، لولا أن أدركهم رسول الله فردّهم إلى عقولهم وأطفأ كيد اليهودى شأس بن قيس . ومن قارن بين فعل يهود قديمًا وفعلهم حديثًا فى فلسطين ، ومن إقامتهم الحصون والآطام والمدن فى المدينة وغيرها من الجزيرة ، وما فعلوا من إنشاء المدن والحصون والمستعمرات حديثًا فى فلسطين ، عرف أن هذه شيمة يهود منذ قديم ، وهذا هو أسلوبهم قديمًا وحديثًا حذوك النعل بالنعل . وإذن فقد كانت تريد يهود أن تنشىء دولة فى المدينة شمالا وفى اليمن جنوبًا كما تريد اليوم أن تنشىء دولة لليهود فى فلسطين ، وفى غير فلسطين أيضًا .

هكذا كان أمرهم فى الجاهلية ، ثم يرسل الله رسوله ويهاجر إلى المدينة فلا يكاد يفعل حتى يمتلئ تاريخ الإسلام منذ ذلك اليوم بأخبار اليهود وفتنتهم وتأريثهم العداوة بين العرب المشركين والعرب المؤمنين ، وبسعايتهم فى تأليب الأحزاب على رسول الله ، وبغدرهم ونكثهم ودسائسهم ، لم يكفوا ساعة عن التماس غرة المؤمنين والمؤمنات ، وعن ابتغاء الوقيعة بين المؤمنين أنفسهم . ويمتلئ تاريخ الإسلام منذ ذلك اليوم أيضًا بأخبار المنافقين ، وقد أجاد الله لنا

صفتهم فى كتابه ، وبين لنا أحسن البيان صلتهم باليهود وإيواء اليهود لهم ، ويكثر ما نزل من الآيات فى شأن اليهود والمنافقين جميعًا ، مقرون ذكرهما معًا . وتكون أول سورة نزلت من القرآن فى المدينة هى السورة التى تذكر فيها (البقرة) ، يقول الطبرى فى تفسيره ج ١ ص ٨٤ بإسناده عن ابن عباس : « إن صدر سورة البقرة إلى المئة منها نزل فى رجال سماهم بأعيانهم وأنسابهم من أحبار يهود ومن المنافقين من الأوس والخزرج ، كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم » . ثم ماذا ؟ ثم تكون آخر سورة نزلت بالمدينة ، أو آخر سورة نزلت من القرآن ، هى سورة « براءة » أو سورة « التوبة » ، تلك السورة التى فضحت اليهود والمنافقين وهتكت عن سرائرهم ، وكشفت عما كانوا يبيتون من القول ومن الكيد ، والتى يقول الله فيها : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ ، والتى سماها بعضهم « الفاضحة » و « المُخْزِية » و « المُنَكِّلَة » و « المُشَرِّدَة » و « المُدَمْدِمة » دلالة على ما جلبت على اليهود والمنافقين من الفضيحة والخزى والتنكيل والتشريد والدمدمة . ثم تكون هى السورة التى يذكر فيها « الأعراب » الذين حول المدينة من حلفاء يهود ، ست مرات .

تنزل أول سورة من القرآن [١] ، فإذا هى فى اليهود والمنافقين ، وتنزل آخر سورة من القرآن فإذا هى فى اليهود والمنافقين ومَن حول المدينة مِن الأعراب حلفاء يهود ، وينزل ما بينهما من القرآن فى عشر سنوات متواليات يصف ما كان من أمر هؤلاء ، وينذرهم ، ويكشف عن دسائسهم وكيدهم ، فإذا بك ترى تاريخ الإسلام فى هذه الحقبة – منذ هاجر رسول الله إلى أن توفاه الله – حافلا بالغدر والكيد والتأليب ونكث العهود ونقض المواثيق . ويكون أول ذلك أن تسلم طائفة من أحبار يهود سماهم أصحاب السير والتاريخ ، يسلمون نفاقًا فى عهد رسول الله ﷺ (كما فعل كعب الأحبار وعبد الله بن سبأ وغيرهما فى عهد عمر وعثمان) ، فكانوا يحضرون المسجد فيستمعون أحاديث المسلمين ويسخرون منهم

---

(١) يعنى أستاذنا أول سورة نزلت بالمدينة .

ويستهزئون بدينهم ، ويحدثنا ابن هشام عنهم فيقول : « فاجتمع يومًا فى المسجد ناس منهم ، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم ، قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم رسول الله فأخرجوا من المسجد إخراجًا عنيفًا » ، فهل تجد أوضح ولا أبين من هذا فى صفة المتآمرين حين يجلسون يتخافتون بينهم أمرًا يكيدون به ويبيتونه ؟ ويظل هذا حال المنافقين وحال اليهود معًا إلى أن يدعو الله إليه رسوله . يأوى المنافقون إلى أشياخ من اليهود يتآمرون يومًا بعد يوم عشر سنوات متواليات ، ويكون على رأس هؤلاء المتآمرين رجال كأمثال رفاعة بن زيد ابن التابوت اليهودى الذى أظهر الإسلام وأبطن النفاق ، فيسميه المسلمون « كهف المنافقين » ، لأنهم كانوا يخلون إليه ، ويتآمرون فيه بليل ، ويستودعون ظلام هذا الكهف السميع البصير سرَّ تآمرهم وخفى كيدهم . ورسول الله فى خلال ذلك كله يجاهدهم ويرجو هدايتهم ، ويظل يفعل ذلك ثمانى سنوات غير قانط ولا يائس ، يصلى على من مات من المنافقين ويستغفر لهم ، فإذا طال ذلك أنزل عليه ربه فى سورة « براءة » آخر سورة نزلت ، أشد آية فى القرآن خاطب الله بها عبده ونبيه محمدًا ﷺ : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ ثم ينهاه أشد النهى فيقول : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ . كلمات قاطعة وأوامر حاسمة كحد السيف !!

عشر سنوات والقرآن ينزل على رسول الله فى المنافقين واليهود مقرون ذكرهما معًا !! عشر سنوات تقرأ تاريخها فى كتب السيرة فلا تمضى صفحة واحدة إلا وفيها ذكر لليهود والمنافقين معًا ، عشر سنوات واليهود والمنافقون معًا يؤلبون على رسول الله القبائل ويفتنون المسلمين ، ويدبرون الكيد للمؤمنين والمؤمنات ولرسول الله ، حتى كان ما كان من اليهودية التى دست له ولأصحابه السم فى الشاة فينبأ ﷺ بما فعلت ، فيلفظ بضعة اللحم من فمه ﷺ .

ثم ماذا ؟ ثم يحدثنا أصحاب رسول الله ﷺ ، ويحدثنا منهم أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه فيقول : « كان آخر ما تكلم به ﷺ أن قال :

« أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » . آخر كلمة ينطق بها ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ! آخر كلمة تجرى على لسانه وهو يلبى دعوة ربه إلى الرفيق الأعلى ! ويروى الرواة هذه الكلمة ، ويأتى علماؤنا أحسن الله جزاءهم فيقفون عند هذا الحديث ينظرون ما سر هذا الأمر الحازم القاطع ؟ إنهم لا يهتدون إلى سر ، ولا يقفون على خبر ، إلا أن يقولوا جميعًا كما قال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتابه الأموال ص ٩٩ : « وإنما نُرَاه قال ذلك ﷺ لنكث كان منهم ، أو لأمر أحدثوه بعد الصلح » . رويدكم أيها العلماء ! إنه تأويل متهافت ، ولا تجعلوا الظن أصلا فى التأويل . لقد كان أولى بكم أن تسألوا أنفسكم : أى نكث ذلك الذى كان من يهود الحجاز ومن أهل نجران ؟ وكيف ذهب خبره فلم يرو لنا ؟ وأى أمر ذلك الذى أحدثوه بعد الصلح ؟ وكيف غاب عنا خبره ؟ ولكن غفر الله لكم وجزاكم خيرًا إذ لم تقطعوا برأى تدلسونه على الناس كما يفعل أدعياء العلم وكذبة العلماء فى عصرنا هذا ، بل قلتم جميعًا كما قال أبو عبيد القاسم بن سلام : « إنما نراه » (بضم النون) أى إنما نظنُّه ظنا . ولكن ما قيمة الظن فى أمر كهذا الأمر ؟ وكيف تريدون أن تفسروا حديثًا بظن من الظنون لم تأت به رواية ، ولم يعرف له خبر يؤيده من حوادث التاريخ ؟

كلا أيها العلماء ! إنها آخر كلمة تكلم بها رسول الله وهو معرض عن الدنيا مقبل على الآخرة ، آخر كلمة ينطق بها لسان نبى الله الذى لا ينطق عن الهوى . كلَّا ، فالأمر أعظم وأجل وأخطر مما تظنون . إنها كلمة من كلمات النبوة ! إنها تنبيه من الله على لسان نبيه إلى أحداث ستكون ، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسى كافرًا . لقد كشف الغطاء ويتجلى لرسول الله غيب ما سيكون ، فرآه وهو على فراش الموت كما رآه المؤمنون عيانًا من بعد : فتنة ماحقة فى الحجاز وما جاورها ، وفى نجران وما أَطاف بها . نار مشعلة فيما حول المدينة من الحجاز ، وأخرى مستعرة فيما حول نجران من اليمن . إنه يقولها ﷺ لا لشىء كان بل لشىء سيكون ، يراه هو ولا يراه أصحابه رضى الله عنهم .

ولقد نزل الموت برسول الله ﷺ كأشد ما ينزل حتى دعا بقدح من ماء ،

يدخل يده فيه ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول : « اللهم أعنى على سكرات الموت . اللهم أعنى على كرب الموت . ادن منى ياجبريل ! ادن منى ياجبريل ! ادن منى ياجبريل » وعنده ﷺ خميصة (ثوب من خز) يأخذها فيلقيها على وجهه ، حتى إذا اغتمّ بها وضاق ألقاها عن وجهه وهو يقول « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ويقول أيضًا : « لئن بقيت لا أدع بجزيرة العرب دينين » ، وتكون آخر كلمة يتكلم بها وهو فى مثل ما ترى من كرب الموت : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » : أى أدركوا النار قبل أن تشتعل ، أنقذوا العرب من فتن لا تبقى ولا تذر ! احذروا يهود الحجاز ، واحذروا أهل نجران خذوا عليهم طريق الفتنة وأخرجوهم قبل أن يخرجوكم ويسفكوا دماءكم أيتها العصابة القليلة المؤمنة ! ويقبض الله إليه نبيّه قبل أن يقول لهم فى هذا الأمر قولا لا يضلون بعده ، وتبقى هذه الكلمة بغير تفسير حتى يقول العلماء فى سرها ما قالوا رجمًا بالغيب .

ثم ماذا ؟ ثم لا تكاد تتم بيعة أبى بكر حتى تنفجر الردة فى أماكن بعينها من جزيرة العرب ، فتقول عائشة بنت أبى بكر الصديق أم المؤمنين قولا يروى لنا ، لم يلق إليه أحد بالا إلى يوم الناس هذا : « توفى رسول الله ﷺ فنزل بأبى ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ! اشرأب النفاق بالمدينة وارتدت العرب وصار أصحاب محمد كأنهم معزى مطيرة ، فى حُش ، فى ليلة مطيرة ، بأرض مَسْبَعَة (١) . فوالله ، ما اختلفوا فى واحدة إلا طار أبى بحظّها وغنائها عن الإسلام » . ويحدثنا أيضًا عروة بن الزبير بن العوام : « وقد ارتدت العرب إما عامة ، وإما خاصة فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم ﷺ ، وقلتهم وكثرة عدوهم » .

وخليق بى وبك ، أن نقف قليلا عند هذا . نقف حيث وقف بنا أمر رسول الله أن : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » ،

---

(١) الحُـشّ (وبفتح الحاء أيضا) : البستان ، أو مجتمع النخيل . المَسْبَعَة : الأرض الكثيرة السباع .

نقف حيث وقفت بنا آخر كلمات تكلم بها ﷺ ، وحيث وقف بنا قوله وهو فى كرب الموت « لئن بقيت لا أدع بجزيرة العرب دينين » ، وحيث وقف بنا قول أم المؤمنين عائشة : « اشرأب النفاق بالمدينة وارتدت العرب » ، وحيث وقف بنا حديث عروة : « ارتدت العرب ... ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى » .
ثم نأخذ جميعًا نقرأ تاريخ حروب الردة فى كتب القدماء من المؤرخين ، وماذا قالوا فى أسبابها ، ونقرأ تاريخها أيضًا فى كتب المحدثين من المؤلفين والمؤرخين ، ونقرأ أيضًا كتب المستشرقين الذين يجلّهم الدكتور طه ويرفع بذكرهم رفعًا شديدًا فماذا نجد ؟ نجد غموضًا شديدًا كأننا نسير فى ليلة مظلمة فى بطن واد عميق ، عن يمينه جبل شامخ وعن يساره جبل شامخ قد أطبقا عليه جميعًا . وإذا الردة فى كتب القدماء أخبار مجموعة كما اتفق لهم أن يجمعوها ، لم ينظر أحد فى أسبابها ، ولا فى الحوافز التى أغرت العرب بها ، ولا فى أمر المرتدين وصفتهم وعلاقة بعضهم ببعض ، ولا فى وجه الشبه الذى يجمع بينهم قبل أن يرتدوا . وإذا الردة فى كتب المحدثين أخبار أيضًا حاول أصحابها أن يرتبوها ما استطاعوا ، فلما نظروا فى أسبابها ، وفى حوافزها ، وفى صفة أهلها وفى علاقة بعضهم ببعض ، وفى وجه الشبه الجامع بينهم قبل أن يرتدوا – إذا بهم يخلطون خلطًا شديدًا كأنهم يبحثون عن درة فى بحر من الوحل . وإذا المستشرقون يملأون كتبهم كعادتهم بالجهل الذى يضرب بعضه فى وجوه بعض .

نعم ، نقرأ تاريخ الردة فى كل هذه الكتب جميعًا ، فإذا هى خالية جميعًا من ذكر اليهود ومن ذكر المنافقين إلا كلمة شاردة ككلمة عائشة وكلمة عروة بن الزبير بن العوام تعرض فى كتب القدماء ، وإذا المحدثون من المستشرقين الخائضين فيما ليسوا له بأهل ، لا يكادون يذكرون اليهود والمنافقين فى حرب الردة ، وإذا هذا عجب من أعجب أمرهم ، فهم أشد ولعًا بالبحث عن الأسباب واستقصائها ونبشها من أن تخفى عليهم هذه الحقيقة البينة التى بين أيديهم ، حقيقة اليهود والمنافقين وما كان لهم من خطر فى تاريخ الإسلام منذ هاجر رسول الله إلى أن قبضه الله إليه !! وإذا بك ترى المؤلفين من رجالنا قد ضلوا إلى حيث

أضلهم أساتذتهم من المستشرقين ، فغفلوا عن تعليل الردة كيف كانت ؟ وكيف بدأت ؟ ومن بدأ بها ؟ وكيف تم أمرها ؟ ولم يسأل واحد منهم نفسه . أليس من العجيب الذى لا يقضى منه عجب أن يقضِى نبى الله عشر سنوات منذ هاجر إلى المدينة حتى قبضه الله إليه ، فلا يمضى يوم واحد لا يلقى فيه أشد البلاء من كيد يهود ، ومن كيد أشياعهم وصنائعهم من المنافقين ، ثم يظل رسول الله هذه السنوات العشر وهو يقاتل اليهود ويقاتل مكايدهم فى الأوس والخزرج ، وفى القبائل ، وفى الأعراب حول المدينة ، ثم يظل رسول الله يتلقى الوحى عن ربه هذه السنوات العشر ، فإذا أول سورة تنزل عليه وهى البقرة ، أكثرها فى ذكر اليهود والمنافقين وبيان حالهم وصلة بعضهم ببعض وائتمارهم جميعًا بالمؤمنين الذين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله . وإذا آخر سورة تنزل عليه ﷺ وهى براءة كلها فى صفة اليهود والمنافقين ، وفى الكشف عن أقوالهم ودسائسهم وكذبهم وخداعهم حتى فضحتهم ونبأتهم بما تخفى صدورهم من الكيد والغيظ والنفاق ، ثم يكون آخر ما يتكلم به ﷺ وهو فى كرب الموت : « لئن بقيت لا أدع فى جزيرة العرب دينين » ، وأمره لصحابته : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب» ، ثم يقبض الله إليه رسوله ويبايَع أبو بكر ، وما هى إلا أيام قلائل حتى تشتعل نيران الردة فى أماكن بعينها من جزيرة العرب شمالا وجنوبًا وشرقًا وغربًا – أليس من العجيب الذى لا يقضى منه عجب أن لا نجد بعد هذا كله شيئًا فى كتب القدماء أو المحدثين – أو المستشرقين إن شئت – ذكرًا لليهود والمنافقين فى أمر الردة ؟ أهكذا ينتهى فجأة من تاريخ العرب ذكر اليهود والمنافقين بموت رسول الله ﷺ ؟ أيجوز فى العقول أن تظل يهود وأشياعُها من المنافقين تكيد للإسلام ولرسول الله وللمؤمنين والمؤمنات عشر سنوات كاملة متتابعة يومًا بعد يوم ، فإذا لحق رسول الله بالرفيق الأعلى (فى سنة ١١ من الهجرة) نزعوا أيديهم من كل كيد ، وبرئوا من كل حَدَث كان بعد ذلك فى تاريخ الإسلام – برئوا من الردة (فى سنة ١١ من الهجرة) ، وبرئوا من مقتل عمر (فى سنة ٢٣) ، وبرئوا من الفتك بعثمان بن عفان رضى الله عنه (فى سنة ٣٥) .

ولكن كيف غاب عن أصحاب رسول الله ﷺ معنى قوله : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، أخرجوا أهل نجران من جزيرة العرب » ؟ وكيف غفل قدماء علمائنا عن معنى هذا الحديث وفيم قيل ؟ وكيف ذهل المؤرخون القدماء عن أن يربطوا بين تاريخ الردة وبين تاريخ اليهود والمنافقين ؟ وأخيرًا كيف كانت الردة فى الإسلام ؟ وما آثارها التى تخلفت عنها ؟

هذا حديث أحدثك به إن أنسأ الله فى أجلى حتى ألقاك فى مكانى من هذه الصفحات .

* * *

الفتنة الكبرى

اطلعت على الكلمة التى نشرت فى هذا العدد تعليقًا على مقال لى عن كتاب الدكتور طه حسين عن الفتنة « الكبرى » فلما قرأته آثرت أن لا أضيع على قراء الرسالة صفحات فى نقد كلام الدكتور شوقى ضيف ، فعجلت بكتابة هذه الكلمة .

وليأذن لى الدكتور طه حسين أن أوجه الكلام إلى الدكتور شوقى ضيف ، فى بعض ما جاء فى رده علىّ .

فأول ذلك أن الدكتور شوقى قد أطال فى كلام أكثره موجود فى كتاب الدكتور طه . كأنه أراد أن يشرحه ، وكان وكنا فى غنى عن مثل هذا الشرح .

والثانية أنه أطال أيضًا فى الأسباب الموجبة لنفى قصة عبد الله بن سبأ ، ونحن لم نقل أننا نثبتها برواية الطبرى وحسب ، بل قلنا إن الدكتور طه زيف القصة بأسباب لا تستقيم ، وهذه الأسباب مذكورة فى مقالى ولم يتنبه الدكتور شوقى إلى ضعفها وتهافتها . أما إثباتنا لها فسيأتى فيما بعد بطريق آخر غير الذى ظنه الدكتور ضيف .

والثالثة أنه ذكر عن ياقوت شيئًا فى شأن تفسير الطبرى وتاريخه ، وهو أن الطبرى روى فى تاريخه أشياء عن رجال ليسوا بثقات ، وأنه لم يرو عنهم مثل ذلك فى تفسيره لمكانهم من التهمة فى رأيه . وشرح ذلك أن للطبرى رأيًا فى قوم ليسوا بثقات ، فنزه التفسير عنهم لأنه أمر دين تجب فيه الحيطة الشديدة ؛ أما التاريخ فليس لمثل هذه الحيطة فيه مكان . وموازين المحدثين والمفسرين فى رد الرجال وتجريحهم لا يمكن أن تطبق على أهل التاريخ وسواهم من أُدباء ورواة . ولو صح ذلك لأسقطنا رواية التاريخ كله ، ورواية الأدب كله ، ورواية اللغة كلها ، وأظن أن

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٣) ، فبراير ١٩٤٨ ، ص : ٢١١

الدكتور ضيف لم يعط هذا الأمر حقه من النظر والتدبر . ولست فيما أظن أيضًا مكلفًا بشرح أصول هذه الفنون لكل امرئ لم يطلع عليها أو لم يعرفها حق المعرفة ، إلا أن يسأل سؤالًا منزهًا عن مواضع اللجاجة فى الانتصار لفلان أو فلان .

والرابعة أنه تسرَّع فى ذكر أشياء نعفيه من نقدها ، لأنها تطول وشرحها يطول أيضًا . ولكنى على ثقة من أن الدكتور طه يعرفها كما أعرفها ، وتبين موضع الغمز فيها .

ومهما يكن من شىء ، فإنى كتبت ما كتبت عن « الفتنة الكبرى » ولم أتممه بعد ، ولعل الأستاذ لو صبر قليلا لرأى ما يرضيه أو يقنعه . أما العجلة فلا تأتيه بشىء إلا تراكب الخطأ على الخطأ ، ونحن إنما نكتب لنزيل الأخطاء لا لنراكمها بعضها على بعض .

وليعذرنى الأستاذ إذا رأى أنى لم أبين له البيان الشافى فى مسألة الرواية فى التاريخ والحديث والتفسير ، وكيف تكون وما شروطها ، وما ينبغى أن ينظر إليه الباحث مرة ، ويتجاوز عنه أخرى فى هذه الأشياء ، فإن شاء أن يتحرَّاه على وجهه ، فليسأل الدكتور طه نفسه ، فهو يدله على المصادر التى تعينه على بيانها إن شاء الله ...

* * *

هذا زماننا

أراد جماعة من الذين كتب الله عليهم أن يرتزقوا باصطناع السياسة ، أن يعقدوا معاهدة بينهم وبين بريطانيا يقضون بها فى أمر العراق على ما خيلت لهم أنفسهم وأنفس البريطانيين ، ووقف بيفن يتعجبُ ممن زعم أنه يضع توقيعه الكريم على معاهدة فيها بخسٌ لحقوق العراق ! وليس هذا بعجيب من ساسة بريطانيا ، فقوام السياسة البريطانية هو الخداعُ ، والإصرار على الخداع ، وتسويغ الخداع ، حتى يبلغُ الأمر مبلغ الصَّفاقة المهذّبة فى عرف الساسة البريطانيين . ولسنا نلوم بريطانيا ولا ساستها على هذا المذهب القبيح ، فهم إنما يترفقون إلى غاياتهم بما وسعهم من الدهاء والمكر ، ولكنّا نلوم أولئك المتبجحين ممن راموا أن يكونوا أهل سياسة فى هذا الشرق العربى أو الإسلامىّ ، إذ يخادعون أنفسهم ويخادعون أهليهم عن فساد بين فى أمر هذه المعاهدات ، وهم بذلك إنما يدمّرون شعوبهم بما فى أنفسهم من العجز واللجاجة وقلة المعرفة بسياسة الشعوب التى انبعثت من رقدتها مطالبةً بالحياة الحُرة الكريمة . ومصداق هذا ما وقع فى العراق ، فلم يكد يظهر طرفٌ من سر تلك المعاهدة الخبيثة التى أرادت بريطانيا أن تكبل بها العراق ، حتى هبَّ الشعب الأبى هبة واحدة فقوض أركان تلك المعاهدة على رؤوس « بناة الإمبراطورية » ، وعلى رؤوس أذنابهم من الساسة المرتزقة ، فدل ذلك دلالة بينةً على عجزهم ولجاجتهم وقلة معرفتهم بسياسة الشعوب الناهضة المريدة للحياة والحرية .

وما الذى كانت تريده بريطانيا من تلك المعاهدة الباغية ؟ كانت تريد أن تجعلها مثالا يحتذى فى معاهدات تعقد بينها وبين مصر والسودان ، ولبنان وسورية وجزيرة العرب واليمن وسائر بلاد هذا الشرق فجاءت ثورةُ العراق فزلزلت

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٢) . فبراير ١٩٤٨ ، ص : ١٦٠ - ١٦٢

قواعد هذا الوهم المنتشر الذى سوَّلت لبريطانيا نفسُها أنه بناء جديد تقوم على أساسه سياسة الإمبراطورية البريطانية الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية . جاءت هذه الثورة فكانت سُنَّةً جديدةً فى توجيه سياسة العرب توجيهًا غفل عنه المرتزقة من السياسيين القدماء فى هذا الشرق ، وجاءت فكانت برهانًا جديدًا على أن الشرق العربى والإسلامى لن ينام مرة أُخرى على خُدَع البريطانيين وخيانة المرتزقة من السياسيين ، وعلى أن الحياة التى دبَّت فى العرب لن تتسكع مرَّة أخرى فى أوصال هذا الكيان القوى العميق المتراحب ، بل سوف تتدفّق فى نواحيه كلها إلى أن يستوى عوده على الهيئة التى تجعله كيانًا صحيحًا فى هذا الكون الذى يغلى من حوله بالثورات السياسية والإجتماعية والاقتصادية والعلمية .

ليس هذا فحسب ، بل علينا منذ اليوم أن ننظر ماذا كانت تريد بريطانيا بعقد هذه المعاهدات ؟ كانت تريد أن تجمع دول العرب على معاهدات يكون لها فيها الغنم وعلينا الغرم ، أى أن بريطانيا كانت تريد أن تستعبد العرب جملة واحدة وتسيرهم فى أغراضها على نظام متفق لا تشذ عنه دولة عربية واحدة ، سواء أكانت مستقلة استقلالا صحيحًا أم كانت مستقلة استقلالا مشوبًا بالعبودية للإمبراطورية البريطانية ، ومعنى ذلك أيضًا أنها تعلم أن العرب سوف ينتهى بهم الأمر إلى أن يكونوا أمة واحدة ، فهى تريد أن تسبق الزمن وتجمع هذه الكتلة الواحدة فى قبضة يديها حتى لاينتشر عليها الأمر . وهذا غرض بين جدًّا ، ودوافعه أشد وضوحًا واستبانة . فهل آن لنا أن نتنبه إلى الوضع الصحيح الذى ينبغى أن تكون عليه مطالب العرب فيما هم بسبيله من إحراز حقوقهم كلها جملة واحدة ؟

لقد كتبت منذ سبعة أشهر كلمة فى هذه المجلة بعنوان « شعب واحد ، وقضية واحدة » ، وذلك فى العدد ٧٣٠ بتاريخ ٣٠ يونية سنة ١٩٤٧ قلت فيها : « إن قضية العرب قضية واحدة بينة المعالم : هى أننا لا نريد إلا أن تكون بلادنا جميعًا مستقلة حرة لا يحتل عراقها جندىٌّ واحدٌ ، ولا تخضع جزيرتها لسلطان ملوك البترول ، ولا ينال نيلها من منبعه إلى مصبه سلطان بريطانى أو غير بريطانى ، ولا تقع شامها ولبنانها تحت سطوة غاصب ولا يعيث فى أرجاء مغربها فرنسى

خبيث القول والفعل مجنون الإرادة » ثم قلت فى آخرها : « وعن قريب سوف تقول حكومات العرب كلمتها ، وسوف يجتمع رأينا على أننا لن نرضى ، بأن نجعل قضيتنا أجزاء يتلعب بها هذا ويلهو بها ذاك . إنها قضية واحدة ، يرفعها شعب واحد ، مطالبًا بحق واحد ، هو أننا أحرار فى بلادنا » . وأنا لا أنقل هذا لأعرض على الناس شيئًا مما كنت توقعت ، بل لأقول إن السياسة البريطانية قد علمت علم هذا كله ، فهى تريد أن تسبق الزمن لتضعنا فى الإِصْر [1] الشديد الذى يسمى بالمعاهدات ، ولتستعبدنا فى أغراضها ، ولتنتقم منا ومن تاريخنا ، ومن قديمنا وحديثنا . وأقول إن ساسة الشرق وساسة العرب لا يزالون يعيشون فى غفلة الخيانات القديمة التى تولى كبرها رجال ظنوا أنهم زعماء هذه الشعوب ، أى أنهم قد ملكوا رقابها فهم يتصرفون فيها تصرف المالك فى ملكه ، وذهبوا يفاوضون بريطانيا فيأخذون منها شيئًا وينزلون لها عن أشياء كثيرة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، فتبت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، فقد جروا الشرق كله إلى مضلة لا يهتدى فيها سارٍ إلى علم .

ولكن الشعوب العربية كانت أشد منهم قوة ، وأهدى إلى مواطن الحق ، فما كادت تشب الثورة فى العراق حتى نادى أهل العراق بالجلاء الناجز « عن جميع البلاد العربية » ، وهذه الكلمة الشاردة هى كلمة الحق التى سوف ينتهى أمرنا إليها ، أبى السياسيون القدماء أم رضوا . فالبلاد العربية من العراق إلى الجزيرة إلى الشام إلى لبنان إلى فلسطين إلى مصر والسودان ، إلى تونس والجزائر ومراكش ، أمة واحدة ، والاستعمار فيها واحد ، ومطالبها واحدة . فينبغى إذن أن تصاغ قضية العرب على هيئة واحدة ، لا فى السياسة الخارجية وحسب ، بل فى موقفنا جملة واحدة فى وجه الطغيان الاستعمارى كله ، سواء جاء بهذا الاستعمار بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا أو روسيا أو هولندة أو أية دولة على ظهر الأرض .

وينبغى أن تعدل سياسة الدول العربية جملة واحدة ، فتطالب بمطلب واحد

---

(١) الإصْر : القَيْد .

لا تقبل فيه هوادة ولا تخضيعًا ولا مساومة ، هو جلاء الاستعمار عن بلاد العرب كلها . ولقد سبق الشعب العراقى حكومته إلى هذا الرأى ، فنحن نرجو أن يحمل الشعب العراقى حكومته على أن تصرح بهذا المطلب تصريحًا رسميًا فى بيان تصدره بطلب الجلاء الناجز عن جميع البلاد العربية ، وتتعهد بأن لا تقبل مفاوضة ولا محادثة ولا مخابرة ولا مهادنة فى هذا المطلب أبدًا . فإذا فعلت العراق ذلك ، فعلى سائر الحكومات العربية أن تصدر مثل هذا البيان الشامل الذى لا يفرق شيئًا بين الوطن العربى كله ولا بين المستعمرين أيا كانوا .

إنى أدعو الجامعة العربية ورجال السياسة الأحرار أن لا يفرقوا فى الدعوة إلى الحرية ، أدعوهم أن لا يفرقوا قضية العرب أجزاء كل جزء منها يخضع لسياسة تضعف أو تقوى فى يد من يتولاها . فقد فهمت بريطانيا هذا ، فأرادت أن تنشىء مثالا يحتذى فى المعاهدات التى تعقد بينها وبين العرب ، وأرادت أن تحمل فرنسا وأسبانيا على الاتفاق على أسلوب جديد يصطلحان عليه فى الاتفاق مع بلاد المغرب العربى ، يسير على أساس السياسة التى تريدها بريطانيا فى اعتبار العالم العربى جملة واحدة تسخَّر فى ركاب الاستعمار البريطانى والفرنسى والإسبانى . فواجب الجامعة العربية وواجب الحكومات العربية أن تسبق هذه السياسة اللئيمة سبقًا يكفل للشعوب العربية أن تعرف الوجه الذى تسير فيه . فلا مناص إذن من أن تتفق كلمة الدول العربية على أن لا تعقد إحداها معاهدة قط مع إحدى الدول المستعمرة ، وعلى أن لا تقبل تقسيم القضية العربية إلى أجزاء ، وعلى أن تكون دعوتها ودعوة شعوبها صرخة واحدة مجتمعة فى وجه الاستعمار على اختلاف ألوانه وأسبابه والقائمين به ، وهى الجلاء الناجز عن بلاد العرب جميعًا ، ثم عن بلاد الإسلام كلها فى نواحى الأرض . فإذا توانت حكومات العرب ، وإذا تلجلجت الجامعة العربية ؛ فمغبة ذلك أن تفوت على هذه الشعوب زمنًا يطول أو يقصر ، كانت خليقة أن تبلغ فيه ما تريد من نيل الحرية الكاملة ، والاستقلال الناجز التام .

إن ضعف القائمين بالسياسة العربية ، لا ينتهى إلا إلى ضياع الوقت وضياع

الحقوق . ونحن لا نطالب المستعمرين بشيء ، لأنهم لا يملكون شيئًا هم قادرون على أدائه . إنهم مغتصبون ، ونحن ثوار على هذا الغصب ، وهم طغاة ونحن لا نقبل هذا الطغيان ، وهم يملكون أسباب القوة المادية ونحن نملك أسباب القوة الروحية ، وهم ظُلَّام ونحن لا نرضى بهذا الظلم ، وهم يتحكمون بالاستعمار والاستعباد ، ونحن نتعالى عن الاستعمار والاستعباد . فهذه القوة التى انطوى عليها حقنا ، يقابلها ضعف ينطوى عليه افتياتهم علينا . ومصير ذلك كله إلى الغلبة والنصر إذا أحسن رجالنا الاستعداد لهذه الموقعة الفاصلة فى تاريخ البشر .

لم يبق شيء فى تاريخ البشر يحمل طابع الفساد والبوار والدمار ، إلا هذا الجشع الذى يحمل أمم الغرب على أن يضعوا أيديهم على كنوز العالم ؛ ليقاتل بعضهم بعضًا فى حرب مبيدة مدمرة . وقد عرف هذا الغرب أن الشرق كنوز كله ؛ فهو يجاهد أن يستولى عليها بما استطاع من الحيلة ومن اللؤم ، ومن إهدار الكرامة الإنسانية ، ومن قلة المبالاة بإفساد هذا الشرق وإفساد أهله حتى ينال منه منالاً يكفل له حرية التصرف فى كنوزه . فعلينا أن نقف حُراسًا على كنوزنا لا نبيحها بعد اليوم لأحد . وعلى رجال السياسة منا أن يغيروا مناهجهم السياسية تغييرًا تامًّا يقوم على أساس واحد ، هو أننا لن نعاون هذا الغرب على الفجور فى الأرض ، وأننا نمنع عنه مادة الفساد التى يريدها لتدمير حضارات العالم ، وأننا قد عزمنا أن ننشيء مدنيّة جديدة وحضارة جديدة لا تقوم على الجشع ولا على الاستبداد . وأننا أحرار فى بلادنا كل الحرية وإن اجتمعت دول العالم كله على إنكار هذه الحرية . ولا يصل العرب والمسلمون إلى هذا إلا بشيء واحد هو أن تجتمع الكلمة فى الأرض العربية والأرض الإسلامية على هذا الشيء الواحد ، وهو أن لا مفاوضة ولا معاهدة ولا مخابرة ولا مهادنة ، وأن الشرق لن يستقر على قرار حتى تجلو الجنود المستعمرة عن أراضيه كلها ، وأن كل عون للاستعمار فى هذا الشرق من الأجانب واليهود الصهيونيين قد كتب عليهم أن يخرجوا من بلادنا إلى حيث شاءوا ، وأننا لن نقبل دون هذا شيئًا يصرفنا عن الغرض الأعظم ، وهو تجديد حضارة العالم على أسس من العدل والحق والمساواة والحرية . هذا هو المطلب الأعظم الذى ينبغى أن توجه إليه سياستنا كلها ، لا تخدعنا عنه خطرفة

السياسيين المتهالكين الذى يقولون للشرق : أنت عاجز ، فمن لك ببلوغ هذا المطلب البعيد المغرق فى الخيال !

كلا ، ليس الشرق عاجزًا بل هو أهل لما حُمِّل ، وإن تراءى للناس على غير الحقيقة المستكنة وراء هذا الطوفان من الفقر والجهل والفساد . فإذا عزم العرب وعزم رجاله وقواده أن يفعلوا ، فلن يحول بينهم وبين ما يبتغون شىء جل أو تفاقم . بيد أننا اليوم فى حاجة إلى الأخذ بهذا المبدأ الواحد ، وإلى إزالة أولئك السياسيين القدماء عن مكان القيادة فى بلادنا ، وإلى تقدم الفئة الصالحة إلى هذه التبعة الجليلة لتحملها حملا لا يعجزها ولا يصرفها عنه خوف ولا تردد . ولقد سبق العراق ، وسوف تتبعه سائر البلاد العربية والإسلامية ، ولن نلبث قليلا حتى نرى فى هذا الشرق عجائب القوة العظيمة التى انطوت عليها جوانحه ، فلا بد من أن تفسح الحكومات الطريق للعمل القوى الماضى الذى لا يرتد عن غايته ، ولابد من أن تدفع الشعوب عن نفسها طغيان السياسيين المخادعين المنافقين ، ولابد من أن يتولى العرب بأنفسهم حل هذه القضية الواحدة بالصبر والمقاطعة ، وبالعزم والجلاد وبالتضحية الكبرى فى سبيل إنقاذ البشر من فتن كقطع الليل المظلم ، ومن فساد جارف كالسيل المتدفق ، ومن طغيان قذر قد ارتطم فيه هذا العالم القديم الذى قام على أسس فاجرة من الجشع .

أفيقوا أيها الناس ، واستيقظى أيتها الحكومات ، وتقدمى أيتها الجامعة العربية باسم العرب إلى حمل التبعة العظيمة والزمن أسرع منكم ، فبادروه بالعمل والصرامة ، وبالصدق والإخلاص ، فإن حياتكم وحياة أممكم معقودة بشىء واحد ، هو ثباتكم على المبدأ الأعظم ، وأخذكم بالقوة التى استودعها الله فى قومكم وغفلتم عنها أجيالا طوالا . هبوا فقد أَنَى [1] زمنكم وأعدَّكم الله لشىء أنتم بالغوه فى الناس وفى أنفسكم .

* * *

(١) أَنَى : حان ودَنا .

الحرية ! الحرية !

أصبحت الجامعة العربية حديث العرب والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، قد ناطوا بها كل آمالهم فى بلوغ غاياتهم وإدراك ما تتمناه قلوبهم وضمائرهم ، وحسب الجامعة أن تكون قبلة أربعمائة مليون عربى ومسلم فى دنيا كلها عدوّ لنا يبغينا الغوائل . ولكن لا حسب ، فليس من الحق أن نترك الجامعة تسير وحدها فى الطريق دون أن ترتفع أصوات طلاب الحق تؤيدهاوتسددها وتشير عليها بالرأى بعد الرأى ، فإن رجال الجامعة رجال من أنفسنا ، قد رضيت العرب أن تعهد إليهم بقيادة هذه الشعوب المطالبة بالتحرر من قيود الاستعمار التى ضربت علينا ونحن فى غفلة عن الدنيا الضارية التى أرسلت علينا وحوشها ترتع فى حمانا ، وتستأثر بخير بلادنا ، وتنال منا نيلا شديدًا .

وقد آن أوان تغيير ما كان وما سار عليه العمل فى السنوات الماضية . فالجامعة ترى كما يرى كل عربى ومسلم منذ وضعت الحرب العالمية الماضية أوزارها ، أن أوربة الجائعة التى لا تشبع ، قد خرجت من تحت أنقاض الحرب المدمرة وهى أشد ضراوة ووحشية مما كانت قبل الحرب وفى زمان الحرب . وأنها تريد أن تلتهم كل شىء فتشبع ونجوع نحن ، وتعبث ونئن نحن ، وتستغرق فى الترف وناعم العيش وإن أغرقتنا نحن فى الضنك وبؤس الحياة . فهذه روسيا تريد أن توغل حيث أطاقت وحيث تيسر لها أن تتوغل . وهذه بريطانيا الكاهنة العتيقة العاتية تريد أن تتلو زمازم [١] كهانتها على شعوبنا لتنيمَنا مرة أخرى على الخسف الذى نمنا عليها أجيالا طوالا . ثم هذه ثالثة الثلاثة أمريكا التى لا ينطفئ أُوار ظمئها إلى البترول ، تريد أن تستنفد كل شىء ما استطاعت ، لتنعم هى به

---

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٣) ، فبراير ١٩٤٨ ، ص : ٢١٤ - ٢١٦

(١) الزمازم : جمع زَمْزَمَة ، وهو كلام المجوس بصوت خفِىّ ، لا يستعملون اللسان ولا الشفتين ، وإنما يديرونه فى خياشيمهم وحلوقهم فيفهم بعضهم عن بعض .

وبكل ما يطيق العلم أن يحدثه من ترف أو قوة ، فتدخل مع بريطانيا فى الحلف الاستعمارى ، لا تبالى أن تناقض تاريخ الأحرار القدمـــاء من رجالها وبناة مجدها .

وترى الجامعة كما يرى كل عربى مسلم ، أن الشرق العربى والشرق الإسلامى لم يقرَّ له قرار منذ سكنت نار الحرب ، فقد انبعثت أندونيسيا تريد الحرية فلم يبال بها أحد ، وانبعثت الهند تريد الحرية فأناموها بأن أدخلوها فى نظام الدومنيون ، وهبت مصر والسودان تجادل عن حقها فى مجلس الأمن فأصمت الأمم الداعية إلى الحرية آذانها ، وعلقوا القضية فى هيكل الوثنية الحديثة التى تعبد إله الشهوات ، وثار العراق يريد أن يحطم قيود الذل فأرادت بريطانيا أن تختدعه عن نفسه فأبى إباء الأحرار ، وماج المغرب العربى فى تونس والجزائر ومراكش ، فضربت عليه فرنسا حكم الجبروت وألقت بينه وبين العالم أسدادًا من فولاذ الظلم والطغيان ، وسكت العالم الجديد عن هذا البغى اللئيم الذى ليس له رادع من نفسه ولا من الناس . وفارت مدغشقر فأطفأ المستعمرون تلك الأرواح المستعرة بأسنة الحراب . وأخيرا كشفت روسيا وبريطانيا وأمريكا وسائر الدول الصليبية قناع النفاق والرياء ، فقضت أن تطلق على فلسطين أنذال البشرية من يهود ، ليطردوا العرب من أرض آبائهم وأجدادهم منذ كان للعرب على هذه الأرض تاريخ ، فأجمعت الأمم الإسلامية على أن ترد على العدوان وإن اجتمعت الدنيا كلها على تحقيقه ومناصرته .

ترى الجامعة العربية كل هذا كما يراه كل مسلم وعربى ، ولكنها لا تزال تسير فى أمر هذه الثورة الجامحة - التى يريد بها العرب والمسلمون أن يطهروا أنفسهم من الاستعباد ، وأن يطهروا أرض الله من البغى والعدوان - سيرةً لم يسرها قبل مطالب بحق يعلم أنه حق لا نزاع فيه . فهى تشغل نفسها مثلًا بقضية فلسطين وحدها - على خطر شأنها - وتنسى ما يجرى فى مراكش وتونس والجزائر ، وما يحدث فى العراق ، وماهو كائن فى مصر والسودان ، وما لا يزال يحدث فى أندونيسيا وسائر البلدان والأمم المطالبة بالحرية . ولعلها تقول إنها تنظر فى الأهم

ثم المهم ، وإنها لا تريد أن تخرج عن الأصل الذى وضعت له والذى يدل عليه اسمها وهو « جامعة الدول العربية » ، لا جامعة العرب ، ولا جامعة الإسلام ، ولا جامعة الشرق . وهذا حق ، ولكن ما الذى يحسبها [١] على هذا وحده ؟ وما معنى أن تقصر أمرها على الدول العربية « المستقلة » فى ظاهر الأمر ؟ إن هذه الدول العربية « المستقلة » ليست مستقلة فى حقيقة الأمر ، وإلا ففيم ثورة مصر والسودان ؟ وفيم ثورة العراق ؟ وفيم غليان شرق الأردن ؟ فليس من الرأى أن تظل الجامعة العربية مقيدة بأشياء هى حبر على ورق ؛ بل ينبغى أن تضم إليها رجالا من تونس والجزائر ومراكش ، وينبغى أن تضم إليها رجالا من سائر الدول الإسلامية والشرقية ممن لهم مع العرب صلات لا يمكن أن تقطعها هذه القواطع المزيفة ، وينبغى أن تعلن الجامعة العربية أنها قد أخذت على عاتقها أن تدافع عن حرية العرب وحرية المسلمين ، وينبغى أن تكون هى المؤتمر العام الذى ينضم إليه كل ناشد للحرية فى هذه الأرض مهما اختلفت الأجناس والأديان .

بل ينبغى أن تجمع الجامعة العربية فى يدها أمر السياسة العربية والإسلامية جملة واحدة ، وأن تضع المبادئ التى يجب على كل أمة تنضم إليها أن تعمل بها ، وأن تكون هى المعبرة عن النداء العام الذى تنادى به هذه الأمم والشعوب وهو : الحرية ! وينبغى أن تسير فى ذلك كله مرة واحدة ، فلا تفرق قضية الحرية إلى قضايا كل واحدة منها تعالج على أسلوب يخالف أخاه أو يتخلف عنه .

إن روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا وسائر الدول المستعمرة ، أو أذيال الدول المستعمرة ، قد اتفقوا جميعًا على العرب والمسلمين وأهل الشرق ، ففيم نتأخر نحن أو نحجم أو نتلجلج؟ ولم لا نعمل جميعًا جملة واحدة ، ويدًا واحدة ، وفى وقت واحد ، وأى عائق يعوق المطالبين بالحرية والناشدين لها عن اجتماع الكلمة على هذا الحق الذى لا يملك أحد أن يمنحه أحدًا ، لأنه عطية الله ونعمته ، ليس لأحد أن يسلبه ؟ وكيف يسلبه وهو قوام هذا البنيان الإلهى ؟ فإذا خلا هذا البنيان

---

(١) كذا فى الأصول ، والأوفق أن تكون : يَحْبِسُها ، كما يتضح من الكلام الآتى بعد .

من الحرية ، فقد خلا من الحياة وانهدم ، وكان أنقاضًا تسعى على أرض تلفظها ، وتستظل بسماء تلعنها .

إن جامعة الدول العربية ، إنما تتكلم اليوم باسم الشعوب العربية لا باسم الحكومات وحدها . فلتعلم الجامعة أن الشعوب قد سئمت هذه السياسة العتيقة البالية ، سياسة المداورة والمحاورة ، سياسة الظنون الخداعة ، سياسة المغررين الذين يحسبون أن سينالون حقوقهم بالمفاوضات والمحادثات والمخابرات والمخادعات . فلتحذر إذن أن تقف دون الغاية التى تسعى إليها شعوبها ، ولتخط الخطوة الواسعة التى خطتها الشعوب فى سبيل درك الحرية وانتزاعها من يد الجبابرة الظالمين . إنها اليوم أعظم قوة فى هذا الشرق العربى والإسلامى ، فلزام عليها أن تنطق بإرادة هذه الشعوب مجتمعة ، لا بإرادة حكومات تغرَّر بها السياسة ، ولا بإرادة أفراد مهما بلغ سلطانهم فهو دون سلطان الشعوب التى يمثلونها ، بل ينبغى أن تكون الجامعة هى الرقيب الذى لا ينام على إرادة هذه الحكومات وعلى إرادة هؤلاء الأفراد ، طبقًا لإرادة الشعوب وحدها .

إنى لا أزال أنذر الناس أننا نعيش اليوم فى زمن غير الزمن الذى ألفوه منذ خمس سنوات وحسب ، فاليقظة التى تدب اليوم فى كيان الشعوب العربية والإسلامية أضخم وأعظم وأقوى مما يخطر ببال أحد ، إنها القوة التى لا يقف دونها سلطان ولا طغيان ولا بأس . نعم ، إن النظر العابر الخاطف لا يكاد يدل على هذه الحقيقة ، ولكن النظرة المتأنية المتعمقة تستطيع أن تحس بهذه الحركة الجياشة التى فار فائرها تحت هذا الظاهر الساكن المطمئن . وإنما يغفل من يغفل عن إدراك هذه القوة ، لأنه ألف شيئًا مضى ، فقاس عليه شيئًا جديدًا يراه وهو متأثر بهذا الماضى ، ولأنه مسوق فى عنان هذه السرعة الخاطفة التى يجرى بها عالمنا الحاضر إلى الغايات التى لا يعلم غيبها إلا عالم غيب السموات والأرض . ولكن الجامعة العربية قد فرض عليها أن تنظر النظرة المتأنية العميقة لتدرك هذه الحقيقة التى لا تخفى ، ثم تقيم سياستها على هذا الأصل وحده دون الأصول الأخرى التى ورثتها عن السياسات العتيقة ، سياسة المفاوضات والمخادعات ، وسياسة الأخذ والإعطاء ، وسياسة تقسيم القضية الواحدة – قضية الحرية .

إنى أنذر الحكومات ، وأنذر الجامعة العربية بأن هذه اليقظة القوية العنيفة سوف تنكشف عن قريب ، وأنها إذا لم تجد الحكومات ، ولم تجد الجامعة العربية ، قد تهيأوا للسير فى خطاها . فهى ستدمرهم جميعًا ، ويخشى يومئذ أن تنقلب هذه اليقظة فتنة هوجاء لا قائد لها تعصف بهم جميعًا عصف الرياح بهشيم النبات . فليتق الله كل عامل منا ، ولينظر إلى غد ، وليعرف حقيقة هذه الشعوب ، وليأخذ نصيبه من التبعة التى ألقاها عليه مكانه من الناس ومن الشعوب .

إن قضية الشعوب العربية والشرقية والإسلامية « قضية واحدة » ، فاكتبوا هذه الكلمة فى كل مكان ، ورددوها بكل لسان ، واهدروا بها هدير الأمواج فى هذه البحار المظلمة ، فإنها كلمة النجاة لكم ولشعوبكم وللناس جميعًا .

إن ساعة الخطر الأعظم قد دنت وتطابقت علينا عقاربها من هنا ومن ثم ، وإن بريطانيا أولا ثم أمريكا وروسيا وأذيالهم من أمم الاستعمار الصليبية ، تدرك هذه الحقيقة كل الإدراك ، فهى تريد أن تمزق شمل هذه القوة قبل أن تجتمع وتبدو جملة واحدة . فبريطانيا تريد أن تشغل كل قبيل منا أو كل دولة بشأن من شئونها التى تثير جماهير رجال السياسة القدماء ، أولئك الرجال الذين نشأوا فى أحضانها ، أو فى أحضان استعمارها الخبيث . وأمريكا تريد أن تشغل كل أمة منا باللعنة الماحقة التى تقوم عليها قوتها وهى البترول ومنابع البترول ، تشتريه من هذه الأمم الفقيرة بأبخس الأثمان ، فتنقله إلى بلادها فيكون أرخص ثمنًا من البترول الذى تستخرجه من نفس أرضها ! وتخدع هؤلاء المساكين بالدولار تعطيه ، وهو ليس عطية ، بل محنة وبلاء واستعبادًا للإنسان الفقير الذى يظن أن المال هو كل شىء فى هذه الدنيا . وأما روسيا فهى تعمل جاهدة على أن تأتى هذه الشعوب من طريق فتنتها عن الهدف الأعظم وهى الحرية ، وتوجهها إلى الفتنة الخبيثة توقدها بين الغنى والفقير ، والمالك والمستأجر ، والعامل وصاحب المال ، حتى إذا صرفت الوجوه عن حقيقة الحياة – أى عن الحرية – دخلت فاستقرت وتحكمت واستبدت ، وفعلت بنا ما فعل هؤلاء الديمقراطيون : زعموا أنهم يدافعون عن الحرية ثم سلبونا حريتنا ، وتدعى روسيا أنها تريد المساواة بين الناس ؛ فإذا دخلت

بيننا حرمتنا هذه المساواة . إن هذه الدول جميعًا على اختلافها واختلاف مصالحها قد اتفقت على مصلحة واحدة هى أن تقتلنا ، ثم يأتى بعد ذلك تنازعهم واقتتالهم على أسلاب هذا القتيل .

فالجامعة العربية هى التى كتب عليها منذ اليوم أن تقف حيال هذه القوى مجتمعة لتردَّها عن هذا الهدف اللئيم الذى تسعى اليه ، فلتجمع فى لسانها ضمير هذه الشعوب المستهدفة للخطر الأعظم ، ولتنطق بالكلمة الواحدة التى تعبر عن هذا الضمير ، وهى أن قضية العرب والشرق والإسلام قضية واحدة ، قضية لا تتجزأ لأن الحرية لا تتجزأ . والجامعة العربية تعلم - أو ينبغى أن تعلم - أنها إذا نطقت بهذه الكلمة وجعلتها أصل سياستها التى لا نقبل فيها مهادنة ولا مفاوضة ولا مجادلة ، انبعث من ورائها قوة أربعمائة مليون نسمة تهتف من ورائها هتافًا يهدّ الجبال الراسيات ، ويشتت بأس الأمم الطاغية بسلاحها ومدمراتها وجبروتها وبغيها ويهودها أيضا . إنهم أربعمائة مليون يهتفون بلسان واحد فى وقت واحد : الحرية الحرية !

إنها قضية واحدة أيتها الجامعة ! إنها قضية واحدة أيتها الحكومات ! إنها قضية واحدة أيها الملوك والأمراء ! فأجمعوا أمركم وتنادوا جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها - من حدود الصين إلى بلاد المغرب الأقصى ، ومن أطراف الشام إلى جنوب إفريقية . تنادوا بالكلمة الواحدة التى تزلزل هذه الأرض التى امتلأت جوانبها بغيًا وظلمًا وفسادًا ، تنادوا بحرف واحد وبلسان واحد ، وفى وقت واحد : الحرية ! الحرية ! ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ .

* * *

لمن أكتب ؟

بينى وبينها أيام معتقة كأنها خمر فى دِنان الزمن ، فإذا ما قدّر الله لنا أن نجتمع يومًا ، طارت بلبى نشوة ترمى بى إلى عالم ساكن ناضر ناعم النسمات ، فأفارق بها عالمًا صاخبًا محترقًا لافح الرياح عاصف الأعاصير . واجتماعنا هو إحدى الأمانى التى يقول فى مثلها الشاعر :

أمانى من سعدى رِواءٌ ، كأنما
سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

وإذا اجتمعنا وتنهدت بيننا الأحاديث ، فربما فاجأتنى بالسؤال لا أتوقعه ، فيردنى سؤالها إلى نفسى ردًّا عنيفًا لا أملك معه إلا أن أديم طرفى إلى هذا الوجه الذى يخفى وراءه نفسًا ثائرة ، ولكنها ساكنة على ثورتها سكون الجبال الراسيات . ولست أدرى أتلك إحدى لطائف الحيل التى تحب أن توقظنى بها من غفوة الأحلام ، أم تلك يقظة دائمة فى نفس لا تطيق إلا أن تكون متيقظة حين يدعوها الهوى إلى إغفاءة تريحها من ثورة نفسها واضطرابها ؟ وأى ذلك كان ، فهى قد أخذتنى أخذًا شديدًا حين استوت فى جلستها وقالت : حدثنى ، لمن تكتب هذا الذى تكتبه ؟ إنهم جميعًا نيام يغطون ، فلو قذفتهم بالشهب أو الصواعق لناموا على وقعها أو إحراقها .

فلما أفقت على سؤالها ، جعلت أردده فى نفسى وأنا أملأ عينى من صفاء هذه الينابيع التى تترقرق فى وجهها وفى عينيها . وأخيرًا قلت لها : لن أجيبك إلا حيث تقرأين كلامى ، ودعينا لما بنا ، فإن لقاءنا ساعةٌ فرت إلينا من هذا الفراق السرمدى .

* * *

* الرسالة ، السنة السادسة عشرة (العدد ٧٦٦) ، مارس ١٩٤٨ ، ص : ٢٧٤ - ٢٧٦ .

لمن أكتب ؟ لم أحاول قط أن أعرف لمن أكتب ؟ ولم أكتب ؟ ولكنى أحس الآن من سر قلبى أنى إنما كنت أكتب ، ولا أزال أكتب ، لإنسان من الناس لا أدرى من هو ، ولا أين هو : أهو حى فيسمعنى ، أم جنين لم يولد بعد سوف يقدَّر له أن يقرأنى ؟ ولست على يقين من شىء إلا أن الذى أدعو إليه سوف يتحقق يومًا على يد من يحسن توجيه هذه الأمم العربية والإسلامية إلى الغاية التى خلقت لها ، وهى إنشاء حضارة جديدة فى هذا العالم ، تطمس هذه الحضارة التى فارت بالأحقاد والأضغان والمظالم ، ولم يتورع أهلها عن الجور والبغى فى كل شىء ، حتى فى أنبل الأشياء - وهو العلم .

لم يخامر قلبى يأس قط من هذه الفترة التى نعيش فيها من زمننا ، ولم يداخلنى الشك فى حقيقة هذه الشعوب ، وإن كانت لا تزال تعيش فى بلبلة جياشة بأخلاط من الغرور والخداع والعبث ، وفى أكفان من الفقر والجهل والمخافة ، وفى كهوف من الظلم والاستبداد وقلة الرحمة . كل ذلك شىء أراه وأعرفه ، ولكنى أستشف تحت ذلك كله نقاء وطهرًا وقوة تدب فى أوصال هذا العالم الذى أوجه إليه كلامى ، وهو خليق أن يتجمع للوثبة فى الساعة التى كتب له فيها أن يهب مرة واحدة تذهل الناس كما أذهلتهم من قبل ، وهو خليق أن يكون سر الحياة الجديدة التى تضرب عروقها إلى عصور بعيدة فى تاريخ البشر . ولعل هذه المحن التى أحاطت به من خارج ، والتى استبطنته من داخل ، هى حوافز البعث الجديد ، وهى نار التمحيص التى تنفى خبثه كما ينفى الكير خَبَثَ الحديد .

أنا أعلم أن رجال السياسة عندنا لا يزالون أَوْزاعًا [١] من خلق الله لا ندرى كيف نشأوا ، وعلى أى شىء قامت شهرتهم ولا إلى أين تمضى أهدافهم ، وهم فوق ذلك كله قد لوّثوا ضمائرهم وعقولهم وأخلاقهم وعزائمهم بأشياء لا يمكن أن تؤدى إلى خير وهم قد أشربوا فتنة بأخلاق الساسة الطغاة الذين ابتلى بهم

---

(١) أوزاع : الفِرَق والجماعات من الناس ، يكون متفرقين غير مجتمعين .

الغرب وامتحنت بهم الحضارة الغربية . ولست أشك ساعة فى أنهم لا خير فيها البتة ، مهما دل ظاهر تدليسهم أو تدليس الصحافة بأسمائهم على أنهم يفعلون خيرًا أو أنهم سوف ينتهون إلى خير ولست أرتاب البتة فى أن الخير كل الخير هو فى زوالهم جملةً واحدة من مكانهم ، لكى يتسنى لهذه الشعوب العربية والإسلامية أن تهتدى إلى الحق فى حياتها وفى جهادها وفى أهدافها .

وأنا أعلم أن رجال العلم من أى أقسامه كانوا ، لا يزالون يتعبَّدون أنفسهم لكثير مما لا نفع فيه لأممهم ، بل لعلهم لا يزالون يترفعون عن هذه الشعوب الفقيرة الجاهلة ، والتى هى شعوبهم ، ظنًّا منهم أنها شعوب لا تستطيع أن تبلغ ما بلغ الناس فى العلم ، فضلا عن أن يدركوا سوابق العلماء فى هذه الفترة من زماننا ، فضلا عن يسبقوا أمم الحضارة الحاضرة فى ميدان هذه العلوم . وهم فى خلال ذلك - إلا من عصم الله - يبسطون ألسنتهم بسطًا شديدًا فى أعراض هذه الشعوب ، فيقرفونها بكل مَسَبَّة ، ثم يصرفون وجوههم إلى أوربة وأمريكا وغيرهما كأنما هم منها ومن صميمها ، لا من هذه الشعوب البائسة التى ظنوا أن الموت كتاب محتوم عليها .

وأنا أعلم أن أكثر أهل السلطان فى هذا الشرق ، لا يزالون يعيشون فى عزلة لا يبالون قليلا ولا كثيرًا بما فيه خير بلادهم ، وأنهم يحتقرون جماهير الشعوب احتقارًا ينسرب فى خاصّ كلامهم كما ينسرب فى أكثر أفعالهم . وهم فئة قليلة فتنتها النعمة والترف واللذاذات ، حتى ما تبالى أن تصب على أممها ضروبًا من المظالم كان ينبغى أن تترفع عن ارتكابها ، لا رحمة بالناس ، بل مخافة من الناس ، فالشعوب إذا هاجها ما يهجيها لم تبق على شىء وإن كان فى بقائه خيرها .

وأنا أعلم أن أهل الدين - إلا من رحم ربك - قد رَمْوا بدينهم ظِهريًّا ، وإن لبسوا لباسه وتشبهوا على الناس وغرَّوهم باسم هذا الدين . وهم يأكلون باسم الدين نارًا حامية ، وهم قد فقدوا بفقد آداب هذا الدين كل شىء يجعل لهم عند الناس مكانة ترفعهم عن الشبهات ، وبذلك أصبحوا كالعامة التى تحتاج إلى من يقودها ويهديها .

وقصارى ما يقال هو أن الحياة فى هذا الشرق على اختلاف نحله ومذاهبه وأديانه وأحزابه ، قد صار كأهل سفينة جُنَّ أكثر من فيها ، وكلهم يريد أن يقود السفينة كما خيلت له طوائف وساوسه وأوهامه ، مستبدًّا بما يرى من الرأى . ولكنى مع ذلك لن أيأس ساعة من أهل الخير ، لن أيأس من رجل أو رجال توقظهم هذه البلوى المحيطة بالجماعة ، فيدفعها حب الحياة وحب الخير إلى نفض غبار القرون عن أنفسهم ، ثم تنشط من عقالها إلى قيادة هذه الناس بقوة تنفث فى هؤلاء جميعًا رُوحًا مسدِّدة هادية تبرئهم مما أصابهم ، وتستنقذ منهم من يصلح للبقاء والعمل فى جيل جديد ، له هدف معين ، وله طريق لا يفارقه ، وله همة جياشة تجعله يطوى المسافات المترامية طيًّا حتى يصل إلى غايته لم يلحقه كلل ولا سآمة ولا إعياء .

فأنا أكتب لرجل أو رجال سوف يخرجون من غمار هذا الخلق ، قد امتلأت قلوبهم بالقوة التى تنفجر من قلوبهم كالسيل الجارف ، تطوح بما لا خير فيه ، وتروى أرضًا صالحة تنبت نباتًا طيبًا .

ومهما كان من أمر تلك الطوائف التى ذكرتها ، ومهما كان رأيها فى هذه الشعوب التى تنتمى إليها ، ومهما عدت شعوبها سائمة ترعى أيامًا معدودة حتى تتخطفها أرماح الأجل ، فمن هذه (السائمة) سوف ينفرد رجل يقود الشعوب بحقها لأنه منها : يشعر بما كانت تشعر به ، ويألم لما كانت تألم له ، وينبض قلبه بالأمانى التى كانت تنبض فى قلوبها . وهو وحده الذى يعرف كيف يرفع عن عيونها حجاب الجهل ، ويطرح عن كواهلها قواصم الفقر ، ويملأ قلوبها بما امتلأ به قلبه من حب هذه الأرض التى تعيش فيها مضطهدة ذليلة خائفة .

إنه الرجل الذى قد خُلطت طينته التى خلق منها بالحرية ، فأبت كل ذرة فى بدنه أن تكون عبدًا لأحد ممن خلق الله على هذه الأرض ، فهو يشرق من جميع نواحيه على أجيال الناس كلها كما تشرق الشمس ترمى بأشعتها هنا وهنا ، ولا يملك الناس إلا أن ينصبوا لها وجوههم وأبدانهم ليذهب عنهم هذا البرد الشديد الذى شلهم وأمسك أوصالهم عن الحركة . وهو يسير بينهم فتسرى نفسه فى نفوسهم ، فتموج الحياة فيهم بأمواجها التى لا يقف دونها شىء مهما بلغت قوته أو جبروته .

ألا إن الشرق العربى لينتظر صابرًا كعادته هذا الرجل . وإنى لأحس أن كل شرقى قد أصبح اليوم يتلفت لا من حيرة وضلال ، بل توقعًا لشىء سوف يأتى قد أَنى [١] زمانه ، ففى كل نفس منه خاطرة تختلج . وهذا الإحساس فينا هو الذى يحملنى على الإيمان بأن ذلك كائن عن قريب ، وأننا قد أشرفنا على زمن قد كتب الله علينا فيه أن نجاهد فى سبيله ، ثم فى سبيل الحق والحرية والعدل ، لأننا نحن أبناء الحق والحرية والعدل ، قد ارتضعنا لبانها منذ الأزل البعيد . وكل ما دخل علينا فى القرون الماضية من المظالم والأكاذيب والاستبداد ، لم يستطع أن يخفت ذلك الصوت الذى تتجاوب به نفوسنا باسم الحق والحرية والعدل .

إن هذه الشعوب التى تُرَى اليوم كأنها على بلادها أسمالٌ بالية ممزقة ، قد بدأت تحس أن عليها أن تتجدد أو أن تزول ، وطبيعة الحياة تأبى لها أن تزول ، فهى لابد أن تتجدد . وهذا الدافع وحده سوف يمهد للرجل المنتظر أن يزأر زئيره فتصغى له آذان الملايين من أبناء الشرق ، ثم تنطلق من مجاثمها إليه مجيبة لندائه ، فإذا انطلقت إليه أرسالاً [٢] ، فيومئذ لن يقف فى طريقها أولئك الساسة المنافقون ، ولا أولئك العلماء المتبجحون ، ولا أولئك الديَّانون المخادعون ، بل سوف يصيرون تبعًا ، وقد طال ما خيلت لهم نفوسهم أنهم الرؤوس والسادة .

فأنا إن كتبت ، فإنما أكتب لأتعجل قيام هذا الرجل من غمار الناس ، لينقذنا من قبور جثمت علينا صفائحها [٣] منذ أمد طويل . وليس بيننا وبين هذا البعث إلا القليل ، ثم نسمع صرخة الحياة الحرة العادلة يستهل بها كل مولود على هذه الأرض الكريمة التى ورثناها بحقها ، ليس لنا فى فتر [٤] منها شريك .

* * *

---

(١) أنى : حان ودنا .

(٢) أرسالا : جماعات ، واحدة بعد الأخرى .

(٣) الصفائح : حجارة عِراض توضع فوق القبور ، المفرد صَفِيحة .

(٤) الفِتر : مسافة مابين السبَّابة والإبهام .

على حد منكب

قلت قديمًا فى الرسالة [١] إن الشيخ إبراهيم اليازجى ومن لف لفه كالمعلم الشرتونى ، هم أصحاب حشد وتخليط فى جمع اللغة . وآفة الحشد والاستكثار ترك التبصر ومجافاة التمحيص . ثم يأتى الناس بعد ذلك فيأخذون هذا الحشد على ثقة وأمن ، فتزداد بلبلة الناس فى شأن اللغة . فما كل أحد يصبر على تتبع الكلام المبعثر فى الشعر والنثر ، ثم جمعه وتأليفه ، ثم النظر فى أصوله ومبانيه ، ثم تمحيص المعانى المختلطة ورد كل قرينة منها إلى أختها .

وقد قرأت فى عدد الرسالة (٩٠٨) ما نقله الأستاذ محمود أبو رية من كتاب نجعة الرائد لليازجى : (هو منه على حد منكب : أى منحرف عنه دائم الإعراض) وما عقبت به الرسالة من قول أقرب الموارد : (وفلان معى على حد منكب : أى كلما رآنى التوى ولم يتلقنى بوجهه ، وهو كقولهم : فلان يلقانى على حرف) . وأستطيع أن أوسع لليازجى والشرتونى فى هذا الموضع مكان العذر ، فقد نقلا ، ولكنهما لم يتنخَّلا الكلام ولم يمحصاه . والذى أوقعهما فى هذا الوهم ، هو حب الاستكثار ، ثم اطمئنانهما إلى شيخ قديم كان من أئمة العربية ، ولكنه كان أيضًا عريض الدعوى ، جريئًا على التوهم ، كثير التخليط فى اجتهاده ، بل كان يدلس فيما يكتب ، إذ كان يأتى بالشىء يوهمك أنه مما نقله عن الرواة قبله ، وهو فى الحقيقة مما اخترعه بسوء رأيه وقلة معرفته بغامض كلام العرب - ولا أعنى غريبه ، فهو كان قيما بالغريب حفظًا ونقلا . وهذا الشيخ القديم هو الخطيب التبريزى شارح الحماسة . ويدل شرحه للحماسة على

---

* الرسالة ، السنة الثامنة عشرة (العدد ٩١٠) ، ديسمبر ١٩٥٠ ، ص : ١٣٨٥ - ١٣٨٧

(١) مضى هذا المقال بعنوان « الهجرة » ، الرسالة ، السنة الثامنة (العدد ٣٤٦) ، ١٩٤٠

ما ذكرت من صفته ، وعلى شىء آخر ، هو ضعفه الشديد فى فهم دقائق الشعر العربى . ثم على شىء آخر أيضًا ، هو أنه مشغول بالنحو وما إليه وبالإغراب فى بيان وجوهه المختلفة . وهذه الكلمة التى نقلها اليازجى والشرتونى عنه ، هو صاحبها ، وهو مدعى هذا المعنى لها ، ولم ترد فى شعر قديم ، ولا نثر معروف ، على الوجه الذى توهمه التبريزى واحتال له . وإنما أتى الشيخ من سوء فهمه لما تولى شرحه من شعر الحماسة .

جاءت الكلمة فى شعر للبعيث بن حريث بن جابر الحنفى ، أحد بنى الدُّؤَل ابن حنيفة بن لجيم ... بن بكر بن وائل ، وهى أبيات جياد مختارة ، يذكر فيها طروق طيف صاحبته على بُعْد الزيارة ، ثم مسيره فى البلاد ، ثم يفخر بنفسه وبمحاماته دون عشيرته وذبه عن مآثرها ومجدها ، يقول فى مطلعها :

خيال لأُمِّ السَّلْسَبيل ودونها ... مَسيرةُ شهرٍ للبريد المُذَبْذَبِ ! [١]

حتى يفخر بما فعل فى نصرة رجلين من قومه هما (يزيد) و (عبس) ، كانا استصرخا به فى مُلِمَّة من ملمات الحروب ، فنصرهما وحامى عنهما ، واستنقذهما ، وهم يومئذ جميعًا فى غربة عن ديار عشيرتهم ، قال البعيث فى ذلك :

وإن مَسِيرى فى البلاد ومنزلى ... لبالمنزل الأقصى إذا لم أُقَرَّبِ [٢]

ولست ، وإن قُرِّبْتُ يومًا ببائع ... خَلاقى ولا دينى ابتغاء التحبُّبِ [٣]

ويَعْتَدُّهُ قوم كثير تجارةً ... ويمنعنى من ذاك دينى ومنصبى

دعانى يزيد ، بعد ما ساء ظنه ، ... وعَبْسٌ ، وقد كانا على حَدِّ مَنْكِبِ

وقد علما أن العشيرة كلَّها ، ... سوى مَحْضَرِى ، من خاذلين وُغيَّبِ

فكنتُ أنا الحامى حقيقة وائل ... كما كان يَحْمِى عن حقائقها أبى

---

(١) المذبذَب : المُتَعَجِّل .

(٢) أقرَّب : أُكرَّم وأُدْنى .

(٣) الخلاق : الحظ والنصيب من الصَّلاح .

ويظهر لى أن البعيث كان قد خرج هو وصاحباه (يزيد وعبس) إلى خراسان فى ولاية أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، ومن أجل ذلك قال : « ومن دونها مسيرة شهر للبريد المذبذب »

قال التبريزى فى شرح البيت : « أى أشرفا على الهلاك . هذا إذا رويت بفتح الكاف . يقال : أصابه نَكْبٌ من الدهر ومَنْكَب ونَكْبة ونُكُوب كثيرة . ومنه حافر نَكِيب ومَنْكُوب : إذا أثَّر فيه حجر أو غيره . ويروى (على حد منكِب) بكسر الكاف . يعنى أنهما كانا مهاجِرَيْن له . يقال : فلان معى على حد منكِب : أى كلما رآنى التوى ولم يتلقنى بوجهه . وتنكَّب عنى : أى اجتنبنى . والمنكب من كل شيء جانبه وناحيته . ومثله قولهم : فلان يلقانى على حرف . وفى القرآن ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۢ ﴾ . ويجوز أن يريد بقوله : (بعد ما ساء ظنه) بعد تسلط اليأس والقنوط من الحياة » [١] .

والذى حمل التبريزى على التفسير الذى اجتهد فيه ، وادعى فيه دعوى ليس عليها بينة من نفس الشعر ، ولا من كلام العرب ، بعد أن قارب المعنى الصحيح فى الشعر بقوله « أى أشرفا على الهلاك » - أنه أتى من سوء فهمه الذى بدر إليه فى معنى قوله : « دعانى يزيد بعد ما ساء ظنه وعبس » فتوهم أنه أراد (بعد ماساء ظنه فى) ، ثم ازداد فى توهمه فزعم مهاجرَة كانت بين البعيث وصاحبيه عبس ويزيد ، لكى تتسنى له المداخل إلى دعواه فى تأويل الكلام على وجهٍ توهمه واخترعه ، ثم أثبته بقوله « يقال : فلان « معى على حد منكب » . وهو شيء لم يقله غير التبريزى نفسه ، بالمعنى الذى فسره به ، وكان من حيرته أن عاد فى آخر شرحه يقول : « ويجوز أن يريد بقوله (بعد ما ساء ظنه) أى بعد تسلط اليأس

---

(١) كلام أستاذنا عن التبريزى فى تهجمه على المعانى وانشغاله بالنحو حق لا مراء فيه . ولكن أستاذنا هنا افتات على التبريزى وظلمه ، فهذا الشرح لم يختلقه التبريزى ، وإنما نقله عن المرزوقى بنصه (الحماسة بشرح المرزوقى ١ : ٣٨٠ - ٣٨١) ، وهذا شأن التبريزى دائما ، فقد اهتدم شرح المرزوقى حين كتب شرحه على حماسة أبى تمام ، وزاد عليه فى مسائل النحو والإعراب واشتقاق الأسماء . فالمرزوقى هو الذى اجتهد ، وهو عندى عريض الدعوى ، جريء على التوهم ، كثير التخليط فى اجتهاده .

والقنوط من الحياة » ، كأن الأول الذى فهمه هو الصواب وكأن هذا الثانى جائز على تمريض [١] .

وأخطأ التبريزى فيما فهم من قول الشاعر (ساء ظنه) ، أخطأ أيضًا فى هذا التفسير الذى قال إنه (يجوز) أن يكون من وجوه تأويلها ، فالعرب حين تأتى بقولها (ساء ظنه) فى مثل هذا الموضع ، إنما تريد بالظن : ذميم الخواطر التى تخامر نفس المحارب حين يحمر البأس ، إذ يحدث نفسه بالهرب والفرار حبا للحياة وحرصًا على الأموال ، فيرتكب أخلاق اللئام والأنذال والجبناء فى ترك المحاماة عن الأعراض مخافة الموت المطبق . فمن ذلك قول أشابة بن سفيان البجلى .

ومُسْتَلْحَم يدعو ، وقد ساء ظنه ، بمهلكة ، والخيلُ تَدْمَى نُحورُها
كررت عليه ، والجياد كأنها قنًا زاعِبىّ ، لم تَشِنْها فُطورُها [٢]
فنهنهتُ عنه أولَ الخيل ، إننى صبور ، إذا الأبطال ضجَّ صَبورُها

والمستلحم : من قولهم : استلحم (بالبناء للمجهول) أى روهق فى القتال واحتوشه العدو من هنا وهنا . فهو يدعو باسم عشيرته ، وقد حدث نفسه بالفرار . وهذا البيت هو نفس معنى بيت البعيث . إلا أن هذا قال : « بمهلكة » ، والآخر قال : « وقد كانا على حد منكب » بفتح الكاف . وهو أيضًا ما قاله التبريزى أولا ، ثم أخذه حب الاجتهاد ، فظن ظنًّا خطأً جعله رواية للبيت ، بكسر الكاف ، ثم توهم وتصنع الاجتهاد ، ثم ادعى ما ادعى .

وقول زفر بن الحارث الوالبى (المؤتلف : ١٣٠)

وإنى بذات الرِّمْثِ لم أُلْفَ عاجزًا ولا ورَعًا يوم التهايج أعزلا [٣]
منعتُ ابن ورّاد وقد ساء ظنّه وأنقذت من تحت الأسنة نوفلا

---

(١) تمريض : تَوْهِين وضعف .

(٢) القنا : الرماح ، ورمح زاعبىّ : إذا هُزّ تدافع كله كأنه يجرى فى مقدمته . الفطور : الشقوق ، أى ليس لها شقوق أصلًا فتشينها .

(٣) الوَرَع : الجبان .

بل لقد قال عروة بن الورد يتمدح بنصرته قومه (بنى عوذ) حين اشتد القتال عليهم بماوَان فقال :

تدارك عوذًا ، بعدما ساء ظنها ، بماوَان ، عِرْقٌ من أُسامة أزهرُ

يعنى نفسه حين نصرهم ، وقد أوشكوا أن يفروا عن أعدائهم . ويقول موسى ابن جابرِ الحنفى (عم البعيث صاحب الأبيات المذكورة آنفًا) :

وَجُدْتُ بنفس لا يُجاد بمثلها
وقلت : اطمئنى ، حين ساءت ظنونُها
وما خير مال لا يقى الذمَّ رَبَّهُ
بنفس امرئ فى حقها لا يهينها

أى حين خطر له أن يفر من حومة القتال

هذا أول سوء قصد التبريزى إلى المعانى . أما ثانيهما فما استخفه من الفرح باجتهاده ، حتى عجل فلم يقف على كلمة « حد » ولم يحاول أن يفهمها ، إلا على الوجه الذى بدر إلى عقله ، وهو الحد الفاصل بين شيئين . بيد أن العرب تقول : « حد الظهيرة » و « حد المطر » و « حد الخمر » و « حد الموت » وكثير من مثل ذلك ، وتعنى بالحد الشدة والبأس والصلابة والعنفوان . وقد قال موسى ابن جابر فى أول كلمته التى ذكرناها آنفًا :

ألم تريا أنى حميت حقيقتى
وباشرت حد الموت ، والموت دونها

وقد روى هذه الأبيات أبو تمام فى حماسته ، وشرحها التبريزى نفسه ، فشغله الاجتهاد فى إعراب « دونها » مرفوعة ، عن تمحيص العبارة ، وعن الوقوف على معنى « حد الموت » ، وفر إلى النحو والعروض يسود الصحف بوجوه تأويلها . ونسى أن يفسر « حد الموت » ، وهى سورته وشدته وتلهبه فى المعترك وهذا هو المعنى الذى جاء فى قول البعيث « حد منكب » : أى سورة النكبة وشدتها فى القتال ، ولم يعن الحد الفاصل بين شيئين .

وأما ثالث الثلاثة ، فإنه عجل كعادته ولم يتثبت من معنى « على » فى قوله « على حد منكب » فمعنى « على » فى مثل هذه العبارة ينظر إلى معنى « فى » أو « عند » ومن ذلك قول الحطيئة :

وإن قال مولاهم ، على جُلِّ حادث
من الدهر : رُدُّوا فضل أحلامكم ، رَدُّوا

أى عند حادث جليل ينزل بهم . وكذلك قول الفرزدق :

على ساعة ، لو كان فى القوم حاتم
على جوده ، ضنت به نفس حاتم

أى : فى ساعة شديدة ، لو شهدها حاتم لضن بالماء على أصحابه .

ورحم الله إمام العربية شيخنا المرصفى ، فإنه لم يعرج على سوء فهم التبريزى واستطالته فى الدعوى ، وقد قرأت عليه أبيات البعيث هذه أيام قراءتى عليه شرحه لحماسة أبى تمام . وقد جاء فى المطبوع من شرحه عند ذكر هذا البيت : « على حد منكب » بفتح الكاف ، مصدر ميمى من نكبه الدهر ينكبه بالضم نكبًا : أصابه بنكبة . يريد ، وقد أرهقهما العدو فبلغ منهما كل مبلغ » .

هذا ، ومعنى الأبيات الثلاثة الأخيرة أن عبسًا ويزيد حين حمى القتال ، حدثتهما نفسهما بالفرار وهما فى سورة نكبة كريهة مستأصلة ، فدعوا - كعادة العرب فى الاستغاثة والتداعى عند القتال - فقالا « يآل بكر بن وائل » ، وقد عجلا فظنا أنهما يدعوان عشيرتهما ، وبينهما وبين العشيرة « مسيرة شهر للبريد المذبذب » ، إذ كانوا فى خراسان كما قلت آنفًا ، لا فى ديار قومهما وكانت هذه الدعوة وسوسة من وساوس النفس الأمارة ، فالعشيرة كلها كما يعلمان ، علما ليس بالظن ، غائبة بعيدة ، والقليل الذى حضر منها خاذل لهما مشغول بنفسه ، إلا أنا ، فإنى حاضر لم أغب ، وإذا دعيت فلا أخذل من دعانى . فإذا دعوا فقالا « يآل بكر بن وائل » فهما لم يدعوا أحدًا سواى أنا وحدى

فكنت أنا الحامى حقيقة وائل كما كان يحمى عن حقائقها أبى

فالبيت الثانى « وقد علما أن العشيرة كلها » بيان واعتذار عن كذبه فى قوله : « دعانى يزيد ... وعبس » وهما لم يدعواه باسمه هو ، بل هتفا باسم عشيرتهم « بكر بن وائل » ومن أجل هذا المعنى قال البيت الأخير الذى بلغ به غاية الفخر بنفسه ، وحق له . فقد كان سيدًا شريفًا شاعرًا ، وكان أبوه حريث سيدًا شريفًا شاعرًا ، وكذلك كان سائر أعمامه وبنى أعمامه .

وفى البيت رواية أخرى جادلت عنها كتبى فى هذين اليومين ، فلم أهتد إليها لطول الترك والنسيان . وهى « وقد كانا على حَزٍّ منكَب » . أى فى ساعة نكبة شديدة . والحز والحزة اليسير من الوقت ، لأنه من معنى الحز وهو القطع . يقولون : « على أى حزة أتانا فلان ! » أى فى أى وقت ضيق حرج أتانا ! ويقولون : « جئتنا على حزة منكرة » أى فى ساعة منكرة شديدة . « وكيف جئت فى هذه الحزة ؟ » . ويقول أبو ذؤيب ، يذكر جفاف الماء فى شدة الحر ، وانقطاعه حين لا يطاق الصبر عنه

حتى إذا جَزَرَتْ مياه رُزُونِه ، وبأىِّ حَزٍّ مُلاوة تتقطَّعُ !! [1]

يقول : فى أى ساعة منكرة شديدة ينقطع الماء ، حين لا يستطاع الصبر عنه ! فهذه الرواية تؤيد تفسيرنا ، وتنفى عنه تحريف التبريزى وانتحاله واختراعه واجتهاده وأرجو أن يفسح لى القارئ العذر فى الإطالة ، كما أفسح الناس لتخليط التبريزى والناقلين عنه .

* * *

(١) الرُّزُون : جمع رَزْن ، وهى نُقْرَة فى الصخر يتجمع فيها الماء .

ذو العقل يشقى [١]...

لولا أنى أكره خلائق السوء ، لما حملت هذا القلم لأرد به على هذا الذى تكلف مؤونة الجدال عن صاحبه [٢] ، ولولا أنه كتب ما كتب فى الرسالة ، وهى مألف قديم يحن إليه هذا القلم ، لما غلبنى على ما أدبت به نفسى من هجر صغائر الأمور . ومن خلائق السوء عندى أن يجهد كاتب قلمه فى نقد ما أكتب ، ثم أغفل رده إلى الحق إن أخطأ ، أو متابعته على الصواب إذا أصاب . ومهما يكن رأيى فيما كتب الأستاذ ، فإنى أجد الحق يلزمنى أن أعود إليه بالتذكير والإبانة ، غير متلجلج فى استنقاذه مما تورط فيه ، ولا مستنكف أن يكون فى بعض كلامى هذا تكرار لما قلت ، مما أرجو أن يكون إنما غفل عنه غير متعمد إن شاء الله .

وأنا أقدم بين يدى الأستاذ الفاضل ، معذرتى فى أن أسامحه فيما وصف به ما كتبت ، وما وقر فى نفسه وأبان عنه بقوله إنى اندفعت فى سياق منبرى ، أسرد الأدلة الخطابية ، وأستثير النوازع العاطفية . وكان خليقًا به قبل أن يقول ما قال ، أن يعرف أسلوبى فيما أكتب ، ثم ينظر إلى بعينى مبصر متحقق : أصحيح أنى ألجأ إلى الخطب المنبرية ، والأدلة الخطابية ، والنوازع العاطفية ، أم الحق أنى أتحرى أمرًا أنا مسئول عنه بين يدى ربى ، أو على الأقل : أعتقد أنا أنى مسئول عنه بين يديه سبحانه ؟! وإذا كان كثير من الناس قد نسوا أنهم محاسبون يوم القيامة ، فإنى لم أنس بعد ، وأسأل الله أن يعيننى على أن لا أنسى ، وإن عد الأستاذ الفاضل هذا الكلام أيضًا خطبة منبرية ، أو استثارة عاطفية !

ولعل قراء الرسالة ، لم يقرأوا ما كتبت فى مجلة « المسلمون » [٣] ولست

---

* الرسالة ، السنة العشرون (العدد ٩٧٤) ، مارس ١٩٥٢ ، ص : ٢٤٢ - ٢٤٥

(١) بعض من بيت معروف للمتنبى ، وهو :

ذو العَقْلِ يَشْقَى فى النَّعيم بعَقْلِهِ وأخو الجَهالةِ فى الشَّقاوَة يَنْعَمُ

(٢) الذى تكلف مؤونة الجدال هو الأستاذ محمد رجب البيومى فى مقاله بمجلة الرسالة ، العدد ٩٧٣ ، السنة العشرون ، فبراير ١٩٥٢ ، ص : ٢٢٣ - ٢٤٥ . وأما صاحبه الذى جادل عنه فهو الأستاذ سيد قطب .

(٣) العدد الثالث ، ٣٩ ، السنة الأولى ، ص : ٢٤٧ - ٢٥٥

أحب أن أعيد عليهم ما كتبت هناك ، ولكننى أحب أن أبين لهم عن أصل هذا النزاع الذى نازعنيه الأستاذ الفاضل . وذلك أنى رأيت كاتبًا بسط لسانه بسطًا عريضًا فى دين جماعة صحبوا رسول الله ﷺ ، هم : معاوية بن أبى سفيان ، وأبوه أبو سفيان ، وأمه هند بنت عتبة ، وعمرو بن العاص . ثم أدخل معهم سائر بنى أمية . وزعمت فى هذه المقالة أيضًا أنى لن أناقش منهجه التاريخى : « لأن كل مُدَّع يستطيع أن يقول : هذا منهجى ، وهذه دراستى » وقلت : « وأيضًا فإنى لن أحقق فى هذه الكلمة فساد ما بنى عليه الحكم التاريخى العجيب ، الذى استحدثه لنا هذا الكاتب ، بل أدعه إلى حينه » وقلت : « بل غاية ما أنا فاعل : أن أنظر كيف كان أهل هذا الدين ينظرون إلى هؤلاء الأربعة بأعيانهم ، وكيف كانوا - هؤلاء الأربعة - عند من عاصرهم ومن جاء بعدهم من أئمة المسلمين وعلمائهم » .

وأظن أنى بهذه الكلمات قد حددت كل التحديد غايتى فيما أكتب . أظن ذلك ، وأظن أيضًا أن لكل كاتب بعض الحرية !! فى أن يحدد ما يريد لنفسه فى سياق ما يريد أن يكتب . وبخاصة إذا كان يريد أن يعرف الناس بشىء هم قد غفلوا عنه ، وبخاصة فى زمن أصبح العلم فيه لجاجات تكتب كما تكتب مقالات الصحف اليومية فى المنازعات الحزبية ! وبخاصة فى أمر فيه نذير شديد من الله سبحانه ! وبخاصة إذا كان هذا الكاتب يؤمن بأن الإنسان مسئول بين يدى ربه عن كل ما يقول وكل ما يكتب وكل ما يفعل !

بيد أن الأستاذ الفاضل ظن أنه كان يجب علىّ أولا غير هذا . إذ ظن أن صاحبه نقد معاوية نقدًا تاريخيا ، فطالبنى أن أبين أن الوقائع التى ذكرها فى كتابه غير صحيحة ، ثم زاد شيئًا آخر عجل إليه فزعم أنى لا أستطيع أن أفعل شيئًا من ذلك ، لأن صاحبه نقلها من كتب التاريخ ولم يخترعها اختراعًا ، ولأنها معروفة لدى الصغير والكبير ؟! فأظن أنا أيضًا أنى بينت عن طريقى فى الكلمات التى نقلتها آنفًا ، وأنى سوف أترك هذا إلى حينه . فلست أدرى لم يعجل الأستاذ الفاضل كل هذه العجلة على امرئ مِثْلى ، فيضربه بالعجز عن ذلك قبل أن يبين

عن حجته ؟ فهذه العجلة هي هي التي أُنْكِرها على صاحبه ، وأنكر أن تكون أدبًا يتأدب به العالم أو المتعلم ، ومن الحق على كل عاقل أن ينهى نفسه عنها ، وأن ينهى من يرتكبها ، لأنها مخالفة لكل أصل من أصول العلم والتعلم ، ولأنها تورث مرتكبها نفس الداء الذى أتى منه صاحبه الذى تهجم على ضمائر خلق الله ، فكاد يقطع قطعًا جازمًا بنفاق معاوية وأبى سفيان وهند وعمرو بن العاص وسائر بنى أمية ! من أين يعلم أنى عجزت أو أنى سوف أعجز ؟ لا أدرى !

ومثل هذا فى الجراءة ما أتبعه من أسئلة إذ يقول :

« من الذى ينكر أن معاوية حين صير الخلافة ملكا عضوضًا لم يكن ذلك من وحى الإسلام ، إنما كان من وحى الجاهلية ؟

« ومن الذى ينكر أن بنى أمية بصفة عامة لم يعمر الإيمان قلوبها ، وما كان الإسلام لها إلا رداء تلبسه وتخلعه حسب المصالح والملابسات ؟ ...

« ومن الذى ينكر أن يزيد بن معاوية قد فرضه أبوه على المسلمين مدفوعًا إلى ذلك بدافع لا يعرفه الإسلام !

« ومن الذى ينكر أن معاوية قد أقصى العنصر الأخلاقى فى صراعه مع على ، وفى سيرته فى الحكم بعد ذلك إقصاء كاملا لأول مرة فى تاريخ الإسلام ، وقد سار فى سياسة المال سيرة غير عادلة ، فجعله للرشوة واللهى [1] وشراء الضمائر فى البيعة ليزيد ؟

« هذه وأمثالها أمور مسلمة فى التاريخ ، لا يستطيع الأستاذ شاكر أن ينكرها بحال . ونحن نعجب كثيرًا حين نجده فى مقاله يلبس مسوح الوعظ والإرشاد ...»

نعم ياسيدى الشيخ ! نعم ! فإنى لمحدثك عمن ينكرها : أنا أنكر هذا كله وينكره المؤمنون من قبلى . وإذا كنت أنت وصاحبك تسلمان بها ، فأنا لا أستطيع أن أسلم بها . وتقول : هذه دعوى ليس عليها بينة ! فأقول : نعم ، هى فى هذا

---

(١) اللُّهَا : جمع لُهْوَة ، وهى أفضل العطايا وأجزلها .

السياق ليس عليها بينة ، إلا أن آتيك بالدليل على بطلان ما ذهب إليه صاحبك الذى توليت الدفاع عنه . بيد أنك أسأت حين عجلت إلى شىء لم تعرف ماذا أقول فيه ، وكيف أستطيع أن أتناوله بالنقد والتمحيص . ولو أنت صبرت حتى تعرف ، لأتاك البيان عما أنكرت وما عرفت من أخبار صاحبك ، التى وصفتها بأنها متلقفة من أطراف الكتب ، لا أقول بلا تمحيص وحسب ، بل أقول أيضا بالحرص الشديد على تتبع المثالب القبيحة ، وبالحرص المتلهف على اجتناب المناقب الفاضلة ، وبالغلو الأرعن فى سياق المثالب وفى تفسيرها ، وفى تحليلها ، وفى استخراج النتائج من مقدمات لا تنتجها ، كما يقول أصحاب المنطق .

وأنا أحب أن أخلع معك مسوح الوعظ والإرشاد خلعا لا رجعة بعده ! فتعال أيها الشيخ إلى غير واعظ ولا مرشد ! تعال حدثنى وأحدثك ، ودعنى ودعك من : « قال الله تعالى » و « قال رسول الله ﷺ » فإنهما فى زماننا هذا – من مسوح المتدينين بلا دين ! دعنا نعرف الكتب التى بين أيدينا لا نرفع بعضًا ونضع بعضًا ، لأن هذه كتب تاريخ لا يوثق بها ، ولأن هذه كتب أصحاب دين ووعظ وإرشاد يوثق بها ! ثم ننظر بعدئذ بالعقل المجرد ماذا يكون ؟!

ودعنى أيها السيد أعيد عليك ما قلت فى مقالك : « ونحن نقر أن معاوية كان حسن السيرة على عهد عمر ، فولاه أعمال دمشق ، ولكنه قلب المِجَنّ للتعاليم الإسلامية بعد مصرع عثمان ... » ولا أسألك من أين علمت أنه كان حسن السيرة على عهد عمر ؟ ولكنى أسألك : ألست تعلم أنه قد نشب الخلاف بينه وبين على ؟ فتقول : نعم ولابد . ثم أسألك : ألست تعلم أنه كان لهذا شيعة ولذاك شيعة ؟ فتقول : نعم ، ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن كل شيعة قد غلت فى صاحبها وتعصبت له ؟ فتقول نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن الأمر حين انتهى إلى معاوية واجتمع عليه الناس فى عام الجماعة إذ أسلم إليه الحسن أمر الخلافة – لم تزل شيعة على باقية فى الناس كشيعة معاوية ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن الخلاف بين الشيعتين ظل مستمرًا مدة بقاء معاوية ومن بعده ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن الحسين بن على قتل فى

عهد يزيد بن معاوية ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن مقتل الحسين وما تبعه من الحوادث فى عهد يزيد بن معاوية قد أوقد نار العداوة بين شيعة على وشيعة معاوية ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن شيعة كل منهما قد انتشرت فى الناس بما بينهما من العداوة ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن من هاتين الشيعتين العالم والجاهل ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن كل عالم أو جاهل كان يحدث عن خبر شيعته وخبر شيعة عدوه ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك ألست تعلم أن هذه الأخبار ربما كان فيها الصحيح والسقيم والصادق والمكذوب كما يكون فى كل شيعتين متنابزتين ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن الأمر سار على ذلك إلى ما بعد انقضاء دولة بنى أمية ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أنها استمرت إذن على ذلك منذ سنة ٤٠ من الهجرة إلى وقت تدوين الكتب ، أى فى أواخر القرن الأول ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أنه ليس فى أيدى الناس كتاب مكتوب قبل ذلك العهد ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أن طريق القوم كان هو الرواية فحسب ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم عندئذ أن العقل يوجب أن تعرف راوى كل خبر حتى تتبين من أى الشيعتين هو ؟ فتقول : نعم ولابد . فأسألك : ألست تعلم أنه ظلم قبيح أن تأخذ الخبر لا تدرى من رواه ، فتطعن به فى أحد الرجلين ، معاوية أو على ، وأنت لا تأمن أن يكون كذبا صرفا ؟ فتقول : نعم ولابد .

فإذا صح كل هذا عندك ولم تشغب علىَّ فيه ، فإنى أراك رجلا صالحا ، فهل تظن ، ولا أقول هل تحقق عندك ، أن هذا الطَّعَّان فى معاوية وأهله ، قد ميز هذا كله قبل أن يكتب ما كتب ؟ فإن كان قد صح لك ، فأنا أحب أن أعلم كيف صح لك ، حتى أتبعك على الحق . وإن لم يكن صح عندك ، وهو لم يصح عندى بعد ، فدعنى عند قولى لك : أنا أنكر هذا كله وينكره المؤمنون من قبلى واذكرنى دائما بأنى لا أعد أمثال هذه الروايات المجردة من رواتها ، وفى مثل هذا الموضع المشتبه من العداوات ، شيئًا يمكن أن أسلم به . فإنى لا أحب أن

أستهلك عقلى فى العبث والجهالات . واعلمْ أنى لا أنقاد لما لا بينة عليه ، وأن للعقل شرفًا لا يرضى معه بالتدهور فى مواطئ الغفلة وسوء الأدب . ولو أنت لم تعجل لكان البيان آتيك بعد قليل عن الذى أستطيعه من ذلك وما لا أستطيعه ، غفر الله لك ، أقولها خالصة من قلبى ، بلا مسوح وعظ أو إرشاد !

وأنا أخذتك من أهون المآخذ فى طريق العقل ، فهناك طرق أخرى أشق وأصعب فى تمييز هذا العبث لم أدفعك إليها ، وأرجو أن تصبر حتى تعرفها يوما ، أو أن تحاول أنت أن تصل إليها بما أوتيت من حسن العقل ، فإن المحاولة خليقة أن تفضى بك إليها . ولكن شرطها أن تدع العصبية لآراء الرجال ، وبخاصة إذا كان هؤلاء الرجال ممن يبنون أقوالهم على الغلو والتسرع وسوء الفهم ، وقبح المقصد ، ومعاندة الحق لهوى فى النفوس يعلمه الله وحده ، ولكن يدل مطلعه على أنه هوى . فإذا فعلت استطعت أن توفر على نفسك مطالبتى بنقد الحوادث التاريخية التى رواها صاحبك « نقدًا موضوعيا » ! ومع ذلك فسأفعل حيث كتبت كلامى ما يرضيك . ولكن على شرط أن أجد عندك ما أحب لك من حسن الظن فيك : أن تعرف أن النقد الموضوعى الذى زعمت ، ينبغى أن يسبقه التحقق من صحة هذه الحوادث تحققًا ينفى كل ظنة . وأستطيع أن أظن أنى قدمت لك فى هذه الكلمة ما يجعلك تقف من هذه الروايات التاريخية ! موقف المتردد على الأقل ، أنفة لعقلك وأدبك أن يزلا حيث زل من دافعت عنه .

أما الموضوع الذى نصبت له كلامى فى مجلة « المسلمون » فهو سب الصحابة ، وأظن أن الأستاذ يوافقنى على أن كلام صاحبك خرج أولا عن أن يكون تخطئة لمعاوية ، ثم خرج عن أن يكون طعنًا فيه ، ثم خرج عن أن يكون سبا . خرج من هذه المراتب الثلاث إلى مرتبة رابعة ، هى أن معاوية برىء من الإسلام ، والإسلام برىء منه . فأدنى مراتب هذا القول أن يكون منافقًا ، وآخرها أن يكون كافرًا بما جاء به الرجل الذى آمن به المسلمون وأمروا أن يسموه « رسول الله ﷺ » .

ومن العسير أن أكتب فى هذا الموضوع الآن دون أن أتوشح بذيل من ذيول

« مسوح الوعظ والإرشاد » ، فليأذن لى الأستاذ قليلا أن أَرُدَّ فضلة من الثوب الذى خلعت حتى أستطيع أن أوضح له :

زعمت ياسيدى أن لى رأيًا ، فقلت إنى أثرت هذه العاصفة وحجتى الوحيدة : « أن كل صحابى رأى الرسول وسمع عنه قد اكتسب مكانة تحرم على كل إنسان أن ينقد أخطاءه أو يظهر أغلاطه » . ويلك ! نسبت إلى شيئًا لم أقله قط كما ستعلم بعد . فلا تنس إذن أن مثل هذا جائز أيضا أن يكون وقع من مثلك قديما ، فنسب إلى معاوية شيئا لم يقله كما نسبت أنت إلى شيئا لم أقله . ولكنى كنت أحسن حظا من معاوية رضى الله عنه ، فإن كلامى مكتوب منشور ، أما معاوية ، فقد روى الناس عنه شيئا ذهب أصله ، لأنه لم يكتبه كما كتبت . صدقنى ، فلست أدرى من أين فهمت هذا الكلام الذى ترجمته ؟ ولكن عذرك باد ظاهر ، فإن دفاعك عن صاحبك دليل على أنك على الأقل تفكر كما يفكر ، وهذه الطريقة هى نفسها طريقته التى أدعوك إلى فراقها حتى لا تهلك عقلك فيما لا يجدى . والذى قلتُه بعد الخطبة المنبرية التى زعمتها ، والتى بدأتُها بقول رسول الله ﷺ « لا تسبوا أصحابى ... » هذا نصه : « وليس معنى هذا أن أصحاب محمد رسول الله معصومون عصمة الأنبياء ، ولا أنهم لم يخطئوا قط ولم يسيئوا ، فهم لم يدعوا هذا ، وليس يدعيه أحد لهم . فهم يخطئون ويصيبون ، ولكن الله فضلهم بصحبة رسوله ، فتأدبوا بما أدبهم به ، وحرصوا على أن يأتوا من الحق ما استطاعوا ، وذلك حسبهم ، وهو الذى أُمِروا به ، وكانوا بعد توابين أوابين كما وصفهم فى محكم كتابه . فإذا أخطأ أحدهم ، فليس يحل لهم ، ولا لأحد ممن بعدهم ، أن يجعل الخطأ ذريعة إلى سبهم والطعن عليهم . هذا مجمل ما أدبنا به الله ورسوله . بيد أن هذا المجمل أصبح مجهولاً مطروحا عند أكثر من يتصدى لكتابة تاريخ الإسلام من أهل زماننا ، فإذا قرأ أحدهم شيئا فيه مطعن على رجل من أصحاب رسول الله سارع إلى التوغل فى الطعن والسب بلا تقوى ولا ورع . كلا بل تراهم ينسون ما تقضى به الفطرة من التثبت من الأخبار المروية ، على كثرة ما يحيط بها من الريب والشكوك ، ومن الأسباب الداعية إلى الكذب فى الأخبار ،

ومن العلل الدافعة إلى وضع الأحاديث المكذوبة على هؤلاء الصحابة » ، (مجلة المسلمون عدد ٣ ص ٢٤٧) .

وأنا أكره أن أنقل كلاما لى من مكان ، ولكنك استكرهتنى على نقله ، حتى لا يقع فى عقل أحد من قراء الرسالة ، أنى مستطيع أن أقول هذه القالة المنكرة القبيحة بكل مسلم : إن للصحابة مكانة تحرم على كل إنسان أن ينقد أخطاءهم أو يظهر أغلاطهم . هذه ياسيدى كلمة قبيحة جدا ، وأقبح منها أن تجعلها ترجمة لكلام مكتوب باللغة العربية التى تكتب بها وتقرأ فيما أظن ، ثم تنسبها إلى امرئ يعرف حق الكلام ويلتزم مقاطعه ومطالعه وحدوده ، وما يوجبه اللفظ من المعانى ، وما يتناوله من دقيق الاستنباط . وأنا أشهد كل قارئ أنى لم أقل ماقوّلتنيه ، وأدع له حق الحكم بينى وبينك أن يكون فى كلامى حرف واحد يدل على أنى أردت بعض هذا المعنى الذى ترجمته كما ترجم صاحبك تاريخ معاوية ومن معه من الصحابة وتاريخ سائر بنى أمية . أفتظن أن قولى إنه لا يحل لأحد أن يجعل « خطأهم » ذريعة إلى سبهم والطعن فيهم معناه أنهم لا يخطئون ، أو أن أخطاءهم لا تنقد ؟ وأين ذهب عمرى إذن ، إذا كنت لا أعلم أن الصحابة أخطأوا ، وأن علماءنا رضى الله عنهم ، قد بينوا أخطاءهم حتى فيما هو من أمور دينهم ؟ ولكن فرق كبير بين أن تذكر عمل الصحابى أو قوله ، وتأتى بالبرهان على أنه مما أخطأ فيه ، وبين أن تجاوز ذلك إلى الطعن فيه ، ثم إلى سبه ، ثم إلى إخراجه عن الدين ، كما فعل صاحبك . وهذا فرق ليس بالخفى فيما أظن ؛ ولا أظنك إلا تورطت فيه من شدة أثر صاحبك عليك ، حتى خدعك عما أنت خليق أن تكون من أهله . هذه واحدة أرجو أن تكون راجعًا عنها منتفيا من سوء أثر صاحبك عليك فيها .

وأخرى تبين فيها سوء أثر صاحبك عليك : وهى تحديدك ، فيما تزعم ، لمعنى « الصحابى » واستدلالك بالكلمة التى جاءت فى الخبر عن عبد الله بن أبى « معاذ الله أن يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه » . فهذه كلمة ذكرها ، يخشى أن تدور على ألسنة المشركين الذين لا يميزون مؤمنًا عن منافق ، وكلهم عندهم من أصحاب محمد ﷺ ، لا أن رسول الله يسمى المنافقين أصحابًا له !!

وكيف وقد نزل عليه من ربه نفاقهم وكفرهم ، ونهاه أن يصلى عليهم ، وبينهم له بأعيانهم ، فمعاذ الله أن يسمى رسول الله أحدًا من المنافقين الذين يعلمهم « صاحبًا » . فمن سوءِ الأدب أن يقول مسلم : « فعبد الله بن أُبَىّ من أصحاب محمد كما ينطق الحديث » ؛ ومن قلة المعرفة بالعربية أن يقولها قائل ، ومن التسرع البغيض أن يلجأ إليها باحث ، ومن ضعف المنطق والفهم أن يحتج بها محتج . فهى حكاية قول يخشى أن يقولوه ، لا تسمية له باسم الصحبة . أعوذ بالله من الخطل ! ورحم الله العرب ولسانهم !

أما ما حاول الأستاذ أن يجعله تحديدًا لمعنى الصحابى ، وهو ثلاثة أرباع مقاله ، فأظننى لم أفهمه ، ولم أدر ماذا كان يريد أن يقول ثم أخطأه . وأظن أنه أراد أن يقول فى كل ما كتب : أن الصحابى هو الذى رأى رسول الله ﷺ وسمعه وآمن به ولازمه ومات على إيمانه ، ولم يرتد . ولم يشهد له رسول الله بنفاق أو لم يُذْكَر فيه حكم خاص من رسول الله . وهذا حق ، إلا أن الأستاذ أدخل شرط الملازمة ، وهو باطل من وجوه كثيرة ، لا أطيل بذكرها . ومع ذلك فإنى أؤكد أن معاوية ممن صاحب رسول الله منذ رمضان سنة ثمان من الهجرة إلى أن توفى بأبى هو وأمى ﷺ فى ربيع الأول من السنة الثانية عشرة من مهاجره إلى المدينة . وأما أبوه أبو سفيان فقد ولاه ﷺ نجران وصدقات الطائف ، ورسول الله لا يولى منافقًا !! وأما عمرو بن العاص ، فلا أظن الأستاذ يستطيع أن ينكر هجرته ومصاحبته وبلاءه فى الإسلام ، وأما هند فأسلمت يوم أسلم زوجها أو بعده بيوم فى سنة ثمان من الهجرة . وهجران الأستاذ لمعرفة تاريخ هؤلاء الأربعة ، عادة اكتسبها من الكتب التى يقرؤها ، كتب تُكْتَب بلا بينة ولا حذر ولا معرفة .

ولا أظن أنى قرأت كلاما لم أفهمه ، كالذى قرأته فى مسألة الصحابة ، وإن كان الأستاذ بالطبع يظن بكلامه غير ما أظن ، ولكنى أنصحه مرة أخرى أن يلتمس العلم فى كتب من يُلْتَمَس عندهم العلم . وإذا كان يخشى على دينه - ومعذرة من ارتداء مسوح الوعظ والإرشاد - فليأخذ أمر دينه عن ثقة فى تمييز الصحيح من

الزيف ، والحق من الباطل ، وليدعْ أصحاب الأهواء حيث رضوا لأنفسهم منازلهم من مزالق الهوى . وليستغفر ربه من الكلمة الكبيرة التى قالها حمية لصاحبه وغضبًا أنه « قد يوجد فى القرن العشرين من هم أفضل بكثير من بعض من عاصروا الرسول العظيم » . والظاهر أن الأستاذ لا يعيش فى هذا القرن العشرين عيشة العارف البصير . والظاهر أيضًا أنه محتاج إلى معرفة كثير مما خفى عليه من شؤون أصحاب رسول الله ﷺ ، ومن أمر دين الله الذى أكمله للمؤمنين ، وأتم عليهم نعمته ، ورضيه لهم ولنا دينًا . ونصيحة أخرى إلى الأستاذ أن يضع عن يده عبء القلم ، فإنه ثقيل ثقيل . ولولا الحياء من أن أترك كلامه ومنطقه فى الكتابة بلا مجيب ، لخففت عنه ثقل الكتابة ، وثقل الفكر ، وثقل القلم جميعا ، بالصمت عما جاء به ودهوره [1] فى أمور قلت معرفته بها ، ويعجز فكره عن معاناتها والسلام .

* * *

(١) دَهْوَرَ كلامَه : قَحَّم بعضَه فى إثر بعض من غير فكر ولا رويَّة .

أعتذر إليكَ .. !

أكتب هذه الكلمة محزون النفس لشيء اجترمته ، كان أولى بى أن أصبر حتى لا أزل عليه . وذلك أنى قرأت كلمة فى بعض المجلات يقول فيها كاتبها : « فإذا مُنِع الفقير حقه ، فله أن يقاتل عليه ، لأنه الله يأمر بقتال الباغين ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ ﴾ ، ولا شك أن مانع الحق باغ » . فاحتملتنى العجلة وسوء الظن ، أن أرى الكاتب قد استدل بالآية فى غير مكان الاستدلال بها . فساء قولى فى الرجل بين جماعات من الناس ، إذ لم يقع لى إلا أن الآية فى اقتتال طائفتين من المؤمنين ثم بَغْيِ إحدى الطائفتين على الأخرى . ولما سكن بى الليل أمس (السبت ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٧١) حاك فى قلبى شىء لم أدر ماهو ، وألح على أنى اكتسبت فى أيامى هذه إثمًا أخشى أن لا أفلت من عقابه . وارتفعت لعينى هذه الآية بختامها « إنَّ الله يُحِبُّ المُقْسِطِينَ » ، فرأيت من العدل والقسط أن أرجع إلى تفسيرها ، وإلى أقوال الأئمة فى قتال أهل البغى ، فعرفت ما لم أكن أعرف ، أن بعضهم قد استدل بها فى مثل ما استدل عليه الكاتب الفاضل ، وإن كان لطريقة الاستدلال عندهم نهج غير نهجه ، وقيد فيما أطلقه . وإذا أنا قد ظلمته ظلما لا ينبغى . فلم أزل منذ تلك الساعة أستغفر الله لما فرط منى وما جرى من لسانى من الكلم السيء ، واستغفرت له بما أسأت إليه بظهر الغيب .

فلما قرأت الرسالة فى صباح ليلتى (الأحد ١٣ جمادى الآخرة) ، كنت أوشك أن لا أحمل القلم مرة أخرى للرد على الكاتب الفاضل فى مقاله : « أجل .. ذو العقل يشقى » [1] . ولكنى وجدت السبيل قد تيسر لى أن أعتذر من سيئة اكتسبتها فى الإساءة إلى رجل بظهر الغيب ، لنفس الداء الذى نهيت الأستاذ عنه ، وهو العجلة . وأنا لم أقصد نُهْيَته إلا لما فيه خير له ولى إن شاء الله .

---

* الرسالة ، السنة العشرون (العدد ٩٧٦) ، مارس ١٩٥٢ ، ص : ٣٠٤ - ٣٠٥

(١) مجلة الرسالة ، السنة العشرون (العدد ٩٧٥) ، مارس ١٩٥٢ ، ص : ٢٧٣ - ٢٧٤ ، والكاتب هو الأستاذ محمد رجب البيومى .

وقد تبين لى بعد قراءة كلمته أنى أخطأت أيضا فى الذى كتبت به إليه ، فوقعت بما كتبت فى نفس ما نهيته عنه . وما كان أغنانى عن هذه الخصلة السيئة التى تجلب على غضب أستاذ فاضل ، لم أسمع به ولم أعرفه ، ولا أظنه يعرفنى . والأستاذ الفاضل بلا ريب هو عندى أكبر مما ظن فى نفسه ، وإذا كان هو قادرًا على أن يضن بكرامته ، فالواجب على أنا من قبله أن أضن بكرامته . وإذا كانت كرامته تأبى أن تنزل منزلةً يُوَجَّه إليه من أجلها شيء يقدح فيها ، فأنا أيضا أنزهه عما ظن فى كلامى من « الشتائم والتنقص والسباب » . وإذا كان كلامى الطويل العريض ، كما وصف ، ليس فيه شيء يقنع المنصفين ، وليس هو إلا فقرات مبعثرة مضطربة أسوقها مساقًا مهلهلا لا يعرف الدقة ولا الحدود ، وإذا كان كل ما أقوله لا أبغى منه إلا إرسال الكلام فى الهواء ، وإذا كنت عنده لست مؤرخا ، ولم أخط كتابا فى التاريخ ، وأنى أدخلت نفسى فى قوم لست منهم ، فأظن أن واجبه على الأقل أن يلغى كل ما أقول بمرة ، فإن من الشقاء له أن يتعقب كلام كاتب هذا شأنه .

وأنا لا أستطيع صادقا أن أُفْهِم الأستاذ الفاضل شيئا مما أقول ، فقد عرفت هذا بالتجربة ، وإذا كان مما يرضيه أن أقول له إنى مخطئ فى كل ما قلت قديما ، وما أقوله الآن ، وما سوف أقوله إلى أن يكف لسانى وقلمى عن اللجاجة وإرسال الكلام ، فأنا أقول له : إنى أخطأت ، وسوف أخطئ ، ولن يسمع منى إلا ما أنا مقر على نفسى بأنه خطأ محض . وأزيده أنى عاجز كل العجز عن مقاومة حجته ، وعن دفع براهينه ، وعن التصدى لما يحسنه من العلم . بيد أنى أعود فأسأله أن يتغمد سوء أدبى بفضله ، وإذا كان قد استخرج من كلامى سبابا وشتائم ، فأنا أعيذه أن يكون غرضا لها ، وأعتذر إليه ، وأستغفر الله مما أزلفت إليه من إساءة ، وله أحسن الأسوة فى أصحاب رسول الله ﷺ ، فإن بعض السفهاء لم يتورعوا قط عن سبهم والطعن فيهم ، بأقبح اللفظ . فأين يقع مثلى من هؤلاء ! فإنى مهما ملكت من السباب والشتائم والبذاءة وسوء الأدب ، فلن أبلغ بعض ما بلغوا من هؤلاء الصحابة ، فلا عليه منى ومن سبابى وشتائمى . وليعلم الأستاذ الفاضل ، إن

كان لا يعلم ، أن هؤلاء السفهاء فى الدنيا كثير ، فإذا كان يغضب لكل سفاهة من سفيه ، فإن شقاءه سيطول بغضبه ، فدع السفهاء وليقولوا ما شاءوا ، وكن أنت ضنينا بكرامتك ، فإنها أعز وأغلى من أن تبذل على الألسنة . وتقبَّل إن تفضَّلتَ عذرى وشكرى واحترامى وتقديرى ، وعجزى عن مخالفتك ، وحبى لرضاك ، وقد بلغت منى فى مقالك ما شئت ، وناصيتى بيدك ، وفى المثل : « ملكت فأسجح » [١] . فافعل مؤيدا منصورا ، والسلام .

* * *

(١) يُضْرَب فى العفو عند المقدرة . والإسجاح : حُسْن العَفْو .

كلمة تقال ... !!

أخى الأستاذ على الطنطاوى

سلام عليك . يقال فى المثل : « كُرْهًا تَرْكَبُ الإبلُ السَّفَرَ » وقد استطعت أنت أن تُكْرِه القلم إلى ما أردت أن أنزهه عنه . فلولا ما أضمرتُ من قديم المودة لك ، ولولا ما عرفت من صدقك ، ولولا أننى أجلك عن أن تكون عجولا إلى غير صواب ، ولولا أنى أكره أن تأخذ عنى شيئًا لم أقله بلسانى ، لولا ذلك كله ، لكان أبغض شىء إلى أن أستكره نفسى على غير ما رأيتُ أنه أجمل بى وأصون . وإنك لتعلم ، أيها الصديق القديم ، أنى أكره أن أزداد من الشر ، أو أن أتزود من لجاجة الباطل . والكتابة فى زماننا هذا شر مستحكم ، وباطل لجوج متوقح . وقد اقتحم وَعْرَها من لا يحسن المشى فى سهولها ، وتشهَّاها من لو أنصف نفسه لحال بينها وبين ما تشتهى ، واتخذها صناعة من لو عقل لأعفى نفسه من مزاولتها . ولكن هكذا كان ، ورحم الله الطائى إذ يقول لمحمد بن عبد الملك الزيات :

أبا جعفر ، إن الجهالة أُمُّها
وَلودٌ ، وأمُّ العلم جَدَّاء حائلُ [(١)]

أرى الحَشْوَ [(٢)] والدهماء أضحوا كأنهم
شعوب تلاقت دوننا وقبائلُ

غَدَوْا ، وكأن الجهل يجمعهم به
أبٌ ، وذوو الآداب فيهم نَواقِلُ [(٣)]

وأنت تعلم أن من أنصب النَّصَب ، أن تتصدى لإفهام من لا يفهم عنك ،

---

* الرسالة ، السنة العشرون (العدد ٩٧٩) ، إبريل ١٩٥٢ ، ص : ٣٨٣ - ٣٨٤

(١) الجداء : التى جف لبنها ، لكبر سنها . والحائل : التى لا تحمل .

(٢) الحشو : مَن لا خير فيه ، ولا عنده عقل يميّز به شيئا عن شىء .

(٣) نواقل : جمع ناقلة ، وهى شِبْه الزيادة يلحق بالصميم ولا يحتاج إليه .

فإذا بلغ الأمر أن تراه ينتصب لجدالك ، فاذكر قول من قال : إذا أردت أن تفحم عالما فأَحْضِرْه جاهلا . وقد لقيت أنا من شر ذلك ما لقيت ، فآثرت أن أسلك سبيلى لا يشغلنى عنه متعلق بأذيالى ، إرادة أن يصرفنى عن الوجه الذى أردت .

ولقد قرأت كلمتك فى الرسالة ، فأسفت أشد الأسف ، لأنى عرفت منها أنك لم تقرأ ما كتبتُه فى مجلة « المسلمون » وفى أربعة أعداد منها . ولو كنتَ قرأتها لما كتبت ما كتبت ، لأنى لا أشك فى ذكائك وحسن فهمك ، فأنا لم أتعرض فى شيء منها لبنى أمية أو بنى العباس ، ولا لحكمهم ، ولا لسياستهم ؛ فعجبت أشد العجب كيف يمكن أن تكون معى أو علىّ فى أمر لم أقل فيه كلمة ، ولا يعلم أحد ممن كتب رأيى فيه ، ولا كيف أقول إذا أنا تعرضت للبيان عنه ؟ فمن أجل ذلك عجبت ، لأنك لم تنصف على عادتك من الإنصاف .

وأنا محدثك باختصار عن هذا الذى كتبته . أصل ذلك كله أنى رأيت من كتب من المُحْدَثين فى شأن تاريخ الماضين من أسلافنا ، يكتب أو يتحدث بأسلوب أقل ما يقال فيه أنه مشوب بالحماقة الشديدة ، مختلط بالجهالة المتراكبة ، فى معرفة أصول التاريخ ، مغموس فى حمأة من الافتراء والتطاول ، مستنقع فى أهواء سيئة رديئة . وزعمت أن للناس أدبا وأسلوبا فى كتابة التاريخ ، وأن للمسلمين خاصة أدبًا وأسلوبًا فى التاريخ ينبع من أصل دينهم ، فى العدل ، وفى حسن النظر ، وفى الأناة فى طلب الحق ، وفى كف اللسان عن التهجم بالقول السيء على عباد الله بلا بينة ، وفى التناهى عن اقتفاء المرء ما ليس له به علم ، وفى التثبت من الأخبار قبل تصديقها . وهو أدب كما تعلم كان قديما فى كتبنا ، ولكن حضارة هذا القرن قد نشرت وباء شديد الفتك ، ذهب بأكثر هذا الأدب ، وأخذت فى طريقى أضرب المثل على هذا بكاتب رأيته لم يتورع عن سلب الناس دينهم ، ولم يخش الله فى نفى الإسلام عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، وفى تصوير أعمالهم بصورة أعمال المنافقين ، وفى أخذ الروايات الباطلة وجعلها دليلا على الغميزة فى إيمانهم ، وفى رد الروايات الثابتة الصادقة بروايات كاذبة ادعاها مدع من الرافضة ، إلى غير ذلك مما سأبينه فيما أكتب فى مجلة

« المسلمون » وزعمت أن هذا ليس ديدن هذا الكاتب وحده ، بل صار ديدنا لأكثر من يكتب الآن فى شىء من تاريخ هذه الأمة المسلمة ، حتى صار الطعن فى صحابة رسول الله أمرًا مرتكبا بلا حذر .

وما دمت لم أزد فى كلامى على هذا ، فلست أدرى بعدُ ما الذى يحملك على أن تخذلنى أو تنصرنى فى أمر لم أنطق بعد فيه بكلمة ! نعم ! قد يكون رأيى فيما أبديت أنت فيه رأيك ، مخالفا لك ، ولكنى لم أتكلم بعد فتعرف حجتى فيه . بل لعلى إذا كنت لك مخالفا ، ثم عرضت عليك خلافى لك ، أن تكون أسرع إلى موافقتى منك إلى الخلاف علىّ ، حين ترى فيما أقول صوابا يرضيك . أليس هذا جائزا ، وممكنا أيضا ؟ فإذا رأيتنى بلغت فى سياق مقالاتى فى « المسلمون » إلى ذكر دول الإسلام ، فعندئذ فقل ، فأنا أقبل منك ما تقول . واعلم أنى لا آنف أن أصير إلى الحق إذا عرفته . ولقد عشت على هذه الأرض زمانا طويلا ، واعتقدت منذ عقلت آراء كثيرة ، ثم تبين لى أن الحق فى خلافها ، فرجعت عنها جملة ، ولم أبال بما كنت أرى . ولعلك أنت خاصة تعلم من ذلك ما لا يعلمه غيرك .

وأنا أحب أن ترجع إلى ما كتبته فى مجلة « المسلمون » ولا تأخذ كلام أهل اللجاجة ، فإنهم أوهموك ، فيما أظن ، أنى قلت شيئا ، والحقيقة أنى لم أقل بعد فيما تناولته أنت شيئا ، وأنا أعيذك أن تتورط ، فى هذا الشر الذى نجاهد جميعا فى دفع الناس عنه ، وهو أخذ الأقوال بلا بينة ، وبلا حجة ، وبلا برهان . ولك منى تحية كنت أحب أن تبلغك ، على غير هذه الراحلة المكرهة على ارتكاب طريق دنسته الأقدام ، والسلام .

* * *

فيم أكتب !

إلى أخى الأستاذ الزيات

السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فقد دعوتنى فاستجبت لك ، رضى بك وعنك . بيد أنى أجبتك ساخطا على نفسى ، والجمرة الموقدة أبرد مسا من سخطة امرئ على نفسه . كنت عزمت أن أدع هذا القلم قارا حيث هو ، فى سِنَةٍ لا تنقطع ، يعلوه صدأ لا ينجلى . وظللت أيامًا أسأل نفسى : فيم أكتب ؟ فيم العناء والنصب ؟ علام أزهق أيامى فى باطل لا ينقشع ؟

* * *

بقى ما كتبته لك آنفًا معلقًا يومًا كاملا ، حتى خلتنى مخلفًا لك موعدى . والساعة ذكرت أمرًا : ذكرت أنى ختمت مقالاتى المتتابعة فى الرسالة ، منذ خمس سنوات تقريبا ، بسؤال آخر : « لمن أكتب ؟ » [١] . وقلت يومئذ إنى لم أحاول قط أن أعرف لمن أكتب ؟ ولم أكتب ؟ ولكنى أحس من سر قلبى أنى إنما أكتب ، ولا أزال أكتب ، لإنسان من الناس لا أدرى من هو ، ولا أين هو . أهو حى فيسمعنى ، أم جنين لم يولد بعد سوف يقدر له أن يقرأنى ؟ ووصفت يومئذ شراذم الساسة الذين لوثوا تاريخ الحياة الإسلامية والعربية ، فى حيث كان الإسلام وكانت العرب . ووصفت رجال العلم المتعبدين لسادتهم من أهل الحضارة الفاسدة التى تعيش بالمكر والحقد والفجور . ووصفت أصحاب السلطان فى الشرق ، وهم حثالة التاريخ الإنسانى ، ووصفت أهل الدين ، إلا من رحم ربك ، الذين يأكلون بدينهم نارًا حامية . وزعمت أنى لن أيأس من رجل أو رجال توقظهم هذه البلوى المطبقة المحيطة بنا ، فيدفعهم حب الحياة وحب الخير ، إلى نفض غبار القرون عن أنفسهم .

---

* الرسالة ، السنة الحادية والعشرون (العدد ١٠١٨) ، ٥ يناير ١٩٥٣ ، ص : ٩ - ١١

(١) عدد الرسالة : ٧٦٦ فى ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٦٧ ، ٨ مارس سنة ١٩٤٨

ثم ذكرت هذا الرجل الذى طواه الغيب إلى ميقاته ، فأنا أكتب له حتى يخرج من غمار هذا الخلق ، وينفرد من هذه (السائمة) ، ليقود الشعوب بحقها لأنه منها : يشعر بما كانت تشعر به ، ويألم لما كانت تألم له ، وينبض قلبه بالأمانى التى تنبض به ضمائر قلوبها . رجل خلطت طينته التى منها خُلِقَ بالحرية . فأبت كل ذرة فى بدنه أن تكون عبدًا لأحد من خلق الله . يسير بين الناس فتسرى نفسه فى نفوسهم ، وتموج الحياة يومئذ بأمواجها ، ثم لا يقف دونها شىء مهما بلغ من قوته وجبروته . وزعمت أن الشرق العربى والإسلامى ، ينتظر صابرًا كعادته هذا الرجل ، وأننا قد أشرفنا على أمر قد كتب الله علينا فيه أن نجاهد فى سبيله ، ثم فى سبيل الحق والحرية والعدل ، لأننا نحن أبناء الحق والحرية والعدل ، قد أرضعنا الدهر بلبانها منذ الأزل البعيد .

ثم ختمت كلامى بهذه الفقرة : فأنا إن كتبت ، فإنما أكتب لأتعجل قيام هذا الرجل من غمار الناس ، لينقذنا من قبور جثمت علينا صفائحها منذ أمد طويل . وليس بيننا وبين هذا البعث إلا قليل ، ثم نسمع صرخة الحياة الحرة العادلة ، يستهل بها كل مولود على هذه الأرض الكريمة ، التى ورثناها بحقها ، ليس لنا فى فِتْرِمنها شريك » [1] .

كتبت هذا يومئذ ، والناس فى ظلمة ليل بهيم . ومنذ ذلك اليوم والأحداث فى الشرق العربى الإسلامى آخذ بعضها برقاب بعض . وحركت الأحداث المتتابعة نواعس الآمال ، فهبت تمسح من عيونها النوم المتقادم . ثم حملقت فى أكداس الظلام المركوم ، فأوهمتها اليقظة أن الظلام من حولها يومض من بعيد ببصيص من نور . فتنادت الصيحات بانقشاع الظلم : وافرحتاه ! وصرخت وأنا فى محبسى : واحسرتاه ! أعمى رأى الظلام نهارا !

كانت الدنيا يومئذ ظلامًا ، ونعرفها نحن ظلاما . والمعرفة دائما تفضى إلى خير . ثم أصبحت الدنيا أشد ظلاما . ونتوهمها نحن نورا ينبثق . والتوهم مفض

---

(١) الفِتْر : مسافة مابين السبَّابة والإبهام .

أبدا إلى أفحش الشر . المعرفة بناؤها على الصدق ، والتوهم عماده الكذب . ولا فلاح لشيء إلا بالصدق وحده .

لقد طرأت على هذا العالم العربى والإسلامى طوارئ ، فإذا لم يصدق نفسه فلا نجاة له . واحتوشته (١) الأمم المفترسة بأساليبها الظاهرة والخفية ، فإذا لم يصدق النظر فلا خلاص له . لست قانطا ولا مقنطا . كما يتوهم من يحب أن يتوهم . ولكنى أرى بلاء نازلًا بنا . ونحن نخوضه كأنه رحمة مهداة . وبئس ما نفعل ؟ وبئس مطية الأعمال الكذب .

من حيث أتلفت أرى وجوها تكذب ، ووجوها مكذوبا عليها . وأسمع أصواتا تخدع ، وآذانا مخدوعة بما تسمع . وأقرأ كلاما غمس فى النفاق وفى التغرير غمسا .

وألمح فى عيون المساكين ممن قرأوه غفلة تتلألأ بفرحة ولكنها فرحة لا تتم عليها إلا بالعمى المطبق عن الحق والصواب . إن هذا كله إعداد للمجزرة الكبرى . حيث تذبح الآلاف المؤلفة منا بمدى حداد اسْتُخْرِج حديدها من معدن القلوب المضطغنة بالعصبية ، المنهومة بالمنفعة . وأَمْهاها (٢) ماء الحقد الصليبى الوثنى ، وأرهفت بلذة الفتك الذى لا تطفأ ناره .

إن الذى نعيش فيه اليوم حياة قد مهد لها جبابرة الدهاة ؛ لا أقول منذ عام أو عامين ، بل منذ أكثر من مئتى عام . حطم كل شيء قليلا قليلا حتى خر البناء كله . ثم انبعثت من تحت الأنقاض حيات خبيثة تلبس إهاب البشر . غُذِيَت بالسم الذعاف حتى صارت لحمًا وسما . لا لحمًا ودمًا ؛ ولا يعنيك أو يعنينى أن ننظر : أهى تعرف نفسها وتدرك أنها مسخت أفاعى فى مِسْلاخ (٣) إنسان ، أم تراها لا تعرف ولاتدرك ؟ ليس يعنينى هذا ولا يعنيك ؛ بل يعنينا – ويعنيها هى أيضًا – أن نصدق المعرفة أنها حيات تنفث سمها فى حياة الناس ؛ فى حياة الغافلين النائمين . فمن استعصى عليها فتكت به ؛ ومن أطاع لسمها مسخ كمثلها

(١) احتوشته : أحاطت به من كل جانب واجتمعت عليه .

(٢) أمهاها : أَحَدَّها وصقلها . (٣) المِسلاخ : الجِلْد .

حية تسعى . فإذا قدر لهذه الحيات أن تبلغ الغاية التى مسخت لها ؛ فلن يتم ذلك حتى تكون الأرض العربية والإسلامية كلها خرابًا من البشر الأحرار ؛ خرابا تعمره العُمَّار من أفاع وحيات وأصلال [١] .

من مخافة هذا اليوم كنت أكتب قديمًا ماستطاع هذا القلم أن يكتب ، ثم وجدتنى فجأة فى موج متلاطم من الضلالات ، تتقاذفه ضلالات العلم المكذوب ، وضلالات الرأى المدلس ، وضلالات السياسة الخداعة . وإذا الأرض من حولى تعج بترتيل مظلم مخبول ؛ وإذا السماء من فوقى تهتف بتسبيح كالح مزور ؛ وإذا صوتى يضيع فى سمعى ؛ فهو إذن فى أسماع الناس أضيع ؛ وتردد فى صدرى شعر الحكمى ؛ فاستمعت له وسكت :

مت بداء الصمت خير لك عن داء الكلام
إنما السالم من ألجم فاه بلجام

فلما دعوتنى فأجبت ، انقلبت أسائل نفسى : فيم أكتب ؟ فيم العناء والنصب ؟ علام أزهق أيامى فى باطل لا ينقشع ؟ إن بينى وبين الأسماع والأبصار والقلوب ، حجابا صاخبًا من غماغم الدجاجلة ، وهماهم الأفاكين ، وثغاء أهل [٢] الغش ، وضغاء [٣] أخدان النفاق ... ويذهب قولى باطلا ويضيع صوتى مختنقا ، ولم أجن عندئذ من حياتى إلا شقاء يقول فيه القائل : « إن الشقىَّ بكل حبل يُخْنَقُ » ، حتى حبل الحق والصدق ! حتى حبل الحق والصدق ! .. وإنك لتعلم : أن لو أنى عرفت للكتابة ثمرة ، لما توقفت ساعة ، ولما أبطأت دون ما وجب على .

بأى لسان أستطيع أن أفتق للناس أسماعا غير الأسماع التى طمها الكذب المسموع ؟ وبأى قلم أستطيع أن أسلخ عن العيون غشاوة صفيقة لبسها بها

---

(١) العُمّار : أراد بها أستاذنا الحَيَّات التى تسكن البيوت ، وفى حديث قتل الحيات « إن لهذه البيوت عَوامِر » ، أى حَيَّات ، ثم فصَّل أستاذنا أنواعها من أفاع ، وحيات ، وأَصْلال ، وهذه الأخيرة جمع صِلّ .

(٢) الثُّغاء : صوت الغَنَم والظباء وما شاكلها .

(٣) الضُغاء : صوت الذئب والثعلب والحيات ، واستعير للإنسان .

الكذب المكتوب ؟ وبأى صوت أستطيع أن أنفذ إلى قلوب ضرب عليها نطاق من الكذب المسموع والمكتوب ؟ بأى لسان ، وبأى قلم ، وبأى صوت ؟ ولكنه ، على ذلك كله واجب ، وإن كان جهدا لا ثمرة له ! وهو كذلك ، وإذن فليس لى أن أسأل نفسى : فيم أكتب ؟ ولم هذا العناء والنصب ؟ وعلام أزهق أيامى فى باطل لا ينقشع ؟

وإذن فقد كُتب على أن أنصب وجهى لهذا الشقاء الصَّيْخود ، لا أبالى أن أحترق ، ولا أحفل أن أعود سالما ، ولا آبه لما يصيبنى ، مادام حقا علىّ أداؤه .

إنها أيام بلاء ومحنة من عدونا حيث بلغ منا كل مبلغ ، ومن أنفسنا ، حيث صار كل امرئ منا عدو نفسه وعقله ، عدو تاريخه وماضيه ، عدو مستقبله من حيث يدرى ولا يدرى . إنها أيام ضلال وفتنة ، تدع الحليم الركين حيران بلا حلم ولا ركانة ، تدع البصير المهتدى أعمى بل بصر ولا هداية ، تدع الصادق الحازم غفلا بلا صدق ولا حزامة . ولكنها على ذلك كله ، كُتِبت على الحليم الركين ، وعلى البصير المهتدى ، وعلى الصادق الحازم – أن يعيش فى شقائها بلا ملل ، وأن يكون فيها كما قال شاعر الخوارج ، عمران بن حطان ، فى أهل الدنيا :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجُوَّعُ

فمنذ حملت إليك هذا القلم ، استجابة لدعوة لم أجد ردها من الأدب ولا من الوفاء فى شىء ، عرفت أنى سوف أكتب كما كتبت قديما ، لأتعجل انبعاث رجل من غمار أربعمائة مليون من العرب والمسلمين ، تسمع يومئذ لحكمته الأجنة فى بطون أمهاتها ، وتهتدى بهديه الذرارى فى أصلاب الآباء والأمهات .

ولكنك بعد ، قد أنزلتنى بحيث يقول القائل :

حيث طابت شرائع الموت ، والمو
تُ مرارا يكون عذب الحِياضِ

فأنا إن شاء الله بحيث أحببت لى أن أنزل ، والسلام

* * *

أبصر طريقك (١)

منذ ظهر دين الله فى الأرض ، وتدافعت أمواجه شمالا وجنوبا وشرقًا وغربًا ، وضرب تياره أسوار العالم المحيط به ، وطهر بلادًا كثيرة وغسلها مما فيها من الشرك والكفر والإهلال لغير الله سبحانه ، أخذت تتجمع فى أطرافه عداوة لا تنام ، وبقيت هذه العداوة تنازل جنود الله عامًا بعد عام فى ثغور الإسلام . ثم احتشدت هذه العداوات المتفرقة فى الثغور حشدا واحدا ، بدأت به الغزوات المتلاحقة التى عرفت فى التاريخ باسم الحرب الصليبية . وظلت هذه الحروب مشبوبة قرونا طويلة ، وأداتها السلاح والجيوش والمواقع .

ثم انتهت حرب السلاح والجيوش ، إذ وضع العالم الإسلامى سلاحه ، بل أصح من ذلك ، أن العالم الإسلامى يومئذ لم يكن معه سلاح يضعه أو يرفعه . وإذا كان فيه سلاح ، فهو سلاح لا يغنى عنه فى لقاء هذه الأسلحة الجديدة التى جاءت مع الغزاة . ومن يومئذ انتقلت الحرب الصليبية من ميادين القتال إلى ميدان آخر : هو الحياة نفسها !

كانت خطة الحرب الصليبية الجديدة ، هو دك الحياة الإسلامية كلها : تدك بناء هذه الحياة ، وتدك علمها ، وتدك آدابها ، وتدك أخلاقها ، وتدك تاريخها ، وتدك لغتها ، وتدك ماضيها . وفى خلال ذلك ينشأ بناء جديد لهذه الحياة ، بعلم غير العلم الأول ، وأدب غير الأدب ، وأخلاق غير الأخلاق ، وتاريخ غير التاريخ ، ولغة غير اللغة ، وماض غير الماضى . ويأتى يوم فإذا الهزيمة واقعة كما وقعت فى الميادين . ويصبح العالم الإسلامى وليس معه من الحياة التى كان بها عالما

---

* الرسالة ، السنة الحادية والعشرون (العدد ١٠٢٠) ، ١٩ يناير ١٩٥٣ ، ص : ٨٩ - ٩١

(١) جاءت هذه العبارة فى عجز بيت لمُضَرِّس بن رِبْعِىّ :

* أَبْصِرْ طَرِيقَكَ لا يَشْخَصْ بكَ البَصَرُ *

صحيحا ، إلا بقايا لا تغنى عنه ، كما أصبح يوما فى ميدان الحرب ، ومعه بقايا أسلحة لا تغنى عنه شيئا .

جاءت الغزوات الصليبية الجديدة متلاحقة سريعة نفاذة تنشر طلائعها الأولى فى كل مكان ، مزودة بالفهم والإدراك والمعرفة ، بطبيعة هذا الميدان الجديد ، فتلقى قوما قد سلبوا الفهم والإدراك والمعرفة لطبيعة هذا الميدان . ولكنهم كانوا بفطرتهم يعلمون أن هذه الطلائع عدو لهم ، فقاومهم من قاومهم بما تستثيره الفطرة من بغض العدو والشك فيه ، وإن جاء فى ثوب المسالم والناصح . وتهاوى آخرون ، فوقعوا فى حوزة العدو ، إذ غرتهم مسالمته وخدعهم نصحه ، وظلت هذه الحروب دائرة بيننا وبينهم أكثر من مئة وخمسين عاما ، فى سكون وصمت ، ولجاجة وحرص ، وقوة وحذر ، ومعرفة وبصر ، حتى بلغ العدو منا مبلغا لم يكن فى أول الأمر يظن أنه يبلغه . فقد تهاوى البناء كله فجأة . وأصبحت الحياة الإسلامية أطلالا يناديها الفناء فتجيب بلا مقاومة ولا عناد .

ذهب كل شيء يكون للحياة البشرية قواما وعمادا : ذهب العلم والأدب والأخلاق واللغة والتاريخ ، وجاءه الغزاة بما يحل مكانه من علم وأدب وأخلاق ولغة وتاريخ . ذهب الذى كان ينبع نبعه من كتاب الله ، ومن حياة الأمة المسلمة، وسنة رسوله ، وجاء الذى ينبع نبعه من الحياة الوثنية القديمة ، ومن المسيحية المحدثة ، ذهب الذى كان يتحدر إلينا كما تتحدر الوارثات من أصلاب الآباء إلى أصلاب الأبناء ، وجاء الذى يتحدر إلينا كما يتحدر السيل الجارف لا يبقى ولا يذر . ذهب شيء وجاء شيء ، فتغير نظرنا وفكرنا ، وتغير إدراكنا ومعرفتنا ، وتغير شعورنا وإحساسنا ، وتغير لساننا وبياننا . فعدنا ننظر فى الكتاب الذى هو كتابنا ، وأخبار النبى الذى هو نبينا ، وآثار الماضين الذين هم آباؤنا ، فأنكرنا ما وجدنا فى ذلك كله ، فطرحه منا من طرحه وراء ظهره ولم يبال به ، وتهيب منا من تهيب فوقف لا يدرى ماذا يفعل ، وبقيت طائفة لا تطرح ولا تتهيب ، فطلبت مخرجا من هذا الشيء الذى تنكره إنكارًا خفيفا ، وهو فى هذه الصورة التى جاء عليها من التراث الماضى . فرأت المخرج فى تجديد التراث

الماضى تجديدا مقاربا ، يطابق الحياة الجديدة من وجوه ، وينكر الحياة القديمة من وجوه أخرى .

ومن يومئذ انقسم العالم العربى والإسلامى إلى طائفتين : طائفة منكرة لا تعبأ شيئا بالحياة الماضية كلها ، وطائفة لم يبلغ بها الإنكار أن لا تعبأ ، فالتمست تجديد الحياة الماضية على أسس جديدة . وإذا هذه الأسس التى تريد أن تؤسس عليها ، هى فى جوهرها مستمدة كلها من الحياة التى أنشأها الغازى الصليبى بين ظهرانينا .

* * *

هذه صورة مصغرة للحياة فى العالم الإسلامى الحاضر . لا يدركها المرء حتى يعلم أن العالم الإسلامى مقبل على خطر أبشع من خطر الغزو الصليبى الأول بالسلاح ، مقبل على هزيمة منكرة تكون عاقبتها تبديل الإسلام تبديلا كاملا حتى لا يبقى له من ظل الحق إلا ما بقى من ظل المسيحية الحقة فى العالم المسيحى الحاضر .

ودعاة هذا التبديل ، علموا أو لم يعلموا ، قد تعاووا فى كل مكان باسم الدفاع عن الإسلام ، وباسم إحياء الإسلام ، وباسم تجديد الإسلام . وهم يعملون جاهدين على أن ينشروا دينهم الجديد - كما ينبغى أن يسمى - بجميع الوسائل التى يظنون أنها تفضى بهم إلى الدفاع عن الإسلام أو إحيائه أو تجديده . وهم على مر الزمن ، سوف يتركون آثارا عميقة فى حياة العالم الإسلامى الحاضر ، وسيتبعهم تابعون يقتفون آثارهم ، مبعدين عن النهج الأول الذى بنى عليه هذا الإسلام الذى يدافعون عنه أو يحيونه أو يجددونه ! بل إن هؤلاء أنفسهم قد كانوا خلفاء لجيل سبق من قبلهم ، أعمته الحياة التى بهرت عينيه وزلزلت عقائده ، فطلب كما يطلبون ، الدفاع عن الإسلام وإحياءه وتجديده ، على أسس لم يستمد أصلها من الحق الذى فى دينه ، بل من أصل بعيد هو الحياة التى يحياها العالم الصليبى الذى غلب وقهر وظهر مجده فى هذه الأرض .

إن هذا الوباء الذى يجتاح العقل الإسلامى والحياة الإسلامية ، قد نفذ إلى

كل ركن فى هذا العالم ، وسارت حُمَيَّاه سَوْرَة مستبدة بكثير من رؤوس الدعاة . وانطلقت الألسنة مسرعة تريد أن تبنى بناء عقليا جديدا لهذا الإسلام الذى تهدم بناؤه القديم ، فما تجد لسانا إلا وهو يرسل طوفانا من الكلام بلا حذر ولا توقف ، وكل لسان يرى فى الذى يرسله مادة صحيحة لبناء هذا العالم المتهدم . وأصبح كل داعية إماماً يقتدى به . والمقتدون به لا يعلمون شيئا إلا أن هذا السيل المرسل عليهم ، ليس إلا أصلا صحيحا من أصول هذا الإسلام الذى يدعوهم إليه . وكل داعية يظن نفسه ينبوعا يروى الظامئين ، يسألونه فيجيب ، فيطوفون به طواف الوثنى بالصنم . مادة علمهم أن يستمدوا منه ما يجود عليهم به . ولا يجد أحدهم متسعا أن يلتمس علمه إلا من فيض لسان هذا الإمام الداعى . والإمام مشغول بالتماس المعانى التى يفيضها عليهم ، وهم لا يسألونه من أين يأتى بها . وكل داعية مشغول بإعداد المادة لمن يتبعه ، لا يحذر ولا يخاف ولا يتحرى . وكل داعية مشغول عن الداعية الآخر ، لا ينظر فىأمره ولا يتعقبه ولا يقول له من أين جئت بهذا . بل لعله يغفل عن أفسد الفساد فى قوله وفعله ، وأقبح القبح الذى يبثه فى أتباعه ، لأنه يقول لنفسه إننا مشغولون جميعا برم هذا البناء الذى تهدم ، بل ببناء شيء هو خير من الذى تهدم . وكل داعية منهم هو فى الحقيقة منكر للحياة الأولى للإسلام ، ولكنه يريد أن يقاوم الفناء بأن يستخرج من نواحى هذه الحياة ما يقنع هو به ، ويقنع بعض الناس به : إن فى ماضى الإسلام ما يمكن أن يكون مماثلا للحياة الحاضرة ، أو تصحيحا لبعض أخطاء الحياة الحاضرة . بيد أنه لا يصل إلى ذلك إلا بنظره هو ، وتفكيره هو ، بصورة يرتضيها هو ، ولا يبالى أن يكون استدلاله فى غير موضعه ، ولا أن يكون فكره قد فسر الأشياء على غير ما ينبغى أن تكون عليه ، أو على غير ما كانت عليه .

فأعمال هؤلاء الدعاة ، ليست فى الحقيقة إلا ضربا من هذيان هذا الوباء المقرون بالحمى ، ليس له أصل إلا فورة الدم فى المحموم . فإذا استمر أمر الإسلام على هذا الذى نراه ، فقد انتهى كل شيء . وإذا قدر لهذا العالم الإسلامى أن تعتزل طائفة منه هذا الخبل الخابل ، لتعيد النظر فى الأصول الصحيحة لدينها ،

والتى لقى بها هذا الدين عالم الشرك والكفر فدكه ومزقه ، وأقام فيه بناءً قاوم الفناء ثلاثة عشر قرنا ، فيومئذ تبدأ المرحلة الأولى لجهاد طويل شاق ، يتحدى طواغيت الكفر بإيمان صحيح ، لا تشوبه شائبة من هوى أصحاب الأهواء ، بل هو طاعة الله ورسوله ، لا يغنى غيرها شىء يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأعود فأقول : من ظن هذا تشاؤما وتثبيطا فليظن ما شاء له الظن ! وليس يغنى عن الأعمى شيئا أن تقول له أنت مبصر بعينين لماحتين ، ولا عن المغروس فى حومة الهلاك أن تقنعه بأنه خالد ليس للموت عليه سلطان .

* * *

باطل مشرق

لم أكد أفرغ لنفسى ، وأنفض عن فكرى مثاقل الهم الفادح الذى أتحمله إذا كتبت فى شأن هذه الأمم المسلمة – حتى دخلتُ فى خلوتى أيام وليالٍ ، تعلمنى أن الباطل المشرق ، صنو الباطل المظلم البهيم . بل إن الباطل المشرق أضرى وأفتك بالبشر من صنوه وأخيه المظلم . للباطل المظلم ردة ، كَرَدَّة الوجه القبيح [١] ، يزوى لها الناظر ما بين عينيه ، ويرد بصره معرضا عما يرى فيه من قبح . أما الباطل المشرق المضىء ، فله فتنة تنادى ، كفتنة وجه الحسناء الخبيثة المنبت ، تأخذ بعين الناظر ، فيقبل عليها ملقيا بنفسه فى مهالك هذا الجمال الآسر ، وإذا المنبت الخبيث درة مستهلكة فى هذا التيار المترقرق من فتن الحسن والهوى .

وهذه الرقعة المتراحبة من حدود الصين إلى المغرب الأقصى – والتى تسكنها أمم ورثت اسم الإسلام ، فنسبت إليه ؛ ووصفت به – تعيش اليوم فى بريق متلالئ من هذا الباطل المشرق . فمنذ أكثر من مئتى سنة ، ضربها الغازى الصليبى المستعمر ضربة رابية [٢] ، حتى خرت عاجزة ، ثم ظل يضربها حتى همدت أو كادت . وفى خلال ذلك كان الغازى يستحييها بحياة غريبة عنها حتى يأتى يوم تتبدل فيه من حياة كانت إلى حياة سوف تكون . وكذلك يقضى قضاء ساحقا على أسباب الحياة الأولى ، الحياة التى كانت تعرف بالحياة الإسلامية .

ثم جاء اليوم الذى ظن فيه هذا العالم أنه ارتد إلى الحياة مرة أخرى . ونعم ، إنه ارتد إلى حياة مرة أخرى ، ولكن أى حياة ! ما على الآلاف المؤلفة التى تدب فى أرجاء هذا العالم من مثل هذا السؤال ؟

---

* الرسالة ، السنة الحادية والعشرون (العدد ١٠٢٢) ، ٢ فبراير ١٩٥٣ ، ص : ١٦٤ – ١٦٦

(١) الرَّدَّة : يقال فى فلان رَدَّة ، أى يرتدّ البصر عنه من قبحه ، وأصل الرَّدَّة تَقَاعُس فى الذقن .

(٢) رابية : شديدة .

إن حب البقاء فى الحى الفرد ، أقوى من العقل ، أقوى من حب المعرفة ، أقوى من حب المال . فإذا ظفر بالبقاء على أمه الأرض ، فقلما يبالى بشىء غير هذا البقاء . ولكن الحياة الإنسانية مجتمعة لا تستقيم بحب البقاء وحده . فالاجتماع الذى يضم هؤلاء الأحياء المتشبثين بالبقاء ، يحدث لهم ضروبا جديدة من الأمانى والآمال والمطامح ، تغلب هذا الحب الخفى للبقاء المجرد فى الفرد ، وتنشىء فيهم حبًّا لبقاء آخر : هو بقاء حياة الجماعة ، من حياة أنشأها الإلف والتعود ، وحياة تنشئها الأمانى فى حياة أتم وأكمل وأمجد . والنزاع بين حياة الإلف والتعود ، وحياة الأمانى فى الكمال والمجد ، نزاع عنيف ، وهو على عنفه أمر غامض فى نفوس عامة أفراد المجتمع ، لأنه يقوم على أمانى مبهمة دائما فى أول أمرها . ولا تستبين هذه الأمانى إلا فى فئة قليلة ، تملك من القدرة على النظر ، وعلى التأمل ، وعلى البيان عن نظرها وتأملها ، قسطا يتيح لها أن تحاول التعبير عن هذه الأمانى ، تعبيرا يخرجها من حيز الأمر المبهم إلى حيز الأمر البين .

فمن هذا المدخل يدخل على الجماهير أحد رجلين : إما رجل عاقل صادق يحسن النظر والتأمل والبيان ، وإما رجل ذكى قادر يموه عليهم بالنظر والتأمل والبيان . أحدهما عارف يصدق الناس ولا يبالى ، والآخر دجال يلعب بالناس ولا يبالى . أحدهما لا يأخذهم إلا بالوسائل التى تقوم على الصدق والعدل والحق ، والآخر يأخذهم بكل وسيلة لا يعبأ بصدق ولا عدل ولا حق . أحدهما يعلم الناس معنى هذه الأمانى المبهمة فى أنفسهم ، كما ينبغى لكل تَعَلُّم ، من جهد ومشقة وحذر وبصر . والآخر يعلمهم معنى هذه الأمانى المبهمة فى أنفسهم ، بما يستثيره فيهم ، وما يستغله من نزوعهم وتلهفهم ، لا يأبه لشىء إلا لما يستخفهم إلى اتباعه وطاعته وتمجيده .

فالحرية مثلا سوق تهوى إليه نفوس المستعبدين . كلمة مبهمة تعيش فى سر نفوسهم كالقبس المكفوف ، لو كشف غطاؤه لأضاء . فالرجل الصادق يعلم النفوس معنى الحرية ، ويكسبها من وسائل تعلُّمها ما لا بد لها منه من صدق وعزيمة وجد ومشقة وبصر ، حتى تتهاوى الجدران التى تحول بينها وبين

الانطلاق ، وتنفض الأغلال الثقيلة الغليظة التى تعوق الحى عن إدراك حريته . أما الدجال ، فهو لا يزال يصرخ فيهم باسم الحرية ، ثم لا يمنح الناس من وسائلها إلا كل وسيلة لا تغنى شيئًا فى كفاح الجدران والأغلال ، بل ربما زادت الجدران صفاقة وقوة ، والأغلال ثقلا وغلظا وفداحة . فهذا هو الباطل المشرق ، لأنه يأتى الناس من حيث تهوى أفئدتهم معنى مبهما غامضًا كريما ، فيموه هذا المعنى بما شاء من تمويه ، ليسير الناس وراءه كما هم عميًا صمًّا ، لا ليعلِّم الناس حقا يطلبونه ويحرصون عليه ويزدادون معه على الأيام بصرًا وإدراكا .

وهذا العالم الإسلامى الذى يموج اليوم موجه ، ينبح فى نواحيه هذا الباطل المشرق ينبح فى السياسة ، وفى العلم ، وفى الأدب ، وفى الفن ، وفى الأخلاق ، وفى جماع ذلك كله : فى الدين . هو عالم مستغل ، يستخفه الدعاة والدجاجلة ، يهتبلون غفلته فى هذه الحياة التى ظن أنه ارتد إليها بعد همود ، ويختلسون نفضة هذا الشوق المضطرم إلى أمان مبهمة غامضة . ويتولى قيادته فى كل شأنه ألسنة لا تبالى ، تستفزه إلى المغامرة فى سبيل الحياة الماجدة الطيبة التى تجيش فيه . تستفزه بالنداء الصارخ باسم هذه المعانى المبهمة فى ضميره ، وتعطيه وسائل وأساليب يظنها معينة له على إدراك ما يشتاق إليه ، وهى فى الحقيقة مفضية به إلى التمرغ فى حمأة الجهالة والعبودية والغرور الكاذب ، إلى أن يقضى الله فى الناس بأمره وقضائه .

وأخطر هذه الألسنة التى تستفز هذا العالم ، هى الألسنة التى اتخذت كلمة الإسلام لغوًا على عَذَباتها [١] - لا لأنها أعظم شأنًا وأعز سلطانا من الألسنة الأخرى ، ألسنة المموهين باسم الحرية ، واسم العلم ، واسم الفن ، واسم الأخلاق ، بل لأنها تعمد إلى كتاب أنزله الله بلاغا للناس ، وحكمة أوحيت إلى رسوله لتكون نبراسا للمهتدين ، فتحيلهما إلى معان من أهواء النفوس التى لا تعرف الحق إلا فى إطار من ضلالاتها وأوهامها . ثم يتبعهم التابعون الجاهلون اتباعا ، هو

---

(١) العذبات هنا : أطراف الألسنة ، وأصل العَذَبَة : طرف السَّوْط .

سَمْعٌ وطاعة ، لكن لغير الله ورسوله ، بل للزور المدلس على كتاب الله وسنة رسوله . وإذا هؤلاء المتبعون يعدون هذه الضلالة دينا ، ويظنون هذا الدين الجديد إحياء للإسلام . وإذا هم يأخذون دينهم من حيث نهوا أن يأخذوا . يأخذونه عن مبتدع فى الدين برأيه ، محيل لنصوصه بفساد نشأته ، مبدل لكلماته بهوى فى نفسه ، محرف للكلم عن مواضعه بما يشتهى وما يحب ، مختلس لعواطف الناس بما فيه من حب اتباعهم له ، خادع لعقولهم برفعة الإسلام ومجد الإسلام ، وهو لا يبغى الرفعة والمجد إلا لنفسه .

ولقد أنبأنا معاذ بن جبل رضى الله عنه بصفة ما نحن فيه إذ قال يوما لأصحابه : « إن من ورائكم فتنا يكثر فيها المال ، ويفتح فيها القرآن ، حتى يأخذه المؤمن والمنافق ، والرجل والمرأة ، والصغير والكبير ، والعبد والحر ، فيوشك قائل أن يقول : ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن ؟ ما هم بمتبعى حتى أبتدع لهم غيره . فإياكم وما ابتدع ، فإن ما ابتدع ضلالة . وأحذركم زيغة الحكيم ، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلال على لسان الحكيم . وقد يقول المنافق كلمة الحق . قال له يزيد بن عميرة أحد أصحابه : ما يدرينى رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق ؟ قال معاذ : بلى ! اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التى يقال لها : ما هذه ؟ ولا يثنينَّك ذلك عنه ، فإنه لعله يراجع . وتَلَقَّ الحق إذا سمعته ، فإن على الحق نورا » .

وقد فُتِح القرآن ، فأخذته الألسنة كلها من مؤمن ومنافق ، ومن صغير وكبير ، وكل يقول برأيه لا يختشى ولا يرهب ولا يتقى . وظهر فى كل أرض من يقول لنفسه : ما للناس لا يتبعونى وقد قرأت القرآن ؟ ثم يعود من نحسه وشؤمه ، يجمع كل خسيسة من البدع التى تميل إليها نفوس الجاهلين الغافلين ، وتهوى إليها أفئدة الذاهلين المفتونين بالحب لكل جديد مبتدع . وهو فى كل ذلك يعلم أن المبتدع فى كل شىء له لذة الجدة ، ويعلم أن الناس يشتاقون إلى أمر مبهم فى نفوسهم ، هو استعادة مجد دينهم ، ونشر كلمته فى الأرض ، فلا يبالى أن يشرع لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فيؤتيهم ما يطابق ما يراه من أشواقهم ، ويزين لهم أن بلاغ ما يشتاقون إليه قريب ، إذا هم اتبعوه إلى الغاية . وأن شرط بلاغه أن يعطوه

السمع والطاعة له ولمن يصطفيهم من شيعته ودعاته . فإذا تم أن تجتمع عليه طائفة من الناس ، وظهر بهم أمره ، وظنوا أنهم بلغوا بعض ما مناهم لسانه ولسان شيعته ودعاته ، قالوا إن الإسلام هو هذا الذى ندعو إليه ، وإن طريق الحق طريقنا وحده ، وإن الإسلام فى غير الإطار الجديد الذى وضعناه فيه ليس من الحق فى شىء ، وإن هذا الفهم الجديد للإسلام هو خلاص المسلمين من هذه الذلة التى ضربها عليهم الغازى الصليبى . ثم تنشق رَدَغَة هذا الخَبال [١] ، عن صنوف مختلفة من الفساد المهلك ، تجعل تاريخ الماضى كله ضربًا من الحياة الفاسدة ، لا ينبغى لأحد من الناس أن يتلفت إليه إلا تلفت المزدرى المستنكف . وعندئذ يصبح الدين فى أذهان الجماهير المتبعة ، رسالة جديدة لها رسولها وحواريوها ودعاتها وشهداؤها . وإلى بيان هذه الرسالة تعود الجماهير ، لا إلى كتاب الله ولا إلى سنة رسوله ، نعم ، بل إلى تفسير هذا الكتاب وهذه السنة كما يراها لهم طواغيتهم من كهوف التبديل والتحريف والتأويل بالهوى والضلالة . وعندئذ يتم تبديل معنى الإسلام فى الناس ، ويتم للدجال أن يبتدع بهواه إلى طب فى أهوائهم كتابًا غير كتاب الله . ولولا أن الله قد ضمن لنا حفظ نص كتابه ، وحفظ نص البيان عنه فى سنة رسوله لفعل هذا وأشياعه ما فعل أسلافهم ممن بدلوا كتب الله وحرفوها ، ومحوا منها وأثبتوا ، ونقصوا فيها وزادوا .

لولا هذا الذى نخافه ، بل هذا الذى كان مما نخافه ، لما عددت هؤلاء أشد خطرا من الألسنة التى تموه على الجماهير الجاهلة الغافلة باسم الحرية ، واسم العلم ، واسم الفن ، واسم الأخلاق . فطريقهما فى الحقيقة واحد ، ومنشؤهما واحد ، ونتائجهما واحدة ، فى التغرير بالناس ، والعبث بعقولهم ، والإفساد لفطرتهم ، واللعب بعواطفهم ، وإيهامهم أن نجاتهم من عبودية الغزاة أمر قريب لا يكلفهم إلا أن يسمعوا لمن يقول لهم : كونوا أحرارا ، فإذا هم سادة أحرار كما ولدتهم أمهاتهم !

---

(١) رَدَغَة الخبال : جاء فى الحديث « مَن قال فى مؤمن ماليس فيه حبسه الله فى رَدَغَة الخبال » ، أى عُصارَة أهل النار ، كما قيل فى تفسيره ، وأصل الرَّدَغة : الطِّين .

اللهم إنى أبرأ إليك مما نحن فيه . اللهم إنى أخوف الناس مما خوفهم منه عبدك ورسولك إذ يقول : « أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان » . اللهم إنى أقول كما قال صاحب رسولك معاذ بن جبل : « الله حكم قسط ، هلك المرتابون ! » .

* * *

غرارة ملقاة

إليك عنى ، أيتها النفس ، فأنا وأنت كما قال عبيد بن الأبرص :

إذا أنت حَمَّلتَ الخَؤون أمانةً فإنك قد أَسْندتها شَرَّ مُسْنَدِ

وقد أبيتِ عليَّ أن أكتب ما كنت أريد ، لأنك أردتِ أن تكونى لى على غير عهدى بك منذ ساعات قلائل . فدعينى أحدث عنك بما أسررت من مضمر أو مكنون .

ما كدت أجلس إلى مكتبى حتى تبعثرت خواطرى ، وتهاربت منى أفكارى ، وانتشرت على عزيمتى ، وتفرقت عنى إرادتى ، وتطايرت فى الآفاق سواكن نفسى ، وغادرتنى همتى ، وكأنى غرارة ملقاة على مدب الحياة . وربما هجس فى نفسى الهاجس ، فما أكاد أقول : هذا هو ! حتى أجدنى على جناح أمر آخر ، وإذا بينهما مسيرة ما بين مشرق الشمس ومغربها . فأين المفر ! وكيف القرار ! لا أين ولا كيف ! بل ألتمس مذهبا لا غاية له ، لعلى واجد فيه بعض ما أسرى به حيرتى : أن أقيد ما يعن لى - أم ينبغى أن أقول : أن أقيد ما أعن أنا له - على عجل ، وبلا ترتيب ، وكما يتفق .

ولكن ما نفع هذا لك أنت أيها القارئ ؟ هل يعنيك شيئا أن تطلع على حيرة نفس فى ساعة من حياتها ؛ أم هل يجدى عليك أن تطلع ؟ بل مالى ولك ! أترانى أكتب لأنفعك ؟ ما أسخف هذا ! وماذا عندى مما تنتفع به ؟ كيف أستطيع أن أدعى أنى أنفع بالذى أكتب آلافا من القراء مثلك ؟ وأنى لى علم هذا السحر : أن أجمع فى أسطر معدودات حاجة كل نفس ؟ أو ليس من السخف ، ومن الغرور أيضا ، أن يزعم امرؤ أنه يملك القدرة على نفع أحد ، فضلا عن آلاف ؟ وما أملك إلا أن أصارحك بأنى ما كتبت قط إلا لنفسى وحدها ، ثم لا ألبث أن أعرض عليك ما أكتب - لا لأعلمك أو أنفعك ، بل لتعرف كيف يفكر إنسان مثلك !

---

* الرسالة ، السنة الحادية والعشرون (العدد ١٠٢٥) ، ٢٣ فبراير ١٩٥٣ ، ص : ٢٨٩ - ٢٩٢

وكيف يخطئ وكيف يصيب ! وكيف يصدق وكيف يخون ؟ فإذا كان ذلك كذلك فلا بأس عليك إذن ، إذا تصفحتنى فى ساعة من شتاتى وحيرتى ، كما تتصفحنى فى ساعة هدأتى وسكينتى .

* * *

كيف ! هل يمكن هذا ؟ هل يمكن أن يصبح الإنسان غرارة ملقاة على مدب الحياة ، ثم هى إنسان يحس بالحياة وأحيائها يمرون عليه غادين أو رائحين . هذا واطئ يطؤه ، وهذا مقتحم يقتحمه ، وهذا ذاهل عنه وفى عينيه نظرة المتأمل ، وهذا متلفت إليه يرمقه كالمتعجب ! وكلهم لا يبالى . وهو أيضا لا يبالى أن يكون ما كان : غرارة ملقاة على مدب الحياة والأحياء .

وما دامت الغرارة الملقاة تحس بالحياة وأحيائها يمرون عليها غادين أو رائحين ، أفليس هذا حسبها من الحياة وأحيائها ؟ وما الحياة ؟ هل الحياة إلا إحساس محض ؟ إحساس بالألم ، وإحساس باللذة . إحساس بالرضى ، وإحساس بالسخط . إحساس بالجمال ، وإحساس بالقبح . إحساس بالنور ، وإحساس بالظلام . إحساس بالشبع ، وإحساس بالجوع . إحساس بالحلو ، وإحساس بالمر . إحساس بالشذا الطيب ، وإحساس باللخن [١] الكريه . إحساس مجرد مرهف نافذ لا يعوق نفاذه شىء . إحساس حر كشعاع الشمس .

أو هؤلاء الغادون والرائحون أعرق فى حس الحياة من الغرارة الملقاة على مدبها ؟ وما الحركة التى تسير بهم غادين أو رائحين ؟ أهى تزيد الإحساس وتضاعفه ، أم هى تنقص منه وتتحيفه ؟ أو ليست الحركة شاغلا يشغل عن تجريد الإحساس وإمحاض للمحسوس ؟ وأيهما أنفذ : غرارة ملقاة يستغرق حسها نابض الحركات حتى تظل حية هامدة ، أم غاد ورائح ، تتخوَّن [٢] الحركة من حسه حتى يكلّ مرهفه ويفل مضاؤه ؟

* * *

---

(١) اللَّخَن : نَتْنُ الريح عامة .

(٢) تتخوَّن : تنقص .

بل كيف يستغرق الحس الحركة ؟ يا عجبا كل العجب ! إنه أمر لا يكاد يدركه إلا من مارسه فى سريرة نفسه . لذة لا توصف ، ولكنها تعقب أحيانا ألما لا يستقر . لذة تتملَّى بها وحدك ، وإذا هى تنسرب بك إلى جنة مونقة تدلت عليك بأثمارها . أما الألم ، هو الذى يلذعك إذا روعك عن استغراق حسك طارق لم تكن تتوقعه .

أجدنى أحيانا فى أمر والناس معى ، ثم يستغرقنى عنهم حس أنفرد به ، وإذا أنا معهم ولست معهم . ثم ينبرى سائل فيسألنى عن شىء غير الذى أنا فيه ، فأنتبه كالمذعور ، ويختلط على ما أنا فيه بما سئلت عنه . وعندئذ أرى كل شىء يفر منى كأنى ما عرفته من قبل ، ويأخذنى ما قدم وما حدث ، ويخرجنى التنبه قسرا من استغراق الحس إلى حركة لم أتهيأ لها ، وتتضارب على لسانى كلمات لم أردها ، وأقول ذاهلا ، ما لو تأنيت قليلا حتى أستقر لما قلته . إنه قول منزعج عن حقيقته ، لو اطمأن لاستقام على وجهه . فمن لى بمن يحس بما أحس به ، حتى يتفق حسى وحسه ، ثم يقظتى ويقظته !

* * *

أمن الممكن حقا أن تجعل إنسانًا يحس بما تحس به ؟ باطل محض . الحس عمل متصل لاينقطع ، بعضه يأتى فى أعقاب بعض . أجل ، ليس من الممكن أن تفرغ نفس إنسان من ماضى إحساسها ، وتفرغ نفسك من سالف إحساسها ، كى تبتدئا معا ، وتسيرا معًا إلى النهاية . هذا مستحيل . وإذا استحال ، فيستحيل معه أيضا أن تجعل إنسانًا يحس بما تحس به . نعم قد يستقيم فى بعض الكلام أن تقول لأخيك : « إنى أحس بما تحس به » ، ولكنك تعنى عندئذ أنك توجهت بإحساسك إلى شىء كان إحساسه قد توجه إليه . أما لو ظننت أن إحساسك به مثل إحساسه ، فهذا باطل . وألفاظ اللغة تضلل من لا يتوقى مجاهلها .

* * *

كل امرئ منا عالَم وحده ، لأنه يحس إحساسا واحدا لا يشركه فيه أحد من بنى جلدته ، وكل امرئ منا هو فى أصل طبيعته يعيش فى خلوة تامة – فى غرفة

مغلقة الأبواب . وإذا فسدت عليه هذه الخلوة ، فسد إحساسه بالحياة وأحيائها . وإذن ، فمن الإثم والعدوان ، أن تحتال على أحد ، متوهما أنك قادر على أن تجعل إحساسه بالأشياء كإحساسك . إنك آثم لا محالة . إنك تفسده وتفسد عليه حياته . إنك تعنف به حتى يخرج من خلوة الفطرة من حرية الحس . نعم ، بل أنت تتلذذ باستلحاقه فى إحساسك ، تتلذذ بخضوع سر حريته لسطوتك ، تتلذذ تلذذا بشعا باستعباده !

* * *

باطل الأباطيل أن يحس جماعة من البشر بإحساس واحد . إنه خلط قبيح . إنه إذلال كل فرد لطاغوت مكذوب يقال له الجماعة . كل امرئ منا له حس منفرد ، يجرد للإحساس لشيء واحد ، هو ما انطوت عليه هذه الحياة الدنيا ، كما فطرها فاطر السموات والأرض ومن فيهن . والذى يجمع البشر فى هذه الحياة ، هو هذه القضية المركبة : حس ينفرد به كل امرئ منهم ، يتجرد للإحساس بعالم واحد يتعايشون فيه . العالم الواحد هو الذى يربطهم ، لا تطابق إحساسهم تطابقا تاما أو غير تام .

والإنسان ليس مدنيا بالطبع ، كما يزعم الزاعمون ، بل هو مدنى بالضرورة . والضرورة هى هذا العالم الواحد الذى نعيش فيه ، والذى لا فكاك منه إلّا بحسام المنية . هذا العالم الذى يأسرنا ، هو وحده الذى يربط بيننا ، وهو وحده الذى يؤلف بين هذه الأحياء المُحِسَّة به ، وكل حى منها منفرد بإحساسه ، مستقل به وحده .

لا يتطابق حِسَّان بإحساس واحد أبدا ، بل يتطابق حسان على الإحساس بشيء واحد ولا مفر . وهما قضيتان مختلفتان فى أصلهما ، مختلفتان فى نتيجتهما .

* * *

أنبل جهدك أن توقظ إنسانا حتى يحس ، وسبيلك أن تفطن إلى شيء واحد : هو أنك أحسست بهذا الشيء أو ذاك . فإذا فطن له وتهيأ أن يحس به ، فذلك

حسبك وناهيك . غايات الغايات : أن توقظ حسه لكى يحس . والذى لا ريب فيه ، أنه سيحس بغير الذى أحسست . هذا غاية جهد أعلم العلماء وأبلغ الأبيناء ، وهو الأمانة التى كتب عليه أن يؤديها بما آتاه الله من علم وبيان ، فإذا جاوز هذا إلى أن يحتال عليك ويختلك ويماسحك ، ثم يتلصص إلى خلوتك ليضع فيك إحساسه ، لكى تبلغا « اتحاد الإحساس » فاعلم أنه لم يزد أن أفسدك وشوهك . فاحذره . إنه يستعبدك ! إنه يميت إحساسك ! إنه يتركك تقلد الحس وأنت لا تحس ، كالببغاء تقلد الكلام وهى لا تتكلم !

هذا إثم يرتكبه كثير من الجماعات ومن أصحاب المذاهب . يزعمون إصلاح الناس ، وحقيقة فعلهم تخريب الناس ، وإماتة الإحساس الحى ، واستعباد الحس الحر المنفرد فى كل نفس . إنه تدمير الفطرة فى سبيل الجماعة ، أو فى سبيل المذهب ، أو فى سبيل الدولة ! حذار من فتك هؤلاء الفتاك ، إن جاؤوك فى ثياب النساك .

* * *

صورة الإنسان واحدة ، مذ كان الناس على الأرض . الآلاف بعد الآلاف منذ أقدم الدهر . بنية واحدة بها يعرف الجنس أنه « إنسان » ، ولكنهم متباينون ، فلا يتشابه إنسانان أبدا . وكذلك الحس أصل واحد فى كل إنسان ، ولكن يتباين الحس ، فلا يتشابه حسان أبدا ، ولا يتطابق إحساسان ألبتة .

لا حيلة لأحد حتى يستطيع أن يدمج إنسانا فى إنسان ولو رام ذلك أحد لدمرهما جميعا . أما الحس ، فبالختل يتطابق ، وبالخداع يندمج ، ختل هو القسر ، وخداع هو الاعتساف . ولا يتم ذلك إلا بتشويه الحس وتدميره . والذى هون على الناس أمر هذا التشويه والتدمير ، هو أن من الممكن أن يعيش المرء حياته بحس مدمَّر خَرِبٍ ، وإن كان مستحيلا أن يعيش بصورة مدمرة خربة .

ومن هوانه على الناس ، أن يفعله غير متحرج أكثر الآباء والأمهات ، وأكثر المعاهد والمدارس ، وأكثر الجماعات والمذاهب والدول . يدمرون حس الإنسان بالختل والخديعة ، حين يزعمون إصلاح الناس بتطابق إحساسهم واندماجه . يدمرون الحس لأنه باطن ، ولأنه لا قوام له يحول بينهم وبينه ، كما يحول قوام صورة الإنسان الظاهرة بينهم وبين ما فعلوه فى شقيقها وقرينها .

الحياة إحساس محض ، والحس حر مطلق ، فأيما مذهب أو جماعة أو دولة ، حاولت أن تدمج بالختل حسا فى حس ، وأن تطابق بالخديعة إحساسا فى إحساس ، فلا غاية لها إلا استعباد أحرار الحياة ، وتدمير سر النشأة ، وتخريب بنيان الله بأخس الأسلحة : بالكذب والمكر والتغرير والختل والخديعة والعبث . إنهم يريدون أن يجعلوا المذهب أو الجماعة أو الدولة ، طاغوتًا يعبده المضللون داعين متضرعين ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أليس هذا بحسبك بعد الذى أفضت فيه . وقد عرضت لك جانبا من خواطر نفس حائرة تتصفحها ، فتفكر وتدبر ، واحذر ما يقول القائل :

فبينما الأمر تُزْجِيه أصاغِرُه ... إذ شمَّرت فَحْمة شَهْباء تَسْتعِرُ

تَعْيَى على من يداويها مكايدُها ... عمياءُ ، ليس لها شمس ولا قمرُ

* * *